رواية

حادي العيس

البيداء

المحتويات

استدعاء ..

يا حادي العيسِ في ترحالك الأملُ "

يا حادي العيسِ قد نفنى وقد نصلُ

قد يحتوينا سهيلٌ أو يرافقنا

وقد يمدُّ لنا أبعادَه زحلُ

قد نحضنُ الفجرَ أو نحظى بقلبتِه

وقد تجفُّ على أفواهنا القبلُ

إذا انتهينا على الأيام حجّتنا

وإن وصلنا يغنّي الرحلُ والجملُ

يا حادي العيسِ -فلنرحل- هلمّ بنا

فالحائرون كثير، قبلنا رحلوا

- سيد البيد (محمد الثبيتي)

مدخل

في مكتبته العتيقة، يجلس بصعوبة.. يُمسك بالقلم، يفتح الورقة الأخيرة والمتبقية، ليثبّت نظارته وبكف تهتزّ يكتب:

(مرحبًا..

لا أعلم كيف لشخصٍ أن يكتب رسالته الأخيرة، وكيف يبدأها، كيف يثبّت القلم يمين الصفحة لينشر سواده، سواد أيامه..

لا أعلم لمن أكتب، ومن سيقرؤها، بعد كل الفقد الذي سببته لنفسي.. كلّ ما أعلمه أنّي أفنيتُ حياتي وسنين عمري كحادي العيس الذي بحّ صوته وهو منطربٌ يشدو بعيسِه وأقدامه تغوص في الصحراء دون أن يشعر، ولم يفِق من طربه إلا وهو يراها ترحل مبتعدة مع قافلةٍ دخيلة..

كنتَ تسألني وأنت صغير عن معنى (حادي العيس)، ما زلت أذكر هذا السؤال الذي انساب من فمك، ضحكتُ

يومها ورحتُ أترنّم وأهدهد وأنا أجرّك إليّ وأقول "حادي العيس هو صاحب الإبل الذي يغنّي لإبله ليلًا لتسير مع القافلة"، قد تستغرب أني ما زلتُ أذكر تفاصيلك وتفاصيلنا، لكن نعم أنا أملك ذاكرة سيئة، كل ما كبرت زادت قوة، لتذكّرني بأنانيتي.. وأنتَ تدرك ذلك أكثر مني، فلا حاجة لي هنا لأن أسرد تفاصيلنا لأثبت لك أني أحمل ذات الذاكرة السيئة.

اسمح لي الآن أن أقول لك أنا مخطئ بجوابي لك عن حادي العيس، حادي العيس يا حبيبي هو أنا، أغمض عينيك ومرّر ذاكرتك بكل أيامي معك، بحلوها ومرّها -إن مازلت تحفظ حلوها- ولأجل يومٍ ضحكت فيه من أجلي ألا تنسى أيامنا، مذ كنت جنينًا حتى خرجتَ من رحم أمك إلى قلبي، مذ كبرت وخطوت أولى خطواتك على روحي، ومذ شببت وجاء دورك لتكون أبي بعد ما كنت أباك، يا ابن قلبي وأبا شيبتي، كل ما كان.. وكل ما كنتُ عليه هو ما يكون عليه حادي العيس، وأنتَ.. وهم، ثلاثتكم، عيسى الثمينة، عيسي المفقودة..

بالمناسبة لا أعلم لمَ أخاطبك أنت الآن، على أنّي ضيّعت الكثير، وهدمتُ كل شيء، وأتلفتُ الأمانات.. إلا أني موقنٌ بأنك وحدك من قد يكترث برسالتي الهزيلة هذه، وقد أضمّنها حديثًا يتيمًا للبقية..

الموت يا ولدي مرّ مني، تخطّف أحبابي وهجرني، دائمًا ما كنتُ أتساءل مع كلّ موت يمرّ لماذا لم أكن أنا؟ لماذا يتجاوزني الموت ليسرق من أستند عليهم؟

علمتُ الجواب الآن.. كان يُلهيني الموت وأنا أراكم حولي، أحبّ الحياة والله لأنكم معي، كم كنتُ نائمًا ومغفلًا عن غدر الزمن، أجلسني على بساط الريش لأظن أني أمتلك كل شيء، وبعدما هدّني التعب يسحبه مني لأسقط ولا أجد يدًا تتلقفني، وكم كنتُ أمنّي نفسي بذراعك، قد تتساءل لماذا ذراعك بالتحديد؟ لماذا لا تكون ذراع أحدهما؟ سأقول لك الآن لماذا.. لأني طالما سحبتُ يدي من تحت رؤوسهم لأسند رأسك، كنت لا أكترث لأني أؤمن بما يربطني بهما، لكن أنت.. كنت أخشى فقدك، أخشى أن أستيقظ يومًا ولا أجدك، أن أسير إلى صلاة الجمعة دون أن أجد كفك لأمسك بها وأقطع بها الطريق، طريق الحياة الشاق.

عندما يراودني الخوف مما أفعله كنتُ أهدئ نفسي بأني أحفظ الأمانة، لكني كذبت.. أدركت في ذلك اليوم أني لا أحافظ على الأمانة لكونها أمانة، بل بسبب أنانيتي وتملّكي.. أنا أصغر وأحقر من أن أكون مسؤولًا عن أمانة أمام العليم القدير.

كنت مغمضًا عيني حتى استيقظت يومًا ولم أجدك ولم أجدهم، فقدت أماناتي لأنانيتي، هل انتصرتُ لنفسي بعد كل ذلك؟ لا أظن يا ولدي، ها أنا أكتب خسارتي وأقرها..

ولدي الغالي، أمانتي العظمى... كنتُ أقسى من أن أكون أبًا، أظن أن الجميع يُدرك ذلك، حتى بائع الخضرة العجوز الذي ما زال يقف على خياره مذ عشرات السنين يدرك هذا، وقد أشاح بوجهه عني عندما اقتربت منه قبل أسبوع، هل تُدرك حجم الألم الذي سببته لي نظرته اللائمة؟ هل تدرك كيف لنظرة من غريبٍ ما أن تحطمني وتقتلني لأني أدرك أن سوئي أصبح مكشوفًا للجميع، وأمام المارة..

عذرًا يا حبيبي، وعذرًا يا فؤادي.. وعذرًا يا عهدي..

أستميحكم عذرًا بأن أصرف فوضاي هذه إلى راحلين قبلكم، ظنّوا أني أهلٌ لضمّكم، وكم أنا خجلٌ من ليلة مواراتي في لحدي، ماذا سأقول لهم؟

ماذا لو عُدنا بالزمن عشرات السنين؟ ماذا لو كنتُ أنا الضحية في تلك الليلة؟ لماذا اختارهم الله ليبتليني؟ هل يحبني الله؟ على ظُلمي وجوري وسوئي يحبني الله؟

قد ضيّعت الأمانات، فمن يُسامح؟ وحدك يالله تعلم كم حاولت، كم ضحيت.. وكم أخطأت وأنا أظنني أصبت، كم تغافلت وأنا أظنني فطنت، كم أهملتُ وأنت تمهلني.

حبر القلم بدأ يجف، ولا أجد من يعيرني قلمه، دمعي يجف، ولا أجد من يعيرني عينه.. وهل توجد عيون تعار للبكاء؟

رسالتي وإن طالت فهي لا تتحمّل حجم حبي وشغفي، أحبكم ويعلم الله كم سخّرت حياتي لكم وإن أخطأت، لم أكن أبًا صالحًا ولا كافلًا محسنًا، ولا صديقًا مخلصًا، لكنّي أؤمن أني كنت محبًا وفيًا..

لا أعلم أن كان يحقّ لي قول هذا لكن كما كنتم أبناء بارين، كونوا آباءً بارّين، عندما كنا صغارًا لا يفتؤون يذكروننا ببر الوالدين، لكنهم نسوا ما هو أشد وأعظم، نسوا أن يحفروا في قلوبنا أن برّ الآباء للأبناء أشد وأعظم إيلامًا وصعوبة.. لذلك لن أكرر خطأهم وخطأي، لا تنسوا أن تكونوا آباء بارين، لا تنسوا بركم بأبنائكم يا كل بري..

وعلى كل ما سببته لكم، لا أحتاج لأن أقول كم أحبكم، يقيني الوحيد أنكم تدركون ذلك أكثر مني، وهو اليقين الذي مازال يُبقيني أتنفّس.

- حادي العيس الضائعة

المذنب *التوقيع*

* **الآن:**

*•

ينساب صوت القارئ في أذنيه ليتخلل قلبه، الصوت الوحيد القادر على انتشاله من شعور الغربة القاتل، يغمض عينيه ليسترخي على المقعد ويضم يديه.. رغم برودة

الجو وتساقط الثلوج إلا أنه يُفضل الجلوس أمام المركز على أن يدخله قبل الموعد ويضطر للحديث مع الناس.

يفتح عينيه فجأة ليفز على صوت نغمة رسائل الواتساب، يزفر بضيق لمقاطعة سكونه، لا أحد قد يذكره برسالة غير أخيه المزعج فقط، ومثلما توقّع كان هو.. والأسوأ هو أن الرسالة ملاحظة صوتية، يعلم أن أخاه يدرك كرهه للملاحظات الصوتية، لكن كما يقول (ضغطة زر وحدة ولا عشرين).. يفتحها بتململ ليصله صوت أخيه الخالي من الحياة (صباح الخير مدري مساء الخير عندكم، المهم طلعت من المعهد ولا باقي؟ لا طلعت دق علي).

يغلق جواله ليقف وعقربا الساعة ينبئانه عن موعده ٧:٥٩ عصرًا، يدخل المركز ليداهمه دفءٌ يُرخي أعصابه، يتوجه للمدرج الكبير.. وقبل أن يتخذ مقعده يخلع معطفه الثقيل ليتركه فوق فخذيه، يداهمه الملل وهو يسمع، لكن عزيمته وإصراره يصبرّانه، تدور عيناه حول الموجودين ليشعر بالاطمئنان وهو يدرك أن جميعهم مثله، جميعهم يتشاركون نفس المعاناة، ونفس الألم.. والعزيمة.

" اكسيوزمي؟ "

يفيق على صوتٍ ناعم صغير، يرفع رأسه ليرى فتاة كما يتضح من شكلها لا تتجاوز العشرين، شعرها الطويل مموج ويميل للخشونة، بشرتها جعلت شريان الحنين ينبض بقلبه بشدة، ليست سمراء ولا بيضاء، لونُ الصحراء يتمرّغ فيها.. لم ينتبه لغوصه فيها إلا عندما رفعت رأسها بعدما كانت منشغلة بهاتفها الجوال، لتصطدم عيناها بعينيه السوداوين..

نظرة خاطفة تفجّرت معها وديان الماضي لتلتقي بمفترق الحاضر، وخزة كهربائية أصابت عينه كما أصابتها، لكن سرعان ما قاطعت اتصال عينيهما وهي تقول مشيرة للورقة أمامه:" please, write your name and number- من فضلك، اكتب اسمك ورقمك"

يستعيد نفسه ليُمسك بالورقة ويدوّن عليها ما طلبت، بينما هو يكتب لم يلحظ حركتها وهي تقرأ حروف اسمه، ببطء شديد وحذر أمسكت بالبطاقة المعلقة على صدرها لتضعها في جيبها، رفع رأسه يسلمها الورقة بابتسامة باردة.. تجاوزته لتكرر ما فعلت مع غيره، زفر بشدة وهو يستند على المقعد، لا يعلم ما السبب الذي جعله يشعر بأنها مألوفة! قد تكون تشبه لشخص يعرفه، أو لأنها ذات ملامح عربية

وكأنها ترجع للصحراء، وهذا ما ينقصه، هرب من الشرق إلى الغرب ليصادف في أول أيامه عربية؟ وليست أي عربية.. قلبه يخبره بأنها من الخليج المالح، وخبرته تؤكد له أنها نجدية.. يزم شفتيه ليعيد انتباهه للمتحدث أمامه وهو يخرج فتاة الصحراء من رأسه.

لم تمض سوى عشرون دقيقة وها هو يقف ليغادر القاعة، وقت صلاة المغرب دخل توًا، ولا مجال لأن يؤجلها.. اتجه لجلسة استراحة صغيرة خالية ليخلع حذاءه ويتجه للقبلة ويُكبّر، وما أن سلّم التسليمة الأخيرة لصلاته حتى سقطت أنظاره على بنت الصحراء الواقفة أمام آلة القهوة وأنظارها مسلطة عليه، يعض شفته بتوتر لأول مرة يضطر للصلاة خارج شقته الصغيرة، يقف:" aaa I'm sorry if****- أأنا آسف إذا ****"

تقاطعه قبل أن يُكمل بابتسامة:" - لا لا بأس- no, it's ok.. don't worry"

يبتسم بهدوء ليجلس على المقعد ويلبس حذاءه:" thanks so much" - شكرًا جزيلًا "

يبدو التردد جليًا عليها قبل أن تخطو للأمام خطوة وهي تضع كفيها في جيبها:" are you Muslim? - مسلم؟ "

يهز رأسه إيجابًا:" yea " -نعم"

تهز رأسها بهدوء لتعود لآلة القهوة وتأخذ قهوتها، أما هو زم شفته مترددًا لكن السؤال يراوده.. وبلغة متقنة اللهجة " عذرًا، امممم.. منذ متى وأنتِ هنا؟ - يرى عقدة حاجبيها ليوضّح - ااا أقصد أنا جديد.. وأود أن أعرف.. عن ..."

تنفك عقدة حاجبيها لتبتسم:" اووه، نعم فهمت.. أنا متطوعة ولستُ مراجعة"

يهز رأسه بخيبة " اوه سوري "

تهز كتفيها:" أهلًا بك، وأتمنى أن تكون أقوى! "

يعود أدراجه للقاعة، ليتابع مركزًا انتباهه على المتحدثين.. يمضي الوقت سريعًا، وها هي الجلسة تنتهي، يخرج ليقف خارج المركز منتظرًا توقف تساقط الثلج ليواصل سيره مشيًا إلى شقته، وبينما هو ينتظر رآها تخرج وهي توزّع ابتساماتها لبقية المتطوعين معها ومسؤوليها، مليئة بالحياة على نقيضه تمامًا.. تنزل الدرجات بسرعة لتركب سيارة أجرة وقفت أمامها وبداخلها رجلٌ أربعيني..

تلتحم عيناها بعينيه..

تبتسم..

ترفع كفها ملوحةً بالوداع..

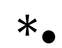
وترحل..

لو كان يعلم، لو كان يُدرك.. للعن اللحظة التي أوصلته هنا، للصدفة التي جرّته لتحصره في هذه المدينة، للفكرة التي راودته للتسجيل في المركز، لحديثه العابر معها، ولابتسامتها التي ستلازمه طوال حياته وتقتله!

هرب من وسط الجزيرة العربية، من جحيمه الصغير.. إلى وسط القارة الأمريكية، إلى جحيمه الكبير الذي لا يدركه، جحيم يحرق كل ما تبقى منه..

لو كان يعلم ما ينتظره، لتلذذ بجحيمه الصغير!

*●



الورقة الأولى

٢٠٠٤م

_

يجلس متربعًا وأمارات الحنين جلية عليه، يناشد بقلبه أرواحَ أحبابه الراحلة، يشعر بأخيه يربت على كتفه كما فعل ليلته الأخيرة.. ليلة رحيله، حبيبته تبتسم وها هو كفها الرقيق يمسح على عينيه.. يعض شفته بألم مانعًا تأوده أن يخرج، تمتد كف له.. تتشابك مع كفه، تشد عليه بمؤازرة.. هي كف نجد لا محال، مذ كانا طفلين صغيرين يسيران معًا ليقطعا طريق المدرسة وهو يشد على كفه.. ينسى كفه في كف الآخر سنين طويلة حتى خالَها التصقت به..

همس مبحوح " يُبه! "

ترجع روحه له ولواقعها، تتسع بؤرته باحثًا عن أخيه الذي كان يجلس بجانبه يربت على كتفه، لا يجده.. عن حبيبته التي تمسح عينيه، لا يجدها ... عن نجد الذي يشد على كفه، ويجده!، نعم هذه كف نجد .. نجد لا أحد سواه، نجد الصغير، الذي سقط من رحم السماء قبل خمسة عشر عامًا إلى جوفه بعد ما جافاه أحباؤه.. تلمع عينا الصغير بانكسار لينزلها سريعًا ولا تزال كفه تشد على كفه " يلله يبه، تأخرنا .... "

ينهض وهو يحث أباه على النهوض، زفر الحزن عن قلبه ليقف معه.. يدرك تمامًا أن ابنه نجد يكره أن يراه بهذه الحالة وهذا الانكسار، لكنه لا يجد سوى " نجد " ليتخلى عن قوته ويرميها بعيدًا ويتعرى بآلامه أمامه، أليس من حق الأب أن يضعف؟ أن يبكي؟ أن يلفظ مشقة السنين أخيرًا في وجه أولاده؟ لا يعلم الجواب.. فهو لم يعش في حياة والده الذي مات وهو لا يزال جنينًا في بطن أمه ... أمه! على ذكرِ أمه راح يتلفت سريعًا عله يراها، لكنها معهم.. مع الراحلين.

يسير به نجد متقدمًا إياه وكأنه هو والده " نزور قبر خالي يبه؟ "

يهز رأسه إيجابًا وعيناه تضيع في الطريق، لا يحتاج أن يرفعها ليصل إلى وجهته، هو يدرك تمامًا عدد الخطوات التي تفصل قبر حبيبته عن قبر " خال نجد"، ليصله صوت الصغير من جديد هامسًا " يبه شوف ... "

ترتفع أنظاره ليظهر له من وراء نظارته ظلٌّ أسود يرقد فوق ذلك القبر!

القبر الذي يرقد فيه الجسد الفارق في حياته، وحياة رفاقه، وحبيبته، وناصر، وطفليه.. أو أطفاله الثلاث والأربع، وجميع من تربطهم به الصلة!

مذ حلّ هذا الجسد ضيفًا على هذه المقبرة وموازين هذه الصحراء وما تحتويه من نخلٍ مالت..

هذا القبر هو جار قبر الغالي، ليس من العادة أن يرى زائرين له في مثل هذا اليوم، كل جمعة يرى شقيقه مع أبناء عمه فقط.. أما في ضحى الخميس، فهذه أول مرة.. وهذا الراقد فوق القبر، وصوت نحيبه يصل إليهم، من يكون؟ جسد ضئيل ليس كجسد موسى!

" يُبه! "

تنزل عيناه للصغير الكبير بجانبه ولا زال يشد على كفه " يبه أول مرة أشوف أحد يزوره! "

يهمس له " بلى، كل جمعة يجي أخوه"

هز رأسه بتفهم" اييييه، احنا ما نجي الجمعة "

يصمت قليلًا حتى يعود صوته " يُبه! "

" عينه .... "

يبتسم بزهو وهو الذي اعتاد على رد والده هذا إن أطال الحديث، وكأنه يثبت له عدم تململه من ثرثرته " تدوم لي هالعين ... - يعود الحديث الذي أثاره هذا الرجل الجاثي إلى نفسه، ويهمس يخشى أن يصله - يبه الرجال مسكين، حالته ترثى لها.. نروح ونرجع بعدين ولا نحرجه"

تنعقد حاجباه " لا.. بعرف منهو "

يفغر فاهه باندهاش من رد أبيه، اعتاد على كلمة والده دائمًا (اتركوا عنكم اللقافة) ما باله اليوم يمارسها؟ .. لا يترك له مجالًا وها هو يسير به حتى يصلا إلى قبر خال نجد الملاصق للقبر الذي يجثو عليه رجلٌ ما وينتحب، يقفان على رأس القبر والرجل موليًا ظهره عنهما، تتسلل عينا نجد بحذر علّه يلمح الرجل، بينما يعلو صوت والده " الله يرحمه ويغفر له، والله يصبرك... كان نِعم الرجال"

لا رد .... ويبدو أن روح الرجل تعلّقت بروح (يوسف) صاحب القبر، يبتسم نجد وهو يذكر الرعب الذي عايشه

لفترة طويلة كلما زار القبرين إثر الأسطورة التي حكاها (ثامر)، ثامر الذي يهوى إزعاجه وإزعاج أخيه.. كانوا جميعًا في المقبرة للزيارة، والده ابتعد ليلقي السلام على رفاقه وأساتذته في قبورهم، أما هو وأخوه يوسف كانا برفقة ثامر الذي يكبرهم سنًا أمام قبري (خاله نجد) وجاره (يوسف)، أخبرهم ثامر بخبث أن هذين القبرين هما قبريهما في المستقبل، وأنّ هذه الأجساد التي تقطن القبرين هي أجسادهما! وأن أرواحهما ميتة وما هما إلا جسدان حضرت من الماضي! ودليل ذلك أنهما يحملان ذات الاسمين. عاشا رعبًا مخيفًا طيلة فترة طويلة، إلى أن تجاوزها نجد.. أما يوسف ما زال يكره ويخشى زيارة المقبرة مذ كان صغيرًا حتى اللحظة.

تزيد التفاتة نجد رغبة منه برؤية وجه الرجل الغريب، إلا أن شماغ الرجل يغطيه متلثمًا به كأغلب الرجال في المقبرة، دائمًا يأبى الرجل الشرقي أن يظهر ضعفه وبكاءه، متلثمين أشمغتهم يدارون دمعهم حتى بين قبور أحبائهم!، تعود أنظاره إلى والده الذي يتمتم بالدعاء، يتبعه بحركته وهو يرفع كفيه " يارب.. يا سميع الدعاء.. ارحم خالي نجد واجمعه مع أمي ومع نبيك في الفردوس الأعلى.. يارب أنا ما

أعرفه بس انت تعرفه وتعرف إن أبوي يحبه فاسمع دعاءه.. آمين "

ينهي دعاءه المعتاد بعجلة لتتحرك خطاه نحو الرجل بفضول شديد لتسبقه كف والده وهو يشد عليه ونظراته تنهره بشدة ...

يشعر بعطف شديد ونشيج الرجل يصله وصوته الحزين يتسلل له رغم همسه وتأتأته" يا دواي وروحي.. تعبت من الهجر!، والله ما فيني أكمل وحدي يا يوسف... عمري راح وأنا باقي واقف انتظرك! ... - يزيد بكاؤه - يا يوسف، أنا فقدت نفسي ... وين قميصك يرد ليعقوب روحه؟ وين ريحك ترجع لي الحياة؟ ما عاد بقى لي أي نَفَس ..... - يحتضن نفسه ليلوذ ببكائه، ويهدّئ من نفسه، يرفع رأسه من جديد ليناجي بصوت متأود- يارب، رد لي روحي .. ردها لي يا رب "

يشعر به نجد يوشك على الوقوف ليعتدل بوقفته سريعًا متظاهرًا بالدعاء لخاله، ليفتح عينيه بصدمة وهو لا يرى والده، ليخرج صوته بتلقائية " يبه؟؟؟ "

يلتفت عليه الرجل الملثم بتلقائية أكبر، وسرعان ما يبعد عينيه وهو يعدل شماغه إثر رؤيته لرجل قادم وبيده الماء..

أما نجد يهدأ اضطرابه وهو يرى والده قادمًا إليه وبيده قارورتي ماء، يزفر بشدة " يبه، لا تبعد ثاني مرة بدون ما تقولي! "

تتسع ابتسامة والده على أمره المتعالي، يهمس وهو يعطيه الماء " ابشر .... - يفتح القارورة ليبدأ بسقي قبر الخال، وباعتياد يأخذ نجد الماء ليلتف إلى قبر الجار يوسف ويسقيه بالماء، يصله صوت والده - راح؟ "

يشير نجد نحو بوابة المقبرة " ايه هذا هو طالع "

ينتهي بسرعة من رش القبر ليمسك بكف نجد ويحث خطاه مسرعًا نحو البوابة، لا بد أن يعرف من خلف اللثام!، ولسرعة خطواته وبطء خطوات الملثم وتعثرها، يدركه أخيرًا ... يسير حذوه، وبحذر شديد يحاول أن يكشف ملامحه، لكن اللثام يعيقه، والنظارات السوداء كذلك..

" يا عم ... "

يفز والد نجد على صوته، بينما تتجمد خطوات الملثم وتتلعثم، تبدو الربكة جلية عليه ... وبحركة مفاجئة يزيد من سرعة خطواته وهو يحكم اللثام وكأنه لا يسمع، تنسل يدا نجد عن والده ليهرول بخفة " يا عم ... نسيت هذي عند قبر يوسف! "

تتوقف خطاه فجأة، ليدخل يديه في جيوبه مفتشًا عن شيء يخشى فقدانه ولا يزال موليًا ظهره عنهما، وكأن تماسًا أصابه يلتفت بسرعة ليجد ضالته الغالية بكف الصغير.. صورة صغيرة غير ملونة لشاب عشريني بابتسامة بيضاء، الصورة الوحيدة التي ما زالت تحفظ ملامحه وتفاصيله، يسحب الصورة بسرعة وفي جزء من الثانية تتعلق عيناه بالطفل الصغير لترتفع بتلقائية للرجل الواقف خلف الصغير يدقق بتوجس وخيفة...

جزء من الثانية تتوقف عنده الساعة، جزء من الثانية يشعر بأنفاسه تكاد تخرج من جوفه.. هو، ياسر! لا محال.. على الرغم من السنين التي فصلتهما عن بعضهما إلا أن هذه عينيه! لا يمكن لأي شخص أن يخطئ بعيني ياسر العذبة!

فجأة عاد إلى واقعه وصوت شقيقه يتردد في أذنيه "لا تقرب من الرياض ... - بس بزور قبر يوسف! - لا تفكر! انسى انسى المقبرة والرياض وكل محافظاتها... أكثر مكان أخاف عليك منه هو قبر يوسف! "

تنتابه رجفة شديدة ليُحكم لثامه وبتعثر أكبر يحث خطاه مسرعًا تاركًا خلفه الدنيا كلها.

تلعثم الملثم حجب عنه رؤية رجفة ياسر الذي سحب كف نجد بتلقائية وشدها إليه، تحت دهشة نجد الذي لا يعلم سبب حركة والده، رعشة مزلزلة أصابته من مظهر ذلك الرجل.. لن تكون هذه الرعشة إلا ليعقوب! أيُعقل؟

بعد ستة عشر عامًا ... يعود؟

بعد كل تلك الفوضى ... يعود؟

بعدما ترك خلفه الدنيا كلها ... يعود؟

بعدما ظن الجميع أن الأرض لفظته، والسماء جذبته، والبحر ابتلعه ... يعود؟

بعدما كرّس ناصر حياته للبحث عنه وأضاع عمره لهذه الغاية، وما أن بدأ يتناساها ... يعود؟

" يُبه! "

لوهلة شعر نجد بأنه كان يصرخ من رعشة والده الذي قفز بخوف وعيناه جاحظة! ما الذي يحدث؟

والده يلهث بسرعة وها هو ينقض عليه ليحتضنه بشدة آلمته، وكأنه يخشى بأن ينسل من بين يديه ويغوص تحت تربة القبور!

" يُبـه! "

صوت نجد المتألم جعل ياسر يبتعد قليلًا عنه والدهشة/ الخوف لا يزالان يتربعان على عينيه، ازدرد ريقه ليمحي الجفاف الذي أصابه وها هو يعتدل بوقفته وبخطى سريعة يسحب نجد معه بقوة وسرعة.. يخرجان من المقبرة لتسقط أنظارهما على السيارة الزرقاء التي خطّت مسرعة وكأنها تعكس اضطراب سائقها.

طُبعت لوحة السيارة في ذهنه بتلقائية، وها هو يسحب نجد معه ليدخلان سيارته، يقود بسرعة متتبعًا السيارة الزرقاء..

خيط الذكريات ينسل من ذاكرته، لتتساقط الصور واحدةً تلو الأخرى ...

" ملعب المدرسة القديمة، وطفلان صغيران يركضان فيه بلا هوادة.. وعلى الجدار يقف طفلان آخران يترقبان بلا ملل، صراخ مزلزل، يركض اللاعبان لتتلقفهما يدا الآخرَين.. وتتشابك ثمانية أيادي مكونين حلقة قفز معًا.. أربعة لا خامس لهم"

صورة أخرى ... " أربعة مراهقين تحت شجرة سدر كبيرة، يُخرجُ أطولهم سيجارة ليشعلها بنشوة، وها هي السيجارة

تدور بينهم، رشفةً رشفة.. لكل نفس، يقفزون بهلع إثر سماعهم صوت خطوات قادمة.. ليتفرقوا بخوف تاركين خلفهم سيجارة.. "

" شابان يافعان يدخلان بوابة جامعة الملك سعود في أعرق أحياء العاصمة، يمرّ بجانبهما أحد الأربعة الذين قفزوا معًا متعاضدين أطفالًا، أحد الأربعة الذين تشاركوا (سيجارة الشجرة) كما أطلقوا عليها لاحقًا ... يمرّ مرورًا خفيفًا، يلقي السلام، خطاب رسمي يدور فيما بينهم، وها هو يوليهم ظهره، نعم ... هذا ما لم يكن في الحسبان، رياح الهجر تلقي بخرابها عليهم إثر احتدام النزاع بين عائلاتهم، يدركون من خلال الحديث العابر معه بأن رابعهم حلّق بعيدًا إلى الجزء الآخر من العالم، حيث كان يحلم دائمًا.. إلى أمريكا! كأول فردٍ من محيطهم يلتحق بركب المغتربين
نعم هكذا كبروا فجأة، وانحلّ تشابك الأذرع الصغيرة "

تسير السيارة بسرعة كبيرة، حتى تنحى منحى اليمين وصوت ارتطام الحجارة أسفلها يهزّها.. يوقفها فجأة إثر استرجاعه لنفسه.. ماذا لو كان يتوهم؟ قد يكون طيفًا من

طيوف الماضي التي ما فتأت تلاحقه، يرده إلى واقعه صوت ابنه القلِق:" يبه بخير؟ أدق على خالي ناصر؟ "

بسرعة كبيرة يهز رأسه نفيًا وهو يعيد تشغيل السيارة:" لا لا بخير يا خَلَفْهم"

آخر من يجب أن يعلم هو ناصر! لا طاقة له بتحمل وجع أكبر قد يجدده ناصر!

يتلفت ولا يجد أي أثر للسيارة، لا بد أنها رحلت.. ورحل معها آخر خيط!

يسير بصمت وشرود كبيرين، حتى يصله صوت نجد وكأنه استنتج شيئًا:" اللي كان عند قبر يوسف، شكله أبوه! "

همس بلا وعي منه:" توه صغير ليكون أبوه! "

لم يدرك خطأه إلا بعد سؤال نجد المستنكر:" شلون عرفت؟ "

استدرك نفسه ليتنفس بعمق:" يوسف الله يرحمه مات شاب"

عقد حاجبيه نجد:" كنت تعرفه يبه؟ "

أغمض عينيه لوهلة، وبأسى هزّ رأسه نفيًا:" يابوي على أيامنا كانوا أهل وسط الرياض كلهم يعرفون بعض.. وكان

زميل دراسة بس.. - يلتفت عليه بتعجب - ووشلون وصلت لهالنتيجة! "

نجد بإحباط يدس نفسه بالمقعد:" بس سمعته يقول وين قميصك يرد ليعقوب روحه، وتذكرت النبي يوسف وأبوه يعقوب! "

يختنق ياسر، لماذا لا يسكت نجد؟ لماذا يتلذذ بتمزيق والده وهو الذي يشعر بكل ما يلم به من طرفة واحدة؟ ما باله اليوم! يلتفت عليه " تعبير مجازي يبه"

•

في حارة تتوسط مدينة الرياض، وسعف النخيل يتدلى من أحواش البيوت الملتصقة ناشرًا الظلال في زقاقها الضيق..

تجمع مثير يتوسطها، مجموعة صبيان الحي ينقسمون قسمين، تتوسطهم كرة زال لونها من شدة ركلها يمينًا وشمالًا.. وعلى الأبواب تنتشر فتيات الحي كل منهم تشجّع أخاها أو ابن عمها أو فارس أحلامها، وعلى النوافذ تطلّ الأمهات والشابات مترقبين نتائج هذا الحدث الكبير.. وكبار سن يجتمعون معًا على الرصيف ليرفّهوا على أنفسهم ويعودوا بذكريات الطفولة.

جميع الأنظار تتجه لذاك المراهق الحافي، الذي يقف متوسطًا صخرتين كبيرتين وُضِعت كحدود للمرمى الوهمي.. يتنفس بتوتر، يصله صوت أخيه الكبير مهددًا:" والله تدخل الكرة ويسجلون هدف أتوطى ببطنك وأفرشك! "

يبتلع ريقه والعرق يتصبب منه خوفًا من بطش الكبير، صمت كبير يعمّ أرجاء الحي.. الجميع يترقب الضربة القاضية، قدمٌ شهباء تتحرك لتركل الكرة ويهتز الحي إثر صراخ المشجعين.. تطير الكُرة متجهة للصبي الخائف، جميع الآمال متعلقة به، حياته تتعلق بصد هذه الكُرة اللعينة، إما ينجح ويصدها وحينها سيُحلق به الجميع

ويهتفون باسمه أسابيع، وإما يفشل و (يفرشه) أخوه الكبير ويجلس أيامًا لا يقوى على خطو خطوة واحدة...

وفجأة ....

جسدٌ ضئيل يخرج من اللا وجود لترتطم بوجهه الكُرة حتى يهتزّ ويسقط أرضًا ويصرخ متألّمًا،

صمت جديد يعمّ أرجاء المكان ...

من هذا؟

ما الذي حدث؟

وما هي إلا لحظات حتى صرخ الجميع بغضب، يتجمهرون حول الفتى المُلقى على الأرض وهو يتحسس أنفه بوجع كبير: "ااااخ! "

يفتح عينيه بألم والدموع تغطيها مجبرًا، لينصدم من الأجساد التي تشتعل نارًا من شدة العضب قادمةً إليه..

يحاول الوقوف، يفشل ...

" يا حمار وش سويت؟! "

" والله والله لأذبحك! "

" غشاشين! "

تنهال الشتائم عليه وهو غير مستوعب لما يحدث، تمتد يد غليظة تنوي صفعه وتكسير عظامه.. لكن ....

" اتركه يا محمد! "

صوت يزلزل الجميع، بوجوده ينقطع صوت تجبر صبيان الحي

أما هو ... يبتلع خوفه ليولد خوف جديد وهو يرى (ثامر) قادم نحوه، تنفرج الدائرة الملتفة نحوه، ليمرّ ثامر وعيناه تنبئ عن فيضان من غضب، بذراعه الطويلة تمتد كفه لياقة ثوب الآخر ويحمله بكل سهولة، يدخل من بين الجموع الصبي الآخر الذي كان يحرس المرمى ليهمس برجاء وهو يُمسك بكف أخيه الكبير ويهمس:" تكفى ثامر، بعدين.. في البيت مو هنا "

تنتقل عيناه بين عينيهما، شهوة التجبر والسيطرة تبلغ ذروتها عنده، كيف لا وهو رئيس عصابة أبناء الحي؟ لكن يطغى عليها شعور الحمية والمثل القائل (أنا وأخوي على ابن عمي، وأنا وابن عمي على الغريب)

يصله صوت غاضب:" ثامر هذا ظلم، الركلة كانت علينا وضاعت بسببه! خذ بالحق! "

شعور آخر يتفاقم داخله، شعور الرئاسة والقيادة! لكن وقبل أن يقرر ما الذي يفعله، يتدارك نفسه بسرعة وهو يرى عمه يمشي على قدميه بعدما ترك سيارته في طرف

الحارة، يترك ياقة الصبي وهو يرميه بغضب لتتلقفه يد الحارس، متظاهرًا بالحكمة وهو يخفي بداخله رغبة ضرب الصبي وخوفه من عمه إن رآه بهذه الصورة:" نعيد الركلة ونزودكم ركلة ثانية "

يهتف الجميع بما فيهم الفتيات الصغيرات وكبار السن بموافقة على قراره الصائب، ليلتفت على الصبي ويرميه بنظرة وعيد حارقة ويهمس لا يصل لأحد سوى المراهقَين المتعاضدَين" روح ادعي لربك، لو خسرنا بفرشك في البيت وأتوطاك! "

يتنفس الصعداء الآخر، يصلهم صوت بعيد:" يلله يا يوسف"

ينطق بسرعة ويهمس:" روح تخبى ببيتكم، وأنا بنام عندكم اليوم.. ثامر بيفرشنا ويتوطانا كلنا الليلة "

نجد بأسى واستسلام:" أبوي يقول أنام عندكم اليوم، وراه مشوار بيتأخر "

تتسع عيناه بوجل، إذن.. لا مجال للهرب من ثامر!

يترك نجد ليسرع إلى المرمى ويتأهب، أما نجد يمشي بخطوات سريعة إلى المنزل.. يسد باب المنزل كرسي أسود بعجلات متحركة، تجلس عليه فتاة صغيرة.. يتقدم

ليفسحها عن الطريق بغضب من سوء اليوم، ليصله صوتها الضاحك والشامت:" هههههه شوف شوف كيف وجهك! "

يسحب كرسيها ليدخل المنزل ويعيدها من جديد حيث كانت، متجاهلًا حديثها، لتعود من جديد بخبث:" يا ويلك من ثامر! روح دوّر لك مكان تتوزى فيه! "

يقطب حاجبيه بغضب:" موب فايق لك يمام! انطمي "

تشعر بغضبه، يأنبها ضميرها لتحرّك عجلات كرسيها وتتقدم إليه، بينما هو يجلس على عتبات الباب الداخلي ويخلع حذاءه بغضب.. تقترب منه وتدني بجسدها إليه لتخطف من خده الذي بدأ يتخشن قبلة سريعة بيضاء كبياض سريرتها:" آسفة .."

رعشة مزلزلة أصابته مذ شعر بملمس شفتيها الصغيرة ليرفع رأسه سريعًا إليها وعيناه تتسع، لتصطدم بعينيها البريئة وصوتها الصغير:" اليوم رسمت رسمة -تحرك سبابتها صعودًا لعينيها ونزولًا إلى دقنها- تجننننن"

يزم شفتيه وسرعان ما يرتبك وهو يرى والده خلفها عند الباب الخارجي، لا بد أنه رآه.. ليقف سريعًا وهو يفتح باب المدخل:" بشوفها بعدين يمام .. أبي أنام الحين "

يصله صوتها متحمسًا :" بتنام عندنا اليوم؟ "

يهز رأسه إيجابًا وبقدر المستطاع يتحاشى النظر لوالده الصامت والشارد، يخطو أولى خطواته للداخل ليصله صوت والده :" نجد يبوي نادي خالتك نورة "

يدخل للداخل ليعلو صوته :" أمي نورة ... "

تخرج إليه سريعًا وهي تلف جلالها عليها :" متى جيت ؟ "

ترى انكسارًا بعينيه وصوته يهدأ " قبل شوي ... أبوي يبيك عند الباب"

تهز رأسها وهي تشير للمطبخ :" سخّن لك الغدا، احنا تغدينا "

يزفر بشدة ليتجه إلى المطبخ الصغير، يبدأ بتسخين المرقوق .. يتكئ على الدولاب أمامه بضيق وهو يترقب الفقاعات تخرج من غدائه، (أمه نورة) منذ أن بلغ الحلم أصبحت تتحجب عنه، وهذا كفيلٌ بأن يجعله يبكي ليله كله .. لا يعلم لماذا تصرّ على الحجاب؟ هو محرمٌ لها .. حتى وإن انفصلت عن والده، لا يزال محرمًا لها، يعللّ ذلك يوسف وأبوه بأنها (تخجل)! ولا بد أن يراعي خجلها، كيف تخجل منه هو الذي ربته مذ كان بالتاسعة من عمره؟

ربته سويًا مع يوسف، وكأنها أمه .. يدرك تمامًا حياءها الزائد، فهي في أغلب الأحيان تلتف بجلالها حتى وإن كانوا ضيوفها نساء فقط! لكن نجد ابن طليقها وأخٌ لابنها! .. ليس غريبًا وأجنبيًا عنها.

لماذا تصر على أن تزيد نفسها عمرًا وكأنها جدة؟ ، لا يفهم سبب البؤس الذي يلازمها وكأنها حملت الدنيا على عاتقها وصارعت مخاضها!

يفيق على شهقة عالية:" حرقت الأكل !!!! "

ينتبه ليزفر بضيق :" اوووووف! "

تسرع إليه لتطفئ النار وتقلب طبق المرقوق، يزم شفتيه :" آسف أمي نورة .."

تهز رأسها بقلة حيلة لتضعه بوعاء آخر .. :" أبوك يقول عنده مشوار ويمكن يطول، نام الليلة وبكرة هنا"

يهز رأسه إيجابًا بتململ، يحمل وعاء المرقوق إلى الصالة ليأكل بهدوء..

-

الورقة الثانية

يومان تمضي، ولا يزال يلهث باحثًا عن مراده، لا أثر للسيارة الزرقاء في كل الأماكن التي خطرت على باله وقد تخطر على بال يعقوب، هل يكون وهم؟

أتعبه التفكير وأنهكه، يعود متأخرًا إلى منزله في كل ليلة عازمًا على طرد الأوهام والوساوس من رأسه، وإن كان ذاك الملثم هو يعقوب لا بد أن الأرض ابتلعته من جديد، لا فائدة من البحث عن طيف يمتلك خاصية الاختفاء متى ما أراد، وما أن تشرق الشمس حتى يجد نفسه مستقلًا سيارته باحثًا عن الطيف من جديد.

وبينما هو يقف بسيارته تحت ظل الشجرة القريبة من منزل موسى، يصله اتصالٌ من (ناصر)، لا يرد .. لا بد أنه ينوي دعوته على الغداء، آخر شخص يود رؤيته هذه الأيام هو ناصر.

يُسند جسده على المقعد علّه يهدأ قليلًا، يتفيّأ بظلال الشجرة، ترتسم على شفته ابتسامة حنين.. في هذا الشارع كانت لهم أيام وصولات، تمامًا كثامر .. يذكر وجه يوسف المشرق- على عكس ابنه الذي سمّاه وفاءً لذكراه-كان الفتى اللعوب والذي يبث الحياة في كل خطوة يخطوها، غير نزاعه الدائم مع نجد وكلّ منهما يثبت مجد أجداده ويدحض الآخر، مذ كانا صغيرين .. ينتهي يومهم المدرسي وقد جفت حلوقهم وانقطعت أصواتهم إثر جدالهم المنتهي، الجدال الذي يزيدهم قربًا، حتى يفتقد كل منهما الآخر إن غاب يومًا ويفتقد معه المتعة التي لا يتحلى بها ياسر أو يعقوب، يعقوب الذي لا يشبه أخاه إلا في الظاهر، لم يكن بمقدور أحد من أساتذة المدرسة وبقية الطلاب أن يميزوهما إلا نجد وياسر، رفيقهما الدائمين.

تزيد ابتسامة ياسر وهو يذكر كيف كان يعقوب ويوسف يتفننان بالغش بحكم الشبه المتطابق بينهما، حتى أدركهم شقيقهما الكبير "موسى" (المطوع) كما يطلقون عليه.. يعقوب الفتى الذكي، حاد المزاج، لا يشبه أخاه إطلاقًا في روحه .. كان كثير الشكوى والتحلطم، لا يعجبه شيء،

(نقّاد) كما يطلق عليه نجد، يكره الصحراء والنخل والقبيلة وكل ما يمت له ولماضيه بصلة، تمامًا يختلف عن يعقوب.. لكنه أكثرهم حلمًا وأكثرهم تمردًا.

أما نجد .... وآهٍ من نجد وما تفعله ذكراه بروح ياسر!، لم يكن مجرد صديق، كان جاره .. نشآ معًا وكبرا معًا، يدرك في قرارة نفسه أن أحد أهم أسباب هذا القُرب هو (الجوزاء)، تلك المحبوبة التي بكى أطلالها كثيرًا، شقيقة نجد .. حبها نما في صدره كنخلةٍ نجدية كريمة أبية لا يزلزلها شيء ولا يسقيها إلا راعيها، تلتف حول قلبه وتعصره وتتوارى عن الأنظار، يعجز عن إخبار نجد كاتم أسراره عن أعظم سر وأجمل سر ترعرعِ في قلبه، هي شقيقته .. ولن يتوقّع أي شيء من نجد إن علم سوى الويل والهجر، وهذا آخر ما يتمناه.. إلى أن يقع يومًا ما ويُكشف أمره على يد أحد الأربعة.. تعود الصورة في باله وكأنها وقعت توًا ..

" يسحب الكتاب من حقيبة نجد ليُخبئه بعناية، ونجد غير مبالٍ ونقاشه يحتدم مع يوسف.. :" نجد ترى خذيت كتابي من عندك"

يهز رأسه بلا مبالاة ليوجه كل اهتمامه ليوسف الذي يسخر منه، يبتعد عنهما قليلًا ليقلب صفحات الكتاب، تتسع ابتسامته ويشرق وجهه وهو يرى الورقة الصغيرة المصفوفة بعناية، يسحبها سريعًا ويخبئها في جيب ثوبه، ينزل إلى باحة المدرسة الخالية ويجلس تحت الشجرة التي تقع خلف دورات المياه، تزيد رعشته بعشق كبير وهو يُخرج الورقة، يتصبب عرقه ويتوهّج وجهه وهو يرى خطها الركيك، وما أن همّ بقراءة الحرف الأول يُصدم بسحب الورقة منه بسرعةٍ كبيرة، يجف وجهه بخوف وسرعان ما يهمس بغضب :" يعقوب هات الورقة! "

بتلاعب كبير وابتسامة خبث يخبئها خلفه :" غراميات يا قليل الأدب؟ "

يزيد نبض قلبه بتوتر، يتصبب عرقه :" يعقوب منيب فايق لك! .. هذي أسئلة الواجب بس"

يهز رأسه نفيًا وابتسامته تزيد، ليُخرج الورقة من خلفه ويهمّ بفتحها وسرعان ما ينقض عليه ياسر محاولًا سحبها بحذر، يفشل ويعقوب ينطق بتهديد :" ترى بتتقطع، ابعد "

يزفر بشدة :" الورقة ورقتي، هاتها وفارق"

يبتسم يعقوب ويفتحها بسرعة خاطفة تمكّنه من قراءة الاسم أسفل الورقة قبل أن يُسرع ياسر ويسحبها منه بغيض كبير، يتسع بؤبؤ يعقوب ليهمس :" جوزاء؟ "

يزيد تنفسه بشدة، سره الصغير الذي ظلّ مخبأً لسنين طويلة لم يعد سرًا، يشعر بأن هذا الحب ينسل من بين يديه بعدما كُشف، ولذة الخوف والكتمان التي كانت تلازمه ستفارقه الآن!

يضرب يعقوب بقبضة يده على صدره :" حيوان! أنا قايلك ما تقرا! حمار ما تفهم؟ "

يهز رأسه يعقوب بصدمة، ليشعر بتأنيب ضمير وهو يرى غضب ياسر ليهمس :" والله ما أعلم أحد! "

يُبعده ياسر عن طريقه بعصبية وقهر كبيرين:" ابعد عن طريقي، مابي أشوف رقعة وجهك"

يبتلع ريقه يعقوب ليُمسك بكف ياسر بسرعة :" والله آسف ... "

يصده بنفور شديد ليعود ويُمسكه من جديد :" نجد عارف؟ "

تتقد عيناه بشدة تجعل يعقوب يخاف :" والله والله لو عرف نجد لأذبحك! "

يهز رأسه بسرعة وخوف :" طيب"

ياسر ونيران تشتعل بداخله يعود بتهديد أشد :" والله لأعلم أخوك موسى إنك تدخن! "

يهز رأسه نفيًا بسرعة ونقطة ضعفه تُهدد أمامه :" والله قلت لك ما أعلم أحد! "

يزفر ياسر بشدة لينفث عنه ذكريات الماضي، يرى الساعة ليزيد زفيره .. مضت اثنان وأربعون دقيقة ولا يزال ينتظر في مكانه..

حينما لا يرى أي بادرة قد تقوده إلى ما يصبو إليه يعتدل بجلسته وما أن همّ بتشغيل سيارته يرى باب المنزل الكبير يُفتح أخيرًا.

يتأهب ويُرجع سيارته للخلف بهدوء كي لا يثير الشكوك، ترتجف أصابعه وهو يرى ضالته، يتأكد من شكوكه .. هو يعقوب بلا ريب، يكاد يشمّ رائحة السيجارة منه على بعد أمتار .. رائحة السيجارة التي كلما أشتمها في أي شارع تمرّ صورة يعقوب في مخيلته، حتى بعد مرور ستة عشر عامًا!

لكن، كأن يعقوب انقسم إلى نصفين من شدة هزله، وكأن نصف جسده قد دُفن مع يوسف وتوارى خلف اللحود،

يشدّ بكفيه المرتجفة مقود السيارة وهو يرى موسى يمشي بخطىً ثابتة متوجهًا إلى سيارته وخلفه يسير يعقوب المنكّس رأسه .. لله هذه الدنيا التي تصيّر الشجر المختال إلى حفنةٍ هزيلة مكسورة الأغصان!

تتحرك سيارة موسى مبتعدةً عنه، يسير خلفها على بعدٍ كبير كي لا يلفت الأنظار، مع بقاء عينيه وحواسه مسلطةً على السيارة.

يتبعهم لوقت طويل حتى ظنّ أن موسى ينوي مغادرة الرياض، لكن ها هي السيارة تقف أخيرًا أمام مجمع سكني كبير، يستطيع أن يلتقط شكل موسى وهو يشدّ على عضد يعقوب ويبدو أنه يوصيه، وها هو أخيرًا يترجل من السيارة ويلوّح لموسى مودعًا ..

يزيد اضطراب ياسر على رحيل موسى، يتأكد من خلوّ المكان ليترجّل هو الآخر بلا وعي منه .. جميع ضغائن الماضي ترحل، يتشبث بحنينٍ قاتل.. تعود روحه إلى ما قبل عقدٍ ونصف من الزمان، إلى عام ألف وتسع مئة وثمان وثمانين.. قبل يومٍ من ليلة رمضان، ذلك اليوم المشؤوم .. عاد إلى بيته بعد ما ودّع رفاقه الثلاثة على وعدِ السحور الأول، لكنه استيقظ اليوم الموعود ليدرك أنه وحيد، أن الجميع رحل

دون سابق إنذار .. لا أحد يعلم أن بكاءه ورثاءه لا يزال قابعًا في صدره حتى الآن، لم يجد من يشاركه .. وها هو يقترب من الباب الذي يقبع خلفه (يعقوب) لا يطلب منه شيئًا سوى أن يربت على كتفه، فقط.. ويعده بأن يرحل.

طرق الباب طرقةً واحدة هزيلة مترددة، بدأ ارتجافه يزيد.. حرارة جسده ترتفع، صوت أنفاسه يضطرب .. فقط باب خشبي يفصل بينه وبين السنين الراحلة.

زفر زفرة طويلة ليعاودَ طرق الباب بقوة أكبر.

لا مجيب ..

يشد قبضته ليزيد من طرقه، متأكد من أن يعقوب يقف خلف الباب، لماذا لا يجيب؟ ألا تكفيه السنين الماضية التي وقف بها ياسر على أعتاب الأبواب يطرقها ليلًا ليستجدي البكاء لكن طرقاته لا يجيبها سوى الصدى؟ ألا يرأف بحال مَن وقف سنينًا ينتظر خبرًا يوقظه من صدمته؟

لم يُدرك أن طرقاته كانت أشبه بالضرب إلا حينما شعر بشخص يقف خلفه :" يا خوي ما يجوز هالإزعاج اللي تسويه للمستأجرين!"

وكأنه لا يسمع، يفقد نفسه وطرقاته تزداد.. يتهدّج صوته بتعب :" يعقوب افتح! "

لا رد ..

يزيد أكثر وبكاؤه ينساب بوجع السنين :" يعقوب، أنا ياسر ... "

لا رد ...

يرخي رأسه على الباب بألم وكأنه يحتضنه :" افتح واللي يرحم يوسف..."

ينساب جسده بضآلة ليسقط أرضًا ويتكئ على الباب مادًا رجليه، يهذي بحجم حزن السنين على صدره، وكأن ليلة رمضان تلك الليلة المشؤومة كانت ليلة البارحة :" يعقوب مابي منك شي ... أبي هالوجع اللي بروحي يموت! .. ما أطلبك كثير .. أبي أبكي عمري اللي راح، اببكي الفرق اللي قتلتني ! ..... - يحتضن وجهه بكفيه - والله مابي منك شي، أبيك بس تسمعني وأسمعك ... أبكي لك وتبكي لي .... يا يعقوب والله أعرف إنك هنا، أعرف إنك تسمعني ... لا تكابر وتكسر نفسك! ... أدري مكسور، وتدري إني مكسور ... - ترتعش شفتاه ببكاء - كلهم راحوا ، ما بقى لك غيري! .. تظن إني بفرط فيك؟ ... لا توجع نفسك أكثر ! ... ابحكيلك عن دفنهم، عن عزاهم، عن أول عيد دونكم، عن وجع موسى، وعن وجع ناصر - يهمس عاضًا شفتيه - ووجع الجوزا! ... -

ينزل رأسه لينتحب ببكائه- ابحكيلك عن الموت اللي مرني، عن نخل يوسف اللي احترق بعده! عن إبل نجد اللي صام بعد موته لين لحقه .. عن الرياض بعدك وبعد ذيك الليلة! "

ينتحب ببكائه ساعةً أخرى، حتى ظنّ المارين بأنه فقد عقله .. يرمونه بنظرات الشفقة، يتطوع منهم من يدعوه للمساعدة، لكنه ينهرهم ويبعدهم عن وجعه ..

حتى يهدأ أخيرًا بعد نوبة الجزع والبكاء، يرخي جسده على الباب وهو يتوهم صوت بكاءٍ خلفه .. يكاد يجزم أنه يسمع أنين يعقوب، يقف أخيرًا بتثاقل مستندًا على الباب .. حينما يئس من فتح الباب أخرج قلمًا من جيبه ومنديلًا مصفوفًا بعناية .. خطّ بأصابع مرتجفة عنوان منزله وأسفله رقم جواله مذيلًا بأحرف بسيطة { ياسر العمر - أنتظرك }

يدني جسده للأسفل، يُمرر المنديل من خلال فتحة الباب السفلية، يعتدل واقفًا وينتظر لحظات حتى تنهّد براحة وهو يرى المنديل ينسحب للداخل مما يؤكد له وجود يعقوب خلفه.

•

في ذات الوقت، خرجا من غرفة صفهما وثرثرتهما لا تتوقف ..

يتوقفان قرب البوابة الخارجية إثر سماعهما صوت الأستاذ ينادي من خلفهم وبيده مجموعة كتب لطلابه، يسلمهما كتابيهما ليلفت انتباهه الاسمان (يوسف ياسر العمر) (نجد ياسر العمر)، يعقد حاجبيه متفحصًا وجهيهما المختلفين: إخوان؟

يهزان رأسهما معًا والسؤال الذي اعتاداه دائمًا يعود من جديد، يُنزل الأستاذ نظارته: مين أكبر انت ولا هو؟

نجد: " بعمر واحد.."

يقاطعه يوسف سريعًا: "لا .. أنا أكبر منه أستاذ "

يعود نجد مقاطعًا بغيض:" بس بيومين!"

الأستاذ وانبهاره يزيد، لا يربطهما أي شبه إطلاقًا:" توأم انتو؟ "

نجد بحماس: "لا استاذ، هو أمه أمي نورة وأنا أمي الجوز...."

وقبل أن يكمل، يكتم أنفاسه بشدة وهو يشعر بالقدم التي تدوسه بقوة، وما إن أفاق من وجعه حتى اصطدمت عيناه بلهيب حاد من عيني ثامر! ليداهمه وجع أشد .. لم يسمع صوت أستاذهم وهو يضحك ويسلم يوسف الكتابين، يبتلع ريقه بخوف ليقاطع اتصال عينيهما الأستاذ وهو يلتفت ليجد ثامر خلفه، تجحظ عيناه: "وهذا أخوكم بعد؟ "

يهز يوسف رأسه: "أخوي أنا "

يزيد تعجب الأستاذ لكنه يبادر بالمغادرة بعد أن نطق بتهديد:" انتبهوا تطلعون عليه! "

وما أن خطت قدما الأستاذ مبتعدًا، بادراه الاثنان بغضب كبير:" حمار انت؟ .. - شعر بكف ثامر العريضة تضرب رقبته بقوة، كاد يصرخ من الألم لو لا أن ثامر جرهما معًا :" امشوا قدامي أشوف"

يخرجون من مدرسة الأولاد المتوسطة ليصادفوا (نورة) بعباءتها السوداء تقف قريبًا من البوابة، يعقد ثامر حاجبيه بقهر يكتمه :" يمه ليش جيتِ هنا؟ بيشوفونك الرجال! "

تزفر بتعب :" ما دريت إنك بتطلع قبلهم وتمرهم"

يهز رأسه ويهمس :" حتى إن ما مريتهم، يمه خلاص هم رجال!"

يعقد نجد حاجبيه:" صحيح طلعت بدري اليوم ثامر!"

يسير متقدمًا :" اليوم سمحوا لنا نطلع بدري"

يعود صوت يوسف متذمرًا :" يمه نجد اليوم قال اسمك! "

تتسع عينا نجد بصدمة من خيانة يوسف الذي يشي به، وكأن ثامر تذكر توًا .. يلتفت بغضب :" انت لسانك يبي له قص! كل شي تخره قدام الناس! لا وبعد تقول اسم أمي؟ محد علمك علوم المرجلة يالرخمة!"

تهز رأسها بيأس أمهم ولا تعلق، ليعود صوت يوسف شاكيًا :" واحنا طالعين من المدرسة سمعت خالد ينادي (يا ولد نوورة!) "

يعض شفته نجد وللتو يدرك خطأه، يمضي بقية طريقهم وهو يسمع توبيخ ثامر وشكوى يوسف ونورة لا تنفك تهدئ ثامر وتخوّفه بعمه إن فعل شيئًا ما يندم عليه حتى يصلوا المنزل، يُغلق ثامر الباب خلفهم ليحث خطاه مسرعًا، يسير كثيرًا حتى يصل نهاية زقاق الحي، يزفر بشدة وحرارة الشمس تطبخ رأسه، يعتدل بوقفته أخيرًا وهو يلمح سيارة الفورد القديمة تقترب منه، يتلفت يمينًا ويسارًا بحذر والسيارة تقف على جانب الطريق الموازي، يسير مسرعًا ليدخلها ويغلق الباب ..

تصل إلى مسامعه ضحكة السائق وهو يرى ثامر يتلثم بشماغه :" على هونك.. وش فيك خايف كذا؟"

يزفر بشدة ثامر :" يللا أستاذ بسرعة، مابي أحد يشوفنا! "

تتحرك السيارة أخيرًا ولا زالت ضحكته تهزه :" أستاذ؟! "

يصمت ثامر وهو ينزوي داخل المقعد بمحاولة منه ألا يكشفه أي مار، تقطع السيارة طريقًا طويلًا مملًا .. صمت طويل يتخلله صوت طلال مداح يغنّي عبر مسجل السيارة، يزمّ شفتيه ثامر :" عمي ماعندك غير هالشريط؟ "

يضحك وهو يهز رأسه نفيًا :" لازم تتعود على هالصوت الملائكي الله يرحمه "

تختفي المباني حول الطريق، لا شيء غير أراضٍ جدباء تتخللها بعض المزارع، يرفع معصمه ثامر ليرى الساعة الثانية تمامًا، يدعو بداخله ألا يعود عمه ياسر اليوم، أخبره نجد أن والده منشغلٌ هذه الأيام وقد يتأخر حتى منتصف الليل، وهذا ما يطمئنه.. يلتفت على صوت (الأستاذ) وهو يغني منطربًا :" زمان الصمت .. يا عمر الحزن والشكوى، يا خطوة ما غدت تقوى على الخطوة .. على هم السنين"

يزفر بضيق ليتابع الطريق تتخذ السيارة مخرجًا يودي بهما إلى طريق غير ممهد، تسير باضطراب حتى تختفي خلف أشجارٍ كثيفة، يركن سيارته ليخرجان معًا ..

يدخلان بين نخلٍ ذابل، تساقط سعفه .. حتى يصلان لغرفةٍ طينية متهالكة، يفتح بابها ليقطب حاجبيه ثامر بامتعاض إثر الرطوبة الشديدة التي تغطي الغرفة :" ادخل يا ولدي "

يدخل ثامر ليغلق الأستاذ الباب وبضحكة :" حياك يا ولد عمر، لك الصدر ولنا العتبة "

يهز رأسه مغتاظا :" أمانة شلون تتنفس هنا"

يتقدم الأستاذ ويتخطاه، ليشغّل المروحة الهوائية خلفه .. يستنشق الهواء الحار باستمتاع :" كذا أتنفس! .. ولا عبدالخالق ما علمكم عملية التنفس؟ .. هاه علمني عشان أسلخه بكرة! "

يضيق به ثامر، يسحب الكرسي القابع أمام مكتب متهالك :" ما عندي وقت، علمني وش أسوي الحين؟ "

يقترب من المكتب ليجلس خلفه، يفتح مجموعة الصناديق أمامه :" يلله بسم الله ..."

•

تمضي شهور ولا تزال صورة يعقوب تلاحقه أينما كان، كم كان يؤمّل نفسه بأن يجد ولو اتصالًا واحدًا منه .. أو أن يفتح يومًا الباب ليرى يعقوب خلفه، لكن لا أثر جديد له.. ولا حتى في المجمع السكني الذي رآه فيه.

يرسم على شفته ابتسامة صغيرة إثر انفتاح الباب وصوت ناصر المرحب به :" أهلاااااً، يالله انك تحيه .."

يسلّم عليه بحب أخوّي متبادل، يتلفت ناصر قبل أن يغلق الباب :" وين العيال؟"

يتقدم ياسر حتى يدخل الصالة :" والله أم ثامر طلعت مشوار وجلسوا مع يمامة "

يزفر ناصر بضيق :" لو جبتهم كلهم معك - بضحكة - ويذوقون طبخي "

ياسر يأخذ دلة قهوة :" ما تقصر ..."

يجلس أمامه بعد ما أشعل الموقد على الشاي :" وثامر، لي دهر ما شفته .. لو جاء معك اليوم أشوف استعداده للجامعة، مابقى شي وينتهي من المدرسة ويبدا التقديم"

يُبعد الفنجان عنه بضحكة سخرية :" ثامر وجامعة؟ .. نقول زين لو خلّص من هالثانوي "

يلحظ ناصر ضيق ياسر، يعقد كفيه :" وش فيه بعد؟ "

يزفر بضيق، ضيق كبير يجثم على صدره ومصدره الأكبر هو عودة ظهور يعقوب واختفائه مجددًا، المشكلة التي لا يجرؤ أن يذكرها لناصر .. يعللّ ضيقه بثامر، دائمًا ما كان

ثامر سببًا للمشاكل، لا ضير أن يصبّ همه عليه :" منيب قادر أسيطر عليه، وأخاف يضيع أكثر وهو وصية أخوي "

يربّت على ركبته بمواساة :" انت مو مقصر، بس لا تشد عليه .. تعرف هو مراهق وهذا عمره، لازم تصبر .. لو يجيني بس، ممكن أفهم عليه "

يهزّ رأسه سريعًا :" ايه انتو الشباب بتفهمون على بعض أكثر "

يقف ناصر :" بشوف للشاي، خذ راحتك .. "

وقبل أن يدخل المطبخ يلتفت بمرح :" بس هاه بعد شوي تجي تقطع البصل معي! "

يكتفي ياسر بابتسامة ضاحكة له، يهبّ واقفًا ليسير في أرجاء المنزل الكبير، تتسع ابتسامته وهو يلمح بين الكتب صورة فوتوغرافيه قديمة، يُخرجها ليتأمل ملامح نجد المخبأة...

" الشاي جاهز "

يلتفت ليأخذ الشاي عنه، يجلسان متقابلين .. ليزفر ناصر بضيق :" متحلم حلم أسود"

يعقد حاجبيه بانتباه :" اللهم اجعله خير .."

يترك كوبه :" ما أذكر وجه يعقوب، بس بالحلم شخص أسود وثوبه أسود يجيني وياخذ مني نجد ويوسف.. وأظنه يعقوب... - يرفع رأسه - المشكـ..- يفغر فاهه من رؤيته لوجه ياسر الذي خُطف لونه .. يُنزل كوبه لينطق مستدركًا - كله كابوس ياسر! تعوّذً من الشيطان! "

يشعر بأنفاسه تكاد تخرج، هواء حار يخرج من رئتيه .. ترف عينه بوجل، يهمس :" كمّل .."

ناصر بقلق :" كنت واقف معي بالحلم، وأقولك الرجال أخذ عيالك .. بس، كنت واقف وتقول لي هذا يعقوب عادي! "

يتماسك ياسر، يحاول أن يشد على نفسه كي لا يُفتضح أمره .. يزدرد ريقه بعد ما ترك كوبه :" اقرا أذكارك قبل لا تنام، كله من الشيطان ..."

يتنهد ناصر بضيق :" أعوذ بالله منه .. لو أدري وين أراضيه! "

يشتت عينيه، لا يرغب بأن يقرأها ناصر .. يتمنى لو يسكت، لكنه يعاود الحديث بانفعال :" تدري شالقهر ياسر؟ ... كل يوم مضطر أشوف وجه أخوه! كل يوم! - يهز

رأسه باستياء- اللي غابني أكثر وأنا أشوفه متلبّس لباس التقوى! "

يزم شفته ياسر، ماذا يقول؟ أيقول له أن موسى فعلًا رجلٌ تقي حتى وإن كنت تكرهه؟ أيخبره بأن موسى كثيرًا ما كان ينصح (نجد) ونجد يستأنس بنصيحة موسى وتوجيهه؟ أن نجد كان يرى فيه القدوة الحسنة؟ أن موسى فعلًا رجل تقي لو لا دم الأخوة الذي أجبره على ما يكره ولا يؤمن به!

يقف ياسر ولا قوة له بإكمال مشهد تمثيلي يكره أن يقوم به، وعلى أحب الناس إلى قلبه من يعدّه أخًا أصغر له :" تأخرت على العيال وهم وحدهم.. أشوفك على خير"

يزفر ناصر من تجاهل ياسر الذي يشعر به، يقف :" طيب تعشى بس! "

ياسر يرفع كفه ليرى الساعة تجاوزت العاشرة :" ما بتركهم وحدهم"

يهز رأسه بضيق: "سلم لي عليهم .. "

قبل أن يغادر يلتفت عليه ليهمس :" شيل الماضي من راسك، مضت سنوات ومالقينا فايدة .. "

يهز رأسه بغير اقتناع :" إن شاء الله "

-

يطرق الباب مرارًا لكن لا رد، يزفر بضيق شديد :" يمام، افتحي الباب! "

يلتفت على صوت أخيه :" نجد اتركها، من يومين مو رايقة .. اتركها ومن نفسها بتفتح الباب"

لا يعجبه كلام أخيه، ليعاود من جديد طرق الباب :" يمام إذا ما فتحتِ الباب أنا بفتحه! "

لا يصله غير صوت سقوط الأشياء وتكسرها، ينتابه قلق أشد، ويوسف لا يعيرهما اهتمامًا.. يتوجّه إليه ليجده منكبًا على جهاز الحاسوب المكتبي، يزفر بقلق :" اترك خرابيطك وشوف لها! "

يخلع السماعة بضيق :" نجد ما تفهم! قلت لك هي ضايقة .. شوي وتهدا! "

يزم شفتيه بقلة صبر، يعود إلى غرفتها يطرق الباب ..

تتسع أحداقه وهو يسمع أنينها :" يمام! "

لا ترد، يتجه سريعًا إلى المستودع الصغير ليأخذ (مطرقة)، يثبتها بين فتحتي الباب :" يمام ترى بكسر الباب"

قبل أن يسمع ردها يهمّ ليحرك قطعة الحديد بقوة وتتناثر قطع خشبية صغيرة ... وهاهو الباب ينفتح أخيرًا

تصطدم عيناه بالفوضى التي تعتري الغرفة، وقبل أن يعي يصله صوتها مزلزلًا :" اطلللع برى! ليش تكسر باب الغرفة؟ مابي أشوف أحد! ما تفهم!"

يمام اليوم ليست يمام التي يعرفها، نعم هي مدللة وكثيرًا.. لكن لم تكن بهذا القدر، يقترب منها على مضض :" يمام شفيك؟ علميني تكفين"

تهز رأسها نفيًا وهي تعود بعجلات كرسيها إلى الخلف، وبانهيار باكٍ :" مابي شي! أبيك بس تطلع ... "

تزيد خطواته اقترابًا، حتى التصقت أصابع قدميه بعجلتها .. يرفع كفه محاولًا تهدئتها، وما أن حطت على كتفها انهارت ببكاء حارق وهي تشد على رسغه بكفها وتُخبئ عينيها في ذراعه .. هاله منظرها، أوجع قلبه، جلس على سريرها ليحتويها ويطبطب على ظهرها :" بسم الله عليك يمام، هدّي .. هدّي يا عيني"

بكت بشدة على كتفه، نفثت وجعها فيه .. لتهدأ أخيرًا، شعر بها تبتعد عنه وهي تلم شعرها الخفيف عن وجهها .. زمّ شفتيه قبل أن ينطق وهو يشير لخزانة ملابسها المتناثرة :" تبين شي من فوق ولا وصلتيه، صح؟ "

يتغير وجهها، تكاد تعاود البكاء .. لكنها تستعيد نفسها لتهز رأسها إيجابًا :" ايه، بس نورة إذا جات بتجيبه لي"

يقف ليهز رأسه باستياء :" الحين تبكين من أول وزعلانة لهالسبب؟ طيب أنا موجود، ويوسف موجود.. مافي مشكلة تطلبين منّا "

تبتلع ريقها وتنزل رأسها :" لا نورة تعرف مكانه"

يقف أمام الخزانة بإصرار :" وش تبين؟ "

تهز رأسها سريعًا والخجل يتسلل لملامحها :" خلاص قلت لك مو لازم، نورة إن جات طلبته منها"

يتأمل احمرار وجنتيها، ليُدرك أنه شأن خاص.. لكن لن يغادر حتى يلبّي طلبها، يعلم تمامًا أنه أقرب إليها من يوسف على أن الآخر هو ابن أختها.. بإصرار يعاود :" يمام شتبين بالضبط؟ عادي أنا نجد مو أحد غريب!"

تتردد قبل أن تجيب بعدما شجعها بعينيه :" الكيس ... الأزرق"

يبتسم لها موضحًا بساطة الأمر، يصعد على عتبة الخزانة ليفتح الدرج العِلوي ويسحب الكيس الأزرق .. تتسع بؤرة عينيه وطرف ما بداخله يظهر، يتوتر .. يتعثر لكن سرعان ما يُوازن نفسه ويقف بخطىً متوترة، يُنزل رأسه للأسفل ولا يضع عينيه عليها، تأخذ الكيس منه بسرعة وتخبئه بحضنها، تخطو خطاه لخارج الغرفة ليصله صوتها ضئيلًا خجولًا :" شكرًا نجد "

يقف لوهلة لا يعلم ماذا يجيب، ليعود صوتها مجددًا :" قفل الباب وراك"

يستوعب أخيرًا الخطأ الذي فعله، يُمسك قبضة الباب ويخرج وهو يحاول شدّها حتى رُد الباب .. يتنفّس الصعداء، يجلس على أقرب مقعد له.. يستوعب ما حصل، تنتابه خيبة كيرة .. ينزوي على نفسه محاولًا عدم التصديق، يمام لم تعد طفلة! .. تلك الصغيرة التي ما فتئ يلعب معها ويعيّن نفسه مدرسًا ومعلمًا لها كبرت، لا يعلم ما السبب الذي جعله يظن أنها لن تكبر أبدًا! ألأنها (مُقعدة)؟ أم لأنها كانت دائمًا طفلة بنظر الجميع!

دفن رأسه بين كفيه بضيق شديد وهو يتصور الأمر الذي سيحصل، نعم ستتحجب عنه، لن يجلس معها كثيرًا .. سيفارق أيامه معها، وسيبكي كثيرًا.

يقف بسرعة على صوت الباب، وماهي إلا ثوانٍ حتى ظهر ثامر برفقة أمه نورة التي تعاتبه على غيابه المتكرر، زم شفته وهو يذكر الباب الذي كسره.. وكأن أفكاره وصلت إليهم، وها هو ثامر يتقدم أمه ليعقد حاجبيه ويُمسك بقبضة الباب :" وش صار عليه؟ "

ترتفع أنظار نورة إليه بتساؤل، ليمرر كفه على شعره بتورط .. وقبل أن يجيب يصلهم صوت يوسف واقفًا عند باب غرفته المشتركة مع ثامر :" ظنينا الباب تقفل على يمام وكسرناه"

يتنهد براحة كبيرة من إجابة أخيه، لتتوجه نورة مسرعة إلى يمام.. وثامر يهز رأسه بهدوء ليتجه هو الآخر إلى الغرفة التي تضمه هو ويوسف، وبصوتٍ مرتفع:" بكرة بصلحه يمه "

يخرج الآخر ليقترب من نجد ويهمس :" اوف الحمدلله مشت على ثامر!"

يتنفس الصعداء نجد :" كان ذبحني، تدري به يدور الزلة"

يصلهم صوت يمام من خلف باب غرفتها غاضبًا :" كان صحيتيني وقلتِ انك رايحة! "

نورة بضيق وصوت ضئيل :" نسيت والله! "

يتحشرج صوتها :" يعني تدرين اني مو قادرة أقضي أبسط أموري وتروحين كذا! "

يهز رأسه يوسف بضيق :" يمام ما أعرف وش فيها هاليومين! "

ينزل رأسه نجد بأسى لحالها، يصلهم صوت طرق الباب .. يقفز نجد مسرعًا :" أكيد أبوي"

يتبعه يوسف ، يرى والده أمام الباب ليتقدم ويقبّل كفه وقبل أن يُغلق الباب يصله صوت أبيه :" تعال نام عندنا اليوم، بكرة خميس "

يرفع رأسه بتردد، يصله صوت نجد متحمسًا :" ايه تكفى تعال، من زمان ما نمت"

يزفر بشدة ليخطو خارج المنزل، يُغلق الباب خلفه.. الظلام يغطي معظم الحي، يسير على يمين والده .. يشعر بكف والده تتسلل لتُمسك بكفه، ونجد لا يتوقف لسانه عن الثرثرة، يسرد لأبيه تفاصيل يومه.. على عكسه هو الذي يغطيه الهدوء، لا يعلم كيف لنجد أن يتمتّع بهذا القرب

الشديد من أبيه وكأنه صديقًا له وليس أبًا، لا يُمكن لأحد أن ينكر قرب نجد الشديد من والده.. وكذلك قُرب ثامر من أمه، يُدرك تمامًا أن (نجد) هو الابن المفضّل لأبيه، و(ثامر) هو الابن الأقرب لأمه رغم ما يسببه لها من متاعب، أما هو .. في المنتصف، كان مجرد خطأ يعلم تمامًا أنه خطأ غير مرغوب، أمه التي تزوجت بشقيق زوجها بعد ما فارق الحياة .. لتُبقي ابنها (ثامر) بجانب عائلته وعمه، ليكون هو ثمرة هذا الزواج الذي لا يبدو وكأنه زواج! أما نجد هو ابن الحبيبة، ابن الزوجة التي لا يستطيع ياسر أن يُخفي حبّه وعشقه لها. . تمامًا كثامر بالنسبة لأمه، هو ابن الحبيب والزوج الأول والأخير في قلبها.

يترك أبوه كفه ليفتح باب المنزل الذي لا يبعد سوى بضع خطوات عن منزلهم، يتوجهان لغرفتهما.. غرفة مشتركة رغم قلة تواجد يوسف فيها، يجافيه النوم .. وهو الذي يواجه صعوبات في النوم إن غيّر مكانه في غرفته في منزلهم .. فكيف بغرفة أخرى لا يزورها إلا بضع مرات في الشهر! .. يهمس بأرق :" نجد؟ "

يزفر بشدة وهو يدرك أن أخاه غارق في نومه، ليهزّ جسده بضيق لساعات طويلة علّ النوم يرحمه .. سكَن فجأة وهو

يسمع صوت باب يفتح، لا بد أن الفجر اقترب ووالده استيقظ ليصلي وتره.. يتظاهر بالنوم عندما شعر بباب غرفتيهما يُفتح، يسمع وقع خطوات والده.. وها هو يشعر به يجلس على سريره، دفء كبير غمره على وقع كف والده التي امتدت لجبينه، يمسح عليه وهو يتمتم بدعاءٍ خافت ..
شعر بشفتي والده تقترب وتطبع على رأسه قبلة صغيرة :" الله لا يوجعني فيك ولا منك "

ابتسامة دافئة ارتسمت على وجهه رغمًا عنه، يكاد يشعر بوالده يفعل بأخيه نجد مثل ما فعل معه ..

قبلة والده هذه جعلته يرفرف بقية يومه، في الصباح أخبر أخاه نجد بفرحة غامرة .. ليُفاجأ بضحكة نجد الذي يخبره بأن هذه عادة والده كل ليلة .. انتابه حزن شديد على كل ليلة نام فيها بعيدًا عنه، حزن بعدد الأيام والمسافات الفاصلة بينهما..

•

في ثانوية الطلاب، يجلس في غرفة المرسم بملل كبير ..
يخرج ليتوجه لمكتبه الآخر، ليمارس مهنته الأخرى كإداري بالإضافة لكونه مدرس الرسم لجميع المراحل الدراسية، تجمّدت قدماه قبل أن يعتّب الباب وهو يرى (ياسر) يجلس مقابلًا لزميله .. يزدرد ريقه ليصله صوت الآخر بابتسامة واسعة: "خالد ! .. الله جابك، شوف مين مشرفنا اليوم. "

تتجه أنظاره لياسر الذي وقف بابتسامة واسعة، سلّم عليه بترحيب حار .. ليجلس الأستاذ خالد في مكتبه: "أنورت وأسفرت يابو يوسف."

يبتسم ياسر: "الله يرفع قدرك. "

يلتفت إلى زميله الذي نطق بابتسامة: "الله يا الدنيا، نجد ويوسف كبروا وبيدخلون الثانوي! "

يزفر براحة بداخله حينما أدرك سبب وجود ياسر: "اي والله الدنيا تمشي "

يتابع زميله: "أذكر اليوم اللي جبت فيه ثامر وكأنه أمس."

يلعن زميله بداخله والعرق يتصبب منه ليُشغل نفسه بأوراقه وهو يسمع صوت ياسر الذي نطق بخجل : "إلا

شلونه ثامر معكم؟ أدري متعبكم من أربع سنين بس عاد اصبروا شوي وتنتهي السنة."

يتسع بؤبؤ عيني الأستاذ الآخر لينطق: "ثامر منسحب من الدراسة! "

يشعر وكأنه تعرض لصفعة حارة على وجهه لينطق : "وشو ؟ شلون؟ أنا ولي أمره! "

يقف غير مستوعب ليتابع الآخر وصدمته لا تقلّ عن ياسر: "والله يا بو يوسف من بداية السنة سحب ملفه بموافقة خطية منك! "

يفتح أزاير ثوبه غير مستوعب، ثامر لن يهدأ حتى يسبب له جلطة تقتله.. يزمّ شفتيه ويتمالك نفسه ليقف سريعًا: "عن إذنكم"

يغادر ليُبعد الأستاذ خالد الأوراق عن وجهه، وزميله يقف بذهول: "شلون مو عارف! "

يهز أكتافه بلا مبالاة ويُشغل نفسه بملفات الطلاب أمامه : "الله العالم! "

يجلس الآخر بضيق شديد: "ما توقعت منه هالإهمال، ولد أخوه اليتيم ولا يدري عنه شي."

يقف خالد ليخرج من الغرفة وهو يحوقل ويتظاهر بالأسى، يتوجّه سريعًا ليفكر بحلٍّ سريع.

يعد الثواني ثانية ثانية حتى انتهى الدوام أخيرًا، يقفز سريعًا لسيارته القديمة، يسير بها في أرجاء الحي، لا أثر لثامر .. إما أن يكون وقع بين يدي عمه أو يتسكّع في الزقاق ..

يتوقف أمام مقهى شعبي قديم، المكان المفضل لثامر.. ومثل ما توقع وجد ضالته هناك، يُدخن سيجارة وأمامه كوب شاي مع مجموعة شبان متسكعين :" ثامر! "

يتوقف سريعًا ثامر ليرمي سيجارته: "هلا أستاذ خالد"

يهز رأسه بضيق ليشير إليه بكفه مناديًا : "تعال"

يدفع بضع ريالات ليخرج إلى أستاذه ويتبعه إلى سيارته، يشعر بقلقه لكن لا يتحدث.. يسير به مسرعًا إلى مكانهم المعتاد.. وما أن يدخلان يبادر ثامر : "صاير شي؟ "

يرفع رأسه ليمسح جبينه المتعرق: "عمك ياسر اليوم كان في المدرسة"

تتسع بؤرة عينه بخوف ليتابع الأستاذ: "جاي يتابع نقل اخوانك"

وقبل أن يتم حديثه يقاطعه ثامر بغضب:" مو اخواني! "

تذوب الكلمات في فمه، يُدرك تمامًا حساسية ثامر اتجاه هذه الكلمة.. يهز رأسه: "أقصد عياله"

لا ينطق ثامر والضيق جليًا عليه، يتابع أستاذه:" وسأل عنك! "

يغطي وجهه بكفيه: "اوف! شهالورطة.. يعني يوم قربت تنتهي السنة يعرف"

يزفر أستاذه: "هو عرف وانتهينا، الحين وش بتقول له؟ "

ثامر ببرود اعتراه فجأة:" بقوله أنا فشلت بالدراسة وانت أصريت أرجع أعيدها .. تحمّل نتيجة إصرارك، أنا مو ولدك تتحكم فيني! "

يعود بكرسيه للخلف، ليكتف يديه: "ثامر أنا أدري بكل شي، لكن لا تنسى هذا عمك.. أخو أبوك اللي تحبه، ولا تنسى هو اللي رباك"

ينوي أن يعترض لكن يرفع خالد يديه طالبًا منه السماع: "قدرك عندي عالي، ولا أرضى منك هالشي"

يبتلع غضبه وهو يهز رجليه بغضب، يصله صوت أستاذه: "اتفقنا؟ "

يهز رأسه على مضض، ليقف خالد ويتبعه: "بوصلك الحين، أكيد ينتظرك"

وما أن وصلا لحدود حيهم يترجّل ثامر من السيارة ليسير على قدميه وهو يراقب السيارات المركونة، يطمئن قلبه وهو لا يرى سيارة عمه .. يفتح الباب بهدوء ليغلقه خلفه وما أن لامست قدمه العتبة الأولى يتجمّد على الصوت من خلفه :" انتظر! "

يبتلع ريقه، ليأخذ شهيقًا يشجّع به نفسه ويلتّف على الجالس بطرف الفناء الخارجي.. يعقد حاجبيه متظاهرًا بالبرود :" هلا ..."

يمسح ياسر جبينه المبلل بالعرق ليقف محاولًا كبح غضبه :" وين كنت؟ "

يصمت قليلًا قبل أن يجيب :" اممممم، بالشارع! "

يرتفع حاجب ياسر بقلة صبر من رده :" ايوه، والصبح وين كنت؟ "

يتأفف بضيق :" عمي أنا بمحضر تحقيق ولا وش؟ "

ينفتح الباب الداخلي في هذه الأثناء، لتظهر نورة بحجابها الكامل.. لتهمس بعتب :" ثامر احترم عمك"

يرفع ياسر كفه لها دون أن ينظر إليها:" نورة أنا بتكلم معه اتركينا وحدنا"

لا تتزحزح عن مكانها، ليتابع ياسر بهدوء شديد يتملكه ويخفي الغضب الكبير بداخله :" اليوم الصبح كنت بالمدرسة ...وأظنك تعرف السيناريو اللي حصل"

يجلس ببرود على عتبة الدرج:" لا ما أعرف .. نورني"

يفقد أعصابه ياسر، يقترب منه بشدة :" ثامر لا تجنني! "

يقف بمواجهته ثامر وهو يصده بكفيه :" عفوًا انت شايف نفسك مين؟ للبيت حرمته وأمي ماعاد هي حلال لك عشان تدخل وتطلع متى ما تبي! "

تشهق أمه بصدمة :" ثاااامر! "

يرجع للخلف ثامر وهو يصعد العتبات حتى يقترب من أمه وعينه لا تتزحزح عن وجه عمه المنصدم :" مثل ما سمعت ... ولا ودك الجيران يسمعونا؟ "

تهتز عينا ياسر بصدمة وخذلان من كلام ابن شقيقه، اليتيم الذي ضمّه في صغره.. يُدرك أنه فشل في مهمته، ينوي أن ينطق .. لكن يُقاطع رغبته صوت طرق الباب، تتجه أنظارهم له، لتعض شفتها نورة وهي تتخيل أن صوت ابنها وعمه وصل للجيران وتتوارى خلف الباب.

يزفر ياسر بشدة، قد يكون الطارق مرسولًا من السماء ليهدئ غضبه.. يتمالك أعصابه ليتوجه للباب ويفتحه،

تنعقد حاجباه إثر رؤيته للطارق :" يا هلا خالد! .. حياك الله"

ترتسم ابتسامة واسعة على شفتي خالد :" الله يحييك أبو يوسف، لا يكون بس جاي بوقت غلط!"

يزم شفته ويتظاهر بالترحيب الشديد وهو يفتح الباب أكثر :" لا أبد، حياك الله .. أعز من ينورنا"

تخطو خطى خالد للداخل وهو يفتّش بعينيه عن مراده، حتى حطّت على ثامر المندهش.. :" السلام عليكم ثامر، ولا ما ودك تجي تسلم على أستاذك!"

يتحرك ثامر بعد ما كان متجمدًا ويتقدم إليه مسرعًا وهو يرحب به ويسلّم عليه، يدخلون المجلس الخارجي لينطق ياسر :" ثامر يابوي رح قلهم يجهزون الشاي والقهوة"

يبتعد ثامر ليلتف خالد على ياسر بخجل مصطنع :" والله يابو يوسف أبيك تعذرني، جيت بدون لا آخذ الإذن "

يهز رأسه نفيًا بسرعة :" لا الله يسامحك، لا عاد تقوله.. انت غالي وجيتك أغلى"

يزفر خالد :" ما كلمتك لأني ما توقعتك تكون موجود، كانت النية جلسة سريعة مع ثامر "

يلمح انكسار عيني ياسر على ذكر اسم ثامر، ليطبطب على ركبته :" ثامر مثل ولدي، عاشرته ١٢ سنة متواصلة.. من كان طفل وأنا أعرف له، وانت تعرف إنه كان يقدّرني .. لهالسبب أقولك خلّه بوجهي"

يرفع رأسه ياسر على كلمته الأخيرة، ليشد عليه خالد:" اللي ما تعرفه ان ثامر كان يشوفني مثل أبوه، وكان يشكي لي كل شي بصغره"

تلين نبرة ياسر لينطق بانكسار :" ايه يشكي لك شكثر أنا عم غير صالح! "

يهز رأسه نفيًا :" الله يسامحك ياسر، ثامر يعزّك.. لكن يحتاج من يفهمه"

يزفر بشدة ليُرجع ظهره للخلف :" أنا ما زعلت منه لأنه انسحب من الدراسة بدون ما يقول لي، أنا يا خالد خايف عليه من هالدنيا ومن هالشوارع.. يعني سنة كاملة يطلع الصبح ولا يرجع إلا الظهر واحنا نحسبه بالمدرسة! وفوق هذا ما ينتظر إلا ساعتين ويرجع يطلع وأقول الولد ضايق خلقه من المدرسة بيطلع يوسع صدره مع العيال بالكورة ولا غيرها .. وأنصدم إن كل هالوقت كذبة؟ ... والله لو انه يوسف يهون، بس هو أمانة! .. والأمانة تهدّ الروح يا خالد،

أدري اني مقصّر معه، بس هو ماعاد يترك لي مجال، مقفل كل الأبواب بوجهي"

حزنه الشديد على ابن شقيقه حجب عنه رؤية ما توارى خلف عيني خالد، ليعتدل بجلسته وينطق :" طيب يا بو يوسف أنا طالبك تخليه يبقى عندي اليوم، وأوعدك أسمع له وأعدّله"

ترتفع عيناه بتردد، خالد ابن الحي .. وأستاذ يعرفه جميع أولاد الحي وآبائهم منذ ما يقارب اثنا عشر عامًا، علاوةً على أن ثامر الطفل المشاغب والمراهق الطائش لم يكن يستمع لأحد سوى (الأستاذ خالد!) حتى أنه يقدّم كلامه على كلام عمّه .. يشدّ عليه خالد بإصرار :" ثامر هو ولدي اللي مارزقني الله به، يقلقني طيشه مثل ما يقلقك، تطمّن يا ياسر"

على كلمته الأخيرة يدخل ثامر حاملًا القهوة والتمر.. يرمي نظره على أستاذه بقلق ليومئ له الآخر بعينيه ليطمئن، يصب القهوة على صوت عمه المستسلم وهو يقف ليشير له بعينيه وهو يقول :" المجلس مجلسك خالد، خذ راحتك... "

يخرج معه ثامر لباحة المنزل ليبادر ياسر بعتب :" عن إذنك، بس أبي أملك بكلمة "

لا يجيب ثامر، يكتفي بدخوله داخل المنزل وماهي إلا ثوانٍ حتى يعود وبصوت جامد :" ادخل"

يدخل ياسر شبرًا واحدًا لعتبة الباب ونورة تقف على رأس المدخل بينما ثامر يخرج بعدما ترك الباب مفتوحًا ليتوجه سريعًا إلى المجلس :" وش جابك الله يهديك؟ "

يغمز له خالد بضحكة :" هذا بدال ما تقولي شكرًا لأنك انقذتني من الجلد؟"

يزم شفتيه باعتراض :" ما يقدر يجلدني"

يعتدل خالد بجلسته :" لوني مكانه كان جلدتك! بس ياسر قلبه رهيّف"

يزفر بضيق شديد :" ماعلينا منه، بس قولي ليش جاي!"

خالد بضحكة:" جاي على أساس أكلمك وأعقّلك.. وأبشّرك قلت له باخذك معي البيت"

تتسع حدقتا عينيه مع اتساع ابتسامة شفتيه :" صدق؟"

يهز رأسه إيجابًا :" اي والله .. - يصمت ليهمس- هذا هو جاء"

يعتدل ثامر بجلسته على دخول عمه الذي نطق :" خلاص خالد، سوي اللي تشوفه"

•

داخل المنزل، يجلسان متقابلين تفصلهما طاولة صغيرة عليها كتاب ودفتر.. ترفع رأسها بعد ما انتهت من حلّ المسألة :" شوف كذا صح؟"

لا يرد عليها، وكأنه لم يسمعها وأنظاره تتجه لخارج الغرفة .. ترفع كفها لتضرب خده :" هيه نجد! "

يفز على لمستها :" هلا هلا معك "

تترك القلم على الطاولة :" واضح "

يزفر بضيق شديد :" ودي أعرف وش جالس يصير برى"

يصله صوت المستلقي على الأرض وبيده جهاز المسجل الصغير :" ثامر كالعادة"

يلتفت على يوسف وبرجاء :" قوم ياخي شوف وش صاير"

ترجع بكرسيها للخلف :" أنا بشوف"

تخرج من الغرفة لينطق نجد بضيق :" يوسف شهالبرود؟ "

لا يلقي له بالًا وهو يضع السماعات في أذنيه، يزفر بضيق نجد لينتظر حتى تعود أخيرًا يمامة :" أبوك ينتظرك برى"

يقف سريعًا:" يوسف شوف حل يمامة إذا صح أو لا ... - يلتفت عليها بابتسامة - أشوفك بكرة، مع السلامة"

تبادله الابتسامة وتتبعه حتى يصل إلى أبيه، يبادر سريعًا :" وين ثامر؟ "

ياسر وكأن جبال من الهم تهوي على صدره، يزفر :" راح مع أستاذ خالد، وبيرجع بكرة"

تتسع عيناه بضيق :" أستاذ خالد كان هنا ولا علمتونا نسلم عليه؟!"

يطبطب على رأسه ياسر وهو يفتح الباب يقصد الخروج :" جاي مستعجل وراح"

يخرجان وقبل أن يغلقَ الباب، يشعر بالكف التي أمسكت بالباب تمنعه من إغلاقه :" يبه .."

يلتف ليجد يوسف خلفه، يعقد حاجبيه ليبادر يوسف بخجل ممزوج بضيق :" آسف على اللي قاله ثامر"

تلين ملامح ياسر ليبتسم بحنو :" لا يبه ما صار شي، هو ولدي ومقامه من مقامك انت ونجد ولا يطاوعني قلبي أزعل منكم"

ينزل رأسه يوسف ليعود صوت أبيه :" يلله ييه قفل الباب ورانا، وروح اجلس مع أمك وداري خاطرها"

يهز رأسه يوسف ليغلق الباب، يسيران معًا ممسكًا بكف ابنه نجد.. يزفر بحرارة لتخرج كلماته أشد حرارة :" نجد يبوي أنا ظلمت ثامر؟ "

يعقد حاجبيه نجد ليهمس :" لا .. حاشاك"

يرفع رأسه بضيق :" الولد دايمًا يشوف أبوه على حق"

يشد على كفه نجد بقلق :" يبه انت طول عمرك تعامل ثامر مثلي ومثل يوسف، بس هو الله يهداه ...."

يقاطعه ياسر :" اليتيم يبه، اليتيم يبقى طول عمره وجع بقلب عمه"

تلين ملامح نجد :" الله يبعد الوجع عنك، لو فيني أشيل هالهم من قلبك"

ينزل رأسه لتظهر له ملامح ابنه الموجوعة لوجعه، يبتسم بحنو ليسير به بقية الطريق، وما أن وقفا أمام المنزل ..

أخرج ياسر مفاتيحه، فتح الباب ليُدخل نجد أولًا ويلحقه.. وقبل أن يُغلق الباب شعر بالظل الذي امتد من خلف ظلام الحارة ليتسلل إلى جسده، رفع رأسه عاقدًا حاجبيه من زائرٍ بوقتٍ غير مناسب، ليفغر فاهه باندهاش، أنفاسه

تسارعت وتضارب قلبه وهو يرى النحيل الملثم.. اهتزت شفتيه برعشة، ليتقدم الملثم بخطى غير واثقة، أدركته أنفاسه ياسر ليهمس :" يعقوب؟ "

لم يصله صوت، فقط عينان ارتعشتا وضباب الدمع يغطيها، كان التردد جليًا عليه، وأكثر كان يغطيه الضعف وقلة الحيلة وكأنه يبحث عن ملاذ أو جواب .. تراجع ياسر للخلف فاتحًا الباب أكثر وبدون تصديق لما يراه همس :" ادخل يعقوب .. ادخل"

خطّت قدماه أولى خطواتها للمنزل المتواضع، ليُدرك أن لا مجال للهرب أكثر .. أغلق الباب ياسر بسرعة وكأنه يخشى أن يهرب، ليلتف إليه ويزم شفتيه مانعًا دموعه :" أبطيت يا يعقوب! فقدت الأمل والله! "

يُنزل رأسه والدمع يغطيه، لا يُسعفه صوته.. ليُفاجأ بذراع ياسر التي جذبته إليه بقوة وآوته إلى كتفه.. انهار باكيًا بصمت وجسده يرتعش وهو يشد على رفيق صباه، لم يبك حزنه وفقده وقلة حيلته أكثر من بكائه لإدراكه أن كل ما كان يحتاج إليه هو هذا الكتف الأخوي، شدّه بقوة وأنينه يخرج بطول المسافات التي قطعته عن الإحساس بالحياة،

عن الإحساس بأنه هو، بأنه يعقوب الذي ابتلع نفسه ونساها..

بكى ياسر كثيرًا كل البكاء الذي كان يخبأه لستة عشر عامًا، بكى السنين التي خُذل فيها ولم يجد أحدًا يأويه .. ريح يعقوب كانت محملةً بريح يوسف، بريح نجد، بريح الحياة الراحلة، لم يكن فقط يعقوب.. كانت حيوات كاملة مختزنة بين كتفيه.

ابتعد ياسر قليلًا ليُمسك اللثام عن وجهه ويزيحه، لانت ملامحه بحزنٍ أكبر وهو يرى الملامح التي اعتاد أن تكون مشرقة، ذابلة.. هي ليست ملامح يعقوب أو يوسف، هي ملامح جثة هامدة، لو لا صوت ابنه نجد لظّن أنه جُن أو أن يوسف قرّر في هذه الليلة أن يغادر قبره ويزوره!

بتعجب وخوف كبير :" يُبه؟ "

شعر بوجود نجد ليبتعد مسرعًا عن يعقوب ورعشة مزلزلة أصابته وهو يستوعب وجود نجد همس بحشرجة صوته :" نجد يبوي ادخل داخل ونم"

عقد حاجبيه بعدم راحة، ليباغته صوت أبيه آمرًا :" نجد احكي لك بعدين كل شي، روح غرفتك"

بتردد كبير تراجع للخلف، حاول أن يحفظ الملامح التي شعر بأنها جزءٌ من أبيه .. ليدخل الباب الرئيسي ويتركه مفتوحًا، وما أن دخل غرفته فتح نافذته ليراقب عن كثب المدخل الخارجي بقلق وخوف على والده.

تراجع ياسر للخلف ليعود ليعقوب الذي تجمّد بمكانه وهمس بجزع:" نجد؟ "

لم يُدرك الخطأ الفادح الذي ارتكبه إلا وهو يرى الخوف الذي تملّك يعقوب إثر سماعه للاسم!، اقترب منه ليُمسك بكفه ويسير به إلى المجلس الخارجي.

ملامح يعقوب الذابلة ازدادت ذبولًا أكثر عند سماع الاسم، بشفتين ترتجف :" اسمه نجد؟ "

شتت أنظاره عن صاحبه وهو يهز رأسه، شعر بيعقوب يتضاءل أكثر وبكاءٌ حارق بلله وبرعشة المستنجد وصل صوته ضئيلًا :" بكل الزوايا أشوفه! .. كل شي بهالمكان ينادي باسمه .. تعبت يا ياسر! "

شدّ على كتفه ياسر بحزنٍ وقلق :" انت وين كانت أراضيك؟ تعرف إنا حفرنا الأرض وكل مكان واحنا ندورك؟ "

ترتفع أنظاره بريبة وخوف يلازمانه :" انتو؟ انتو مين؟ "

ثبّت أنظاره عليه بلومٍ ممزوج بخوف: "الكل يعقوب! لا تظن إنهم نسوك ونسوا اللي صار، هذا دم يا يعقوب! "

ارتعش بخوف ليشد على ركبته ياسر :" انت عندي بأمان، لا تظن خويّك يغدر بك.. بس، أبي شي يشفع لمقامك ولأخوتك بقلبي! احكي .. برر لي يا يعقوب، خل هالسواد اللي سببته يروح!، أنا ماعاد أعرف أصدق مين وأسمع لمين! كلكم بليلة وحدة رحتوا وبقت الأسئلة عن اللي صار تقتلني.. أبي أسمع من لسانك عن اللي صار بعد ما تركتكم"

على أنّ الماضي يقتله، إلا أنه بحاجة ماسة للحديث، لاستفراغ الحزن والملامة عن قلبه.. لم يقطع كل هذه المسافات ليبقى صامتًا ويعود كما كان بألمه.. :" اللي عرفته بذاك الصبح إن الله يحبك يا ياسر! .. مدري وش الخبيئة اللي بينك وبين الله شفعت لك لتكون بعيد عنّا بذاك اليوم.. - أنزل رأسه وضمّه بين كفيه ليسرد ما حصل وكأنه يوم أمس بغصة تُخفي الحياة بصوته - يوسف ونجد .. مثل ما تركتهم ورحت بيتك كانوا يصيدون بخيلهم.. ودّعتني وبقيت وحدي، كنت أكره الصيد وتعرف هالشي يا ياسر .. - زفر زفرة حارة- ليت الله خذاني قبل لا أمسك السلاح.. ليت الله ألهمني وأجبرت يوسف يروح أي مكان إلا إنه يروح يصيد ..

مشيت ناوي ألحق يوسف ونجد، وان كانك تذكر يوسف كان يبي يعلمني الصيد بذاك اليوم قبل لا أرجع .. كان صوت الرصاص يهزني بكل دقيقة، لين ....- بحّ صوته ببكاء ضعيف، شعر بذراع ياسر التي احتوته .. حاول إكمال حديثه لكن بكاءه منعه، لم يمنع نفسه.. استمرّ بالبكاء حتى اختلط صوت بكائه بصوت عبرات ياسر، رفع رأسه بانهيار - شفت يوسف يا ياسر يطيح من حصانه، شفت دمه غرّق التربة تحته.. يوسف يا ياسر! يوسف توأمي والوحيد اللي حلفت بروحي أفديه، كان يوسف وحده اللي يؤمن بي .. يشد على يدي كثر ما ارتكبت من أخطاء.. - بانكسار تابع- شفت اللي صاوبه، كان قدّامي ويبعد عني أمتار.. فقدت عقلي يا ياسر .. أنا حتى ما أذكر وش سويت، ما وعيت إلا ونجد طايح جنب يوسف ورصاصتي هي اللي أردته! ... ما كنت أدري إنه نجد والله! ... - بضياع هز رأسه- حتى لو دريت إنه نجد أنا ما أدري وش كنت بسوي، يوسف لو يصيبه شي تنعمي عيوني.. لو هو موسى اللي يضر يوسف تنعمي عيوني.. - رفع رأسه باحثًا عن دعم- تلومني ياسر؟ هذا يوسف والله .. يوسف اللي للحين أعشّم نفسي يجي يوم ويفتح بابي- زمّ شفته ليُمسك بشماغه- هذا شماغ يوسف،

فجر اللي صار فرشه لنصلي أنا وياه ونجد الفجر عليها ..
تدري يا ياسر إني للحين أشم ريحته فيها؟ - قرّبه من وجه
ياسر ليؤكد - تشمها؟

ياسر كان غارقًا بدموعه والألم يتجدد إثر سماعه للقصة لأول مرة.. هزّ رأسه باستياء من حالة يعقوب، تابع يعقوب :" الشباب اللي كانوا حولنا سحبوا يوسف ونجد من بين يديني، ما كنت أسمع .. ولا كنت واعي، سحبوهم وسحبوني معهم وركبونا سيارة.. كنت أنادي على يوسف وعلى نجد، بس .... قدر يوسف كان أسرع من صوتي.. حاولت أغطي مكان الجرح بس دمه غطاني .. أما نجد ... نجد قدر يمسك يدي.. - ارتعشت شفتاه بألم- ما أسعفه عمره إلا إنه يقول (أختي يا يعقوب لا تضيمها) ويرددها..

تجمّدت أطراف ياسر، انقطع نفسه وضربات قلبه تزيد.. ليرفع رأسه يعقوب بقلة حيلة: "كنت أدري إنها بتنضام عندي... - يصمت للحظة ويتابع - تعرف أخبارها؟ "

•

في ذات الحي، لكن بمسافة بعيدة .. في بيت صغير، يخرج من السيارة بحرج، ليتقدمه خالد وهو يفتح باب المنزل :" ادخل حياك"

يزيد حرجه، لينطق وهو يمرر أصابعه على شعره :" عمي لو توصلني للمزرعة، أريح لك ولا أضايقكم"

يرفع رأسه خالد ممثلًا المفاجأة :" الله شهالأدب! من ذا؟ ذا ثامر اللي أعرفه؟ "

يزفر بضيق ولا يعلّق وهو يسند جسده على السيارة، ليضحك خالد وهو يسحبه للداخل :" لا تشيل هم، أستاذك وحيد .. مثلك تمامًا"

يشعر بالطمأنينة تتسلل له، ليدخل .. يعاوده الحرج وهو يرى الفوضى التي تعمّ المنزل الصغير، يلحق أستاذه ليدخلان متجاوزين الباحة الصغيرة.

ينطق خالد وهو يتجه لإحدى الغرف :" خذ راحتك .. - يلتفت عليه بضحكة قبل أن يغلق الباب- تعرف على

البيت، ولو تبي قوم سوي لنا العشا .. الظاهر دايمًا بتكون ضيفي "

يبتسم وشعور بالغرابة يراوده، أستاذه خالد يكبره بخمسة عشر عامًا، لكنه يشعر به وكأنه نسخة منه .. وكأنه هو في المستقبل، غير أن روح خالد كثيرة المرح، عكسه تمامًا .. يسير ببطء حتى يتعرف على المطبخ، يدخله بتردد .. لتداهمه الفوضى العارمة فيه، مطبخ خالٍ من الدولاب، لا يحتوي إلا على موقدٍ أرضي ومغسلة صدئة، والكثير الكثير من الأكياس والبلاستيك الموزعة في كل مكان .. لا يعلم ما يفعل، يقف ليحمل الأكياس ويحاول ترتيب بعض الفوضى، هو لا يجيد الترتيب لكن صورة مطبخ منزلهم تتراءى له لتجبره على ترتيب المكان .. يأخذ أحد الأكياس ليلتقط كرتون البيتزا ويضعه فيه، علب المشروبات الغازية الفارغة .. يزفر بضيق لا يبدو على أستاذه خالد كل هذه الفوضى!

فجأة .. شعر بأن رأسه قُسم إلى نصفين، كهرباء شديدة الألم تسري به، ليصرخ بتلقائية ممسكًا برأسه :"آآآآآخ! "

يغمض عينيه بشدة متألمًا، ليصله صوت يزيد من ألم رأسه :" رغد! "

صوتٌ حاد غير مألوف :" حراامي الحق الحق "

شوشرة ما تحدث خلفه، لا تسعفه أذنه للسماع، وها هي ذي ذراع أستاذه تمتد له لتمسك رأسه بخوف متفحصًا وجود آثار أي دماء.. :" ثامر معي! "

يغمض عينيه بشدة ويفتحها هازًا رأسه :" ايه معك معك"

يزفر خالد بشدة ليلتفت للخلف :" روحي لغرفتك الحين! "

يعتدل ثامر بجلسته ليلمح طيف جسد يمر سريعًا ويدخل إحدى الغرف، تصله زفرة خالد :" مافي كسر منّا ولا منّا"

يتنهد كاتمًا ألمه ليُبدد الإحراج عن أستاذه :" لا ما صار شي "

يرفع خالد عصًا غليظة ويلوّح بها أمامه :" كل ذي براسك ولا صار شي! - يبتسم كعادته وهو يرمي العصا بعيدًا- الحين وش بيقول عنّا ياسر؟ "

يضحك ثامر بخفة :" تلقاها حوبته"

يقف خالد ويمد يده لثامر ليقف معه وهو يضحك، يجلس على فرشة أرضية تتوسط الصالة .. ليقف خالد

ويتجه للمطبخ :" ايه الظاهر من حسن حظك أنا اللي بجهز لك العشاء"

يبتسم ثامر وعيناه تجول في أرجاء البيت المتواضع، لا يعلم ما سبب الحميمية التي يشعر بها تغلّف جدران البيت على بساطته، تسقط عيناه على الجدار المواجه للمطبخ، ملطخٌ بالألوان .. رسومات عشوائية، تشي بالكثير .. يكاد يميز رسومات أستاذه خالد عن رسم عبثي آخر، كيف لا يميزه وهو الذي أمسك بكفه صغيرًا ليلوّن معه أول لوحة؟ كان على عكس معظم الطلاب .. يستميت شوقًا لحصة الفنية التي يتململ منها الجميع، كان في أول سنين فقده لوالده، وكان خالد شاب صغير متحمس للعطاء .. رأى في انعكاس عيني خالد والده، نبرة صوت والده التي نساها كان يشعر بأنها نبرة أستاذه، حتى عندما يزوره والده في المنام، يتشكل على الهيئة التي يحفظها لكن صوته كان صوت أستاذه خالد.

يقف بتلقائية مشدودًا للوحة فنية مرسومة لجسدٍ صغير مضرجٌ بدمائه يتوسّد جسدًا أكبر، جسدٌ وكأنه السماء، سماء لوّنت باللون الأسود والأبيض والأخضر وعلى يسارها مثلث أحمر، نعم يذكر تلك اللوحة الكبيرة التي شارك في

تلوينها، قبل ما يقارب الأربع سنوات .. حينما وقفت جميع المدارس وقفة روحية، خصصت مدرستهم ذلك اليوم لمحمد الدرة وللانتفاضة الفلسطينية، يتأمل الطفل الفلسطيني الذي طُبعت صورته بذاكرة كل طفل وكل كبير .. كل ما استطاع أستاذه أن يقدمه في ذلك اليوم لأرض الشهداء هو هذه اللوحة البديعة، لروح محمد الدرة ولأرواح الشهداء الأبطال.

" ايه وين وصلت؟ "

يلتفت على أستاذه، ليبتسم ويحمل عنه طبق الفاصولياء وقطع الخبز :" عنك أستاذ"

يضعها على الأرض ويجلس، يرفع رأسه مستنكرًا وقوف أستاذه، ليرى ملامح خالد التي تشي بالاستغراب .. يعقد حاجبيه بقلق، لتنطلق ضحكة من خالد وهو يتجه له :" اي والله ما عرفتك اليوم ثامر! "

يجلس أمامه دون أن يعلق ثامر، يأكل لقمتين ليقف وكأنه تذكر شيئًا :" الله يلعن الشيطان، شلون نسيت" يقف مسرعًا وهو يحمل قطعة خبز من الكيس، يتجه للمطبخ ليأخذ صحنًا آخر يحمل القليل من الفاصولياء، يفتح باب أحد الغرف ويغلقه خلفه، يصل لمسامع ثامر ذات الصوت

الحاد يتناوش مع أستاذه خالد.. وأخيرًا يخرج خالد وهو ينفث، ليجلس أمام ثامر :" كل لا تستحي"

يتقاسم مع أستاذه قطعة الخبز، تتراءى له صورة عمه ياسر وهو يقطع الخبز ثلاثة أجزاء .. يضعه أمام كل واحد منهم، يستنكر نجد الثرثار وهو يرى أن الخبز كثير فلا داعي لتقسيم الواحدة بينهم، يخبره ياسر أن هذه العادة ورثها من أمه وأخيه الراحل، حتى وإن كان الطعام زائدًا لا ينفك ياسر عن عادته هذه في تقطيع الخبزة الواحدة بينهم ويعود ليقطع المزيد دون بخل.

يشعر باستغراب أستاذه من حركته والخبز الموجود يكفيهما ويزيد، يبتسم :" هذي عادة عمي ياسر .. عودنا عليها"

تزيد ابتسامة خالد :" ايه الحين أذكر محاسن عمك، يوم فقدته"

يود أن ينطق أنه لا يكره عمه ياسر، ولكن غيضه كبير عليه وغيرته أشد كونه كان زوجًا لأمه وازداد الأمر سوءًا بعدما طلقها، لكن صوت صرير الباب يخرسه وهو يراه يُفتح وتخرج منه فتاة صغيرة يخمّن أنها بعمر يمام .، شعرها قصير لا يكاد يغطي رقبتها .. تحمل قطعة الخبز

والغيظ ظاهرًا عليها، لا تنطق، تكتفي بالجلوس بينهما وتضع الخبزة فوق خبزة خالد بلا مبالاة وتبدأ بالأكل..

يتجمد بمكانه وهو لا يعرف كيف يتصرف، لكن لا يعلم ماسبب الضحكة التي تكاد تنفجر من بين شفتيه، يزم شفتيه ليمنعها.. يرفع رأسه لأستاذه الذي يبحلق بالفتاة الصغيرة وهي تأكل وباستنكار :" ماااااشاء الله! "

تضع الفاصولياء في الخبزة لتأكل بلا مبالاة، وببرود شديد :" أباكل معكم"

تزيد دهشة خالد ليكتف يديه وهو يثبت أنظاره عليها ينتظر مغادرتها :" ايوه؟ "

لا تبالي، بل ترفع رأسها لتشير على إبريق الشاي :" أبي شاي"

يشعر بإحراج شديد، ينوي الوقوف ومغادرة المكان قبل أن تنفلت منه ضحكة في غير موضعها .. ليصله صوتها الحاد وهي ترفع نظرها له:" وين؟ باقي ما أكلت شي! "

وكأن صوتها هذا كان الدبوس الذي فجّر نافورة من الضحك، لم يستطع تمالك نفسه ليدخل في نوبة ضحكٍ شديدة، لا يعلم سببها .. بسبب غرابة الموقف؟ أو دخولها المفاجئ؟ أو لصوتها الغريب؟

تتوقف عن مضغ اللقمة بسبب ضحكته، ترفع رأسها له باستنكار .. تلتفت على صوت خالد الذي بدى ضاحكًا لضحكة ثامر :" ايه يا رغد، مين قدك؟ سمعتينا ضحكة ثامر! "

يخرج من الصالة بسرعة واللقمة تقف في منتصف حلقه بسبب الضحكة، يصله صوت خالد بعيدًا :" الحمام على يمينك"

يتجه للمغسلة ويسعل بشدة، يغسل وجهه وهو يتكئ عليها .. وما أن رفع وجهه حتى ظهر له وجه خالد على انعكاس المرآه أمامه.. يلتفت لينطق :" اعذرني والله.. ما حسيت بنفسي"

يتنهد خالد بقوة ليبتسم ببطء :" لا ولا تعتذر"

يتنحنح، ليتابع بالفكرة التي راودته :" أستاذ خالد ما ودي أضايقكم، ونفسي هدت .. برجع بيتنا"

تتغير ملامح خالد، لأول مرة يرى البؤس فيها .. ملامحه الضاحكة والمرحة سقطت ليظهر له الوجه الآخر، وجه لا يشبهه، مليء بالتعب والسوء.. يتكئ خالد على الجدار لينطق بهمس :" انت أول شخص أسمح له يطّلع على حياتي.. مافي شي أقدر أخبيه أكثر"

تنعقد حاجبا ثامر باهتمام ليعتدل خالد بوقفته يُمسك بكتفه ليجره معه للباحة الخارجية الصغيرة.. يُجلسه على بساط أرضي رقيق ويعود للداخل مجددًا، دقيقة حتى يرجع محملًا بفراشين وبعض الوسائد.. يقف ثامر ليساعده بترتيبها، يتمدد أخيرًا خالد والسماء السوداء لحافه .. يبدأ يسرد عليه، وثامر مدهوش بما يسمع.. يرق قلبه، ينسى نفسه .. وينسى همومه الصغيرة التي بصق على تفاهتها، حتى شعر بصوت أستاذه يغيب .. ويبدو أن النوم سرقه، يتنهد بقوة.. يُعيد كل الكلام الذي سمعه، ليفارقه النوم.

يقف ويسحب اللحاف الخفيف ليغطي أستاذه به، يتأمل ملامحه عن كثب .. لمَ يشعر بأنه يراها لأول مرة؟ الحزن يرتسم عليها ويشكل خطوط جبينه .. يبدو أكبر من عمره، يُقارن بينه وبين عمه .. على أن عمه لا يكبر خالد إلا بثلاثة أعوام إلا أن خالد يبدو كبيرًا جدًا وكأن ابن الخامسة والثلاثين تجاوز الأربعين.

يعود إلى فراشه، يحاول النوم لكن لا يستطيع .. يقف ويلبي نداء الطبيعة، يدخل للداخل متذكرًا دورة المياه القريبة، يقضي ما بنفسه ليخرج ويتجه للمغاسل..

" انت اسمك ثامر؟ "

يلتفت بسرعة وخوف من صوتها، ذات الفتاة الغريبة تقف على مقربة .. وابتسامة واسعة تشق طريقها، تشبه لخالد حتى في ابتسامتها المرحة! ، من كانت تثير ضحكه قبل قليل تثير حزنه وشفقته الآن، يبتسم بحنو :" ايه ثامر .. روحي ادخلي ونامي"

تتقلب ملامحها :" اسمك خايس! "

تتسع عيناه، ليشير لنفسه :" أنا اسمي خايس؟ "

تهز رأسها تأكيدًا :" ايه .. "

يقترب منها، يعبث بشعرها القصير الناعم .. قصيرة لا تكاد تصل إلى وسط بطنه، تتراءى له صورة خالته يمام، ماذا لو كانت سليمة؟ كيف سيكون طولها؟ لا بد أنها أطول من القزمة أمامه .. :" خلاص روحي نامي"

يتركها خلفه وهو يسمع صوت حلطمتها وغضبها، تبدو متلهفة للحديث مع أي كائن.. يعود للبساط الخفيف، بجلس عليه، يتأمل ما حوله .. لحظة سكون نادرًا ما يشعر بها، يستلقي .. وما أن داهمه النوم حتى قفز على صوت جواله النوكيا القديم، يعقد حاجبيه ليسحبه وحركة أستاذه توتره .. يقف ويمشي بعيدًا، رقم منزل عمه يضيء الشاشة، يزفر بضيق .. متى يفهم عمه أنه لم يعد صغيرًا؟

متى سيصدق أن ثامر الصغير على عتبات العشرين؟ لا يفصله عنها سوى بضعة أسابيع ..

يبنوي عدم الرد، ينقطع الاتصال لتظهر له رسالة من رقم عمه (أبوي تعبان .. تعال بسرعة)، يعقد حاجبيه، غادر وعمه بخير .. ما الذي حدث؟ هل هي خطة من يوسف أو نجد ليعود؟

وقت الفجر اقترب، ولا يود إزعاج أستاذه.. يمشي بهدوء ليعود للداخل، يرى رغد مستلقية أمام التلفاز بتململ، يهمس :" أنا بروح .. لو صحى خالك قولي له عم ثامر تعبان"

لا يتوقف لسماع ردها، يمشي مسرعًا ليخرج بهدوء ..

يسير مشيًا حتى يصل إلى منزل عمه مع تردد الأذان في الأرجاء، يطرق الباب ليفتح يوسف بسرعة، يعقد حاجبيه :" وش صار؟ "

يزفر يوسف بضيق :" مدري، نجد يقول تعب فجأة ولا يعرف وش فيه"

يدخل للداخل إلى غرفة عمه، يراه مضطجعًا على السرير وآثار دم تغطي أنفه .. ونجد يجلس بجواره ممسكًا بكفه والخوف يغطيه، يقترب ليجلس على الجهة الأخرى، لا يعلم ماذا يفعل .. تنتقل عيونه إلى نجد:" وش صار؟"

نجد يزيد من شده لكف والده، يزم شفتيه متذكرًا ما حصل، ضيف غريب، انعزال والده مع الضيف لوقت طويل.. حتى سماعه لصوت ارتطام باب المجلس، يتذكر الهيئة التي خرج بها الضيف، كان التوتر جليًا عليه .. مرتبكًا وغادر متعثرًا وكأن السكرة تغطيه، قلق نجد على والده الذي لم يظهر جعله يقفز إلى المجلس، ليصطدم برؤية والده يتكئ على الجدار بقلة حيلة ودموعه تغطيه .. لم تمض سوى لحظات حتى نزف أنفه بشدة، ساعده على الوصول لغرفته والقلق يأكله مما حصل، ليشد عليه والده ويردد (لا تقول لأحد، لا تحكي وش شفت، هالشي بيني وبينك نجد، سر أبوك احفظه) حتى فقد وعيه. . يعود صوت تحذير والده له، لينطق أخيرًا :" كان بمكتبه، رحت أتفقده لقيته تعبان وجالس على الأرض وخشمه ينزف وحرارته مرتفعة"

يزفر بضيق ثامر وخبرته الحياتية لا تتجاوز الشوارع والسكاكين وعصابات الأحياء الصغيرة، ماذا يفعل؟ لينطق بسرعة وكأنه تذكر :" عطني رقم خالك "

نجد وكأنه تذكر وجود خاله، سحب جوال أبيه ليتصل بخاله سريعًا .. لم تمض سوى أقل من عشرين دقيقة وها هو ناصر بينهم يحمل ياسر مع ثامر.

تشخيص سريع في غرفة الطوارئ، ضغط دم مرتفع .. إجراءات سريعة، وها هو يستعيد وعيه مجددًا ..

يواجهه ناصر بقلق :" وش صار؟ وش فيك بسم الله؟ "

يعقد حاجبيه متذكرًا ما حصل، لينطق بثقل :" نجد ويوسف، وينهم؟ "

يصله صوت محبب لقلبه :" يبه احنا هنا"

يلتفت ليستقبل نظرات نجد القلقة وكفه لا تفارق كف والده، تدور نظراته في الغرفة ليزفر براحة وهو يرى يوسف يقف بجانب مؤخرة السرير ونظراته تشي بالخوف الذي بداخله .. يصله صوت خجول :" الحمدلله على السلامة عمي "

تسري بجسده الطمأنينة وهو يرى ثامر بجانب أخيه يوسف ممسكًا بكتفه، يهز رأسه إيجابًا ليريح جسده .. يقف ناصر ليأمرهم بمغادرة المكان وترك والدهم يستريح وينام، يبتعد الجميع .. لينطق نجد قبل أن ينصاع لأمر خاله :" يبه تبي شي؟ محتاج شي؟ "

يعقد حاجبيه ياسر، يشد على كفه بقوة :" اللي صار ما يطلع لأحد يا نجد"

يشعر بالحرارة تسير بجسده وبخوف أشد :" يبه انت بالأول قولي وش صار وأوعدك ما يطلع لأحد! "

يزفر ياسر :" ما صار شي .. المهم ما تعلم أحد باللي جانا أمس، حتى يوسف لا تعلمه"

يهز رأسه إيجابًا ليتابع والده بتحذير :" ولا يمامة ولا ثامر ولا حتى خالك! "

يعاود هز رأسه وهو يطبطب على كف والده :" تطمن يبه"

يعود صوته أشد تحذيرًا:" ولا حتى نفسك"

يتابع هز رأسه :" ولا حتى نفـ...- يعقد حاجبيه مستنكرًا قبل أن يتابع كلمته"

ليهز رأسه ياسر :" ايه .. حتى نفسك، انسى اللي صار واعتبر أمس انتهى من طلعنا من بيت خالتك نورة.. لو تحبني نجد اعتبر ما صار شي"

يزيد قلقه، تمنّى لو لحق بسيارة الضيف أمس حتى يعرف مكانه ويوسعه ضربًا على ما تسببه لأبيه .. يقاطع خلوتهم دخول ناصر :" نجد يلله تعال، اترك أبوك يرتاح"

يهز رأسه سريعًا، يقبّل جبين والده .. يهمس :" الله لا يوجعني فيك"

ويخرج مسرعًا، يعود صوته العذب لأبيه (الله لا يوجعني فيك) تداهمه غصة، ابنه يقتص دعاؤه ولا يكمل بقيته (ولا يوجعني منك) وكأنه يستبعد أن يتسبب والده بالوجع له، يضم شفتيه ليهمس بدوره :" الله لا يوجعني فيكم، ولا يوجعني منكم"

*•

لي ولك

نجمتان وبرجان في شرفات الفلك

ولنا مطرواحد

كلما بلل ناصيتي بللك

سادران على الرمس نبكي

وننبدب شمسًا تهاوت

وبدرًا هلك

وكلانا تغشته حمى الرمال

فلم يدرأي رياح تلقى

وأي طريق سلك

- سيد البيد

الورقة الثالثة

•

(2007)

يقفان معًا محلّقين حول والدهم، يقضم أظافره بقلق :" يارب يارب يارب"

والآخر رغم هدوءه الظاهري إلا أن قلبه يفضحه :" أول أنا"

يضحك ياسر وكمبيوتره المحمول فوقه وهو يسمع صوت نجد معترضًا :" لاااا تكفى، أنا أول"

يصلهم صوت من خلفهم ضاحكًا :" هذا لاب توبي خذوه وافتحوه بنفس الوقت"

يلف عليه نجد بضيق :" خالي! .. أدري إني مو فالح، أخاف ما أنقبل وتخف صدمة أبوي وهو يشوف اسم يوسف"

يتجهم وجهه :" الله لا يقوله"

يبتلع ريقه يوسف ليلتفت إلى أخيه :" خلاص هو أول "

يزيد توترهما ووالدهما يعبث بالأزرار.. يُغمض عينيه ويوليهما ظهره :" ما بشوف، كاني ما انقبلت قولوا بلحة، وإن طلع اسمي ...."

يقاطعه يوسف وعينه تغوص بالشاشة :" نقول سُكري.. خلاص اهجد فتحت الصفحة"

يقف ناصر بحماس ليدخل بين يوسف وأبيه، وسرعان ما نطق يوسف بصرخة :" سسسسكري "

صرخ نجد غير مستوعب :" مستحيييل! "

يلتفت ليُمسك بالشاشة واسمه يظهر بين المرشحين لقبول الجامعة، يصرخ وهو يتجه للقبلة :" يااااربي لك الحمد"

يسجد وهو يشكر الله ليقف مسرعًا ويضم أخاه الضاحك، يلتفت لتواجهه عيون خاله المستهجنة :" شفيك والله مو مصدق!"

يزم شفتيه ناصر :" يعني .. تخصص إنساني، لو شديت حيلك انقبلت بالتخصصات العلمية، تدخل هندسة ولا شي ثاني يفيدك"

ينطق يوسف مبررًا :" يا خال هو ماله بالهندسة"

يلتفت نجد لأبيه، يجلس متكئا على ركبه ليضع يديه على فخذ والده :" يبه والله أنا أبي هالمسار، ما كنت تقولي ادخل اللي تحبه؟"

ترتسم ابتسامة على شفتيه :" ايه يابوي، لا تشيل هم .. شد حيلك بالسنة الأولى وتتخصص اللي بخاطرك"

يبعده يوسف لينطق سريعًا :" يلله دوري"

يعود التوتر للجميع مثبتين أنظارهم على الشاشة، وماهي إلا لحظات حتى تعالت أصواتهم بفرحة، تزيد ابتسامة يوسف بثقة :" ياالله الحمدلله .. "

يضمه والده بخفة ليقبل رأسه، ونجد مازال مصدومًا ممسكًا بالشاشة :" مسار صحي؟"

يشعر بكف خاله التي استقرت على ظهره :" قل ما شاء الله لا تنظل أخوك "

يترك الجهاز :" ما شاء الله ماشاء الله"

يلتفت لأخيه ليبادر باحتضانه :" يلله من الحين نقول دكتور يوسف"

يعقد حاجبيه :" ما أدري والله "

يترك ياسر جهازه :" يبوي ادخلوا اللي تحبونه وتشوفون نفسكم فيه لا تسمعون كلام الناس"

يقف يوسف وكأنه تذكر :" بروح أبشر أمي"

يتحرك سريعًا وشعور بالضياع ينتابه، لا يملك أي شغف .. لا يحب أي شيء، لا يجد نفسه بتخصص ما، على عكس أخويه، ثامر وإن كان مهملًا فشغفه لا يحتّم عليه الدراسة .. ممارسة الرسم على كل ما تقع عليه عيناه، غرفتهم الصغيرة .. شوارع حيهم التي تشهد ببصمته في كل مكان، ونجد الذي ينسى نفسه بين حروف اللغة، تمامًا كوالده .. وكأنه ورِث هذا الشغف منه، أما هو لا شيء .. خالٍ تمامًا، مثل فرحته هذه.

يقفز بخوف وهو يشعر باليد التي حطت على كتفه والصوت المرح:" بروح معك"

يمشي مع أخيه نجد حتى يصلان للبيت الآخر، سرعان ما انتشرت بهجة نورة لقبول ابنها، تضمه بفرح كبير :" يا بعد روحي الله يبشرني وأشوفك أكبر دكتور بالسعودية"

يبتسم بصدق وهو يقبل رأسها :" ونجد جاي معي يبي يبشرك"

تحكم لف حجابها لتفتح الباب الداخلي وها هو نجد يقف متكئًا على الجدار وابتسامة خفيفة تزينه.. تقترب منه :" وانت بشرني، إن شاء الله انقبلت؟"

يضحك بخفة :" ايه مسار إنساني، بالنسبة لولدك يمه نورة ولا شي "

يضربه يوسف على كتفه :" لا إله إلا الله"

يضحكون ليصلهم صوت من خلفهم :" الله وش هالضحك اللي من زمان ما سمعته! "

يتلون وجه نجد، يُنزل رأسه .. يلتفت يوسف للخلف لينطق سريعًا :" يمام، نجد موجود"

تعود أدراجها سريعًا، لتلحقها نورة وهي تبشرها بنتائجهم، يصل إلى مسامعهم صوت ضحكتها المستبشرة، ينطق نجد بهمس :" يوسف لا تنسى وعدك "

يعقد حاجبيه :" أي وعد"

يزفر نجد ويرفع رأسه بقلة صبر لينزله سريعًا :" اييييه بس، ما كنت تقول بتعشي أمك بمطعم محترم لا انقبلت بالصحي؟ "

يضرب جبينه :" اي والله .. - يزم شفتيه- بس يمام بترفض تطلع وثامر مو موجود، ما بتطلع أمي وتتركها وحدها"

يضربه على كتفه :" أقول بس لا تهرب، يمام كبيرة الحين وانتو لا تطولون"

يقلب الفكرة برأسه، ليعود صوت نجد مشجعًا :" وأنا بجلس هنا، لو احتاجت شي بتلقاني بالمجلس"

يمرر كفه على شعره، يهز رأسه إيجابًا ببطء .. ليدخل إلى الداخل، ينتظر نجد في الباحة .. يصفر بملل، ليخرج أخيرًا يوسف بابتسامة واسعة :" وافقت"

تدق طبول قلبه، ليتمالك ملامحه السعيدة.. :" زين، لو أبوي رفض يعطيك سيارته خذ سيارة خالي"

يوسف بحماس :" مابيرفض، كلها شهرين وتطلع الرخصة"

يخرج مسرعًا لينطلق إلى منزل أبيه ويستغرق وقتًا وهو يرجوه بأن يسمح له بالقيادة، يتدخل ناصر ليشجع ياسر على الموافقة .. حتى يرضخ أخيرًا ويوافق.

يجلس نجد على عتبات الدرج الداخلي والهدوء يعم المكان بعد مغادرتهما، يغريه قلبه للدخول.. لن يفعل شيء سوى السلام عليها ويروي ظمأ عينيه، لا يراها إلا بصحبة ثامر أو يوسف، لا يستطيع أن يطيل النظر في عينيها بوجودهم ..

يتمنى لو تتسلل يده لتمسك بيدها، لو تقترب حتى تتشابك أهدابها بأهدابه، أو يشعر بملمس .....

" نجد؟ "

يقفز بخوف على الصوت الرقيق الذي قاطع خيالاته المراهقة، تصله ضحكة ناعمة زادت من ارتجاف قلبه، يلتفت ليجد خياله ماثلًا أمامه، فاتنته الصغيرة تجلس كما عرفها على كرسيها، غير أنها ازدادت جمالًا وفتنة .. كم يغبط ذلك الكرسي الذي يلازمها في كل لحظات حياتها، يحملها مذ كانت طفلة وتتشبث بمعصمه.. تنفرج شفاته بتوتر، ليُخرج بربكة ميداليته ويلعب بها وهو مشتتًا أنظاره :" فجعتيني"

تعود الضحكة الرقيقة مجددًا، لتتقدم بكرسيها حتى حافة المدخل :" جيت أبارك لك، مبروك"

يبتسم على مضض ولا يزال واقفًا أمامها يضرب بتوتر كفه بالميدالية :" الله يبارك فيك، عقبالك"

تزفر بضيق :" اوووه أنا بس أخلص من هالثانوي برتاح"

تضيع الكلمات من فمه، لا يعلم ماذا يقول، لحظة صمت طويلة تمر .. لتقاطعها :" اجلس ليش واقف"

وكأنه لم يصدق طلبها، عاد سريعًا إلى عتبات الدرج ليجلس بجانبها.. شعر بكفها الصغيرة تمر من فوق كتفه، تتسلل حتى تقترب من كفه .. يجمد مع حركتها، تسحب الميدالية التي يعبث بها لتقرّبها من وجهها :" يالله للحين محتفظ بها؟ "

يرفع رأسه ليرى من أسفل وجهها وهي تتأمل الميدالية وتعبث بها، حجاب رقيق يغطي شعرها .. تتمرد خصلة من جانبها لتخرج كاشفة عن سواده، يرفع كفه على حين غرة منها.. ليلامس الخصلة الناعمة ويدسها سريعًا خلف حجابها، تتوتر وكأن وخزة أصابتها من لمسته، يبتسم أخيرًا وهو يلحظ أثرها عليه.. نعم هو ليس كيوسف أو ثامر، وأخيرًا شعر بهذا .. يُدخل كفيه بجيبي ثوبه :" اممممم، مدري ليه محتفظ بها.. يمكن لأنها الهدية الوحيدة منك - يرفع رأسه يمثل المزح ليبدد إحراجها - يا بخيلة"

تضحك ولا زالت تعبث بالميدالية :" تدري بي أكره الخياطة، سويت هالميدالية مجبورة عشان الدرجات وفوق هذا ما أخذت ولا درجة"

يمد كفه لها طالبًا ميداليته :" كنتِ بترمينها، احمدي ربك أخذتها وقدّرت تعبك"

تبعدها عن كفه برفض :" خلاص رحمتك، بتطوع وبسوي لك وحدة جديدة.. هذي خلاص تلفت"

تتسع ابتسامته :" تسوين فيني خير"

تتلاشى ابتسامته وهو يراها تتراجع للخلف، ينطق سريعًا :" وين؟ "

تعقد حاجبيها :" بجيب الأغراض، تحمست أسويها الحين"

ترحل عنه مبتعدة، ليزفر بضيق .. تغيب لدقائق وها هو صوت عجلاتها يعود وفي حضنها حقيبة قماشية، تعود بقربه .. :" امسك الكيس"

يُمسك بالكيس القماشي، تنثر عدة أشياء :" تبي أي شكل؟ "

يهز كتفيه رافعًا حاجبه وهو يتكئ على الجدار:" عادي .. وش تحبين أنتِ؟ "

تزم شفتيها :" امممممم، خلاص راحت عليك فرصة الاختيار- تبدأ عملها باندماج- بسوي لك نخلة! "

يضحك ضحكة قصيرة :" نخلة؟ ياالله خلصت الأشياء عشان تسوين نخلة؟ "

تهز كتفيها بلا مبالاة :" فاتك الاختيار .. والصدق والله ما أعرف أسوي شي إلا نخلة! "

يتأمل اندماجها وأصابعها تعبث بالقماش.. تتحكم بالإبرة بمهارة، يغوص في تفاصيلها الصغيرة

أما هي، قلبها يحدثها بأن تنطق، في ظل هذا الهدوء ولحظة السكينة كل مافيها يودّ إخراج السر الصغير من قلبها .. نجد رفيقها القديم، نظرة منه كفيلة بأن تجعلها تسكب كل مافيها.. تزم شفتيها بتردد :" نجد .."

يصلها صوته مرتخيًا :" هممم "

تعض شفتها ورغبة الحديث تتراجع :" ولا شي"

يرفع رأسه سريعًا :" وش في يمام؟ "

تهز رأسها نفيًا :" لا خلاص ولا شي، كنت بشوف انت معي ولا نمت"

يلتفت عليها ليُمسك بذراع الكرسي :" يمام، قولي .."

تدرك أنه لن يتركها حتى تتكلم، تمامًا كما كانا صغيرين.. تزفر بشدة :" ثامر .."

يعقد حاجبيه بقلق كبير :" شفيه ثامر؟ "

تلتقي عيناها بعينيه، التردد يغطيها أكثر .. يشجعها بعينيه، تهز رأسها سريعًا :" اوووف خلاص ولا شي"

يقف سريعًا ليُمسك بذقنها ويثبّته :" يمام قولي لي وش صاير؟ "

تترك قطعة القماش من يدها، تُمسك بكفه التي تحتضن ذقنها.. كان يظنها ستبعدها عن وجهها، لكنها شدتها إليها أكثر قرب قلبها :" بس أمانة ما تعلم أحد! "

يهز رأسه مطمئنًا :" سرك في بير .. بس قولي لا تقلقيني أكثر"

تزفر وهي تُبعد كفيهما عن قلبها إلى حضنها :" قبل يومين .. بالليل، ويوسف نايم عندكم، صحيت ورحت أشرب مويا.. سمعت صوت الباب، نورة كانت نايمة بالغرفة .. فتحت شباك الصالة شفته .... "

تصمت، وكأنها غير قادرة على الكلام .. تزيده خوفًا، ليشد كفها :" ايوه يمام "

تتنهد بقوة وتتحرر من كفه لتغطي وجهها :" شفته يدخل البيت ومعه بنت"

تفجرها في وجهه، لتأخذه الصدمة .. وتشله عن الكلام، تتابع بسرعة :" دخل ودخلها معه، وكان خايف .. دخّلها المستودع ودخل وراها"

يشعر وكأنه تلقى ضربة على رأسه، هل يصل سوء ثامر إلى هذه الدرجة؟ أينسى كل شيء وكل مبادئه؟ يعلم أن ثامر دائمًا ما يجلب المصائب، ولكن هل يصل لهذه الدناءة؟

وأين؟ في منزل أمه؟ يتغافل عن ربه وعن احترام حرمة البيت ليجلب فتاة إلى وسط منزلهم؟

يقف مذهولًا لا يسعفه لسانه على نطق شيء، يصله صوتها متوترًا :" أمانة نجد ما تعلم أحد، يوم شفته خفت .. - تعقد حاجبيها بحيرة - بس يعني ثامر سوى شيء مو زين صح؟ ، المشرفة بالمدرسة دايمًا تقول لنا قصص .... - تزم شفتها وكأنها تنكر أن يكون ابن أختها ومن تعده أخًا كبيرًا على هيئة الذئاب البشرية التي تسمع تحذير معلماتها منهم.. تهز رأسها نفيًا بعدم تصديق- لا ثامر مو كذا "

يعقد حاجبيه بضيق وألم برأسه ينذر عن قدومه، يجلس بجانبها متكئًا على كفيه، يحاول استيعاب الأمر.. يعود صوتها مسببًا له توترًا أكبر :" من شفته يدخل معها وأنا مو قادرة أشوف وجهه، مابي أصدق .. نجد قول إن اللي فهمته خطا"

يتنهد بقوة، يهمس :" يمام اللي شفتيه لا يطلع عند أحد، خاصة أمي نورة .. لا تدري"

تهز رأسها إيجابًا :" وانت مثل ما وعدتني لا تعلم أحد .. "

تمر دقائق ثقيلة بينهم، ما نفثته في وجهه سلب منه المتعة التي كان يرجوها بقربها، أما هي تنتابها الراحة والسر الذي أتعبها تخففت منه ..

يمضي وقت طويل ولا شيء يقطع صمتهم، يوسف لم يف بوعده ويعود بأمه سريعًا .. تمضي ساعة تتلوها ساعة، تعود أدراجها إلى داخل المنزل، ليبقى وحيدًا على عتبات الدرج.. يرفع هاتفه ليتصل بأخيه، لا رد سوى صوت تقطّع الرنين، يزفر بضيق .. لا بد أن خاله غادر، لا يرغب بأن يطيل ابتعاده عن أبيه، لا طاقة له بأن يرى انتكاسة أبيه .. منذ ثلاث سنين، ومنذ تلك الليلة، وذاك الضيف الغريب، أصبح ارتفاع الضغط من صفات دم والده، كل شهر تنتابه أزمه تؤلم قلب نجد أكثر .. لم يكن يتصور أن يكبر أبوه هكذا فجأة، كان شامخًا وشابًا قويًا، وبدون مقدمات شاخ.. أصبح يبدو أكبر من عمره بكثير، مرضه انتزع منه شباب الثلاثين وقوة الأربعين ..

" نجد روح لأبوك، عادي أنا بنتظر هنا"

يلتفت على صوتها، يعقد حاجبيه بتردد :" لا ما بتركك هنا، أمي نورة ما طلعت إلا وهي متأكدة إني معك"

تتنهد بضيق كبير :" طيب قول لعمي ياسر يجي هنا"

يهز رأسه إيجابًا :" بروح أجيبه، ما بطول"

يخرج مهرولًا كي لا يتأخر عنها، يدخل بيتهم ولا أثر لسيارة خاله، يتجه إلى المجلس الذي ترك والده فيه ولا يجده.. إلى الصالة، ولا أثر .. ينتابه قلق من السكون الذي يغطي المنزل، يفتح باب غرفة أبيه لينادي بصوت عالٍ :" يبه؟ "

لا رد، ولا أثر .. يتمالك نفسه ليسحب هاتفه ويتصل برقم أبيه، صوتٌ خلفه ينبئ عن وجود الهاتف في المنزل، يعض شفتيه بتوتر ليست من عادة أبيه أن ينسى هاتفه، يعاود الاتصال برقم خاله .. يرنّ ويرن، ومع كل رنين يزيد خوفه، حتى وصله أخيرًا رد من الجهة الأخرى :" هلا نجد"

يبعد الكوابيس من رأسه على صوت خاله الثقيل والضوضاء تحيط به :" خالي .. وينكم؟ أبوي معك؟ "

يتنهد مجبرًا :" ايه معي .."

قلبه يخبره بأن هناك ما يخافه، يتأهب لسماع الأخبار السيئة :" أبوي .. بخير؟ "

الضوضاء التي كانت تحيط خاله تخف، ويبدو أنه غادر مكانه :" ايه نجد، أبوك بخير .. خلك عند يمامة، شوي وأكلمك"

يصرخ مقاطعًا وكأنه يخشى أن يغلق خاله الخط :" وش صاير؟ أبوي وش فيه؟ "

يصمت، صمتًا طويل.. ثقيل على قلب نجد، لينطق أخيرًا بهمس :" أبوك بخير نجد .. بس يوسف..."

شعر بأن قلبه انتزع منه، كان يقوّي قلبه ويعدّه لسماع خبر عن والده، ليُفاجأ باسم يوسف.. :" يوسف وش فيه؟ "

-" بخير بخير .. حادث بسيط بس كلهم بخير، لا تشيل هم خلك عند يمامه...."

يقاطعه بلا وعي منه :" انت تعال عند يمامة، هذا أخوي وأمي نورة .. بروح أشوفهم"

يصله صوت خاله مهددًا :" نجد ابقى عند يمامة، أخوك وأمه بخير.. بس إجراءات سريعة، ولا تقول ليمامة شي، وإذا قدرت كلم ثامر وقوله يتصل علي، كلها كم ساعة ويطلعون ونجيكم"

يقطع خاله الخط، يُمسك رأسه بألم .. وبداخله يواسي قلبه " هم بخير .. خالي يقول بخير، مافيهم شي.. بس حادث بسيط"

يزفر ليُعد نفسه للعودة إلى يمامة، يمشي بخطى ثقيلة وقبل أن يفتح باب منزلهم .. يتوقف ليتصل بالرقم الذي لا

يرد عادة، لماذا يحمل ثامر جوال إن كان لا يرد؟ يعاود الاتصال أكثر من مرة حتى قُطع الخط ويبدو أنه أغلق جواله .. يضرب بكفه الجدار :" الله يلعن سواياك يا ثامر .. وياخذك كان مامنك فايدة"

يشعر بنار تغلي في جوفه، يجلس أمام باب المنزل ليهدأ قليلًا .. يرسل رسالة سريعة علّه يقرأها (ثامر، كلم خالي ناصر .. أمك في المستشفى)، يعود ليرسل رسالة أخرى لرقم خاله (بأي مستشفى؟)

لا يتلقى أي رد منهما، يستغفر ربه إثر الدعوة التي رمى ثامر بها .. ثامر وبالرغم من كل شيء هو ابن عمه، أخ أكبر وإن كان يحمل كل السوء في حياته، لن يتحمل سماع أي شر يلحق به.

يستعيد نفسه قليلًا، يحاول تمالك ملامحه .. ليدخل إلى المنزل، لا يجد لها أثرًا في الباحة، يفتح الباب الداخلي بلا وعي ليتلقى السكون يغطي المكان .. يرغب بشرب ماء بارد علّه يهدئ نفسه، يهمس :" يما..."

وقبل أن يتم نداءه يراها على كرسيها تنام بكل طمأنينة محتضنة وسادة، وعلى فخذيها قطعة القماش والخيوط ..

يزفر بضيق ليتجه لها، يجلس بجوارها .. لا يشعر بنفسه وهو يسند رأسه على ساقها، يغمض عينيه..

لا يعلم هل نام أم أخذته غفوة أو أغلق عينيه فقط ليهرب من قلقه، كل ما يعلمه أن صوتًا مألوفًا أمسك كتفه ليناديه "نجد، نجد"

يستوعب وجوده في المكان الخطأ.. وجه خاله يبدو خطأ أكبر، يفز عندما استوعب أنه يتكئ على قدميها.. كانت عيناها جاحظة، مليئة بالأسئلة.. ينتقل جحوظها إليه وهو يشعر بخاله يمسك كفه :" تعال يا نجد"

ناصر؟ ماذا يفعل هنا؟ وكيف دخل؟ لحظات حتى استفاق وهو يتذكر ما حصل قبل نومه، يفز سريعًا ليترك القلقة خلفه تصارع خوفها، يشده ناصر للخارج، يغلق الباب الداخلي.. ينطق بسرعة ووجل :" شلونهم؟ "

عينا ناصر الذابلة أخبرته بكل شيء، يطرد الحقيقة التي ترتسم على ملامح خاله ليعيدها إليه بقوة وهو يشد على كتفيه ويهمس :" نجد .. هذا دورك الحين، خلك قوي "

يغمض عينيه مستسلمًا لسماع الصاعقة، يهزّه ناصر بقوة :" مابيك تضعف، يمامة تحتاجك داخل.. "

يبتلع ريقه ولا طاقة له بتحمل ما هو أشد، يهمس بجفاف :" وش صار خالي؟ "

تلين ملامح ناصر، يغطيه الحزن.. يبتلع غصة داهمته ليفجرها بوجهه :" خالتك نورة تطلبك الحِل"

يتسارع نفسه، طنين حاد يخترق أذنه .. يغمض عينيه بشدة، يشعر بخاله يشده إليه ليحتضنه ويطبطب على ظهره :" الله يرحمها، قوّي نفسك .. كلهم يحتاجونك الحين"

فجأة يُبعد خاله عنه بقوة وتنفسه يزيد :" يوسف؟ "

يهز رأسه سريعًا :" بخير بخير "

تتوه عيناه بعيني خاله بشك كبير، ليوليه ظهره مسرعًا :" بشوفه"

يهز رأسه نفيًا ويسحبه إليه بسرعة :" والله بخير، بس كسر بسيط... نجد مكانك اليوم هنا، أبوك بيجلس شوي مع يوسف وبيرتب أمور الدفن ..وبأي وقت بيجون المعزين، لازم تخبر يمامة .. وثامر - يعقد حاجبيه وكأنه تذكر - ثامر وينه؟ ما كلمته ولا شفته؟"

ما كل هذا الهراء الذي يلقيه عليه خاله؟ عزاء؟ دفن؟ أمه نورة؟ .. يجلس بتعب على عتبات الدرج ليحاول استيعاب كل شيء.. يعود صوت ناصر قلقًا :" ثامر يا نجد؟ وينه؟ "

يعود لخاله، يهز رأسه نفيًا :" مقفل جواله "

يضرب جبهته بضيق شديد ويزفر بقوة :" يالللله! .. لازم نلقاه بسرعة، نحتاج توقيعه وهويته"

يذرع الممر ذهابًا وإيابًا يفكر بحلٍ سريع، لينطق بسرعة :" طيب أصحابه؟ عطني رقم لهم ولا عنوان وأنا بدور له"

يهز رأسه نفيًا والبرودة تجتاحه :" ما أعرف أصحابه .. دايمًا مع أستاذ خالد"

وكأنه تذكر وجود خالد، يهز رأسه إيجابًا :" بروح بيت خالد، نجد ادخل داخل وخبّر يمام .. وابقى معها، بجيب ثامر وآخذه المستشفى وبرجع لك"

يتركه ليتعجّل بسيره ويخرج سريعًا تاركًا خلفه تائه لا يعلم ماذا يفعل، كيف يخبر يمام؟ كيف يقنع نفسه أولًا كي يستطيع إخبارها، لا طاقة له بتحمل وجع فقد خالته نورة .. فكيف يطلب من يمام أن تصبر؟

" نجد؟ "

يلتفت ليجدها خلفه والبكاء يخفي ملامح وجهها ..

•

في حي شعبي، وبيت شعبي صغير ..

يجلس ضامًا قدميه وهاتفه يعتصر بين أصابعه، الدقيقة تمشي وكأنها ساعة.. لا بل أربع وعشرون ساعة، الوقت ثقيل على قلبه محملًا بقلق الانتظار.. لا اتصال، يسحق السيجارة بين أخواتها .. ليُخرج أخرى ويبدأ ينفث سمها، يغمض عينيه ويريح رأسه على الجدار .. ينتظر إشارة واحدة ليبدأ مهمته، ليستعد للرحيل الأخير، لكن لا إشارة .. جلّ ما يقلقه أن يكون وقع بين أيديهم أو أيدي الشرطة، تنتابه رعشة خوف وقلقه يرهبه..

يفتح عينيه لتسقط أنظاره مباشرة على جواله الآخر مرمى على مقربة منه، يدني جسده حتى تصل أطراف أصابعه له .. يسحبه ليتفقده، مغلقًا كما تركه قبل ساعات.. كان يخشى أن يكون قد حُطم، اتصالات نجد المتكررة أزعجته وهو في أبعد مجال ليستقبل مكالمات منه أو من أهله .. ماذا يريد؟ لا بد أن أمه لجأت لجوال نجد كي ينتابه القلق ويرد بعدما لجأت إلى جوال يوسف .. متى تعتاد على تأخره؟ متى سيحترمون خصوصيته ووقته؟ في كل ليلة

يتأخر لا تنفك تنهال عليه المكالمات منها أو من يوسف، منذ سنين.. ولا تعتاد على تأخره.

يعقد حاجبيه وطارئ مخيف يطرأ عليه، ماذا لو كان المتصل فعلًا نجد؟ ماذا لو كان عمه أصابته نوبة من نوباته؟ يزفر بشدة طاردًا الوهم من رأسه.

يشعر بأقدامها تقترب، يرفع رأسه سريعًا لينطق :" ليش فسختِ عبايتك؟ "

تزفر بضيق لتجلس أمامه متكئة مثله على الجدار متربعة بأقدامها :" ليش ألبسها؟ خلاص فقدت الأمل، صدقني ما بيتصل"

يزفر بضيق شديد ليعتدل بجلسته ويدني بجسده منها، وبصوت آمر مادًا حروفه :"رغد .. قومي البسي عبايتك! "

لا تلقي له بالًا لتشير بعينها على هاتفه المغلق :" قلت لك افتحه، يمكن يدق عليه"

يزم شفتيه بغيض :" مستحيل يتصل على هالرقم، روحي البسي عبايتك .. بأي لحظة بنضطر نطلع"

تعتدل بجلستها لتقترب على حين غرة منه وتسحب الجوال، تضغط مطولًا على زر التشغيل :" ما تدري يمكن يدق .. "

يعود مستندًا على الجدار ويسحب سيجارة أخرى، يرفع حاجبه على صوتها وهي تتأمل هاتفه :" بلللل، وش هالمكالمات كلها! "

يمد يده الطويلة ليسحب هاتفه من يدها، ينوي إغلاقه لكن تنعقد حاجباه وهو يرى المكالمات التي تنهال عليه (نجد ١٢ ، عمي ياسر ٢- تزيد عقدته وهو يرى الاسم الذي زاد قلقه- ناصر ٢٣ !)

يتنفس بشدة مالسبب الذي يجعل ناصر يتصل عليه؟ وكل هذه المكالمات! وقبل أن يحاول الإجابة عن تساؤله يضيء الهاتف باسم (ناصر)، ليُلقي عليه الطامة التي فصلت روحه عن جسده..

لم يشعر بنفسه، لا يعلم ماذا حصل بعدها ...

ها هو يوقع على أوراق تحمل اسم أمه، يقرّبونه كي يتمكن من رؤية وجهها.. قلبه يكاد يفارقه ويودع في جوف أمه، يعقد حاجبيه وهو يراها.. ليست أمه، لا ليست الجميلة التي تضخّم في رحمها لتستفرغه على هذه الحياة، ليست الحنونة التي شبع من حليبها صغيرًا حتى تشرّب بملامحها، ليست الفاتنة التي عذبها بضياعه حتى بات شكلها يكبرها عمرًا، يهز رأسه نفيًا ليغادر الغرفة الباردة، لا يسمع شيء ..

الرؤية ضبابية أمامه، وكأن جميع من في المستشفى يسيرون بثقل ووقع خطواتهم تقع على قلبه، ليقابله جسد واقف أنهكه التعب .. يعقد حاجبيه لتتضح له صورة عمه ياسر، تعود له الصورة ما قبل أعوام عديدة .. عندما كان طفلًا في الخامسة، يقف ياسر بالانكسار ذاته، يقترب منه ليحمله ويضمه بقوة إلى صدره.. أدرك وقتها أنه أصبح يتيمًا بلا أب، وها هو يقترب منه ليشده إلى صدره .. يبكي ياسر، يبكي عمه .. ليدرك حينها ويؤمن أنه أصبح وحيدًا بلا أم ولا أب، يشد على عمه .. يحاول أن يخرج البكاء لكنه يستعصي عليه، يسمع تمتات عمه وكأنها تربت على قلبه :" عظم الله أجرك يا ولدي، الله رحيم بها مثل ما كانت رحيمة علينا كلنا .. راحت وهي راضية عليك، راحت لأبوك ما راحت لمكان غريب.."

يخنقه بكاؤه، يثقل على صدره .. يحاول أن يبكي لكن لا جدوى، يزيد من احتضانه لعمه وكأنه يواسيه بدلًا أن يتلقى المواساة، يرفع رأسه على الكف التي انضمت لتطبطب على ظهره.. يلتفت ليجد ناصر واقفًا بحزن كبير :" عظم الله أجرك، الله يرحمها "

يهز رأسه ولسانه يثقل حتى عن رد العزاء، يفقد روحه ليتركها عند أمه ويمشي بجسد ضئيل فقط، يمر الوقت ولا يشعر بشيء.. يواريها بيديه تحت التربة، في المقبرة ذاتها التي تضم جسد أبيه، يودعها ويودع روحه معها .. ليجلس طويلًا عند قبرها علّه يبكي، لكن لا جدوى ..

يقف متوسطًا مجلس العزاء ليستقبل كلمات المعزين، وبجانبه يقف عمه ياسر وناصر الذي يتنقل من المستشفى إلى المنزل، يستقبل المعزين ويودعهم وكأنه ابن لنورة .. لم ير يوسف أو نجد أو حتى يمامة، لأول مرة يشعر بفقده لهم، لحاجته لهم وحاجتهم له، الأول يرقد في المستشفى لا يقوى على الحركة ويُحرم من وداع أمه الأخير .. ليبقى بجانبه الآخر علّه يقوّيه وهو من يحتاج من يسنده، أما الأخيرة .. غارقة بين النساء الكثر، لا يعلم عنها شيئًا ..

وأخرى نساها ونسى وجودها، تجلس منذ ساعات طويلة في مجلس عزاء النساء لا تعلم ماذا تفعل وكيف انتهى بها الأمر بين كل هذا السواد، كل ما تعرفه أن تلك المكالمة قلبت موازين ثامر.. ليسحبها دون أن يعي معه في سيارته .. ينساها لوقتٍ طويل في السيارة، تتخبأ في المقعد الخلفي متدثرة بلحافه، لتُفاجأ بالسيارة تقف أمام المقبرة.. تُدرك حينها أنه

غير واعٍ لوجودها، يدخل معه شخص آخر السيارة لتعود مختبئة باللحاف أسفل المقعد، تتحرر من مخبئها بعد ما شعرت بهم يرحلون تاركين السيارة أمام المنزل، تتسلل منها ببطء.. لتنضم إلى ركب المعزّين، جميع النساء ملفوفات بسواد عباءاتهن، والجميع يلتف حول فتاة مقعدة تستنتج مباشرة أنها يمامة، خالة ثامر التي حكى لها عنها كثيرًا .. تصغرها بعام واحد، تعقد حاجبيها وهي تلحظ أمرًا غريبًا .. أمر لا يجب عليها أن تلحظه في وقت عصيب كهذا، ولا بد أن جميع النساء لشغلهن بالعزاء والمواساة لم يلحظوا ذلك .. قطعة قماش ملصقة على بجامتها، وكأنها خاطتها بالخطأ!

هل هو طراز جديد أم موضة غريبة؟ تنفض تفكيرها الساذج عنها، كيف يمكن لها أن تفكر بذلك والجميع يبكي ويلوذ بصمته! .. تبتلع بقية أفكارها الغبية، لتدور عيناها على المنزل الواسع، لوحة معلقة فوق شاشة التلفزيون .. نعم ثامر من رسمها، أحد الأبواب المغلقة مغطى بالألوان ليكوّن لوحة بديعة، نعم غرفة ثامر..

تقف لتسير متجاوزة اضطراب النساء، الجميع مشغول .. تفتح باب الغرفة وتدخلها لتغلقها خلفها سريعًا، تتنفس الصعداء وكلها رجاء ألا يداهمها أحد، هدوء مريح ينتشر في

الغرفة وهذا ما تحتاجه.. تسقط أنظارها على سريرين متجاورين، كل منهما في زاوية.. فوق السرير الأول ورقة قديمة مرسومة بالرصاص لطفلٍ صغير، تقترب لتتأملها، هل هذا سرير ثامر؟ أم أخيه يوسف؟ تتراجع لتنتقل إلى السرير الآخر .. على الجدار الموازي للسرير تتوزع الكثير من الرسومات والأوراق بفوضى، وصورة وحيدة تندس بين كومة الأوراق المعلقة، تعقد حاجبيها وتصعد فوق السرير لتستطيع تأمل الصورة عن قرب.. صورة غير ملونة قديمة لشاب ثلاثيني أو عشريني يحمل بيده رضيعًا ضاحك، تتأمل ملامح الكبير .. يشبه ثامر تمامًا، وكأنه هو.. لا بد أنه والده، تضيع أنظارها بين بقية الأوراق والرسومات، رسومات عشوائية كأغلب رسوماته.. تعقد حاجبيها وضحكة صغيرة تداهمها وهي ترى الورقة الصغيرة .. رسمٌ مضحك كاريكاتيري يحمل وجه (خالد) فقط .. بهدوء تتسلل يدها لتنزع الورقة وتدسها في جيب بجامتها.

ترتمي على السرير بإنهاك كبير، لم تنم منذ ما يقارب ٣٠ ساعة، وثامر مثلها .. لم تعلم عنه شيء منذ تركها في السيارة ظهر اليوم، تغمض عينيها ولا رغبة لها بالخوض بتفكير يتعبها عن الشخص الآخر (خالد) لا تود أن تفكر

وتستنتج أنه بين قبضتهم أو قبضة الشرطة .. تدعو الله بداخلها أن يكون في السجن ولا أن تغيب ذكراه عنهم وتتوه في دوامة ضياع .. في السجن، ستطمئن أنه لا يزال حيًا، تعلم مكانه وأخباره، أما معهم .. سيختفي بغمضة عين كما اختفت أختاها، تغمض عينيها بشدة لتمحو الفكرة من رأسها، يغلبها النوم.. تنام طويلًا، نومًا منهكًا مليئًا بالكوابيس .. حتى تستيقظ بخوف وهي تتأمل المكان، ليست غرفتها القديمة، ولا تلك الغرفة المهترئة في الحي الشعبي.. لتعود بها ذاكرتها للأمس، تزفر براحة وهي تستوعب وجودها بغرفة ثامر، وعلى سريره .. ينتابها قلق من أن تفتح الباب وتجد عيونًا مستهجنة لوجودها، تعود مجددًا لتجلس على السرير بضياع ..

•

لا يرى شيء غير صورة يوسف، برغب وبشدة أن يحلّق بعيدًا عن سواد هذا العزاء ليلوذ بأخيه علّ دموعه ترحمه وتطلق سراحها .. يبدأ توافد المعزين من جديد لحضور ثاني أيام العزاء، يصله صوت عمه متعبًا :" ثامر .. روح نام وارتاح، ما نمت من أمس"

يهز رأسه نفيًا ليقف بسرعة :"بروح أشوف يوسف"

يعقد حاجبيه ياسر بتعب، يتمنى لو يسرق لحظة ليطبطب على ابنه المريض في المستشفى، تلزمه العادة الاجتماعية للبقاء مع المعزين الضيوف.. يوسف بأشد الحاجة له، لكن لا يستطيع.. ناصر قبل ثلاث ساعات كان برفقة نجد، أخبره بأن يوسف يغرق بصمته.. يزيد قلقه، ليهز رأسه إيجابًا وهو يطبطب على كتفه :" روح يا ولدي .. روح وقوّيه"

يمشي بخطىً سريعة متجاوزًا المجلس هاربًا من الوفود القادمة .. تتسع أحداقه وهو يرى الجسد الذي يدس نفسه بين جموع المعزين ويدخل باب المنزل، تنتابه رعشة وعقله يعود إليه متذكرًا الكارثة.. عينان ذابلة ترتفع لتلتقي بعينه، يهز رأسه نفيًا وشفتاه تتحرك بهمس ليقرأها الآخر:" روح"

يتجاهل طلبه، ليمشي إليه .. يحث خطاه ثامر ليلتقي به بمنتصف الباحة الممتلئة بالرجال، ويهمس مندهش :" ليش خالد؟ "

يزم شفتيه خالد والحزن يغطيه، يرفع ذراعه ليسحب ثامر إليه ويحتضنه بمواساة :" عظم الله أجرك .. الله يغفر لها ويرحمها "

ترتعش عيناه منذرة عن سيل من الدموع التي هجرته، كتف خالد كان واسعًا ليضم حزنه، وليستفيق من صدمته ويبكي أمه أخيرًا .. كانت عينا خالد هي ما يحتاجه لينفث بكاءه ويمارس حقه الإنساني في عزاء أمه، شد عليه بقوة ليبكي كثيرًا .. تعود إليه صورة أمه في مغسلة الأموات ليدرك أن رحيلها واقع وليس كابوسًا كان يؤمل نفسه أن يستفيق منه، يسمع تمتات خالد ليزيد من بكائه الصامت :" ابكي يا ثامر .. لا تستحي من دموعك على أمك، ابكي ولا بتبقي هالدمعة حسرة بقلبك لين تشيخ، لو ما بكيت فراقها تبكي فراق مين؟ "

يدس وجهه في كتف خالد، ليبكي أكثر .. كان يحتاج بشدة من يأمره بالبكاء، من يبكي معه .. من يشاطره حزنه ولا ينظر إليه بنظرة شفقة خجولة، رفع وجهه عن كتفه المبلل

بدموعه لتلتقي بعيني خالد المتعبة.. يشد كفه ثامر ليسحبه معه للباحة الخلفية من المنزل، قُرب المستودع.. يهدأ اضطراب أنفاسه بعد نوبة البكاء لينطق بقلق ممزوج بحزن :" ليش جيت خالد؟ "

يتنهد بقوة ويشتت أنظاره :" لا تفكر وتشغل بالك بموضوعي، اللي فيك الحين مكفيك"

يهزه ثامر :" كيف ما أفكر! خالد انت تهدم كل اللي بنيته هالفترة - يهمس بشدة خوفًا من أن يصل صوتهم لمسامع أحد- تلقاهم الحين لاحقينك، ولا الشرطة تنتظرك! .. لو مشيت وما التفت لوراك كان تجاوزت الحدود الحين"

تنفرج شفاته بابتسامة حسرة موجوعة :" خلاص .. راح كل شي، الشرطة دخلت الحي وتلقاهم ينتظروني عند الباب"

تذبل عيونه بصدمة وحزن، ما كل هذه المصائب التي ألقت بنفسها عليه؟، يتنهد خالد ليضمه وبصوت موجوع :" رغد يا ثامر.. رغد، هي كل وجعي وكل اللي بقى لي، ما آمن عليها إلا وهي تحت عيني.. - يشد عليه بقوة - ما آمن عليها إلا معك، حطها بعينك وكأنها يمامة وخاف الله فيها .. "

يغمض عينيه بشدة، يزيد ألم رأسه .. ليهز رأسه يُطَمْئن خالد الذي تابع وهو يطبطب على كتفه:" في غرفة الهجرة بتلقى كل شي، صندوق الأوراق لا تستخدمه إلا إن كان آخر حل لك.. ورغد لا تمسها يدهم، أرضى يصيبها أي شي إلا إنهم ياخذونها"

رمادٌ نفث نفسه ليغطي الرياض، يشعر بأن شوارعها تضيق وصحراؤها تبتلعه وهو يرى خالد يسير بثقة أودعها فيه، يبتعد خالد ليخرج من بين المعزين .. تسير خطى ثامر تتبع أستاذ الصبا وصديق الهم، يراه من بعيد يمشي في زقاق الحي .. تنتشر أضواء حمراء لتلمع في ثوبه، يركن رجل الأمن سيارته .. ليُسلم نفسه خالد بكل استسلام، وها هو يدخل السيارة مُقيدًا .. تصغر السيارة مبتعدة، تسير بعيدًا ولا يزال ثامر معلقًا بصره عليها علّ خالد يترجّل منها ويعود ..

اختفت، واختفى معها خالد .. يمشي بضياع في شارعهم، يسمع أصواتًا بين الفينة والأخرى تُسلم عليه وتعزيه.. يلجأ لسيارته هربًا من كل شيء، إلى يوسف ونجد.. ليتلقى صفعته هناك، يخرج من المستشفى محملًا بذنب أكبر .. وصوت يوسف اللائم يرّن في أذنه (دقيت عليك، بس مثل

عادتك .. تترك كل شي وراك وتفكر بنفسك! .. تقفل جوالك وأمي مرمية جنبي تنزف، تموت قدام عيوني وأنا أنتظر غريب يوقف قدامنا ويدق على الإسعاف! .. مثل ما عرفتك، بتبقى وبتموت وانت مريض بالأنانية!)

يُسند رأسه على المقود، يحاول ابتلاع كلمات يوسف، ليظهر أمام عينيه جواله الآخر .. يلتقطه بسرعة من الأسفل لتصيبه خيبة أكبر وهو يرى مكالمات عديدة من رقم مجهول تعود إلى صباح الأمس.. ورسالة يتيمة من ذات الرقم (ثامر لا عاد تتصل على هالرقم، تأخرت كثير وكل شي ضاع، برمي الجوال والشريحة) .. ليُدرك أنه أضاع أمه وخالد، مكالمة يوسف له وهو في أشد الأوقات رعبًا جعلته يغلق الخط ولا يرد ظنًا منه أنها مكالمة روتينية ليسأل عن سبب تأخره .. ومكالمات خالد التي أدركها الآن ليعلم أنه كان قاب قوسين أو أدنى من إتمام المهمة والرحيل هربًا من وطنه، بسببه انتهى كل شيء، أمه وأقرب الناس إليه .. أستاذه خالد.

يعود مثقلًا بالهموم إلى المنزل، يتوارى عن الرجال ليعود إلى الباحة الخلفية، قُرب المستودع والمطبخ .. في نفس المكان الذي كان يقف فيه خالد قبل ساعة.

- " ثـامـر!"

يفز بفزع على الصوت الصادر بجانبه، يعقد حاجبيه بدهشة وهو يراها تطل من نافذة غرفته :"رغد؟ - يمسح وجهه وكل شيء يتهاوى فوق رأسه وبصدمة - شلون وصلتِ هنا؟ كيف دخلتِ غرفتي؟ "

تبتسم، ابتسامة وديعة وكأنها التقت بأمان العالم أجمعه في عينيه.. تهز كتفيها :" مدري! "

يزفر بهم كبير وهو يضغط على رأسه، لا طاقة له بتحمل هم أكبر .. لا تزال صورة أمه تتعلق بعينيه، يخاف أن يدخل المنزل ولا يجدها .. كلام يوسف يصيبه بالصمم، ووداع خالد يرجف قلبه، رفع رأسه بعدم استيعاب وهو يراها تفتح النافذة بأكملها لترفع جسدها الصغير وتتسلل خارجة منها إليه، يُسند رأسه على السياج الحديدي للدرج مغمضًا عينيه تاركها تفعل ما تشاء .. يشعر بها تجلس بجانبه على الدرج الضيق، دقيقة صامتة تمر بينهم.. لم يصدق أن يسترق لحظة ويلوذ بوحدته، يرغب وبشدة أن يستعيد نفسه ويحظى بلحظة هدوء .. ليصطدم بالكارثة التي نساها خلفه، يصله همسها مترددًا :" الله يرحمها "

لا يرد، لسانه أثقل من أن يردّ عزاءها له .. تمر دقيقة أخرى تتلوها أختها، وهي لا تزال تجلس محشورةً بين جسده الضخم والجدار الخشن.. ترغب وبشدة أن تسأله عن خالها خالد، أن تذكره بالمصيبة التي تنتظرهم، لكن وجهه الموجوع يُلجم لسانها ..

وفجأة تتسع حدقتا عينيها وهي تشعر بالثقل الذي حطّ على كتفها، ترف عينها للأسفل ليقابلها شعره الكثيف ملقى على كتفها بتعب، مكتفًا يديه ومسدلًا جفونه .. تحاول رفع جسدها لتبدو أطول ليتمكّن من إراحة رقبته المعقوفة، لكن يبدو أن لحظة نوم باغتته ..

-

يقف طويلًا على قبرها الذي ضمها منذ أسبوعين.. وفراغٌ يجهله يتبدد فيه حتى يُفقده الشعور بالحياة، يشعر بكف نجد التي تسللت له لتسنده :" نمشي؟ "

يهز رأسه إيجابًا، ليسير برفقة أخيه.. يتوقف فجأة لينحى طريقًا آخر، غير طريق الخروج من المقبرة، يكتفي نجد

بالسير إلى جانبه مستنكرًا الطريق الذي سلكه.. قبران يحفظانهما جيدًا.

يتوقفان أمامهما، يرفع نجد كفه ليدعو لخاله الذي يرقد في القبر أسفله.. يلتفت ليوسف ليفاجأ به يحدّق بغرابة بالقبر الآخر، يهمس وهو يطرق القبر بعكازه الذي يتكئ عليه :" متى ترحمني وتعتقني؟ "

يعقد حاجبيه بقلق :" يوسف؟ "

يتنهد بقوة :" يلله نمشي"

يعودان برفقة ناصر إلى المنزل، يزداد شعور الفراغ بداخله .. لأول مرة يدخل المنزل بعد فقد والدته، يجلس على أعتاب الدرج الداخلي لا يقوى على الدخول.. ونجد يتركه متجهًا إلى والده في المجلس، دقائق حتى شعر بشخص ينضم إليه ويجلس بجواره، لا يتحدثان .. منذ ألقى كلامه ذاك في وجه ثامر ولا حديث يدور بينهم، يشعر بثامر يزفر بقوة لينطق أخيرًا :" يمامة بتروح"

يعقد حاجبيه بعدم فهم، يتابع ثامر بتعب :" خالها يقول بياخذها لبيتهم .. -يضحك بسخرية - تذكرها الحين! ولا أول كلن يرميها على الثاني"

ينطق أخيرًا يوسف بجمود :" وإن شاء الله وافقتو؟ "

يزفر بقوة :" آآآخ يا يوسف.. هي اللي أصرت! كلمتها وحاولت فيها لكن رافضة"

يخرج نجد في هذه الأثناء من المجلس ووجهه تأكله الصدمة، يقترب منهما ليهمس بعدم تصديق :" يمام بتروح ؟"

يهز رأسه ثامر إيجابًا، لينطق باندفاع نجد :" ثامر لا تسمح لهم"

يهز كتفيه بقلة حيلة :" ما بيدي شي"

يقترب منه نجد ليجلس أمامه برجاء، يزفر بضيق ثامر :" كلهم يقولون ما بتقدر تعيش معنا، تحتاج خالها وزوجته.. هي يتيمة وصغيرة ومشلولة، مهما سوينا ما بنقدر! .. حتى هي يا نجد مقتنعة! "

يغمض عينيه بعدم تصديق، لا ليست يمامة.. لا ينقصهم فقدها! يخرج من المنزل هاربًا من الجحيم الذي أصبح يراه فيه.

وعندما عاد .. كانت قد غادرت، أخذت معها قلبه الذي تعلق بها صغيرًا لتتركه بلا وداع ..

يقتله أكثر استقبال ثامر له الذي نطق سريعًا :" وين رحت؟ جلسنا ندورك تسلم عليها .. قالت ما تبي تروح لين تسلم عليك.. بس تأخرت! "

جفّت منازلهم، أصبحت تحمل أرواحًا خاوية .. تفتقد الروح الأنثوية التي تمدهم بالحياة، نورة .. غادرت إلى مثواها الأخير، يمامة .. غادرت الرياض إلى محافظة صغيرة، تفصلها عنهم عشرات الكيلو مترات والكثير من الفقد.

•*

- متَى ترحلُ القافلةْ؟

- سترحلُ توّاً

فَهَيِّئ لنفسكَ زادَكَ والرَّاحلَةْ

- متَى ترحلُ القافلةْ؟

- غداً رُبَّما

رُبَّما القابلةْ
وقد تتأخَّرُ يوماً
ويوماً
وشهراً
إلى أنْ تُضِيء لَهَا لحظةٌ عَاقِلَةْ

- متَى ترحلُ القافِلَةْ؟
- لقد نامَتِ القَافلَةْ.

ونَامَتْ لَهَا أَعْيُنُ الرَّاحِلِينَ
وأَقْفَرَوجْهُ الطريقِ منَ السَّابِلَةْ

- إذَنْ، نَامَتِ القافلَةْ
فلا الفَرْضُ أَدَّتْ -هُنَاكَ-
ولا النَّافِلَةْ

• ....

- سيد البيد رحمه الله.

الورقة الرابعة

•

في جو مشمس حارق، يمشي على قدميه وشماغه يتدلى على كتفه، محتميًا بحقيبة حاسوبه المحمول الثقيلة من أشعة الشمس، لا يُصدق أنه وصل إلى سيارته ليتنفس بقوة وهو يُزيد من برودة المكيف، يهم بتحريك سيارته لكن يصله صوتٌ من بعيد :" نجد .."

يبتسم وهو يرى خاله يهرول ليصل إليه، يفتح باب السيارة ليصعد بجانبه وهو يزفر :" يا ساتر يا ساتر وش هاللواهيب! "

يمسح جبينه المبلل بالعرق :" يالله الصيف يودعنا، نصبر عليه شوي"

تسير السيارة، لينطق ناصر :" شلونه يوسف؟ "

يتنهد ليعقد حاجبيه :" بخير .. كلمته أمس واضح إنه أفضل"

ناصر بضيق :" سفرته هذي وموضوع الدراسة كله خطأ مع وضعه، مدري شلون أقنعكم"

نجد بدفاع عن أخيه :" العكس، يغير محيطه ويشغل نفسه بشي جديد يغير نفسه"

يهز رأسه بعدم اقتناع :" إنسان فيه اكتئاب ومنطوي على نفسه مفروض ما تتركونه وحده بغرب الأرض وانتو شرقها"

يزم شفته طاردًا الوساوس من رأسه :" تجاوز مرحلة الاكتئاب يا خالي، ودكتوره نفسه اللي أيد الاقتراح"

يهز رأسه مجاراة له :" زين زين، أهم شي لا تتركه وحده "

تسير السيارة وكلام خاله يثير قلقه أكثر، يوسف أخوه الصامت .. كم كانوا يؤملون نفسهم بأن يعدّ نفسه ليكون طبيبًا كبيرًا، وفاة أمه والحادث الشنيع قبل تسع سنوات خلّفت في نفسه آثارًا مدمرة، ترك الدراسة لسنة كاملة، حتى عاد إليها مجبرًا ليدخل كلية التمريض.. تخرج هو واجتاز الماجستير في الوقت ذاته التي استطاع يوسف فيه أن يحصل على بكالوريوس التمريض بعد جهد جهيد إثر اعتذاراته الكثيرة عن الدراسة، قليل الحديث .. معدومًا من الصحبة والزملاء، لا يخرج من المنزل .. كان مصدرًا لقلق والده، علاقته بأخيه ثامر متذبذبة، لا يتحرك لسانه إلا

بوجود نجد وأحيانًا يتظاهر بالحياة أمام اليمامة، يتذكر ذاك اليوم المشؤوم قبل سنتين.. يوسف كان في أشد أزماته النفسية، كان دائمًا ما يتداول فكرة الموت أمامه، ليصطدم به ذاك اليوم يحاول إنهاء حياته ولكن محاولته باءت بالفشل بسبب حضور نجد في الوقت المناسب.. لم يخبر أحد عمّا حصل، ساقه مجبرًا إلى طبيبٍ نفسي، ليتحسّن قليلًا .. ويصر على فكرة السفر هاربًا من الرياض التي باتت تخنقه.

يصلان منزل ياسر الذي استقبل نجد بحفاوة كبيرة، يضحك الآخر وهو يعد الطعام :" يا يبه اللي يسمعك يقول توني داخل الابتدائي! "

يبتسم ياسر بحب كبير :" لا تلومني، للحين ما استوعبت إنك انقبلت بالدكتوراه"

يتقدم ناصر ليساعد نجد :" باقي بس نزوجه ويصير عريس"

تتغير ملامحه، يلتزم الصمت .. ليسمع صوت أبيه هادئًا :" ما بفرض عليه شي، ولا بسمح له يتزوج غير اللي يبيها لو قضى عمره ينتظر أبوابها"

ترتسم على شفتيه ابتسامة مكسورة، والده لا يريده أن يعيد تجربته.. يضطر للزواج من أرملة أخيه ولا ود يجمعهما، لينتظر طويلًا عند باب حبيبته الجوزاء ويتزوجها أخيرًا لترحل سريعًا من بين يديه إلى بارئها بعدما تركت له أجمل هبة، لا يزال يرى العشق الذي يفيض من عيني أبيه كلما ذُكر اسم أمه، أو كلما التقى بخاله ناصر الذي يحمل بعضًا من ملامحها، يحكي له دومًا عن قصصه معها .. ويُخرج له من صندوق معطر رسائلهما القديمة.. يحاول تغيير مجرى الحديث الذي يؤلمه :" والله خالي هالكلام مفروض تقوله لنفسك، سنتين وتطق الأربعين وباقي عزابي عيب عليك! "

يضحك ناصر وهو يشد جسده المتناسق :" لا تخاف علي، طول عمري ببقي شاب"

يجهز الغداء، ليوزّعه على السفرة .. يجلس والده وعلى يمينه خاله، ينوي الجلوس لكن نغمة هاتفه تمنعه ليقف على صوت والده :" يبه تعال تغدا وبعدين كلم"

يعقد حاجبيه وهو يرى الاسم :" ما بطول، هذا ثامر بشوف وش يبي ... - يتركهما خلفه ليرد على جواله- هلا ثامر"

يصله صوت ثامر مترددًا :" هلا نجد .. شلونك؟"

يعقد حاجبيه :" الحمدلله بخير"

ينطق سريعًا :" اسمع مابي أطول عليك، بس في موضوع أحتاجك فيه"

يرفع حاجبه نجد باستغراب شديد :" آمر.. "

يفجرها بوجهه :" ما يامر عليك عدو .. يمامة جاها قبول في جامعتكم وتأكيد القبول خلال هالأسبوع، بس عندها مشكلة ..."

مذ نطق اسمها تفجرت جميع الشرايين داخله، يشعر بأن قلبه يفضحه وصوت ضرباته يصل إلى والده وخاله، يضطر لأن يبتعد ويدخل غرفته ليصله صوت ثامر :" نجد انت معي؟ "

يتبخر من شدة الحرارة التي يشعر بها، يهز رأسه وكأن ثامر أمامه :" معك معك .. - يعقد حاجبيه مستدركًا - لا لحظة ثامر وش كنت تقول بالأخير؟ "

تصل إليه زفرة ثامر :" أقولك هي كلمتني وناوية تكنسل، تعرف بيتهم والجامعة بينهم أقل شي ساعة ونص، ومع وضعها مستحيل تاخذ سواق أو باص"

ينطق سريعًا وقلبه يرفرف:" طيب جيبها لبيتكم ثامر"

ثامر :" ايه فكرنا بها، بس مشكلتها بالمواصلات، وقت ما سجلت كان يوسف موجود- يصمت قليلًا ليتابع بتردد - امممم أنا قلت دامها بجامعتكم والطريق واحد .. عادي تاخذها وترجعها؟ "

لا يسمع، يظن أنه يتخيل ما قيل .. ثامر لا يعلم ما فعله به، يزدرد ريقه ليعود صوت ثامر مستنجدًا :" ما صدقت يجيها قبول، تعرف من كم سنة وهي تحاول .. لو وقت دوامي يسمح لي كان أخذتها أنا"

يقاطعه سريعًا :" لا لا ثامر .. عادي شدعوة، مثل ما قلت الطريق واحد وجامعة البنات جنبنا - يزم شفتيه بقلق - هي اللي اقترحت عليك؟ "

يصله صوت ثامر متنهدًا :" زين تسوي فينا خير والله .. ما بعد كلمتها، بس ما أظن بترفض"

يصاب بخيبة وأمله يتبخر، يهمس :" زين، لو واقفت كلمني أشوف جدولي"

يودّعه ثامر ليغلق الخط، يجلس على سريره ليلتقط أنفاسه.. قلبه لا يزال يلهث، كان يظن برحيل أخيه يوسف سيغيب ذكرها عنه، لكن ها هو ثامر يأتي بما يوجعه أكثر ..

ينفتح الباب، ليرفع رأسه مستدركًا على صوت أبيه :" نجد يبه وينك؟"

يقف بسرعة نافضًا أثرها عليه ليبتسم وهو يتقدم لأبيه :" جاي الحين .. لا يكون خلصتو علي الغدا؟ "

قبل أن يتخطى والده يشعر بكفه التي أمسكت بذراعه، ونظرة قلق وخوف ترتسم عليه :" يوسف فيه شي؟"

يعقد حاجبيه نجد :" لا يبه، يوسف بخير .. هذا ثامر"

يزيد قلقه أكثر :" وش في وجهك مخطوف كذا؟ فيه شي؟ "

يتنهد، ليواجه والده .. لا يُمكنه إخفاء مشاعره عن أبيه :" يمام انقبلت بالجامعة"

يتهلل وجهه، تزيد ابتسامته :" الله يبشرك بالخير! .. هالخبر يقلب وجهك كذا؟ "

يزم شفتيه مشتتًا أنظاره :" يبيني آخذها وأجيبها معي"

ترّق نظرته، تتسلل كفه لكف ابنه :" أنسى رفضها لك، أدري صعب عليك .. بس تذكر حاجتها لك، وتذكر إنها خالة أخوك وأخت نورة الله يرحمها"

تتعلق أنظاره بأبيه مطولًا، ليزفر :" مستحيل أنسى رفضها لي.. - يضرب جواله بكفه- بس هذي يمام، اللي تبيه أنا جاهز له"

يخرج من الغرفة ليمشي مع أبيه عائدين لخاله، يأكل وهو لا يرى سوى عينيها، اشتاق إليها جدًا، لهفته لها تكبر كل يوم معه.. منذ رحلت عنهم وهو يتقصّى أخبارها بعطش شديد، كان يراها في بداية الأمر في كل عيد مع ثامر ويوسف، لكن منذ خمس سنوات حُرم منها، ينتهز الفرص ليهاتفها لأي سبب.. كانت فاتنة معه، وتزداد فتنة، حتى قطع آخر حبل وصلٍ بينهما بقراره لخطبتها .. الجميع بما فيهم هي وثامر كانوا يظنون بأن رغبته هذه كانت فقط للم شملها معهم مجددًا ولكي يتخفف خالها العجوز منها، قتلته برفضها وصدها.. وقطعت آخر ما كان يصل بينهم، يوسف وأبوه فقط من شعروا بغصته وجرحها له.

-

مستلقية على سريرها، شعرها القصير ينتثر على وجهها ولا تجد وقتًا للملمته.. الفراغ والوحدة يقتلانها، يقتلعان كل

مافيها .. ترفع هاتفها عندما شعرت بنغمة رسائل الواتس آب، تبعد شعرها عن عينها لتتمكن من قراءة الاسم، أحدهما .. لا ثالث لهما مخزنٌ رقمه على هاتفها، تزفر بضيق وهي ترى الاسم (عبدالله) .. تترك الجوال على أمل أن تقرأ الرسالة في وقت لاحق، لا تعلم كيف ورطت نفسها به فجأة.. ربما لحاجتها من يغذّي عاطفتها ويروي جفاءها، من يُنعش وحدتها حتى وإن كانت تجهله، يصل لمسامعها صوت طرق الباب.. لا بد أنه الآخر، تزفر بضيق شديد لترتدي قميصًا يغطي أكتافها المكشوفة، تلم شعرها عشوائيًا بأصابع يدها حتى يترتب.. تفتح الباب وتوليه ظهرها سريعًا حتى قبل أن تراه، يصلها صوته مستنكرًا :" على وين؟ "

تنطق وهي تسير للغرفة :" على المريخ "

يتقدم خطوة للداخل ليغلق الباب خلفه :" رغد.. "

تتوقف بمنتصف الطريق إلى غرفتها دون أن تلتفت إليه:" هممم؟"

يغمض عينيه ليتمالك نفسه :" لما أكلمك تناظريني .. - بابتسامة طفولية مصطنعة- ممكن؟ "

تزم شفتيها لتكبح هي الأخرى كل ما بداخلها، تلتف لتواجهه وتعقد يديها على صدرها :" أسمعك"

يشتت أنظاره في أرجاء الشقة الصغيرة :" في شي ناقص؟ محتاجة شي؟ "

نفس الكلام تسمعه يوميًا منذ تسع سنوات، ترد بملل :" لا "

تهم بالمغادرة، لكن يوقفه صوته مترددًا :" امممممم، ودك نطلع الشرقية؟ "

تلف سريعًا لتقابله بدهشة، يخلل أصابعه بشعره :"أدري ضايق خلقك وانتِ محبوسة هنا، فكرت لو تغيرين جو شوي"

تتفجر ملامحها بصدمة فرح :" صدق ثامر؟؟؟ - تتركه بسرعة لتتجه لغرفتها - بروح أجهز أغراضي"

يتنهد براحة ليجلس على المقعد وبصوتٍ عالٍ يصلها :" لا تتحمسين كثير، بنروح الحين ونرجع بكرة الصبح"

لا يهم، بما أنها ستخرج أخيرًا من قوقعتها فلا شيء يهم .. منذ اصطحبها خالها إلى الرياض قبل تسعة عشر عامًا لم تغادرها.. لا صديقات، لا عائلة، لا ارتباطات، فقط ثامر .. يأخذها كل شهر للسوق تأخذ ما تحتاجه لتعود إلى عزلتها مجددًا، عزلة فُرضت عليها وهي صغيرة لتتشبث بها وهي

كبيرة، تخرج بعدما جهزت نفسها .. لا تحتاج لشيء سوى حقيبة ظهر بها بعض احتياجاتها اليومية.

يقف على خروجها، لتتجاوزه إلى الجدار خلفه .. تُخرج قلمها الذي يلازمها دائمًا وتخط خطًا عريضًا على تاريخ اليوم، تُرجعه إلى حقيبتها .. لتفاجأ به يقف خلفها مباشرة وعيناه تنعقد على الورقة أمامها، تتسلل لتبتعد عنه قليلًا ..

يهمس :" معقولة باقي كم شهر بس! "

تزفر بشدة :" أطول تسع سنين ممكن يقضيها أي إنسان، هلكتني! "

يعود بأنظاره عليها، يتأمل الهم الذي غزا وجهها .. :" كنت أحسب الأيام والساعات، كنت أقول بيطلع وأنا عمري ٣٣ وأحس شكثر الوقت بعيد .. لكن هذا هو الوقت مضى "

تتأمله طويلًا، يعقد حاجبيه بابتسامة صغيرة مستفهمة

تمتد يدها لتلامس سبابتها أطراف لحيته :" شيبت ! "

يزم شفته ليبعد إصبعها عنه بطرف سبابته، يتخطاها إلى الباب :" يلله أنتظرك"

تلحقه سريعًا إلى الدرج وهي تقفز الدرجات :" خالي عارف إنك بتاخذني؟ "

يقف لتصطدم بظهره، تُمسك أنفها بألم ليلتفت إليها ..
يعقد حاجبيه بضيق :" رغد غطي وجهك! "
تزم شفتيها بضيق :" اعتقني ثامر! "
تمتد يده لتصل إلى طرف حجابها، يسحبه ليغطي وجهها به :" انتظري لين نطلع السيارة وسوي اللي تبين"
يعود ليكمل طريقه وهي تتبعه، وما أن خرجت السيارة من الحي تفتح وجهها سريعًا.. يعود صوته جادًا :" خالك ما يعرف، ولو كلمتيه لا تقولين له"
تضيع أنظارها في الطريق، تتأمل الشوارع التي تفتقدها :" ليش ما تقول له؟ "
يهز كتفيه :" وش قوة الوجه اللي تخليني أقوله باخذ رغد معي للشرقية؟!"
تتبتسم بسخرية :" يعني ما كأنه هو اللي موكلك فيني وفي أموري كلها؟ "
يهز رأسه بيأس، لا يمكنها أن تفهم .. كيف تفهم وهي التي لا تعرف طبيعة الحياة؟ لا تعرف من هذه الحياة غير اسمين اثنين فقط، خالد وثامر .. أحدهما خالها المُلقى في السجن، والآخر .. لا تعريف له، هل هو صديق؟ رفيق؟ أخ؟ أم مجرد مكلف بحمايتها؟ ، يعلم في قرارة نفسه أن انعزالها

عن جميع الناس مذ كانت في السادسة عشر غيّب عنها الكثير في هذه الحياة، طفلة نشأت مع خالها الشاب بلا أي أم أو أخت، غياب خالها أضاعها أكثر .. تتشبث بثامر الذي لا تعرف أحد سواه، تعامله بكل عفوية، مقربة منه هي حتى أكثر من خالته اليمامة وأكثر من نفسه.. تكسر كل حاجز يتحتم أن يتواجد بينهما، لا يقاوم .. لا يرغب بأن يفصلها عنه وهو الشخص الوحيد المتبقي لها، هي أزمته وأزمة خالها .. لا يزال يرى الانكسار في عيني خالد كلما زاره في السجن وسأل عن أحوالها، لا يعلم ما الصواب معها .. ولا تطاوعه نفسه بأن تكون وحدها مع شاب يكبرها بسبع سنين فقط، يذكر بكاء خالد في زياراته له.. بكاؤه قبل خمس سنين خاصة، كانت لأول مرة يرى فيها خالد ضعيفًا إلى هذه الدرجة.. منهارًا ومشتتًا، يسأله بدموعه الحارة (أنا غلطت يا ثامر؟ غلطت يوم أخذتها وسحبتها من أهلها، سحبتها لأحميها منهم ومن بطشهم وإرهابهم وأتفاجأ بنفسي أسوأ منهم! ، يمكن لو تركتها تروح معهم .... - يقطع كلامه وهو يتخيل ماذا سيحدث لو كان تركها معهم تلك الليلة، ستمضي سنين طفولتها الأولى بين النيران والظلم ووحوش مستعرة، وما أن يقررون إنهاء طفولتها ستُزف لمجرم حقير

يظنّ أنه أقرب الناس إلى الله مدججًا بالسلاح ويداه ملوثة بدماء الأبرياء الذين يراهم كفارًا ! يضحك والداها ببشاعة وهما يعتقدان بأنهما يقربانها شبرًا إلى الجنة بتزويجها من أصلح الرجال في الأرض في عينيهما القذرة، ترتعش يداه ليجنّ جنونه - لا لا ما غلطت! سويت الصح، كل اللي سويته صح! صح ثامر؟ .. -يهز رأسه الآخر مقاومًا دموعه- خالد انت انقذتها وانتشلتها من الجحيم، لا تفكر! .. - تذبل عيناه مجددًا - بس ما سويت لها خير! الله بلاها بأهلها وبي.. شلون كذا أتركها وحيدة بلا سند وبلا حياة - يقاطعه ثامر بسرعة وهو يشد على كفيه - خالد! أنا سندك وسندها .. والله اللي خلقني ما أخون أمانتك ولو بطرفة عين، هي أختي وبرقبتي.. عرضك عرضي.. - يطمئن مجددًا بعد كلمة ثامر، لكن ألمها لا ينفك يقتله كل ليلة في سجنه، تعالجه بصوتها كلما هاتفها، تزيد من ثقته لثامر بحديثها المطمئن.. لكنها تبقى غصة في قلبه، يلعن نفسه مرارًا لمزاولته التزوير، كان يظن بأنه مغيب عن القانون، بأنه يهيئ لها مستقبلًا حالمًا لا تحتاج فيه لأحد، لتسقط أحلامه الواحدة تلو الأخرى.

يزيد من صوت مسجل السيارة ليعلو صوت طلال مداح، تلتفت إليه .. مندمجًا مع الأغنية يُغني معها بطرب، تتأمل

هيأته.. هو ومن دون أن يشعر بتطبّع بأطباع خالها، يحب أغانيه ذاتها .. ينتهج نهجه في لوحاته، حتى في حركاته هو خالد.. تغمض عينيها وتميل إلى زجاج النافذة، كل ما فيها مرتبطٌ به .. ترفع إصبعها لترسم ملامحه على زجاج النافذة التي تعكس الغروب، وحده من تستطيع رسم ملامحه وهي مغمضة العينين، لكن قلبها مثقلٌ بحقدٍ كبير اتجاهه .. حقد ممزوجٌ بعاطفة تكرهها، تواجده الدائم حولها منذ غاب خالها حرّك مشاعر قلبها التي تتوق لاهتمام لا تتلقاه بطبيعة الحال إلا منه .. كانت مراهقة، تبلغ الثامنة عشر.. كان يتواجد حولها كثيرًا، يرسم معها دائمًا .. يتابع الأفلام معها، ويشكي لها أكثر فقده لأهله رغم وجودهم حوله، كلما قرأت شعرًا عاطفيًا ترتسم صورته.. كلما سمعت أغانيه المفضلة ترتسم صورته، لا أحد تعرفه كي ترتسم صورة مختلفة عنه.. تعض شفتها وهي تذكر خطوتها الغبية، رغم مرور الزمن عليها ورغم وثوقها بأنه نساها إلا أنها ما زالت تغضّ مضجعها وتكره نفسها كلما تذكرتها .. كيف تجرأت ذاك الصباح وهو يحمل الفطور إليها ليقرر أن يفطرا معًا، هي حتى لا تعلم ماذا كانت تشعر به لتفجّر مشاعرها فجأة وتخبره وهو يمضغ (لقمة التميس) بأنها تحبه! .. هكذا فجأة

نطقتها (ثامر أحبك)، لا زالت تذكر جحوظ عينيه بداية الأمر، وسرعان ما نفث الشاي ضاحكًا بقوة .. لتدرك وقتها ما نطقت به، ينتهي من نوبة الضحك ليعقد ذراعيه حول ركبه وبابتسامة ساطعة (وأنا كمان أحبك! .. أحبك امممممم مثل -يفكر كثيرًا ولا تزال ضحكته معلقة- مثل مثل .. مثل يوسف ونجد .. - يزم شفتيه ويعود ليسكب له شايًا - لا الصدق مو مثلهم، هم شوي غثيثين! أنتِ ألطف .. - يشرب شايه باسترخاء شديد- يمكن مثل يمامة، بس يمامة عاقلة شوي.. - لا يعلم كم من حقد فجّره في قلبها تلك الليلة، حقد يشوبه مشاعر مضطربة .. لم تعد تلك المراهقة، كبرت هي لتكبر معها المشاعر المضطربة، لو أنها تعيش كأي فتاة لن تلتفت إليه .. لكنها محكومة بذلك، لا أحد في حياتها غيره .. وإن غضبت منه، تستلم في النهاية لحاجتها للحديث، للاتصال بأي شخص.

تفيق على صوته بعدما هدأ صوت طلال واختفى :" عدلي طرحتك"

تستوعب أن نقطة التفتيش على مقربة، ليخرج السؤال سريعًا بخوف :" وش بتسوي؟ "

يرفع حاجبه بابتسامة ثقة :" راقبي "

تغطي وجهها بحجابها الرقيق والخوف يدب بأطرافها ..
تقف السيارة ليمد ثامر بهوياتهما لرجل الأمن مع ورقة أخرى، يراجعها بهدوء ليعيدها إليهم وتمشي السيارة على ضحكة ثامر، تزيح الحجاب عن وجهها بصدمة لتنطق :" شلون؟ "

لا تترك له مجالًا لأن ينطق، تسحب الهويتين من يده لتشهق بصدمة :" حرامي! "

يضحك وهو يسحبها من يدها ليعيدها إلى جيبه :" والله وأنا رايح لعندك استوعبت إن يمامة نست هويتها والتوكيل معي، وطرت الفكرة براسي! "

تتسع ابتسامتها لتنتشر الطمأنينة فيها :" يالله تخوف انت! "

-

يُرخي عينيه باستسلام، ورؤيته ضبابية .. الماء ينسكب على جسده بغزارة، منذ ساعتين وهو يضطجع في حوض الاستحمام، ضامًا جسده العاري .. يشعر بالغرق، وكأن روحه تطوف رغم ثقلها، قطرات الماء التي تضرب جسده يشعر بها وكأن جنودًا في عرضٍ عسكري يتخذون من جسده مضمارًا .. يرى أطيافًا رمادية تحوم حوله، تتجاوز خطوطها لتدخل جسده وتسرق روحه، شعور باهت مُر مؤلم وبارد في ذات الوقت.

يصله صوت رنين جواله، لا يشبه الرنين .. نغمته تثير الغثيان وهي تهز طبلة أذنه، يصله صوتٌ من البعيد .. من الصحراء التي اقتلعته ورمته بعيدًا :" يوسف، لا توترني معك! -يزفر بشدة - ارفع السماعة ويكفي لعب بأعصابي! ... أدري بك تسمعني - يرق صوته - يوسف، والله لأترك كل شي وأحجز الحين وأجيك"

يستنشق الماء بقوة ليعتدل مجبرًا وسعاله يزيد، يستند بثقل على الحاجز الحجري ليسحب هاتفه ويفتح المكالمة .. بصمت مطبق.

يتنفس الصعداء الآخر :" أخيرًا! .. - يمسح وجهه ليرخي أعصابه إثر الضغط النفسي الذي سببه له أخوه- شلونك؟ "

يسأله ما لونه؟ ماهذا السؤال السخيف؟ يغرق بتفكيره وهو يحلل الكلمة.. لماذا اتفق أبناء بلده على أن السؤال عن الحال يكون بالسؤال عن اللون؟ هل كانوا يدركون بأن لكل إنسان لون؟ بأن أقرب وصفٍ لشعوره أنه رمادي؟ .. أن الألوان تنسحب من عينيه فلا يكاد يرى سوى لونٍ واحد يقضي عليه؟

" يوسف .."

صوت أخيه المتوتر أعاده لأصل السؤال، يعقد حاجبيه ويمسح عينه المبللة بالماء .. ينطق بصوت شاحب إثر الصمت الذي لازمه ليومين :" عادي"

يمسح جبينه نجد بتوتر.. يتنهد بقوة، يعود مجددًا ليتنهد مرة أخرى، صوت أخيه هذا يُدرك ما خلفه جيدًا ، يدرك كيف لنبرة صوته أن تتغير مع كل تغيرٍ يصيبه، نعم هذا الصوت الشاحب هو بداية الأمر .. بداية الانتكاسة :" يوسف، وينك؟ "

تدور عينه في حمامه الصغير، يتأمل كل ما فيه .. ليهمس بذات الصوت :" ويني؟ - يفكر قليلًا قبل أن ينطق - في الحمام! "

يغمض نجد عينيه :" طيب اطلع وكلمني .. أنا ببقى على الخط لا تقفل"

يزفر بشدة زفيرًا لا يُدخل في رئته إلا القليل من الهواء.. يقف بثقل أكبر، يخرج بخطوات أثقل .. :" هممم؟ "

نجد :" أول شي أبيك تعطيني أي رقم لأي أحد قريب منك، جارك .. ولا أحد من المعهد، أو من المركز "

يعقد حاجبيه وهو يرتمي على سريره ليبلله :" معهد؟ "

يتنهد نجد :" ايه المعهد يوسف! "

يغمض عينيه :" طلعت منه"

يكاد يفقد صوابه، يُجن .. لكنه يسيطر على نفسه بقوة :" ليش يوسف؟ "

" ما أحتاجه .. لغتي كويسة"

يُدرك تمامًا أن لغة أخيه ممتازة، بل وأكثر .. يُصر عليه ليدخل المعهد كي لا يستسلم لنوباتٍ جديدة، لكن خروجه من المعهد يعني انسحابه البطيء من كل شيء، هل فشل؟ ..

يزم شفته وكأنه يزم معها كل الجدال الذي يرغب أن يفجره بوجه أخيه :" طيب المركز، لا تقول لي تركته بعد! "

يعقد حاجبيه، يتذكر المركز .. مركز اجتماعي داعم لتجاوز الاكتئاب، سجل فيه قبل أسبوع وهو في قمة إحساسه بالقوة:" نجد .. أنا مو طفل تجلس تراقبه! "

يخرج من سيارته الآخر :" ما أراقبك يوسف، أنا بس مابيك توترني وأجلس قلقان عليك.. بعدين كل الناس تاخذ رقم احتياطي لا صار شي لا سمح الله"

نعم هو يدرك ما يقصده بـ (لا صار شي لا سمح الله) منذ سنتين وهو يخشى من أن يحدث هذا الشيء، وكأنه فقد ثقته بأخيه .. يمسح عينه وكأنه يمسح صورته اليائسة تلك :" لا تخاف علي .. تخطيت المرحلة"

يتنهد بشدة ليقف أمام باب المنزل دون أن يدخل :" عارف، بس إذا اتصلنا عليك رد.. ما تعرف شكثر تاخذني الهواجيس لا سفهتنا"

يهز رأسه :" زين "

يودّعه ويستودعه الله، يغلق الخط ويهم بفتح الباب .. ليصله صوت سيارة من خلفه تتوقف، يلتفت عاقدًا حاجبيه بسبب ضوء السيارة في ظل ظلام الحارة، يتعرف

على سيارة ثامر ويتقدم خطوتين .. ينوي الاتكاء على ناقذة السيارة :" هلا ثامـ..."

يبتر كلمته بربكة شديدة أصابته وهو يستوعب وجود فتاة بجانب ثامر لا يظهر منها سوى كفيها الناعمة وعينيها الرقيقة، عينان يحفظهما جدًا .. لم تتغير حتى بعد مرور الزمن، يتراجع خطوة للخلف على صوت ثامر :" هذي يمامة .."

يُخرج هاتفه من جيبه بتوتر ليضرب به كفه بخفة كعادته القديمة كلما توتر.. يشتت عيونه في كل مكان سوى عينيها :" شلونك يمام؟ "

يمام .. ذلك الاسم الذي لا ينطقه أحد بهذا التحبب سواه، لا يزال يبتر حرفها الأخير، يقتلع التاء المربوطة .. ليدللها بمناداته، تعبث بطرف كم عباءتها :" الحمدلله .. شلونك نجد؟ "

لا يصدق أنها تخاطبه، أن شفتاها تخرج حروف اسمه .. يهمس :" الحمدلله"

يصل صوت ثامر :" خلاص مثل ما اتفقنا؟ "

يهز رأسه سريعًا وربكته تزيد، لا يعلم إن كان ثامر يشعر بتوتره هذا، لكن ما يهمه أن تشعر هي بهذا التوتر :" ايه أكيد .. من بكرة؟ "

ثامر :" ايه بكرة يبدأ دوامها .. - يعقد حاجبيه ملتفتًا لها - متى تبدأ محاضراتك؟ "

تتسلل عينه لها، ينتظر خروج صوتها .. لتنطق :" عشرة "

يهز رأسه ثامر :" كويس، نشوفك بكرة نجد"

يهز رأسه، يشعر بروحه تنسحب معهما في السيارة.. يتوقف في مكانه ليتأملهما وسيارة ثامر تقف أمام منزلهم، يخرج ويسحب كرسيها الأسود .. تفتح الباب، تستند على باب السيارة بيد والأخرى بذراع ثامر.. منظر اشتاق له جدًا، متفردة دائمًا .. يكاد يشعر بهمسات ثامر البعيدة وهو يضحك معها ويجرها معه إلى باب المنزل، ويختفيان خلفه.

يتنهد بقوة ويمسح وجهه علّ اضطراب قلبه يهدأ.. يعود لمنزلهم، هادئ ومظلم .. لا بد أن والده قد نام، يتوجه لغرفة والده .. يفتح الباب ببطء ليظهر له جسد أبيه النائم، يسير على مهل ليُقبّل جبينه ويهمس :" الله لا يوجعني فيك"

يغادر الغرفة ليدخل غرفته .. يبدل ملابسه ليتنفس بقوة، لا يزال قلبه يركض .. كيف سيتصرف غدًا إن كانت دقيقة واحدة فقط قلبت حاله، فكيف بطريق طويل؟

يجلس على سريره وبداخله يدعو الله أن تضج الرياض غدًا بالزحام .. الرياض المدينة المزحومة دائمًا في كل وقت لم يتصور يومًا أن يتمنى ويتلهف لزحامها، يرتمي على سريره لتتراءى له الصور المعلقة على جانب سريره .. يقفز سريعًا وصورة يوسف تذكره بما كان ينوي فعله، يفتح جواله ليبحث مطولًا عن موقع المركز.. يجد ضالته أخيرًا لينتقل إلى رقم الدعم ..

-

على بعد مسافة قريبة منه، يفتح لها باب غرفتها القديمة ذاتها :" غرفتك نفسها تنتظرك"

تتسع ابتسامتها وحنين كبير يشدها، تحرك عجلاتها بسرعة :" اللللللله! - تدخل، تتأمل كل مافيها .. هي ذاتها كما

تركتها قبل تسع سنين، غير أنها خالية من نورة، تلتفت لثامر المتكئ على الباب - ثامر! كل شي نفسه ما غيرتوها! "

يبتسم :" عشان تعرفين إن مكانك دايمًا موجود"

تلتمع عيناها، تفلت ضحكة شوق صغيرة .. يعتدل بوقفته :" بجيب شنطتك"

يبتعد، لتعود لتأملها .. تقترب من السرير وهي تمرر كفها عليه، يجذبها منظر كانت تحبه كثيرًا، مكتب صغير بكرسيه .. تعقد حاجبيها وهي تصارع دمعتها، تعود إليها صورة قديمة وكأنها ماثلة أمامها .. هي بضفيرتها الطويلة تجلس على كرسيها المتحرك ونجد أستاذها الصغير يجلس على الكرسي الآخر .. يفصلهما المكتب ومجموعة كتب ودفاتر، ونورة على الجانب الآخر تجلس على طرف السرير تقرأ قرآنها .. يوسف يقرأ مجلة سنان، يدخل ثامر مسببًا فوضى ويضايق الجميع، تزيد ابتسامة الحنين على شفتيها.. لا شيء يعود، ثامر كبر كثيرًا .. قلبه رقّ قليلًا، ويوسف شد رحاله ورحل بعيدًا .. كبر هو الآخر ولم يتغير فيه شيء سوى ملامحه الرجولية، يحمل نصيبًا كبيرًا من اسمه .. يوسفيّ الجمال، غير أن هالة رمادية تحيطه.. أما الآخر، ترتعش وهي تذكر قربه قبل قليل .. تغير كثيرًا، آخر مرة رأته فيها كانت في

حفلة تخرجه من البكالوريوس قبل خمس سنين، كان شابًا مكتمل الأوصاف.. غير أنه الآن اختلف كثيرًا، لم يعد نجد الذي تعرفه .. يحمل بعضًا من ملامح خاله، والكثير من الرجولة ..

تزفر بضيق وهي تذكر الغد، وكل أيامها القادمة ..
ستضطر لرؤيته كل يوم، لا تعلم كيف تواجهه بعد رفضها له ..

يقاطع تفكيرها صوت ثامر الذي يجر حقيبتها الكبيرة :" اتركي كل شي ولا ترتبين .. نامي الحين، الساعة ثنتين ودوامك بدري لا تتأخرين بأول يوم لك"

تهز رأسها إيجابًا ويغادرها، يغلق باب غرفتها ليعود إلى غرفته .. يدخل حمامه الخاص ليدس نفسه تحت المياه ويغتسل، تنساب المياه فوق رأسه .. يغمض عينيه، تتراءى له صورة تلك البعيدة .. عاد بها من الشرقية صباح اليوم وفارقها، يزفر بشدة وهو يذكر أن الموعد اقترب.. يتوق جدًا لخروج خالد من السجن، يحسب الأيام والساعات .. خالد أستاذه ورفيقه الوحيد، لكن ما باله كلما اقترب الموعد زادت رهبته؟ فكرة رحيلهما عنه تصيبه بالرعب والجنون، ترك حياته كلها ليقضيها بقربهما .. خالد ورغد، عائلته .. وكل

ما تبقى له، لا شيء إطلاقًا يعادل وجودهما .. لا يمكنه محاولة إقناع خالد بترك فكرة الرحيل المؤبدة وهو الذي كلما اجتمع به في السجن لا ينفك يتحدث عنها وعن خططه لها .. رحيل مؤبد لا عودة فيه، في كل يوم يذهب إلى الغرفة الطينية تلك التي يُطلق عليها خالد (غرفة الهجرة) تحدثه نفسه بأن يمزق ويحرق كل ما فيها .. هويات مزورة تحمل اسمها واسم خالد، أعدها منذ إحدى عشر عامًا استعدادًا للرحيل الأخير، أوراق أخرى وهويات في صندوق محكم يُعد نفسه خالد لاستخدامها حالما يخرج ليجمع مالًا يؤمن حياتها في الغربة، إن انتهت هذه الغرفة سينتهي كابوسه .. وسيسقط خالد وكل ما بناه ينتهي! ، لا يرغب بهذا .. ولا يرغب برحيلهما.

يضرب رأسه بالجدار ولا حل يجده، رحلة الشرقية تلك افتعلها علّه ينسى ما ينتظره، لم تنس يمامة هويتها كما ادعى .. اختلسها منها في زيارته الأخيرة لها، لم ير رغد بهذا الحبور والنشاط من قبل .. عادت طفلة تركض وتلحق الأمواج التي تراها لأول مرة، ركبت الأرجوحة لتحلّق بها بعيدًا وشعرها القصير ينتثر .. تصرخ له تطلب منه أن يدفعها أكثر، كان يحفظ أوقاتهما الأخيرة .. أراد أن تحفظ

ذاكرتها ولو يومًا واحدًا أسعدها فيه، كانت صديقة ورفيقة .. جزء منه، وتحتل معظم حياته .. هذا ما يستطيع أن يفسر شعوره نحوها، كان كل شيء جميل حتى حطّمت جمال رحلتهما في طريق العودة .. كانت تحكي بإسهاب عمّا سيحصل بعد أشهر، بعد خروج خالها .. كيف ستحاول أن تبني حياة جديدة، ستدرس .. وتزوّج خالها خالد! تصمت طويلًا لتعود وتعبّر عن قلقها وخوفها من المستقبل .. من الخطوة القادمة، كيف ستترك الرياض والوطن وتهجر كل شيء وراءها؟ تعود لتثير ما يقتله .. كيف ستتركه هو؟ تترجاه بأن يلحق بهم .. يترك كل شيء خلفه ليلتحق بهما! قلق لازمها حتى أوصلها شقتها الصغيرة..

يخرج من الحمام ويلبس ملابسه، يجفف شعره ليتفقد هاتفه .. يعقد حاجبيه وهو يرى رسالة تحمل اسمها وسرعان ما ارتسمت على شفتيه ابتسامة وهو يقرؤها (شكرًا ثامر .. تحقق حلمي وشفت البحر ❤️)

-

منذ مكالمة أخيه قبل ساعتين وهو لا يزال يرقد فوق سريره، يزفر عشرات المرات في الدقيقة.. يشعر بنفسه يضغط عليه، يجاهد التنفس وكأنه يجاهد شعوره الذي يقوده لقوقعته.. مكالمة قصيرة مع نجد حفّزت به شعور المقاومة، شعور يبقيه على قيد الحياة .. إن فقد الرغبة في المقاومة لن يفرّق إن كان فوق الأرض أو أسفلها.

قطع الصمت الطويل صوت قرع الجرس، يعقد حاجبيه مستنكرًا .. من يعرفه؟ يعود مجددًا ليغوص في لحافه، يتكرر الصوت .. يزفر زفرة طويلة ويرمي اللحاف، ينوي مغادرة غرفته إلا أنه يتوقف مستدركًا جسده العاري، يلتقط ملابس عشوائية ملقاة بإهمال ليلبسها .. يفتح الباب بزفرة أكبر .. تتوقف زفرته بمنتصف حلقه وهو يرى من يقف خلف الباب بعدم استيعاب.

تتسع ابتسامتها :" مرحباً ! "

يعقد حاجبيه وهو يعيد الملامح لذاكرته، نعم .. فتاة الصحراء، الفتاة المتطوعة في المركز .. يتكئ على الباب وعيناه تغوص فيها محاولًا استخراج السبب الذي يجعلها

تقف خلف باب شقته، ترفع كفها لتلوح بها وبذات الابتسامة مع عقدة الحاجبين :" أنا هنـا ! "

لا يتحدث، داهمته رغبة في إغلاق الباب أمام وجهها .. أكثر ما يثير استياءه أن يداهم أحدٌ ما عزلته، يعود صوتها مجددًا بلكنة أمريكية :" امممم، لا أظنك تفضل أن تقف ضيفتك طويلًا أمام الباب.. كما أنني لا أفضل الدخول - تنحني للأمام قليلًا - هل تقبل دعوتي لشرب كوب قهوة معًا؟ "

لا تزال نظرته المتفحصة سيدة الموقف، تنفرج شفتاه أخيرًا :" عفوًا ؟ "

تبتسم، ذات الابتسامة :" في نهاية الشارع مقهى جميل، أود بشدة أن أدعوك له.. ولا أظن من شيم العربي أن يرفض دعوة الضيافة! - بمرح وكأنها تعرفه منذ وقت طويل - هيا جوزيف! "

*•

أتيت أركض والصحراء تتبعني
وأحرف الرمل تجري بين خطواتِي
أتيت أنتعل الآفاق أمنحها
جرحي، وأبحث فيها عن بداياتِي
يا أنتِ لو تسكبين البدر في كبدي
أو تشعلين دماء البحر في ذاتِي
فلن تزيلي بقايا الرمل عن كتفي
ولا عبير الخزامى من عباءاتِي
هذي الشقوق التي تختال في قدمي
قصائد صاغها نبض المسافاتِ
وهذه البسمة العطشى على شفتي
نَهرٌ من الريح عذريٌّ الحكاياتِ

- سيد البيد

الورقة الخامسة

تتعلّق عيناه بعينيها، يحاول تفسير سبب وقوفها أمام بابه .. يعقد حاجبيه باستياء شديد وهو يسمعها تناديه (جوزيف)، لكن طاقته أضعف من أن يناقشها في تحريف اسمه العربي إلى بديله الانجليزي، يختصر الطريق ليدفع الباب ويهم بإغلاقه، إلا أنّ قدمها سبقته لتكون حاجزًا عن إغلاقه للباب :" أرجوك "

اشمئزاز كبير يداهمه، تتسلل عينه أخيرًا لها.. يرغب بدفعها وصفع الباب خلفها، عيناها تنظر إليه برجاء، تتابع :" لا تستلم، أعلم أنها نوبة من نوباتك.. لا تستلم لها، هيا يمكنك فقط أن تخطو خطوة واحدة للأمام لتحاربها"

يتوه، وكأنه رُمي في صحراء لا نجوم تلحفها .. وكأنها دليل يشك في صدقه، يتمسك به كي ينتشله من ضياعه، يعود صوتها مشجعًا وهي تُمسك الباب كي لا يغلقه :" ما يحول

بينك وبين تخطي ضعفك هو هذا الباب، إن تجاوزته ستنتصر..."

تبتر كلمتها وتتحرك بتلقائية للخلف على فتحه القوي للباب وبأقل من لحظة يتخطى الباب ويغلقه سريعًا خلفه وتنفسه يضطرب وكأنه قام بمجهود كبير، تمر لحظة صمت بينهم وهو يستند على باب شقته مغمضًا عينيه، تستوعب ما حصل لتبتسم ابتسامتها المعهودة :" واااااو! أنت رائع"

يفتح عينيه ليجدها تقف أمامه، يعقد حاجبيه ليميل برأسه للخلف يتأمل الباب المغلق.. يشعر بسواده يتربص به من خلف الباب، يلومه بسبب ما فعل، على تركه ومحاربته له .. يشعر بأن روحه أصبحت أخف، وكأنها تركت جزءًا منها في شقته المظلمة، يغمض عينيه ولا يزال يتكئ على الباب يراجع نفسه .. يعود ذاك الصوت مجددًا :" لا .. لا تفكر كثيرًا- يفتح عينيه ليجدها تبتسم الابتسامة التي يكرهها كثيرًا، تُشعره بأنها حرة وبكم القيود التي تلف رقبته هو- امممم يمكننا النزول الآن؟ "

يتنهد تنهيدة كبيرة، ما فعله تعد خطوة كبيرة لم يعتقد أنه قادرًا عليها.. يُدرك أن نزوله للأسفل سيولد فيه شعورًا

غريبًا، لكنه بحاجة هذه الغرابة .. يعتدل بوقفته، يخطو للأمام لتتبعه بانتصار .. تسير برفقته والصمت سيد الموقف، حتى يتخطيان بوابة المجمع..

تضمّ يديها بقشعريرة إثر البرودة التي داهمت جسدها، تتسلل عيناها إليه لتداهمها برودة أشد وهي ترى سترته الرمادية الخفيفة.

يتوقفان أمام إشارة المرور لينتظرا عبور السيارات، بينما هو شارد مطأطئ رأسه وكأنه يحسب الخطوات التي تفصله عن شقته وعزلته.. يأتيه صوتها ليجبره على رفع رأسه قليلًا :" امممم لأكن صريحة، لم أتوقع إطلاقًا أن تكون بهذه القوة والشجاعة! "

لا يعلق، يكتفي بالنظر إليها لتتابع :" من خلال تجاربي الكثيرة .. أظن أن عزيمتك قوية وإيمانك أقوى"

ينطق أخيرًا مستعيدًا صوته الذي بدأت تنساه :" منذ متى وأنتِ في المركز؟ "

يبتسم قلبها ويرفرف لسماعها صوته، وأخيرًا استطاعت فعلها! تتمالك نفسها لتظهر ابتسامتها ذاتها :" منذ كنت في الثانوية، اممم تقريبًا منذ ثلاثة أعوام "

تتوقف السيارات، ليضيء لون المشاة بالأخضر.. يتحركان وهي تتابع :" لم أكتسب خبرتي من المركز أكثر من اكتسابي لها بسبب شخص ما يهمني أمره منذ سنين طويلة"

لا يُعلق، هو أبعد شخص عن الفضول .. يعقد حاجبه فجأة وهو يشعر بها تتقدم لتفتح باب أحد المقاهي :" إلى أين؟ "

تُمسك الباب لئلا يُغلق، تتسلل ضحكة لها :" أخبرتك مسبقًا أننا ذاهبان لشرب القهوة! "

يتوقف في مكانه عاقدًا حاجبيه، خرج من شقته هربًا من عزلته ووجد نفسه فجأة برفقتها .. لا يتذكر موضوع القهوة هذا، لم يسبق له بأن تناول كوب قهوة مع فتاة ما .. جميع النساء اللاتي يعرفهن ينحصرن في أمه نورة وخالته يمامة، لا يعرف كيفية التصرف في مواقف كهذه.. يصل صوتها :" هل عقدة حاجبك ستطول كثيرًا أو أنتظرك ؟"

يتدارك نفسه ليخفف من حدة ملامحه، يتقدم إليها ليدخل المقهى الدافئ، تُغلق الباب خلفها لتفرك كفيها بسرعة :" أوه يا إلهي، البرد كاد يجمدني"

يتقدمها ليجلس على طاولة جانبية بجانب النافذة التي تعكس أضواء الشارع .. تلحق به لتجلس أمامه :" كنت

أتساءل طوال الطريق كيف لا تشعر ببرد كهذا وسترتك خفيفة! - تصمت قليلًا قبل أن تتابع - هذا بالإضافة إلى أنك قادمٌ من بلاد حارة! "

يلتفت إليها بعد ما كانت أنظاره تضيع في النافذة، يرفع ذراعه ليثبتها على الطاولة مسندًا رأسه بكفه وبنبرة جامدة :" كيف عرفتِ أن بلادي حارة؟ "

تزم شفتيها قبل أن تجيب :" اممم في الواقع ملامحك تشي بأنك عربي، ليس شيئًا صعبًا "

ينطق بسرعة بنظرة ذات مغزى :" صحيح .. نفس ملامحك تمامًا! "

لم يلحظ التوتر الذي بدا عليها بسبب عودة عينيه إلى النافذة، وكأنه لا يهتم بما تقوله أو بما قاله .. يعود ليلتفت عليها بذات البرود :" هيه .. بالمناسبة لا أهتم، أعلم أن في بلاد الغربة غالبًا يهرب العرب من بعضهم البعض، ولا أعلم السبب حتى الآن .. لكن اطمئني لا يهمني ذلك إطلاقًا "

ترف عينها بتردد، ما يقوله صحيح تمامًا .. وهي أعلم الناس بهذا الأمر، يقاطعهما وصول النادل.. لتنطق سريعًا :" أنا سأختار لك .."

لا تترك له مجالًا لأن يعلق لتطلب سريعًا، يبتعد النادل ليعقد حاجبيه :" قهوة فستق؟ "

تهز رأسها :" صدقني، لن تندم "

يعود بأنظاره للنافذة :" لا .. أظن بأنني سأندم، أنا تقليدي جدًا "

يعم الصمت قليلًا، تقف فجأة وتتجه لإحدى اللوحات المعلقة .. :" جوزيف! "

يعود بأنظاره من النافذة إليها، يزم شفته بضيق أكبر واسمه بات يكرهه بسببها .. تلتفت إليه وهي تشير للوحة :" يا للصدفة! .. لم تكن هذه اللوحة موجودة قبل يومين! "

يتأمل اللوحة التي تشير إليها ولا يجد رابطًا بينها وبين كلامها، هي مجرد لوحة زيتية غريبة تذكره بأخيه ثامر .. يعود صوتها أقرب للهمس :" هلّا أتيت؟ "

يزفر بقوة ليقف ويتجه إليها، يعقد حاجبيه ناقلًا بصره بينها وبين اللوحة.. لتتابع :" لوحة فان جوخ الشهيرة، هل تعرف ما تعني؟ "

يعود ليتأمل اللوحة مجددًا، يغوص فيها وفي تفاصيلها .. لونها الأزرق وحركتها الدائرية، وكأنها تحكي دوامته.. يهز رأسه نفيًا :" لا، فقط أشعر بأنها تلمس شيئًا في"

تبتسم :" لأنها تصور قصة جوزيف والأحد عشر كوكبًا -تشير إلى الكويكبات المنتشرة في اللوحة- إخوة جوزيف، والشمس والقمر"

تشده اللوحة بعد كلامها، يزيد من تأمله لها .. ليأتي صوتها مجددًا ضاحكًا :" هذا ما أخبرني أبي به، لا أعلم إن كان حقًا أم مجرد تخيلات تدور في رأسه"

تعود إلى الطاولة والنادل يضع كوبيهما على الطاولة، تلتفت للخلف إلى حيث يقف :" هيه جوزيف! القهوة "

كان لا يزال يقف في مكانه مشدودًا إلى اللوحة، يلتفت أخيرًا ليعود إليها .. يجلس على الكرسي ليحتضن كوب قهوته الدافئ، للتو شعر بالبرودة التي تغلف المكان .. تأمل كوبه للحظات قبل أن ينطق :" والدك مهتم بالفن؟ "

ترتشف قهوتها لتهز كتفيها :" لا .. ليس كثيرًا، إنما هذه اللوحة شدته في يومٍ ما وأخبرني بذلك"

يهز رأسه بهدوء :" أخي رسام .. لكن لا أظنه يعرف من هذا فان جوخ! أو غيره من فناني اللوحات، يرسم فقط ولا يُلقي بالًا لشيء"

يبتسم قلبها وهي تشعر به يجاريها ويخرج من صمته.. يلين صوتها :" أظنه يهتم لأمرك كثيرًا .. كن قويًا لأجله"

يرفع رأسه عاقدًا حاجبيه لتتابع :" في الحقيقة هو من اتصل بالمركز وكان قلقًا عليك.. زودنا بعنوان شقتك فقط للاطمئنان عليك"

تتسع عيناه بداية الأمر، لكن سرعان ما انطلقت منه ضحكة خفيفة هازئة :" أووه ليس هو، هذا أخي الآخر.. الرسام لا يمكن أن يصدر منه فعل كهذا"

تزم شفتها مدركة الأمر، ليتابع بذات الضحكة :" وأنتِ حضرتِ بأمرٍ من المركز كي لا يفقد المكتئب صوابه ويقتل نفسه؟ "

تهز رأسها نفيًا :" لا ليس الأمر بهذه الصورة، صحيح أن المركز كان ينوي تكليف شخص ما.. لكني أحببت أن أقوم أنا بهذا .. أعرف كيف للغربة أن تنهش روحك - تُنزل رأسها لتعبث بمنديل الطعام- أنت لا تدرك كم يُسعدني فعل هذا"

يزفر بقوة ولا يُعلق.. يشرب قهوته الحارة سريعًا ليقف :" شكرًا لكِ"

تقف معه بسرعة :" إلى أين؟ "

يلتفت إليها :" أتممتِ المهمة على أكمل وجه، صدقيني "

يتخطاها ليتجه إلى الباب، يفتحه لتداهمه برودة شديدة جعلته ينكمش على نفسه، يأتيه صوتها من خلفه :" الثلج يتساقط، انتظر قليلًا "

يلتفت نحوها :" بالمناسبة.. كنت فاقدًا الإحساس بالبرودة، أما الآن فأنا أشعر بها تمامًا .. عادة عندما يتملكني الاكتئاب أفقد الإحساس بأي شيء، أدرك أني تجاوزته عندما يعود لي الإحساس بالبرودة أو الحرارة"

يولّيها ظهره ليمشي بخطوات سريعة ..

يقف أمام المرآة متأملًا شكله، يعود ليعدّل شماغه مرة عاشرة .. يتطيّب بعوده، يصله صوت أبيه :" ما شاء الله صاحي بدري اليوم! "

يبتسم ليلتفت إلى أبيه :" ما نمت بعد الفجر، أحس إني مصحصح"

يُدرك ياسر سبب إشراق وجهه، يعلم ما يعيشه ابنه .. يُذكره بنفسه والاضطرابات التي عاشها مراهقًا وشابًا، ونفس الوجع الذي لازمه .. لا يُريد لابنه أن يتعلق بوهم، رفض اليمامة له أشد وطأة من انتظار طويل.. يزفر بشدة ليطبطب على كتف نجد المشغول بتجهيز اللاب توب ومجموعة أوراق :" لا تسرع - وبنبرة لينة - ولا تحسسها بشي "

يلتفت لأبيه بنبرة ضيقة :" يا يبه الله يهديك تعرف إنها عزيزة وغالية علي.. مستحيل أضايقها بشي! "

يغمض عينيه بضيق :" أدري والله، بس الهوى غلّاب"

يغلق حقيبته ويحملها، يُقبل كتف والده وجبينه :" ادعي لي يالغالي"

يتمتم ياسر بدعواته له، يستودعه الله ليضم اسم يوسف البعيد في الدعاء، يخرج نجد من بيته وحفلة صاخبة تُقام داخله.. تنتقل أنظاره إلى المنزل القابع في زاوية الشارع كما كان يفعل في مراهقته .. يتأمل البيت بشغف وكأنه يراها، ماتت الحياة فيه بعد رحيلها المتوافق مع رحيل

سيدته نورة .. وها هي تعود لتجعل المنزل والحي وكل الرياض تزهر وتخضّر وتغني.

يركب سيارته وابتسامته تشق طريقها إلى وجهه، لا يمكنه كبحها .. تسير السيارة قليلًا حتى تصل إلى مراده، أخرج هاتفه ينوي الاتصال برقمها الذي يحفظه غيبًا .. لكن تعلقت يده بمنتصف طريقها وهو يرى الظل القابع خلف الباب، تمتد يدها لتفتح الباب .. وها هي تطل عليه لتزلزله، يتوتر .. يزم شفته، لا يعلم ما يجب عليه فعله، يراها تنحدر من المنحدر الصغير بجانب الدرج.. وُضع خصيصًا لها قبل عشرين عام، تتوقف قرب السيارة .. يعقد حاجبيه لوقوفها، يستدرك أخيرًا ليخرج بسرعة من سيارته وينتقل للباب الخلفي من الجانب الآخر، بقربها .. يفتح الباب بربكة، يتوقف بجانبه منتظرًا الخطوة التالية .. تسحب عجلاتها حتى تقترب منه، يمد كفه دون استيعاب ظنًا منه أنها تلك الصغيرة التي تتشبث بذراعه كلما سنحت لها الفرصة.

ترفع بصرها له لترميه بنظرة حادة زادت من توتره ليستوعب كفه الممدودة، يعيدها إليه بسرعة ويشتت أنظاره ، تقترب أكثر لتضع حقيبتها على مقعد السيارة، ترفع جسدها متكئة بيديها وتجلس على المقعد.. يرفرف قلبه أكثر

وعباءتها تكشف بلا قصد أسفل قدمها، حذاء رياضي صغير يعلوه خلخال ذهبي ناعم يُزين ساقها .. يغض بصره سريعًا بتوتر لينشغل بكرسيها المتحرك ويضعه في الخلف.

يعود إلى مكانه، يتمالك نفسه قبل أن يعيد تشغيل السيارة .. وبصوت حاول أن يكون واثقًا قدر الإمكان :" شلونك يمام؟ "

تزم شفتيها وهي تغلق عباءتها بإخراج :" تمام الحمدلله"

تسير السيارة قاطعة الطريق الطويل، يرفع نظره للمرآة ليراها منشغلة بشيء ما في كفها :" شلونه خالك وخالتك؟ "

تهز رأسها سريعًا :" الحمدلله، كلهم بخير"

يعقد حاجبيه بضيق وهو يستشعر اختصارها للحديث معه، يزداد ضيقه بسبب الحواجز التي فصلتهما عن بعض.. يرغب وبشدة أن يعيد تلك الأيام الجميلة.

أما هي كانت تسب اللحظة التي فكرت فيها أن ترتدي خلخالها، لم تعتد الخروج بدون خلخال يزيّن قدمها .. تذكر تأنيب خالتها لها بسبب اهتمامها الشديد بقدميها! ، تدرك أنها تبالغ باهتمامها هذا.. أكثر ما يحيّرها في السوق هو نوع الخلخال الذي ستشتريه وأكثر ما تصرف عليه .. حتى أن صندوق اكسسواراتها مملوء بأنواع كثيرة أكثر من العقود

أو الأساور .. لا ترغب بأن تُميت قدمها وإن كانت عاطلة عن العمل، تستشعر أهميتها وتعوضها بالدلال نيابة عن إهمالها، تتخير لها أجمل وأغرب أنواع الجوارب.. وأريح الأحذية، ترفع رأسها على صوته الذي قطع تفكيرها بخلخالها :" امممم فطرتِ؟ "

تهز رأسها إيجابًا :" ايه فطرت "

صوتها جميل، ليست أول مرة يشعر بهذا.. لكنه اليوم يبدو لذيذًا على غير المألوف.. يتوقف أمام قهوة (ستاربكس) :" شوي وأرجع"

يخرج لتزفر بقلق وهي تراقب الساعة التي تجاوزت العاشرة إلا ثلث، لا ترغب بأن تتأخر في أول يوم لها.. تعلم ما سينتظرها من قلق وبحث وضياع في ساحات الجامعة الفسيحة، وهو بالمقابل يخرج ليشتري له كوب قهوة!

تلمحه يخرج وبيده كوبي قهوة، يتقدم ليفتح باب السيارة ويدخل .. يزيد من إحراجها وهو يُمسك بكوب قهوة ويلتفت إليها مادًا الكوب لها .. تأخذه بسرعة من الأسفل كي لا تمسّ يده، لتخرج شهقتها سريعًا وتكبحها بشكل أسرع، يبتسم :" حارة! .. امسكيها من الحامي"

تزم شفتها على كلامه، هل يظنها جاهلة بالأمر البديهي؟ أو هل سيظنها تأخذ الكوب من بين أصابعه! .. يعود ليقود السيارة، يعلو رنين جوالها .. يصله صوتها :" هلا ثامر .. ايه مع نجد .. زين، مع السلامة"

تغلق الخط لتنشغل بقهوتها، ينتهي مشوار الطريق بشكل سريع أسرع مما اعتقد.. تلوّح بوابات الجامعة أمامه، يتوقف أمام أحدها ليخرج ويُخرج كرسيها.. تفتح الباب لتستند على ذراعي كرسيها وتخرج إليه، كان ينوي إغلاق باب السيارة إلا أن صوتها جاء قريبًا جدًا :" نجد! شنطتي! "

يزم شفته متذكرًا شنطتها، يسحبها من المقعد لتتلقفها.. كادت تنطق (وقهوتي) لكن بترتها ظنًا منها أنه سيراها بتلقائية .. لكن يبدو أن ربكته لم تسمح له بملاحظة شيء سواها وهاهو يغلق الباب .. حركت كرسيها قليلًا ليأتي صوته :" يمام! متى تطلعين؟ "

يمام :" الساعة ثنتين، بس ... بشوف لثامر لو يقدر يطلع من دوامه"

يقاطعها سريعًا :" لا لا تكلمينه، أنا بجيك بس على ثنتين ونص.. عادي؟ "

تهز رأسها وهي ترجع كرسيها للخلف مستعدة للرحيل :" ايه عادي"

وترحل ...

يتأملها وهي تجر كرسيها حتى باب الصالة، يرى فتاة تعرض المساعدة لتصدها يمام بغضب.. نعم هي تكره هذا النوع من المساعدة، كما كانت .. يتنهد بقوة ليعود إلى سيارته، يخرج من بوابة الطالبات إلى بوابة كليته.. كلية الآداب، يوقف السيارة ليخرج حاملًا حقيبته، وقبل أن يغلقها يلفت نظره كوب القهوة الموضوع بالخلف.. تتسلل يده بتلقائية ليأخذه، يتأمل خطوط شفاهها الملونة بالوردي مرسومة بفتنة على كوبها، يشعر به لا يزال مليئًا بالقهوة .. بدون أن يشعر يرفعه لفمه ليرتشفه.

تتوقف يده فجأة مستوعبًا ماذا يفعل، ماهذه المُراهَقَة والصبيانية التي تملكته؟! أهذا فعلًا ما يشعر به كل عاشق؟ درس الأدب كثيرًا ودرّسه .. قرأ كثيرًا من نوبات العشاق الذين يتحولون فجأة لصبيان ومراهقين، يتراءى له بيت شعري يحفظه جيدًا (خطيئتي الكبيرة الكبيرة .. أني يا بحرية العينين يا أميرهْ.. أحب كالأطفالْ.. وأكتب الشعر على

طريقة الأطفالْ.. فأشهر العشاق يا حبيبتي كانوا من الأطفالْ .. وأجمل الأشعار يا حبيبتي ألّفها الأطفالْ)

يُدندن بالقصيدة وهو يرتشف من كوبها متحسسًا أثرها، حتى فرغ منه .. أوجعه قلبه أن يرميه، فتح درج السيارة ليضعه فيها أملًا بأن يعود له في الظهيرة ويخبئه في غرفته الصغيرة.. يُلقي عليه نظرة أخيرة وكأنه يودّعه.

" هلاااا بأبو ياسر! "

يفز سريعًا على صوت القادم من خلفه وطرقه لباب السيارة، يُغلق درجه ليلتفت ويجد خاله يقف خلفه .. :" هلا هلا خالي"

يعقد ناصر حاجبيه :" وش عندك متوزي هنا؟ - ينظر له نظرة لئيمة - لا يكون تدخن من ورانا!"

يضحك بتوتر ليخرج من السيارة ويغلقها :" دخان يا خالي؟ - يسير معه - الله يصلحك، لو إنه دخان شميت ريحته"

يضحك ناصر :" وانت وش فيك خفت؟ كنت أمزح معك .. بس واضح وراك بلا"

يضحك ضحكة خفيفة ليُنسي خاله الأمر، يسيران معًا حتى يدخل نجد كليته ويفترق عن خاله الذي أكمل طريقه إلى كلية الحقوق والعلوم السياسية..

يدخل قاعة البث المباشر، يجلس على كرسيه ويتأكد من إغلاق الكاميرا .. يدندن بخفة وهو يفتّش أوراقه، تروق له المحاضرات التي يلقيها لطالبات، على عكس الطلاب .. التفاعل كبير واهتمام أكبر خاصة أن طالباته هذه المرة مستجدات، كما أنه متى ما ضجر من الأسئلة يمكنه أن يتظاهر بأنه لا يسمع وأن البث لا يصله .. يُخرج كشف الطالبات ليمرر عينه سريعًا عليه بتلقائية، يعود لتشغيل الكاميرا المنصوبة أمامه مع مكبر الصوت :" السلام عليكم "

تصله أصوات بعيدة ترد السلام، يزم شفته :" امممممم الظاهر ما زال الحضور قليل! وش هالاستهتار يا بنات! انتو كبرتوا الحين ما عادكم طالبات مدارس! .. المرة الماضية مشيتها ولا حضّرت، لكن من اليوم نبدأ التحضير .. "

يُمسك بالورقة، يفتحها .. يبدأ بنداء الطالبات واحدة واحدة، يزيد استياؤه لتغيب الكثير.. :" نورة محمد السالم ... ريم مو***- يتوقف فجأة، يعقد حاجبيه وهو يقرأ الاسم

مرارًا بداخله، ينتابه شعور قاتل يخنقه .. لا يمكن أن يكون هو! .. -

يصله صوت رقيق :" دكتور ريم إيش؟ في ثنتين ريم هنا .. "

يتنفس، يزفر وهالة سوداء تغطي وجهه .. ينطق بصوت مختلف تمامًا :" الطالبتين اللي اسمهم ريم، ممكن تعطوني أسماءكم من جديد .. مو واضحة عندي"

" ريم محمد العلي "

يزيد شده للقلم وهو يسمع الصوت الآخر :" ريم موسى الحمد "

يرفع رأسه قليلًا حتى توازي الكاميرا :" ريم، بنت الدكتور موسى الحمد؟ "

تبتسم، هي تعلم أن والدها شيخ كبير يعرفه معظم الناس.. ودائمًا ما يوجه لها هذا السؤال :" ايه دكتور بنته"

شيء ما يفيض في صدره ويحرقه، يزفر بضيق ليضع الورقة جانبًا .. يبدأ محاضرته بثقل كبير، يختصر ردوده .. يقول ما لديه ويتظاهر بعدم السماع في معظم الوقت، يمضي الوقت بطيئًا وهاهو يلم أوراقه :" أحتاج طالبة أتواصل معها في حال استجد شي "

يأتي صوتها سريعًا :" أنا دكتور .."

يعقد حاجبيه :" أنتِ مين؟ "

:" ريم موسى "

يغمض عينيه بشدة، ما هذه الكارثة التي حلت عليه؟ لا مفر بأن يردها .. :" زين، ارسلي لي رقمك على الإيميل الجامعي"

يخرج من المكتب بضيق شديد، ينوي التوجه للمطالبة بتبديل شعبته.. لكنه يدرك تمامًا أن هذا مستحيل، معظم زملائه يتهربون من شعب الطالبات، لن يجد بديلًا .. ولا مفر من بنت الشيخ!

-

يتملص من دوامه، يتحجج بحجج واهية ليسمح له مديره أخيرًا .. وها هو يجلس في صالة الزيارة على الطاولة منتظرًا قدوم خالد، يبتسم وهو يراه يدخل برفقة بعض السجناء والحراس، يقف مستقبلًا إياه :" السلام عليكم"

يتقدم خالد ليصافحه، يبتسم ابتسامة ميتة :" وعليكم السلام"

يجلسان متقابلين، ليبدأ سؤاله المعتاد :" شلونها رغد؟ "

يهز رأسه إيجابًا :" بخير الحمدلله، متى ما احتاجت شي دقت علي"

يهز رأسه الآخر :" صبرت كثير علينا ثامر، هانت ما بقى إلا القليل"

يزفر بضيق :" خالد! .."

يلتزمان الصمت ، كل منهما يواسي همه.. خالد الذي يخطط ليوم الرحيل ويحسب حساب حتى الطعام والعصير الذي سيحتاجانه.. وثامر الذي يتآكل قلبه بسبب هم الآخر، بدا خائفًا من لحظة خروج خالد.. من تفكيره الجهنمي، ومن ردة فعله حال معرفته طبيعة العلاقة بينه ورغد، يشبك أصابع كفيه ببعضها :" خالد .. الفكرة اللي براسك ما ودك تلغيها؟ "

يعقد حاجبيه قليلًا، يفهم مقصد ثامر تنطلق منه ضحكة سخرية :" ثامر؟ "

يزفر بضيق شديد، يميل بجسده للأمام قليلًا حتى يقترب منه :" أخاف ينعاد كل شي! هذي مجازفة خالد ما تضمنها"

يهز رأسه نفيًا وهو يلبس نظارته :" الموضوع منتهي، وكل شي ماشي صح.. مستحيل ألغيها دام النمل طلع من حجره"

تتحول ملامحه للاستياء وهو يفهم ما يرمي إليه خالد، (النمل) عمها الخارج من السجن قبل عشر سنوات .. يزفر بضيق ليعود بأنظاره إلى خالد الذي نطق بثقة كبيرة :" ثامر صدقني كل شي بيصير نفس اللي نبيه، أبيك بس تصبر هالكم شهر "

يهز رأسه إيجابًا بضيق، ينتهي وقت الزيارة .. يودعه ويوصيه على رغد، ويخرج محملًا بهم أكبر

-

تتوقف السيارة أمام المنزل، يلتفت خلفه ليراها بنفس وضعيتها قبل عشرون دقيقة.. مائلة على النافذة تنام باستسلام وتعب، يبتسم بحنو.. يتمنى لو يتوقف الزمن هنا وتبقى خلفه تنام باطمئنان، أخذها من مقرها لتدخل

السيارة وعلامات الضيق والتعب تغطي صوتها، يسألها مستفهمًا عن يومها الأول لتجيب باقتضاب.. يعود ليسألها مجددًا عن نكهة الآيس كريم التي تفضلها، لكنها لا تجيبه وتدخل في نوم عميق.

يفتح باب السيارة، يُحضر كرسيها من الخلف .. وما أن همّ بفتح الباب تفز بخوف لتستيقظ، تعقد حاجبيها .. تستوعب موقفها، تعتدل بجلستها لتعدل نقابها، يبتسم وهو يقف متكئًا على بابها :" صح النوم! "

تزم شفتيها بتوتر، لا ترد .. يُقرب كرسيها منها لتنزل إليه وهي تسحب حقيبتها، تجر عجلاتها حتى تدخل المنزل.

يودّعها بعنينه وابتسامة كبيرة ترتسم على وجهه، يعود لسيارته متجهًا إلى بيته .. يكاد يجزم بأنه أفضل يوم جامعي على الإطلاق، لا يزال يحمل رائحتها فيه.. يشعر بها خلفه.

يفتح درج السيارة ليأخذ كوبها ويضعه بين أشيائه، يخلع شماغه ليغطيه به.. يدخل البيت بوجه مشرق مفعم بالحيوية :" السلام عليكم .. وش هالريحة الزينة؟ "

يبتسم أبوه الذي يجلس أمام ناصر، يقترب نجد ليقبل رأس أبيه :" وخالي حلا له بيتنا؟ كل يوم ناط عندنا؟ "

يبتسم ابتسامة ميتة، لا يرد .. يرد والده مستاءً من كلامه .. يضحك ويغادر نجد إلى غرفته، يرمي حقيبته على مكتبه الصغير، يأخذ الكوب المتخفي تحت الشماغ .. يتأمله مجددًا بمشاعر ملتهبة، يدسه في صندوق أسفل المكتب.. ليخرج إليهما، يرفع أكمامه لينضم إليهما..

يتبادل مع والده أحاديث روتينية، وخاله يلتزم الصمت ..

يعقد حاجبيه ياسر :" ناصر"

يرفع رأسه ليزفر بضيق، لا طاقة له بتحمل المزيد .. ياسر وحده من يعي ألمه :" موسى الحمد "

يرفع ياسر رأسه بسرعة، كهرباء باردة تسري بجسده .. منذ مدة وزمن طويل تناساه ناصر، هل عاد الذكر المشؤوم؟

يبتلع لقمته نجد ليلتفت إلى خاله :" وش فيه بعد؟ صادفته؟ "

يحك جبينه بإبهامه بضيق :" لا الله لا يقوله ويقطع طاريه وطاري عايلته "

لا يعلم مدى الألم الذي سببه لياسر، عائلة الحمد .. رفاق الطفولة وأخوة الشباب ووجع الكهولة، يتابع ناصر :" بنته أثاريها طالبة عندي"

يزم شفته نجد :" الدنيا صغيرة والله .. بس حط ببالك خالي إنها طالبة عندك"

يزفر بضيق :" يعني أنا بايعها عشان أأذيها؟ .. والله من شفت اسمه والدنيا قالبة عندي"

يخرج صوت ياسر ثقيلًا :" يكفي ناصر، بتقتل نفسك وانت باقي واقف بالماضي وتحمّل ناس مالها دخل الذنب"

يغطي وجهه السواد، ينطق بقلة صبر :" أنا يا ياسر؟ .. انت تعرف إن لو لا موسى كان قدرت آخذ بحق أخوي وتهدا النار بقلبي! "

يتدخل نجد موجهًا حديثه لوالده :" يبه لا تلومه، لو أنا مكانه ما برضى يروح دم أخوي هباء.. وهو خالي اللي ما أعرفه قلبي مو مسامحهم، كيف تلوم خالي ناصر وهو أخوه الوحيد ! "

تنتقل أنظاره لنجد، تتعلق عيناه به .. ليتابع ناصر بضيق :" الجوزاء الله يرحمها ماتت وقلبها محروق، شلون يطاوعك قلبك تنسى؟ "

لا يسمعه، لا تزال عيناه متشبثة بنجد، وكأنه يستنجد به بأن ينهيا الحديث.. ترف عين نجد وهو يشعر بما ألمّ بوالده، يقف بسرعة :" يبه بخير؟ "

يُمسك برأسه وصداع شديد يدكه، يغمض عينيه علّه يهدئ منه .. يحاول الوقوف لكن دوار شديد داهمه، يشعر بيد نجد التي أسرعت له تمسكه وتسنده، يوصله إلى غرفته ويساعده على الاستلقاء في سريره .. يناوله دواءه، يهدأ صداعه .. يجلس بجواره ممسكًا بكفه :" يبه بخير؟ "

يغمض عينيه لوقت، يهز رأسه :" بخير .."

تنتابه نوبة نوم لا يعلم مداها، حتى استيقظ على همسات نجد التي تردد الدعاء، يشعر بشفاه نجد التي تقبل كفه ثم ترتفع إلى جبينه، يطلق تنهيدة حارة آلمت نجد قبل أن تؤلمه هو .. يفتح عينيه لتصطدم بنجد الذي ينظر له بقلق ممزوج بحب كبير ويده تمسح على شعره بحنان الأب والابن .. :" يبه أفضل؟ "

يكرر سؤاله كثيرًا خشية من جواب يؤلمه :" الحمدلله .. "

تتسلل لوجهه ابتسامة وهو يزيد من شده لكفه:" الحمدلله "

يجلس لوقت طويل بجانبه، حتى هدأ صداعه، يتوقف نجد ينوي تغيير ملابسه بعدما اطمأن على أبيه .. يشعر بكف والده التي شدت عليه، يلتفت بسرعة :" هلا يبه آمر "

حكت عيناه الوجع الذي يسكنه، يدرك نجد أن حديث خاله السبب.. وخاصة بحديثه عن وجع أمه، وكأنه يتهم أباه المتيم بحب أمه بأنه لا يهتم ويكترث! .. يصل صوته ثقيلًا :" نجد عيني.. أبي منك وعد"

تدق طبول قلبه بقلق، يعود ليجلس :" كل الوعود لك اعتبرها منفذة"

تتعلق عينيه به وكأنه يشك، يشد عليه نجد ليهمس ياسر :" مهما صار ومهما بيصير في المستقبل، حتى لو اندفنت أنا تحت التراب .. لا تشارك بقضية دم خالك"

ترتعد عيناه بخوف، ماذا يمكن أن يحدث في المستقبل؟ قضية خاله المغدور مر عليها الزمان وطواها .. لا تُذكر إلا كلما أشعل القهر قلب ناصر، يهز رأسه :" لا تخاف يبه، أصلًا القضية منتهية من زمان .. خالي ناصر يتكلم بس من حرقة قلبه"

ترف عينه بتعب :" أدري .. بس أبيك توعدني لأتطمن"

يقبل كفه :" وعد، - يبتسم ليخفف من ألم والده - كل اللي تبيه أوعدك أكون عليه"

ياسر بذات النبرة الذابلة :" خالك نجد الله يرحمه مافي أعز من صحبته عندي، بس ماعاد يفيد هدر الدم "

يهز رأسه بسرعة ليطمئن والده :" ايه يبه، لا عاد تفكر بالموضوع .. وخالي ناصر بقص لسانه لا طرا هالطاري عندنا"

يهز رأسه على مضض، يغمض عينيه هاربًا من كل شيء.. يقبله نجد ليغادر الغرفة، يزفر بضيق وهو يرى خاله مستلقي على المقعد، يفز سريعًا على خروجه :" شلونه؟ "

يتقدم ليجلس أمامه :" أفضل.. - يعقد كفيه - خالي هالموضوع لا عاد تطريه قدام أبوي"

يفرك عينه بضيق شديد، حتى أقرب الناس إليه يفر منه :" ابشر ... أبوك عرفت علته"

يتابع واهتمام نجد يزيد :" كانوا أصحابه، والظاهر للحين صحبتهم باقية بقلبه - يقف ليسحب شماغه وأوراقه وبضيق شديد- كنت أظن بعد اللي صار عرف صاحبه وعدوه .. لكن ! "

يلتفت على نجد :" قفل الباب وراي "

يخرج تاركًا خلفه نجد بدوامة قاتلة، تحول يومه المليء باليمامة .. وصوت اليمامة، إلى توتر حاد بين أبيه وخاله وأسئلة كثيرة تؤرقه.

-

تفتح مكبر الصوت لتضع جوالها على علبة السكر، تزفر بضيق وهي تحضر القهوة :" خلاص بقفل، أخاف يدق ويلقى الخط مشغول! "

يصلها صوته :" عادي، قولي له صديقتي ولا أي شي"

ترفع حاجبها :" صديقتي؟ عبدالله كم مرة قلت لك ما عندي صديقات، ما عندي خوات، ما عندي إلا هو! "

يصمت قليلًا، ليعود صوته هادئًا :" آخ بس .. رغد، أمانة فتحي عقلك شوي وخليك معي.. معليش والله بس وش هالوضع اللي تعيشينه؟ يا رغد يا حبيبتي ترى مافي أحد يرضى بهالوضع.. أمانة أنتو عايشين معنا بالسعودية؟ اوكي مو لازم السعودية.. ببلد عربي؟ عند ناس مسلمين؟ .. بقول شي بس لا تزعلين"

تكتف يديها وأنظارها تتأمل القهوة الذهبية :" قول"

يبدو مترددًا، لكن ينطلق بضيق :" رغد مع احترامي الشديد بس أنتِ إنسانة يستغفلونك وأنتِ بيضاء .. زين قلنا خالك المسؤول عنك مسجون، طيب كيف يتركك كذا مع شاب أعزب؟ لحظة أصلًا حتى لو متزوج! .. صدقيني خالك مريض، ما ودي أفتح عقلك على أشياء واضح أنتِ ما تفهمينها بس خالك وخويه هذا نقمة عليك"

تقاطعه قبل أن يتم كلامه وهي تمسك الجوال :" عبدالله! .. وش هالتفكير؟ ترى ثامر هذا بحسبة أخو خالي"

" بحسبة خالك؟ - يضحك ضحكة سخرية مستنكرًا - رغد يا عمري والله أنتِ فعلًا بسيطة ونيتك طاهرة.. بقولها بصراحة، أنا رجال.. وأعرف الرجال كلهم وتفكيرهم، لا تحاولين تقنعيني بهذا أخو خالي بأخوي .. يا ماما صحصحي، مافي رجال طبيعي كذا! .. هذا شي مفطورين عليه، يمكن انتو البنات عاطفيات وما تفكرون إلا بقلوبكم .. لكن الواقع يقول الرجال غير! "

تُمسك رأسها بألم من ثرثرته، هو لا يفهم شيء :" طيب عبدالله يعني انت مثلهم؟ مثل كل الرجال بنظرتك؟ "

يصمت قليلًا، يعود صوته هامسًا رقيقًا :" الإنسان الطبيعي يحب بقلبه، بس ما يكتفي بحب القلوب .. الحب

يحتاج يتغذى، اوكي أنا أحبك وتعرفين هالشي .. بس أبيك، أنا فعلًا أبيك.. ما يكفيني مجرد حب بعيد، أبي يجي اليوم اللي تكونين فيه معي.. تعوضيني وأعوضك - يصمت للحظات، تزم شفتها بتوتر من كلامه وصوته، يتابع- رغد ما تعرفين شكثر أتعذب أكثر بعد ما أكلمك، تجيني حالات أحس إني بخطفك ما أتحمل، بس أتمنى أشوف عيونك وتمسكين يدي... آخخخ بس خلاص ما عاد بتكلم"

تمسك خدها لتلاحظ اشتعاله، يرق صوتها مجبرة :" عبدالله خلاص! "

" أنا بكل مرة أكلمك أضغط على نفسي، مابيك تشوفيني بنظرة سيئة .. مابي هالحب يتحول لشي مبتذل، أحاول أتماسك عشانك بس، أعرف شكثر أنتِ بريئة.. - يهمس بنبرة قلقة- وأخاف عليك والله منهم، من خالك ومن هاللي اسمه ثامر"

تغمض عينيها لتفركها بتوتر :" والله يا عبدالله أحلف لك بكل شي ثامر إنسان منشغل بنفسه .. ما يشوفني أكثر من أخت، كم سنة وهو قدامي .. عمره ما تجاوز حدوده"

" ما تجاوز حدوده؟ رغد لا تجننيني! مو أمس تقولين كان عندك وساعدك بتركيب المكتب الجديد؟ "

تهز رأسها :" ايوه وش فيه؟ "

" آخخخخ يا رغد، الله يلعنهم .."

تقاطعه سريعًا :" لا تلعن! خالي يقول قولي كل شي بس لا تلعنين"

يضحك هازئًا :" واااو! والله فيه الخير يعلمك.. مفروض دامه خايف عليك لهالدرجة يعلمك الحدود، يعلمك تجلسين مع مين وتكشفين على مين .."

تقاطعه بضيق :" يالله ليتني ما قلت لك، انت مستحيل تفهم"

" والله يا حبيبتي أنتِ اللي مستحيل تفهمين، أنتِ الملعوب عليك .. مستحيل أرضى على خواتي هالشي، مافي رجال طبيعي يرضى اللي يصير لك .. هذا خالك مع احترامي (دي***ث) "

تعقد حاجبيها باستغراب من الكلمة، تعي أنها من السباب، لكن لا تعي معناها :" عبدالله وش يعني؟ "

يأتيها صوته مصدومًا " وش يعني؟ .. رغد .. أنتِ حياتك ضايعة، محرومة من الدراسة محرومة من الطلعات ومحرومة من صديقات.. ما عندك تواصل بالعالم الخارجي طبيعي ما تعرفين أبسط الأمور، أنا فعلًا حزين عليك.. بس

تعرفين، تقدرين تبلغين بالشرطة .. صدقيني بيتلونهم من رقابهم هالمجرمين الاثنين، أنتِ مسكينة ما تعرفين أبسط حقوقك اللي حارمينك منها.. خالك وهالصايع الثاني لو عرفوا عنهم بياكلونها بالسجن بقضايا تعنيف وحرمان وقضايا أخلاقية دينية "

تغمض عينيها بتشتت، ماذا يقول عبدالله؟ ما الجرم في حياتها؟ .. يصلها صوته مجددًا :" رغد والله يهمني أمرك، فوق ما تتصورين .. أقدر أساعدك، صدقيني بس يبي لك خطوة شجاعة وبكون معك .. والقضاء بينصفك، لا تخافين .. والله حالتك ما تسر لا عدو ولا صدي***"

تغلق الخط بسرعة وتوتر وهي تسمع صوت طرقات الباب، تعض شفتها :" يااااويلي "

تفتح جوالها مجددًا لتحذف المكالمة الأخيرة، تتركه جانبًا لتسرع إلى الباب .. تفتحه بعد ما أخذت شهيقًا طويلًا .. تبتسم بتوتر وهي تراه يقف عاقدًا حاجبيه بضيق :" هلا ثامر "

يتقدم خطوة إلى الإمام ليُمسك الباب ويغلقه خلفه.. يستند عليه بذراعه :" كنتِ تكلمين مين طول هالوقت؟ "

تزدر ريقها :" امممم .. وحدة من بنات الدورة اللي قلت لك سجلت بها بالواتس"

يرتفع حاجبه :" كل هالوقت؟ .. صار لي داق عليك أكثر من ثلاث مرات"

تخطو للخلف وتلقيه ظهرها :" يوه والله ما انتبهت "

يستند على الباب بظهره ضامًا كفيه للخلف :" رغد "

جميع المصائب تجمعت في رأسها، هل عرف؟ هل يراقب مكالماتها .. تلتفت إليه :" هلا "

تضيع عيناه في عينيها .. تتوتر، تشعر به يقرأ ما فيها، يشتت أنظاره وهو يزفر :" خففي علاقاتك بالبنات، شي حلو تسجلين دورات بالنت تشغلين وقتك .. لكن لكل شخص مكانه، بنات عرفتيهم بدورة يُفضل ما تتخطى العلاقة الدورة "

يعود لها صوت عبدالله (أنتِ مسكينة محرومة من أبسط حقوقك .. لا علاقات لا صديقات) ينتابها ضيق شديد :" ثامر! .. يعني أكلم الجدار؟ محرومة من كل شي! حتى الحياة بتحرمني منها! "

يعقد حاجبيه بضيق من كلماتها الجديدة :" محرومة؟ .. - يعتدل بوقفته - يكون بعلمك هذا كلام خالك، ويكون بعلمك مافي أحد كثره يخاف عليك .."

تقاطعه بغيض مكتفة يديها :" طبعًا ما في غيره! .. أصلًا مين غيره سامحين لي أعرف؟ ولا أحد .. بس انت وهو .. لا وانت والجدار واحد! "

تطير حواجبه بدهشة، ما بالها رغد، يهمس :" أنا والجدار واحد؟! "

تهز رأسها إيجابًا :" ايه .. "

يصمت لبرهة، يتأملها ليدرك مزاجها السيء .. تبحث عن شخص ما تتجادل معه، ولا أحد سواه .. يتقدم ويتخطاها، يجلس على المقعد :" رغد .. تعالي اجلسي "

تلتفت لتواجهه، صوت عبدالله يعلو بداخلها .. :" ما أبغى .. ولو سمحت اطلع"

يريح ظهره على الكرسي، يكتف يديه :" رغد اجلسي عشان أفهم وش فيك"

ترفع أنظارها إليه، لا تعلم سبب الدموع التي تجمعت بداخلها .. تشعر بضياع كبير، باتت حتى لا تعلم من هي، يطبطب بكفه على المقعد بجواره يدعوها للجلوس ..

ضياعها يشتد وحاجتها للإجابة عن الأسئلة تزيد، تخطو لتتقدم إليه .. تجلس بجواره يفصلهما ذراع الكرسي، يلتفت بجسده ليقابل كتفها :" ممكن تقولين لي وش فيك؟ "

تبتلع غصة حارة، تحاول كبت دموعها .. بصوت ضعيف :" ما أدري.. أحس إني ضايعة، مالي هدف بالحياة .. لو أموت أبرك لي"

يهمس سريعًا :" بعيد الشر .. خالك يحسب الليالي ليلة ليلة عشان يطلع ويشوفك"

ترفع بصرها بتشكيك :" أنا حتى ما عاد صرت أعرف خالي"

يعقد حاجبيه :" مو يكلمك أسبوعيًا؟ "

تهز رأسها نفيًا :" مو قصدي، بس .. ما أدري ما عاد أفهم شي، أخاف يطلع وألقاه مو نفس القديم - تسقط أول دمعة منها - ثامر، خالي تاركني من تسع سنين ونص! ما عاد أعرف حتى موقفي اتجاهه! "

ترق نظرته، يؤلمه بكاؤها .. والشتات الذي تعيشه، يهز رأسه :" خالد هو نفسه اللي تعرفينه، بس زاد حبه لك"

تمسح دمعتها لتتعلق عيناها بعينيه، سؤال يولد في فمها أثاره عبدالله.. تعجز عن رده :" ثامر بسألك"

يعقد حاجبيه منتظرًا سؤالها، لتفجره بوجهه :" ترضى تكون خالتك اليمامة بمكاني؟ "

تتسع عيناه، أصابته صدمة من سؤالها الذي لم يتوقعه .. يشتت أنظاره، يعود إليها .. تتلهف لسماع جوابه، لا مفر من الهرب .. يزم شفته ليطلق تنهيدة حارة :" لا"

وكأن تنهيدته الحارة حرقت وجهها ليذبل سريعًا، يعود مستدركًا :" رغد .. وضعك مختلف كليًا، تعرفين المشاكل اللي صارت لك واضطرت خالد يسوي كل هالشي .. مو بيده يطلع من السجن أو يدخله"

تقاطعه بسؤال أشد وطأة :" ثامر وش يعني (دي***ث) ؟ "

يتلون وجهه بصدمة، يفتح فمه غير مستوعب لسؤالها.. لو كان صادرًا من فتاة لا تتجاوز الثامنة عشر لاستطاع التملص منه، لكن من شابة تتجاوز الخامسة والعشرين! يشتت أنظاره بتوتر، يستوعب حجم الخطأ في كونها منعزلة عن الناس والمجتمع، يمسح وجهه بضيق شديد :" رغد من وين سمعتيها؟ "

لا تزال تثبت أنظارها عليه منتظرة الجواب، تنطق بشكل سريع :" من تويتر"

نعم، برنامج العصفور الأزرق .. جالب المصائب، يمنعونها من الحياة متناسين الكارثة التي توصلها إلى العالم الآخر، العالم الافتراضي .. يزفر بضيق، ينزل رأسه .. لا يرغب بأن تسمعها من غيره :" هي من الكلمات اللي تدخل بالقذف من شدة سوئها... هي لما .. - يتردد في نطقها، لكنه يعود بتشتت - لما تموت الغيرة من الإنسان ويرضى يشوف أهله ومحارمه بأسوأ الأوضاع"

يرفع رأسه راجيًا أن يكون تبسيطه في محله، يرى التشتت في عينيها :" شيء قبيح جدًا، لا تفكرين فيه"

يقف :" بروح الحين، بس .. حاولي تخففين من تويتر ومن صحبة النت، النت بلوة الزمان "

ترفع أنظارها إليه مستعيدة كلماته، يأمرها بأن تهجر حتى متنفسها الوحيد.. متى سيأتي اليوم الذي سيقول لها (لا تتنفسين، ترى التنفس فيه بلوة) لا تستبعد هذا منه ومن خالها إطلاقًا!

يخرج لتلحقه وقبل أن تغلقه يقف قليلًا وبصوت ذا معزى :"رغد، أنتِ غالية وبحسبة يمامة.. ما بتلقين شخص يخاف عليك كثري إلا خالك"

ويبتعد، تعود لغرفتها .. يعود لها كل شيء، بداية من حديث عبدالله .. عبدالله الشاب الوديع، تواصل معها هو بداية على تويتر يُبدي إعجابه برسمها .. محادثة تتلوها محادثة، علاقة يومية .. انتقلت إلى الواتساب، ثم إلى مكالمات متفرقة، لا تحبه .. لكنها تشعر معه بتقارب فكري، نافذتها للحياة الأخرى.. تعلقه الشديد بها تحبه وتكرهه، تحب كونها فتاة مرغوبة .. وتكره كونها تعلق شخصًا بها وهي تدرك نهاية هذا التعلق.

حتى حديث ثامر الأخير، شتات كبير وخوف أكبر يداهمها، ما دورها في الحياة؟ .. من يصدق ومن يكذب؟ خالد وثامر أم عبدالله؟ يبدو الأخير أكثر واقعية ومنطقية ..

-

يقف متكئًا على السياج الحديدي الذي يفصل الشارع عن الرصيف، يرى وجه والده على الشاشة .. يبدو متعبًا، يبتسم :" لا عاد تشيل همي يبه، أنا بخير"

يزم ياسر شفته بقلق :" غصب عني يا ولدي "

يهز رأسه :" تطم...."

يبتر كلمته على الصوت القادم من خلفه :" جوووزيف! "

يعقد حاجبيه وهو يراها تبدو متحمسة وهي تتابع :" كنت متأكدة أنك ستأتي! "

ينقل نظره لجواله ليرى والده ينظر بدهشة، يعود بنظره لها :" سوري .."

تعض شفتها وهي ترى الشاشة مفتوحة بمكالمة فيديو يظهر فيها رجل كبير :" أعتذر "

يعود لوالده :" يبه آسف مضطر أروح الحين"

يبتسم ياسر :"ايه يا ولدي، وش عليك عندك اللي يكفيك"

يعقد حاجبيه بضيق :" يبه هذي تشتغل بالمركز بس"

يضحك ياسر :" ايه عارفك والله .. بس الله الله، راعي ربك بكل نظراتك وخطواتك"

يبتسم :" إن شاء الله، لا تخاف"

يودع والده ليغلق جواله، يلتفت إليها ليراها خلفه تنظر بإحراج :" يا إلهي أعتذر جدًا "

يهز رأسه نفيًا :" لا بأس"

تبتسم وهي ترى تغير وجهه، خروجها برفقته قبل يومين أنقذه! :" هيا ندخل"

يضع كفيه بجيبه ويسير بجانبها إلى بوابة المركز، حديثها ذاك .. كان كالمنقذ من الغرق، استعاد وعيه وإدراكه ليحاول تصحيح ما فاته ..

*•

" ليتهم حينما أسرجوا خيلهم

وتنادوا إلى ساحتي

أوقدوا نارهم تحت نافذتي

واستراحوا.."

- سيد البيد

الورقة السادسة

•

يستيقظ من نومه، يفتح عينيه بثقل.. يغتسل ويرتدي ثيابه، يرتدي معها الصبر .. باتت الأيام ثقيلة على قلبه، خاصة تلك الأيام المجدولة بمحاضراته للطالبات.. يجلس على مقعده منتظرًا قهوته، يرفع رأسه لتصافحه الصورة الكبيرة على الجدار، تذكره وتجدد وجعه .. والده يجلس على كرسي حاملًا على فخذيه طفل صغير لم يتجاوز العامين، يضع كفه الأخرى على طفلة صغيرة جميلة .. أخته الجوزاء، أمه التي لم يعرف سواها .. يقف خلفهم مراهق كبير، تتسع ابتسامته وكأنه يحيي أخاه الذي تركوه وحيدًا ورحلوا، ابتسامة عذبة تؤرقه .. سنين عمره تنقضي وهذه الابتسامة لا تزال تؤرقه، لم يعش مع أخيه كثيرًا.. قُتل مغدورًا وهو -ناصر- لا يزال في الحادية عشر من عمره، كان صغيرًا بأن يطالب بحق أخيه.. وكبيرًا لدرجة أن تؤرقه هذه

الصورة، لا يزال يذكر ذلك اليوم المشؤوم .. بكاء الجوزاء حتى جفت عيناها، الصاعقة التي سقطت على ظهر أبيه حتى ذبل بليلة وضحاها .. حديث الشهود، يؤكدون مقتل المدعو (يوسف) بالخطأ على يد نجد، ومقتل نجد المتعمد على يد الشيطان (يعقوب)، وبكل بجاحة يأتي المدعو الآخر ليطلب منهم التنازل عن القصاص مقابل أن يتنازل هو عن الدية الواجبة في حق دم يوسف، لكن الدم دم .. والمال مال.

لا يزال يذكر السنين التي تلت الحادثة، النار التي تأججت فيه كلما كبر.. كيف قُلبت الدنيا والجميع يبحث عن العدالة، عن رقبة يعقوب.. لكن وكأن السماء انتشلته منذ تلك الليلة، حتى موسى ينفي معرفة أين هو .. والجميع يدرك كذبه، وأوراق القضية لا تزال تنتظر عودة الجاني حتى يقام فيه القصاص.

وبقيت تلك الصورة عالقة في عينه، تذكره ألا ينسى .. وجع أبيه الكبير الذي لحق بابنه بعد عامين، حزن الجوزاء حتى انفطرت عن الحياة.

يزفر بشدة ليصب له فنجان قهوة، يأكل التمر كعادته كل صباح.. يفتح هاتفه، يراجع الرسائل.. رسائل جماعية

مملة، اجتماعات لمجلس القسم والكلية، بعض طلبته يستفسرون.. ورسالة وحيدة من ذاك الرقم (ريم - شعبة الطالبات) : (السلام عليكم ورحمة الله وبركاته دكتور ناصر، الطالبات يسألن ما إذا كانت المحاضرة الأخيرة داخلة ضمن الاختبار أم لا .. مع اعتذاري الشديد لإرسالي في هذا الوقت).

دائمًا ما تتحدث معه بالفصحى وكأنها تُبقي الحواجز في مكانها .. وهذا ما يُريحه، تثبت نفسها وتتفوق على الجميع.. تُبدي قوة الحجة ومعرفة واسعة بالقوانين والأحكام الشرعية وتفصيلاتها، ليس غريبًا وهي ابنة الشيخ، ينظر لوقت إرسالها ليجدها الساعة ١١ ليلًا .. كان قد غط في نوم عميق، وكعادة الطلاب والطالبات.. يمكرون بسؤال كهذا في ليلة الاختبار، حتى يضطر الدكتور لإلغائه متحججين بعدم رد الدكتور، يكتب سريعًا (كما اتفقنا، نعم معكم ولا مجال لإلغائها إطلاقًا)

يخرج من المحادثة ليذهب إلى خانة الحالات بتلقائية يمرر وقته، يعقد حاجبيه وهو يرى اسمها .. لأول مرة تنشر حالة، يفتحها لتظهر له صورة قالب كعك مزين باسمها وتعليق صغير منها (الحمدلله، حفظت القرآن وأخيرًا بعد

عشر سنين 🙏🏼❤️) ، تظهر الصورة الأخرى سريعًا
لينقلب وجهه (صورة لوالدها الشيخ موسى وعلامات الفرح
والفخر الكبير تغطي وجهه) يزفر بضيق ليغلق الهاتف،
نعم .. يبتسم بفخر لأجل ابنته الحافظة لكتاب الله،
متناسيًا ما خلّفه وحطّمه في نفوس أبناء الآخرين.

يقف ليحمل حقيبته تاركًا خلفه قهوته، بداية يوم يبدأ
بوجهه هو يوم لا بد أنه سيء، يذهب إلى الجامعة .. لا يزال
مستاءً من ياسر، علاقتهما توترت بعد الحادثة الأخيرة قبل
شهر .. يؤلمه أن يكتشف أن لا أحد يقف معه، أنه وحيد ..
ويؤرقه كيف لياسر أن يكون هكذا؟ كيف يرضى عن نفسه
ورفيق روحه لا يزال دمه يهدر بغير حق، ماذا لو كان أخاه
نجد يشعر بما يدور حوله وهو في قبره؟ كم ستكون كمية
الخذلان التي ستصيبه بسبب ياسر!

ياسر الذي سمّى ابنه البكر على يوسف، والآخر على
نجد..نجد الذي يشابه أباه كثيرًا، يتخلى هو الآخر عن دم
خاله، يعلم تمامًا أن نجد ينفذ ما يطلبه أبوه حتى وإن طلب
منه أن يقتل نفسه، يؤلمه هذا كثيرًا

يوسف ونجد الرفيقان اللذان غادرا الحياة في ذات
الساعة، وبذات الطريقة .. ماذا يفعلان الآن في قبريهما؟ هل

هما راضيان؟ يوسف سبق الجميع ليرحل قبل أن يرى الكارثة التي لحقت موته، ونجد الذي لم يسعفه الوقت ليتدارك خطأه.

يزفر بضيق وهو يترحم عليهما، ويجدد عداوته بالآخرَين .. موسى ويعقوب.

-

تستيقظ من نومها بحماسٍ شديد، اليوم هو الخميس .. وأخيرًا بعد مرور شهر أو يزيد ستعود لبيت خالها، اشتاقت جدًا لهم .. لم يسبق لها أن افترقت عنهم كل هذه المدة، تأكل فطورها بحماس .. تذكر فجأة كوب القهوة الذي لا يتخلى عنه نجد من ستار بكس، بسبب هذا الكوب تأخرت المرتين الماضية عن الحضور، دون أن يدرك.

تحرك عجلتها بسرعة لتنتقل إلى آلة القهوة الخاصة بيوسف واستولى عليها ثامر مؤخرًا .. تُعد القهوة كما ترى ثامر يعدها، وتضعها أخيرًا في كوب حافظ للحرارة.

تنتظر قليلًا وها هو يصل، تخرج له بسرعة .. ليستقبلها بفتح الباب، يداهمها إحراج لا تعرف كيف تقدم له القهوة، يعقد حاجبيه مستغربًا عدم ركوبها السيارة.. لترفع رأسها بتردد :" امممم تبي قهوة؟ "

ترتفع حاجباه بدهشة من سؤالها، لترفع الكوب سريعًا إليه :" سويتها لك"

يرفرف قلبه، تتسع ابتسامته.. يتلقى الكوب من يدها وبربكة حروفه :" تسلم يدك"

لا ترد، تركب السيارة سريعًا .. ليفاجئها وهو يلقيها الكوب :" بس امسكيه شوي"

تعض شفتها مستوعبة عجلتها وهي تأخذه منه، يعدل كرسيها ليُدخله في السيارة .. يأخذ الكوب مجددًا ليتذوّقه، لا يشبه قهوته إطلاقًا .. لا يكاد يذوق له طعم، لكنه يستلذ به كلما استشعر أنها هي من صنعته له، يرتوي منه باستمتاع .. الحواجز بينهما لا تزال، لكنها تكاد تذوب كل يوم .. يتجرأ أخيرًا :" يمام "

ترفع رأسها سريعًا :" هلا "

تستشعر الاسترخاء في صوته :" اليوم بعد المغرب في ندوة بهيئة الثقافة مشارك فيها .. ودي تحضرين، عادي؟ "

تزم شفتها بإحراج، لا تعلم بما تجيبه .. يُتابع :" باخذ أبوي قبل المغرب بنص ساعة، بنمرك "

تحك حاجبها بتوتر :" اليوم بروح لبيت خالي! "

تستشعر الخيبة التي غطته، تتابع :" كنت بقولك لا تمرني اليوم الظهر، ثامر بيجي ياخذني وبنروح على طول"

يزفر بضيق، ما أن خطا الخطوة الأولى حتى حال بينهما عائق:" كان ودي تحضرين ..بس إن شاء الله مرة ثانية"

يصلها ضيقه، لينتقل إليها .. لا ترغب بأن تكسره أكثر، يبقى الصمت سيد الموقف حتى يقتربان من بوابة الجامعة.. تُعيد دفتر محاضراتها التي كانت تشغل نفسها به إلى حقيبتها، ترفع رأسها على صوته :" يمام .. - يتحول صوته لنبرة تجهلها، تعقد حاجبيها على كلماته - في أمانة لي عندك - يرفع عينه لتلتقي بعينيها - أبيها "

تعتليها الدهشة والاستغراب :" أمانة؟ "

يهز رأسه بثقة :" ايه أمانة "

تزم شفتها تفكر بسرعة :" طيب وش هي؟ "

يهز كتفيه بعبث :" مدري! .. بس أبيها "

تتوقف السيارة أمام البوابة، لا يترك لها مجالًا لأن تسأل أكثر .. يخرج ليُقرب منها كرسيها، تركبه ولا تزال عقدة حاجبيها .. وقبل أن تبتعد :" نجد آسفة ما أذكر، ذكرني بها السبت إذا رجعت من بيت خالي"

يهز رأسه إيجابًا :" والقهوة، لا تخلين بها رغوة كثيرة .. يخرب طعمها"

ويغادرها إلى سيارته تاركها خلفه تفكر بضياع عن الأمانة المزعومة!

-

يخرج من المستشفى بعد انتهاء دوامه، يسير على قدميه حتى يصل إلى محطة القطار، يستقله لينقله إلى المركز، يضع سماعاته ليغمض عينيه وصوت ذات القارئ يقرأ سورة الضحى يسكب في قلبه الطمأنينة، يرافقه هذا الصوت في معظم أيامه القوية، يثبته ويعيد توازنه .. وما أن

يسقط بوحل عزلته واكتئابه ينسى الصوت وكأنه لم يكن يومًا رفيقه.

يشعر براحة كبيرة كونه لا يزال يحافظ على توازنه منذ آخر مرة، يدعو الله كثيرًا أن يستمر على قوته.. ألا يفقدها، أن ينتشله من هذا الضياع .. لا يوجد أسوأ من أن يهاجمه الاكتئاب مجددًا كوحش قاتل، لا يقدر على مواجهته .. أعزل من السلاح، يستسلم له بهدوء ليتسلل ويجلس على قلبه ويألفه.

بدأ يألف المركز، يألف المسؤولين والإخصائيين وحتى المتطوعين.. مكان كان يحتاجه بشدة، يتشاركون ضعفهم ليدركوا أنه ضعف وهمي.. بأن خلف هذا الاكتئاب يقبع شخص عظيم، يستحق الحياة.

لأول مرة يشعر بشوق جارف لأبيه، وأخيه .. وبيتهم، والشوارع المزينة بالنخيل، حتى الهواء هنا لا يبدو كنسيم نجد، الرياض التي كان يكرهها ويشعر بها تقتله وتخنقه تشده اليوم من ياقته وتسحب قلبه إليها بحنين قاتل، الوطن لا يشعر بقيمته إلا من يغادره .. للتو أدرك هذا المعنى الذي يتلبسه الآن.

حتى ثامر، الأخ الطائش والفاشل، يشابهه في فشله فقط .. يحمد الله مرارًا أن أمه قد غادرت قبل أن ترى ابنيها يسقطان بضياع، أمه الراحلة ابتلاها الله بابنين تتنافس الحياة بقتلهما، ولا يعلم السبب..

ثامر الذي تفصله مسافات روحية عنه، كان يشعر بمحاولاته في التقريب بينهما .. لكنه لم يدرك أن أخاه غارقًا في دوامة الاكتئاب، مغلقة أبوابه حتى عن نفسه ..

ينفض الحنين عن قلبه ليخرج من المحطة، يسير طويلًا ليتوقف فجأة بمنتصف الرصيف.. يتأمل باب المقهى، يعلم أنها تشرب القهوة داخله الآن.. لا يمكنها أن تذهب للمركز دون أن تمر على قهوتها المفضلة.

يدخل المقهى ليفتش بعينيه عنها، عن (أديل) الإنسانة التي تبث طاقة حيوية تنتشر لجميع من في المكان تمتلك خاصية استلطاف لم يجدها مسبقًا عند أي شخص، مفعمة بالإنسانية والحياة .. أبسط شيء قادر على إضحاكها، لم تكن هكذا معه وحده .. كانت مع جميع المراجعين في المركز تمدهم بالحياة، يفتقدها الجميع إن اعتذرت عن الحضور.. تمتلك وقتًا يكفي للجميع، بابتسامة واحدة تستطيع انتشال الميت لتعيده للحياة، ليست فاتنة ..

ملامحها مريحة تبعث الطمأنينة، عفويتها تزيدها جاذبية لتبدو متفردة عن غيرها.

تنعقد حاجباه وهو يلمح ظهرها وشعرها الطويل المجعد، تجلس في الزاوية وأمامها رجل أنيق يبدو في الأربعين من عمره.

يُخرجها من رأسه ليجلس على مقعده، يقضي وقت انتظاره على جهازه المحمول يُنهي تقاريره، وفجأة تتوقف إصبعه عن النقر وصوتٌ خلفه يشده .. صوتٌ افتقده كثيرًا :" هديل حبيبتي ما ودي أأخرك ولا أأخر أمك .. يلله خلصي قهوتك ونطلع"

لكنة نجدية ظنت أذنه أنه لن يسمعها في هذه المدينة البسيطة، يلتفت بتلقائية للخلف لتسقط عليه الصدمة وهو يدرك صاحب الصوت .. ذات الرجل الأربعيني! ما أثار دهشته هو (هديل)! هل هي أديل بعينها؟ أم أن هيئتها الخلفية فقط تشابهها حتى ظنّ أنها هي!

" يبه ودي أروح معك تكفى! "

يبتسم بسخرية وهو يرتشف قهوته، أديل .. هديل، كم كانت مراوغة وهي تتملص من عروبتها التي تفضحها عيناها وسمارها، كانت بارعة في الهرب من نفسها .. تحرف اسمها

ليصبح أعجميًا كما تفعل مع اسمه، حتى بات يشك أنها نسيت عروبتها ولغتها وحتى هويتها ..

" لا! .. لا تتركين المركز، وبعدين أمك معي لا تخافين"

تزفر بضيق :" كنت أبي أكون معك بأول يوم لك"

يشعر به يوسف يقف، لا يُمكنه الرؤية .. لكن يمكنه السماع :" لا يا عين أبوك، إذا خلصتِ من المركز تعالي البيت على طول.. بكون انتهيت من الجلسة"

يصله صوت قبلة لا يعلم ممن، يحاول إخراجهما من رأسه .. لكن أذنه تتسلل مجبرًا إليهما، يسمع خطى خلفه .. وها هو يسير بجانبه ليتخطاه وقبل أن يفتح باب المقهى يلتفت لتظهر ليوسف ابتسامة شبيهة تمامًا بابتسامتها .. وكأنها ورثتها عنه، يلوح بيده مودعًا ويغادر.

يعود يوسف لينشغل بجهازه، وتلك السمراء خلفه تشغل باله .. هل يُظهر لها أنه اكتشف سرها الذي يبدو أنها تخفيه عنه فقط؟ أم يتابع المسرحية معها متظاهرًا بأنه لا يعلم شيئًا؟

يُقاطعه صوتها مجددًا ولكن هذه المرة يبدو وكأنها على وشك البكاء! .. :" هلا ماما.. ايه راح .. - تزيد رجفة بكائها لتتابع- والله يمه ما بكيت قدامه ولا بينت له شي! .. ايه ..

قلبي يوجعني عليه، تكفين خلي يدك بيده ولا تتركينه.. زين.. مع السلامة"

تغلق هاتفها لتنهار ببكاء خافت، لا تحاول أن تمنعه .. تتركه يخرج بحرية وتستلم له، والآخر خلفها يزم شفتيه .. يتجمد، يعض شفته ندمًا لدخوله المقهى، يكره أن يكون فضوليًا .. لم يكن يومًا هكذا، لكن لا ينكر أن صوت بكائها آلمه.. القوية والمفعمة بالحياة والأمل يشهد الآن ضعفها، كيف لها أن تتمتع بكل هذه القدرة على إخفاء ألمها .. أن تضحك كثيرًا وتوزع الابتسامات لتبكي وحدها.. تُضحي بوجعها لأجل مجموعة مكتئبين يلفهم السواد؟

يرفع كفيه ليغطي بهما وجهه بزفرة شديدة، صوت بكائها يخترقه .. يُناديه، يرغب في إسكاتها.. ليس لها أن تبكي وهي التي اعتاد على ضحكتها، يقف سريعًا حاملًا جهازه ليدفع فاتورته ويخرج سريعًا هربًا من المكان.

يسير على قدميه حتى يصل إلى المركز، لم يمض إلا القليل ليصل إلى مسامعه صوت غناء مفعم بالحماس :" عيد ميلاد سعيد أديل.. عيد ميلاد سعيد"

يلتفت عاقدًا حاجبيه ليجد مجموعة من المتطوعين متحلقين حولها حاملين كعكة صغيرة، تضحك بدهشة :" وااااو! يا إلهي! "

تضمها إحدى المتطوعات لتتلقى التهاني تباعًا من البقية، يتابعهم عن بعد مستاءً من ملامحها الضاحكة .. وكأنها لم تكن تبكي قبل قليل، تقطع الكعكة وضحكاتهم تنتشر..

يعود لهاتفه ويضع سماعاته، يبحث بعشوائية عن أي صوت يغطي أصواتهم.. فجأة شعر بالأقدام التي تقف أمامه، رفع رأسه بعقدة حاجبه لتصطدم بعينيها الباسمة حاملة الكعكة.. :" امممممم تفضل"

يأتي صوت الفتاة الأخرى التي تقف بجوارها تمد له بالطبق والسكين وبمرح :" يوم ميلادها .. تمنى لها أمنية سعيدة"

تتعلق عيناه بعينيها، يطيل تأمله .. يُشعرها بأنه يقرأها، بأنها مكشوفة أمامه .. تهتز عينها بربكة، يرفع حاجبيه وهو ينظر إليها من مكانه .. وبعربية عامية:" سنة سعيدة إن شاء الله، ويحفظ لك أبوك"

لاحظ صدمتها التي سلبت لون وجهها، لا يعلم ما السبب الذي جعله يبدو مندفعًا ولا مباليًا هكذا .. يصل صوت

الأخرى متفاجئًا ممزوجًا بضحكة:" أوووه أديل! وجدتِ شخصًا ما تشاركينه لغتك التي لا نفهمها - وباستياء مازح- سأشعر أخيرًا بشعورك عندما اجتمع بيون"

لم تكن تسمع ما تقوله رفيقتها، كانت مشلولة بهول الصدمة وعيناه لا تزال تغوص فيها، ازدردت ريقها أخيرًا وبصوت ذابل بإنجليزية:" شكرًا"

وضعت قطعة الكيك في صحنه لتبتعد سريعًا، يلاحظها بقية اليوم كيف تفقد عفويتها معه .. تتحاشاه، لا يبدي ردة فعل.. وكأنه مستسلم.

حتى انتهت الجلسة، يخرج بهدوء ويسير على قدميه ..

" يوسف! "

يلتفت بتلقائية للصوت الذي يناديه، يتوقف لينتظرها تقترب منه .. تزفر وهي تفرك كفيها بتوتر :" كنت موجود وأبوي معي بالمقهى؟ "

يخلل أصابعه بشعره ويشتت أنظاره :" صدفة"

تهز رأسها وهي تسمعه يتابع :" آسف إني كشفت كذبتك! "

ترفع رأسها لتلتقي بعينيه، لا يبدو آسفًا أبدًا .. وكأنه يقرّعها على كذبها :" انت قلتها من قبل، العرب يهربون من بعض في الغربة! "

يسير لتسير معه وتتابع :" أبوي بيذبحني لو عرف إني أكلم عربي لا وسعودي بعد! "

يعقد حاجبيه وتُكمل :" من ولدت، ما عمري احتكيت بأي عربي! والمدينة هنا تساعد.. مافيها عرب إلا قليل"

يزم شفته :" العرب ياكلون، ما ألوم أبوك"

ترفع بصرها إليه لتلمح السخرية تغطيه، تزفر بضيق ولا تعلق .. يسيران معًا حتى مفترق الطريق، تتوقف قبل أن ترحل :" في حال شفتني مع أبوي ولا أمي سوي نفسك ما تعرفني"

يهز رأسه يطمئنها، تخطو للأمام خطوة لكن يوقفها صوته :" هديل .. لحظة"

تلتفت إليه، ليتقدم وبنبرة جامدة :" لا عاد تبدين غيرك على نفسك، نفسك أولى من أي شي ثاني"

تعقد حاجبيها بعدم فهم، يعود صوته مؤكدًا :" شفتك اليوم تبكين، وبعدها بكم دقيقة تضحكين وتسوين نفسك قوية وطبيعية.. هذا إجحاف بحق نفسك! "

تتجمد بمكانها للحظات، وسرعان ماذاب جمودها ليتحول لدمعة حارة .. تتلوها دمعة أخرى، وبكاء مكتوم .. تتلفت يمينًا ويسارًا علّها تخفي بكاءها عنه، لكنه لا يزال

واقفًا في مكانه بثبات .. يخرج صوتها ضيقًا يخنقه البكاء :" لا ما أجحف نفسي .. بالنسبة لي اللي يطلبه مني هو واجب ... لو يقول اذبحي نفسك بذبحها .. - ترفع كفها لتمسح دموعها الدافئة - أبوي هو صديقي وحبيبي وكل حياتي .. دخلت المركز عشانه، كان يقول لي خليك مؤمنة وانشري إيمانك وضحكتك للناس ... انتشليهم من ضياعهم مثل ما انتشليتيني - تهز رأسها بانفعال - ايه أبوي من كنت صغيرة وهو مريض بالاكتئاب .. كان يقتله كل يوم، الأدوية كانت تذبحه أكثر .... كان الاكتئاب ياخذه مني وكأنه ابنه، كان وضعه سيء يا يوسف مو مثلك.. ما عنده أحد غيري أنا وأمي .. بعد سنين بدا يتخطاه وكنت دايمًا معه بالمركز .. كنت صغيرة بس أقضي أغلب وقتي بالمركز لأفهم كيف أقدر أساعده.."

يلاحظ انهيارها، يتوتر .. يهمس :" هديل، تعالي .."

لا تسمعه تواصل بكاءها، تجذب الأنظار حولهما .. يتمنى لو قُطع لسانه قبل كلامه، تمتد كفه بتلقائية ليسحب كفها التي تغطي بها وجهها الباكي.. يسحبها معه ليسير بها حتى المقعد القريب، يُجلسها عليه ولا تزال كفه ممسكة بكفها ويهمس يجهل كيف يُسكتها :" خلاص هديل"

لا تسمعه، ينهمر بكاءها أكثر .. يتركها تبكي بلا مقاومة، حتى عاد صوتها مجددًا بعد دقائق :" اليوم يوم ميلادي .. كان دايمًا يحتفل فيني، بس اليوم .... - تزم شفتيها لتهتز بضعف - اليوم ياخذ أول جرعة كيماوي.. ما أتخيل يدخل في وريده ويحرقه، أحس الحين بوجع بدمي أنا"

تذبل عيناه وهو يدرك سبب بكائها، سرطان يفتت جسد والدها.. يعلم بسبب تخصصه كيف لهذا المرض أن يتحول لكابوس مخيف على جسد المريض وعلى قلوب عائلته.. يزم شفته يجهل كيف يواسيها وهو الذي يفتقد لأبسط أمور الحوار، يُنزل عينيه بتشتت لتتسع بدهشة وهو يرى كفه تحتضن كفها! .. كيف لم يشعر، زم شفته بتيه لا يعرف كيف يسحبها، كانت آخر كف رقيقة لمسها هي كف يمامة قبل سفره .. قد لا تشعر هي كيف لكف صغيرة أن تسبب كل هذا التوتر لرجلٍ جاف، يسحبها بعد تردد بهدوء وبطء بلا مقاومة منها .. كانت لا تزال غارقة ببكائها، يستشعر البرودة التي اجتاحت كفه بعد ما انفكت عن كفها الحارة، يحك حاجبه :" الله يشفيه"

نعم هذه الكلمة الوحيدة التي استطاعت أن تخرج من بين شفتيه، تهز رأسها :" آسفة .. انفعلت"

يتأمل ملامحها الباكية، لا تشبهها أبدًا .. يهز رأسه :" لا عادي"

تقف وهي تمسح وجهها، يقف معها .. وقبل أن تبتعد تنطق بخجل :" كنت محتاجة أبكي قبل لا أروح عند أبوي .. شكرًا يوسف"

يبتسم أخيرًا ابتسامة ناعمة لا تشبه ابتساماته الساخرة والباردة :" عفوًا .. الله لا يحرمك منه"

تتسع ابتسامتها لتلقيه ظهرها .. تسير متجاوزة الشارع، وتبتعد عنه .. ولا يزال يقف في مكانه.

-

استطاع اقتناص إجازة لهذا اليوم، دوامه ممل.. لا يشبهه، يفقد فيه نفسه .. مجرد موظف بسيط يدخل البيانات، وبراتب بسيط .. يستطيع أن يسير في طريق خالد، جميع أسرار المهنة لديه .. لكن تحذيرات خالد تعيده لصوابه، يعلم أن خالد يخشى أن يواجه ثامر نفس مصيره

.. وتبقى رغد وحدها بلا حامي، لكن ماذا بعد رحيلهم؟ رجل بلا هدف ولا شهادة ولا حتى عائلة وأصدقاء.. قد يفكر بامتهان مهنة خالد بعدها، لن يخسر شيئًا حتى وإن قُبض عليه.. على الأقل سيجد نفسه في شيء يحبه ويتقنه، ويدر عليه مئات الآلاف.

يجلس في الغرفة الطينية، كلما ضاقت به الأرض التجأ إليها .. يُدخن، يرسم، يتفقد الأوراق والمستندات .. يتذكر كلام خالد عن ذاك الصندوق الحديدي الأسود، الصندوق الذي يحتوي بداخله كنزًا رغم سفالته .. لكن لا حلّ أمام خالد الذي لا يرى سوى الهجرة والمستقبل المنتظر، وقت خروجه اقترب .. ولا بد أن يبدأ ثامر تحرياته ليهيأ له الطريق.

يرمي سيجارته ليفتح باب خشبي أسفل المكتب.. يجلس متربعًا ليفتح الصندوق الضخم، الكثير من الأوراق والصور .. معظمها مستندات تعود لشقيق خالد الكبير المعلم الأول له وشريكه الراحلين، كانت سمعتهما في سوق المطلوبين ناصعة، الجميع يلجأ لهما .. يتابع خالد مسيرهما، يُعلم رغد الصغيرة أساسيات التزوير.. يشعر وكأنه إرث لا يمكن لعائلته الخلاص منه، يُشرك ثامر الذي يرى فيه رفيقًا وفيًا الإرث الأسود ..

تقع عينه على مجموعة أوراق وبطاقات قديمة، يعبث بها ليتفقدها .. فجأة، تضيق عيونه وهو يُمسك بإحدى الأوراق، يعيد قراءتها مرارًا بعدم تصديق .. وسرعان ما انطلقت منه ضحكة دهشة، يهمس وهو يمرر الأوراق التي تليها :" يا صغر الدنيا بس! "

يُخرج هاتفه ليلتقط صورة للاحتياط فقط، في حال احتاج إليها على أنه لا يفكر أبدًا باللجوء لهذه الورقة بالتحديد!

يُعيد الأوراق ولا تزال ابتسامة الدهشة تغطيه، يُغلق الصندوق ليعيد كل شيء كما كان، يقف ليخرج سيجارة أخرى وينفثها وهو يدندن :" استودعك يا هم .. يا منادمي بالوقت .. من حب ما يهتم إن جيت ولا رحت"

يُطرب بصوت طلال وهو يقود سيارته بالطريق الطويل، يتذكر تلك المتوترة.. يُرسل رسالة سريعة (بمرك بعد المغرب للسوق) .. لا تبدو رغد بأحسن حال، تتهرب منه .. لا تفتح له الباب معظم الأيام متعللة بنومها، وفي أوقات قليلة تلجأ إليه تبكي .. تبدو متشككة، كأن شيء يرعبها، أخبره خالد أنها لا ترد دائمًا على اتصالاته، يعلم تمامًا أن انتظار المستقبل المجهول الذي بات قريبًا يخيفها .. اليوم سيفهم منها أكثر،

ويهدئ روعها .. وهو الذي يحتاج من يهدئ روعه، فكرة أن يستيقظ صباحًا ولا يجدها تصيبه بالخوف، أن يفقد الشخص الوحيد الذي اعتاد عليه يرهقه، أن يجلس دون هدف انتظار خالد كما في السنين الماضية أمر مخيف!

يرمي سيجارته ليتصل بيمامة.

:

تخرج بسرعة من الجامعة لتبحث بعينيها عن ثامر، لا أثر له .. تزفر بضيق، اتصل بها ليخبرها أنه أمام الباب .. ولكن يبدو أنه يبالغ، تنتظر على كرسيها وحرارة الشمس تلحفها، تمضي الدقائق ثقيلة .. نجد عندما تخرج تجده يستقبلها أمام الباب مشرعًا أبواب سيارته وفي كثير من الأحيان يُجهز لها علبة آيس كريم تخفف من حرارة الشمس، على عكس الآخر .. تحاول تذكر أمانته التي يريدها، تعبت من شدة التفكير .. وهو لا يرغب بمساعدتها في توضيح ماهية الأمانة، تلمح سيارة ثامر قادمة من بعيد .. تزفر براحة وتخرج نجد وأمانته من رأسها، تتقدم بكرسيها وما أن خرج تبادره بعتب :" تأخرت ثامر"

يُساعدها على ركوب السيارة :" كانت في زحمة ببوابة الجامعة"

يُغلق الباب ليعود إلى مكانه، يقطعان طريقًا طويلًا يتجاوز الساعة والنصف حتى يصلان أخيرًا إلى المحافظة التي يقطن فيها خالها.. يرفرف قلبها بشوق ورائحة المزارع تداعبها، محافظة صغيرة لا تزال تحافظ على شكلها وتراثها القديم، استقبلتها زوجة خالها بالأحضان والأشواق.. راحت تطوف في المنزل بحنين :" خالة ليه غيرتو مكان التلفزيون؟ ... خالة شريتِ طقم جديد؟ .. خالة شجرتي باقي مكانها؟ "

تسأل وتتفقد كل زاوية بحب كبير، تتوقف فجأة :" نسيت ثامر! "

تضحك خالتها :" خالك عنده، شوي وأرسل لهم الغداء"

تدخل إلى غرفتها بضحكة شوق كبيرة، أمام نافذتها تصافحها شجرة سدر عتيقة.. تستنشقها لتملأ رئتها بها، ويوقظ سكرتها صوت خالتها :" يمامة روحي قربي الغداء لثامر"

تتحرك بمرح لتقترب من المجلس، تأخذ طبق الغداء لتدخل بابتسامة واسعة وما أن رآها ثامر وقف سريعًا

ليأخذ منها الطبق، تسلم على خالها بشوق جارف يُقابلها دلاله الكبير وكأنها ابنته.

تجلس قليلًا لتغادر، تترك ثامر خلفها ينتهي من طعامه ليقف سريعًا ويودع خالها راكبًا سيارته، وسرعان ما زفر بضيق كبير وسيارته لا تتحرك :" أووووف! "

يحاول مرارًا لكن لا جدوى، يخرج إليه خالها يحاول مساعدته ليتملكهما اليأس وهي جامدة لا تتحرك.. يعود للداخل بعدما أصر عليه خالها، يضطجع في المجلس متلحفًا ببطانية مستسلمًا للنوم على أمل أن يستيقظ المغرب ويجد لها حلًا .. يخرج هاتفه سريعًا ويكتب (يمكن أتأخر عليك، سيارتي خربت)

يترك هاتفه بعيدًا لينعم بنوم طويل ...

نوم مليء بمطاردات وهروب، أوراق ومستندات .. رغد، خالد ... أسماء قديمة ..

" يلله قوم، بينتهي وقت المغرب وباقي ما صليت "

يشعر بالكف التي تهز كتفه، تبتعد قليلًا ليزيح اللحاف عن رأسه بعقدة حاجبيه .. يشع النور ليؤلم عينيه، يستوعب وجوده .. نعم هذا مجلس خال أمه، فجأة .. يعقد حاجبيه يحاول استيعاب الأمر، هل ما زال يحلم؟ .. شعر

طويل ناعم يغطي ظهرًا لجسد طويل يقف أمام المكيف ويطفئه .. تلتفت :" متـ****"

تتجمد برعب، تتسع عيناها مع تضييق عينيه، تشهق بصدمة لتفر سريعًا ..

يعتدل بجلسته يسترجع ما حصل، هل خرجت من أحلامه؟ أم أنها وهم توهمه؟ أو أنها مَلك من الملائكة؟ ليس شخصًا صالحًا ليظن أن الملائكة ستُرسل إليه .. لكن هذه لن تكون إنسية، شعرها الداكن والناعم .. عيناها الواسعة، طولها الأنثوي ..

يزفر ليضرب رأسه يحاول تمالك نفسه، قد يكون يتوهم ..

يقف ليتجه إلى دورة المياه وعيناه تترقب ما حوله، قد يُدرك الملاك .. يتوضأ ويصلي محاولًا نفضها عن رأسه .. يسجد وصورتها تتراءى له، يعقد حاجبيه يحاول تفسير من تكون .. علاقته باردة بأهله فكيف بأهل أمه؟ يذكر أن للخال ابنة .. لكن لا يعلم كم عمرها، هل هي صغيرة أم شابة أم امرأة تكبره سنًا ..

" ماشاء الله وش هالسجود الطويل؟ ادعي لي معك دامك مطول"

يرتبك ليفز سريعًا ويُكمل صلاته على صوت يمامة، يستغفر بداخله محاولًا تركيز انتباهه على الصلاة .. يُنهيها بإحراج ليلتفت إلى يمامة التي تجلس خلفه تنتظره ينهي الصلاة، شبكت كفيها بضحكة مصطنعة :" واضحة الفجعة بوجهك"

يجلس على السجادة وابتسامة خفيفة تشق طريقها بتوتر:" ليش؟ "

تحك جبينها بإحراج :" سمر الغبية كانت تحسبك خالي، ما كانت قاصدة"

تشد انتباهه تلقائيًا والاسم (سمر) ينساب في أذنيه، يتمالك ملامحه ليهز كتفيه :" أنا اللي فجعتها والله"

تهز رأسها تأكيد :" اي والله، المسكينة جات عندي وشوي تصيح .. بس خلاص انسى الموضوع"

" يماااااامة "

يلتفتان بتلقائية لتصدم عيونه بطفلة صغيرة لا تتجاوز الخمس سنوات.. يعقد حاجبيه لتنطق يمامة وهي تحرك كفيها :" جوجوو حبيبي.. تعالي"

تتقدم الصغيرة لتحتضن قدمي يمامة، يتأمل ملامحها الجميلة .. يصل صوت الصغيرة :" مين هذا ؟ "

تبتسم يمامة لتسحبها وتضعها على فخذيها :" هذا ثامر ..
"

يعقد حاجبيه :" مين هذي؟ "

تتحرك يمامة تنوي المغادرة ولا تزال الصغيرة في حضنها :" هذي جمانة بنت سمر "

تتسع عيناه بصدمة، لا يعلم ما سبب الخيبة التي أصابته فجأة.. يزم شفتيه يحاول طرد صورة تلك الفاتنة من رأسه، يتوقف ليشير للصغيرة :" تعالي .."

تطير إليه بمشاغبة.. يحمل الصغيرة ليجلسها على فخذه، يداعب خدها :" وش اسمك يا حلوة؟ "

تأخذ القلم من جيبه لتعبث به :" جوجو "

يقبل خدها الناعم :" جوجو بنت مين؟ "

" جوجو بنت سمر "

تنطلق منه ضحكة خفيفة ليصل صوت يمامة هامسًا :" لا تسألها عن أبوها"

يعقد حاجبيه بعدم فهم، تتابع يمامة :" مطلق أمها قبل سنة ويعيش بجدة، لو ذكرتها بتبكي وتصر تشوفه"

تفاجئه يمامة بكل ما تنطقه، من يتخلى عن تلك الجميلة؟ ماهذا اليوم الذي يحمل مفاجآت كبيرة له؟ يهز رأسه إيجابًا لتبتعد يمامة ..

تمد كفها الصغيرة مع القلم :" ارسم لي ساعة"

يبتسم ليأخذ القلم :" برسمك أنتِ، بس روحي جيبي لي ورقة "

تقفز سريعًا لتخرج من المجلس، تتركه يسترجع كل ما حدث، يستوعب كلام يمامة.. تأتي مسرعة حاملة بيدها مجموعة أوراق، تجلس أمامه ليبدأ برسم ملامحها .. تشهق بصدمة وهي ترى دقة رسمه، وما أن انتهى سحبت الورقة راكضة غير مصدقة .. تتسع ابتسامته على صوت دهشتها الذي يصل إليه، تشده الأوراق البيضاء المتناثرة.. يسحب أحدها ليبدأ برسم الملامح الأخرى، يحاول استرجاع كل شيء ليحفظها في الورقة قبل أن تُمحى من ذاكرته .. يمضي وقتًا لينتهي برسمة غير واضحة الملامح.

يتأملها بعدم رضا، يعقد حاجبيه مستوعبًا ماذا يفعل.. وأي جنون تملّكه! يزفر بضيق ليطوي الورقة ويضعها في جيبه.

يُخرج هاتفه ليعبث به محاولًا إخراج صورتها، يعقد حاجبيه ليزفر بضيق :" أوف شلون نسيت! "

يقف بعدما قرأ رسالة رغد (بنروح السوق ولا أنام؟)

يعود لسيارته، يحاول فيها كثيرًا .. ولا جدوى، قلبه يدعو أن تستمر بخرابها، وضميره يؤنبه ليحاول جاهدًا إصلاحها.

بعد محاولات دامت ساعتين تتحرك أخيرًا، يزفر بتعب ويقودها .. يخرج من المحافظة الصغيرة ليصل إلى منزله والساعة تجاوزت الثانية عشر ليلًا، يرتمي على سريره.. يُخرج هاتفه ليكتب (خربت سيارتي، الحين دخلت الرياض)

يلاحظ دخولها وقراءتها للرسالة، تخرج دون أن ترد .. يتنهد ليرمي هاتفه، يحتاج لنوم عميق قبل أن يسبقه اليوم التالي لتهاجمه بسبب تغيبه.

-

يفتح باب المقهى لتصافحه عيناها المبتسمة، تشير إليه بكفها ليتقدم إليها.. يجلس أمامها ليخلع قبعته الصوفية

ويحرّك شعره بعبث لينفس عنه، تحرك السكر ليأتيها صوته:" شلونه الوالد؟ "

تتوقف يدها عن الحركة، تزفر لتضم كفيها إليها :" الحمدلله، أفضل"

يهز رأسه بهدوء :" الحمدلله"

تزم شفتيها :" رجع أمس من المستشفى وحيله منهد"

يعقد حاجبيه :" أي سرطان فيه؟ "

ترتشف قهوتها :" رئة"

" كم درجته؟ "

تزفر بضيق :" بالمرحلة الثالثة، بيستمر على الكيماوي لين يتقلص وبعدها بيدرسون استئصاله"

يهز رأسه إيجابًا بضيق :" إن شاء الله يتحسن"

تبتسم وهي تسحب حقيبتها لتضعها فوق فخذها، تستخرج شيئًا منها بابتسامة واسعة :" شوف وش سوى "

يعقد حاجبيه لتمتد كفه وتُمسك بقطعة الشماغ الصغيرة، تتابع :" خيطه لي على أساس يكون سوار! "

يرتفع حاجبه بابتسامة وهو يقلب القطعة أمامه تفوح منها رائحة العود، تسحبها منه لترتديها في معصمها :" يقول عشان ما تنسين عروبتك ونجديتك"

يُرجع ظهره للخلف ليستند براحة :" ما تزورين السعودية؟ "

تهز رأسها نفيًا :" ما عمري رحتها .. مالنا أحد هناك"

يرفع حاجبه مستنكرًا، تتابع بابتسامة ضيق :" الواقع مالنا أحد أبد .. احنا الثلاثة نمثل لبعض كل شي - تداهمها غصة- عشان كذا أخاف أصحى يوم واكتشف إن الثلاثة صاروا اثنين"

يطرد فضوله، يلتزم الصمت.. تبدد الحزن عن ملامحها لتشغل نفسها بالعبث بسوار أبيها القماشي.. يعتدل بجلسته فجأة ويرفع كم قميصه.. ترفع بصرها بتلقائية لتراه يعبث بـ (سُبحة) تلتف على معصمه، ترفع حاجبها بدهشة وهو يُخرج السبحة عن معصمه ويُقربها منها :" هذي سبحة تعرفينها؟ "

تفلت منها ضحكة قصيرة :" طبعًا أعرفها"

يلعب بحباتها التي تميل للون البيجي وتنتهي بياقوتة حمراء :" مصنوعة من عظم الجمل"

ترتفع حاجباها بدهشة مملوءة بالتقزز :" عظم جمل حقيقي؟ "

يهز رأسه باسمًا :" ايه، جمل نجدي .. على ذمة أخوي هالمعلومة، ما عندي خبرة كافية"

لا تستطيع كبح ملامح التقزز ليتابع :"قدم لي هالسبحة قبل سنتين ونص تقريبًا.. كنت أمر بأسوأ حالاتي والاكتئاب يقتلني .. - يرفعها ليسقطها في كفها بهدوء- مو غالية، هي سبحة بسيطة ومنتشرة عندنا، بس غالية على قلبه لأنها لخاله المرحوم"

ترفعها إلى عينيها وهي ممسكة بها بطرف أصابعها، تتأملها قليلًا لتنفرج ابتسامتها وهي تُمسكها جيدًا :" حلوة والله! ما كأنها عظام مخلوق"

تتسع ابتسامته لكلامها وردة فعلها، تُعيدها إليه .. ليردها سريعًا :" لك "

تتسع عيناها بدهشة وإحراج، يُتابع :" كانت رفيقتي بأصعب مراحل علاجي، كنت أحطها بمعصمي أغطي فيها الندبة - يرفع معصمه لتظهر لها ندبة تُوضح مدى الاكتئاب واليأس الذي كان يعيشه- وكأني أحاول أمسح هالذكرى من راسي .. أو لأخلي السبحة حاجز بيني وبين الندبة .. - تُمسك السبحة لتتأملها عن كثب وكأنها تقرأ في خطوط حباتها تاريخ الألم الذي عايشه- خليها معك لين تشوفين أبوك

يرجع قوي مثل ما كان، بعدها ... - يسكت قليلًا يفكر - إن كنت باقي موجود هنا رجعيها لي، وإن رحت وانقطعنا عن بعض عطيها لشخص يحتاج يقوى"

تلفها في معصمها وتغطيها بسوار الشماغ وابتسامة عذبة تغطيها، تزفر بشدة لتُبعد الغصة التي تحشرجت فيها..

يعود صوته :" متى ما تبين تبكين ابكي، لا تمنعين بكاءك .. أسوأ شي مريت فيه بالاكتئاب الشعور البارد اللي يمنعني أبكي"

تمسح دمعة تسللت منها لترفع رأسها بابتسامة :" أعرف، أبوي كان كذا .. كنت صغيرة بس كان يقول لي أبي أبكي بس أحس شي ثقيل على صدري يخنقني، شي يجفف دموعي قبل لا تنزل"

ترق نظرته لكلامها، تصف حالته قديمًا .. تفهمه، وهذا ما كان يفقده، يعلو رنين هاتفها .. تتسع ابتسامتها :" هذا هو حبيبي "

ترد على والدها تحت ناظره يتأمل نبرة صوتها التي تضج بحب واضح .. تغلق الهاتف لتقف :" أبوي ينتظرني.. مع السلامة يوسف"

يبتسم ليلوح لها بكفه، تغادره لتخلّف فيه شعورًا جديدًا .. شعور يملأه راحة وطمأنينة، عذبة هي.. وازدادت عذوبة منذ البارحة، يشعر بأنه يتخلى عن أقنعته أمامها، تستخرج الحروف من بين شفتيه كما لا يستطيع أحد، يرفع كفه ليعلّق بصره على معصمه.. يتحسس مكان الجرح الذي سببه لنفسه قديمًا كي يفنى، كان يظن أن الفناء هو خلاصه الوحيد.. ممتن لنجد، لأخيه الذي انتشله .. أعطاه السبحة ذاك اليوم ليغطي أثر الجرح عن والده، ويبقى أمر ضعفه سرًا .. وها هو يكشفه اليوم بقوة، يشعر بأنه بحاجة لإخبار الجميع أنه لم يعد ذاك الضعيف، أن الحياة تضج في داخله بقوة ..

يُعيد كم قميصه ليُمسك بهاتفه، يفتح مكالمة فيديو مع نجد ووالده.. يضحك فيها، تتوزع ابتساماته.. تصل ضحكته إلى قلب ياسر، ليبرق وجهه بفرح لتغير ابنه، يهمس قبل أن يغلق المكالمة :" الله لا يوجعني فيك "

-

تضم عباءتها وتدخل السيارة، انتهت جولة التسوق سريعًا .. كانت هادئة على غير العادة، تذبل عيناها أكثر .. كانت بحاجة لأن يسألها عن سبب ذبول ملامحها، عن اختناق صوتها.. لكنه كان غريبًا هو الآخر، شارد الذهن.. اعتذر اعتذارًا صغيرًا لتغيبه ليلة الأمس وإخلاف موعده، ثم انطوى بصمت طويل .. وها هو يجلس بجانبها يقود السيارة عائدين إلى شقتها.

لا ترغب بأن يستمر بصمته، يقتلها الصمت أكثر .. تحتاجه ليعيد توازنها، لينفث عنها حروف عبدالله ويعيد الثقة والطمأنينة لقلبها.

يصدر هاتفها صوتًا ينبأها لقرب فراغ البطارية، تُخرجه لتفتح الباب الصغير أمامها تبحث عن شاحن .. تعقد حاجبيها وهي تلمح ورقة مصفوفة تظهر جزءًا من قلم الرصاص، تسحبها بتلقائية .. معتادة على أن تفتش رسوماته، وتسرقها أحيانًا ..

لترفع حاجبها بدهشة وهي ترى فتاة غير واضحة المعالم، من خبرتها تعلم أنها رسمة مقصودة وليست من وحي خياله، من تكون؟ ليست يمامة .. تعرف اليمامة جيدًا، رسمها مرارًا رسومات وكأنها صور فوتوغرافية من شدة إتقانه، تحرك

عينها باتجاهه لتراه شارد الذهن غير منتبه لما تفعله، تزم شفتها والفضول يقتلها .. تخرج حروفها مترددة :" مين هذي؟ "

يعقد حاجبيه ليفيق من شروده، وسرعان ما اتسعت أحداقه وغطاه التوتر وهو يلمح الورقة التي بين يديها .. تراقب تغير ملامحه، تزيد من حدة عينها تنتظر الجواب.. ليزفر ويسحب الورقة من بين كفيها :" ولا أحد، بس سكتش خيالي"

ترفع حاجبها وهي تراه يضع الورقة في جيبه :" سكتش خيالي؟ عادي ثامر .. قول"

يزم شفتيه، رغد رفيقته الأولى .. صديقة عزلته الصغيرة رغم عمرها، يلجأ لها دائمًا .. لكن هو حتى لا يعلم ما سبب احتفاظه بهذه الورقة، لا يريد أن يتلفظ بما يشعر ليكون واقعًا، يعود إليها بلا مبالاة:" مثل ما قلت لك"

تغمض عينيها بضيق وهي تدرك أن هناك ما يخفيه عنها.. تعود لصمتها، يوصلها إلى شقتها ويرحل ..

تخلع عباءتها لتسرع وهي تضع هاتفها في شاحنه، تكتب سريعًا (عبدالله فاضي؟)

يأتي رده أسرع وكأنه ينتظرها (هلا هلا)

تكتب (تتصل ولا أتصل أنا؟)

لم تمض سوى أقل من دقيقة ليصلها اتصاله، تغرق معه لوقت طويل بمحادثة طويلة .. تحاول أن تلتقط نقاط تشترك معه فيها ولا تجد .. هو طيب جدًا، ويحبها أكثر .. بينما هي تشعر بصداقته تتغلغل فيها، وحده من يحاول اقتناص كل لحظة لكيلا يتركها وحدها، يُحاورها بكل شيء .. نافذتها للعالم، يعود مجددًا ليفتح موضوع خالها وثامر .. تشعر بصوته الذي يتهدج غضبًا كونها خرجت معه :" رغد لا عاد تطلعين معه"

تزفر :" وش أسوي؟ يعني أموت بالشقة؟ "

يسكت قليلًا ليعود صوته :" اسمعي .. المرة الجاية اللي بياخذك فيها علميني"

تعقد حاجبيها :" ليش؟ "

" بحاول أساعدك، بس ساعديني أنتِ"

تزيد عقدة حاجبيها :" تساعدني بوش عبدالله؟ "

يفجرها بوجهها، لتغلق الخط في وجهه .. تغلق أذانها بقوة تطرد صوته لئلا يتسلل إلى عقلها، تشد شعرها ببكاء خوفًا من ضياعها الذي بات يفتت رأسها :" يالله يارب أمووت وأرتاح"

•*

تَسْرِي الدِّمَاءُ مِنَ العُذُوقِ
إِلَى العُرُوقْ
فَتَنْتَشِي لُغَةُ البُرُوقْ:
-أَيُّ بَحْرٍ تُجِيدْ؟
- أَيُّ حِبْرٍ تُرِيدْ؟
• سَيِّدِي لَمْ يَعُدْ سَيِّدِي
• ويَدِي لَمْ تَعُدْ بِيَدِي

سيد البيد

الورقة السابعة

•

تسير السيارة في الطريق الطويل، تتخذ مسارًا غير معبد .. تهتز مرارًا حتى تتوقف أعلى منحدر عالي، منحدر صلب متساوي، يلتفت إلى والده :" هنا يبه؟ "

يتأمل المكان بعيني حنين، يفتح باب السيارة ليخرج .. يسير ببطء متحسسًا موضع قدميه، يخرج نجد من السيارة هو الآخر ليلحق بوالده، يمشي بجانبه .. تلمع عينا ياسر وهو يقول :" تعرف يُبه وش هالمكان؟ "

يبتسم نجد وهو يكتف يديه :" حدود الهضبة"

يهز رأسه إيجابًا :" ووش بعد؟ "

يعقد حاجبيه نجد :"طويق؟ "

يُمسك بكفه ياسر، يسير به .. يبتعدان عن السيارة، يتخطيان الصخور .. يُبعده عن النباتات الشوكية، حتى يقف بعد مدة بين صخرتين كبيرتين بارتفاع شاهق، يضرب

ياسر الصخرة بكفه ليتطاير غبارها :" هنا يا نجد .. إذا ما خيبت الطبيعة والتطور توقعي"

يتحسس نجد الصخرة التي يشير إليها والده، يسمعه يتابع :" هنا قبل سبعة وعشرين سنة ونص ولدت"

تتسع عيناه بدهشة، تغوص كفه في الصخرة عله يتلمس الموضع الأول لبزوغه في الحياة :" يبه هنا ولدت أنا؟ - بعتاب - ليش ما أخذتني لهالمكان قبل؟ "

يبتسم ابتسامة لا تظهر إلا لنجد :" الإنسان كل ما كبر أكثر زاد حنينه للماضي، دخلت الخمسين والظاهر بدت تلعب لعبتها بقلبي ولا زمان ما كان يجي بخاطري أوديك هنا"

يجلس نجد، ليجلس والده معه تحت الصخرة.. تدور عينا نجد في الرمال وتشققات الجبل، المكان الذي ردد صدى صراخ أمه .. يكاد يسمع صوت طفل صغير يفجّر أول صرخاته بين هضبة نجد ليرتد صوته، يعود صوت والده :" هنا طحت من رحم أمك ليدي .. كانت أول يد تشيلك وأول حضن يحضنك هو صدري"

يسحب كف والده ليقبلها سريعًا، يتابع ياسر :" سبقت موعد جيتك بشهرين، وكأن الله يهيأ ولادتك مع ولادة أخوك

يوسف.. كنت أضمك بأول نَفس وبأول صرخة لك، وكان يوسف تو ماله يومين بحضن أمه ما كنت أدري عن ولادته"

تذبل عينا نجد وهو يستشعر صوت الندم ينبع من والده، يعود ياسر :" كنت خايف من لحظة ولادتك، وكنت متشوق لها .. بس عرفت شكثر كان الشعور يستاهل كل لحظة شوق وأنا أضمك ... كانت أمك بالقرية ويوم جاء وقت ولادتك حاولنا ناخذها أنا وجدك لأقرب مستشفى، بس استعجلت انت وطلعت عالدنيا واحنا موقفين السيارة هنا لو لا لطف الله ثم الحرمة الكبيرة اللي وقفت بعايلتها بالطريق كان فقدتك انت وأمك..- يصمت وكأن تلك اللحظة برهبتها تعود إليه.. يبتسم ويشير إلى السماء- كانت الدنيا تبرق وترعد .. وجدك الله يرحمه خايف يجي السيل ويحجزنا ، كان موسم السيول .. قبل ولادتك بأربعة أيام جاء سيل كبير وحجزني ما أطلع من القرية .. "

يقاطعه نجد :" عشان كذا ما حضرت ولادة يوسف؟ "

يهز رأسه إيجابًا، يتابع :" يوسف ولد وحده بدون أبوه، وكبر وحده بدون أمه.. كبر فجأة وأنا غافي عنه - يزفر بشدة ليتابع بعد صمت- وانت للحين ما كبرت بعيني يا نجد، انت للحين أخاف عليك كل ما طلعت من البيت، أخاف إنك

تقطع الشارع وحدك.. انت بتبقى ذاك الطفل الموصول بحبل برحم أمه "

يصغي إليه نجد بصمتٍ مطبق، صمت يخلف وراءه حب يكبر ويتضخم أكثر لأبيه، الأب الذي بات يراه ابنًا له، يشعر بأنه هو الأب .. يرغب وبشدة أن يأخذ هذا المقام من أبيه ليكون أباه؛ لأنه يدرك أن لا أعظم من الأب.. وتتوق نفسه ليصل إلى هذه الرتبة ليس مع طفل له، بل مع أبيه .. يتابع ياسر :" كان خالك ناصر يقول لي وانت طفل لا تدلله كثير .. الدلال الكثير يقلب في الكِبر، كانوا يقولون الابن المدلل هو اللي يوجع أبوه لا كبر .. بس أنا أشوفك فيني، أنام كل ليلة وأنا أدري ما برتكي إلا عليك.. ولو نفسي خذلتني نجد ما يخذلني"

يشد على كف والده، يوجعه قلبه لحديث والده الغريب .. بات والده يسبب له الوجع وكلامه يزداد ألمًا، لا يود أن يفكر .. أن يصطدم بأن هذا حديث الخمسين، حديث الكِبَر .. يدني رأسه على كتف والده، يُقبله :" أنا ..ويوسف، كلنا ظهر لك يبه، الله يديمك لنا ولا يوجعنا فيك"

تسقط قطره باردة على خده، يعقد حاجبيه ليصله تهليل أبيه .. يرفع رأسه لتشق الضحكة طريقها مختلطة بضحكة ياسر :" الله أكبر ... أمطرت يا نجد"

يتوقفان، تنساب الأمطار لتبلل وجهيهما، تمتلأ صدورهم برائحة الطين، أمطرت نجد .. ولا شيء يعادل شوق قلوب أهلها لقطرة مطر تبدد الجفاف، أمطرت وكأنها تُذعن لقلبيهما اللذين اتصلا وتشابكا لتسقي أوردتهم بماء السماء ..

-

تستند على نافذتها بضياع شديد، تشعر بعظامها تتفتت .. باتت مريضة من الداخل وكأن باقي جسدها يستجيب لينسل من بيدها، هاتفها مرمي بإهمال.. منذ مكالمة عبدالله الأخيرة رمته بخوف ورهبة، تشعر أنها فقدت نفسها .. لم تنفك منذ هطول المطر وهي تطلب من الله أن يأخذها إليه،

ترتسم ببالها صورة العراق .. ذاك البلد الجريح، لماذا تتراءى لها الآن وهي التي كانت ترتجف خوفًا كلما مر اسمها على مسمعها أو سقطت أنظارها خطأً على قناة تبث الأخبار محملة برائحة الدم الذي بات يلازم العراق الجريح؟ كانت صغيرة .. لكن ذاكرتها احتفظت بتلك الأيام المشؤومة لتذكرها الآن، ماذا لو سبق الزمان خالها خالد تلك الليلة؟ تذكر تمامًا صراخ خالد الهزيل على ذاك الوحش الذي يُسمى والدها .. تنتابها الرعشة على ذكرى والدها، تُمسك رأسها تحاول طرد شريط الذكريات الذي بدأ يُفلت وينساب متخللًا مرضها .. تهديده بأن يُبلغ الشرطة، يرد الآخر بصوت مزمجر يهدده بالأذى الذي سيُلحق به، يُذكره بعصابته الإرهابية التي تنتشر كالسرطان، لن ترحمه .. ولن يرحم هو نفسه وزوجته وابنتهم الصغيرة، سيُفجر نفسه والبيت بمن فيه ولن يستسلم، سيقتل نفسه وزوجته وابنته على أن يستسلم... يذبل خالد بخوف، يحاول أن يلجأ لأخته، لكن قلبها وعقلها سُلم لوحوش يدعون أنهم الدين، عمياء هي عن كل السواد الذي يحيط بها حتى صارت أشد قسوة من زوجها .. تؤكد له أنها لن ترحل إلا لقيام الحق، وإن فشلوا فالشهادة هي طريقهم.. تدعو له بأن يعود لرشده ويهرب من

الطغيان إلى الجهاد، ييأس خالد، يُدرك أن لا طريق معهم .. هما بالجحيم، لا يبالي .. لكن تلك الطفلة المتعلقة به لن يسمح بإرسالها إلى الجحيم، كان ضعيفًا في وقت سابق .. زُوجت طفلتان لم تتجاوزا الثالثة عشر لأشباه رجال من نفس زمرة أبيها، يُدرك خالد أنهما هُرّبتا مع أزواجهم إلى أفغانستان، لم يكن بمقدوره فعل شيء.. لكن الآن سيُقاتل لأجل رغد، لم يكن قتاله سوى أن استطاع انتشالها والهروب بها منهم ليلة رحيلهم .. كان موقنًا أن أبا رغد لن يتمكن من تحطيم جميع خططه وجميع خطط رؤسائه الشياطين لأجل طفلة! سيلقى حتفه سريعًا بتهمة الخيانة..

تنساب دموعها بشدة، تشعر بعظامها تؤلمها وهي تذكر ضرب والدها .. لم يرحم صغرها، كان شيطانًا على هيئة إنسان، قد يكون هو ووالدتها وأختيها فُجروا منذ زمن بعيد، قد يكونون الآن مجرد عظام بالية تحت التربة .. أو قد يكونون في العراق، سوريا، أفغانستان .. تذكر بالمقابل مسح كفي خالد على شعرها، حضنه الطويل لها .. كيف كان يُغني لها قبل أن تنام، يعود لها صوت عبدالله.. تهز رأسها بيأس، أقرب الناس لها يجهل أعظم سر .. هو لا يدرك بسبب ماذا اضطر خالد لما اضطر إليه، هو لا يعلم أنها ابنة إرهابي

مطلوب.. أنها فاقدة للهوية بسبب خوف وقلق خالد بأن تُكشف من قِبل ميليشيات أبيها وأخيه، هو لن يفهم الضياع الذي تعيشه.. لن يستوعب حجم خسارتها لنفسها، انتشلها خالها من ضياع كبير ليُلقيها بضياع أصغر .. لكنه ضياع ينهشها ويفقدها نفسها.

تقف بثقل لتفتح النافذة، تمد يدها علّها تُلامس المطر .. هي بحاجة أن تُغسل روحها، لكن يدها الهزيلة كانت أضعف من أن تتبلل بالمطر، تقف فجأة .. ترتدي عباءتها وحجابها، تقف أمام الباب بتردد كبير .. لم تجرؤ مسبقًا على تخطي حدودها المرسومة، هذا الباب .. لا تغادره إلا وحارسها ثامر أمامها، ماذا لو خرجت؟ فقط تبلل وجهها بالمطر وتعود .. لن يحدث ما هو أسوأ من حالها.

تفتحه ببطء شديد، وكأنها تخشى أن تقابلها وحوش تتربص بها .. تطلّ من خلفه، لا أحد .. مجمعهم يغطيه الهدوء دائمًا، تأخذ نفسًا عميقًا لتفتح الباب أكثر، تخطو أولى خطواتها بقلق يشوبه توق كبير لملمس المطر .. يرتد باب الشقة خلفها، تنزل الدرج بخطوات مترددة .. تهب عليها نسمة باردة، تستنشق الهواء بعمق كبير وكأنها سجينٌ أُفرج عنه.. تتجاوز الباب، تقف فجأة وهي تتأمل المنظر .. شارع

مبلل بالمطر، أطفال يركضون في كل مكان بمرح، أناس كثر يمشون بعجلة .. تقتل الخوف الذي انتابها من منظر الناس وهي تستشعر قطرات المطر تسقط على رأسها من فوق حجابها، تلامس خدها.. تتسع ابتسامتها، تتحول لضحكة كبيرة .. تقفز لتهرول بحرية تفتقدها، تتوقف فجأة وهي تستوعب أنها حافية القدمين!

لا بأس، لا يوجد شعور أعظم من أن تغوص أقدامها في المطر.. تتجاوز المجمع، والشارع الذي يقع عليه .. مذهولة هي بشجاعتها لأمر بسيط كهذا! تدخل الحديقة الصغيرة وضحكاتها تتكاثر وتملأ صدرها .. تتقدم لأطفال يلعبون بالكرة، تنوي أن تركل الكرة بعيدًا لتركض لها مجددًا .. لكن يصدونها بنظرات ريبة وهم يحملون الكرة بعيدًا عنها بعد أن رمى أصغرهم عمرًا كلمته :" مجنونة! "

يتملكها الغضب، تعيد كلمته في داخلها .. لتضحك وهي لا تتوقع من طفل يرى شابة كبيرة تود اللعب وتسير بلا حذاء وصفًا أقل من مجنونة، لا تُبالي .. تتوجه إلى المراجيح، تسير بسرعة لتلتقط المكان الخالي الوحيد لتحلّق بها بعيدًا .. تنتشر ضحكتها بمتعة كبيرة والهواء يهب بسرعة كبيرة محملًا بالمطر.

يصلها صوت امرأة تمسك كف طفلة صغيرة :" معليش أختي تنزلين وتتركين الصغار يلعبون؟"

لا تهتم، تتظاهر بأنها لا تسمع .. لن تضحي بمقعدها ومتعتها هذه لأي كان، تشعر بأنها تحلّق بعيدًا مع الطيور المهاجرة.. هذه متعة قد لا تنتهزها مرة أخرى مطلقًا

-

يحلّ المساء .. تبدد الغيوم حمرة الشفق الأحمر ليغطي السواد المكان، يصلها رنين هاتفها .. ثامر يستعجلها للخروج، تغلق الهاتف بسرعة.. لتسحب الحقيبة القديمة وتفتحها، يأتي صوت سمر من خلفها :" تدورين على شي؟ "

ترفع رأسها يمامة برجاء :" أبيك بس تقفلين الشنطة وترجعينها لمكانها بعد ما أطلع"

تهز رأسها سمر إيجابًا، تجلس على سرير يمامة تراقبها .. تُخرج الأخرى حقيبة قماشية لتفتحها بعجلة، وسرعان ما انتشرت ابتسامتها بصدمة.. نعم لا بد أنها الأمانة المزعومة!

تغلق الحقيبة الصغيرة لتلتفت إلى سمر :" يلله مع السلامة، لا تنسين ترجعين أغراضي"

تهز رأسها الأخرى لتضمها بحب كبير :" لا تطولين علينا"

تقبّل خدها لتلبس نقابها بعجلة، تضع الحقيبة الصغيرة في حجرها لتخرج سريعًا وتودع خالتها .. تخرج إلى الشارع لترى ثامر يجلس في سيارته محتميًا من المطر، وما أن رآها حتى خرج سريعًا ليساعدها كي لا تنزلق.. تتمسك بالحقيبة لتبقيها معها، تسير السيارة أخيرًا وبهجتها تزيد على وقع صوت سقوط حبات المطر .. تستنشق الهواء بعمق :" الله أخيرًا جاء موسم الأمطار"

يبتسم لفرحتها، يفتح نافذتها قليلًا حتى يداعبها المطر.. تتحدث كثيرًا، تبدو أكثر نشاطًا بعد زيارتها لأهلها .. يجده الوقت المناسب ليرمي سؤاله ببراءة مزيفة :" يمامة الحين سمر بنت خالك بعمرك؟ "

تعقد حاجبيها على السؤال الذي لا يبدو في محله :" لا طبعًا .. ليش؟ "

يتابع ادعاءه للبراءة :" ولا شي، بس جاء ببالي شلون وحدة صغيرة بعمرك ومطلقة"

تتنهد بضيق :" الله بيعوضها اللي أفضل منه"

يهز رأسه تأكيد :" آمين .. بس كم عمرها هي؟ "
" امممم أظن ثلاثين أو تسعة وعشرين"
يرتفع حاجبه :" آهاا"
تغير مجرى الحديث باستعراضها لحالة الطقس للأيام القادمة، تتحدث بكل شيء .. يُحاول إشراك سمر بطريقة غير مباشرة ليعرف المزيد، اكتشف من خلال ساعة الطريق هذه أنها معلمة .. عملها يبعد عن منزل ذويها قرابة الساعتين، لا تأتي إلا نهاية كل أسبوع .. لذلك استنتج عدم معرفتها بقدومه ذاك اليوم الجميل.
تدخل السيارة مدينة الرياض، يقتربان من المنزل.. ولا تزال الغيوم ملبدة، يصادفان في إشارة الشارع القريبة نجد وأباه، تهمس بحنين كبير يمامة وهي ترى ياسر :" ثامر قول لهم يجون يتعشون عندنا، خالتي جهزت العشاء بالحافظة، بس بسخنه"
يهز رأسه إيجابًا ليلتفت إلى السيارة بجانبه :" عمي، يمامة حالفة عشاكم الليلة عندنا"
تضربه بخفة على ذراعه، ليضحك وهو يرى فرحة ياسر الكبيرة .. تتوقف السيارتان أمام منزل ثامر، يخرج نجد

بلهفة شديدة ووالده معه .. يسمع كلمات أبيه لها وسلامها عليه، يعبر عن شوقه الكبير لابنة لم تكن من صلبه ..

تدخل المنزل ليتبعها البقية، وما أن دخلت وتوارت خلف الباب الداخلي شعر بحنينه يقتله .. وكأنها ليست قريبة منه..

تُسخن العشاء، يساعدها ثامر .. وها هي وحدها، تُمسك الحقيبة القماشية بحماس شديد، تستخرج الأشياء .. كلها تعود لما قبل تسعة أعوام أو يزيد.. حقيبة ذكرياتها الصغيرة، تبتسم بحنين شديد وهي تمسك بدفتر قديم.. دفتر كانت تحبه كثيرًا .. تتصفحه لتنتابها ضحكة خافتة، إعرابات كثيرة بخطها الركيك.. وقلم أحمر يصحح الأخطاء منتهيًا بتوقيع كبير .. توقيع نجد، الأستاذ نجد ..

تقلبه سريعًا حتى وقعت عيناها على ورقة في منتصف الدفتر، لتعقد حاجبيها سريعًا، لا تتذكرها إطلاقًا .. ترفع الدفتر بعقدة حاجبيها وهي تقرأ خط نجد (يمام العزيزة .. أظنك تعلمين أن قرار إبعادك عني آلمني .. نعم كنا صغارًا وما عدنا كذلك، كنتِ جزءًا مني .. وأعلم كيف كنت مقربًا منكِ، أعلم جيدًا أن مكانتي تعلو مكانة يوسف وثامر عندك.. لم يكن عدلًا أن ينزعوك مني، أن تتواري خلف

حجابك كلما اقتربت، هي أمور دين ولا اعتراض .. لكن ارتباطي الروحي بك لم يكن مصادفة، كنت أتساءل الأسبوع الماضي كيف وقع اختيار اسم (اليمامة) عليك من بين جميع أسماء البنات في العالم؟ كيف ضاقت اللغة على والديك حتى لم يبق غير (اليمامة) لتُسمي به .. لكني وصلت لجواب منطقي، اسمكِ لم يكن عبثيًا .. كان إعلانًا من القدر ليكتب ويقرأ علي مصيرك، مصيرك المرتبط بي.. سميتِ باليمامة تيمنًا باسم مدينتنا وانتمائنا، أظنكِ تعلمين أن الرياض كانت تُسمى اليمامة قديمًا .. وأنا نجد، تلك الهضبة التي شهدت التاريخ والممالك .. حتى قادها الزمان لتصبح (اليمامة) عاصمتها ورأسها الشامخ، اليمامة لا تنتمي إلا إلى نجد .. ونجد لا تُباهي إلا باليمامة. هما جزءان لا ينفكان عن بعضهما، تمامًا كما أنتِ وأنا .. أؤمن جدًا بارتباطنا، أراكِ تلبسين الفستان الأبيض.. لأُمسك بكفك الصغيرة وأحملك إلى مصيرنا وأحلامنا، حبيبتي يمام .. اليوم أُنهي آخر اختباراتي في الثانوية .. السنة المقبلة سأكون طالبًا جامعيًا ، أعدك أن تمر سنوات دراستي الأربعة سريعًا، سأثبت نفسي لك، ولأختك نورة .. سأثبتها لثامر ويوسف، ليثق الجميع أني أليق بكِ، كما أنتِ تليقين بي.. يتملكني الخجل وأنا أكتب

إليك .. لكن حبي وشغفي يستحوذان على هذا الخجل حتى ما عدت أبالي بما أكتب، انتظريني يا يمامتي الصغيرة ... نجد *التوقيع* ١٤٢٨/١/٥)

ترتجف عيناها وهي تُعيد قراءة المكتوب، تشعر بحرارة حارقة تحرقها .. كيف فاتها هذه الورقة؟ كيف انزلقت من بين الأوراق واختفت؟ لماذا تظهر لها الآن؟ تغطي عينيها بكفيها بوجع شديد .. ذاك الدفتر، كان يساعدها في مذاكرة مادة القواعد العربية الفاشلة فيها، كما كان يوسف .. يكتب لها القواعد باختصار ويُعيد إرسال الدفتر إليها لتحل الأسئلة .. كانت تنتهي من اختباراتها قبلهم، وبقي ذاك الدفتر بحوزته .. حتى انتهى من اختباراته هو الآخر وأعاده، لم تبال به .. وضعته في صندوق ذكرياتها التي تحتفظ به وأغلقته حتى هذه اللحظة.. تتنهد بوجع كبير لتُعيد فتح الصفحة، يقلد والده حتى في أسلوب كتابته المميز.. تتلمس خطه الصغير .. هل ما زال كما عرفته؟ أنيقًا ومرتبًا؟

لماذا تأتي هذه الورقة الآن؟ وفي هذا الوقت؟ هل كان جادًا فيما يكتبه؟ .. يعود إلى ذاكرتها ذاك اليوم الذي أخبرها يوسف بنية خطبة نجد لها، كان ينوي سماع رأيها قبل أن

يتحدث إلى خالها .. تذكر جيدًا كيف غضبت، كيف صدت يوسف بنفور شديد وهددته بمقاطعتهم أن فُتح الموضوع مجددًا ..وكيف باتت تتحاشى نجد تمامًا، كانت تعلم أن نجد لا يعرف سواها .. لا يعرف سوى الفتاة المقعدة اليتيمة، من تشتت بين بيت أختها الراحلة وبيت خالها .. كانت تعلم حجم الفقد الذي سببه رحيلها عنهم، عن يوسف وثامر ونجد وحتى ياسر ..والآن يأتي لخطبتها ليلم شملها بهم مجددًا؟ كانت ولا زالت تكره فكرة أن تكون مجرد عالة، أن يراها الجميع بعين النقص والشفقة.. أو أن تتزوج لأنها فقط المتوفرة، كانت تحلم بأن تعيش قصة حب ملحمية، أن يُحارب الجميع لأجلها .. لكن ليس نجد! الصديق الذي سبب لنفسه خسارة بسبب خطوته هذه، أن يتقدم إليها فقط لأنه لا يعرف أنثى غيرها!

تشعر ببلل يزحف إلى عينيها، تمسحه بكفها قبل أن تسقط الدمعة.. تزفر بحرارة ولا زالت تتأمل الورقة، تشد أصابعها لتفصل الورقة عن الدفتر .. تطويها بعناية كبيرة لتضعها تحت وسادتها، ستأخذها غدًا معها .. ستُعيدها إليه، الأمانة التي طلبها .. هل طلب استردادها ليمزقها؟ أم

طلبها ليُذكرها بالألم الذي سببته له ويفتح ورقة أخرى؟
ورقة وجع جديدة..

تمسح وجهها سريعًا على صوت وقع خطوات ثامر، يقف قُرب بابها بابتسامة واسعة :" الله يسلم يدين خالتك، من زمان ما أكلت بهالشهية"

تمثل الابتسامة :" الحمدلله، راحوا؟ "

يهز رأسه إيجابًا:" ايه وغسلت المواعين .. نامي الحين وارتاحي"

يتركها ليدخل غرفته.

•

يخرج من المسجد بعد آداء صلاة الفجر بخمولٍ شديد، يُحاول استعادة نشاطه بالمشي السريع حول حديقة الحي الصغيرة .. يُفكر في مشيه باللقاء العلمي الأول للقانونيين في

مدينة الرياض، سيُقام اليوم.. ويقدم هو ورقة علمية بين حضور كبير، سيُمثل الجامعة والقسم.. لابد أن يكون مستعدًا، يتوقف فجأة وهو يذكر.. يضرب جبينه بخفة وهو يخرج هاتفه، نسي أن يبلّغ شُعبه الدراسية بإلغاء المحاضرة بسبب اللقاء .. يكتب رسالة جماعية لطلابه يبلغهم بالاعتذار ..

يعود لمنزله، يستعد .. يمضي الوقت وها هو يقف بسيارته أمام أحد الفنادق الفخمة، لا تزال أمامه ساعة قبل بدء المؤتمر، يرغب بتفقد طلاب القسم التابعين له.. يتعرف على طلابه سريعًا، يتجه إليهم ليسجل حضورهم.. يبتعد الطلاب قليلًا لتتقدم مجموعة طالبات لا يتجاوز عددهم الخمسة، يرفع رأسه ليلقي نظرة سريعة .. يأتيه أحد الطلاب ليستفسر عن أمور تخص المؤتمر، يترك الورقة مع الطالبات ليركز انتباهه على الطالب، وما أن انتهى منه تُقدم له إحدى الطالبات الورقة لتجلس مع رفيقاتها .. مرر عينه سريعًا على الأسماء يتأكد من عددها، وسرعان ما بهتت عيناه وهو يرى الخط المنظم باسمها (ريم موسى)، لم يطّلع على أسماء الطالبات مسبقًا .. ليتفاجأ الآن أنها معه، يرفع بصره إلى مكان جلوس الطالبات.. يُخمن من تكون،

اثنتان بحجابيهما دون نقاب.. واثنتان بنقاب لكن بعبايات ملونة، ووحيدة بعباءة سوداء .. لم يكن من الصعب عليه تأكيد أن تكون هي، ابنة الشيخ موسى مؤكد ستلتزم بمعايير حجاب محددة .. يشتت أنظاره ليُبعدها عن فكره، يترك طلابه ليتقدم ويجلس في واجهة القاعة الكبيرة.. ينشغل مع زملاء وأساتذة وقانونيين في نقاشات كثيرة .. يبدأ المؤتمر، تتوجه إليه الكاميرات.. ليبدأ ورقته، تمضي الساعة سريعًا وهو مستمتع بأجواء المؤتمر.. يرفع حاجبه بانبهار وهو يسمع تدخلاتها التي تلقيها بين الفينة والأخرى، تسأل .. تُناقش وكأنها أستاذة وليست طالبة في مراحل دراستها الأولى، تمتلك هالة هيبة خاصة كأنها ورثتها من أبيها.. فصيحة اللسان، قوية الحجة .. لو كانت فقط تملك اسمًا غير اسمها لما توانى عن إبداء الإعجاب الشديد بها كما فعل معظم الجالسين معه .. يشيدون بها، يتوجه الكلام إليه ليبدون إعجابهم بقدرة طالبة من طالبات جامعته على هذا المنطق.

ينتهي المؤتمر .. تتفرق الكراسي، يُغادرون القاعة منتشرين في البهو .. يقف مع مجموعة رجال ونساء يتناقشون، يرى طلابه يقتربون ينتظرونه وكأنه أبٌ يخشون

ضياعه في الزحام، يبتعد ليقترب من طلابه بابتسامة واسعة.. فخور هو بما قدّمه وبالإطراء من الجميع على طلابه، يضحك قليلًا مع الطلاب بينما الطالبات يقفن على بعد مسافة منهم، يُعرفهم على أساتذة القانون البارعين ليتقدموا ملقين السلام، يصله صوت رقيق من خلفه :" أستاذ ناصر "

يلتفت سريعًا ليجد أمامه طالباته تقف اثنتان منهم بمسافة أبعد قليلًا .. إحداهما ريم، يصله إطراء الطالبات وحماسهن للتجربة الأولى لحضور مؤتمر بهذه الضخامة، تسأل إحداهن :" أستاذ كيف درجاتنا حقت الاختبار؟ "

يعقد حاجبيه :" أنتِ مين؟ "

"فاطمة"

يهز رأسه بقلة حيلة مبتسمًا :" مفروض أنتِ من الطالبات اللي ما يفكرون يسألون هالسؤال"

تزم شفتيها بإحباط :" والله كان صعب.. شرايك دكتور الطالبات المشاركات بالمؤتمر ترفعهم خمس درجات؟ "

يهز رأسه نفيًا :" وين إقامة العدل اللي بح صوتنا واحنا نعلمكم به؟ "

يأتي اعتراضها ومحاولاتها، يهز رأسه بنفي أشد :" كل طالبات الشعبة محتاجين درجات، ظلم أعطيك لأن اسمك ترشّح للحضور وهم انحرموا - يلم أوراقه التي بين يده يلتفت للتي تقف في الخلف مميلًا رأسه - بس طالبة واحدة أبهرتني واستحقت الدرجة الكاملة"

ترفع رأسها سريعًا منتبهة له، تلتفت الطالبة الأخرى لتلتقي عينيها بريم .. تضرب رأسها بخفة :" أكيييد ريم! "

يبتسم ولا تزال عيونه على تلك الواقفة تنظر إليهما :" طبعًا، وهل في ذلك شك؟ "

يصله صوت تنهدها الخافت:" الحمممدلله "

يقترب خطوة، ولا تزال بينهما مسافة واسعة .. :" الكل كان يثني عليك بالمؤتمر، رفعتِ سمعة القسم"

يكاد يرى ابتسامتها من عينيها، تشتت أنظارها سريعًا بخجل لتتداخل أصوات بقية الطالبات مشيدين بما قامت به، يبتسم هو الآخر في ذات الوقت الذي اقترب منه أحد زملائه:" زين عن إذنكم طالبات"

يتركهم خلفه ليبتعد، يهز رأسه بضحكة عابرة ممزوجة بسخرية .. كيف أوصله القدر لأن تكون ابنة الشيخ أمامه قبل قليل، يحدثها .. ويضحك!

-

على بُعد مسافة، تجلس في الخلف والتوتر يغطيها لم تستطع حتى أن تضع عينيها في عينيه، صوتها هزيل وهو يسألها عن حالها .. تحتضن حقيبتها، تتردد في إخراج الورقة .. تزفر وهي تقرر أن تتناسى الأمانة حتى يطلبها هو، قد يكون نسى ما طلبه!

يُقاطع سكونهما صوت نغمة هاتفها :" هلا منى .. - تزفر بلا شعور - أوففف معقولة التغت؟ .. - تتنهد بضيق- لا أنا خلاص طلعت من البيت ما يمديني أرجع... مع السلامة"

تضع هاتفها والإحباط يصيبها، لا توجد محاضرة ..

وسيارة نجد قطعت مشوارًا طويلًا لا يُمكنها أن تعود إلى البيت، يأتي صوته سائلًا :" أُلغيت المحاضرة؟ "

تهز رأسها إيجابًا وبهمس :" ايه"

يهز رأسه دون تعليق، يسلك مسارًا آخرًا .. ظننت بداية أنه يرغب في إرجاعها إلى المنزل، لكن لم تمض إلا دقائق

معدودة وها هو يقف أمام أحد المطاعم، ينزل ليعود بعد مدة قصيرة حاملًا أكياس ساندويتشات.. يركب السيارة لينطق :" حرام تروح قومتك هالصبح عالفاضي، قلنا نفطرك"

تعض شفتها بتوتر يزيد مع الوقت حتى توقفت السيارة أمام حديقة كبيرة، يخرج ولا يترك لها مجالًا أن تعترض، يحمل كرسيها ليقربه لها .. يفتح الباب لتقابله نظراتها المترددة، يبتسم مشجعًا .. تعقد حاجبيها :" طيب ومحاضراتك؟ "

يهز كتفه بلا مبالاة :" ما عندي الحين، محاضراتي مسائية"

تشعر بكذبه، ينتابها شعور يدفعها للتقدم معه .. تود لو تفهم رسالته القديمة تلك، هل هي خربشات مراهق؟ أم ما زالت تلك الكلمات تحتفظ بمكانها؟

تتحرك لتخرج من السيارة إلى الكرسي، يحمل هو كيس الطعام .. ويسير بجانبها، هواء بارد منعش يدغدغهما، ورائحة مطر ليلة الأمس ما زال يعبق من التربة ..

يراقبها كيف تحاول إمساك عباءتها التي يعبث بها الهواء تارة وتارة تحاول السيطرة على نقابها ومرة تتمسك

بحقيبتها، وكفها الأخرى مشغولة بتحريك الكرسي، يتقدم ليسير بجوارها، يمد يده ليسحب حقيبتها :" هاتيها عنك"

تزيد ربكتها وهي تشعر بيده خلف ظهرها تثبت الحقيبة على ظهر الكرسي، يعودان للسير .. أصبح يمشي متجاوزًا إياها بمسافة بسيطة، تستطيع تأمل هيأته من الخلف بقليل من الحرية .. نجد ذاك الفتى الصغير أصبح طويلًا، كانت في الماضي ترفع رأسها قليلًا كي تتسنى لها رؤيته من كرسيها.. أما الآن أصبح يُعانق السماء، هي بحاجة لأن يطول عنقها كثيرًا حتى ترتاح بتأمله.. فجأة، تشهق بلا وعي وهي تشعر بكرسيها يرتج قليلًا ليتوقف..

يلتفت بتلقائية لها ليجدها عالقة في مكانها ورأسها للأسفل وكأنها تتفقد شيئًا ما.. يرجع لها بعقدة حاجبه :" وش فيه؟ "

تزم شفتها بضيق وهي ترى الكارثة أسفلها، تُشير لعجلتها :" فيه حجرة كبيرة "

يقترب، يجلس بجانبها على أطراف قدمه متكأً على ركبته .. تُبعد قدميها بيدها حتى يتسنى له رؤية الحجرة، يُبعدها عن عجلتها ببساطة ليقف مبتسمًا :" خلاص شلتها، انتبهي مرة ثانية"

تهز رأسها بخجل وما أن همّت بتحريك الكرسي حتى مالت على أحد جوانبه وذات العجلة تفقد توازنها.. :" نجد "

أمسك بذراعها بتلقائية يمنعها عن السقوط، تشبثت به أكثر وهي تزفر بضيق كبير .. تكره أن تكون بموقف كهذا، ومع نجد بالذات .. خاصة بعدما قرأت ورقته القديمة تلك، يأتيها صوته قريبًا جدًا ولا يفصل وجهه عن وجهها إلا مسافة شبر :" بنزلك .. "

لا يترك لها مجالًا، تلتف ذراعه حول ظهرها .. ويده الأخرى تُمسك بذراعها، تضرب أنفاسه عنقها المغطى بحجابها .. يشعر هو الآخر بأنفاسها المضطربة أعلى صدره وأسفل كتفه، دوامة حارة تعصف به .. يتوه فيها، يرفعها إليه .. لا يفصله عنها شيئًا، يُغمض عينيه وضربات قلبه ترتفع.. تسلبه روحه هذه اللحظة ويغرق فيها .. يشعر بيدها التي تشبثت بكتفه والأخرى تشد على ذراعه وكأنه تخشى السقوط فيه، تنفرج شفاته في لحظة ضياع.. كتفها يكاد يلامس شفتيه، وشفتاه تجف فجأة وكأنها تطلب أن يسقيها.. :" نجد"

صوتها المرتجف أفاقه من سكرته، يزيد توتره.. تشير بإصبعها للأسفل :" نزلني هنا"

يعض شفته بربكة الموقف، يستدرك نفسه .. يُدني جسده لتجلس على الأرض بسرعة، لم يكن أصعب من قربها إلا انفكاكه عنها وهو يشتت أنظاره في العشب ويقف سريعًا متجهًا إلى كرسيها.. يلقّيها ظهره ليستعيد انفاسه قبل أن يعود إليها وبيده كيس الفطور.. أنظاره كانت تضيع في كل مكان إلا عينيها، وبصوت متوتر :" افطري وأنا بشوف للكرسي"

يضعه بجانبها ليتركها خلفه تصارع ضربات قلبها، ترفع كفها لترى ارتجافتها .. تزم شفتيها وبداخلها تسب المحاضرة الملغية التي أوصلتها لموقف محرج معه، يلتفت إليها بعدما تمالك ملامحه ليبدد الإحراج :" يمام.. خذي راحتك، افطري ولو ودك شيلي النقاب .. أنا ببعد هناك"

يقف ليخلع شماغه وطاقيته والعقال، رغم برودة الجو الخفيفة إلا أنه يشعر بحر شديد مصدره الفتاة الجالسة خلفه، يحمل حقيبتها ليعود إليها ويتركها بجانبها مع شماغه.. يبتعد بمسافة قصيرة مع كرسيها، يحاول معرفة علة العجلة .. يعقد حاجبيه بتورط، هو لا يفقه شيئًا في التفكيك إلا تفكيك النصوص الأدبية .. يحاول مرارًا، لكن

يبدو أنه يزيد الأمر سوءًا .. يصله صوتها من خلفه :" نجد، آسفة"

يبتسم ولا يزال منشغلًا بالعجلة :" أنا الآسف .. - يلتفت بملامح باسمة - الظاهر أعدمت كرسيك! "

تزم شفتها بضيق، ضيق كونها تورطه معها .. وضيق أكبر لأن أغلى ما تملك يبدو في أسوأ أحواله، تتنهد :" خلاص اتركه، بحاول أمشّي نفسي به الحين ولا رجعت البيت بقول لثامر "

يعقد حاجبيه ويده تحاول شد العجلة :" تذكرين يوم كنا صغار .. أنا ويوسف الأغبياء طلعناك التلة - يضحك بخفة وهو يعيد بصره إليها- للحين ما نسيت الضرب اللي أكلناه من ثامر"

تضحك وذكرى الماضي تبدد إحراجها:" أووه ثامر المسكين، كان توه مصلح الكرسي ورجعنا عدمناه له"

يجلس على الأرض بعد ما كان يستند عليها بأطراف أقدامه، يتكئ بيديه على الأرض وبابتسامة حنين :" أحيانًا أقول ليت ذيك الأيام وقفت ولا عاد مشت ... "

تتنهد بضيق، الحنين والماضي بكل ذكرياته يعودان إليها ..
تُخرج قطعة ساندويتش من الكيس لتمدها إليه :" افطر نجد واترك الكرسي عنك"

يقف ليقترب منها، يأخذ الساندويتش من يدها ليجلس بجوارها يفصله عنها حقيبتها .. يُمدد رجليه مثلها، يبدأ بتناول فطوره ليصله صوتها باسمًا وهي تشير إلى قدميهما :" طولت كثير .. شوي وأوصلك"

يبتسم وهو يتأمل أقدامهما، قدمها الرقيقة وخلخالها الناعم، نعم طالت كثيرًا .. لاحظ ذلك في اللحظات القليلة التي حملها فيها، يرفع رأسه ليرميها بنظرة خبيثة :" وش صار على أمانتي؟ "

تتذكر الرسالة، تعود كل كلماتها التي حفظتها إلى ذاكرتها .. تزم شفتها بتوتر، تشعر أنها أضعف من أن تُخرج الورقة بكل تلك الكلمات له الآن، تهز كتفيها :" ما ساعدتني انت! "

يبتسم، يُمسك حقيبتها ... كاد قلبها يتوقف، لكن سرعان ما عقدت حاجبيها وهي تراه يُمسك بميدالية تتدلى منها ويلعب بها :" أمانة تشبه لهالشي"

تشعر بماء بارد يغطي وجهها وهي تسمع كلامه، تبهت .. تُشير مجددًا للميدالية :" ميدالية؟؟؟"

يهز رأسه إيجابًا، لتفلت منها ابتسامة صدمة.. ماذا كانت تطن؟ ماذا لو أخرجت الورقة قبل أن يتحدث .. كيف سيكون موقفها وهي تُعطيه ورقة كتبها وهو مراهق معبرًا عن مشاعر طفولية ويوعدها بزفاف وفستان أبيض! تهز رأسها بعدم تصديق .. يتابع :" ليلة وفاة أمي نورة الله يرحمها أخذتِ مفاتيحي وميداليتي .. ووعدتيني بميدالية جديدة.. بس للحين ما شفتها! "

هو يتحدث بكل بساطة وهي تقرع نفسها على تفكيرها الأحمق، أمانة .. كانت تظن أن هذه الكلمة تحمل دلالة كبيرة، ورقة ثمينة .. ليست مجرد خيوط كانت تخيطها وهي صغيرة!

يزيد اتساع عينيها وهي تراه يفك ميداليتها معلقًا :" باخذها بدل الأمانة اللي ضاعت"

لا تعلق، لا زالت مأخوذة بالصدمة .. تراه يُخرج مفاتيحه ليعلّق ميداليتها فيها، يعلو رنين هاتفه .. يعقد حاجبيه بضيق من المتصل الذي يذكره بدوامه، يرد لتُدرك من محادثته السريعة أن هناك ما ينتظره.. يُغلق الخط، يقف ليعود متأملًا الكرسي .. تنطق بسرعة :" عادي بيوصلني للسيارة.. بس قربه لي"

يبدو مترددًا، العجلة ما زالت تفقد توازنها .. لكن لا حل آخر، يُقرب الكرسي ليراقبها وهي تستند عليه بثقل، وترفع نفسها إليه .. يُمسك بمقبضي الكرسي ويسيّرها ببطء لئلا تسقط، يفتح باب السيارة لتتسلل كفه وتُمسك بذراعها .. لا ترفض مساعدته، تستسلم له وهي تستند عليه حتى تجلس في السيارة، يقود عائدًا إلى المنزل .. يتحدث كثيرًا، يتذكران الماضي .. يشعر بقربها الشديد منه، وكأنها عادت يمام التي يعرفها وتركها قبل تسعة أعوام في باحة صالة منزلهم تبكي فقد نورة، ليست يمام التي رفضته وصدته يومًا ما..

-

يقف أمام مرآته، يُمسك بالورقة ويتأملها .. دعوة وزعتها هديل في آخر مرة التقاها في المركز قبل يومين، مبادرة لدعم مرضى السرطان، لا يهتم إطلاقًا بالحضور .. لا تروق هذه التجمعات الكبيرة لشخص بيتوتي، يرتمي على سريره ولا

تزال الورقة في يده .. يبتسم وهو يذكرها وقت توزيع الإعلان كيف تجاوزته لتُعطي الورقة للشخص بجانبه، استنكر فعلها مطالبًا بنصيبه.. نطقت سريعًا بمزاح (ممنوع حضور العرب)، تضحك على ملامحه المتفاجئة وهي تمد له بالورقة (ترى صدق مو لازم تجي، الحضور مو إلزامي.. النوم على السرير أفضل) .. كانت ملامحه لا تزال متفاجئة من كلامها لتنطق بجدية وهي تبتسم (أمزح.. إذا ودك تجي تعال، بس ترى أبوي وأمي بيكونون موجودين .. - تهمس وهي تقترب منه - يعني سوي نفسك هندي)

يرفع حاجبه وهو يدرك سبب عدم رغبتها بحضوره (والله المدينة مو مسجلة باسم أبوك!)

تضحك (لا صدق أمزح، بكيفك بس أنا ما أعرفك ولا انت تعرفني ..)

يتفهم قلقها الشديد، والدها سعودي .. ويعرف جيدًا الحدود المفروضة بين الجنسين في عُرفه.

يتأمل الساعة، لم يبقَ على بدء المبادرة سوى عشرون دقيقة.. يهب واقفًا فجأة ليُبدل ملابسه، رغبة شديدة تدعوه للحضور ..

يستقل الحافلة ليصل إلى الحديقة المدونة في الإعلان، يبحث بعينيه عنها .. الكثير من الناس، جلسات أرضية تتوزع في المكان .. يتحلقون بعضهم مجموعات يتوسطهم شخص يتحدث، وفي الجانب الآخر ينتشر مجموعة متطوعين يتحدثون بحماسة .. منهم من يعرض فيلمًا توعويًا ومنهم من يوزع منشورات، ومضمار سباق يلف المكان، تشد انتباهه إحدى الحلقات.. يتعرف على الشخص الذي يتوسطها، والدها .. ابتسامته الوديعة لا تزال، يقترب من الحلقة ليأخذ مكانه.. يسمع حديثه المشجع، يُشير بإصبعه لإحدى الجالسات لينتقل بصر يوسف بتلقائية لها .. امرأة أربعينية بحجاب يغطي شعرها، تلبس معطفًا ثقيلًا يغطي جسدها حتى ساقيها .. تبتسم وعيناها تلمع بحب كبير على كلمات زوجها :" هذه .. هي أملي، من أجلها أنا مستعد لتحمل جميع ألمي.. فقط لأرد لها جزءًا يسيرًا مما فعلته لأجلي، ومما حاربته لأجلي .. - يصفق أفراد الحلقة مشيدين بها .. ترتفع يده مجددًا لتشير لشخص بعيد، يبتسم يوسف وهو يراها منشغلة بتجهيز شيء ما .. يتابع والدها - تلك .. الواقفة هناك - يوجه حديثه لبعض المتطوعين- أظن أنكم تعرفونها .. تلك هي زهرتي، هي ما

يبقيني على قيد الحياة .. صحيح أني والدها، لكنها تُمثل لي كل شيء .. أنا لا أرى إلا من خلال عينيها، لا أسمع إلا من أذنيها .. هي عظيمة بعظمة أمها، أنا صغير جدًا أمامها .. لا أكاد أكون شيئًا دونها، سأحارب لأجلها .. "

يسمع يوسف بقية حديثه بحنية قاتلة، يكاد يشعر بتحشرج صوت أبيها وهو يتحدث عنها .. عاجز عن وصفها، ينهي كلامه .. يصفق له الجميع، يقفون .. يقف يوسف معهم وفجأة يقترب منه أبوها، يعقد حاجبيه بقلق وخشية .. داهمته كل التوقعات، هل أدرك أنه سعودي؟ هل جاء ليحذره من الاقتراب من هديل؟

سرعان ما بدد قلقه وأبوها ينعطف قليلًا ليُسلم على شخصٍ ما .. يضحك بداخله من الهاجس الغبي! يتأمل ملامحه عن قرب.. جميل هو، يكاد يجزم أن الشيب زاده جمالًا.. يلمح البطاقة المعلقة على صدره ليقرأ الاسم بفضول شديد (عبدالعزيز بن فهد) يليق به اسمه كثيرًا .. ويليق بها أكثر، يبتعد هاربًا ليسير بين جموع الناس، يدخل أحد التجمعات حيث كانت تقف ليراها تجلس على كرسي وكأنها تنتظر شيئًا ما .. يتقدم ليقف أمامها :" وش تسوين؟ "

تفز بخوف وللتو تنتبه لوجوده :" بسم الله! خرعتني "

يبتسم مميلًا رأسه :" مسموح أتكلم سعودي ولا ممنوع؟ "
تدور عيناها بقلق على المكان وهي تحرك كفيها له :" روح روح، أنا ما أعرفك "
يضحك على شكلها المتوتر :" كنت مع أبوك قبل شوي! "
يراقب تغير ملامحها للخوف الشديد، يضحك مجددًا وهو يستند بذراعه على العمود بجانبها :" بس حضرت كلامه ورحت .. لا تخافين ما شافني"
تهز رأسها سريعًا :" طيب طيب بس يلله روح"
يعقد حاجبيه متجاهلًا كلامها :" ما قلتِ وش تسوين؟ "
تزفر بضيق :" بتبرع بشعري، خلاص عرفت الحين روح"
يرفع رأسه متأملًا الحاضرين :" لا تخافين شفته هناك بعيد وشكله مشغول"
تتنهد لتحرر شعرها من عقدته، تعود لتأمل الحاضرين بقلق :" زين طيب قدم لي خدمة"
لا تترك له مجالًا للسؤال، تُخرج هاتفها لتمده إليه :" صورني .. باخذ صورة وداعية مع شعري"
تبهت ملامحه من طلبها، يعتدل بوقفته ليأخذ الهاتف منها .. يلمح سوار الشماغ يغطي معصمها، يتراجع قليلًا ليفتح

الكاميرا .. يوجهها إليها وهي تنثر شعرها الطويل حولها :" يللا صور "

يتأملها من الكاميرا، تبدو مسالمة وبريئة كما لم يشهد فتاة بوداعتها .. يلتقط الصورة ليُعيد الهاتف إليها :" اممممم وين السبحة؟ "

تتأمل ملامحها في الصور برضا تام، تُنزل الهاتف لترفع معصمها .. تُزيح سوار أبيها قليلًا لتظهر طرف السبحة :" خبيتها لا يشوفونها أمي وأبوي .. سُبحة هذي مافي مجال أكذب وأقول اشتريتها من السوق! "

يشعر بطمأنينة تسري به وهو يرى سبحته، يهز رأسه إيجابًا ليتراجع للخلف :" زين .. أنا ما أعرفك ولا تعرفيني "

تتسع ابتسامتها لكلامه، تقترب منها إحدى المتطوعات لتربط شعرها وترفعه .. ينفصل نصفه عنها، تملأ استمارة التبرع .. لتفتح كاميرا هاتفها تتأمل شكلها الجديد، تلتفت حيث كان يقف تنوي سماع تعليقه .. لكنه كان قد اختفى ..

-

في مقر عمله، يجلس في مكتبه والملل يصيبه إثر حديث زملاء المكتب عن مواضيع لا تشده .. يناقشون مباراة الأمس، يحتد النزاع بينهم .. وهو يكتفي بتأملهم بسخرية كبيرة.. يرنّ هاتفه، يرفعه .. ليعقد حاجبيه .. نفس الرقم الغريب الذي اتصل عليه وكرر اتصاله، يقف ليخرج من المكتب الضيق ويقرر الرد :" هلا "

يعقد حاجبيه وصوت امرأة غريب يصله، حديث غير مفهوم .. يبدو بلغة غير عربية، يُبعد الهاتف عن أذنه ليتأمل الرقم مجددًا، قد تكون مخطئة .. يُرجعه لأذنه :" معليش مام..."

تتسع بؤرة عينيه بصدمة وصوت مألوف يصله، ضعيف هزيل .. هامس :" ثـ..امـ..ـر"

يزيد تنفسه، غير معقول :" رغد ؟؟؟؟؟"

يشعر بالحركة المريبة خلف الهاتف، يعود صوت المرأة الأخرى الغريب .. وصوت بكاء خافت ليس إلا صوت رغد!، يُمسك الهاتف بقوة وكأنه يخشى أن ينسل من بين يديه مخبئًا رغد خلفه :" رغد!!!! كلميني .."

يُقطع الخط في وجهه، يشعر بأن قدميه غير قادرة على حمله .. جميع الظنون تفجرت في رأسه، تحامل على نفسه ليخرج سريعًا .. يصله صوت المدير :" على وين ثامر؟؟؟"

يتجاهله، لا يسمعه .. يركض مسرعًا إلى سيارته ليقود بسرعة جنونية .. لا يرى سوى رغد، لا يسمع سوى صوتها .. صوت بكائها.. صوت ضحكتها، يكاد يراها كالسراب .. كلما زاد سرعته اختفت وتلاشت للبعيد .. يهمس برجفة :" لا يارب، يارب رغد .. رغد يالله"

*•

أنا خاتم الماثلين على النطع
هذا حسام الخطيئة يعبرخاصرتي
فأُسلسل نبعاً من الناريجري دماً

في عروق العذارى

- سيد البيد

الورقة الثامنة

•

يقود بسرعة جنونية، ويده لا تنفك تحاول الاتصال بالرقم، لا يكاد يفرق بين الشارع والرصيف .. كل ما يراه هو الطريق إليها، رغد .. لماذا يشعر الآن بحجم بُعد المسافات بينهما؟ يشعر بأنها انسلت من بين يديه إلى الأبد .. أنه أضاعها بتجاهله الأخير، لماذا يا رغد الآن؟ ليس ووقت خروج خالد اقترب .. أن يُبذل جهده وحياته لحمايتها وفجأة عندما قرُب وقت إعادة الأمانة تختفي.

رغد الضائعة، يعلم تمامًا أنها لا تعرف أي طريق .. لا تعرف ألوان الناس، ولا لون الحياة .. هي تمامًا كطفل لا يزال يتعلم خطاه الأولى، يجهل الطريق إلا طريق عودته إلى حضن أمه ..

يوقف السيارة بعشوائية كبيرة سببت احتكاكًا للسيارة الأخرى، يركض ويسبق خطوات صعوده الدرج .. يلجأ

لشقتها علّه يفيق من كابوسه وهلوسته ويجدها أمامه تنتظر.. يُخرج مفاتيحه بصعوبة بالغة وعيناه لا تعي عن ماذا يبحث، يجد المفتاح المنشود .. يُدخله في ثقب الباب لتتسع عيناه وهو يُديره ليكتشف أنه مفتوح.

يفتح الباب على مصراعيه ليركض في الشقة بجنون :" رغد؟"

يناديها بضياع وهو يفتح الأبواب الواحد تلو الآخر.. يفتح غرفتها المحرمة، تطأ أقدامه للمرة الثانية حدود غرفتها .. لم يدخلها إلا في اليوم الأول لحلولها الشقة قبل سنين طويلة.

مبعثرة، وكأن عاصفة حلّت بها .. رسومات كثيرة تتوزع في جدران الغرفة، تمامًا كما يهوى خالها وكما ورث هو عنه هذا العبث .. رسومات سوداء، ظلال كثيرة عملاقة.. يتوسطها ظل صغير لفتاة صغيرة بلا أيدي أو أقدام، يحملها على كتفيه ظل آخر ضخم بجناحين مكسورة.

يلمح هاتفها مرمي وسط الغرفة، ينتابه الفزع الشديد من منظر الغرفة ووجود الهاتف .. الوسيلة الوحيدة التي قد توصله إليها.

يحمله بسرعة لتظهر له خلفيتها.. نفس الظلال، نفس الضلال .. سواد قاتم، يحاول فتحه لكنه محمي بكلمة مرور

يجهلها، يرتمي جالسًا على الأرض ممسكًا برأسه وشبح فقدها يتسلل إليه، أين هي؟ ماذا تفعل؟ ماذا حلّ بها؟ .. هل هي خائفة؟ مرعوبة؟ تبكي؟ ، هل هم جماعة أبيها؟ عمها؟ ترتعش شفتاه وهاجس أبيها يتملكه.. يقف متمالكًا نفسه .. لا وقت، ولا طريق ..

يُخرج هاتفه ليحاول الاتصال بالرقم الأخير .. لا جدوى، مغلق ..

يسير بسرعة وجنون مقررًا البحث عنها في كل مكان، وكل شارع .. ولو اضطر في جميع محافظات المملكة وجميع الحدود، سيبحث عنها في البصرة وفي بغداد .. في حمص وحماه، وفي صنعاء وكابل وفي إسلام أباد .. المهم ألا يعود إلى خالد خالي اليدين..

يخرج من المجمع الكبير راكضًا إلى الشارع، تدور عيناه في جميع الزوايا .. وجميع الوجوه، يدخل كالمجنون الدكاكين وعند الحلاقين، لا يسمع الشتائم التي ترمى عليه .. يقطع الشارع بلا مبالاة، يسير وصوتها يتردد في أذنه (ثامر، أبي تويكس .. ثامر، اقتل الصرصور .. ثامر، علمني خط الثلث.. ثامر، حمل لي حلقات المسلسل .. ثامر، أحبك ...)، يتوقف فجأة كمن سكب عليه الثلج وصوت الطفلة ذاك يعود

إليه، ببراءة وجهها .. فجأة خرجت هذه الذكرى القديمة لتقفز إلى ذاكرته! .. بين ركام السنين تخرج هذه الكلمة تحديدًا إليه، وكأنه يسمعها لأول مرة.. تُذكره بتلك الطفلة التي تعلّق بها وتعلّقت به، كان صفر اليدين إلا منها .. كان فاقدًا للحياة، وحيدًا كوحدتها .. يحاول الفرار من وحدته وقدره إليها.

يتضاءل بضعف، يستند على ركبتيه مطأطئًا رأسه .. أين يبحث؟ ومن أين يبدأ .. لماذا تبدو الرياض وكأنها تضاعفت مئات المرات ليتوه فيها؟ لا نقطة بداية .. ولا نهاية، لا يوجد خالد ليدله على الطريق .. ولا رغد لتجعل طريقه أكثر حياة...

يرفع رأسه بضياع وأصوات السيارات تزيد فوضاه، سيارات مسرعة.. رجال كثر يتجهون إلى المسجد القريب، أطفال صغار يخرجون من مدارسهم بفوضى عارمة، وعمال ينتهزون وقت الصلاة لقضاء أمورهم .. وعلى الطرف الآخر من الطريق تحت الإشارة .. تلك المتسولة التي يعرفها معظم سكان الحي بجوارها ابنتها.

يعقد حاجبيه، يشعر بأنه يتوهم .. لا تلك ليست ابنتها، ابنتها أصغر عمرًا .. تلك، المستندة على الجدار بضعف تحتضن نفسها بجانب المتوسلة...

يقف مذهولًا بعدم تصديق، وكأن السماء أنزلت وحيها .. وكأن الأرض تضحك له، يهمس :" رغد؟؟؟"

يقفز مسرعًا قاطعًا الطريق، متجاوزًا السيارات التي أربكها ظهوره المفاجئ.. شتائم نابية تُرمى عليه، لا يسمعها .. يطير مسرعًا إلى الجانب الآخر من الشارع، قُرب الإشارة ... عند تلك الذابلة، يخطفها بيديه بقوة وهو يهزها :" رغـد! "

ترق ملامحه المتشنجة، تذبل عيناه .. وتلك الضائعة تنظر إليه بضياع شديد من بين يديه، تهتز شفتها .. تحاول جمع قوتها فقط لتشد عليه، يزفر بحرارة عالية غير مصدق ويهمس :" أرعبتيني"

تسيل دمعتها بحرارة، تزدرد ريقها علّ جفافها يرحمها .. قوتها تخذلها، تمنعها حتى من فتح عينيها .. يجلس على الأرض أمامها يستعيد نفسه وقوته، برودة شديدة تجتاحه بعد ما كانت تقتله الحرارة، يلتقط أنفاسه بقوة مغمضًا عينيه يطرد الكابوس المخيف .. يفتحها ليراها لا تزال في مكانها، عيناها الذابلة .. شفتاها المتشققة.. ويديها المرتجفة

بين يديه التي تشد عليها بقوة، وفجأة .. تميل عليه لتسقط على صدره، يفتح عينيه بهلع وهو يُمسك كتفيها، يحاول أن يبعدها عنه كي تتسنى له رؤيتها .. يشعر فجأة بيد دخيلة تحاول أن تسحبها منه، يلتفت ليجد المتسولة التي نسى وجودها تحاول سحبها منه وهي تتكلم بكلمات غير مفهومة.. لا يعي ماذا تقول، تُحيط ذراعه جسدها الضئيل وكأنه يخشى أن تفلت منه، يضرب خدها بإصبعه بخفة :" رغد .. تسمعيني؟ "

ساكنة تمامًا إلا رمشها الذي يهتز وكأنها تطمئنه، يقف ليشد عليها بكلتي يديه ويوقفها معه .. لا تقوى على الوقوف، يشعر بساقيها تذبل .. ينحني قليلًا ليرفع ساقيها ويحملها بين يديه، لا تزال المتسولة تتكلم .. ويبدو أنها غاضبة لكن عقله وفكره مشغولان بتلك التي بين يديه، يسير حاملًا رغد التي يبدو أنها نامت، يقطع الطريق عائدًا إلى الشقة والبعض يرميه بنظرات غريبة وآخرون يعرضون المساعدة بسياراتهم لنقلها إلى المستشفى، وهو معها .. لا يسمع غير صوت أنفاسها، يدخل المجمع .. يصعد الدرجات إلى الشقة، وبصعوبة استطاع فتح الباب .. يُلقيها على المقعد في الصالة، ليعود إلى الباب ويغلقه ..

يرجع إليها مسرعًا على صوت همهماتها، يجلس على ركبتيه أمامها :" رغد .. أنا معك"

تغفو مجددًا، يرفع كفه ينوي أن يُبعد خصلات شعرها عن عينها.. ليتفاجأ بحرارة جبينها المرتفعة، يقف مسرعًا إلى الثلاجة .. يبحث بعشوائية عن دواء مسكن، يجده أخيرًا ويعود حاملًا كوب ماء .. يسحب الطاولة الصغيرة أمامها ليجلس عليها، يرفع رأسها ويُقرب حبة الدواء :" رغد .. حرارتك مرتفعة، اشربي الدواء ونامي "

لا تُجيب، وكأنها استكانت لألمها .. يتنهد بضيق لا يعلم ماذا يفعل، فجأة يأتي صوتها هزيلًا :" جوعانة"

يقفز مسرعًا إلى المطبخ، يبحث بسرعة أكبر في الثلاجة .. يتذكر جوعها، لا وقت لديه ليطبخ .. يُخرج قطعة التوست ليدهنها بزبدة الفول السوداني، يُسخنها وهو يسكب العصير .. يعود إليها مسرعًا ليُقرب الطاولة التي كان يجلس عليها واضعًا الطبق فوقها، يدني جسده إليها ليهمس باسمها، تتحرك بصعوبة وبطء وتأخذ التوست من بين يديه، يجلس على الأرض مقابلًا لها .. يتأمل رعشة يديها وهي تأكل، لا تزال شبه مستلقية، يلاحظ انكماش جسدها ببرودة.. تحاول ضم قدميها لبعضهما تنشد الدفء، يقف

ليتجه إلى غرفتها المفتوحة، يسحب لحافها ليعود إليها .. تنعقد حاجبيه بدهشة وهو يرى الجروح التي تغطي باطن قدمها، ماذا حصل لها؟ ماذا واجهت؟ هل تعرضت للاعتداء؟ حالتها لا تسمح له بأن يسألها، يستفسر منها، ويفهم كل القصة ..

يغطيها باللحاف حتى منتصف جسدها، ليصل صوتها متألمًا بسرعة :" لا ... تعورني"

تعود أنظاره لأقدامها الصغيرة، يزيح اللحاف عنها .. يزفر بضيق وهو يبحث في صندوق الإسعافات المعلّق في منتصف الصالة .. يعود جالسًا قرب قدميها حاملًا الشاش والمطهر، يطهر جراحها .. يشعر بانزعاجها وألمها، يلفها أخيرًا والسؤال يفلت من لسانه مجبرًا :" رغد، وش صار لك؟ "

لا يصله جواب، تزيد قلقه ورعبه .. يرفع أنظاره إليها ليراها تنام باستسلام، ينطق مسرعًا وهو يقترب منها :" لا تنامين! "

ترف عينها بتعب، تفتحها لتصادفها أصابعه وبينها حبة الدواء .. تأخذها منه لتبلعها بثقل ويده تعود بالماء.. تبلل شفتاها، تروي ضمأها قليلًا حتى تتمكن من ابتلاع الدواء، لتغمض عينيها مجددًا ..

يتنهد بقوة وهو يتكئ بظهره على المقعد جالسًا على الأرض، تنام خلفه .. يكاد يشعر بأنفاسها المضطربة، تتركه وتنام بينما هو يصارع هواجسه.. كيف فرّط بالأمانة؟ أليست هذه رغد؟ كيف تركها أيامًا دون حتى أن يطمئن على حالها برسالة، كيف تناساها وتمكّن من إخراجها من عقله كل هذه الساعات؟ منذ اصطحبها إلى السوق يوم الجمعة وأعادها إلى شقتها لم يحادثها .. يُرجع رأسه للخلف ليسنده على المقعد بجوار ذراعها، كيف ساءت أحوالهما وازدادت المسافات الفاصلة بينهما وهي التي كانت لا تفارقه .. وكأنهما يهربان من بعضهما ويكتبان وداعهما قبل أن يحلّ ويكون واقعًا بعد مدة قصيرة..

" لعبت تحت المطر"

يفيق من أفكاره على صوتها الضعيف ليفز مسرعًا ويواجهها، تبتسم ببراءة .. ابتسامة أعادت جزءًا بسيطًا من طمأنينته، عيناها ترف بتعب .. تتابع :" كان بررررد .."

لا يُدرك هل هي بوعيها أم أن الحرارة جعلتها تهلوس، لكن ما يهم أنها تتكلم .. وأنها تحكي ما حصل، وتبتسم .. :" لعبت وتمشيت .. لين وقف"

تعود لصمتها، يحثّها على المتابعة وهو يقترب :" وش صار عليك رغد؟ صار لك شي؟ أحد أذاك؟ ليش رجولك كذا؟ "

ينكمش وجهها بألم وهي تذكر أقدامها وتتحسس وجعها :" نسيت ما ألبس نعالي... "

تعود إليه كلماتها، يستوعبها .. لتتسع عيناه بصدمة :" رغد من يوم السبت وأنتِ برى؟ "

تنعقد حاجباها بوجع توشك على البكاء، تهز رأسها إيجابًا :" حتى يوم فكرت أفرح تقفلت البيبان بوجهي .. تخيل ثامر ... بس كنت أبي أحس المطر يبللني، وانتهيت مشردة بالشارع يومين، الدنيا مستكثرة علي حتى المطر! ... خفت يا ثامر .. كنت خايفة أموت قبل لا أشوف خالي ... "

كانت تتكلم وصوتها ينهار أكثر، وكأن الرعب الذي عاشته يعود لها مجددًا، كان يسمعها والذهول يغطيه .. تضيع الكلمات من فمه، المطر؟ فقط كانت تريد أن ترى المطر؟ .. يغمض عينيه بشدة يحاول طرد الوجع الذي حلّ عليه لأجلها، يفتحها مجددًا بسرعة ولا يزال ذهوله :" بس وش صار رغد؟ شلون ما رجعتِ؟ "

تمسح عينها التي غطاها البكاء :" الباب تقفل .. ما قدرت أدخل الشقة"

تتسع عيناه :" بس رغد أنا جيت والشقة مفتوحة! "

تهز رأسها إيجابًا بضعف :" تقفل الباب وأنا نازلة .. يوم جيت برجع المفتاح مو معي، الباب يا ثامر حتى وقفله مفتوح ما يفتح إلا بمفتاح أو من داخل ... ثامر، غيّره اليوم تكفى"

يحاول استيعاب الأمر، ليطلق تنهيدة حسرة وهو يستوعب .. القفل الحديدي الآمن الذي شدد عليه خالد وهو في سجنه خوفًا عليها .. هو من ركبه، لا يزال يذكر ذلك اليوم وهو يغيّر الأقفال العادية إلى هذا القفل اللعين .. قفل وإن كان مفتوحًا لا يُفتح إلا من الداخل أو من خلال المفتاح نفسه .. قفل لا يُستخدم للشقق، لكن .. خوف خالد وقلقه يوقعانها بما هو أشد، دائمًا خالد هكذا .. يخاف من أمور كبيرة ليأخذ حذره متناسيًا أمورًا أصغر تقتلها أكثر..

تتابع بإنهاك :" كنت مبللة، أبي أرجع البيت أدفى .. بس .. حتى البيت ما يبيني، حاولت .. بس ما قدرت، كنت خايفة أجلس عند الباب وحدي بالليل .. كنت خايفة أطلع السطح وأنام فيه.. وكنت أبي أنتظرك .. أقول كل شوي ثامر بيجي .. بس ما جيت! .. نزلت للمسجد .. كان يخوف بالليل.. كان كل شي يخوف.. بس طلع الفجر رحت أطوف أدور على شخص

يسلفني جواله .. بس كنت خايفة من الرجال .. انت وخالي حذرتوني ما أطالع بأحد .. ولا أسمح لأحد يقرب مني .. وكنت أمني نفسي بجيتك، أحسب الدقايق وأقول ثامر بيجي الحين .. كنت أمشي حافية لين تجرحت رجولي.. كنت أغفى وأنا واقفة .. وكنت جوعانة .. ما لقيت غير المسكينة اللي عند الإشارة، ترجيتها آكل من عندها وسمحت لي .. تصدقوا علينا عند الإشارة كثير .. بس كانت تاخذها مني وتعطيني شوي، كانت أحن شخص علي .. تعبت مني وسمحت لي بجوالها، بس كانت تحسب لي للعشرة وتسحبه مني .. كنت ما ترد .. وأنا ما أحفظ إلا رقمك .. لين رحمتني بالأخير .. "

كان يسمعها ووجهه يذبل أكثر مع ذبول صوتها وانخناقه، تضيق عيناه .. تلمع، ترتفع كفه لتضم أصابعها المرتجفة، يشد عليها .. يزم شفتيه ليطلق زفرة حارة .. تتشابك عيناه بعينيها طويلًا، تحكي بقية وجعها .. لتغفو مجددًا، تتركه في مكانه يصارع إحساسه بالذنب.. ما الذي فعلته رغد حتى تستحق كل هذا العذاب؟ هل بطش والدها وإراقته لدماء الأبرياء وتيتيمه للرضع هو النقمة التي حلت عليها؟ هل هي دعوة أم مظلومة ثكلى؟ هل هي قهر رجل ضعيف؟ أو أن

أخطاء خالها تلاحقها؟ هل هو ذنبها وحدها؟ ذنبها أن تولد في هذا الضياع؟

يدني رأسه منها، يضعه بجانب كتفها .. يضم هذا اليوم لأيام كثيرة سيحذر رغد من أن تفشي بها أمام خالد إن عاد.. يغفو بوضعيته بجانبها، يصله صوت همهمتها ليفز سريعًا .. كانت تتحرك بانزعاج، تُزيح اللحاف عنها وتهمهم .. كان وجهها مبللًا بالعرق، يرفع كفه لجبينها ليتحسس حرارته التي انخفضت، يقف ويُبعد اللحاف عنها .. كانت لا تزال بعباءتها، يحملها على ذراعيه إلى سريرها .. تغوص في مخدتها وكأنها وجدت ملاذها، يُغلق الإضاءة ليخرج إلى ذات مقعدها تاركًا الباب مفتوحًا .. يشعر بحرارته التي امتصت حرارة جسدها، يستند عليه بضياع .. تسقط عينه على الساعة المعلقة فوق شاشة التلفاز .. يزفر بضيق مستوعبًا الوقت الذي أمضاه بجوارها، تجاوزت الساعة الثالثة ظهرًا .. يتذكر صلاته، يقف مسرعًا ليتوضأ قبل دخول العصر، يصلي لله .. يدعو لها كثيرًا، يدعو الله أن يخفف عنها ألمها .. أن يدله على طريق إعانتها .. ألا يكون سببًا من أسباب بكائها وضياعها.

يتنهي من الصلاة ليعود إلى مقعده مجددًا، يجهل ما يفعله .. سينتظرها حتى يطمئن، يُخرج هاتفه .. يهز رأسه بضيق من مكالمات مديره، لن تفيد الأعذار ..

يمضي الوقت، يُشغل نفسه بتحضير وجبة خفيفة لها في حال استيقاظها .. يقطع السكون الطويل صوت هاتف، يعقد حاجبيه باستغراب .. ليس هاتفه!

يترك مافي يده ليخرج من المطبخ متتبعًا صوت الرنين .. يوصله الصوت إلى غرفتها المفتوحة، ليُدرك أنه هاتفها! ، من يتصل عليها؟ هل هو خالد من سجنه؟ هل وصله أنينها؟

يمشي بهدوء لئلا تستيقظ، يسحب الهاتف المرمي في نفس مكانه قبل أن يغادر .. تتسع أحداقه غير مستوعب وهو يقرأ (عبدالله) ، عبدالله؟ من هذا؟ من يكون ليعرف رقم هاتفها؟ بل وتسجل هي رقمه؟

يخرج من الغرفة وأسئلة كثير تثار في عقله، يُغلق باب غرفتها .. يرفع هاتفها دون تردد ليضغط العلامة الخضراء .. يضعه على أذنه بإصغاء شديد، يداهمه الصوت الرجولي :" انتِ وينك؟ أقلقتيني! "

يشعر بنيرانٍ تتأجج داخله، يشد على الهاتف بين يديه ..
يعود الصوت مجددًا هامسًا بقلق :" رغد؟ .. أنتِ بخير؟ ... زعلانة عيني؟ "

لم يعد يسمع، كلمته الأخيرة ألقته في بركان سحيق .. تشتعل النيران داخله، يوشك لسانه على رمي أبشع الكلمات .. يُمسكها ويلملمها، يغلق الخط والحنان الذي كان يغرق فيه قبل المكالمة يتحول لنار كبرى .. عبدالله؟ يُمسك الهاتف بين يديه يتأمله .. يود لو يكسره حتى يتمكن من الدخول إليه، ماذا تخبئ فيه أكثر؟ من أين ظهر هذا عبدالله فجأة؟ (عيني)؟ عينه رغد؟ هل هو كذلك عينكِ يا رغد؟

يشعر بدخان يتصاعد داخله ويخنقه، يهمّ سريعًا ويفتح باب غرفتها بغضب جامح .. يسير بخطوات سريعة إلى سريرها، تُمسك يده اللحاف ينوي إزاحته .. لتتوقف يده فجأة، يستوعب ما حصل .. وجهها المتعب، قدميها الملفوفة .. كل ما حصل، يزفر بشدة وضيق .. ماذا فعلتِ يا رغد؟ يجلس بتعب على كرسيها بجانب السرير، يتأمل ملامحها .. هل تُخفي هذه البراءة ما هو أشد؟ بماذا تكذب عليه أكثر؟ من تُخفي في حياتها؟ كيف تعرفت على هذا المدعو عبدالله؟

وهو الذي كان يظنها لا تعرف أحدًا سواه وخالها.. هل هذه الجدران والباب المغلق لم يمنعانها من ممارسات صبيانية؟ التسلي مع شاب غريب؟ يفتح عينيه وطارئ سيء يزوره .. ماذا لو كانت تلك كذبة؟ خروجها وضياعها ليومين .. يحرك رأسه يطرد الوهم المخيف وهو يمسك رأسه، لا ليست رغد .. لن يسمح للظنون السيئة أن تسيطر أكثر عليه.

يقف مسرعًا يهرب منها ومن الغرفة .. يشم رائحة احتراق طعام، يذكر ما كان يشغله قبل تلك المكالمة الكارثة .. يُطفئ النار ليخرج من الشقة، يحتاج أن يتنفس، يعيد حساباته .. يُرتب ما سيقوله لها، كيف يتمكّن من سحب الاعترافات من فمها، كيف سيصدقها؟

يسير على قدميه بضياع، يقف فجأة وهو يرى ذات المرأة الأجنبية المتسولة، من أنقذتها .. تلك التي كانت أرحم عليها منه كما تقول! .. يتذكر فجأة آخر مرة رآها بعدما أعاد رغد من السوق، تصدق عليها بقليل من المال .. وها هي صدقته تُظهر نتائجها سريعًا لتكون المنقذ لرغد، ينقل خطواته إليها، يسير ببطء .. ترفع رأسها وهي تمد كفها بتلقائية، يُخرج محفظته .. يستخرج كل النقود منها ليمدها إليها دون أن يرى.

يسير كثيرًا على قدميه، يبتعد منها .. وكل الطرق تؤدي إليها، إلى وجهها المطبوع في عينيه.. لا مفر منها

•

ينتهي من اغتساله، يخرج ليجفف شعره .. خمول شديد يتسلل إليه، لا يرى غير سريره الذي يناديه بدفء .. يرتدي بجامته ليرتمي على سريره متدثرًا ببطانية ثقيلة، يسحب هاتفه ليقرّبه من وجهه .. يعقد حاجبيه وهو يرى المكالمة الفائتة (بنت الصحراء)! .. ماذا تريد؟ أول مرة يصله اتصال منها، حتى أنه نسي رقمها المسجل في هاتفه منذ مدة طويلة، قبل أن يعرف أن فتاة الصحراء ليست إلا (هديل).

تمر دقائق وهو لا يزال ينظر إلى الشاشة بحيرة وتساؤل، يخمّن السبب الذي يجعلها تتصل عليه.. يقطع حبل استغرابه وهو يقرر أن يعرف بنفسه السبب، يرفع الهاتف

إلى أذنه بعدما اتصل وهو يضم بطانيته حتى لا يتسلل الهواء البارد من يده.. طال انتظاره، يبدو أنها لا ترغب في الرد .. قد يكون والدها قربها، سيذبحه مباشرة إن سمع صوته!

يفقد الأمل، يقرر قطع الاتصال .. وما أن حرّك كفه يُبعد الهاتف وصله صوتها هامسًا مضطربًا :" هلا "

يتنهد براحة لردها :" أهلين .. "

يصمت، تصمت هي بالمقابل .. لحظة صمت طويلة يقطعها مستدركًا :" امممممم .. دقيتِ علي؟ "

يعود صوتها بضحكة توتر :" اا أنا؟ .. لا، ايه .. "

يعقد حاجبيه :" لا ولا ايه؟ حددي موقفك"

عندما لم يجد منها جوابًا يتابع :" في مكالمة بجوالي من بنت الصحراء .. هذا يلغي الخيار الأول (لا)، يعني مافيه إلا الخيار الثاني (ايه) "

يصل صوتها الهامس :" بنت الصحراء؟ - تضحك بخفة - وش هالاسم! "

تسأله وهو يجهل الجواب، يعقد حاجبيه بتفكير وكأنه للتو يستوعب لقبها الذي أطلقه عليها :" ما أدري والله. ..بس لا تصرفين الموضوع، دقيتِ؟ "

تتنهد باستسلام :" ايه .. "

يعود صوته جادًا :" ما كنت حول الجوال، آمري .."

يكاد يشعر بابتسامتها من صوتها خلف السماعة :" الله! آمري؟ "

يرفع حاجبه باستغراب .. يزم شفته وهو يسمعها تتابع :" أول مرة أسمعها من صوت غير صوت أبوي"

يعود صوته :" آهااا فهمت الحين، نسيت إن كل السعوديين وحوش آكلة لحوم ولهالسبب ما تعرفين أحد ولا قد سمعتِ كلمة بديهية مثلها! "

تضحك على تعليقه الذي يردده دائمًا :" على فكرة أحب أفلام الزومبي وآكلي اللحوم - بمجاراة وبنفس نبرته - بس خسارة ما قد شفت زومبي سعودي، انت قد شفت؟"

يبتسم، يتمدد براحة على سريره :" ايه.. واحد كان يعيش معنا بالبيت، تخيلي! "

تضحك بمرح وكأنها تسمع نكتة جديدة :" هههههه مين هو؟ "

" أخوي ثامر.. "

تعقد حاجبيها :" امممم الرسام ولا الثاني؟ "

" الرسام .، الثاني عنده اسم .. نجد"

يرق صوتها :" اسمه حلو.. "

يزم شفته قليلًا مستشعرًا الحدود التي بدأت تنهار، ليعود مجددًا إلى صلب الموضوع:" ما قلتِ وش تبين، في شي؟ "

تتنهد بضيق :" بالغلط، آسفة"

يربكها بإصراره :" هديل في شي؟"

تنطق بضيق شديد وكأنها كانت تنتظر هذا الإصرار :" أمي شافتني معك اليوم "

يصمت .. لا يُعلق، تتابع :" تهاوشنا أنا وياها بعد ما رجعنا .. مسكتني تحقيق! - تزفر - يالله ما أعرف وين المشكلة الكبيرة؟ "

يأتي صوته هادئًا :" هذي مشكلة بأعرافنا هديل يمكن ما تتصورينها لأنك ما عشتِ عندنا"

" بس وش هالتفرقة والحدود بين شخص عربي وشخص أجنبي! .. مو كلهم رجال في النهاية؟ "

" الفرق اللي يخاف عليك منه أبوك إن عادتنا الرجل ما تربطه أي صلة بأي أنثى غير محارمه .. وفجأة إذا اصطدم بأنثى غريبة ممكن تحصل كوارث"

تعقد حاجبيها باستفهام :" صارت كوارث؟ ما صار شي! "

يصمت .. لا قدرة له على الشرح، تتابع :" هالموضوع ما كان يضايقني هالكثر .. بس .. بعد ما عرفتك، عرفت إنك إنسان نفسه نفس أي شخص، ممكن يختلف الموضوع بنقطة وحدة .. تقدر تفهمني، أقدر أحكي لك مشكلة أبوي وتتفهم .. صديقاتي اللي هنا مستحيل يتفهمون لو جيت أفضفض لهم، طبيعتهم ما تستوعب عاداتنا وتقاليدنا"

يعود صوته أخيرًا بهدوء :" ونقطة ثانية .. انتِ تعرفين إن مكالمتك هذي معي تعتبر جريمة لو كنت ببيتنا؟ "

يصله صوت زفرتها المرتفعة، يتابع :" هالشي أساسي عندنا، مافي شي يبرر مكالمة صغيرة بين رجال وبنت إلا ممكن في حدود الشغل ومواضيع رسمية .. لذلك تفهمي أمك وأبوك"

تهز رأسها نفيًا :" مستحيل أستوعب يوسف"

يبتسم :" تدرين مرة صارت مشكلة كبيرة ببيتنا لسبب صغير مثل هذا .. على أيام الماسنجر أمي كشفت أخوي ثامر يكلم بنات، يالله لو تشوفين صدمتها وزعلها منه.. - يضحك بخفة متذكرًا ذلك اليوم - كانت بتوصل الموضوع لأبوي! .. عرفتِ الفرق الحين؟ "

تبهت .. تستوعب ما يقوله :" معقول! "

لا تزال ضحكته عالقة :" ايه معقول .. بس هذا زمان، الحين خفّ الموضوع شوي، لكن ما زالت هالحدود اللي ما يتجرأ عليها أحد"

تتنهد بضيق، كانت ترجو أن يخفف عنها ويقف معها.. يتابع :" بس تعرفين؟ .. - يتردد قليلًا - امممم تتقبلين النقد لأهلك؟ "

تهز رأسها سريعًا وكأنه يراها :" ايه عادي .. قول"

يزم شفته.. :" نوعية أبوك وتربيته سيئة جدًا "

تقاطعه سريعًا :" لا يوسف .. لا تظن أهلي سيئين من كلامي، صدقني هم أعظم أبوين ممكن يلقاهم أي شخص، بس هي نقطة مضايقتني وماعندي غيرك ممكن يفهمني"

ينطق بسخرية :" ايه طبعًا بتدافعين عنهم، لكن في نقطة أنتِ جاهلتها .. نوعية الشخص اللي يهاجر برى، يتطبع بطباع أهل البلد.. بس تبقى حدوده التقليدية موجهة لفئة معينة، هالفئة جدًا كريهة مع احترامي لك ولأهلك"

يشعر بصوتها الذي ينذر عن غضب شديد تتمالكه :" أبوي خاصة .. مستحيل تصادف أب بحنيته وخوفه وقربه من أبناءه، لا تحكم عليه وانت ما تعرفه.. بس ممكن ناس مثلك يشوفونه كريه لأن نظرتهم قاصرة"

يعتدل بجلسته، ينطق بنبرة ضاحكة :" شفتِ كيف ما تقدرين تناقشين بطريقة صحيحة؟ أنا أتكلم عن طريقة تفكير أبوك ما طريت علاقته معـ..... "

يقطع كلمته بدهشة وهو يسمع صوت انقطاع الخط، يُبعد الهاتف عن أذنه ليتأكد من إغلاقها للخط، تتسع عيناه من انقلاب حالها المفاجئ.. هل ما قاله يثير الغضب لهذه الدرجة؟

يعود مرتميًا على سريره، تمر مكالمتها مجددًا إلى أذنه .. يعقد حاجبيه بضيق من انقلاب حاله، منذ متى يتحدث بهذه الانسيابية مع شخص غريب؟ وهل هي غريبة؟ .. يغمض عينيه مسترجعًا جميع مواقفه معها، لماذا يشعر بألفة كبيرة تشده نحوها؟ يدرك جيدًا أنها تمتاز بهالة خاصة يميزها حتى الغريب .. لكن ليس هو! ليس وهو الذي اعتاد على الصمت .. لماذا يحكي لها عن عائلته؟ حتى باتت تعرف أخويه .. لم يحظَ طوال حياته بصديق مقرب، نجد وحده من كان صديقه .. كيف تجاوز شعور الألفة الذي خطّه وحدده في عائلته وخصوصًا نجد ليسمح لغيره بدخولها؟، كيف استطاعت تغييره؟

يُجافيه النوم، يغرق في تفكيره .. يُحاول إنكار وصد ما يولد داخله، يقاطع تفكيره صوت نغمة الرسائل .. يحمل هاتفه ليقفز معتدلًا بجلسته وهو يرى اسمها .. يقرأ بعقدة حاجبيه وتقوس فمه بابتسامة صغيرة (آسفة لأني دقيت عليك، ما أعرف وش السبب كنت محتاجة شخص يفهمني بس اكتشفت مافي غير الأب ممكن يفهم بنته .. وعلى فكرة مو آسفة لأني قفلت الخط بوجهك)

تتسلل ضحكته على جملتها الأخيرة التي تصف غضبها منه، يكتب ... ليمسح ما كتبه وشعور الغرابة يتجدد بداخله، يزفر بضيق ليرمي هاتفه بجانبه .. يرفعه مجددًا، يتأمل اسمها .. صورتها على الواتس آب، تقف هي ويقف خلفها والدها محتضنًا كتفيها بين ذراعيه.. لتصله رسالة مفاجئة مجددًا (ماتبي ترد؟)

يكتب أخيرًا ويرسلها مسرعًا قبل أن يغير رأيه (وش أقول مثلًا؟)

يصله ردها مسرعًا (تعتذر عن كلامك على أبوي)

يكتب حرفين توأمين ويكتفي بهما (لا)

تتأخر في الرد، يرى إشارة (يكتب الآن ..) تظهر وتختفي، وكأنها تصارع ما تود قوله..أو تحاول جمع شتائم تليق بمن

يمسّ والدها الذي تعشقه، تزيد انتظاره حتى ظنها لا تنوي الرد .. يكتب منهيًا الحديث ومنهيًا معها الشعور الغريب
(عمومًا لا تسببين مشاكل بينك وأمك لأسباب تافهة، أنا طالع من المركز .. انتهت حاجتي منه، بالتوفيق)

يرمي هاتفه بعيدًا .. يغلق عينيه يستنجد النوم طاردًا مشاعره الغريبة بعيدًا، قرار خروجه من المركز اتخذه قبل يومين .. يعلم أنه تجاوز كل الماضي، لم يعد بحاجة لمراجعات تقويه .. كل ما يحتاجه هو الفرار من نفسه الجديدة التي شكلتها هي، الفرار منها تحديدًا

-

يُفتح الباب ليظهر ناصر من خلفه، يبتسم مرحبًا بهما .. تسري الطمأنينة لقلب نجد وهو يرى صفاء الود بين أبيه وخاله، يعلم جيدًا مقدار الحب الذي يكنانه لبعضهما، قدرهما لبعض تجاوز قدر الأخوة وإن عكّرها تفكير ناصر.

يسير نجد متجهًا إلى آلة الشواء في الطرف الآخر من الباحة الصغيرة، يأخذ الأسياخ من خاله ليبدأ بشوي

الكباب، يسمع أحاديثهم وضحكاتهم.. يُخرج هاتفه من جيبه ليكتب لثامر رسالة يدعوه للعشاء، يأتي رده بعد دقائق (تعبان وبنام الحين، مرة ثانية إن شاء الله)

يكتب رسالة أخرى لتلك التي سلبت عقله (ودك بمشاوي؟)

يلتقط صورة لأسياخ الكباب التي يشويها ليرسلها إليها، يأتي ردها سريعًا (الله اشتهيت .. مافي أحد يرفض عشاء مغري مثله)

تتسع ابتسامته، يترك هاتفه جانبًا وصوت خاله يصله من خلفه :" أفااااا! "

يلتفت إليه مسرعًا لتبهت ملامحه وهو يرى الميدالية التي بين يدي خاله، يرفع حاجبه بخبث ناصر وهو يحركها أمامه :" اعترف، من أي بنت جاتك هالهدية؟ "

يزدرد ريقه، يستوعب جنونه الذي جعله يتباهى بالميدالية الأنثوية .. يحك جبينه عائدًا إلى اللحم متظاهرًا باللامبالاة :" لقافتك يا خالي من مين ورثتها؟ "

يضحك ناصر وهو يتقدم إليه ولا تزال ميدالية زهرة الخزامى معه :" عاد الحين انت مو مراهق نعذرك .. - يغمز له بهمس - علمني بس مين هي؟ "

يرفع حاجبه متظاهرًا بالمزاح :" أسرار عاطفية ما نطلعها على فضوليين مثلك"

يضحك ناصر، وهو يرمي له الميدالية ليُمسكها نجد بخشية من النار .. يلمح والده يخرج من المدخل بعدما كان في دورة المياه، يسمع خاله ينطق بمرح :" ايه يا ياسر، كبرت وصاروا عيالك يدورون الجنس الناعم يسليهم عنك"

تنتقل عينا ياسر لولده نجد، يبتسم .. هو ليس بحاجة لأن يخبره ناصر بما يدور في خُلد نجد، يستطيع قراءة عينيه برفة رمش، يُدرك فرحه وحزنه .. يتركه حتى يأتي ليلًا يفرّغ مافي قلبه في جوف أبيه، دون خجل .. كما فعل ليلة الأمس وهو يحكي لأبيه بهيام وحب كبيرين عن شعوره الذي بات يكبر كل لحظة اتجاه اليمامة، ورغبته الكبيرة في أن يجدد طلبه ليدها..

يتقدم ياسر ويجلس في الجلسة الأرضية :" الله يهنيه، أبركها من ساعة .. باقي بس انت تفكنا منك وتدور لك بنت الحلال"

يجلس ناصر بقربه، يقطَّع السلطة وبذات النبرة :" لا تخاف علي، مكتفي بنفسي"

يعود نجد إلى ما يشغله، يتذكر في هذه اللحظة أخاه يوسف.. يتذكر أيام الإجازات التي يسمح لهم ياسر بالمبيت في بيت ناصر، وكيف كان يقف خاله في مكانه هذا يشوي لهما البطاط والذرة .. لم يكن هناك ما هو ألذ عند يوسف من ذرة خاله، كبر يوسف .. ماعاد ذاك الذي يتشوق لأيام الأربعاء، لا يتشوق إلا لغرفته وعزلته .. يزفر بضيق نجد وهو يذكر مكالمته الأخيرة ليوسف، قراره بترك المركز .. يلحظ تغيره، حتى عينيه لم تعد تلك العينان الذابلة، صوته أصبح أكثر ثقة .. لكن لا يُمكنه الوثوق بصور وأصوات تخرج من شاشة صغيرة .. لا يُمكنه الاطمئنان حتى يراه، يتحسس يديه .. يرى لمعة عينيه، ينتظر بفارغ الصبر انتهاء الفصل الدراسي لسببين.. ليطير إلى يوسف ويطمئن، وليقطع شوطًا معها.. ويوثّق رباطها به .. يومهما الأخير في الحديقة ولد فيه شعورًا بالإيمان بنفسه، لن ترفضه .. يكاد يجزم بهذا.

ينتهي من الشوي، يفصل بضع أسياخ ليخبئها .. وما أن انتهى من عشائه يقف مسرعًا ليحملها، يأتيه صوت والده مستنكرًا :" على وين؟ "

ينطق وهو يلبس حذائه :" بوصل العشاء لثامر ويمام قبل لا ينامون"

يخرج مسرعًا دون أن يلاحظ نظرة أبيه، يقود سيارته إلى منزلهما .. كلما اقترب زاد اشتعاله، يعلم أن ثامر نائم الآن .. لا أحد سواها سيفتح الباب.

يتصل عليها ليصل صوتها :" هلا نجد"

يخرج من سيارته حاملًا العشاء :" افتحي الباب .. الكباب ينتظرك"

يشعر بصوتها المنحرج :" يوه نجد، ما كان كلفت على نفسك "

يبتسم وهو يتأمل الباب :" مافي كلافة يمام "

تغلق الخط ليسمع صوت عجلاتها، صوتٌ يعشقه .. يجعل قلبه يرفرف، يتراءى له ظلالها .. تقترب من الباب لتفتحه قليلًا، تخطو خطاه للداخل .. يضطرب قلبه وهو يراها تجلس على كرسيها متلحفة برداء الصلاة، تُغطي نصف وجهها .. يقترب ويدنو منها، تتلقى الطبق ليتحرر وجهها ويكشف ستره.

يتدفق الدم من قلبه بشدة ووجهها الذي عهده ينكشف .. مرت فترة طويلة عن آخر مرة روى ضمأ عينيه بوجهها

الفاتن، يرتبك وترتبك أكثر .. كادت توقع الطبق لو لا أنه أمسك به بسرعة يثبته على قدميها :" انتبهي"

تلملم ما يحجب معظم وجهها عنه ووجهها يتفجر بحرارة، تُرجع كرسيها إلى الخلف قليلًا بتوتر، يحاول تبديد إحراج الموقف بسؤال غبي يخرج منه :" ثامر موجود؟ "

تهز رأسها نفيًا دون تعليق .. يزم شفته، توتره غيّب عنه كذبة ثامر وتهربه، يهز رأسه وهو يُمسك الباب :" إذا احتجتِ شي دقي علي"

يخرج لتغلق الباب خلفه .. تُزيح حجابها وهي تتنفس بعمق وترفرف بكفها أمام وجهها :" ياللله"

تعض شفتها وهي تسترجع ما حصل، دائمًا نجد سيد المواقف الصعبة! .. تتحرك عائدة للداخل وطبق العشاء على فخذها، تأكل ومع كل لقمة تعض أصبعها وتوبخ نفسها.. تسمع انفتاح الباب، يظهر ثامر بوجه شاحب .. تطرد هاجس نجد لتنطق :" ثامر .."

تعقد حاجبيها بضيق وهو يمر أمام المطبخ ويتجاوزها، يبدو في مزاج سيء وشارد الذهن .. تسمع صوت انفتاح غرفته، تُنهي قطعة الكباب لتتحرك نحو باب غرفته المفتوح.. تطرق الباب بخفة وعيناها تبحث عنه، يصلها

صوت انسكاب الماء لتدرك أنه في الحمام .. تنوي المغادرة، لكن تقع أنظارها على هاتف غريب .. ليس له، تعقد حاجبيها بفضول.. تحرك كرسيها إلى سريره حيث الهاتف والمفاتيح، تُمسك بالهاتف لتزفر بضيق كبير وخلفيته تظهر لها .. هل عاد إلى غموضه؟ ماذا يُخفي .. الخلفية تنبئ أن الهاتف ليس إلا لأنثى، رغم سوادها وكآبتها إلا أن ملامح الطفلة الصغيرة المبتورة تحكي قصة وجع (فتاة) وليس ذكر.

تترك الهاتف بسرعة للتراجع إلى الخلف وصوت الماء يختفي، تعود إلى الصالة .. يخرج بعد دقيقة من الحمام، تتنظر قليلًا لتنادي :" ثامر .. أدخل؟ "

يصل صوته ضيقًا :" ادخلي"

تتقدم قليلًا قرب الباب، كان يجفف شعره بالمنشفة الصغيرة مرتديًا ملابسه .. :" تبي عشاء؟ "

يهز رأسه نفيًا، تتردد .. لكن تُخرجها بصوتٍ قلق :" بخير ثامر؟ "

يلتفت إليها، تظهر لها ملامح التعب والضيق الشديدين .. يزفر بقوة هازًا رأسه :" بخير .. بس بنام"

تتركه كما يرغب، تعود إلى المطبخ ترتب ما عبثت به.. تعود إلى غرفتها، تمسك اللاب توب لتكمل ما كانت تبحث عنه

قبل ظهور نجد .. ينتصف الليل ويأخذها الوقت دون أن تدرك، تعقد حاجبيها بخوف وصوت خطوات يصلها من النافذة.. تقترب منها بهدوء لتزيح الستار .. تتنفس براحة وهي ترى ثامر يجلس على عتبات الدرج الداخلي، يدخن بشراهة .. عادة سيئة اعتادوها منه جميعًا.

يؤلمها قلبها لحاله، تجهل ما علته .. وكيف يمكن أن تخفف عنه، كل ما تدركه أن عيناه تحكي وجعًا وحيرة ..

*•

أيا كاهنَ الحيِّ
هَلْ في كتابِكَ مِن نَبإِ القومِ إذْ عَطَّلُوا
البيدَ واتَّبَعُوا نَجمةَ الصُّبحِ
مَرُّوا خفافاً على الرملِ

يَنْتَعِلُونَ الوجَى
أسفرُوا عَن وجوهٍ مِنَ الآلِ
واكتَحلُوا بالدُّجَى
نظروا نظرةً
فَامْتَطَى غَلَسُ التِّيهِ ظَعْنَهُمُ
والرياحُ مواتيةٌ للسفرْ
والمدى غربةٌ ومطرْ
سيد البيد

*•

الورقة التاسعة

•

تستيقظ باكرًا، تعقد حاجبيها تحاول استرجاع ما حصل .. تفز مسرعة مستوعبة أنها في غرفتها وعلى سريرها، ذاك الكابوس انتهى بكل ما فيه .. عادت أخيرًا إلى معتكفها بعدما ظنت أنها ستودعه للأبد، تُزيح اللحاف .. تعقد حاجبيها بضيق وألم أقدامها يتسلل لجسدها، تعلّق أنظارها على قدميها .. ملفوفة بشاش طبي، تبتسم بنعومة ويدها تمسح برفق على الشاش.. نعم ثامر، لا أحد سواه ..

تقف بصعوبة على أقدامها، ترغب وبشدة أن تغتسل .. تمحو آثار ضياعها، تستوعب أنها لا تزال بعباءتها المتسخة بالغبار.. تخلعها لتحمد الله أنها كانت بالعباءة .. بنطال جينز وقطعة خفيفة تغطي أعلى جسدها كاشفة عن كتفيها العارية، تغلق الباب .. تخلع بدلتها لترتدي قميصًا طويلًا يدفئها ويسترها ..

تخرج بهدوء :" ثامر؟؟ "

لا رد، تدرك أنه خرج من الشقة .. تتجه إلى المطبخ لتعبأ كوب الماء، ترتوي كثيرًا .. وكأنها لأول مرة تتذوق الماء، تلمح القدر على الموقد والبصل والطمام المقطعان على جانب الطاولة .. منظر يشي بأن هناك طبخة كانت تُعد ولم تكمل، تبتسم وذكرى الماضي تطوف حولها .. كان ثامر كثيرًا ما يطبخ هو الغداء، عندما كانت لا تتجاوز الثامنة عشر .. يُتقن الطبخ، اعتاد على عزوبيته التي فرضت عليه تعلم طبخ أنواع الطعام ..

تخرج من المطبخ لتتجه إلى الحمام، تغتسل وتغمر نفسها بالمياه.. تجدد نشاطها، تخرج وتجفف شعرها القصير.. تسقط أنظارها على ورقة بيضاء تنتشر فيها خطوط الرصاص بأشكال هندسية، تزفر وهي تذكره .. طلب منها رسمه لتحاول تخطيط ملامحه على الورقة .. تبتر رسمتها على مكالمته الأخيرة واقتراحه الأخير، اقتراح انتحاري!

لو علم ما حصل لها سيجن جنونه وسيصر على فكرته ويُلقي اللوم على ثامر وحتى خالد، لذلك تستبعد فكرة إخباره بما حصل.. تترك المجفف لتبحث عن هاتفها، تنوي تفقد المكالمات .. هل افتقدها؟ أم ما زال غاضبًا؟

تزفر بقوة وهي لا تجده، تشتم فوضى غرفتها لأول مرة ..
تبحث في المطبخ والصالة.. تتجه إلى المجلس، خالٍ إلا من
مقعدين والكثير من اللوحات التي تعود معظمها لخالد ..
تيأس من إيجاده، تجلس بتعب على المقعد وهي تتفقد
قدمها التي أتعبتها، يصلها صوت طرقات الباب.. تنطق
بصوتٍ عال :" ادخل ثامر"

تعود ببصرها إلى قدمها، تشعر بظله يتسلل لها ليغطيها ..
ترفع رأسها مبتسمة، لتختفي الابتسامة وتحل محلها عقدة
حاجبيها ووجهه المتجهم يظهر لها، تُنزل قدمها ببطء لتبتسم
مجددًا بعقدة حاجبيها :" السلام عليكم .."

يطيل نظره في عينيها، تضيق عيناها .. تحاول قراءة ما
يدور فيه، تقف لترفع رأسها كثيرًا كي تتسنى لها رؤية عينيه:"
في شي ثامر؟ "

لا يزال جامدًا في مكانه، يقطع اتصال نظراتهما بزفرة
متراجعًا للخلف .. يجلس على المقعد المقابل ولا تزال نظرته
الغريبة تغطيه، يهمس :" لا "

تتنهد بضيق لتعود وتُبعد مجموعة لوحات ملقاة على
الأرض :" لا تنسى تغير القفل"

يهز رأسه إيجابًا دون أن ينطق، يراها تحمل لوحة أخرى وتبعدها .. يخرج صوته باردًا :" تدورين على شي؟ "

تقف بتنهيدة كبيرة :" جوالي ضايع، تعبت وأنا أدوره بكل مكان .. "

لا تلتقط نظرته المتفحصة، تنشغل بالبحث وهي تتابع :" لا يكون بس ضيعته برى وأنا مدري .. - تلتفت إليه - انت شفته معي يوم رجعنا الشقة؟ "

يثبت عينيه بعينيها مطولًا، يُدخل يده في جيبه ولا تزال نظرته موجهة إليها .. يُخرج هاتفها من جيبه لتشهق بفرحة وهي تُمد يدها تنوي سحبه :" جوال....."

تبتر كلمتها بعقدة حاجبيها وهي تراه يضم الهاتف مجددًا بين أصابعه ويُبعده عنها، تنطق باستنكار :" ثامر! "

يزم شفتيه، يحاول تمالك نفسه .. ينطق بهدوء :" اجلسي رغد"

تجلس على المقعد أمامه وتمد يدها :" جلست .. ممكن الحين تعطيني جوالي؟ "

يزفر بقوة، يفرك عينيه بيده .. ليعود لها مجددًا ويفجّرها دون مقدمات تعب وهو يجهّزها منذ البارحة :" رغد مين عبدالله؟ "

تهت، تتسع عيناها .. تشعر بنار حارقة تتفجر داخلها، يراقب تغير ملامحها عن كثب.. تؤكد شكوكه وهو يراها تتلعثم وتُشبك كفيها بتوتر، تحاول نطق أي شيء.. لكن مفاجأته هذه لم تسمح لها بترتيب الكلمات، يزفر بقوة .. ينطق بذات النبرة :" من وين تعرفينه رغد؟ "

تمرر أصابعها بين شعرها الرطب، تزم شفتها وهي تشتت أنظارها عنه .. تعود مجددًا لتُلقي عليه نظرة، لا يزال ينظر إليها منتظرًا جوابها .. تزدرد ريقها وهي تعلم أن لا مفر منه :" امممم من تويتر"

تتسع عيناه، تقولها بكل براءة! .. تنفرج شفته عن ابتسامة ساخرة غاضبة، يهز رأسه بقلة صبر .. ليعود مجددًا :" رغد عارفة وش تسوين؟ "

تشعر بخجل كبير وهي تُكشف أمامه، تُنزل رأسها ليتابع :" رغد ! طالعيني"

ترفع رأسها على مضض، يحاول تمالك نفسه .. يشبك كفيه ببعضهما :" يحبك؟ "

تفجرت الدماء في وجهها، ثامر ليس بوعيه .. تحك حاجبها بإصبعها بتوتر على صوته المُصر :" قالك يحبك يا رغد؟ "

تهز رأسها إيجابًا باستسلام، تلمح النار المتأججة داخله وكيف يحاول جاهدًا إخمادها .. ينطق مشددًا حروفه :" كذّاب "

تؤمن في داخلها بصدق عبدالله، لا تحتاج لثامر الذي يجهله ليكذّبه .. يتابع :" تحبينه؟ "

تحترق في مكانها، لا ليس ثامر الذي يجب عليه طرح هذا السؤال تحديدًا! تزفر بحرارة وعيناها تضيع في كل مكان إلا عيناه .. يعود صوته هادئًا :" رغد.. اعتبريني صديقك، اعتبريني ...- يبحث عن كلمة مناسبة لينطق بسرعة - اعتبريني ثامر القديم! .. مو كنتِ تقولين لي كل شي؟ "

ترفع عينها لعينيه، تبحث فيها عن ثامر القديم الذي يتحدث عنه الآن .. هل أدرك أخيرًا المسافات التي باتت تكبر بينهما يومًا بعد يوم؟ ثامر الذي كان يقضي وقتًا طويلًا معها .. يشاركها حياته، يحكي لها عن عائلته .. تتراهن معه على نهايات المسلسلات، يخط لها اللوحات لتُكمل هي تلوينها.. تزم شفتيها وتشتت عينيها كي لا يرى انعكاس الحنين فيها، تهز رأسها إيجابًا دون أن تنطق.

تتسع عيناه، تعترف أمامه الآن بأنها تحب المدعو عبدالله! ينطق بهدوء وثقة :" ما تحبينه"

تبتسم ابتسامة جانبية، لا يمكنها أن تكذب .. يعرفها هو تمامًا كما يعرف نفسه، يؤلمها وقع معرفته هذا .. تحاول أن تثبت له أنه بات يجهلها، تثبت عينيها في عينيه :" إلا "

يهز رأسه نفيًا بثبات :" ما تحبينه، اللي بينكم مجرد خرابيط مراهقين"

ترفع رأسها بقهر من سخريته، يتابع ليقتلها أكثر :" رغد .. أنتِ تتعلقين بسرعة، تظنين هذا حب .. بس هذا تعلق واعتياد، تقدرين تتجاوزينه إذا تبين"

تشعر به يخنقها، كأنه يخبرها بما تحمله هي اتجاهه ويذكّرها بالمشاعر التي تلفها اتجاهه، وكأنه يكذّب حتى شعورها نحوه .. يتابع :" لا تخلين نفسك مجرد تسلية لشاب طايش"

يهتز صوتها مقاطعًا :" ما يتسلى فيني "

يهز رأسه مؤكدًا كلامه :" يتسلى .. أعرف هالنوعية، هو مو بمقامك"

تذبل عيناها ليختنق صوتها :" مقامي؟ ليش أنا بنت مين ليكون مو قد مقامي.. - تفرد أصابعها لتعدد بخيبة وبكاء - بنت إرهابيين، خالها مزور مرمي بالسجن من عشر سنين، راميها عند رجال مبتليها فيه، ما عندها شهادة .. - تستوعب

لتطلق ضحكة سخرية- حتى هوية ماعندها هوية! .. - تهز رأسها نفيًا- لا ثامر .. أنا اللي مو بمقامه، كثييير هو علي "

كان يستمع إليها بصدمة، وكأنه للتو استوعب أن تلك الطفلة التي تجهل حياتها وتستلم للأقدار لم تعد موجودة .. التي تجلس أمامه الآن حُطام رغد، يقف .. لا قدرة له على الرد، يهز رأسه نفيًا :" لا رغد .. - يزم شفتيه يفكر .. ليعود مجددًا ويجلس أمامها- أنتِ رغد .. أنتِ مو أمك أو أبوك، خالد غلط .. بس غلطه كان عشانك.. بيرجع لك، بتدرسين برى.. بتبدين من جديد"

يكرر دائمًا كلامه بكل سهولة، لا يعي كيف أن هذه البداية الجديدة التي يرددها ترعبها، يُخرج هاتفها مجددًا .. يهزه أمامها :" وعبدالله مجرد صوت خارج من هالجهاز .. - تعود مجددًا يده إلى جيبه ليُخرج شريحة الاتصال الصغيرة- بس ينتهي هالشي الصغير - يضغطها بين سبابته وإبهامه لتنقسم إلى نصفين- ينتهي هو"

يراقبها، لا تُبدي ردة فعل .. عيناها ذابلة باستسلام وضياع، يُتابع :" ينتهي .. مثل ما بينتهي كل شي هنا بالنسبة لك بعد فترة، كل شي رغد حرفيًا .. بما فيهم هالشقة وأنا"

لا تزال غارقة في صمتها، تُصارع داخلها .. يزفر بقوة ليقف وهو يمد لها هاتفها :" رغد كل شي بينتهي قريب، اصبري .. لا تحطمين كل شي بناه خالد، اعتبري عبدالله شي ما صار "

تأخذ هاتفها منه بهدوء، يُخرج هاتفه ليستخرج منه الشريحة :" ركبيها بجوالك والليلة بطلع لك رقم جديد .. لا تردين على أحد، إلا رقمي الثاني .. وخالد ببلغه برقمك الجديد"

يزفر لينطق قبل أن يلقيها ظهره :" وإذا محتاجة تتكلمين، أنا موجود .. دقي علي متى ما تبين، لا تلجئين لناس تجهلينهم .. - يلين صوته - وإذا ضاق خلقك وتبين تطلعين، كلميني .. صدقيني رغد ما برفض، اتفقنا؟ "

تهز رأسها المطأطأ بهدوء، يخطو للخارج متجهًا إلى الباب .. ويُغادر.

تسقط دمعتها الأولى لتليها أخواتها، تنفرد ببكائها .. يعود صوته مجددًا (كل شي رغد حرفيًا.. بما فيهم هالشقة وأنا)

كيف يمكنه أن يقولها بكل سهولة؟ هل سيختفي مع كل الركام الذي سيخلفانه هي وخالها خلفهما؟ هل هذا ما يقول عنه (تعلق)؟ كيف يُمكنها أن تجتازه بسرعة متى ما شاءت كما يدّعي؟ إن كان يظن هذا تعلقًا .. فهل ظنه صائب؟ هل

ستتخطى كل شيء لتكون إنسانًا آخر؟ إنسانًا جديدًا بكل ما تعنيه الكلمة؟ ستعيش حياتها كأي فتاة؟

تضم أقدامها إليها لتلوذ ببكائها متجاهلة وجع أقدامها ..

-

تمضي الأيام، يمر أسبوع يليه أسبوع آخر ..ها هو يخرج من شقته وحقيبته خلفه .. باتت الأيام متساوية عنده، روتين ممل .. لا مركز يُشغل وقته، ولا صديق يؤنس وحدته .. لا شيء غير دوامه الممل، والنادي الرياضي الذي اقترحه عليه نجد .. انشغاله بممارسة الرياضة خفّف عنه شعور الوحدة، يشعر بأنه حرٌ طليق، طير يطير بلا سرب .. لكنه في النهاية يطير.

يهرول بنشاط، يعوّض عن مساء اليوم الذي سيُغلق فيه النادي بسبب العاصفة التي ستحل كما تقول الأخبار .. السماء ملبدة بالغيوم كمعظم الأيام، لا شيء جديد.. قد تكون العاصفة مجرد رياح عابرة..

يتلهف كثيرًا لانقضاء الشهر، ستبدأ الإجازة النصفية في السعودية.. وسيأتي نجد، وأخيرًا بعد مرور أكثر من أربعة أشهر ..

بدأت قطرات المطر تتساقط.. يُسرع في هرولته، يتجاهل نظرات الناس المستنكرة لوقت رياضته غير المناسب.

يتوقف فجأة وهو يرى الفتاة التي تسير بعكس اتجاهه في ذات الممر الطويل، يعقد حاجبيه بضيق .. لأسبوعين وهو يسلك الطريق الآخر أكثر طولًا لمحطة الحافلة كي لا يصطدم بها قُرب المقهى المفضل لها، خاصة في الأيام التي يعلم أنها ستتواجد في المركز القريب من منزله، وكأنها كشفت خطته لتسلك طريقه الجديد!

منذ محادثتها الأخيرة لا يعلم عنها شيئًا، ارتاح باله أكثر .. كانت تربك وتخلّ نظام حياته الذي لا يتخطاه أحد، يرفع قبعة بدلته الرياضية ليضعها على رأسه.. يراها عن بُعد وهي تفعل تمامًا كما يفعل، ترفع قبعة معطفها الطويل لتضعها على رأسها .. يزم شفته وهو يضع كفيه داخل جيوبه، يقتربان .. يفصلهما منعطف واحد، يقرر الانعطاف نحوه كيلا يضطر للالتقاء بها .. ينعطف، وللمصادفة تنعطف معه في ذات اللحظة، تتسع عيناه ليتوقفا في مكانيهما

بتلقائية، بجانب بعضهما .. يرفع رأسه ليطلق ضحكة سخرية وهو يستوعب الأمر، كانت تهرب منه كذلك .. لجآ للمنعطف وكل منهما يظن نفسه يفلت من الآخر! ليلتقيا ..

يضطران للمشي، فات موعد التراجع .. تتعلق الابتسامة على شفته، يلتفت مسرعًا على صوتها ليراها وهي تنظر للأمام ببرود شديد وبإنجليزية :" يُقال أن هناك عاصفة قادمة .. هل سمعت بذلك؟ "

يعقد حاجبيه لتلتفت إليه وتقترب منه قليلًا بهمس وتغمز:" نسوي نفسنا ما نعرف بعض"

يلتفت مسرعًا للخلف وظنه أن أباها أو أمها قريبان بسبب طلبها، لتفلت منها ضحكة :" غبي! .. أنا أضحك على أشكالنا واحنا مسوين مانعرف بعض مافي أحد موجود"

يستوعب مزحتها ليعقد حاجبيه، وبإنجليزية :" أنا لا أفهم ماذا تقولين، لا أتحدث العربية"

تحرك رأسها نفيًا بسخرية ضاحكة :" واضح جدًا من هو العربي، هل رأيت شخصًا عاقلًا يُمارس الرياضة في جو كهذا؟ "

يرفع حاجبه ببرود :" ايه أنا "

تضحك بحبور :" من أول ما شفتك من بعيد عرفتك، عقليًا مافي أحد ممكن يسوي رياضة بهالجو إلا شخص يجهل وش تعني عواصف! "

يزفر على سخريتها :" نعرف العواصف، ما عمرك شفتِ سيول الرياض اللي تجرف الشوارع والأشجار"

تنطق بسرعة :" وتطلعون تسوون رياضة؟ "

يبتسم ليلتفت إليها :" ما نعرف الرياضة إلا بهالأجواء"

تضحك بصدمة :" يا إلهي! عجيبين والله! "

تزيد حدة الأمطار فجأة، يرفعا رأسيهما بتلقائية .. تنطق بسرعة :" أوف شكل العاصفة بتبدا الحين! "

يضم كتفيه إليه وملابسه تتبلل، يسيران حتى نهاية الممر الذي ينتهي بالشارع الآخر .. ينطق :" روحي لبيتكم قبل لا يقلقون أهلك"

تهز رأسها نفيًا :" مسافر..."

يقاطع كلامها صوت صاعقة مدوي، تنهال الأمطار بقوة كبيرة محملة برياح قوية، تُمسك قبعتها بقوة وبقلق :" لاااا"

يجري الناس في الشوارع كلٌّ يلجأ لمنزله، المقاهي والمطاعم تُقفل ليغادر مالكيها بسرعة.. يلتفت عليها مسرعًا :" تقدرين توصلين بيتكم؟ "

ترتبك، يرى الخوف بعينيها لأول مرة .. تهز رأسها سريعًا :" ايه "

ينطق بسرعة :" بوصلك محطة الباص"

تتوتر، تهز رأسها إيجابًا والرياح تشتد بسرعة مفاجئة .. يمشيان عكس الريح بصعوبة، الأمطار الغزيرة تُصعب رؤيتهما .. يتجاوزان الشارع، لتنطق بصوت عالٍ خائب :" لاااااا"

يعقد حاجبيه بضيق وهو يرى المحطة خالية، يتقدم رجل بسرعة ليتجاوزهما وهو يقول :" لا تنتظران .. ستُعلق المحطات حتى نهاية العاصفة"

تشتم نفسها بضيق كبير :" الله ياخذني أصلًا ليش جيت اليوم"

ينطق بعد تفكير :" تعالي "

يُمسك بطرف يد معطفها ليجبرها على السير معه، تنطق بخوف :" وين؟ "

يلتفت عليها :" تعالي المجمع اللي أسكن فيه، بس تهدا العاصفة روحي"

تتسع عيناها بصدمة، تهز رأسها نفيًا بسرعة :" لا! مجنون انت"

يزفر بضيق كبير :" بنجلس تحت لا تخافين "

تحاول التفكير بسرعة بحل آخر، قوة اشتداد العاصفة يمنعانها عن التفكير .. تشعر به يسحبها من معطفها لتسير معه بسرعة.

يتجاوزان الشارع والأمطار بصعوبة كبيرة، ترتعد أطرافها على صوت الصواعق.. يصلان أخيرًا للمجمع ليداهمهما دفء كبير، يترك معطفها لتجلس بسرعة على المقعد قُرب الباب تلتقط أنفاسها.. ترفع رأسها على صوته :" بطلع شقتي وأرجع لك "

تهز رأسها إيجابًا وللتو تلاحظ بلل ملابسه وشعره ..
يصعد ليتركها وحدها في الأسفل، تزفر بقلق وضيق .. كانت تستطيع العودة حال انتهائها من المركز، لكن فضولها الكبير قادها للمقهى علّها تراه ..

يصلها اتصال من والدها، تشعر بصوته الخائف .. قلقه عليها، تطمئنه أنها عادت للمنزل، تُغلق الخط لتزفر بضيق ..

باتت كذباتها تكبر لوالدها، وهذا ما لا تريده ولا اعتادت عليه..

ترفع رأسها وهي تشعر بظلال تغطيها، لتصطدم عينها بكفه التي تُمسك بكوب ورقي .. تبتسم ابتسامة خفيفة لتأخذ منه الكوب، تستنشق رائحة الزنجبيل بعمق علّها تدفئها .. تهمس :" شكرًا "

يجلس أمامها ليرتشف من حليب الزنجبيل، تلاحظ ملابسه الذي استبدلها بأخرى أكثر دفء، شعره الكثيف الرطب .. تُنزل بصرها بضيق :" آسفة .. ورطتك معي"

يرتشف حليبه دون تعليق، يحل الصمت لوقت طويل .. لترفع رأسها بعد حين وبتردد :" كيف تحس لو كذبت على أبوك؟ "

يرفع نظره إليها بدهشة من سؤالها .. يعقد حاجبيه وهو يهز كوبه ببطء :" ما أعرف .. أنا مو شخص مثالي عشان أقولك أكره أكذب على أبوي .. لكن لا بد من بعض الكذبات"

تزم شفتيها بضيق :" أكره نفسي لو كذبت عليه .. بس صرت أكذب كثير "

يعلّق عندما لا يسمع تتمة لحديثها :" بسيطة .. لا عاد تكذبين! "

ترفع بصرها إليه بضيق من جوابه السطحي، تسند ظهرها على المقعد :" صرت أضطر أكذب عشان ما أتعبه أكثر"

تضيع أنظاره حولها، تذّكره بأخيه نجد .. تعلّقها الشديد بأبيها يشبه تمامًا تعلق نجد بأبيه، تعود أنظاره إليها بسرعة بعقدة حاجب على صوتها الغاضب :" بالمناسبة تذكرت .. أبوي مو سيء! "

تنفرج شفتاه بابتسامة، يعتدل بجلسته :" أراهن على إنك تعمدتِ تقطعين الطريق الثاني عشان تصادفيني بالطريق وتقولين أبوي مو سيء وترجعين! "

تزفر وهي تترك كوبها بجانبها :" ايه عادي، المهم تتراجع عن كلمتك! "

يكتف يديه :" هديل .. افهمي إن لكل شخص نظرته"

تزم شفتها بغضب، تقف لتُمسك حقيبتها .. كان ينوي أن يعترض ويقنعها بالجلوس حتى انتهاء العاصفة .. لكن بتر كلمته وهو يراها تُخرج وشاحًا من حقيبتها لتُعيدها إلى

المقعد، يعقد حاجبيه باستغراب لتلتفت إليه :" ممكن تدلني على القبلة بدل ما تجلس تنتقد أبوي؟ "

بهتت ملامحه بعدم استيعاب يحاول فهم ما تقول :" القبلة؟ "

تهز رأسها إيجابًا بقلة صبر وهي تُمسك بالوشاح لتضعه على رأسها وتلفه حولها :" ايه قبلة .. ما عمرك سمعت بها يا مسلم؟ "

تتسع أحداقه وبتلقائية:" تصلين؟ "

تتكتف بضيق :" لا قالوا لك كافرة ما تصلي! "

يفيق ليستوعب ما تقوله، يقف مسرعًا بحرج ليُخرج هاتفه ويضعه على الأرض.. يتتبع إشارة البرنامج التي تشير للقبلة لينطق وهو يشير :" كذا "

تخلع حذاءها لتتجه للقبلة، يقف مسرعًا :" لحظة أجيب لك سجادة"

يصعد للأعلى ويعود بشكل أسرع حاملًا سجادته المحملة برائحة المسك، تأخذها منه لتبدأ صلاتها .. يبتعد هو ليجلس في مقعد أبعد، وما أن انتهت من صلاتها يراها تجلس على السجادة تلبس حذاءها وحجابها ينسل بين شعراتها .. يعود ليقترب ويجلس في ذات مقعدها، يشبك

كفيه ببعضهما وكلام كثير يدور داخله، ترفع رأسها له :" أدري مستغرب .. -تبتسم - بس ترانا مسلمين والله"

يزم شفته، ودون أن يفكر يرمي كلامه :" كنت أظن دامك مو محجبة ..."

تقاطعه بزفرة :" دامني مو محجبة يعني ما أصلي؟ .. أستغفر الله .. - تتكئ على الجدار خلفها ولا تزال على السجادة، تُمسك بالحجاب الذي سقط على كتفها - أدري تحط اللوم على أبوي وأمي .. - تهز كتفيها بحيرة - مدري يمكن صح عليك، أمي وأبوي ما عمرهم ضغطوا علي بشي .. صحيح كانوا يستميلوني أتحجب، بس ما يفرضونه علي! .. - تزفر بضيق- كل سنة أقول بتحجب .. بس والله ثقيل علي! "

يهز رأسه نفيًا بهدوء :" مو ثقيل على قلبك .. أنتِ تستثقلينه"

تهز رأسها نفيًا :" ما تفهم انت، كم مرة حاولت .. بس كل مرة أقول المرة الجاية .. - يتغير صوتها بألم - يوم عرفت بمرض أبوي، قررت أتحجب ..عهد بيني وبين نفسي، بس .. ما قدرت، لليوم أأجل"

ترق نظرته، تضيع حولها .. يُدرك تمامًا طبيعة النفس التي لا تلجأ لله إلا عندما تسقط في وحل الحياة

تجلس متربعة بضيق :" حياتي مليانة أغلاط، بس الحجاب أكثرها .. أحيانًا أتمنى لو أمي وأبوي يشدون علي شوي .. - تزفر بقوة- بس هم نفس الشي، ما يبون يضغطون علي بأبسط الأمور أو أعظمها"

يتابع تغير نظرتها وصوتها، يهز رأسه إيجابًا :" يمكن لأن المجتمع حولكم مختلف.. بس هذا ما يبرر"

تهز رأسها تأكيدًا :" ايه ما يبرر .. كان عندي صديقتين هنديات مسلمات، عادي يتحجبون .. بس أنا ماعندي هالإرادة"

ترفع رأسها على صوته الهادئ :" عندك .. تقدرين، بس لُفي الحجاب الحين"

يتابع عندما لا يرى ردة فعل :" لفيه الحين هديل .. مثل قبل شوي"

تبتسم لتلف حجابها :" تحسب الموضوع بهالبساطة"

يهز رأسه تشجيعًا :" ايه خلاص، خليه كذا .. شفتِ شكثر الموضوع سهل؟ "

تقف وهي تحمل السجادة :" الحين سهل، بكرة الصبح بقوم وبقول خلاص مرة ثانية"

يأخذ السجادة منها :" يوم، ويوم ثاني .. بعدها تتعودين"

تجلس على المقعد الآخر بابتسامة واسعة :" وش زيني وأبوي وأمي يجون بكرة ويشوفون بنتهم فجأة تحجبت.. -تضحك بخفة- بقول لأمي هذي سوايا السعودي اللي تقولين لا تقربين منه"

تتسع ابتسامته :" ايه خليها تعرف إن السعوديين مثل زوجها، بشر طبيعين"

تكتفي بابتسامة .. يصمتان ، كلٌ منهما يُراجع نفسه .. يُحاول هو فهم تقلباته، هروبه منها .. وما أن يُصادفها يعود معها مجددًا لنقطة الصفر، كل ما يعلمه أنها استثنائية.. أثرها عليه تجاوز أثر الدكتور النفسي الذي كان يُراجعه .. عفويتها التي تصيبه بعدوى .. يعود له حواره معها قبل قليل، منذ متى وهو يُعطي النصائح؟ أو يُلقي بالًا لأي شيء؟ منذ متى ويوسف ليس يوسف؟ أو أن هذا هو يوسف الحقيقي الذي توارى خلف ركام الاكتئاب، جاءت لتكشف عنه وتزيح عنه السواد الذي غطاه؟

وهي بجانبه، تغوص في تفكيرها، شغفها به .. تشعر بأنه منجم يُخفي داخله بلادها، هو عينها لوطنها الذي تجهله.. ترى في عروق يديه أودية نجد، لحيته الكثيفة ككثافة نخيل الأحساء، لونه الذي اصطبغ بلون صحراء الدهناء الذهبية،

بحر الحجاز هو عيناه، وجبال تهامة تقف شامخة بين كتفيه، كل مافيه يعكس صورًا تجهلها لأرضها البعيدة .. تعلم تمامًا خطورة الأمر الذي تُلقي بنفسها فيه، والداها وتشديدهما .. لكنها مُصرة على خوض الطريق، لن تُفلت الشخص الوحيد الذي يشبهها، يفهم تخبطاتها .. تُدرك الشعور الدافئ الذي يتملكها قربه، لا تُنكره .. لكن تخشى من أن يكبر ويتحول لشعور قاسٍ آخر.. تفتعل الصدف كي تطمئن إليه، تخشى أن تفقد صورتها فيه، حتى الورقة القديمة التي تختبئ داخل السبحة لا ترغب في إرجاعها له .. اكتشفتها مصادفة لتستخرجها من منارة السبحة، ورقة قديمة صغيرة لا تتجاوز نصف الإصبع ملفوفة بإحكام ومغطاة بلاصق شفاف، تعلم أنه لم ينتبه لها.. قد تكون مهمة له، أو لأخيه .. تؤجل إرجاعها كل يوم، ترغب وبشدة أن تُبقي سببًا يوصلها به.. ستضطر لإرجاعها يومًا، ولكن ليس الآن.. حتى تطمئن لوجوده الدائم.

يحلّ الليل، يقضي ليلته قربها.. يفصلهما مقعدين، يهزمها النعاس.. تنام مستندة على الجدار، يفيق من تأمله لها وحجابها الرقيق يسقط على كتفيها..ينهر نفسه، يقف ليقطع الوقت وهو يذرع الممر ذهابًا وعودة يحارب النوم

ويحارب خصلات شعرها المتمردة، تهدأ العاصفة نسبيًا بعد دخول الفجر بساعتين، تودّعه وحركة الشوارع تفيق مجددًا .. يقف قُرب محطة الحافلات، يرفع كفه ملوحًا لتصافحه ابتسامتها الندية.. ترفع كفها وتلوّح له، تتسلل أشعة الشمس بين أصابعها لتُشرق فيه.

•

ينتهي من غدائه .. يتبادل النقاش مع ناصر الذي يعرض عليه عملًا بعد طرده من عمله الأخير، هو بحاجة ماسة للعمل .. خاصة وتلك الفكرة بدأت تتداول في رأسه وتكبر، لكن ليس هذا الوقت المناسب.. خالد سيخرج بعد أسبوعين، سيُفرغ نفسه تمامًا له، يهز رأسه إيجابًا بضيق :" ما ودي أفشلك ناصر، اصبر هالأسبوعين وإذا حسيت نفسي مستعد بكلمك"

يهز رأسه إيجابًا ناصر :" خذ راحتك، أنا بنتظرك بأي وقت"

يأتي صوت نجد المنشغل بكمبيوتره المحمول :" ثامر بما إنك فاضي، ما ودك تروح معي عند يوسف؟ "

يأتي صوت عمه مشجعًا يؤيد الفكرة، يضيق .. حتى هذه الفكرة ليس وقتها المناسب، يزم شفته بضيق واقفًا :" ما بترك خالتي وحدها"

يعود صوت ناصر :" وقت إجازة، خالتك بتكون عند خوالها"

يحك جبينه بتهرب وفكرة مفاجئة تطرأ عليه :" لا وعدتها آخذها مكة"

يزم شفته نجد، لا بد أن يستعجل بطرح موضوع خطبتها .. لا يزال مترددًا في أخذ رأيها مسبقًا أو يفاجئها؟ لا طاقة له بخيبة جديدة، قلبه يخبره أنه سيفوز بها هذه المرة ..

يضطجع ناصر ليأخذ قيلولة قبل صلاة العصر، نجد يُرتب المطبخ .. وياسر منشغلٌ بقراءة بحث نجد الأخير، يجدها ثامر فرصته الذهبية .. يقف متجهًا إلى مكتبة عمه وهو يقول :" باخذ لفة على مكتبتك عمي"

يرفع رأسه ياسر وهو يُنزل نظارته قليلًا :" خذ راحتك.. خذ اللي تبيه إلا الكتب اللي على المكتب، باقي أحتاجها"

يهز رأسه إيجابًا ليفر إلى غرفة المكتبة، يغلقها وبهدوء يسحب مغلف كرتوني مليء بالكتب ليضعه خلف الباب، يُنبهه لدخول أحد ..

يمشي بسرعة ويده تتحرك بسرعة على أرفف المكتبة .. يحاول تذكر مكان ألبومات الصور، جميعها كتبٌ تاريخية أدبية وموسوعات لغوية .. يذكر كيف كان يتوق عمه ليكون أديبًا لامعًا في شبابه، لم يحالفه الحظ بسبب ما مر به، لا تزال مكتبته ممتلئة بمسودات قصصية ومخطوطات أدبية .. غير أنها لم تغادر حدود هذه المكتبة، يجلس على الأرض يفتح باب الرف الأخير .. يبتسم بزهو وهو يجد ضالته، عدة ألبومات ضخمة.. يُخرج أولها يتصفحه سريعًا ليكتشف أن معظم الصور جديدة .. معظمها تعود لما بعد وفاة أمه، ليس الألبوم المنشود .. يُخرِج الآخر، يتصفحه ببطء أكثر .. صور معظمها تعود لطفولته وطفولة نجد ويوسف، تُشاركهم يمامة في كثير من الصور .. بل أغلبها، ناصر كذلك يحتلّ صورًا كثيرة .. يُخرج صورة من المغلف ليتأملها عن كثب .. صورة قديمة اُلتقطت في مدرسته المتوسطة، عمه يقف يساره ممسكًا بيده، وعلى يمينه تمامًا يقف ذاك الأستاذ الذي تحول لرفيق، خالد الشاب .. يبتسم ابتسامة

مفعمة بالحياة، يبتسم ثامر للصورة وكأنه يرد ابتسامة خالد .. يلحظ أن الصورة اُلتقطت وعيناه لم تكن موجهة إلا لعيني خالد .. على أن عمه يُمسك بيده، والجميع ينظر لعدسة الكاميرا إلا أن عيناه الصغيرة لم تلتقط سوى خالد، صورة تُعبر عن العلاقة الكبيرة التي جمعته بخالد .. لم يؤمن به سواه، يذكر شكوى المعلمين وعقابات المدير التي تنتهي برجاء من خالد .. احتواه كما لم يحتويه أحد بعد رحيل والده، لم يكن خالد معلمًا مثاليًا .. لم يُنبهه لأخطائه ويُربيه بشكل صحيح، لكنه كان أقرب إليه من نفسه.. وهذا ما كان يبحث عنه مراهق يتيم، يأخذ الصورة ليضعها في جيبه .. يحتاج لأن يجمع ذكرى أستاذه ويخبئها في ذاكرته، بعد مدة وجيزة لن يجد ذكرى جديدة يضيفها لمخزونه .. سيرحل بلا عودة حاملًا معه تلك الصغيرة التي تشبهه، وتشبه ضياعه.. لو كانت الأمور مختلفة قليلًا، يجزم أنها ستكون قربه الآن .. تجلس معه وتُفتش ألبومات الصور، تضحك وتُعد لهما القهوة .. تُلاعب طفلة صغيرة تشبههما، يزم شفته سريعًا ليطرد أفكاره .. رحيلها اقترب، الرحيل الذي وضعه نصب عينيه دائمًا كي لا يزيد تعلقه .. (تعلق) وليس (حب) كما أخبرها .. حب؟ هو لا يعرف تحديدًا كيف

يكون الحب، كل ما يعرفه أنه متعلق بها كما هي متعلقة به .. سترحل، وسيرحل تعلقه هذا .. سيلتفت لحياته، سيتزوج .. يشك بقبول أي فتاة له، شاب معدوم .. لكن تلك الفاتنة والمرأة الكاملة في بيت خال أمه، يشعر بأن حظها يشبهه.. حظهما الذي قد يقودهما لبعض، عازمٌ على خطبتها .. لن يخسر شيء بتجربته هذه، قد ترفضه .. لكن قد تفتح له بابًا جديدًا للحياة ..

يزفر بضيق وقوة، يترك الألبوم ليُمسك بالألبوم الأخير .. يقلبه، يعقد حاجبيه بانتباه شديد .. هذا هو الألبوم المنشود.. ألبوم قديم، معظم الصور فيه صور بجودة رديئة وغير ملونة .. يُقلبه وعيناه تغوص في الوجوه القديمة، ترق نظرته وهو يرى والده .. يبتسم وهو يقلب الصور، صور والده قليلة ومعدودة .. وهو السبب، يذكر كيف كان يسرقها في كل مرة يغضب من عمه أو أمه.. يحتفظ بها عنده مرددًا بغضب (ما تستاهلون تكون هالصور عندكم) يعلّقها في غرفته .. يظن أنه بحركته هذه يُغيض عمه ويزيد من وجع أمه، حتى بات ألبوم عمه فقيرًا من صور والده.. يعقد حاجبيه، تحد نظرته بتدقيق وهو يرى الصفحة التي تحتوي أربعة صور.. نعم هذا مراده..

هذا عمه، وبجانبه نجد الراحل .. واثنين آخرين صورة عن بعضهما، لا يمكن التفريق بينهما.. يجلسون أربعتهم في مقهى قديم، تمتد أصابعه تنوي سحب الصورة، لكن سرعان ما توترت وهو يسمع صوت صرير الباب، يقلّب الألبوم سريعًا على دخول ناصر الذي ابتسم :" وش تسوي؟"

يحاول تغطية ربكته، يفتح الألبوم على إحدى صور والده :" ولا شي، كتب عمي ما تشد ومالقيت غير الصور أقلبها"

يعقد حاجبيه ناصر وهو يلمح الصورة، يُقرب الكرسي ليجلس أمام ثامر الجالس على الأرض ليزيد توتره، يبتسم بهدوء وهو يسحب الصورة ليتفحصها :" الله يرحمه .. أخذت ملامحه وهيأته كلها"

يرفع رأسه مستفهمًا :" تذكره؟"

يهز رأسه إيجابًا بسرعة:" أذكره زين، كان كل ما جيتكم يعطيني ريالين يقول اشتري لك انت وثامر حلاو"

تعود الصور ضبابية لثامر، يعقد حاجبيه بابتسامة :" كان أخوك نجد بالشك فيني، إلا غصب يجيبك معه على أساس تلعب معي"

يضحك ناصر بخفة متذكرًا الماضي :" كان يتهرب مني هو وياسر، يدرون بجلس حولهم ولا بتركهم .. يحسبونك بعمري وتقدر تلعب معي"

يبتسم ثامر :" تذكر كل شي، أنا ما أذكر من نجد الله يرحمه إلا صور ضبابية.. - يزم شفته لينزل رأسه لألبوم الصور يقلبه بعشوائية- أذكره بس وهو شايلني على رجوله بعد ما كتب عمي كتابه على أمي، الظاهر كان شاهد على العقد"

يشعر ناصر بضيق ثامر، يجدد وجعه بأخيه .. يرفع رأسه متفاجئًا من سؤال ثامر غير المتوقع :" ناصر، باقي مصر على دم أخوك؟ "

يُفجرها بوجهه، ليتنهد بضيق .. يهز رأسه إيجابًا :" دم نجد ما بنساه لين أتوارى تحت الثرى .. - يرفع رأسه بضيق شديد- أحيانًا أشوف الموضوع خلاص انتهى وأفقد الأمل، مرت سنين يا ثامر .. ثمانية وعشرين سنة! لو في أمل كان ظهر لو خيط واحد - يهز رأسه بقلة حيلة- بحّ وابتلعته الأرض، لو في شي ممكن يظهر كان ظهر من زمان "

تضيق عينا ثامر، يترقب حديث ناصر بشغف .. يعتدل بجلسته ليواجه ناصر وبهدوء ظاهري :" مو بس انت اللي فقدت لك روح، حتى ولدهم راح! "

تجحظ عينا ناصر بغضب يحاول كتمه يقاطعه بسرعة :" نجد ما قتل يوسف عمد! ما كان يبيها له.. هو اللي ظهر له بطريقه وتصاوب! - يهز رأسه غير مستوعب- أصلًا شلون يتعمد لرفيقه وخويه؟ - يقف مضطربًا ويُلقي ثامر ظهره، ليعود مجددًا - كان ممكن ينتهي كل شي وياخذون حقهم بالدية وسجن كم سنة، لو بس حكّم نفسه .. كان الحين نجد موجود، كان الفقد بيكون واحد! مو لثلاثة! "

يهز ثامر رأسه نفيًا غير متفق، لتقابله عينا ناصر المتعبة :" عمك .. ما يبيني أطري الموضوع حتى لولد أختي! .. عارف إني معدوم إلا من نجد.. وعدت نجد ما أطري الموضوع ببيتكم- تنفرج شفتاه بابتسامة سخرية- ما ألومه، ما يبي ولده يوقف بوجه أصحابه القديمين! "

يراقب تغيراته ثامر عن كثب ومزيج من المشاعر تتضارب داخله .. يهدأ ناصر قليلًا :" انت يا ثامر .. لو إن أخوك يوسف بمكان نجد.. بتتنازل عن دمه؟ "

تضيع عيناه بعيني ناصر، سؤال صعب ألقاه عليه .. يهز ناصر رأسه نفيًا :" صدقني ما بتتنازل"

يسحب منديلًا من مكتب ياسر ليمسح جبينه المبلل بالعرق، يهز رأسه بضيق ويغادر ..

يترك ثامر خلفه يصارع ما بداخله، تأنيب حاد .. يلحقه تبرير لذاته، يزفر بضيق ليعود للألبوم .. للصورة القديمة لأربعة شبان، يُخرجها من مغلفها ويتأملها .. يتأمل الابتسامات الأربعة، كيف تضاءلت وافترقت لتترك شرخًا كبيرًا.. يتأمل نجد، يتأمل الشابين التوأمين .. لا يعلم أيهما يوسف وأيهما يعقوب .. لا يعلم أيهما الراحل وأيهما المطلوب، ماذا يفعلان بقبريهما؟ هل هما متصالحان؟ يصلهم ما يحدث هنا؟ يؤلمهما حال أخويهما؟

يُغلق الألبوم ويُعيده لمكانه بجانب إخوته .. يُمسك بالصورة التي سرقها ليضعها في جيبه، وصوت ناصر لا يُفارقه .. نظرته الموجوعة، كان لسانه على وشك إفراغ الكارثة التي يعرفها.. تعود صورة خالد له، حاجته لمال كثير حتى يتمكن من بدء مستقبله ومستقبل رغد.. تُلجم لسانه وكفة خالد ورغد تثقل كثيرًا على كفة ناصر الهزيلة.

يخرج من المكتبة بسرعة قبل أن تسيطر عليه أوهام أخرى وتُعيده..

"ثامر"

يلتفت بربكة وهو يشد على الصورة داخل جيبه، يقابله نجد مشمر عن ساعديه:" متى يبدأ معرض الليلة؟"

يزفر بداخله براحة شديدة وأعصابه ترتخي، يعقد حاجبيه :" أظن أربعة العصر"

يهز رأسه إيجابًا بابتسامة :" زين، نشوفكم هناك"

يبتسم، يتبادل مع نجد حديث سريع حول المعرض المقام الليلة.. يودّعه على وعد اللقاء في المعرض، يخرج إلى سيارته وهو يزفر بقوة.. يُخرج الصورة من جيبه ليضعها في ملف ورقي، لم يكن يتصور أن يتم الأمر بهذه السهولة..

يقود سيارته إلى الحي البعيد، إلى حيث تجلس تلك الوحيدة .. تقابله بحماس شديد يشوبه توتر، تُرتب أوراقها ولوحاتها .. تسأله عن أبسط الأمور، كيف تتحدث أمام الناس؟ هل تبدو لبقة؟ يجاوبها بكل رحابة، حماسها هذا يبعث في نفسه الطمأنينة .. لم يكن يرغب بالمشاركة في المعرض الذي تُشارك فيه يمامة وشجعته على حجز ركن له لو لا رغد، يرغب وبشدة أن يكسر وحدتها ويُشغل وقتها.. أن

يُزيل أثر ابتعاده الأخير عنها ويضاءل المسافات، لم يبقَ سوى أسبوعين أخيرين حتى تنقطع حبال الوصل للأبد ..

-

منذ خروجه من منزل ياسر قبل ساعات والضيق يلازمه من حديثه القصير مع ثامر، يقف نافثًا كسله ليذهب إلى مكتبه ويُشغل نفسه بحساب درجات طلابه.. لم يبقَ إلا القليل لخوضهم الامتحانات، يُمسك مجموعة أوراق يُراجعها بدقة .. يتأكد من كل اسم وكل درجة يستحقها، تتوقف إصبعه على ذاك الاسم .. يتأمل مجموع درجاتها الذي لا يليق بها، تحتاج لعشرين درجة أخرى حتى تضمن نجاحها .. يزم شفته بضيق، لم تكن كذلك.. ريم الفتاة التي يُتداول اسمها في القسم وبين معظم الأساتذة، فجأة سقطت في ضياع غريب .. لم يعد يسمع صوتها، يحثّها حثًا ومتعمدًا حتى تشارك .. يعرفها تمامًا، ليست تلك الطالبة المهملة، لكن ما بالها تحولت تحولًا صادمًا فجأة؟ اختبارها

الأخير لم يكن مرضيًا.. أطال الوقوف على ورقتها حتى يستخرج لو درجة واحدة تستحقها، لكن معظمها كانت بيضاء .. كلمات متقطعة تنبئ بعدم إدراكها لماهية المادة والاختبار، ساءه جدًا تغيرها .. يتجاهل تمامًا أنها ابنة عدوه، هي (ريم) فقط .. ريم الطالبة المتميزة، هو ليس من نوع الأساتذه الذين يخلطون بين ما يحدث داخل القاعة وخارجها .. يهمه أمرها كثيرًا مثل معظم طلابه المتميزين.

يُخرج هاتفه لينتقل لاسمها في محادثات الواتس آب، يقرأ رسالتها قبل أيام وهي تنقل له طلب الطالبات بمعرفة درجات اختبارهن، تتبعها صورة أرسلها تحتوي درجات الطالبات .. وكلمات يتيمة ضمنها أسفل الرسالة بعتاب الأستاذ الحريص (هذي درجات البنات، تؤسفني كثير درجتك غير المرضية.. ولأنك طالبة مجتهدة بشهادة الجميع ما عندي مشكلة أعيد اختبارك، لو كنتِ غير مستعدة كان يُفضل لو تنبهين أستاذك .. الطالب المجتهد والحريص يختلف عن الطالب المهمل)

ردها جاء متأخرًا مقتضبًا (شكرًا دكتور ناصر، أقدر لك ذلك)

يزم شفته بضيق ليكتب مسرعًا :(السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .. أعرف تمامًا ان هناك ما يقلقك، أرصد المجموع ولا تطاوعني نفسي لأرصد لك درجتك الأخيرة، ولأن التعليم أمانة لا أرغب بتمييزك عن باقي طالبات الشعبة، لكن في حال رغبتِ وكان لديك استعداد أستقبل بحث مصغر كمساعدة ودعم لرفع الدرجة، وسيعمم الموضوع على جميع الطالبات .. لا أرغب إطلاقًا بأن ترصد لك درجة لا تستحقينها بسبب ظروف خارجية، إن كنتِ تواجهين أي مشكلة تعليمية أو بين أحد أساتذتك أنا مستعد للمساعدة، لا تخوضي اختباراتك وهناك ما يزعجك)

يزفر بضيق وهو يعيد قراءة الرسالة بعد إرسالها، يراقب ظهورها واتصالها .. تقرأ الرسالة، تكتب .. وتتوقف، تكتب مجددًا وتتوقف .. تبدو مترددة، يضع هاتفه جانبًا وظنه يغلب عليه أنها لن ترد .. وما أن أمسك بدفتر محاضراته يرن هاتفه بنغمة الرسائل.. يرفعه بسرعة ليقرأ رسالتها باهتمام شديد (أستاذ ناصر شكرًا لاهتمامك وكلامك .. أقدر أستشيرك بموضوع قانوني؟)

يعقد حاجبيه بتعجب، يكرس انتباهه لرسالتها يكتب (تفضلي)

تكتب طويلًا .. ينتظر بترقب، لتأتي رسالتها (كيف ممكن العدالة تحمي بنت تتعرض لابتزاز؟)

تتسع عيناه بصدمة، لم يكن يتصور إطلاقًا أن تتطرق لموضوع شخصي! تتهاوى الأسئلة فوق رأسه .. هل تتعرض لابتزاز؟ هل انتكاستها الأخيرة بسبب ابتزاز يقضي عليها؟ يُدرك تمامًا كيف للابتزاز أن يبتلع الشخص، كيف يكون قاتلًا .. كيف يتحول المبتز إلى وحشٍ مخيف، يزم شفته وهو ينفث عنه أفكاره .. يكتب بسرعة (أظن معرفتك بالقانون وشطارتك لا يمكن يُستصعب عليها قضية ابتزاز)

تنهال عليه برسائل فجّرت كل مشاعره (معرفتي بالقانون؟ يا دكتور أنا قررت أنهي هذا الفصل وأحول لأني عرفت شكثر تخصصي كذبة! القانون يحمي .. لكن كيف يحميها من العادات؟ كيف يحميها من نظرة الناس؟ يا أستاذي أنا مبتلاة باسم والدي .. لو كنت مو بنت موسى كان أخذت حقي بنفسي ولا اضطريت أنهان وأنا ساكتة .. أستاذ تعرف كيف صعب علي أبلغ لأني بنت الشيخ موسى؟ لأن ممكن بأي لحظة ينهار كل شي بسبب اسم أبوي؟ يا أستاذ أنا مابي أأذي أبوي .. لكن الناس تنتظر زلة أي شخص اسمه لامع لينهشونه! .. أستاذ ناصر أنا ما أعرف

حتى كيف أدخل المراكز الأمنية وينتشر الموضوع باسم بنت موسى.. زواجي اللي اقترب بينهار، سمعة أبوي بتنهار .. أنا واثقة بنفسي لكن مو واثقة باسمي! .. لو كنت بنت رجل عادي ما تعرضت لابتزاز والمبتز يعرف خوفي وقلقي على سمعة أبوي .. يعرف إني ما بتجرأ على أي خطوة إلا وصورة أبوي قدامي)

يقرأ رسائلها التي انهالت عليه دفعة واحدة مرارًا، يحاول استيعاب ماذا تقول .. تتعرض لابتزاز وتخشى أن تخطو خطوة للأمام بسبب سمعة أبيها واسمه؟ يزفر زفرة قوية وهو يمسح وجهه .. لكن بماذا تُبتز؟ وهي الحريصة؟ .. تعود مجددًا برسالة أخرى (أعتذر أستاذي ناصر.. ما كان من المفترض أقول اللي قلته .. لكن لثقتي فيك ولأني أشوف فيك الأستاذ القدوة .. أعرف إن نصرة الضعيف هي عهدك ووعدك، مهما يكن .. وأنا يا أستاذ بقمة ضعفي وقلة حيلتي .. ما أرتجي منك إلا خدمة وحدة)

يكتب بسرعة (أنا عند عهدي وقسمي)

تصله رسالتها سريعة وكأنها تخشى ضياع الفرصة (تقدر تبلغ باسمك عن المبتز؟)

-

*•

أَلْقَيتُ بينَ يديكَ كُلَّ عِتَادِي
وأَرَحْتُ مِنْ هَمِّ الطَّرِيقِ جَوادِي

وفَرَرْتُ مِنْ لَفْحِ العَواصفِ حِينمَا
طَالَ الرَّحيلُ، وماتَ صَوتُ الحَادِي

- سيد البيد

*•

الورقة العاشرة

•

يدخل المعرض الكبير، مزدحم والضوضاء تنتشر فيه .. يسير برفقة والده وعيناه تبحث عن مراده، منذ أسبوعين لم يرها .. فصل ثامر من عمله أبعده عنها، لا مشاوير صباحية تُنعش روحه.. ولا طرق مسائية تجدد نشاطه، ولا حتى كوب قهوة من صنع يدها، يترقب كل صباح من نافذته موعد خروجها .. يرتوي منها من بُعد وهو يراها تخرج برفقة ثامر إلى السيارة.

يُجاري والده الذي يقف عند كل ركن يستمع ويسأل، قلبه متلهف لها .. وإن استمر والده بزيارة كل الأركان المئتين سينتهي أسبوع المعرض قبل أن يأتي دور ركنها، يلتفت على والده بسرعة إثر كلمته :" خلاص نرجع البيت ونكمل بكرة"

اتسعت عيناه بدهشة ممتلئة بالخيبة، لتقابله ضحكة ياسر وهو يضرب ظهره بخفة :" والله إني داري وش وراك، لا تخاف أمزح معك"

تلين ملامحه براحة وسرعان ما تسلل الإحراج له وهو يمسح جبينه .. يعودان للسير، يُمسك ياسر بكفه :" نجد يبه، نهاية الأسبوع نكلم ثامر وخالها .. مو عاجبني وضعك والله"

ترتفع طبول قلبه، يشعر بأنه يرفرف.. يزم شفته بتوتر :" مدري يبه، أخاف نتسرع "

يهز رأسه نفيًا :" توكل على الله، وتفاءل"

يعمل بنصيحة والده، يتوكل .. يزيد تفاءله، تلمع عيناه بشوق جارف وهو يرى ركن النادي الخاص بذوي الاحتياجات الخاصة، مقرها .. ركن كبير منظم، تجلس البنات على الجانب الأيمن.. والشباب على الجانب الآخر، أشكال متفرقة .. منهم من يقف بحماس يتحدث وبجانبه عصا بيضاء، وبعضهم يتحدث بلغة الإشارة .. وهي تجلس هناك مع مجموعة صغيرة تتحدث باستمتاع، يعرفها من عينيها وحركة يديها التي حفظها.. يقف والده أمام شاب يعلّمه بعض الكلمات بلغة الإشارة، يتسلل هو ليتقدم إليها

.. كانت تتحدث بحماس وما أن رأته لُجم لسانها ليفلت ابتسامة صغيرة :" كملي .. أسمعك"

يلحظ ابتسامتها من عينيها، تُتابع ما كانت تقوله لمجموعة زوار .. يراقب حركاتها الصغيرة وصوتها الرقيق حتى انتهت وابتعد الزوار للركن التالي، تحك جبينها من فوق النقاب بابتسامة :" أبوك جاء معك؟"

يهز رأسه وهو يشير لوالده :" هناك.. شكله ناوي ما يطلع إلا وهو متعلم لغة الإشارة"

تُمسك بآلة صغيرة أمامها :" وانت ودك أكتب لك اسمك بلغة برايل؟ "

يعقد حاجبيه وعيناه تنتقل إلى أصابعها :" تعرفين؟ "

تبدأ بالكتابة :" مو كثير، تعلمتها هالفترة مع بنات النادي"

تُخرج الورقة الصغيرة المفرغة بنقاط لتمرر أصابعها عليها :" نجد ياسر"

تمدها له ليأخذها بابتسامة واسعة متحسسًا الحروف، يُخرج محفظته ليدس الورقة فيها.. ويُخرج منها تعليقة قماشية مصنوعة يدويًا :"وهذي تعويضًا عن الميدالية اللي أخذتها "

تتسع عيناها بدهشة ويدها تمتد تلقائيًا لأخذ التعليقة، غير أن يده ابتعدت وهو يقول :" لا! "

شعرت بإحراج شديد يداهمها، ازداد مع اقترابه وهو يقول :" مو لك، للكرسي .. "

يتجاوز الطاولة الصغيرة ليتقدم إليها ويقف بجانبها .. ينحني قليلًا ليربط التعليقة في مقبض كرسيها :" هذا عربون صلح بيني وبينه بعد آخر مرة "

تطفو في نار حارقة وشعور منعش يدغدغها، تنطلق ضحكة صغيرة منها :" نجد! "

يبتسم ليعود إلى مكانه، والده لا يزال مندمجًا وهو يحاول إتقان كلمة بلغة الإشارة .. :" أخذتها من المعرض، كل الأشياء فيه تغري"

تلتفت قليلًا حتى تتمكن من رؤية الشريط، تبتسم وهي تتحسسها :" مرة حلوة"

يرغب وبشدة أن يعوض عن شوقه في الأيام الماضية، يحدثه قلبه بأن يجلس ويعتكف أمامها طوال أيام المعرض.. يقاطع حديث قلبه صوت من خلفه :" السلام عليكم ورحمة الله أخوي شرفتنا .."

يلتفت ليجد شابًا أنيقًا يرحب به بالقهوة، يتحدث كثيرًا ..
يضطر للسير معه تاركًا خلفه يمامته، يُعرفه الشاب بكل
ركن ويطيل الكلام بأمور لا يفقهها .. لا ينتهي إلا بعد أن
أستهلك نجد طاقته بالمجاملة، يلتفت أخيرًا بعدما أعتقه
الأخير ليرى مجموعة كبيرة تحيط باليمامة، يزفر بضيق
ليقرر الذهاب إلى ركن ثامر ..

يجلس الأخير في مقعده منذ ساعات، يداهمه الملل الكبير
بشكل سريع رغم ازدحام الكثير حوله وحول رغد التي
تجلس بجانبه، ينقل بصره إليها .. تبتسم بحماس كبير
وتثرثر بعفوية، لم تتعب من كثرة الرسم مثله .. بل تزداد
طاقة مع مرور الوقت، يزيد إشراقها وهي ترى الزوار
يلتقطون الصور والفيديوهات بإعجاب..

تلتفت له لتتسع ابتسامتها، يستمد طاقته من بسمتها
ليردها لها بإنهاك.. يُنزل رأسه لينشغل باللوحة التي أمامه،
يشعر بظلال تُلقى عليه وصوت يصله :" ماشاء الله يا
حضرة الرسام، ممكن توقيعك؟ "

يرفع رأسه سريعًا بابتسامة واسعة :" هلا نجد"

يبتسم نجد وهو يتأمل ما يرسمه ثامر يعلق كثيرًا
بإعجاب، تنتقل أنظاره للوحات الأخرى الموقعة باسم "رغد"

يُبدي إعجابه الشديد لثامر ويهمس :" بتاخذ عليك الأضواء الرسامة اللي جنبك"

تنتقل عينه بهدوء للجالسة بجواره، تراقبهما بطرف عينها.. يدرك أنه بارع في الرسم أكثر من براعة رغد، يرسم بملل كبير وتثاقل كيلا يشد انتباه الزوار ويخطف الأنظار منها.. يعود بأنظاره لنجد الذي يقول :" زين يا حضرة الرسام، أبي طلبية مستعجلة ممكن؟"

يرفع حاجبه بابتسامة :" بس كل شي بحقه، ما في عروض لأبناء العمومة! "

يضحك بخفة نجد :" يا طماع! .. هذا وأنا أبيك ترسم لي صورة أخوك"

يرفع حاجبه باستغراب شديد :" يوسف؟ "

يهز رأسه وهو يتكئ على الطاولة ويُخرج ديوانًا شعريًا من كيس ورقي :" ايه، ارسم بأي صفحة تعجبك.. باخذ الديوان له"

يأخذ الديوان منه، يفتح صفحة عشوائية ليبدأ رسمه بعدما أخرج هاتفه وثبّته على صورة حديثة ليوسف.

بجوارهما، كانت تتأملهما عن كثب.. هذا نجد ابن عمه، وأخيرًا ترى أحد أفراد عائلته أمام عينيها.. لا يشبه ثامر

إطلاقًا، وجهه مليء بالحياة عكس ثامر الذي يُغطي وجهه الكدح وكأنه عاش حياته منذ طفولته محاربًا، وسيم نجد .. لكن عينا ثامر الحادة، لحيته العشوائية والتي تتناثر فيها شعرات بيض صغيرة.. أكثر فتنة بعينيها، ثامر يمثل الرجل الكامل في حياتها .. وإن قارنته بأجمل رجال الأرض سترجح كفته لا شك.

يقاطع تأملها الشخص الذي اقترب، تستعيد نفسها مجددًا لتُمسك بألوانها متظاهرة بانشغالها بالرسم.. يُطيل الشخص وقوفه، ترفع رأسها بابتسامة واسعة :" أهـ.."

تبتر كلمتها، تتضاءل ابتسامتها حتى تختفي.. يزرّق وجهها بصدمة كبيرة وعيناها تتسع، تقابلها عينان معاتبة، مشتاقة، ومتوترة.. تعقد حاجبيها وهي تحاول ازدراد ريقها الجاف، ليست متأكدة .. تشعر بأنها تتوهم، يأتي صوت هامس يؤكد شكوكها :" رغد؟ "

نعم، هذا هو .. لا أحد سواه، كيف وصل إليها؟ كيف عرفها؟ تعرفه هي من صوره ومقاطع الفيديو الكثيرة التي يرسلها لها.. لكن هو كيف استنتج وجودها وتأكد منها؟

تهتز على صوت ضحكة ثامر متناغمة مع ضحكة نجد، تستوعب وجوده.. تستوعب الجنون الذي أمامها، تنتقل

عينا الآخر لثامر المنشغل مع نجد .. يزم شفته بغيض وبذات الهمس :" هذا الكلب؟ "

يضطرب قلبها، تُنزل رأسها سريعًا وبأصابع ترتجف تعبث باللوحة وبهمس مهتز :" روح"

يُخرج هاتفه من جيبه ليكتب مسرعًا، متجاهلًا الخوف الذي بدأ يأكلها .. المجازف الأحمق الذي أمامها لا يعي من هو ثامر، ولا يعي ماذا يفعل .. عاشت أيامها الأخيرة بكل سلام لا ترغب ببعثرته الآن، يضع هاتفه على الطاولة أمامها .. تقرأ ما كتبه بالملاحظات بربكة شديدة (أبيك ضروري يا رغد، الحقيني)

تهز رأسها نفيًا وهي تشغل نفسها بريشتها، لو كان نجد غير متواجد لحلت كارثة .. يعود مجددًا ليكتب ويضع الجوال أمامها (رغد والله لأتسبب بمشكلة)

يدق قلبها برهبة، ترفع نظرها له .. لا يزال ينظر لها بذات النظرة المعاتبة المليئة بالغيض، تنقل بصرها لثامر .. يبدو وكأنه نسي وجودها تمامًا مع نجد، تزم شفتها .. لتعود للآخر وتهز رأسها إيجابًا :" خلاص روح"

يتراجع للخلف ببطء، يقف بعيدًا أمام ركن قهوة مسلطًا أنظاره نحوها.. يرتقبها، تزدرد ريقها برعب.. لا مفر منه،

تجمع قوتها لتقف .. تشعر بأنظار ثامر التي ارتفعت لها باستغراب، تزم شفتها لتهمس بربكة :" بروح شوي وأرجع"

يهز رأسه إيجابًا ببطء، نظرتها لا تشي بأنها بخير .. يعود بأنظاره سريعًا على صوت نجد :" تعرفها؟ "

يهز رأسه نفيًا متظاهرًا باللامبالاة :" لا .. بس تعطيني خبر أنتبه لركنها"

يبتسم بخبث :" أجل خلاص لاعاد تجلس تبصبص عليها كل شوي، عيب عليك البنت قاصر"

تتسع عيناه بدهشة ممزوجة بضحكة، قاصر؟ هل يراها الجميع كما يراها هو؟ بنيتها الهزيلة والضعيفة تُظهرها وكأنها مراهقة صغيرة، ماذا لو عرف نجد أن تلك (القاصر) بعمر يمامة؟

يحك جبينه بابتسامة وهو يعود لعمله :" ابشر! "

في الجانب الآخر، تسير بربكة وتوتر .. تعود بأنظارها للخلف كثيرًا خشية أن يلحق بها ثامر، تقترب من ذاك المستند على أحد الكراسي مسلطًا عيناه نحوها.. يسير، لتسير خلفه .. تفصلهما بضع خطوات، ينحني لزاوية هادئة .. ممتلئة بمخلّفات التجهيزات، لا أحد قُربهما .. والضوضاء تقل، تتبعه خشية أن يقوم بعمل جنوني، وما أن انفرد بها

يداهمها صوته الغاضب والمتوتر :" انتِ وينك؟؟؟ وين اختفيتِ؟ "

تشعر بحرارة عالية تحرقها، رقبتها بللت حجابها بالعرق.. تزدرد ريقها :" كيف عرفتني؟ "

خوفها حجب عنها التوتر الشديد الذي يغطيه، عيناه لا تثبت بمكان .. تدور بكل مكان خشية أن يراهما أحد، يمسح جبينه :" عرفتك وبس"

تنطق بسرعة :" خلاص عبدالله تكفى روح"

تنوي الالتفات والمضي بطريقها، تشعر بكفه تمسك برسغها بقوة :" على وين؟؟"

يقاطعه صوتها المرتجف :" عبدالله اتركني"

يتأمل عينيها التي تنذر عن بكاء خائف.. تتحول نظرته، ترق .. يزم شفته ليطلق تنهيدة حارة وهو يحرر كفها ويشتت أنظاره :" آسف رغد.. أرعبتك"

تمسح وجهها وعيناها، ترفعهما له على صوته :" بعدين ليش مو متغطية؟ "

تهز رأسها وهي لا تعي ماذا يقول :" بعدين بعدين "

يتأمل ارتجافها، يزم شفته بندم ليقترب قليلًا :" رغد .. هذا أنا عبدالله، لا تخافين .. والله ما آذيك"

تتعلق عيناها بعينيه، تبحث عن أمان يهدئ روعها .. نعم هو عبدالله، ذات الشاب الصغير الذي عرفته مطولًا من خلال شاشة صغيرة، يقف الآن أمامها .. ينظر لها بقلق كبير :" رغد؟ "

تزفر بقوة وهي تشتت أنظارها :" قول اللي تبيه بسرعة"

يهز رأسه بضيق :" وين رحتِ وقطعتيني؟ "

ترفع أنظارها له ووساوس كبيرة تعبث بها :" كيف عرفتني عبدالله؟ "

يتنهد بقوة، يضع كفيه بجيبه ويستند على الجدار :" قروب الرسم اللي كنتِ فيه نزلوا صور المعرض .. عرفت توقيعك رغد، عرفت لوحاتك .. - يلين صوته بعتاب شديد - مو كنتِ تصورين لي لوحاتك؟ لوحة طلال مداح .. لوحة محمد عبده.. لوحة ذاك الممثل الأمريكي مدري شسمه! "

تتسع عيناها بصدمة، تستوعب .. جميع لوحاتها المفضلة أحضرتها معها، جميع لوحاتها يعرفها عبدالله! .. للتو استوعبت كيف كان خطأها فادحًا .. ثامر الذي كان يظن أن (عبدالله) مجرد صوت ينتهي بانتهاء شريحتها ماذا سيفعل إن أدرك أن عبدالله تحول لواقع أمامها؟

يعود صوته :" رغد ما بسمح لك تنتهين مني متى ما تبين، أنتِ أكثر شخص يعرف بالأمور اللي تركتها وضحيت بها عشانك! "

تذبل عيناها، تُنزل رأسها بزفرة حارة .. تهز رأسها نفيًا :" عبدالله خلاص، كل شي انتهى .. انت تستحق وحدة مثلك"

يعتدل بوقفته بجنون :" مثلي؟ .. طيب انتِ مثلي! أنتِ أفضل مني.. أنا مابي غيرك رغد! متى تفهمين! "

تفجرها بحرقة وبدون وعي :" أنا مجهولة هوية! ما عندي شي أقدمه لك عبدالله .. خلاص روح واعتقني"

تمر لحظة صمت بينهم، تستوعب ما قالته .. ترفع نظرها له تبحث عن صدمة أو خيبة .. لا تجد شيئًا غير وجه بائس حزين، تستعيد أنفاسها .. لا يهمها ما قالته، المهم أن يعتقها الآن.. يتفجر هو الآخر بغضب وغيض :" رغد! وانتِ راضية عن وضعك؟ كذا بلا هوية ولا حياة؟ .. غسلوا مخك لهالدرجه.."

تقاطعه بسرعة وهي تسد أذنيها :" خلاص تكفى لا عاد تبدأ موالك.. خالي بيطلع الأسبوع الجاي وبنتهي من كل شي"

يهز رأسه نفيًا بقهر :" رغد مافي مجال الحين أقولك اللي أبيه .. ارجعي ادخلي تويتر وبتواصل معك .. تكفين رغد لا تقطعين"

تهز رأسها إيجابًا فقط ليعتقها، يعتدل بوقفته .. وعيناه تدور على المكان :" خلاص روحي"

وكأنها لم تصدق، كادت أن تطير لو لا صوته الذي أوقفها :" رغد"

التفتت مسرعة لتواجه وجهًا آخر غير الوجه الغاضب قبل قليل، ابتسامته الصادقة وصوته الدافئ :" على فكرة، طلعتِ حلوة يا قزمة! "

تفجرت الدماء في وجهها، اتسعت عيناها بإحراج كبير لتفر بخجلها وصوت ضحكته الهادئة يصلها، عادت إلى ركنها بخطوات متعثرة .. ليقابلها صوت ثامر القلق :" تأخرتِ! "

لم يكن نجد موجودًا، كان وحده يهز أقدامه بتوتر .. جلست في مقعدها تُخفي أنظارها عنه :" رحت الحمام "

يتفحص عينيها بدقة، تشتت أنظارها عنه :" تعبت؟ "

يزفر بقوة وهو يُلقيها كوب قهوة :" خلاص بخاطري أرجع البيت وأنام"

تأخذه منه وتصطنع الابتسامة :" شوي وينتهي المعرض"

ينتهي المعرض، يعود برغد إلى شقتها مسرعًا كي لا تفقده اليمامة .. تترجل من سيارته، ترسم ابتسامة واسعة :" شكرًا ثامر"

يرد لها الابتسامة قبل أن ينطلق مسرعًا بسيارته، تزفر بقوة وصورة عبدالله الأخيرة تتعلق في عينيها .. رعب كبير عاشته خلال دقائق، رعب مصدره أن يعرف ثامر!

تسير إلى بوابة المجمع، تعقد حاجبيها بضيق من انعكاس الضوء القوي على البوابة .. تلتفت بتلقائية لتتسع عيناها بصدمة، تشعر بالأرض تدور أسفلها وهي ترى السيارة القريبة .. تختنق بصدمة، والسيارة تسير مسرعة لتقطع الطريق وترحل بعدما أومأ لها سائقها برأسه، تتصاعد أنفاسها باضطراب .. تركض مسرعة إلى شقتها، تدخلها ورعب كبير يسيطر عليها وهي تغلق الباب بإحكام.. تتخبط بمشيتها لترمي الأكياس التي كانت بيدها بعشوائية وقبل أن تخلع عباءتها تُخرج هاتفها بسرعة وتُثبت تطبيق تويتر مجددًا .. تدخل حسابها ومع كل لحظة انتظار تنهار بخوف .. تدخل رسائلها لتكتب بسرعة :" مجنون؟؟؟ وش تسوي عبدالله.. بتدمرني انت! "

يأتي رده مسرعًا وكأنه كان ينتظر رسالتها هذه :" ما أسوي شي، بس عشان أتطمن عليك "

تكتب برجفة شديدة :" لا تتطمن! أنا بخير .. بس اتركني"

يصلها رده لتزفر بحسرة :" أنا مو بايعك وبايع نفسي لا تخافين ما بسوي شي"

ترمي هاتفها بعيدًا والرعب يتملكها، لحق بها حتى عرف منزلها؟ أي جنون ألقت نفسها به؟

يجافيها النوم، عيناها متسعة وكأنها تترقب أي حدث، لم يبقَ على خروج خالد سوى أيام .. تدعو الله أن تمر هذه الأيام بسلام، ألا يسبب لها عبدالله كارثة جديدة.

-

في منزله، يجلس منذ ساعات والصداع يداهمه .. منذ محادثتها الأخيرة، لا يعلم كيف يتصرف .. ولماذا لجأت له تحديدًا؟ هل هو حقًا يستحق الثقة؟ هل تعرف بالحرب الباردة بينه ووالدها؟ أو أن الزمان أكل على الحرب في قلب والدها حتى نسى!

يعود ليستوعب الأمر، لبت دعوة حفلة من زميلتها ..
حفلة قد تكون خُطط لها، تفاجأ بحضور غريب تجهل معظمهم، تستنكر وجود الشيشة.. أغانٍ صاخبة، وبعض المشروبات التي تجهلها.. تقرر الخروج مصدومة بما يحصل، من سيدعوها لحفلة كهذه والجميع يعرف من تكون؟ ظنت بخروجها هذا أنها انتهت من كل شيء.. لتُفاجأ بأرقام مجهولة ترسل صورها والشيشة مقابلها، وزجاجات ذهبية مرتبة خلفها .. كادت تجن، حاولت معرفة صاحب الرقم..
تواصلت مع زميلاتها الحاضرات، جميعهن يبلغنها بصدمتهن بما حصل .. صاحبة الدعوة تنكر معرفتها السابقة بماهية الحفلة، تُلقي اللوم على صديقة لها تربطها قرابة بصديقة أخرى خططت لإقامة الحفل.

والأرقام المجهولة تزيد من الرسائل، يختفي رقم ليظهر رقم آخر يرسل صورها، مذيلًا بكلام بذيء وشرح لما تحتويه الزجاجات.. تصاب بصدمة لمعرفتها أنها كانت تجلس في مجلس يتداول فيه (الخمر)!

تنوي إبلاغ والدها قبل حدوث أي مشكلة، لتصلها رسائل مهددة بأن صورها ستنتشر على جميع مواقع التواصل

الاجتماعي .. ولا يوجد شيء أكثر إثارة من صور ابنة شيخ كبير بفستان أنيق وحولها زجاجات خمر وشيشة!

تدرك أن ثقة والدها بها عالية، لكن كيف لها أن تواجهه بتلك الصور؟ وإن قام بالتبليغ باسمه لن تثق بأن تصل القضية إلى قلب مريض يجدها فرصة لخلق ضجة بين الناس .. من سيوقف تداول الصور بعد نشرها؟ من سيسمع لوالدها ويُنصفه؟ كيف تثق بأن خطيبها الذي تعلقت به كثيرًا سيستمر بتمسكه بها وهو ابن رجل عالي السمعة؟

تزيد الأمر سوءًا بخوفها، تخضع لطلب المبتز وهو يعدها بأن يحذف جميع الصور ويسلم الهاتف لها بشرط أن تأتي وتُسلم له خمسة آلاف ريال .. وبعدها سينتهي كل شيء، يعدها بأنه لن يخوض لعبة قذرة مع ابنة شيخ كبير معروف وزوجة لابن رجل أعمال كبير ورجل دين؟، أول المتضررين سيكون هو ..

تتعلق بخيط أمل تُدرك في قرارة نفسها بسهولة انقطاعه، تخرج من الجامعة إلى الاستراحة ذاتها التي أقيمت بها الحفلة .. تتسلل والهدوء يغطي المكان وبيدها المبلغ، تُفاجأ

برجل كبير وفتاة متوترة .. تلك الفتاة ليست إلا قريبة زميلتها.

كانت تنوي التراجع، لكن تلويحه للهاتف أمامها دفعها بقوة للمواصلة .. مصيرها ومستقبلها يتوقفان عند ذلك الهاتف، لن تفرط به!

تقترب الزميلة بتوتر كبير وتأخذ مظروف المال وهي تعتذر بخوف أكبر.. تثبت وهي تطلب الهاتف، يقف بخبثه الكبير .. تنوي الفرار لتصطدم بالباب يُغلق من خلفها، تفقد قوتها .. تنهار بخوف، يُسرع إليها ويشدها إليه، يسحب نقابها وضحكته تنتشر بمتعة.. يحتضنها بخبث ويقرّب وجهه ليسرق من شفتيها قبلة سريعة.

يُفلت يدها لتسقط على الأرض وأقدامها لا تحملها .. يبتعد ليُخبرها بأنه لا ينوي إيذاءها، كل ما يريده هو مبلغ شهري ..

لا تحتمل ما حصل، تصاب بأزمة نفسية تُنفرّها من كل شيء.. يزيد من أزمتها إرساله لصورة مقربة لوجهها وشفتاه تلتحم بشفتيها، إن كانت تنوي إخبار والدها مسبقًا فهذه الصورة حطمت كل شيء، تقاطع حتى خطيبها الحبيب، تستسلم لتلجأ لأستاذها أخيرًا ..

يزفر بقوة، أخطأت خطأً كبيرًا بتنفيذها لرغبته.. لا يكاد يصدق أنها (ريم) الطالبة النجيبة! كانت دائمًا ما تحل قضايا افتراضية يضعها بين يدي الطالبات.. كيف فاتها هذا؟ هل الخوف الكبير سلب تفكيرها؟ أو رجاء بأن ينتهي كل شيء دون اللجوء إلى القانون؟ دون إثبات لهوية ودون اسم والدها؟ تظن بأنها كانت تحمي اسمه لتسقط بوحل أشد سوءًا!

يصاب بهم كبير وهو يتصور أن يكون الأمر أكبر من (قبلة)، انهارت لتحكي له كل ما حصل بتخبط.. وعند هذه النقطة اكتفت بكتابة (سوى حركة قذرة فيني)، أصر على معرفة التفاصيل .. خبرته القانونية لا تدع مجالًا لإيماءات واستعارات، لتضطر بقول ما حصل.. يخشى أن خوفها يمنعها من قول ما حصل، يؤكد عليها ألا تقوم بأي تحرك جديد دون إخباره.

يذكر طلبها، أن يلجأ هو للأمن ويُبلغ باسمه .. تأتي له صورة موسى، عدوه الكبير .. كم كان ينتظر لحظة وقوعه، وها هي الفرصة تأتي تحت قدميه!

-

تستيقظ صباحًا بنشاط كبير، قضت ليلتها البارحة في ترتيب المنزل والباحة لتمحو مخلفات العاصفة.. تغتسل لترتدي ملابسها بسرعة، تجفف شعرها .. تنتهي لتتأمل مظهرها، وشاح أسود على كتفيها .. ترفعه لتلف به رأسها، تتأمل نفسها كثيرًا .. هل ستصمد؟ أو ستستمر يومين وترميه مجددًا؟

تأخذ زفيرًا عاليًا، تقف ثابتة أمام المرآة لتحدث نفسها :" يا ويلك يا هديل لو فسختيه! إذا استمريتِ أنتِ بطلة! - يتحول صوتها للوعيد - وإذا ما استمريتِ ... أنتِ ضعيفة! "

تضحك بحبور لتتفقد حقيبتها، تفتح صندوق اكسسواراتها لتُخرج السبحة التي باتت تلازمها، تبتسم بعذوبة وهي تمرر أصابعها على حباتها .. وكأنها تستشعر ملمس جلده، تلك الحبات لازمت رسغه لسنتين.. لتنتقل إليها وتلازم رسغها، شريان الحياة الذي كان ينوي إنهاءه .. تشعر به يجري بين حبات السبحة إلى شريانها.

أخبرها بأن تُبقيها معها حتى تقوى.. ويقوى والدها، تتوق جدًا لذلك اليوم .. غير أنها لا ترغب أبدًا بالانفصال عنها، تشعر بأنها أصبحت جزءًا من يدها.. لا يمكنها الفكاك عنها، أو عن صاحبها .. تزفر بضيق وتلك الحقيقة تواجهها، منذ فجر الأمس .. ومنذ وداعها له، وصورته تلازمها .. كانت تجلس في مقعدها وتلوح له، يلوح لها بابتسامة .. تفجّر قلبها فجأة، شعرت بنشوة كبيرة جعلت وجنتيها تحلّق عاليًا بابتسامة.. ابتسامة لازمتها طوال اليوم، وكأن قلبها البتول يتخلّى عن عذريته.

تُمسك بالسبحة لترفعها إلى أنفها، تستنشق رائحتها .. رائحة جلده عالقة فيها، أو هكذا تتوهم .. تلفها حول رسغها بابتسامة صغيرة وهي تستودعه الله .. يرتفع حاجباها بدهشة وهي تستوعب ما كانت تردده قبل قليل، تستودعه الله؟ منذ متى وهي تستودع الله أحد غير والديها؟

تزفر بقوة وهي تقرّ في نفسها أنه أصبح شخصًا غير عادي، لا مجال للهرب من هذه الحقيقة .. تأخذ سوار والدها القماشي لتلفه فوق السبحة، تسحب حقيبتها لتنزل الدرجات بسرعة.. تُغلق باب المنزل لتتجه إلى المطار تستقبل والديها بعد سفر علاجي لأسبوع .. لم يسبق لها أن تركاها

خلفهما كل هذه المدة، الشوق يقتلها .. تقف في الصالة تنتظر قدومهما، يعود ذاك الاستثنائي إلى بالها .. هل سيبادلها ذات الشعور يومًا؟ هل ما تعيشه هو بدايات الحب الدافئة؟ تذكر أحاديثه ونظراته .. لا يمكنها استخلاص شيء، يُشعرها أحيانًا ببروده الشديد.. لكن ابتسامته التي لم تعرفها إلا مؤخرًا تختلف.

تقطع خيالاتها المحرمة وهي ترى كفي والديها يلوحان لها، تقف بسرعة لتتلقف أحضان أبيها الضاحك.. تحتضنه بحب كبير وهي تشد عليه، تشعر بقبلاته تتوزع على خديها وعينها:" أنا شلون رحت وتركت هالأميرة وراي؟ "

تضحك بحب وعيناها تنتقل لوالدتها التي تحدق بها :" عندك أميرة ثانية تكفيك - تبتعد قليلًا عن صدره بضحكة - شوفها شلون بتاكلني من الغيرة! "

يضحك موجهًا أنظاره لزوجته وهو يضم هديل له أكثر، ترفع حاجبها بابتسامة واسعة :" انت ما تشوف شكلها الجديد؟ "

تتسع ابتسامتها لتترك والدها وتقبّل جبين أمها باحتضان خفيف، يحك جبينه عبدالعزيز متأملًا حجاب ابنته :" كبرتِ يا عيني! "

تتشبث بذراع والدها، يسيرون معًا :" انت بس ادعيلي "

تقود والدتها السيارة إلى المنزل وثرثرة هديل لا تتوقف حتى باب المنزل .. تتركهما أمها وهي تتفقد تفاصيل بيتها وحديقتها الصغيرة التي عبثت بها العاصفة، يضطجع والدها على المقعد بإنهاك تلحظه للمرة الأولى.. يضع رأسه في حضنها، يغمض عينيه وبصوت متعب :" احكي لي بعد"

تمرر أصابعها بين شعره بابتسامة سرعان ما اختفت وشعراته الرقيقة تتكوم بين أصابعها .. تكتم نفسًا ممتلئًا بالبكاء لتبتلعه، تلحظ الفراغات الكبيرة التي بدأت تملأ رأسه.. بنظالها الممتلئ بخصلات شعره، تتمالك نفسها لتنطق بابتسامة :" يبه ما ودك أحلّق لك؟ "

يفتح عينيه بسرعة ليعتدل جالسًا، ترق نظرته وهو يرى شعره يملأها .. تقف بحماس :" أراهن إنك بتطلع أوسم رجل في العالم! "

يبتسم ليقف، وسرعان ما اختل توازنه، تمتد أياديه إلى معطفها يستمد منه القوة.. أمسكت به بسرعة :" يبه بخير؟؟"

يغمض عينيه يتمالك نفسه، يهز رأسه إيجابًا ويعاود الوقوف :" بخير بخير "

تنظر له بشك ممزوج بخوف :" تبيني أطلعك غرفتكم؟ "

يهز رأسه نفيًا :" لا هذا بس تعب السفر- ينقل نظره لها بابتسامة - لا تهربين، مافي غيرك بيحلق شعري"

لا تزال تنظر له بشك، يقاطع نظرتها متظاهرًا بالقوة :" أثبت لك؟ "

لا يترك لها مجالًا للرد، يُدني جسده للأسفل ويحاوط ساقيها بذراعه وما أن رفعها قليلًا حتى اختلّ توازنه، فقدت ذراعيه القوة لتفلتها وتسقط على المقعد، مال جذعه راكعًا متمسكًا بالمقعد وصوته يتفجر بسعال حاد مختلطًا بصوتها الذي يناديه بخوف.

وقفت تشده بخوف شديد تحاول تهدئة سعاله ومساعدته على الجلوس، يزرّق وجهه وسعاله يتزايد.. يهتز جسده بقوة، يرتمي على المقعد وصوتها يختفي .. لا يشعر سوى برعشة جسده واختناق حنجرته بدماء مُرة .. تصرخ بقوة تنادي أمها وهي تمسك بوجهه، تشهق برعب وهو يُبعدها عنه لينحني أرضًا ويستفرغ مافي جوفه مختلطًا بدماء داكنة.

تختفي الضوضاء، صوت بعيد باكٍ لابنته هديل .. ثم سواد حالك يغطيه، سواد يُغيّب عنه كل شيء.. يشعر

بجسده مرميًا بصحراء قاحلة، يأتيه صوتٌ بعيد، دافئ .. وضاحك، وجه مطموس الملامح كالسراب .. يجثو فوق رأسه، لا يصله غير الصدى :" اسْلَم .. اسْلَم "

يحرك رأسه بانزعاج ليظهر له رأس آخر :" يا ولد! قوم! "

تتعالى ضحكتان، يشعر بنفسه يغرق في الصحراء تتحول رمالها لموج ثقيل يتلاطم فوق رأسه مع ضحكاتهما ، يعود صوت الأول أشد بعدًا :"مو وقتك، يلله قوم .. الحمدلله على السلامة"

يعقد حاجبيه بوجع وموج الصحراء يدفع جسده بقوة ليرفع رأسه ويشهق شهيقًا يعيد له النَفس، شعاع شديد الضياء يُجبره على إغلاق عينيه.. :" الحمدلله على السلامة"

يفتح عينيه ببطء، تظهر له خطوط السقف متقاطعة.. يستدرك نفسه، نعم هو ليس بالصحراء .. هذا سقف المستشفى الذي بات يألفه، لكن هناك رأس يحدّق به لولهة كاد يظنه ذات الوجه الذي حادثه في منامه.. ترتفع كف لتلوّح أمامه :" معي أستاذ عبدالعزيز؟ "

يتلاشى الضباب، تتضح الرؤية أمامه .. وجه لشاب جميل مبتسم يستقبله، يتحرك للخلف الشاب ليحل محله رجل كبير يتفحصه.. يستدرك ما حصل، كيف فقد نفسه

وسقط أرضًا .. كان فقط يرغب بحمل ابنته كما اعتاد حملها صغيرة، كان يريد أن يثبت لها أن والدها لا يزال قويًا كما عهدته .. أنه لن يتخلى عن تدليله لها، خانته ذراعاه.. أقرب أشيائه له تخونه حتى في حملها! كيف أصبح عاجزًا حتى عن رسم ضحكتها التي يعشقها.

يسمع تمتات ضئيلة تدور بقربه، يُغادر الطبيب .. يبقى الممرض، يتقدم له ليتأمل ملامحه بتعب .. يسجل الملاحظات، ليعود ويرفع رأسه له بابتسامة صغيرة :" الحمدلله، أزمة عارضة وتتخطاها"

يعقد حاجبيه بتعب يحاول استيعاب ما يقوله، يتحدث العربية! يستوعب توًا ملامحه .. يبتسم ويتمم بكلام غاب عن عبدالعزيز لتعبه ويغادر ..

وما أن تجاوز الآخر باب العناية الفائقة تصادفه هديل وأمها الواقفتان مع الطبيب، يقف بعيدًا منشغلًا بالملفات وعينه تراقبهما .. يشعر بهديل التي تنقل أنظارها نحوه بين الفينة والأخرى، يهز رأسه مطمئنًا .. يبتعد الطبيب، تتجه خطاهم نحوه .. يقابلهم بابتسامة :" يا خالة تطمني.. وضعه تحسن بس يحتاج يرتاح، وجودكم ما يقدم ولا يأخر شي"

تزفر بضيق كبير وتهز رأسها نفيًا، تُمسك بذراعها هديل :" يمه تكفين روحي نامي ساعتين، من أمس ما نمتِ .. بس ترتاحين تعالي وأنا بروح أرتاح"

تلقيهما ظهرها تجلس على الكرسي بإنهاك :" لا أنتِ روحي، وراك دوام"

يتراجع للخلف، يترك لهما مساحة خصوصية .. قبل انتهاء دوامه مساء الأمس صُدم بوجودها في مقر دوامه، ساءت حالة والدها كثيرًا .. دخل في غيبوبة خفيفة فاقدًا الوعي إثر تسمم لم يكن ليتأثر به لو لا جرعات الكيماوي التي تضعف مناعته، لم يمنع نفسه من مساندتهم.. تخلى عن وقته ليقضيه كله برفقتهم.

أوجعه قلبه لمنظرها وهي تُقوي والدتها، وما أن تغفى عينا أمها تلوذ ببكائها .. دائمًا ما تمارس دورًا أكبر منها، يتركهما خلفه منشغلًا بعمله..

وهي في مكانها .. تنجح في إقناع والدتها بالذهاب والعودة بعد ساعتين، تشعر باختناق كبير يقتلها بين جدران المستشفى .. تخرج إلى الباحة، تلوذ بوحدتها .. تحاول إخماد البكاء، تصاب بذعر من فكرة فراق والدها، لا أحد سواه يملأ حياتها وحياة أمها .. لا تشعر بالوقت الذي ينقضي وهي

بمكانها، إلى أن أحست بالجسد الذي يجلس بجوارها.. تُنزل رأسها لتمسح عينيها :" شكرًا يوسف"

يأتي صوته هادئًا :" واجبي"

تشعر بكفه التي امتدت لها، تلتفت لترى الكيس الورقي وكوب القهوة بين يديه :" ما فطرتِ"

تزفر بقوة لتأخذها منه، تأكل بهدوء وعيناها تضيع في العشب أمامها .. تنطق أخيرًا :" هنا تتدرب؟ "

يهز رأسه إيجابًا، تتابع :" الغريب ما عمرنا صادفناك وأبوي يجي هنا كثير"

يهز كتفيه :" قسم الأورام السرطانية مالي اختصاص فيه"

تصمت مطولًا، تنتهي من وجبتها الخفيفة .. تلتفت له لتواجه عيناه للمرة الأولى مذ جلس بجانبها، تشتتها سريعًا إثر خفقة قلبها المرتعشة :" امممم يوسف تعبناك معنا من أمس، روح ارتاح "

يبتسم ذات الابتسامة التي تصيب قلبها وهو يكتف يديه مريحًا ظهره على الكرسي :" أرد لك دينك "

تعقد حاجبيها باستغراب، يُزهر قلبها إثر كلماته وهو يدني جسده متكئًا بذراعيه على ركبتيه :" يوم من الأيام .. وقفتِ ورا بابي وانتشلتيني من الغرق .. - يرفع رأسه ليواجه عينيها -

مستحيل أنسى لك هاليوم هديل .. - يشتت عينيه حولهما - وقفتي الحين جنبك ما تسوى شي عند اللي سويتيه"

تمتلأ عيناها بالدموع ممزوجة بابتسامتها، تضيع الكلمات منها .. ترفع كفيها تنوي مسح الدمعة المعلقة ليقاطعها صوته بسرعة :" لا! .. خليها تنزل"

تتشبث عيناها بعينيه، يواصل :" قلتها لك من قبل .. ابكي، لا تحرمين عينك حق البكاء"

ترفع أقدامها لها لتضمهما على الكرسي وتنفجر ببكاء خبأته منذ سقوط والدها، تبكي كثيرًا بكاء تُخرج معه وجعها وتطرده .. تشعر بكف تحط على ظهرها، تمسح عليه برفق .. تمسح حزنها..

*•

يا طاعنًا في النأي

اسلم ..

إذا عثرت خُطاك..

واسلم..

إذا عثرت عيون الكاتبين على خَطاك

وما خطاك؟

إني أحدق في المدينة كي أراك ..

ولا أراك

إلا شميمًا من أراك

- سيد البيد

الورقة الحادية عشرة

•

تجلس في ركنها بهدوء شديد ، الطاقة التي كانت تغطيها أول يوم في المعرض تتضاءل وتخفت حتى انقضت.. تنزل عينها لتتأمل الصندوق الكرتوني المغلف بشكل متقن، ذاك المجنون أحضر لها هدية وثامر بجانبها! .. طيلة أيام المعرض كانت تراه، يأتي ليقف أمامها يتأمل لوحاتها.. يُلقي بكلمة وابتسامة أثناء انشغال ثامر، لا يعي حجم الرعب الذي بات يُلازمها ..

" رغد"

تلتفت بسرعة وتوتر، يعقد حاجبيه :" فيك شي؟ "

شيء؟ يسألها إن كان هناك (شيء) يضايقها، ألا يعي حجم الأشياء التي باتت تخنقها، حتى (المعرض) الذي كانت تُمني نفسها بأنه سينعشها تحول إلى مكان رعب يخيفها أن

تغمض عينيها فيه، الدقائق القليلة التي يبتعد فيها ثامر للصلاة أو لتفقد خالته تمر بطيئة ثقيلة على روحها، تزفر بضيق :" لا"

يتأملها مطولًا، يلحظ تغيرها المفاجئ خلال أسبوع.. حاول كثيرًا الحديث معها علّه يعرف علتها لكنها تكتفي بالابتسامة توهمه بأنها بخير.. ويعلم هو تمامًا معنى(الخير) الذي تقصده، كان يظن أنهما تسلقا الجدار الذي يفصلهما.. حتى ما عادت أي حدود تقطعهما، لكن صمتها هذا يقتله.. اليوم هو اليوم الأخير للمعرض، غدًا سيصطحبها إلى أي مكان هادئ علّها تفرّغ مافيها، قد يكون مجرد قلق من خروج خالها الذي اقترب، سيهدئ من روعها .. سيحاول إزالة هذا القلق والخوف، ويُنبهها بما تقوله وما لا يجب قوله لخالها ثانيًا ..

" ثـامـل"

يرفعان رأسيهما سريعًا على الصوت الطفولي الذي ينادي باسمه، عاقدًا حاجبيه باستغراب من طفل قد يعرفه! وسرعان ما انحلت عقدتا حاجبيه لتحل محلها ابتسامة واسعة ممزوجة بربكة مفاجئة ..

تراقبه رغد بفضول يتزايد من هذه الطفلة التي جعلت ثامر يبتسم ابتسامة نادرة وها هو يقف ليحملها على

ذراعيه ويقبّل خديها.. لا تعرف عن وجود أي طفلة في حياته! لا تعرف سوى يمامة ونجد ويوسف وعمه، هل فاتها الكثير مما يخبئه في حياته؟ .. تتسع عيناها بصدمة من فكرة غبية طرأت فجأة، هل هي ابنته؟! هل هو متزوج؟ مطلق؟ أرمل؟ .. لوهلة داهمها شعور غريب مُر، شعور بغرابتها وغرابته .. شعرت فجأة بأنها لا تعرفه، لماذا قد يضطر لإخبارها بتفاصيل حياته؟ هو منذ مدة طويلة لم يعد يثرثر عن نفسه .. منذ دخوله الثلاثين أو قبل.

ازدردت ريقها وهي ترى فتاة تتقدم بسرعة وبتوتر مادة كفيها لثامر تنوي أخذ الطفلة :" جمانة عيب! تعالي"

ترفع نظرها سريعًا لثامر إثر تغير نبرة صوته، يتأتئ .. يضم شفتيه بتوتر، عيناه لا تنفك عن عيني الطفلة.. :" اا خليها.. عادي"

تقترب الفتاة، تركز عينيها على الطفلة وكأنها تنهرها ويداها لا تزال ممدودة تنوي حمل الطفلة.. يميل ثامر قليلًا، ومع ميلانه يتأرجح قلب رغد .. حرارة شديدة تحرقها، تتحول إلى رماد خانق وعيناها تلتقط عينيه التي تشبثت بعيني تلك الواقفة أمامه تأخذ منه الطفلة، لم تكن نظرته عادية .. كانت نظرة شغف سببت حرقة لها، زفرت دخانها وهي ترى

أصابعها التي لامست كف ثامر.. لمسة واحدة كادت تفقد ثامر توازنه، اصطبغ وجهه احمرارًا وزفرة حارة تخرج منه بتلقائية .. تراجع للخلف قليلًا وتلك (الدخيلة) تحمل الطفلة بتوتر وتبتعد تاركة ثامر خلفها يتخبط، وأخرى بجانبه تأكل نفسها.. تعض شفتيها، يمسح وجهه بكفيه وكأنه يُخفي آثار تلك الفاتنة عنه وهو يجلس، تفجّر السؤال منها مجبرة وهي تعصر فرشتها :" ثامر! "

كان فاقدًا نفسه، لا يسمعها .. ناسيًا وجودها، لو لم تكن رغد لما أحسّت بتخبطه .. لكنها رغد.

كانت تنوي صفعه حتى يعود إلى صوابه ويسمعها، لكنها ألغت الفكرة وهي ترى امرأة أخرى تقترب وبجانبها تلك الفتاة المقعدة بعربتها تحرّكها وتتحدث بحماس .. خالته يمامة، تتسع ابتسامته ليقف مجددًا .. تسمع رغد صوت يمامة المرح :" ثامر! شوف مين شرّف المعرض"

لم يكن ثامر هو ثامر الذي تعرفه، وكأنه انقلب شخصًا آخر تجهله.. هل هذا هو ثامر الحقيقي؟ ثامر مع عائلته؟ لماذا كانت تشعر دومًا بأنه نسخة منها .. يُعاني ما تعانيه، وحيد كوحدتها، هل كان يتلبّس نسختها فقط أمامها حتى لا تنكسر أكثر؟ أو أن هذه الفكرة كانت تروق لها لتستشعر

بأنها ليست غريبة، ليست مجرد خطأ كبير في هذه الحياة ..
أن هناك من يُشبهها، كيف فاتها أنه رجل كباقي الناس ..
يتمتع بعائلة تهتم به، تكترث لتفاصيله، تدعمه .. أدركت لحظتها الفروق الكبيرة بينهما، تمنت لو أدركتها مسبقًا وهي طفلة لا تعرف عنه سوى أنه شاب صغير يُشاركها تفاصيلها ويتخيّر الطرفات كي تضحك فقط .. ليس الآن ومؤخرًا ..
تسمع ترحيبه الحار بالمرأة الكبيرة التي يناديها بخالتي، كانت تُصغي لكل كلمة وكل حرف .. تحلل نبرة صوته، نظرته المتغيرة ..

قاطع تحليلها هذا وقوف فتاة أمامها تتأمل لوحاتها، تُمسك بفرشتها لتعبث بها بخطوط سوداء على اللوحة ..
تحاول إخراج تلك الصورة من عينيها وكتم صوت يمامة والمرأة الكبيرة مع ثامر.. ترفع رأسها بتلقائية على صوت ثامر
:" جمانة.. تعالي"

ترفع أنظارها لتستوعب أن تلك الواقفة أمامها ليست سوى ذات الفتاة التي حملت الطفلة، تتحرر

جمانة من كفها لتحلّق إلى ثامر.. يستقبلها باحتضان كبير، ويُجلسها على فخذيه ..

داهمتها رغبة مفاجئة بتمزيق اللوحة، كانت تنوي طرد تلك الواقفة أمامها تتأمل لوحاتها .. وكأنها استجابت لرغبتها ها هي تتحرك ببطء وخجل لتقف قرب يمامة وبصوت هامس يصل إلى مسامعها :" بتشغلك! "

يرفع رأسه سريعًا مستوعبًا أنها تحدثه هو، يزداد توتره .. تلحظ رغد أصابعه التي تتحرك بعشوائية بين أصابع الطفلة، نظرته الملتهمة لعيني تلك الواقفة، يتمالك صوته .. لكن رغد ولفرط معرفتها به تلتقط اهتزاز صوته :" لا عادي - ينقل أنظاره بين يمامة وخالتها - اتركوها عندي لين تخلصون .. - يبتسم بعذوبة ناقلًا بصره للطفلة - جمانة بترسم معي ولا؟ "

يعلو صوت الطفلة بحماس وهي تتشبث به، تتمتم والدتها بإحراج ظاهر ليمامة وأمها .. يُصر على موقفه، تضطر سمر للمغادرة مع أمها ويمامة التي تشجع ثامر وتؤيده .. تتنفس الصعداء رغد وكأن ثقلًا كبيرًا فارقها، وثامر بجانبها ترتسم على شفتيه ابتسامة كريهة.. تزم شفتيها بغيض وهي تتأمله يُمسك لوحة جديدة ويضعها أمامه على الطاولة، تبدأ الطفلة تخربش بحماس وهو يُساعدها بروح مختلفة .. تضاءلت رغبة الحديث معه في داخلها ومنظره المختلف ولّد

فيها شعورًا جديدًا .. تصمت، تنزوي على نفسها، تُداري بؤسها .. آلمها عدم شعوره بها، زادها صمتًا وهما في السيارة في طريق العودة .. لا يتحدث، فكره مشغول .. اعتادت على سؤاله في الأيام الأخيرة عن سبب انزوائها، انتظرت منه هذا السؤال اليوم .. لكنه كان يحلق في عالم آخر رغد ليست ضمنه، قررت ليلة الأمس أن تخبره بكل ما حصل مع عبدالله أثناء عودتهما .. كان كل شيء مهيئًا لأن تخبره، أضواء الشوارع الخافتة .. النسيم البارد الذي يطل من نافذته المفتوحة .. صوت طلال مداح الخافت يهدهد بمقطعها المفضل وكأنه يخاطبها (قصيدتي إلا الندم .. إلا الندم ..) تطل عليها ذكرى قديمة قفزت فجأة، يوم قديم وحديث عابر بين خالها وثامر .. صوت ثامر البعيد/ القديم معلقًا على سؤال خالها الذي يتساءل عن سبب إعادته لهذا المقطع تحديدًا من الأغنية، لا زالت تذكر كلمات ثامر وهو يعبر عما يفعله هذا المقطع بقلبه، كيف يجعله يرفرف .. يختتم كلامه برغبة جامحة بأن يُسمي ابنته الأولى بـ (قصيدة)، ضحكت كثيرًا وقتها كما ضحك خالها .. يعلل بأنه لا توجد هدهدة أكثر شاعرية يغنيها لابنته قبل نومها من هذه، حديثه العابر هذا جعلها تعشق هذا المقطع.. تُرفرف

معه كما يرفرف ثامر .. لكنه الآن بجانبها، يسمع لذات المقطع دون أن يُعيده .. دون قشعريرة تصيبه، ولا ضحكة تنشرها .. ينتهي طريقهما دون حديث تعبت وهي تجهزه

-

تغرب شمس يوم الجمعة، يزيد توتره .. تراوده فكرة تأجيل الخطبة، لكن لا مجال .. والده اتفق مسبقًا مع خالها على موعد زيارتهم، يلبس ثوبه .. يضع شماغه على كتفه ممسكًا بالعقال والطاقية بعدما تطيّب، يتجه إلى غرفة والده ينشد الطمأنينة ويطرد وساوسه .. وما أن فتح الباب عقد حاجبيه باستغراب وهو يرى والده وبيده حقيبة قديمة كان يضع فيها أشياءه القديمة :" يُبه؟ "

يلتفت مسرعًا ياسر وابتسامته تسبقه :" الله على عريسنا! "

يبتسم ليتقدم وعقدته لا تزال :" كان قلت لي أساعدك"

يُغلق ياسر الحقيبة بعدما أخرج منها بشتًا عتيقًا :" تعال يابوي اجلس هنا"

يجلس نجد بجانبه على السرير، يسمع لحديث والده الذي يقلب البشت يمينًا وشمالًا :" كنت أنتظر اليوم اللي يجي وأطلع منه هالبشت .. هذا هو اللي لبسته بليلة عقدي على خالتك نورة - يتضاءل صوته باختناق يحاول إخفاءه - كان هدية من رفيق غالي "

يُدرك نجد تمامًا معنى أن يُهدى البشت، لا يُهدى إلا إيمانًا بقدر معزة المُهدى إليه :" خالي نجد؟ "

يغمض عينيه بألم، يرسم ابتسامة خفيفة :" لا .. هالرفيق تزوج قبلي، وأنا لحقته مباشرة .. كنا مقررين يتناقل البشت بينا .. بس .. - يصمت قليلًا ليعود بوجع - خالك سبقه الموت قبل لا يتزوج، وبقى هالبشت عندي على أمل يروح لعزيز ثاني - يرفع رأسه بابتسامة واسعة - كنت أقول أول من يتزوج منكم انتو الثلاث وخالك ناصر بيكون البشت من نصيبه "

يُنزل رأسه بزفرة حارة ممزوجة بابتسامة ضيقة :" يبه الله يهديك تحمست، احنا باقي ما كلمناهم .. ياخوفي بس يكون هالبشت مو من نصيبي!"

يعقد حاجبيه وبحزم وهو يشد على ركبته :" لا تتشاءم .. أنا أشوف الموافقة هالمرة قدام عيوني، تطمن"

يبتسم، تسري الطمأنينة التي كانت يبحث عنها إلى قلبه، والده يجزم بالموافقة .. إذن لا داعي للقلق، ما يراه والده لن يكون سوى حقيقة.. ووالده لا يكذب أبدًا.

يقفان، يتجهز والده للموعد القريب .. وشوق جارف يكبر في قلب نجد مع كل خطوة تقرّبه إلى منزل ثامر، يبدأ حديث والده مع خالها وثامر .. توتره الكبير حجب عنه رؤية صدمة ثامر، على عكس خالها الذي كاد يطير فرحًا .. لا يوجد من هو بكفاءة نجد، أخلاقه .. علمه.. ونسبه، يودعانهما على أمل الرد القريب بعد سماع رأيها، وقبل أن يغادرا توقف والده بحديث أخير مع خالها .. انتهز الفرصة ثامر ليهمس لنجد :" ليش ما كلمتني قبل؟ "

يبتسم بهدوء :" كنت ناوي أخبرك، بس جية خالك المفاجئة نستنا كل شي"

يزم شفتيه وهو يهز رأسه :" حصل خير .. - يعود بأنظاره لنجد متفحصًا - كنت أظنك نسيت موضوعها بعد ما رفضت! "

يزفر بضيق على حديث ثامر الذي يعكر مزاجه :" ما نسيت، كنت بطلبها دايمًا لين توافق أو يجيها نصيبها"

تحتد نظرته وكأنه يبحث عن شيء فيها :" نجد .. إن كنت تظن نفسك بتاخذها من باب الشفقة أقول لك من الحين اتركها"

يضيق صدره بحديث ثامر، لا يلومه .. هو لم يعايش حب طفولته ومراهقته :" وأنا أقولك أبيها من قلبي .. عمري ما شفتها بهالنظرة اللي تظنها، لو رفضت بتقبّل .. لكن تحرم علي جميع النساء غيرها"

تتغير نظرة ثامر، تقل حدتها .. يلحظ وللمرة الأولى لمعة عيني نجد وهو يتحدث عنها، يهز رأسه بهدوء وابتسامة صغيرة :" عمومًا ما بلقى شخص مثلك أثق فيه ويمامة معه.. - يصافحه وابتسامته تتسع- وإن وافقت اعرف إني أكثر شخص بيفرح لكم"

تتسلل ابتسامة عذبة لشفتيه وحديث ثامر يبعث فيه الفرح، لم يبقَ سوى أن تُدرك تلك الحبيبة مافي قلبه وتؤمن به .. يغادر مع والده وثقته تعلو السماء، يكاد يراها بفستانها الأبيض ممسكة بكفه .. يترك ثامر خلفه يُرتب مع خالها، كان قد قرر ليلة الأمس أن يصطحب رغد اليوم لأي

مكان ويحادثها .. لكن وجود تلك الفاتنة بمنزلهم أربكه، جعله ينسى كل شيء.. ويتخبط.

-

يستيقظ من نومه بعد مدة لا يعلم كم تجاوزت، نام نومةً طويلة بعد تعب شديد .. عوّض عن الليلة التي قضاها بجانب هديل وعائلتها، أمسك بهاتفه ليستوعب أنه تجاوز أكثر من نصف اليوم نائمًا! .. يقف مسرعًا يأخذ حمامًا سريعًا، يُصلي ما فاته .. وما أن انتهى من الصلاة يسحب هاتفه متفقدًا رسائله، إشعاران فقط .. (أخوي نجد) و (بنت الصحراء) .. ينوي فتح رسالتها أولًا غير أن شاشته أضاءت باتصال يحمل اسم (ثامر) .. يعقد حاجبيه باستغراب، مكالماته مع أخيه محدودة جدًا طوال فترة سفره، لا تتجاوز الخمس مكالمات خلال ستة أشهر.. وما أن رفع هاتفه وحادثه زال استغرابه، يُبلّغه بخطبة نجد .. وكأنه يحاول إشراكه في الأمر، لو كان في الرياض .. بحالته

القديمة تلك يجزم أنه لن يُلقي بالًا للأمر، قد يستاء قليلًا إن رفضت خالته أخاه، لكن سيمر الأمر مرور الكرام.. لكن الآن وبعد تغيره الكبير يترقب بقلق رد خالته.. بات يكترث كثيرًا، لم يعد ذاك الذي يغطيه السواد.. ينتشله نجد انتشالًا من قوقعته حتى يُخالط الناس وسرعان ما يعود أسوأ، يخشى كثيرًا من العودة .. إلى نفس المنزل القديم والغرفة الكئيبة، لا يعلم إن كان تجاوز نوبات الاكتئاب نهائيًا أو أنها ستستقبله على عتبات الرياض ..

يعود للرسائل، يفتح محادثتها أولًا .. رسالة طويلة! يستوعب للتو رسالته الأخيرة، يعقد حاجبيه يقرؤها مرارًا .. كتبها والنوم يداهمه وأرسلها مباشرة قبل أن يخطفه النوم (في حال حصل شي أنا موجود.. تصبحين على خير، وكوني قوية مثل ما عرفتك)

يقرأ ردها الطويل ومع كل حرف يتبسم قلبه قبل شفتيه (يوسف صحيح عمري ما عرفت وش يعني يكون جنبك أخ يطبطب عليك، لكن معك كل مرة أعرف أكثر .. كانت هالسنة حافلة بالمصايب لقلبي، بكل مرة يتعب فيها أبوي .. لكنها كانت سنة عظيمة لأنك معي، أنا متأكدة بتجاوز كل شي لأنك بجنبي حتى لو ما حسيت .. -تظهر رسائل أخرى

بتوقيت متأخر- يوسف أكتب لك الحين وأنا راجعة للبيت بالباص، الطريق طويل.. تحملني بثرثر كثير .. أبوي كان يقول من صغري لكل شخص مبعوث من السماء، كبرت وأنا أنتظر هالمبعوث .. كان كل مرة يضحك ويقول باقي ما وصلك لا تستعجلين.. الحين أبيه يفيق ويصحى، ببشره بإن مبعوثي دل طريقي أخيرًا .. تعرف يوسف؟ أخاف أصحى يوم وألقى هالمبعوث اختفى .. يتملكني الهلع مجرد ما تطرى الفكرة براسي، فاتني أسأل أبوي إذا هالمبعوث يبقى للأبد أو يهاجر.. بسأله بس يصحى .. كان الله في عونه، بس يصحصح بهجم عليه .. ببشره، وبسأله، وبخبره عنك وعن وقفتك.. تصبح على خير My messenger from heaven ❤️)

يقرأها كثيرًا، يعاود قراءة كل كلمة وكأنه يقرؤها للمرة الأولى .. "مبعوث السماء" هل هو حقًا جدير بأن يكون مبعوثها الخاص؟ وهل هي مبعوثه الخاص؟ هل فلسفة والدها هذه تستوعب أن يكون المبعوث مبعوثًا إلى مبعوثه هو؟ يتبادلان رسالة السماء؟

يزفر بقوة ليترك هاتفه، يحاول التملص من أحاسيسه .. يبدل ثيابه إلى ملابس دوامه، لم تتبقَ سوى ساعة ونصف على انتهاء دوامه.. لكن قلبه يدفعه للذهاب، يستقل القطار

.. يتضاءل الوقت، وكما توقع قابله وجه مديره مستاءً .. لا يكلفه بشيء، هي دقائق معدودة حتى ينتهي الدوام ..

تبحث عيناه عن مراده، لا يجدها .. يتجرأ ويسأل زميلته عن المريض (عبدالعزيز) تخبره بأنه تحسّن كثيرًا.. الزيارة انتهت قبل قليل، زوجته تجلس معه الآن .. ابنته للتو غادرت، وغدًا سيُسمح له بالمغادرة.

يحث خطاه مسرعًا إلى البوابة على أمل أن يلحق بها، لكن لا أثر .. تتباطأ خطاه، يُمسك بهاتفه بعدما فقد أمل لقياها.. يتذكر للتو رسالة أخيه نجد، يفتحها ليبتسم بهدوء (بتصيبني جلطة من التوتر.. بعد شوي بنكلم خالها .. لو رفضت هالمرة ترى بخطفها ولا تقول نجد ما قال لنا .. دعواتك تبقى سالمة ولا يضطر أخوك لعمليات جنائية )

تمنّى لحظتها لو كان يُشارك أخاه لحظاته هذه، يقف بجواره .. يُبدي مبادرة لإقناع خالته لأجل نجد، لا أحد سواه ووالده يعرفان بمدى عشق نجد الكبير.. يدعو الله أن يتوّج هذا الحب برابط شرعي يجمعهما بالحلال، يمامة خالته .. ونجد أخوه، ولن يلقَ رجل بكفاءة نجد ليصون خالته الصغيرة..

فجأة، شعر بضوء يخترق بصره.. كُتمت أنفاسه بهلع وصوت الفرامل يعلو مسببًا ضجيجًا في داخله.. يتراجع للخلف سريعًا وبتلقائية وكفه ترتفع لتحجب النور عن عينه، أنفاسه مضطربة .. دقات قلبه ترتفع..

" يوسف !! "

أنزل كفه سريعًا على الصوت الساخر والضاحك.. رفع عينيه لتصطدم بتلك الجالسة في السيارة تنظر إليه باستغراب ممزوج بضحكة :" ما توقعت بخوفك لهالدرجة! كنت أمزح! "

تغلي الدماء في رأسه، يشعر بنار توقد نفسها بين ضلوعه.. يتبخّر بدخان حارق مستوعبًا ما تقوله .. لم يشعر بنفسه إلا وهو يتقدم إلى نافذتها بخطوات غاضبة، يُدني جسده حتى يوازي نظراتها وبقسوة لم تعتدها من صوته يصرخ :" تمزحين؟ مجنونة أنتِ؟ .. لهالدرجة ما عندك دم؟ .. مريضة نفسيًا؟ لهالدرجة وصلت عندك اللامبالاة؟ ولا ودك الكل ينام عالسرير الأبيض مثل أبوك وترتاحين! .. - يعتدل بوقفته بسرعة ولازالت النار تتأجج بداخله، يضرب باب السيارة بقوة بكفه - خلاص روحي دوري لك أحد

تقتلينه بالطريق! .. - وقبل أن يخطو بسرعة مبتعدًا يرمي كلمته بخفوت- عديمة إحساس"

لا يعلم كم قضى من الوقت وهو يسير بخطوات تشتد غيضًا، الظلام يُغطي المكان .. لا سيارات ولا أصوات، تتوقف خطاه أمام المجمع الذي يعيش فيه .. يُدرك للتو أنه قطع طريقه من المستشفى إلى المنزل سيرًا على الأقدام!

يصعد إلى شقته، يرتمي على سريره بإنهاك لم يلحظه إلا الآن.. سيره الطويل كان كابوسًا، طوال الساعات التي قضاها بالسير كانت تحمل صورة بشعة .. صورة أرقت مضجعه لسنين طويلة، أمه والدم يغشاها .. وجهها الذي يطل عليه بين ركام الحديد، أنينها الموجوع .. كانت ستكون ليلة حافلة، هو وأمه فقط في مطعم مرموق.. كيف انتهت بصورة تتعلّق أمام عينيه لتذكّره بفاجعته، تغيّبه في سواد قاتل لسنين طويلة.

تنفسه يتصاعد، يحاول جاهدًا كبته .. يرفع وسادته ليغطي بها وجهه بقوة، يحاول محو تلك الصورة .. يشعر بنواقيس تضرب عروق رأسه لتفجرها، ينسى تمامًا تلك التي تركها خلفه تصارع صدمتها وخذلانها ..

وأد فرحتها بتحسن والدها، تجمّدت في مكانها على صراخه .. لا تعلم متى أفاقت من صدمتها، دموع حارة حركت جمودها .. لم تعد تعرف من هو ذاك، لا يشبه يوسف الذي علّقت نفسها به.. من هو يوسف أصلًا؟ ماذا فعلت كي ينقلب رأسًا على عقب؟

عادت إلى المنزل بنفس مكسورة، قهر كبير يخنقها .. تشعر بالهواء يثقل، تنفسها يتسارع علّ الهواء يدخل.. تخلع ثيابها وحرارة كبيرة تحرقها، تستوعب السُبحة تتدلى على صدرها .. شعرت بها تحرقها وتلفها، تذكّرها بصوته القاسي قبل قليل .. تنزعها بقوة حتى تفككت وتناثرت حباتها، تسقط ورقة صغيرة مطوية ومغلفة .. تركلها بعيدًا بقدمها حتى اختفت، لا يهمها شيء الآن.. ليذهب هو وتلك الورقة والسبحة إلى الجحيم.

ترتمي على سريرها تلتقط أنفاسها، تغمض عينيها علّها تهدأ .. يعود صوته، يهدأ ضجيجها ليرق ببكاء خافت.. لماذا يفعل ذلك؟ هل لأنه أدرك تمكّنه من قلبها؟ .. تفتح عينيها بسرعة وهي تذكر رسالتها الأخيرة .. تلتقط هاتفها بسرعة لتقرأها مجددًا، خيبة كبيرة تصيبها .. لماذا تشعر بالإهانة؟

حتى أنه لم يكلف نفسه بالرد على رسالتها التي استهلكت طاقتها.. يقابلها اليوم بوجه آخر، مخيف ..

ترمي هاتفها بعيدًا لتضم لحافها وتلوذ ببكائها، أصبحت تبكي كثيرًا .. منذ عرفته، دائمًا ما يشجعها على البكاء، وهل هذا ما يفعله الحبيب؟ تغرق بدموعها حتى يسرقها النوم

-

يُطوى الأسبوع .. تجلس أمام مكتبها الصغير ذاته القديم الذي كان يجلس أمامه نجد يُعلمها ويكتب لها، تكاد ترى ذاك الصغير جالسًا أمامها الآن بابتسامته الجميلة .. تمد كفها ببطء علّها تُمسك بطيفه، وتشده إليها .. يتضاءل ويختفي .. تزفر بقوة لتُعيد كفها إلى حضنها حيث يقبع ذاك الدفتر القديم، خطه الجميل وكلامه الصادق .. تبتسم بعذوبة وهي تعيد قراءتها مرارًا، مُنذ أخبرتها زوجة خالها بموضوع خطبته وهي تعيد قراءة الورقة .. تقرأها بشكل مختلف، خالها وزوجته وسمر جميعهم متحمسون..

تغادرها سمر إلى المحافظة الصغيرة وهي تطير فرحًا وكأن الخطبة تمت .. ثامر هادئ، يحادثها بجدية .. يطمئنها أن الوقت أمامها حتى تنقضي من اختباراتها، لن ينقل الموافقة حتى يطمئن لقرارها واقتناعها .. تلتفت قليلًا، تتأمل التعليقة التي ربطها بيديه في مقعدها.. يطمئن قلبها بعد صلاة الاستخارة، قررت البارحة أن تُطلع ثامر بقرارها .. لكن ثامر ومنذ البارحة غير موجود، رسالة واحدة فقط تخبرها بأنه (مشغول جدًا) .. لا تعلم مالذي يشغله وهو العاطل، اعتادت على عدم إفصاحه .. لا يترك عادته مذ كان صغيرًا .. لكن لا بأس لا زال أمامها وقت على أنها ترغب وبشدة أن توقف توتر اللحظة وترسو بقرارها..

-

يقف أمام البوابة الكبيرة .. يتكتف وهو يستند على سيارته، منذ ساعتين يقف هنا.. يترقب بمشاعر مضطربة لازمته منذ الأمس، عشر سنوات انقضت وكأنها لم تكن.. لا

يزال يذكر أول زيارة له، بعد انقضاء عزاء أمه مباشرة ..
انهار باكيًا ذلك اليوم أمام الشخص الوحيد الذي يستطيع
أن يتعرّى بآلامه أمامه.. كانت تلك السنين ثقيلة على قلبه،
لم يتوقع يومًا أن تأتي هذه اللحظة .. كانت كالهاجس، لكنه
الآن يشعر وكأنها كانت عاصفة عابرة، إذا فُتح هذا الباب..
ستُغلق أبواب كثيرة في حياته، سيودّع كل شيء خلفه ..
وستُفتح أبواب أخرى لمن يمثلان ماضيه وحاضره .. رغد
وخالد، ستُفتح جميع الأبواب لهما بشرط أن يتخطيان
العتبة الطويلة.. يزفر بقوة وهو يُنزل رأسه، ليلة الأمس لم
تكن أبدًا سهلة .. كانت ليلة كارثية، حطّم كل شيء فيها ..
وحطّمت هي أكثر منه، لاتزال آثارها عليه .. رجفة قلبه
ذاتها، لا يعلم بأي عقل قضى ليلته .. لا يستبعد بأنه نسي
عقله في منزلهم بجوار يمامة وفرّ إليها .. ما حدث ليلة
البارحة وفي ساعة متأخرة لا يعلم كيف حصل، ما يعلمه
أنه فقد نفسه .. تجرّد من كل حواجزه.. وصوت داخله
يُطمئنه بأنه لم يرتكب خطأً.

يرفع رأسه على صوت انفتاح البوابة، تُشرّع معلنة النهاية
.. تعكس غروب الشمس، يعتدل بوقفته مبتسمًا رافعًا
النظارة الشمسية عن عينيه.. يخطو للأمام، يرى ذاك

الجسد أخيرًا محررًا .. يرفع رأسه خالد يأخذ زفيرًا عاليًا وابتسامة كبيرة ترتسم على شفتيه.. يلتفت بسرعة على صوت رجل الأمن الضاحك وهو يبارك له، يصافحه بحرارة .. يلتفت للأمام ليقابله ذاك الوجه الباسم، الوجه الوحيد الذي لم يخذله .. يتقدم متجاوزًا الحواجز.. يقتربان من بعضهما وخالد يفتح ذراعيه بضحكة عالية وهو يتلقف حضن ثامر .. يضمان بعضهما بفرحة كبيرة، ضحكات خالد تزيد .. يرفع عقاله ليتمايل وهو يرقص بخفة، تقابله وجوه ضاحكة، وجوه تمر تستبشر وأخرى ذابلة وهي تبدأ مشوارها الأول..

يركب أخيرًا السيارة بعد شوط الرقص، يجلس ثامر بجانبه يُشغل السيارة .. تقطع الطريق وبهجته تزيد، يُعلق على كل شارع وكل حي.. كيف تغيرت الرياض وازدهرت حتى لم تعد تشبه الرياض القديمة، يضحك ثامر إثر استياء خالد الشديد من تشغيله لألبوم طلال مداح من خلال هاتفه، يوبّخه كيف يخون الأمانة .. لا شيء يعادل أشرطة الكاسيت بوفائها لفنانيها، يذكر ثامر كيف كان خالد يشتري ألبومات مكررة امتلأت بها سيارة خالد من ألبومات طلال مداح، كان يصرف ماله بسخاء شديد لكل ما يمس فنانه

الأول.. كان أكثر المعارضين لسرقة الأغاني من الانترنت وتحميلها .. يلومه خالد على تغيره، يجيبه ثامر أن الزمان هو الذي تغير .. وهو مجبر لخيانة عهد خالد بأشرطة الكاسيت التي لم تعد متوفرة.

يُطوى الطريق، يزداد شوق خالد .. وها هي سيارة ثامر تقف أمام المجمع، يلحظ ثامر توتر خالد .. يخشى ألا يجد تلك الطفلة التي يفديها بروحه تنتظره، يركبان المصعد .. تضارب مشاعر يغطيهما مع اقتراب الموعد، يزفر خالد بقوة وها هو يقف أمام الباب .. يطرقه بارتباك، يُفتح بشكل سريع لتذبل عيناه غير مصدق لما يراه .. ذات الطفلة التي تركها وحيدة قبل عشر سنوات تقف أمامه، لم تختلف .. ازداد طولها قليلًا بشكل غير ملحوظ، شعرها القصير على حاله .. يزفر بحرارة وهو يفتح ذراعيه وعيناه تلمع، ترتمي كصاروخ على صدره لتتعلق رقبته، تحتضنه بقوة وهي تبكي .. تبلل كتفه، يدفعها للأمام وهو يحتويها ويواريها بشماغه وكأنه يخبئها وبصوت متحشرج :" ثامر معي! .. ادخلي عيني"

ترفع بصرها عن كتف خالها لتتعلق عيناها بعيني ذاك الواقف على عتبات الدرج.. يبتسم لها بعذوبة، يهبط

الدرجات ووجهه لا يزال يقابلها.. يرفع كفه ملوحًا بوداع أخير، ويُلقيها ظهره ويرحل..

تغمض عينيها بشدة تبكي، يُغلق الباب بكف خالها الحرة .. ليحتضنها بكلتي يديه بحرارة، تشده لتبكي أكثر .. صورة ثامر قبل قليل تخنقها، تستوعب أن ثامر لن يعود مجددًا إلى حياتها.. أنهى مهمته وأعاد الأمانة مكسورة إلى صاحبها..

•*

يا كاهن الحيِّ
طالَ النوى
كلَّما هَلَّ نجمٌ ثَنَينَا رقابَ المَطيِّ
لِتَقْرأَ يا كاهنَ الحيِّ
فَرَتِّلْ عَلَينَا هَزِيعاً مِنَ اللَّيلِ والوطَنِ المُنْتَظَرْ
- سيد البيد

الورقة الثانية عشرة

•

تجلس منذ ساعات أمام جهازها اللوحي، تُنهي بحثها الأخير.. تُغمض عينيها بزفرة طويلة علّها تُزيح التعب، تفتحهما على صوت أمها مقاطعة وحدتها.. تجلس برفقتها بعض الوقت وحديثهما لا ينقطع، تتسع ابتسامتها، تحتضن ظهر الكرسي بيديها :" قلبي يقول لي في سالفة جاية تفتحينها معي - تغمز مدركة ملامح أمها - اعترفي! "

تزفر زفرة قصيرة مصحوبة بابتسامة تاركة كوب قهوتها :" كنت جاية أسألك عن الممرض السعودي "

تبهت ملامحها، تأكلها الصدمة بمزيج من القهر والخذلان .. تعتدل بسرعة بجلستها لتُلقي ظهرها لأمها وهي تعود لجهازها وتكتب بعشوائية :" مدري"

تعقد حاجبيها بضيق من اختلاف موقفها فجأة :" كنت أسولف لأبوك عنه...."

تقاطعها بغيض :" يمه مو كنتِ تقولين اقطعيه وياويلك تقربين منه؟ .. خلاص أبشرك قطعته مباشرة من أول ما قلتِ لي ولا دريت عنه إلا بالمستشفى"

ترفع حاجبيها بدهشة من تغير نبرتها وضيقها، تقف وتقترب منها :" يا حبيبتي ما كنت أعرف عنه، وقفته معنا ما بنساها .. ومدحته لأبوك كثير وأصر يعرفه أكثر"

تنفخ خديها لتزفر زفرة طويلة :" يا يمه مو كنتو تقولون لي لا تاخذين نظرة من موقف واحد؟ "

تهز رأسها أمها إيجابًا وبقلق :" شفتِ عليه شي مو زين؟ "

حديث أمها يسبب لها الصداع، مالذي يجعلها تفتح حديثًا عن ذاك البعيد الآن وبعد أن جاهدت لتنساه :" لا! .. أقولك ماعاد عرفته من كلمتيني، طلع من المركز من زمان وأبشّرك أنا كمان طلعت منه"

تتسع عيناها بصدمة مستوعبة حديث ابنتها :" طلعتِ؟ طيب ليش ما علمتيني؟ "

تترك جهازها بضجر لتقف وتفتح خزانتها تُخرج بجامتها معلنة نهاية الحديث :" نسيت، الحين أبي أنام ممكن؟ "
لا تُلقي بالًا لوالدتها التي غادرت بضيق شديد، تُغلق الباب خلفها بقوة لتبدل ملابسها بسرعة وعشوائية .. تنطوي على سريرها ملتفة بلحافها علّها تخمد النيران المتأججة، لا زالت تشعر بقهر كبير من حديثه .. تهز جسدها بقوة تستجدي النوم، لكن صورته تلك تتعلّق بداخلها وتسلبها الهدوء..تسحب هاتفها لتتأمل المكالمات، ثلاث مكالمات منه بأوقات متفرقة، قاومت وجاهدت جهادًا طويلًا حتى لا ترد وترمي عليه أبشع الكلام، كانت تهدئ غضبها وهي ترفض المكالمة .. تشعر بأنها بهذه الحركة البسيطة تصفعه على وجهه وترد اعتبارها قليلًا .. فجأة تقف وكأنها تذكرت شيئًا، تتجه إلى مكتبها الصغير .. تُخرج علبة رخامية صغيرة، تفتحها لتظهر لها حبات السُبحة مفككة .. تجلس لتستخرجها حبة حبة، تتلمسّها بهدوء وكأنها تعتذر لها.. تلك السبحة لا ذنب لها، لا تزال تشعر بذنب كبير يأكلها جرّاء قطعها لها.. تلك السبحة رغمًا عنه أصبحت تخصها، كيف فرّغت غضبها تلك الليلة في أحب الأشياء إلى قلبها؟ حتى استيقظت صباحًا لتلملمها وتبحث

عن كل حبة فيها .. لكنها فقدت أعظم جزء منها وأقربهم لقلبها، المنارة الطويلة .. بحثت كثيرًا لكن وكأن الأرض ابتلعتها، حتى الورقة الصغيرة تلك فقدتها معها .. فقدتها قبل أن تُروي فضولها، ترغب الآن وبشدة أن تجدها أمامها .. لن تتردد ثانية بفتحها، ستكشف ما بداخلها.. حتى وإن كانت تخصه، لا يهم .. ترضي فضولها ثم ترميها، مثله لا يستحق أن يُحافظ من أجله على أمانة.

ترجع الحبات بسرعة إلى ملاذها على صوت طرقات الباب الخفيفة، تُغلق العلبة وتُعيدها إلى مكانها وسعال والدها الخفيف يصلها خلف الباب :" هلا يُبه .. تفضل"

يفتحه ليظهر لها من خلف الباب وجهه الباسم وجسده الذي يتضاءل يومًا بعد يوم .. تحاول التأقلم على شكله الجديد، لا شعر .. تجاعيده تتزايد، عيناه تذبل .. وسعاله الذي لا يفارقه، تقف بسرعة لتُمسك بكفه:" يبه الله يهديك ما كان طلعت من غرفتك بهالبرد"

يهز رأسه نفيًا متجهًا إلى سريرها :" لا .. أنا بخير الحمدلله"

يُجلسها بجواره على السرير، يشد على كفها :" تهاوشتِ مع أمك؟ "

تتنهد بضيق :" أمداها تشكي لك؟ "

يهز رأسه نفيًا بسرعة، يبتسم ابتسامة موجوعة :" لا ما شكت لي، أنا شفتها طالعة من عندك زعلانة .. - يزفر بقوة زفرة مصحوبة بابتسامة - تعرفين وش اللي يوجع؟ "

تعقد حاجبيها بضيق، يُتابع :" حتى الشكوى من أمك أو منك ما عاد صرت أسمعها .. أبوك ضعيف لدرجة تخافون تشكون له هوشاتكم مثل زمان! "

تهز رأسها نفيًا بسرعة وهي تدني جسدها لتقبّل كفه :" لا يبه، تكفى لا تقولها.."

يطبطب على رأسها بخفة بابتسامة صغيرة، ترفعه لتعلّق عينيها بعينيه .. تتابع :" خلاص صدقني بزعجك مثل زمان وبكل ليلة بجيك أشكي"

يهز رأسه إيجابًا ولا زالت ذات الابتسامة :" ايه هذي بنيتي! "

ابتسامة أبيها وحدها من تنتشلها من ضوضائها، تُرتب فوضى روحها .. تُدرك توًا كيف كانت سيئة بحديثها مع أمها، تقف :" والحيين بروح أبوس راس أمي وأعتذر لها "

يهز رأسه مشجعًا، لا تنتظر حديثه .. تطير مسرعة إلى حيث تجلس أمها، تقبّلها وتعتذر .. تستقبل اعتذراها

بحضن دافئ، يؤكد لها أنها تملك عائلة مثالية .. لن تجد كفئًا لها وإن وزنت بها الأرض وملء الأرض ذهبا ..

تعود إلى حيث تركت والدها، يجلس في ذات المكان وعيناه تضيع بشرود كبير بين أصابع كفه التي تعبث بخاتمه.. وما إن رآها هبّ واقفًا بابتسامة :" الحين نامي، وراك دوام "

تقترب لتقبّل خدّيه ثم جبينه :" تصبح على كل شي حلو يا حلو"

يهتز بضحكة خفيفة وهو يقبّلها بالمثل، تستلقي على سريرها .. يُغطيها كما اعتادت صغيرة، يُغلق الإضاءة وقبل أن يغادر يقف :" صحيح هديل.. الممرض اللي حكت عنه أمك تعرفينه؟ "

تزدرد ريقها، هذا يعني أن أمها باحت لوالدها بمعرفته المسبقة.. تعقد حاجبيها بضيق :" مو مرة، بس كان مراجع عندنا بالمركز"

إضاءة الشارع الخافتة وحدها لم تكن كفيلة بأن تكشف ملامح والدها، غير أن صوته المتعب وصلها هامسًا :" اكتئاب؟ "

تهز رأسها إيجابًا بهدوء :" بس تجاوزه .. وطلع من المركز من زمان"

سعاله الخفيف منعه من الحديث، استند على مقبض بابها يهدّئ رئته المتعبة .. وقفت بسرعة لتُمسك به :" أوصلك غرفتك؟ "

هز رأسه نفيًا والنوبة الصغيرة تغادره، استعاد أنفاسه ليغادرها إلى غرفته ..

-

خرج هاربًا من نظرتها المودعة، يشعر بعينيها تلتصق برأسه .. تسحبه، تذكره بما حصل وبما سيحصل .. عاد إلى سيارته مسرعًا وكأنه يخشى أن يرى خالد في عينيها كل الماضي، أن تبوح له .. يعلم سبب الرجفة التي داهمته من منظرها وخالد يحتضنها ويحجبها عنه، وكأنه للتو استوعب أن الحدود التي يظنها خالد قائمة لم يلق لها بالًا .. ماذا لو عرف أنها أقرب إليه من أن تحجب شعرها عنه؟ من أنها تجلس بجواره كثيرًا بدون أي حواجز؟ .. لم يكن بمقدوره أن يفصلها عنه، كبرت هكذا فجأة ليجدها أمامه كما اعتاد ..

كيف يريد منه خالد أن يبني حواجز تعزلها عن الشخص الوحيد في حياتها؟ أقل ما سيصيبها توحد واكتئاب .. قد تجن، ولا يستبعد هذا من رغد الفتاة الهشّة ..

يوقف سيارته ليغمض عينيه ويُسند رأسه على المقود، إن برّر كل ما حصل فكيف سيبرر ليلة الأمس؟ قبلة مفاجئة كالحلم حطّت على شفتيه .. تلبّسته مشاعر أخرى، لم يع بنفسه ولم تع حتى هي .. تعود له تفاصيلها، وتفاصيل الأمس بكل ما فيه ..

كان يومًا شاقًا .. منذ الصباح غادر المنزل ليستعد لخروج خالد، أوراق ومراجعات .. عاد إلى شقتها ليتفقدها ظاهرًا، مخبئًا خلفه قلق الموعد الأخير.. كانت مضطربة .. ذابلة، لا تتحدث إلا بكلمات متقطعة.. يخشى أن يلقاها خالد بهذا الشكل، وهي تلتزم الصمت.. لا يرغب بأن تكون ساعاتهما الأخيرة بهذا الصمت.. يُجهز المجلس، يُرتب اللوحات.. يُزيل الغبار، يضع فراشًا كبيرًا وثيرًا.. تكتم اضطرابها لتساعده، ساعات طويلة وهو يتفقد كل شبر، أي جزء قد يُوحي لخالد أن من ائتمنه يخون أمانته .. يجلس بتعب شديد بعد ساعات العمل على ذات الفراش الجديد، يتصبب منه العرق .. يرفع رأسه من مكانه ليراها تقف أمامه مباشرة

ممسكة بكوب ماء بارد، من مكانه المنخفض حيث يجلس تتعلق عيناه بعينيها البعيدة .. أدرك لحظتها أن هذه ساعتهما الأخيرة، أدرك توًا لماذا هي مضطربة .. لحظة الوداع حانت، بعد ثلاثة عشر عام .. هل كانت تحسبها يومًا بعد يوم مثلما كانت تحسب أيام زنزانة خالها؟ هل كانت تبكي لأنها تفكر بهذه اللحظة؟ هو لم يستوعبها إلا الآن.. لم يخطط لمعلقة وداع، أو خطاب شكر.. كان يتناساها فقط، يتمنى لو تغادره فجأة كما دخلت حياته فجأة .. دون وداع.

امتدت يده الطويلة لتأخذ عنها كوب الماء، يرتوي منه .. لا تزال تقف في مكانها تحرك قدمها ببطء وكأنها ترسم شيئًا، يشعر بحديثها الذي لا يخرج .. بكائها ووداعها، ينهي الماء ليقف، وما أن حطّت قدمه أمامها رفع رأسه بسرعة على صوت شهقتها المتألمة :" لا! "

يعقد حاجبيه بسرعة وهو يتراجع خطوتين إلى الخلف وأنظاره تتجه إلى الأرض يبحث عمّا تراه عينها المتألمة، ينطق بسرعة :" وش في؟ "

تزفر زفرة طويلة وهي تمسح بأقدامها الأرض، وكأنها تمسح الوهم الذي ترسمه :" ولا شي، دست على رسمتي بس! "

يرفع رأسه بهدوء ليتأملها مستنكرًا بضيق.. تأخذ منه كوب الماء، تبتعد ودون أن تنظر إليه :" بتروح؟ "

يهز رأسه إيجابًا :" ايه، الساعة وحدة .. ما بتأخر على يمامة أكثر"

تحث خطاها مسرعة، تضع الكوب أمام التلفاز .. تدخل غرفتها ليصله صوتها المرتفع :" اصبر لا تروح"

يقف أمام الباب الخارجي كما طلبت، ينتظر قليلًا .. يرفع رأسه على وقع أقدامها تقترب، يعقد حاجبيه وهو يرى لوحة بين يديها .. لوحة صغيرة لا تتجاوز طول ذراعه، تشتت أنظارها في اللوحة وهي تتأملها :" بديت فيها قبل أسبوع، وما انتهيت منها إلا أمس "

يمد كفه ليسحب اللوحة، تتسع عيناه بدهشة وهو يرى وجهه مرسومًا بدقة، تنتشر الألوان لتلطّخ وجهه بعشوائية، يرفع أصابعه ليمررها على عينيه المرسومة .. ترتسم على شفتيه ابتسامة عذبة أخيرًا :" طيب ليه وجهي ملون بهالشكل! "

ترجع للخلف خطوة، تضع كفها في جيبها .. تجاهد لتبتسم بصوت مرتبك :" ما أعرف! يمكن فأل بإن حياتك تنتظرها ألوان حلوة ..."

يرفع عينه بابتسامة لتقابله عينيها الدامعة، ينوي أن ينطق غير أنها بترت كلمته وابتسامته وهي تتابع حديثها :" بعد ما نروح أنا وخالي طبعًا! .. - ترفع كفيها لتمسح وجهها وتتابع حتى تُرجع شعراتها القصيرة خلفها وكأنها تحاول مسح آثار وجهها - ما كنت تستحق يورّطك خالي، آسفة "

يعود بأنظاره إلى اللوحة مطلقًا تنهيدة :" لا ، مو مضطرة .. ديني كبير لك ولخالك - يرفع رأسه لها بذات النبرة - كان يفترض أعوّضك عن خالك، وعن أهلك .. بس أعرف إني ما نجحت"

تسمح لدمعتها الأولى بالانعتاق، يهتز صوتها باختناق ليتفجّر بكاؤها دفعة واحدة :" أيامي كلها كانت سيئة، وبشعة .. مافي أحد نجح يصحح حياتي، لا أمي ولا أبوي ولا خالي .. بس انت أقل شي وجودك كان يثبّتني بهالحياة..."

لم تكن تنتظر منه شيئًا، لا تريد كلمة يخفف بها عن بكائها .. ولا نظرة عطف ملأها بها دائمًا، كانت فقط تريد أن تبكي فراقه، أن تودّعه وهي تبكي .. لا أن تُمسك بكاءها معها للأبد ويرافقها بحسرة، أن تُجبر نفسها على تقبل فكرة عدم وجوده مستقبلًا... لتُفاجئها ذراعه وهي تجذب رقبتها لتدفن وجهها أسفل صدره والأخرى تشد على ظهرها، تكتشف

فجأة أنه يضمها بكلتي يديه، أنها الآن تُقيم في نعيم حنانه .. تسمع نبضاته، اضطراب تنفسه.. تشعر بأنفه وشفتيه أعلى رأسها، أنفاسه الحارة تحرق شعرها القصير الناعم .. تكاد تشعر بتدفق الدماء في شرايينه، تُغمض عينيها .. لم تكن تتوقع أن يكون حضنه حلو وموجع إلى هذه الدرجة، سقف أحلامها القصير منعها حتى من أن تظن أنها ستنال حضنًا يومًا ما منه، من ثامر الطويل .. أفتن الرجال لقلبها، تدعو الله ألا يعتقها منه .. أن ينسى طريقة تحريك ذراعيه ليبقى ملتصقًا بها إلى الأبد.. بهذا القرب الذي لم يتخطاه أحد قبله، تتأجج النيران فيها.. تحرقها بمشاعر تصدمها لأول مرة، تشعر بشغف ذراعيها .. ترفعهما برجفة لتحيط بظهره، تؤيد احتضانه.. تشد عليه وكأنها ترغب بسحقه داخلها، تشعر بضمأها يزيد.. وكأن نبضات قلبه التي تخترقها تزيد من جنونها ولهفتها، تنسى نفسها .. هي الآن رهن لحظة سَكَر، تدخلها بثمالة .. تفقد السيطرة على كفيها التي تبادله الاحتضان، .. ترفع رأسها أخيرًا بشغف تحاول إرواء ضمأها الذي يزداد، ضمأ لرؤية ملامح وجهه بحضرة قربها، تلفح جبينها الحرارة التي كانت تحرق شعرها .. تفتح عينيها لتصطدم بمنظر فاتن زاد شعور الفتنة الذي يتملّكها،

منحنيًا برأسه.. شعر دقنه ولحيته العشوائية تُلامس جبينها، رموشه الكثيفة مُسدلة تحجب عنها رؤية عينيه وما يختبئ خلفهما .. تفقد السيطرة على ذراعيها التي تحركت مأسورة إلى موطن الفتنة، شعرت بقشعريرة أشد وهي تُلامس شعرات دقنه .. رفعت أصابع قدميها بلهفة ثمِلة، أغمضت عينيها رهبة وابتهالًا للحظة التي سلّمت نفسها رهن شفتيه تحاول تقبيله .. مرت لحظة، ظنتها سنين وشفتيها معلقة بالهواء.. لا تقوى على الوصول، أقصر من أن تصل إلى نشوتها .. فتحت عينيها فجأة لتهبط عليها نظراته، لا تعي ماذا كانت على وشك أن تفعل .. ولا تعي ما هية نظراته، كانت عيناه معلقة بعينيها القريبة، مرت لحظة تليها لحظة ولا تزال معلقة بالهواء .. استوعبت فجأة ماذا كانت تنوي أن تفعل، شعرت بعرق شديد يتصبب منها وهي بموقفها ذاته .. يلفها بذراعيه، تقف على أصابع قدميها تحاول أن تطول .. وجهيهما المتقابلين، وكفيها التي تحتضن أسفل دقنه! .. وقبل أن تستوعب ماهية نظراته، فاجأها وهو يرفعها قليلًا بذراعيه التي تحتضنها .. وجهه القريب يهبط ليُلاصق وجهها، يزرع قبلة زلزلتها على شفتيها.. تشعر بأنها فقدت ثقل جسدها، لم تعد تملكه .. وكأنه انتزع روحها بهذه

القبلة ليرتشفها إلى روحه ونفث نارًا تصهرها، من طرف شفتها إلى أسفل قدميها تصهرها الحرارة .. حرارة لذيذة أكبر من أن تستوعبها، تنغمس معه بقبلته المحرمة .. تتخلى عن دور المتلقي لتشاركه، يتوقف دوران الساعة .. يجهلان كم مضى على قبلتهما، دقيقة .. ساعة .. سنة .. عُمر كامل.. لا ينفكّان عن بعضهما، وكأنهما يخافان من لحظة التوقف .. لحظة إدراكهما بالذنب الذي يقترفانه، خوف من المواجهة بعد ما حصل.

لم يوقظهما سوى صوت ارتطام اللوحة، ارتطام خفيف لكنه هزّ جسديهما ليتحرّرا من أسرهما لبعضهما .. وكأن صوتها أعاد لهما الوعي، نظرة غير مستوعبة يرميها كل على الآخر .. لحقتها ذراعيه وهي تتحرر من ظهرها لتهبط أصابع قدميها على الأرض بعدما كانت تحلّق عاليًا .. لم يشعر كيف كانت أنفاسه مضطربة ومرتفعة وهو يغوص في عينيها المهتزة إلا عندما شعر بصدرها يهبط ويرتفع بسرعة، تغوص عيناه بعينيها .. يبحث فيها عن رغد، لكنها لم تكن هناك .. ليست رغد التي يعرفها، وكأنه ابتلع رغد الصغيرة داخله وهو يقبلها .. يزيد اضطراب قلبه، نعم .. ابتلعها، يشعر بها داخل قلبه تطرقه بقوة وكأنها تحاول الهرب..

رائحتها الأثيرة يتنفسها بقوة لأول مرة مما يثبت له أنها تقبع داخله، تضطرب نظراته .. يشعر برجفة خفيفة تسري داخله، لا يعلم ماذا فعل وكيف فعل .. يلقيها ظهره بهروب ليفتح الباب بأصابع مرتعشة، يصدمه الهواء البارد إثر انفتاح الباب ليجمّده بعدما كان منصهرًا بحرارة، يخرج ويسحب الباب خلفه بقوة ليرتجّ أمام وجهها .. تقف في مكانها، تمدّ كفها إلى الباب لتستوعب أنه كان هنا قبل لحظات.. ترفع أصابعها لشفتيها تتحسسها لتتأكد أن ما حصل لم يكن وهمًا، لا تزال تشعر بملمسه.. أنفاسه ورائحته، كان هنا .. ثامر ذاته كان يحتضنها ويقبلها! .. لا تكاد تصدق، لا تحاول استرجاع ما حصل.. لأنها لا زالت تحت وطأة تلك القبلة.

يُفتح الباب فجأة بقوة.. تتجمد في مكانها، أصابعها لا زالت تتحسس موضع شفتيه .. يظهر من خلف الباب بشكل سريع لا تستوعبه، ينطق بصوت متوتر :" اللوحة.."

لا يدع لها مجالًا لأن تستوعب وجوده، ينحني إلى قدميها ليسحب اللوحة الملقاة بجانبها .. ويختفي مجددًا!

يُغلق الباب خلفه لينزل الدرج بخطوات مبعثرة واللوحة بين يديه، يدخل سيارته .. يُغلقها ليتنفس بقوة، يشعر

بالبلل يُغطي ياقة ثوبه، يستوعب أنه كان يتصبب عرقًا .. يعض شفتيه متذكرًا حجم خطئه، كيف تجرأ؟ رؤيتها وهي تبكي .. تودعه وتتأسف سلبت عقله، اعتاد على رؤيتها تبكي.. لكن بكاؤها هذه المرة كان بكاء وداع، أدرك أنه لن يجدها مجددًا .. لم يشعر بنفسه وهو يجذبها إليه ويحتضنها، لكن ما أن استوعب شدّها إليه أكثر، سيضمها إليه ويودعها .. يودعها وداع يليق بحجم ما يحمله في قلبه لها، لم يكن يعلم مسبقًا ما نوعية المشاعر التي يحملها لها .. لكنها كانت تحتل أكبر جزء في قلبه، ربما مثل أمه الراحلة .. وحدها بعد أمه كان يدعو الله ألا يفجعه بابتعادها، لا يرغب بأن يعيد الكرة معها .. أن ترحل بلا وداع مثل أمه ليبقى مأسورًا بندمه، ضمها إليه ولا يهمه خالد ولا تهمه الحدود التي يتجاوزها دائمًا حتى باتت منتهكة.. يتنهد بقوة وهو يمسح وجهه متذكرًا كيف طاوعها واستجاب بسرعة، كانت ترغب بتقبيله .. لا مجال لأن ينكر، شعر بأصابع قدميها التي تحاول أن تطول، وجهها الذي حاولت تقريبه .. وأصابع كفها على دقنه وخديه، وجد نفسه فجأة يحقق رغبتها .. ورغبته الكامنة، لا ينكر أن احتضانها الذي أراد به الوداع تحول إلى حضن يرغب وبشده أن يدخله فيه .. رؤيتها بتلك الحالة

فجّرت شغفه لحظة واحدة لينتهك شفتيها، كانت فاتنة بشكل لم يعهده.. لو لم تبادله القبلة لشعر بلوم كبير يأكله، لكنها كانت ثملة به كما كان ثملًا ..

يحاول نفضها عن رأسه ليستطيع تشغيل السيارة، لا يفلح .. يلوذ في مكانه وكل ما حصل يتلبسه، لا يعلم بأي حال قضى ليلته تلك .. لكنه ما استطاع الانفكاك والتخلص مما حصل حتى وجد نفسه أمام بوابة السجن ينتظر خروج خالد، يحتضنه بوجه بشوش يخبئ خلفه قبلة .. يقود بنفسه السيارة إلى شقتها مجددًا وخالها بجانبه، وها هو صاحب الأمانة يحتضنها ظنًا منه أنه أعاد إليه طفلته بكل سلام .. يودّعها بكفيه وابتسامة شفتيه ليفر مسرعًا إلى منزله .. لا يعلم كيف قاد وكيف وصل .. كانت تسيطر عليه، يدخل البيت بساعة متأخرة وبيده اللوحة، يجلس على عتبات الدرج أمام أصيص النعناع الذي زرعته اليمامة .. يزفر مرارًا وهو يتأمل اللوحة .. يدرك تمامًا أنها متعلقة به منذ سنين، يبادلها التعلق .. لكن ما كشفته ليلة الأمس أنه تجاوز (التعلق) يشعر بنبضها في قلبه، وكأنه لا يزال يحتضنها ..

يعقد حاجبيه فجأة على ملمس ورقة مخبأة في الإطار الخشبي الخلفي، يقلب اللوحة ليجد ورقة صغيرة مصفوفة .. يخرجها بعقدة حاجب سرعان ما انفكت وهو يرى الورقة .. رسمة قديمة لوجه خالد بشكل مضحك كاريكاتيري، يزفر بقوة وهو يقلب الورقة وكأنه يخشى من عيني خالد المرسومة.. لماذا شعر بعيني خالد الآن؟ ماذا فعل؟ كيف حاول أن يحافظ على أمانته ليتجاوزان الحدود في الليلة الأخيرة؟ يعلم تمامًا أنه لم يحافظ على الحدود.. لكن ليس إلى هذا الحد الذي كسره ليلة الأمس!

يرفع الورقة ليتأمل خطها الصغير خلف الرسمة (سرقتها من غرفتك ليلة عزاء أمك، كنت أخاف أفقد وجه خالي .. الحين ماعاد أحتاجها بكرة بشوفه)

يتنهد بقوة متكئًا على الجدار، يُغمض عينيه .. تلحقه ليراها حتى في جفونه، تناديه وتقبّله ..

" ثامر"

يفتح عينيه بثقل، يفز بسرعة وهو يرى يمامة تجلس على مقعدها بجواره على الدرج ملتفة بلباس الصلاة تطبطب على كتفيه :" ثامر بخير؟ "

تدور عينه في المكان، أشرقت الشمس .. يكتشف أنه نام دون أن يشعر في مكانه، يعود صوت القلقة بجواره :" ثامر! وش صار معك بسم الله"

يعتدل بجلسته بتعب، يمسح وجهه :" غفيت وماحسيت "

تعقد حاجبيها بضيق :" في الحوش وعلى الدرج؟ - تزفر بقوة - خوفتني .. صار لك يوم كامل مختفي! "

يعقد حاجبيه مستوعبًا ما حصل .. تتابع :" عمك موجود"

يفز بسرعة وكأنه للتو استيقظ :" وش تقولين؟ "

تجيب بعينين قلقة :" أقولك خوفتني، ما قدرت أنام وكلمت نجد .. راح يدور عليك وعمك جاء ينام هنا بالمجلس - بنظرة عتاب - كلنا قلقنا.. صحيت قبل شوي وشفتك مرمي عالجدار من الشباك، ما تعرف شكثر أرعبتني! "

يزفر بقوة وهو يمسح عينيه، يرفع أنظاره لها بضيق كبير :" يمامة! .. كم مرة لازم أفهمك! ما يحتاج كل ما تأخرت رحتِ تطيرين لعمي وعياله! "

بدا جليًا عليها الانكسار من كلمته، زمت شفتيها بضيق لتتراجع بكرسيها :" آسفة"

يزفر بقوة ممسكًا برأسه، يشعر بابتعاد يمامة ودخولها إلى داخل المنزل .. يلتفت ليجد اللوحة قابعة في مكانها على

الدرج، يسحبها وما أن اعتدل واقفًا التقت عيناه بعيني عمه الواقف عند باب المجلس.. زم شفتيه بضيق لينزل الدرجات، يسلم على عمه بهدوء .. لا يجد مخرجًا للهروب من عيني عمه المتفحصة :"انت بخير؟ "

يهز رأسه :" ايه بخير .. - يخلل شعره بأصابع يده- معليش عمي، يمامة أربكتم شوي"

يهز رأسه نفيًا وهو يدخل المجلس ويلحقه ثامر :" لا أبدًا .. يمامة بنتنا، بس انت الله يهديك خوفتها وتركتها طول هالوقت وحدها بدون ما تعطيها خبر"

يمسح شعره بضيق :" انشغلت شوي ونسيتها"

يرفع عينيه ليثبّتها بعيني ثامر :" انشغلت ليلتين؟ "

يتنهد بضيق مشتتًا أنظاره، ليس بمراهق حتى يخضع لاستجواب عمه .. يهز رأسه ياسر بهدوء :" عمومًا كنت ناوي أجيك من أمس .. لقيت لك وظيفة عند أبو مساعد"

يختنق بضيق لإدراكه أنه لا يزال عالة، رجل بالثلاثين طائش يضطر عمه ليبحث له عن أي عمل ليُسند نفسه ..

يهز رأسه بهدوء :" ما تقصر عمي، بكلمه اليوم .. - يتابع بعدما اعتدل بوقفته - ارتاح وبجيب لك الفطور الحين"

يلتفت ينوي الرحيل، يستوقفه صوت ياسر المتسائل :" صليت الفجر؟ "

يستوعب أن الشمس أشرقت، وصلاة الفجر فاتته.. يزم شفتيه بضيق :" الحين بصلي"

يرحل تاركًا عمه خلفه، يتأمل هيئة ابن أخيه اليتيم .. كيف كبر ثامر فجأة، كبر ولا زال ضائعًا يتوه .. لم يكن يتصور أن تكون حياته بهذا الشكل، لكن نورة ابتلاها الله بابنين يجهل ياسر كيف يتعامل معهما.. ثامر على قربه إلا أنه بعيد .. ويوسف المُلقى في غياهب نفسه.

يزفر بضيق ياسر وهو يرفع هاتفه ليتصل بنجد، ينتظره على الخط .. تعود له كلمة ثامر التي التقطها وهو يؤنب يمامة على فعلتها (عمي وعياله)، لا زال يقصي نفسه عنهم .. حتى أخيه لا يعدّه سوى ابن عم، يصله صوت نجد :" هلا يبه "

صوت يبعث فيه الراحة، يطبطب على قلبه .. :" خلاص تعال، ثامر رجع"

يستبشر صوته :" زين الحمدلله .. أنا قريب من بيت خالي وبفطر عنده، لا تنتظرني"

يستودعه الله ليغلق الخط، أبلغته يمام بعودة ثامر قبل قليل برسالة.. اتصالها المفاجئ ليلة الأمس وهو يرقد على سريره سلب عقله .. كان نائمًا ليفاجأ باتصالها، راودته جميع الظنون .. اعتقد فجأة أنها تتصل لتبلغه الموافقة! وسرعان ما سخر من فكرته الغبية وهو يسمع صوتها القلق تخبره باختفاء ثامر.. لم يكن ينوي إخبار والده، لكن مصادفته له يصلي في الصالة أجبرته على إخباره .. توجها إلى المنزل الآخر، فتحت لهما الباب والخوف يغطيها.. منظرها ذاك وعيناها الخائفة كانت تشبه عينيها تلك الليلة قبل عشر سنوات ويزيد، وكأنها كانت تخشى أن يُعاد السيناريو ذاته.. يطمئنها والده، يجلس معها بينما رحل هو ليبحث .. لم يكن يبحث، استقل سيارته ليسير بها في شوارع الرياض.. ثامر ليس طفلًا، وإن قرر البحث عنه أين سيبدأ؟ لا دليل ولا طريق يعرفه له.. لكن لأجل الخوف بعينيها طاوعها ليسير بسيارته دون هدف، تطمئنه أنه عاد وتذيّل الرسالة باعتذار صغير .. يقف أمام منزل خاله، يلمح إضاءة غرفة خاله مضاءة ليدرك أنه مستيقظ.. لا يطيل الوقوف وها هو باب خاله يُفتح، يدخل ليجلس في الباحة الصغيرة.. يشعل ناصر الحطب ليبدأ بتحضير الشاي، يلمح نجد شرود خاله

.. في الفترة الأخيرة انعزل وحده، هناك ما يشغله .. ويجهله نجد، يعقد حاجبيه بابتسامة :" خالي بخير؟ "

يزفر بابتسامة :" بخير .."

يقف ليقترب من الموقد :" والله وجهك ما يبشر بخير"

يرسم على شفتيه ابتسامة وعيناه تراقب الشاي :" تعرف، فترة اختبارات .. - يرفع حاجبيه مغيرًا دفة الحديث - وانت وش سويت بخطبتك؟ "

يحك حاجبه بابتسامة :" رهين الجواب لليوم! "

يضحك بخفة :" الله يوفقك ويكتب لك الخير"

يزفر بقوة :" متعب الانتظار! "

يراقب غليان الشاي، يسحبه ليصب لنجد كوبًا :" اركد شوي، مالك إلا أسبوع"

يرتشف الشاي الدافئ، لا يعلم خاله كم كان ثقيلًا هذا الأسبوع .. يخشى أن يُصاب بصدمة أخرى، يزم شفتيه :" ما ودي أسافر ليوسف لين أضمن الموافقة"

يسمع خاله ثرثرته وقلقه بصدر رحب، حديث نجد هذا انتشله من شتات المصيبة .. اتفق معها ليلة البارحة أن يُنهي الموضوع، يُبلغ باسمه .. ينتهي الأمر واسم والدها لا يذكر، يحميها ويحمي اسم أبيها الذي يكرهه، لا ذنب لها ..

أقسم على أن يحمي المظلومين، لن يُفسد قسمه بسبب خصومة لا علاقة لها بها.

-

يُسلم الملف الأخير ليُنهي دوامه، يخرج من بوابة المستشفى مهرولًا قبل أن يفوته الباص .. لم تبقَ سوى دقائق معدودة ..

" اا عفوًا؟ "

يتوقف فجأة ليلتفت بعقدة حاجب بسبب الكلمة العربية، يعقد حاجبيه باستغراب أشد والصوت يبدو مألوفًا .. رجل أصلع بكمامة تغطي نصف وجهه، يزيلها للأسفل بابتسامة لتزول عقدة حاجبيه بدهشة.. يتعرف على وجهه الجديد، هذا ليس إلا والدها.. يبدو مختلفًا جدًا، يزم شفتيه ليتقدم إليه بهدوء :" أستاذ عبدالعزيز؟ "

تخرج منه ضحكة قصيرة وهو يستدرك :" أوه ما عرفتني - يتقدم ليصافحه بابتسامة عذبة، يشد على كفه ولا يعتقها .. يتابع - بس تدخل الخمسين يطلع لك كل يوم شكل"

يبتسم بهدوء وعينه تنتقل إلى كفه ينتظره يعتقها، وكأنه لا يفهم رغبته يتابع بذات الابتسامة :" الله يبلغك الخمسين بكل صحة وهناء - يغمز بمزاح - مو مثل محدثك! "

يرفع عينه له لتلتحم بعينيه متأملًا ملامح الرجل الذي يقف أمامه، لا يعلم ما سر عينيه.. عيناه ليست كأي عينين مرت به، يستدرك نفسه ليهز رأسه بهدوء :" الله يطول بعمرك"

يلتفت عبدالعزيز ليسير ممسكًا بكفه، تنتقل عينا يوسف مجددًا لكفه باستنكار .. لماذا لا يعتقها؟ بل ويسير معه شادًا عليها وكأنه يعرفه، لا يعلم لماذا حضرت في باله هذه اللحظة صورة نجد وأبيه .. ممسكان بكفي بعضهما، كبر نجد ولم يتخل عن عادته هذه .. وكأنه طفل صغير لا يقطع الشارع إلا بكف والده، بينما هو يتراجع للخلف .. لا يستجيب لكف والده، وكأنه يخجل أن يُمسك به .. على نقيض نجد تمامًا، كلما كبر ازداد قربه من والده .. وهو يكتفي بتغذية حب والده لكن عن بُعد، يعتق ناظريه من

كفهما وهو يسمع حديث عبدالعزيز :" شفتك قبل ساعة وأنا طالع، بس كنت مشغول .. قلت أنتظر لين ينتهي دوامك وأمر أسلم عليك ومنها أشكرك على وقفتك .. - يطلق تنهيدة راحة مبتسمًا - في الغربة، بس تشم ريحة الوطن تحاول تتشبث بها.. وقفة لساعات مع أخوك وابن بلدك لها أثر كبير عالنفس"

يكتفي بابتسامة وبداخله يكاد يصرخ ضاحكًا، لا يعلم هذا الرجل المسكين أن ابنته لم تتورع عن ترديد قلق والدها من العرب والسعوديين خاصة! يأتي الآن ليخبره بكل بساطة أن (ريحة الوطن) تصنع صنيعًا عظيمًا بداخله! .. يبتلع كلامه ليبتسم :" واجبنا "

يقف أخيرًا ليحرر كفه، يلتفت :" وواجبنا نعشيك اليوم - يرفع كفه بسرعة يمنعه عن الحديث - لا، لا تتعذر ولا شي، بكرة السبت ماعندك دوام ..انتهينا .. عشاك عندنا"

يطلق تنهيدة صغيرة، لا يحب الاجتماعات .. يفضل النوم على سريره هذه اللحظة، لكن فتاة غاضبة تتراءى صورتها أمامه الآن تجعله يعيد تفكيره .. يفتح باب السيارة عبدالعزيز لتضطرب أنفاس يوسف، لا .. ليس مستعدًا الآن، كيف له أن يبرر .. يُمسك بكتفه عبدالعزيز يحاول

إدخاله ليفز متراجعًا إلى الخلف خطوة واحدة وباضطراب مفاجئ :" اممم .. الباص قريب، ما بتعبك"

يرفع عيناه باستنكار، يستوعب بسرعة الغباء الذي نطقه .. يزدرد ريقه ليُمسك باب السيارة ويدخلها متظاهرًا بابتسامة، يبدد إحراجه صوت عبدالعزيز الباسم وهو يركب السيارة :" تعرف .. صار لي مدة طويلة ما جلست مع شخص عربي! .. لذلك اعذرني لو شفتني متحمس"

يهز رأسه مبتسمًا بارتباك :" لا عادي"

يثرثر عبدالعزيز، لا يعلم ما يقوله .. يحاول فقط السيطرة على أنفاسه، يرجو من الله ألا يسمع دقات قلبه المرتفعة.. ببطء شديد يأخذ شهيقًا ليزفره عدة مرات، يمر الوقت ثقيلًا على قلبه .. يشعر بساقيه متصلبة، يضم أصابع يده مرات عديدة يحاول السيطرة على ارتجافها، يحاول أن يتخيل نجد أو والده يجلسان مكان عبدالعزيز علّه يطمئن.. تتوقف السيارة أخيرًا، يطلق زفرة عالية دون أن يشعر .. نعم انتهى الطريق، انتهى كابوسه، يندهش من نفسه .. كيف قاوم طيلة الوقت!

يخرجان من السيارة، يعود له سمعه .. يلحق بعبدالعزيز الذي يرحب به بحماس شديد، يفتح الباب ليدخلان ..

تنتقل عيناه بالمكان، بيتها .. من كان يظن أنه سيدخله برفقة أبيها الذي يرفض رفقة العرب كما تدعي! .. هل تعلم بوجوده؟

يدخلان غرفة متوسطة قُرب الباب، أشبه بمكتبة صغيرة .. يصله صوت عبدالعزيز :" تفضل، خذ راحتك هنا .. شوي وأرجع لك"

يبتعد ليخطو يوسف للداخل، يتأمل الأثاث .. يعقد حاجبيه ولوحة معلقة تجذبه، لوحة فان غوج الزرقاء بدواماتها.. أخبرته مسبقًا بإعجاب أبيها باللوحة، يبدو مرتبطًا جدًا بها .. تنتقل عينه للوحة بجانبها، لوحة زُينت بخط قديم مخطوط بها آية (ولمّا دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه قال إني أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون) ، فوقها لوحة أخرى بآيات أخرى حرّكت فؤاده (وقال يا أسفى على يوسف وابيضّت عيناه من الحزن فهو كظيم، قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضًا أو تكون من الهالكين، قال إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون)

تستوقفه الآية، يعيد قراءتها مرارًا .. (إنما أشكو بثي وحزني إلى الله) دائمًا ما كان يشعر بأن سورة يوسف

تخصه، كانت كالعزاء له .. يزفر بقوة ليمشي قليلًا، ينتقل إلى الجدار الآخر .. يبتسم وهو يرى صورتها، بشعرها الكثيف المجعد .. يلتفت بسرعة إثر سماعه لصوت الباب، سيكون موقفه سيئًا جدًا إن رآه عبدالعزيز يتأمل صورة ابنته! .. تقابله بوجه مصدوم وهي ممسكة بباب المنزل، وكأنها غير مستوعبة لوجوده .. يكتفي برفع كفه يلوّح بابتسامة بريئة :" سلام! "

لا تنطق .. تهرول بسرعة للداخل وتختفي ..

-

يفتح باب المنزل ليعقد حاجبيه وهو يرى والده يجلس في الجلسة الخارجية ويقابله ثامر، بينهما القهوة والتمر .. ما أن شعرا بوجوده يوجهان أنظارهما له، يقترب على كلام والده المبتسم :" الله جابك يالعريس! "

يعقد حاجبيه غير مستوعب لينقل أنظاره إلى ثامر، تقابله ابتسامة ثامر الواسعة .. يشعر باضطراب قلبه، يتقدم :" صدق؟؟؟"

يضحك ثامر :" ايه صدق، خلاص اعتقنا الحين "

ينتقل إلى والده مطلقًا زفرة كبيرة محملة بضحكة غير مصدقة، يحتضنه بقوة ومباركات والده لا تتوقف .. وأخيرًا، أخيرًا استمعت لقلبه واستجابت له .. يقف بسرعة ليصله صوت والده ضاحكًا :" على وين؟ "

يصل صوته مبتعدًا :" الحين يبه تلبسني البشت! "

تنطلق ضحكات ياسر مبتهجًا لأجل ابنه، يشاركه ثامر الضحكة .. نجد، ابن عمه .. يشعر بأنه سلب حظه وحظ أخيه وحتى عمه، دائمًا ما كانت الحياة تبتسم له وتستقبله، بينما تركل البقية من الخلف .. يصله صوت نغمة رسائل جواله، يحمله وهو يقرأ (وينك؟ أنا بغرفة الهجرة .. أنتظرك من ساعتين) يقف ليلبس حذائه :" تامر على شي عمي؟ "

يعقد حاجبيه بضيق ياسر :" وين؟ اجلس يبه باقي ما تعشيت"

يهز رأسه نفيًا :" بنام بدري، بكرة وراي موعد مع أبو مساعد "

يدعو له، يودّعه ليخرج إلى سيارته متجهًا إلى تلك الغرفة الطينية البعيدة .. مؤقت النهاية ابتدأ .. وصاحبة القبلة الدافئة تبتعد، خالد متحمس جدًا .. لم يمض على خروجه سوى يوم واحد وها هو يبتدئ مهمته من جديد، يستغرق وقتًا للوصول .. يوقف سيارته جانبًا ليسير على قدميه في الأرض المهجورة، يفتح باب الغرفة ليرى خالد جالسًا على الأرض وأمامه الصندوق القديم، ما إن رآه يمسح جبينه :" تأخرت"

يبتسم ليتقدم ويسحب الكرسي ويجلس أمامه :" تدري؟ الحين بس حسيت إن الروح رجعت لهالغرفة! "

يبتسم وهو يقلب الأوراق القديمة :" ايه أدري، ما أحتاجك تأكد لي "

يضحك بخفة ليرمي ملف شفاف به مجموعة أوراق عند أقدام خالد :" اتركك من هالخرابة اللي بيدك وشوف الكنز اللي طحت عليه! "

*•

هذا صباحٌ واقفٌ بالباب
هذا عاشقٌ طفلٌ يباغته الرفاق
مضرّجًا بالشهوة الأولى فيقطر
من ملامحه حياءٌ ناصعٌ ويبوحُ
باللونِ البهيِّ
ويرتقي شجرَ الفؤاد
متعثرًا بالجوعِ والحمى وخارطةَ البلاد
وجهٌ صباحيٌّ، وأسئلةٌ، وصوتٌ شاحبٌ،
وأصابعٌ سمرٌ يلوّنها المداد...
سيد البيد

الورقة الثالثة عشرة

•

يضحك بخفة ليرمي ملف شفاف به مجموعة أوراق عند أقدام خالد :" اتركك من هالخرابة اللي بيدك وشوف الكنز اللي طحت عليه! "

يعقد حاجبيه باهتمام ليسحب الملف ويستخرج الأوراق منه :" وش ذا؟ "

يطلق ضحكة سخرية :" الشيخ موسى - يبتسم بخبث - أخوك الله يرحمه كان ما يتعامل إلا مع ناس من الوزن الثقيل! مو مثلك الله يخلف عليك"

تبهت ملامحه بصدمة، يرفع أنظاره بسرعة لثامر :" لا! مو معقول"

يُخرج سيجارة يضعها بفمه، وقبل أن يشعلها يوقفه خالد :" اتركك من هالسم"

تتوقف أصابعه لتسحب السيجارة وتعيدها إلى كرتونها :" صار سم الحين؟ "

يترك الصندوق الذي أمامه، يقف ليسحب كرسيًا مهترئًا أمام ثامر وهو يقلب الأوراق :" الحسنة العظيمة اللي طلعت منها بالسجن تركي لهاالمرض"

يسحب عجلات الكرسي ليقترب من خالد، يخطف صورة من بين الأوراق ليثبتها أمام ناظريه.. يشير لأحد الأربعة في الصورة :" تعرف هذا؟ هذا اسمه يوسف .. - يعود بأنظاره إلى الصورة ليشير إلى الشخص الآخر المشابه تمامًا لرفيقه - ذا أو ذا .. ما أعرف، المهم واحد اسمه يوسف، والثاني يعقوب .. - تتسع ابتسامته وهو ينتقل بأصابعه لشخص ثالث - وهذا .. عمي ياسر"

يقاطعه بسرعة خالد بملامح الدهشة وعدم الاستيعاب :" ثامر! .. هذا عمك، ياسر.. ما نبي ندخله بمتاهة! "

يرفع كفه ليهدئه بذات الابتسامة :" اصبر اصبر .. ما قلت بنورط عمي، عمي مستحيل أسمح يصيبه شي.. - يعود ليشير لآخر شاب في الصورة - هذا ... مربط الفرس، هذا نجد .. تعرف مين يكون نجد؟ "

يهز رأسه نفيًا بسرعة :" ثامر قول اللي عندك من دون هالمقدمات، وترتني! "

يضع الصورة بينهما، يشير لأحد التوأمين :" نفترض هذا يوسف والثاني يعقوب، هذا يوسف الله يرحمه أطلق عليه بالخطأ هذا - يشير إلى نجد - نجد الله يرحمه، جاء صاحب الفزعة هذا - يشير إلى التوأم الآخر - يعقوب وأطلق متعمد على نجد .. صار عندنا ضحيتين، واحد مقتول خطأ والثاني مقتول عمد، فهمت؟ "

يهز رأسه خالد مندمجًا :" ايه، بس وش علاقة عمك! "

يتابع :" ولا شي، هذا نجد الله يسلمك يكون خال نجد ولد عمي ياسر .. عقدة الموضوع إن أهل نجد ما قبلوا بالدية وطالبوا بالدم .. - بسخرية شديدة - والشيخ المبجل، الشيخ موسى.. أخو التوأم طلعت شياطينيه ولجأ لأخوك المرحوم .. ".

يقاطعه خالد مستوعبًا :" يزور هوية لأخوه يحميه! "

يبتسم :" برافو .. وتحول القاتل المطلوب - يُمسك بورقة قديمة مصورة عن هوية باسم يعقوب- من يعقوب العبدالله إلى - يسحب إحدى الأوراق ليضعها أمام خالد - السيد عبدالعزيز بن فهد بن عبدالرحمن ..- يرمي صورة من

الهوية المزورة - واختفى يعقوب ليومك هذا، ولهاليوم الأخ ناصر يدور عليه ورافع القضية ومو متنازل عنها"

يتجمد خالد يستوعب القصة من البداية، يعود صوت ثامر ضاحكًا :" والقدر العظيم ساق طفل يتيم صغير لمدرسة خربانة بوسط الرياض ليلتقي بأستاذه الفنان .. ويكتشف بعد كل هالسنين إن ورقة المطلوب القديم اللي ما يعرفه مدفونة بهالصندوق من سنين طويلة! "

يلملم خالد الأوراق بسرعة، يسحب ولاعة ثامر ليشعلها.. وقبل أن يتمكّن من تقريب الأوراق توقفه كف ثامر وهي تسحب الولاعة بصدمة :" وش تسوي؟؟؟"

يهز رأسه بشتات وضيق :" انسى، هالفكرة طلعها من راسك .. لا تطرى على بالك مرة ثانية"

تتحول الصدمة إلى ثامر :" وش؟ أنساها؟ بعقلك يا خالد! "

يهز رأسه تأكيدًا واقفًا يدور حول الكرسي :" ايه بعقلي، انت اللي مو بعقلك! .. - يقترب منه بعدم استيعاب - وش صاير لعقلك! .. اوك احنا مخالفين وقول عني مجرم بس لا تفكر إني ممكن أكون نذل وألف يد رجال صالح وشيخ! "

يطلق ضحكة سخرية ممزوجة بقهر :" صالح وشيخ! .. خالد لا تصدمني، مو انت كنت تقول لي تبي تدبر أي شخص تعامل معك أو مع أخوك تبتزه بالتزوير وتاخذ منه الفلوس اللي تسد حاجتك! .. ولا حلال على الناس الضعيفين وحرام على الشيخ! .. يكون بعلمك هذا مو شيخ هذا كذاب سايقها عالناس"

تتسع عينا خالد بصدمة :" لا تتهمه! .. انت أصلًا عمرك شفته؟ عمرك تعاملت معه؟ هذا أنا أعرفه أكثر منك، نص المديونين بالسجن قضى بنفسه ديونهم .. كان قايم بأهل السجناء، كم مرة كان يجي يزورنا ويتعامل معنا كأنه واحد منا! "

يهز رأسه نفيًا بضيق وخسارة :" طيب والمسكين اللي لليوم يتحسب عليه؟ لليوم مقهور على أخوه "

يقاطعه خالد بغيض :" هذي مشكلة ناصر! .. خلاص راحوا الاثنين الله يرحمهم"

يزفر بضيق :" ناصر قهره عالكذب والخديعة أكبر من قهره عالدم .. ممكن لو كان واجهوه قدر يسامح، بس بهالطريقة الخداعة؟ ويدعي إنه شيخ؟ "

يهز رأسه بسرعة ليُسكت ثامر :" خلاص انسى موضوع الشيخ، ثامر! هذا دم .. أنا أبي ورقة معاملة ولا أرض ولا شهادة ولا أي شي .. بس مو دم! "

يسحب ثامر الأوراق ليلملمها بخيبة :"عمومًا أنا فضلت أسكت وأمشي معك على حساب ناصر - يقف وبضيق شديد - هم خيارين مالهم ثالث .. بتستخدم هالأوراق وبتاخذ منه الفلوس وبعدها نحرقها ولا نسلمها له وينتهي مننا مو خسران إلا كم ريال مو فارقة معه .. أو ألقى طريقة توصل هالأوراق لناصر، وصدقني .. ناصر ما بيرضى بغير الدم "

تتعلق عيناه بوجه خالد المذهول، يتابع بهدوء :" فكر فيها .. فلوس ما تفرق معه أو دم أخوه وسمعته! "

يزفر بقوة نافثًا الهواء الذي بات يكتمه، يتراجع للخلف ليجلس على الكرسي .. يحاول التعرف على عيني ثامر، ذاك الطفل الذي أحبه .. الطفل المشاغب الذي يكرهه جميع المدرسين ويهابه أبناء الحي، يهز رأسه بضيق :" والله مافيني قوة أواجه الشيخ موسى! "

يلين صوت ثامر، ينطق متعلقًا بأمل ضئيل :" إذا ما تبي تواجهه عندك خيار ثالث .. - يتقدم ليسحب الكرسي

ويجلس مجددًا أمامه، يشد على ركبته - كنسل فكرة الهرب.."

يقاطعه خالد بسرعة :" لا .. مستحيل"

يعود ثامر ليشد عليه، بصوت راجٍ :" خالد اسمعني.. مافي شي تخاف منه الحين، انت تعرف إن الجماعات الإرهابية انتهى وجودها "

تذبل عينا خالد بحزن ممزوج بقلق .. يرفعهما بعيني ثامر :" خوفي من عمها، تعرف انت انه خرج من السجن من زمان .. وهذا اللي مرعبني، الحين مو مسألة إرهاب .. مسألة حرب شخصية، يبون بنتهم.. وأنا أقدم روحي ولا يلمسونها وأنا أعرف قذارتهم"

يذكر جيدًا ثامر تلك الليلة، قبل أحدى عشر عامًا .. كيف كان التوتر يقضي على خالد إثر سماعه لخبر الإفراج عن عمها، تحوّل التوتر إلى رعب وتهديدات عمها تصله.. كيف أمسك به قُرب بوابة المدرسة مهددًا، أدرك حينها أنه وقع في فخ .. معاملة تزوير لم يكن وراءها سوى بعض معارف عمها ليوقعوه بين أيدي الشرطة، رسالة واحدة استطاع إرسالها إلى ثامر بحروف مبعثرة (طلّعها من البيت)، يثق أن ثامر يفهم كل حرف وما يعنيه.. ليفر بها مسرعًا إلى

حيث لا يعلم، قبل دقائق فقط من اقتحام عمها المنزل القديم باحثًا عنها، لو لا ثامر لكانت بين أيديهم.. قضت معه ساعات طويلة كمشردين في الشارع، لا رسالة تصله من خالد لتدله، كان مشوشًا لم يجد مخبأ غير مستودع صغير في منزلهم يقضيان فيه ليلتهما .. تصله أخيرًا رسالة من رقم مجهول ليدرك أنه خالد يُخبره أن الوقت ينفذ وأن ساعة الرحيل حانت، يتسلل بها فجرًا إلى شقة في حي شعبي دله عليها خالد برسالته.. ساعات طويلة مرعبة، تنقضي بخبر وفاة أمه ..

يزفر بقوة وهو ينفث تلك الذكرى :" مضت أكثر من عشر سنين خالد وهو ما يدل لها طريق .. مافي شي يخليه يتمسك بها لهالحد، صدقني نساها "

يهز رأسه بيأس :" مابي نعيش بقية عمرنا بخوف وقلق .. - يحترق صوته بقهر - ثامر أنا ما لقيت رغد! .. اللي بالشقة مو رغد! "

تتجمد عيناه بصدمة، يتراجع بكرسيه للخلف وعيناه مضطربة .. هل كشف فعلته؟ هل باحت بكل شيء؟ يتابع خالد بذات اليأس :" تعبانة ومافيها روح، أنا اللي أتعبتها .. حياتها كلها شقى، أبي آخذها بعيد .. أبيها تنسى كل شي

وتبدا من جديد، أبيها حتى تنسى اسمها واسم خالد.. - بقلة حيلة يزفر - ثامر أبيها تولد من جديد! "

لا يقوى على الاستمرار بالنظر في عينيه، نعم رغد (تعبانة ومافيها روح) .. نعم خالد تسبب بكل شيء بعد والديها، ونعم هو كان شريكًا لخالد.. خالد يظنه يُطلع ثامر بخبر جديد، لا يعلم أن ثامر أكثر الناس معرفة بهذا .. يتراجع بكرسيه إلى الخلف، يُلقي خالد جانبه الأيمن .. يغرقان بصمت موحش، يُغمض عينيه بزفرة عالية.. قبلته لها، زادت الأمر سوءًا .. يعلم تمامًا كيف هي هشة وتتعلّق بأي غصن وإن كان ذابلًا، ما حصل سيزيدها تعلقًا .. سيُمرضها أكثر، أما هو يعلم تمامًا أنها راحلة.. سرق هذه القبلة ليحتفظ بها إلى الأبد ويخبئها داخله ويُكمل حياته وهي معه .. لكن هي، لا يثق بقوتها ..

يرفع رأسه على صوت خالد البائس :" محتاج للفلوس والله عشانها، ما ودي ألوي يد الشيخ .. بس ما بيدي حيلة! "

-

تجلس منذ ساعة أمام نافذة المطبخ تحاول استراقة السمع، تُزيح الستار قليلًا وقبل أن تتمكن من التلصص يأتيها صوت أمها هامسًا بغضب :" هديل! "

تلتفت بسرعة تاركة الستار، تبادل أمها ذات الهمس :" يمه ودي أعرف وش يقولون! "

تتقدم لتجرها من يدها وتُبعدها عن النافذة :" اتركي عنك اللقافة وتعالي ساعديني"

تزفر بضيق وفضولها يكاد يقتلها، تُساعد أمها بترتيب المطبخ وأسئلتها لا تتوقف (غريبة وش يبي منه أبوي؟) (يمه ما كأنه تأخر!) (وش تتوقعين يقولون؟) (ليش طولوا بالسوالف!)

ترد على أسئلتها بضحكة من فضولها، تنتهيان من المطبخ لتترك أمها في الصالة تقرأ كتابًا .. تصعد إلى غرفتها بسرعة، تغلق الإضاءة لتتوجه إلى النافذة الزجاجية .. تزيح الستار قليلًا، تراه أخيرًا يجلس برفقة والدها في حديقة منزلهم الصغيرة .. تفصلهما طاولة صغيرة محملة بالتمر والحلا والقهوة، مضت ساعات ولا يزال في منزلهم .. تشعر بالجو الحميمي يغطيهما، وكأن أباها يعرفه منذ زمن.. أما هو

يجلس مقابله صامتًا معظم الوقت غير أن ابتسامته لا تكاد تفارقه، تنطلق ضحكته متزامنة مع ضحكة والدها لتصلها.. تتنهد بضيق، اشتاقت له كثيرًا .. لا يُمكنها أن تنكر، لكن غضبها منه أشد ..

تتراجع للخلف قليلًا وهي ترى والدها يقف ويدخل المنزل بعد حديث قصير وكأنه يستأذنه، تعود مجددًا لمكانها .. تُزيح الستار لتراقبه بحرية أكثر، يُمسك بهاتفه ليقطع الوقت وهو يرتشف قهوة أمها .. يقطع تأملها صوت نغمة الواتس آب، تُخرج هاتفها من جيبها لتتسع عيناها بصدمة وهي ترى اسمه .. تتراجع للخلف قليلًا بربكة، تفتح الرسالة بتوتر لتزيد صدمتها .. تشهق مذهولة وهي تُكبر الصورة التي أرسلها، صورة لنافذة غرفتها وجزء صغير من رأسها يطل من خلف الستار مذيلة بحروف زادتها إحراجًا (مبعوث السماء الخاص فيني يقول في كائن بشري صار له ساعة معلق بالستار يراقبك! لذلك خذ احتياطاتك واحذر!)

تضرب نفسها بإحراج يأكلها :" الله ياخذك يا هديل! يا مريضة "

تُسرع إلى سريرها لتندس فيه وكأنها تخشى أنه لا يزال يراها وهي تهز جسدها علّها تنسى ما أوقعت نفسها فيه :" غبية، مجنونة، يع متى بعقل"

تتوقف فجأة لتُمسك بهاتفها وتكتب مسرعة (مين قالك إنك وحدك تحت؟ أبوي تحت وأبي أتطمن عليه)

يأتي رده سريعًا (صحيح نسيت إني سعودي يعني زومبي باكل أبوك)

تنفلت منها ضحكة مجبرة، غير أنها تكتب متظاهرة باللامبالاة (ظريف!)

تهز قدميها تنتظر رده بشغف، تختفي (متصل الآن) لتدرك أنه ترك هاتفه .. ينتابها الفضول لتعود إلى مكانها قرب النافذة مجددًا وبحذر شديد، تراه يقف أمام والدها يلبس معطفه .. يودّعه والدها وهو يحتضنه بخفة، وها هو يخرج من بوابة المنزل .. وقبل أن يبتعد أكثر يرفع رأسه بسرعة ليرمي نظرة خاطفة على نافذتها ويرحل .. تزفر بضيق شديد لتعود إلى سريرها، تعيد قراءة جميع رسائلهم .. تقفز جالسة ورسالة جديدة تصلها (مبعوث السماء يقول الكائن البشري زعلان لذلك لازم تعزمه على قهوته المفضلة بكرة الصبح)

تشعر بقشعريرة جميلة تسري فيها وهو يتحسس خطأه، تتسع ابتسامتها لتكتب (مبعوثك ثرثار مرة، لاحظت؟)

يكتب (أتفق معك)

يضيع الكلام منها، لا تجد غير ابتسامة ناعمة تدغدغ وجهها .. يعود مجددًا برسالة (مبعوثك يقول إنك موافقة على دعوة القهوة)

تعقد حاجبيها مستنكرة، لن توافق بهذه السرعة على أن قلبها متلهف .. تماشيه لتكتب (وش عرفك بمبعوثي؟)

يكتفي بإرسال كلمتين قلبت موازينها لتغوص بدوامة الإحراج مجددًا (لأنه أنا)

يذكرها برسالتها تلك، ترتمي على سريرها والابتسامة تشق طريقها .. تُبعد هاتفها بعيدًا، لن ترد عليه .. لن تظهر بمظهر المتلهفة لاعتذاره وإن كانت حقًا متلهفة .. يُفارقها النوم وصورته الفاتنة تتراءى لها، صدق والدها بقوله إن كل من يحمل اسم يوسف هو فاتن وجميل تمامًا كعمها الراحل الذي لا تعرف عنه شيءًًا غير قصص والدها ..

•

يدخل بوابة المقبرة، محملًا بالبشرى .. المقبرة ذاك المكان الموحش في نظر الناس، وحده من يستأنس به .. المقبرة لا تضم سوى أجساد أحبابه، أما أرواحهم فهي حية تحلّق حوله .. اليوم هو يوم استثنائي، منذ مدة لم يحمل بشرى كهذه.. يجلس بجانب قبرها، يسلم عليها ويدعو لها .. يصافح تربتها وهو يربت عليها، يبتسم بحنين :" ابنك كبر يا جوزاء قلبي .. أبشرك قربت أزفه "

يُمسك بالتربة، ينثرها بهدوء مجددًا :" ما لحقتِ تشوفينه يكبر، بس أطمنك ماخذ ملامح خاله .. كل ما شفته عرفت إن نجد أخوك ما مات، هو رجع لي بس بروح جديدة .. بروح نجد .. - يصمت قليلًا وكأنه يسمع صوتها يشد عليه، يتابع - اليمامة .. تذكرينها وهي صغيرة، كنتِ تشوفين شكثر نجد متعلق فيها .. وكنتِ تقولين هالصغيرة أخذ الله منها نعمة المشي بس عطاها نعمة قلب ولدي.. - يضحك بخفة ليتابع -

ما ألومك قلب نجد ما هو أي قلب .. يحق لها تفتخر إنها أخذت قلبه، قلبه كبير يشيل الدنيا كلها .. مثلك تمامًا "

يطلق تنهيدة طويلة، يفتح قارورة الماء ليسقي قبرها :" جيت أبشرك إنها وافقت .. الحين بروح أسلم على أخوي عمر وعلى نجد ويوسف.. - يجمع بكفه ترابها ليُقبله- الله يرحمك يا روحي ويجمعني بك"

ينفث التراب مجددًا على قبرها كي تصل قبلته لها، يقف ليتوجه إلى قبر أخيه .. يدعو له ويسلم عليه، يسقيه لينتقل إلى القبرين المتجاورين .. يلمح جسدًا واقفًا أمام قبر يوسف، يقرع قلبه طبوله .. هذا موسى، منذ متى لم يواجهه؟ يهربان من بعضهما وكأن كل منهما يخشى أن يبكي فراق أحبته أمام الآخر .. تتقدم خطاه، ليقترب .. :" السلام عليكم "

يرفع موسى عينيه بعدما كانت معلقة بين كفيه، يلحظ ياسر صدمته .. غير أنه يوازن نفسه :" وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته "

يتقدم ياسر ليقف بجواره، يرفع كفه ليدعو لهما .. دعاءً طويلًا يتخلله حديث بقلبه..

" تذكر صوته؟ "

يعقد حاجبيه على سؤال موسى الغريب، يُنزل كفه ليأخذ نفسًا عميقًا .. يُتابع موسى موضحًا :" أقصد يوسف "

يبتسم، تضيع عيناه بين القبرين :" ايه أذكره، وأذكر ضحكته "

يعود صوت موسى يائسًا :" صوته يتلاشى، صرت أشك إنه صوته .. يمكن أتوهمه وأقنع نفسي إن هذا صوته"

ترتفع كف ياسر لتحط على كتفه، يشد عليه بابتسامة :" لا هذا صوته، كن متأكد ولا فعلًا بيتلاشى وبتنساه "

يزفر بقوة هازًا رأسه، يلتفت عليه :" وش مسوي بحياتك؟ .. قطعنا الشيطان عن بعض حتى نسينا نقوم بالواجب"

يهز رأسه مؤكدًا بضيق، يعرف موسى جيدًا .. في مواقع التواصل والتلفاز والأخبار، شهد على تقدم عمره.. حتى باتت لحيته بيضاء .. يبتسم :" كبرت وبزوّج ولدي قريب "

تتسع ابتسامة موسى، يسيران معًا خارجين من المقبرة :" وأنا بزوّج وحيدتي بعد شهر "

يلتفت بسرعة غير مستوعب، يهز رأسه بابتسامة :" ايه الله رزقني بها بعد تعب دام ١٥ سنة"

يطبطب على كتف ياسر بذات الابتسامة " الله ما ينسى الصابرين "

يودّعه ياسر بعد حديث قصير، يركب سيارته والابتسامة تغطيه .. كان موسى شغوفًا بأن يُرزق بطفل، حُرم سنين طويلة وها هو يبشره بأن ابنته كبرت ليزوجها، كيف مضت السنين بهذه السرعة دون أن يدرك؟ يرفع أصابع كفه ليتحسس لحيته .. يغطيها البياض مختلطًا بالسواد، حتى هو كبر دون أن يشعر..

-

تقف السيارة بجانب الحي، يسحب الملف الورقي الأبيض وقبل أن يفتح باب السيارة تصله زفرة خالد :" اجلس انت، مابي أورطك"

يبتسم :" صدقني مستحيل يصير شي إلا اللي نبيه، هو مو مستعد يفضحنا ويفضح نفسه وكل البلد تعرفه! "

يتأمله مطولًا بتردد، يقطع تأمله ثامر يفتح باب السيارة والملف بيده .. يغلق الباب ويسير على قدميه داخل الحي، يمشي مطولًا بين البيوت الكبيرة والحي الفارِه .. حي يوحي بمكانة سكانه، تتوقف أقدامه أمام إحدى الفلل الكبيرة ..

يرى رجلًا عربيًا يسقي الأشجار التي تحيط بأسوار المنزل، يقترب وهو يعدل شماغه :" السلام عليكم يا عم"

دون أن يلتفت عليه يرد وهو منشغل بما في يديه :" وعليكم السلام ورحمة الله "

يعقد حاجبيه :" هذا بيت الشيخ موسى الله يطول بعمره؟ "

على حاله لا يُلقي له بالًا :" وصلت "

يزم شفتيه، يقترب أكثر .. يمد الملف الأبيض وبصوت هامس منكسر :" يا عم تقدر توصل هالملف للشيخ؟ .. - يتابع برجاء وهو يلاحظ تجاهله - يا عم الله يقضي حاجتك اقضي حاجتي، ما تعرف شكثر أنا محتاج ويهمني توصل هالأوراق للشيخ .. أعرفه راعي خير"

يلتفت أخيرًا ليتأمل ملامح ثامر، يتابع بذات النبرة المنكسرة :" يا عم الدنيا مقفلة بوجهي وسمعت عن الشيخ كثير وأدري حاجتي ما بتنقضي إلا عنده"

يلقيه ظهره ليغلق الماء :" يا أخي روح للجمعية أو الجامع بيساعدونك"

لا يزال يمد الملف أمامه :" تكفى يا عم .. تعرف إن اللي يفرج كربة الله يفرج عليه يوم القيام..."

يقاطعه صوت السيارة التي مرت خلفه، يلتفت وبداخله يدعو الله ألا يكون الشيخ! .. يعقد حاجبيه والسيارة تقف أمام الباب، تخرج منها فتاة منقبة تحمل كيسًا .. :" عم أحمد، وش صاير؟ "

يُنزل رأسه بسرعة العامل :" يا بنتي هذا عنده حاجة لأبوك"

تنزل عينيها لترى الملف بين يديه، تقترب لتمد يدها .. يُلقيها الملف بسرعة وكأنه يخشى أن تغير رأيها :" الله يفتح عليك وعلى أبوك، الله يفرج كربكم مثل ما توقفون مع المحتاجين"

تهمس قبل أن تدخل المنزل :" آمين والجميع إن شاء الله "

تغلق الباب ليطير مسرعًا إلى ذلك الجالس ينتظر في السيارة بقلق وندم .. ما أن رآه خالد فز مسرعًا وهو يفتح باب السيارة :" وش صار؟ "

يغلق الباب وابتسامته تتسع :" أبشرك، سلّمت الملف ليد بنته"

تتسع عيناه بصدمة :" بنته؟ "

يضحك بخفة وهو يشغل السيارة :" والله العامل قلبه قوي ولا مشت عليه، بس بنته الله يسلمها رق قلبها وأخذته"

يزم شفتيه بضيق :" الله يستر، والله يا خوفي دخلنا بلعبة احنا مو قدها"

يهز رأسه بثقة :" لا تشيل هم .. "

يسير بالسيارة إلى طريقها، طريق شقتها الذي اشتاق إليه .. كم بات يشعر أنها بعيدة جدًا، يوقف السيارة أمام المجمع .. يلح عليه خالد بأن يصعد ويفطر معه، لا يرغب أبدًا بأن تطأ أقدامه تلك الشقة وخالد برفقته .. يُشعره هذا بذنب كبير، غير أن إلحاح خالد يجبره على تلبية الدعوة .. يصعد الدرجات بصعوبة، يفتح خالد الباب لتتراءى له صورتها تلك الليلة .. يقبلان بعضهما أمام هذا الباب، يدوس على المكان الذي كانت تقف فيه ليتجاوزه إلى المجلس الذي تحول إلى غرفة لخالد، يجلس على فراش خالد الذي غادر للداخل .. يتأمل جدران المجلس، قبل عدة أيام فقط كانت تدخل وتجلس وتتبادل معه الحديث .. يرفع رأسه بسرعة وصوتها يصله من بعيد :" خالي وين كنت كل الليل؟ "

يرد عليها خالد منبهًا :" مع ثامر .. جبته معي بالمجلس"

لا يسمع منها ردًا، يخمن أنها صُدمت بوجوده .. مضطربة مثله ..

تمامًا كما وصفها كانت تقف قُرب المطبخ، يقول خالها أنه في المجلس .. لا يفصله عنها سوى بضع خطوات، ماذا لو تجاوزت كل هذا .. لو تجاهلت كل شيء لتُعيد الزمن إلى الخلف وتُقبل عليه كما كانت؟ .. يسرق خالها أمنيتها ليحققها هو، يخطو إلى المجلس حاملًا الفطور .. ترمي بثقلها على المقعد، لا يفصلها عنه سوى هذا الجدار .. تسمع صوته، اشتاقت له جدًا .. وكل ما تستطيع فعله لإرواء الشوق هو الاستزادة بصوته، صوته وفقط .. يُخبر خالها أنه مستعجل، لديه مقابلة عمل مع أحد معارف عمه .. ترغب وبشدة أن تعرف حاله بعد تلك الليلة، تلك القبلة لم تزد قلبها إلا تعلقًا .. يرفرف قلبها كلما تذكرت، كان يبادلها الإحساس .. كان قويًا طيلة تلك الأيام وهو يتظاهر بأنها لا تمثل سوى طفلة (تتعلق بالأشياء بسرعة)، لكن ماذا بعد كل هذا؟ رحيل أبدي ينتظرهما .. ليتها تستطيع الإفلات من خالها لتختبئ خلفه.. يقطع إنصاتها الشديد لكل حرف منه صوت هاتفها، رسالة خاصة على تويتر .. تزفر بقوة بعدما قرأت رسالته (شلونك؟)

تزفر بشدة وهي تتجاهل عبدالله، تُغلق الهاتف بضيق ولا طاقة لها بتحمل المزيد، غلطة كبرى تلاحقها .. ستتخلص

منها قريبًا .. يصل إلى مسامعها صوته وهو يودّع خالها ويوصيه بأن يعلمه بكل ما يستجد، يُغلق الباب ويختفي صوته مخلفًا فيها وحدة قاتلة ..

-

من خلف الزجاج يراقبها .. منذ أكثر من نصف ساعة تجلس على مقعد بزاوية الشارع، لا يعلم متى ستقرر الدخول إلى المقهى، تتظاهر بأنها غير متلهفة للحضور وكأنها متأخرة .. بينما هي بالواقع حضرت قبله، يرتشف قهوته وابتسامته تتسع، لا بأس .. سينتظرها، يراقبها وهي تقف .. تُعدل حجابها، تزفر زفرة طويلة وكأنها تهدئ نفسها قبل الحرب التي ستخوضها، ها هي تقترب .. تفتح باب المقهى وتدخل أخيرًا .. يرفع كفه ليُلوح لها، تتمالك ملامحها لتظهر بصورة الغاضبة .. بينما هو يبتسم ..

تجلس أمامه، تلقي السلام بهدوء .. يرد والحبور في وجهه :" وعليكم السلام، يا هلا "

تضيع أنظارها في كل مكان إلا عينيه، يطلب لها قهوتها المفضلة وهي تلتزم الصمت .. تلعب بهاتفها، ترفع أنظارها إليه وهو ينطق موجهًا بصره إلى الواجهة الزجاجية بجانبه :" المنظر جميل هنا .. وش رايك؟ "

تنتقل أنظارها إلى حيث يشير، تغوص بإحراج وهي ترى المقعد الذي كانت تجلس عليه .. تستوعب أنه كان يراها طيلة الوقت وهي لا تعلم، تغمض عينيها بزفرة :" شت! غبية! "

يكتم ضحكته، اكتشف نقطة جديدة تمتاز بها .. وحدها من تدخل الضحك إلى قلبه، يهز رأسه نفيًا :" لا.. مافي مشكلة، كلنا نطيح بمواقف نكتشف بعدها غباءنا"

تغطي وجهها بكفيها، لماذا أصبحت غبية جدًا؟ وبحضرته تزداد غباءً .. وهو لا يتوقف عن إظهار اكتشاف غبائها وكأنه يستمتع بهذا! .. يتابع بهدوء :" مثل الكلام اللي قلته لك ذاك اليوم"

تُزيح كفيها ببطء، يظهر لها وجهه الصادق .. يرفع عينه لها :" آسف .. بجدية أعتذر عاللي صار "

يرقص قلبها بانتصار وفرح، لا تتمالك ابتسامتها .. ترتشف قهوتها، كانت قد قررت مسبقًا ألا تظهر له قبول اعتذاره

بسرعة، لكن ها هي تفقد نفسها بقربه وتبتسم :" عادي، ما صار شي"

يُنزل رأسه، يحرك قهوته :" عندك فوبيا من شي معين؟ "

تبتسم باستغراب وهي تفكر مطولًا :" امممم.. من العناكب"

يهز رأسه، يرتشف قهوته .. :" شفتِ أحد يخاف من السيارات؟ "

يشتت أنظاره للزجاج، يتأمل ذات المقعد الذي كانت تجلس عليه وهو يشرب قهوته .. يتابع :" من عشر سنوات وأكبر مخاوفي السيارات - يبتسم بسخرية شديدة - رجال هالكبر يرتعب بس يدخل سيارة أو تقرّب منه! .. - ينزل رأسه متجاهلًا عيناها ليعبث بمحتويات الطاولة الخشبية - عشر سنين وأنا مستحيل أركب أي سيارة إلا سيارة أبوي مضطر .. أبوي وحده آمن معه شوي، مشوار الجامعة الطويل كان أبوي مضطر ياخذني له ويرجعني كل سنين دراستي، مشوار ما ياخذ إلا نص ساعة لكنها كانت على قلبي مثل دهر كامل.. حاولت كثير أترك الدراسة بسبب عقدة الصباح وعقدة هالمشوار، لكن أبوي وأخوي كانوا وراي "

يرفع عينه لها بسخرية لتصطدم بعينيها المصدومة، يزفر بقوة :" شفتِ شكثر هالإنسان اللي قدامك مليان عقد نفسية؟ "

يهتز صوتها، تحاول تمالك صدمتها وحزنها عليه :" أكيد في سبب"

يعود مجددًا ليشتت أنظاره :" أمي توفت بحادث، أنا اللي كنت أسوق وقتها .. - يهز رأسه بضيق وكأنه ينفث تلك الفاجعة - لليوم أسمع صرير السيارة، كل ليلة أشوف المنظر قدامي .. محد يعرف شكثر الموضوع مرعب"

يشعر بكفها تتسلل لتشد على كفه، يرفع عينه لتتسع وهو يرى الدموع تغطيها .. تهمس :" آسفة "

يهز رأسه نفيًا بسرعة :" الموضوع قديم، حكيت لك بس عشان تتفهمين موقفي ذاك اليوم .. - يشد بأصابعه أصابعها، يهمس بابتسامة عذبة ودموعها لا تتوقف - هديل! "

ترفع كفها الحرة لتمسح دمعها، بصوت مهتز :" مرة وقفت معي وشديت على يدي وقلت لي حرري دموعك"

تتسع ابتسامته وهو يذكر ذلك اليوم عندما علم بمرض والدها، بلطف :" اوكي قلت ابكي، بس ما تاخذينها حلا كل مرة تبكين! "

تضحك من بين دموعها، مذ دخل قلبها أصبح مرهفًا جدًا .. تبكي لأي شيء، ولأي سبب .. يُتابع وإبهامه يتحرك ببطء على إبهامها :" على فكرة، أبوك الظاهر مُغرم بأسطورة المبعوث السمائي.. أمس أول جلسة لي معه إلا وهو يحكيها لي! "

تضحك بخفة، يُتابع :" أبوك شخص رائع، عرفت ليه تحبينه هالكثر .. سألته إذا كان مسموح بهالأسطورة يتبادل المبعوثين وكل واحد منهم يكون مبعوث للثاني قال ايه وارد! "

تضحك ليختفي بكاؤها، يتأمل ضحكتها ليضحك معها .. يُضيف ثلاث نقاط لرصيدها، الأولى اكتشف منذ الأمس أنها تملك أبًا يشبهها تمامًا، عائلة ملائكية بكل ما تعنيه الكلمة .. الثانية أن ضحكتها الفاتنة تصيبه بعدوى، والثالثة أن ملمس كفها يستطيع محو كل أوجاعه ومخاوفه!

-

في منزلهم الواسع، وقبل ساعات .. رعب شديد أصابها وهي ترى الشاب الواقف أمام منزلهم وبيده ملف أبيض، الرعب شعور بات يلازمها .. ولا يُمكنها أن تتخلص منه، يلحقها أينما كانت .. في غرفة نومها، في الشوارع، في الأسواق وهي تشتري احتياجات زفافها القريب .. تفتح الأكياس ليباغتها الرعب بين طيات فساتين أحلامها، غدًا وعدها أستاذها ومنقذها أن ينتهي كل شيء .. يرسل لها كلامًا يطمئنها أن تحافظ على قوتها كما عهدها قوية .. أن تتجهز لزفافها دون أي خوف، يد العدالة أقوى ..

تغلق باب المنزل لتركض بسرعة إلى الداخل وقبل أن تخلع عباءتها تجلس على الدرج الطويل وسط الصالة لتُمسك بالملف بيد ترتجف .. تقرأ المكتوب بخط جميل مرتب (العبد المحتاج/ عبدالعزيز بن فهد بن عبدالرحمن .. إلى الشيخ/ موسى الحمد حفظه الله)

ماذا لو كانت هذه خدعة؟ ماذا لو كان هذا الشيطان المبتز أرسل صورها؟ تُصاب برعب أشد وهي تتخيل أن

ظروفًا بيضاء تدور الآن حول أقاربها وخطيبها! لا تُفكر ..
تفتح الملف بيد ترتجف، وقبل أن تستخرج الأوراق تتذكر والدها .. ماذا لو كان ذاك الشاب فعلًا وضع حاجته وفقره في هذا الملف؟ تُقربه إلى عينها لتزفر براحة شديدة وهي ترى مجموعة أوراق كمعاملات وخطابات رسمية .. تغلق الملف وشعور بالذنب يأكلها، تنزل إلى مكتبة والدها .. تضعه على مكتبه وتغادر ..

-

تُقرع طبول قلبها وهي تسمعه ينطق اسمه خلف الباب، مالذي أحضره؟ تفتح الباب بتوتر شديد لتًعيد عجلات كرسيها إلى الخلف .. تشعر بأقدامه تصعد الدرج وها هو يطل من خلف الباب .. لا تتجرأ على رفع عينيها له، يتملّكها الخجل الشديد.. تشد على رداء الصلاة الذي يغطيها، وهو يقف في مكانه دون أن ينطق .. تزم شفتيها بتوتر لتقطع الصمت :" هلا نجد؟ "

كان يتأملها وهو يشعر بأن الدنيا كلها تقع بين كفيه، لا يعلم كيف وصل إلى هنا وكيف تجرأ .. كل ما يعرفه أن النوم هجره منذ سمع بموافقتها، لا يزال يشعر بأنه يحلم .. يفيق على صوتها، ليضطرب .. يشتت أنظاره وهو يخلل أصابعه في شعره، يصمت .. يضيع الكلام منه، يعود صوتها متسائلًا بقلق :" في شي نجد؟ "

يرفع عينه لها ليتبعثر، تنفلت منه الكلمات بعفوية :" أبي أنام "

تتسع عيناها، ليتدارك نفسه بإحراج وهو يحك جبينه :" امممم أقصد جفاني النوم.. - يزفر بقوة يحاول جمع قوته، ليعود إليها مجددًا - للحين مو مصدق .. أبي أسمعها منك"

تغوص بخجل، نجد ليس بوعيه أمر مفروغ منه .. قد يكون لا يزال نائمًا.. يعود صوته برجاء :" فعلًا موافقة يمام ولا أنا أتوهم! "

تُنزل رأسها للأسفل بحياء شديد، لن يعتقها .. حتى يفيق، وجلي عليه أنه لن يفيق، تهز رأسها إيجابًا .. يعود صوته :" أبي أسمعها منك"

تأخذ شهيقًا بورطة، تنطق بسرعة كي يعتق خجلها :" ايه نجد موافقة"

لم تكد تنتهي من نطق الكلمة إلا وصوت تنهيدته العالية يصلها :" وأخيـرًا! "

يرفع رأسه لتشق الابتسامة طريقها إلى وجهه :" الحين أقدر أنام"

ويغادر! .. هكذا يغادر فجأة كما دخل فجأة، وهي بمكانها مذهولة تستوعب جنونه .. ينزل درجات منزلهم ليمسح وجهه ويصدق أخيرًا .. لم يحتمل أن يبقى هكذا مكتوف الأيدي دون أن يراها ودون أن يسمع الموافقة منها، يبدو مجنونًا .. لكن جنونه بها قد قضى عليه مذ كان صغيرًا..

*•

يا سيدي وحبيبي

إذا تناءيت من لي

ها قد أتيتك كلّي

أرجو رضاك فكن لي

يا مُزنة في الأعالي

تنزّلي واستهلّي

فإن طربنا فزيدي

أو ارتوينا فعلّي

- سيد البيد

*•

الورقة الرابعة عشرة

•

يخرج من منزله الدافئ محصنًا بسترته الثقيلة، يبتسم والسحب تغازل الأرض .. موعودة الرياض بغيث يجعلها تزداد فتنة، لا أشهى في عينيه من صباحٍ يبدأ باكتظاظ الغيوم.. يتمتم بالدعاء وهو يحرك السيارة :" اللهم سخّر لي جنود الأرض وملائكة السماء وكل قلبٍ ولّيته أمري، وارزقني حظ الدنيا ونعيم الآخرة ويسّر لي كل أمر عسير"

دعاء التقطه من صورة عرضها في الواتس آب ليرافقه كل صباح، وهذا الصباح تحديدًا الذي سينتهي فيه كل شيء.. لن يرضى حتى يرى ذاك المبتز يلقى جزاءه، لتُكمل هي حياتها بكل سلام .. هي ابنة عدوه، وهو جندي من جنود الأرض الذين وضعهم الله في طريقها ليُسخرهم لها، .. لكنها تستحق أن تعيش بسلام بعيدًا عن براثن الوحوش البشرية.

يقف أمام أحد المقاهي، يُلبي دعوة نجد للإفطار في هذا الصباح الغائم قبل أن يتوجه إلى المركز الأمني ويُنهي مهمته بالتبليغ .. يُقابله وجه ياسر المُشرق وضحكة نجد، لا شيء يصف سعادة نجد بموافقة اليمامة .. يبدو كطفل في ليلة عيد، يبتهج لابتهاجه .. يحكي الآخر بحماس :" اليوم خالها جاي وبنحلل، بعد نتايج التحليل بنعقد إن شاء الله"

يبتسم ناصر :" ومتى ناويين عالزواج إن شاء الله؟ "

يضحك وهو ينقل بصره لوالده :"خالي توّنا .. خليني أعيش أيام الملكة شوي! "

يهز رأسه بابتسامة :" الحين بس اعقد وطير لأخوك واقنعه هو الثاني نفرح به كود نفرح بكم الاثنين"

يُدرك تمامًا معارضة أخيه يوسف لفكرة الزواج، يذكر كيف بدا مستنكرًا عندما صارحه بخطبة اليمامة قبل عامين .. حديثه المضطرب عن سوء فكرة الزواج والإنجاب، يزفر ياسر بابتسامة ذابلة :" هو بس يكون بخير ومرتاح ونفرح فيه، ما نتأمل بأكثر من كذا"

يتغير مسار الحديث ليحتل يوسف مركز الاهتمام، يليه ثامر .. تشكي عينا ياسر لناصر قلقه عليهما، يحاول نجد طمأنة والده .. ينتهي ناصر من طعامه ليقف مستأذنًا

الذهاب إلى دورة المياه، يقف أمام المرآة يُعدل شماغه ..
يدخل شابان صغيران بصوتهما المرتفع، ينطق أولهما وهو يُمسك بهاتفه ويُقربه من الآخر :" شوف شوف، ياخي صدمة والله! "

يحمل الآخر الهاتف ليدقق فيه، يصفر مندهشًا :" صاروخ والله! "

يسحب الآخر هاتفه بضحكة هازئة :" شيخ ولحية ومزعجنا في النهاية يطلع هالترند، فضيحة والله"

يقف الآخر قُرب ناصر، يغسل يديه ضاحكًا :" الحين الشيخ بيسوي نفسه ميت، يا سواد وجهه بس"

ينطق الآخر وهو منشغل بهاتفه :" شوف هذا واحد يقولك في صورة ثانية فضيحة بس على طول امتسحت .. وش تتوقعها"

واقفًا بجانبهما وهو لا يستوعب، شيخ .. صورة .. فضيحة.. يهز رأسه نفيًا طاردًا الوهم، بات من شدة انشغاله يتخيّل كل حديث يُقال عنهما ..

" ياخي إذا الأولى ويسكي واستراحة، الثانية وش بتكون يعني؟ "

دوار شديد يداهمه، لا .. ليست هي .. لا هو لم يتأخر، لا زال أمامه وقت .. نعم ما زال كل شيء تحت السيطرة، ينطق بسرعة الآخر وهو يقترب :" شوف شوف .. هذا واحد يقول حفظ الصورة عنده واللي يبيها يجيه خاص"

يضحك بسخرية الآخر :" تصدقه؟ هذا يبي متابعين بس .. مافي أحد بيتجرأ ينشرها مرة ثانية ويواجه الشيخ موسى .. هذي قضايا ومحاكم مو لعب"

يمشيان مبتعدين، تاركين خلفهما ناصر يلتقط أنفاسه .. يحاول تكذيب توقعاته، وصوتهما الذي يبتعد يصله ليرمي به بواد سحيق مظلم يؤكد كل شيء :" يا حبيبي يحاكم مين ويترك مين؟ كل اللي بتويتر ناشرين الصورة .. لا وبعد ومن قوة وجههم ماليين المنشن عنده الصور ويضحكون"

يختنق، يشعر أنه يتوهم .. لا يسمع غير حديثهما يتردد صداه، يُخرج هاتفه بسرعة وبأصابع مرتعشة يتصل برقمها .. لا يرغب بفتح تويتر، متأكد أن جوابه يقبع فيه .. يريد فقط أن يصله صوتها، أن ترد عليه وتطمئنه أن كل شيء كما يخططان له، لكن يصدمه ذاك الصوت البغيض (عزيزي المتصل، إن الهاتف المطلوب مغلق حاليًا) .. يحاول

مرارًا، علّ هذا الصوت يعتقه ليسمع صوتها.. لكن لا مفر منه.

تضيع عيناه على شاشة الهاتف، يُحدق بتويتر .. تمريرة إصبع تفصله عن مواجهة الكارثة..

"خالي؟ "

ينتشله من دواره صوت نجد، يعتدل بوقفته محاولًا تمالك نفسه .. يقترب منه بخوف نجد :" خالي صار شي؟ "

يهز رأسه نفيًا بضيق :" لا "

يتفحّص وجهه غير مصدق، ليقطع نظراته خاله وهو يطبطب على ظهره ويسير به خارج دورات المياه :" بس دخت شوي"

يعودان إلى مقعدهما، يجلس ودوامة تعصف برأسه .. لا يسمع ماذا يقولان، يحاول تكذيب كل شيء .. يفيق على صوت نجد المتسائل :" تدرّسها خالي، صح؟ "

يعقد حاجبيه بعدم استيعاب :" مين؟ "

يُلقي عليه الطامة دون أن يعي ماذا فعل بخاله :" بنت الشيخ موسى .. "

تجحظ عيناه، ينقلها لياسر الذي يبدو عليه الذهول والحسرة .. يُتابع نجد وهو يضع هاتفه على الطاولة :" من أمس الليل والهاشتاق ما وقف، الله يستر على المسلمين"

يحوقل ياسر بصوت شاحب، يسوّد وجهه بانكسار .. يختنق ناصر، لا يحتمل أكثر .. يقف بسرعة، يسحب هاتفه ومفاتيحه، يستأذن دون إدراك ليطير خارجًا إلى سيارته.. يفتح تطبيق تويتر، تضيق أنفاسه أكثر .. يصفعه الهاشتاق الأكثر تداولًا (#الويسكي_يابنت_الشيخ)، تخنقه عبرته وعيناه تقع على تغريدات تلوّح دون تصريح بها وبأبيها، قذف قبيح تُرمى به، دعوات بالستر ترفع الهاشتاق ليبقى معلقًا يستقبل كل من يدخل البرنامج .. يظنون بأنهم يساهمون بسترها بينما هم يزيدون بانتشاره، تغريدات أخرى تستنكر أن تكون تلك (الفاسقة) ابنة الشيخ الكبير .. منهم من يطلب دليلًا أن تكون تلك هي ابنة الشيخ.. تنهال الردود لتؤكد أنها هي (تدرس معي .. أعرفها معرفة شخصية.. هذي هي للأسف ..) دعوات بعدم الابتلاء، سخرية قبيحة تأكل اسمها، تغزّل فاحش بصورتها .. ينهشونها، يتلذذون بالتشفي منها ومن اسم أبيها .. يقتلون ما تبقى منه.

يرمي هاتفه خلفه، يحاول الهرب مما فيه .. هل تأخر؟ هل كان عليه أن يسألها مسبقًا عن ذبولها حتى يُسعفه الوقت لإنقاذها؟ هل يستحق أن يكون منقذًا؟ يوم الأمس انتهى بمساعدتها من جمع معلومات كافية وأدلة مثبتة تُدين المبتز .. آثر أن يتمتّع براحة بسيطة على أن يقوم بالإبلاغ، وعدها أن يتقدّم بالبلاغ صباحًا .. لم يكن يعلم أن خبث المبتز سبقه، أن تأخره لساعات بسيطة ساهم بقتلها ..

يسحب هاتفه مجددًا بسرعة ليعاود الاتصال بها، لا يزال هاتفها مغلقًا .. يرتعب فجأة ووهم مخيف يسيطر عليه، ماذا إن كان حصل لها مكروه؟ ماذا لو آذت نفسها؟ أو أوذيت من أهلها؟

يشد على رأسه علّه يخفف الصداع، وعده لها كُسر قبل أن يوفي به .. مهمته في أن يكون (جندي من جنود الأرض مسخر لها) فشلت ..

-

في أطراف المدينة، وتحديدًا في غرفة طينية تفوح منها رائحة الطين أكثر على وقع حبات المطر .. يجلس بتوتر كبير

داخل الغرفة يُرتب كلامه ويُوازن نفسه، والآخر ملثم يقف خارجًا قُرب النافذة.. يشعر بقطرات المطر تتكاثر فوق رأسه.. لا يُلقي لها بالًا وأنظاره تترقب سالكي الطريق السريع، يراقب من مكانه تدهور السنين التي جمعته بأستاذه وابنة أخته.. نهاية كل شيء.

يجلس بتعب أسفل النافذة، لا يُلقي بالًا للطين الذي عبث بثوبه .. يُخرج هاتفه ليراقب اسمها، تراوده نفسه لإرسال كلمة تذكرها بوجوده .. غير أن نفسه تأبى، انتهى كل شيء.. لا يرغب بأن يعيد تعلّقها به، ودّعها تلك الليلة وداعًا حافلًا .. ولا شيء بعد ذلك الوداع.

يعود بأنظاره للداخل على صوت خالد :" ما بعد جاء؟ "

يهز رأسه نفيًا وهو يرمي سيجارته ويدوسها، يعود صوت خالد خائفًا :" وش بنسوي لو بلّغ؟ "

يتنهد بضيق شديد وهو يسمع تتمة حديث خالد :" مافيني أرجع للسجن من جديد! .. ولا أبي رجولك تطب السجن"

يبتسم بهدوء يطمئنه :" ما بيصير شي لا تخاف، كلها شهرين وأودعك عند الحدود"

يطلق زفرة قلق طويلة، الخوف يأكله .. ولا مجال للتراجع..

"وصل "

يضطرب، يصاب بالهلع .. يود لو يهرب تاركًا ثامر يواجه كل شيء، كيف استطاع أن يُجاريه بلعبته هذه؟ هل سيكون قادرًا على المواجهة؟ أمام الشيخ الكبير الذي يحبه..

يفيق على صوت ثامر من خلف النافذة :" خالد! يالله"

يراقبه ثامر عن كثب وهو يخرج من الغرفة، يبدو متخبطًا .. وقد يحول كل شيء للأسوأ، يتقدم ليظهر من خلف سعف النخيل .. يلوّح بكفه لصاحب السيارة، يحاول تمالك نفسه ..

تقف السيارة أخيرًا ليخرج منها موسى بوجه مرعوب، يتوارى ثامر جانبًا وهو يعيد لثامه .. لا يصله حديثهما، لكن الخوف جلي على كل منهما.. يدخلان الغرفة، يقترب ثامر من النافذة أكثر حتى يتمكن من السماع.. يضحك بسخرية بداخله وهو يسمع نبرة خالد، يتحدث برجاء وكأن موسى هو صاحب الكفة الراجحة .. يستسمح منه كثيرًا، يعتذر بين كل جملة وأخرى .. والأوراق أمامه، يبتزه بضعف .. والآخر لا يصل صوته لثامر، صامت معظم الوقت .. وكأن هول الصدمة أخرسه، وخالد لا ينفك يردد بضعف وتوتر :" ما بيدي حيلة يا شيخ، تكفى سامحني .. بس محتاج"

يقفان بعد انقضاء ساعة، وابتسامة ثامر الساخرة تزيد .. كل منهما أضعف من الآخر وأكثر خوف، طاولة مفاوضات مضحكة جدًا .. تزيد سخريته وهو يرى خالد يُمسك بموسى قبل أن يغادر ويُقبل جبينه :" سامحني يا شيخ سامحني"

يغادر موسى إلى سيارته بخطوات ثقيلة محملًا بهموم وذنوب كبيرة، يقترب ثامر من أستاذه بابتسامة :" نقول كل شي تم؟ "

يزفر بحرارة وهو يراقب السيارة الراحلة :" الفلوس بيرسلها دفعات، وبعد الدفعة الأخيرة برسله كل الأوراق .. - يلتفت لثامر مهددًا بذبول - كل الأوراق يا ثامر، وعدته .. ولا ورقة بتبقى معنا"

يشتت أنظاره هازًا رأسه، يعود خالد :" محتفظ بأي نسخة عندك؟ "

يهز رأسه نفيًا، وبداخله إحساس بالذنب .. احتفظ بصور في هاتفه تُدين موسى، شيء ما في قلبه يحدثه أن يُبقيها معه .. علّه ذات ليلة يندم لعدم حفظها لأجل ناصر.. يغادر متعللًا بعمله الذي ابتدأه اليوم هاربًا من أستاذه.

-

على الجانب الآخر، خرج من تلك الغرفة الطينية بجسد يرتجف، يسير بسيارته ببطء والأمطار تحجب عنه الرؤية.. لا يعي ماذا فعل وكيف استجاب، كل ما يتقين منه أن نواقيس الخطر دقت برأسه منذ ليلة الأمس.. وتحديدًا منذ لمح ملفًا أبيض على مكتبه يحمل اسمًا محظورًا (العبد المحتاج/ عبدالعزيز بن فهد بن عبدالرحمن) .. عبدالعزيز ، شقيقه الصغير يعقوب، وحده من تبقّى له .. لو لم يحادثه صباح الأمس لشكّ أنه هو من أرسل الملف، كارثة كبرى حلّت عليه وهو يرى الأوراق بداخله .. هوية مزوّرة وأخرى هوية قديمة، وصورة مقصوصة لوجهين حبيبين فقدهما من سنين طويلة .. ورقة صغيرة مدوّن عليها العنوان وأسفلها بذات الخط الجميل (في حال رغبت حضور طاولة المفاوضات المفتوحة الساعة ستة الصبح).

هلع شديد تملّكه، فقد إحساسه بالوقت.. فقد نفسه، كان ذاك اليوم قبل ثمان وعشرين عامًا هو كل ما يراه .. وكأنه كان ليلة البارحة، حزنه الشديد على أخيه .. بكاء يعقوب، لجوءه لأسوأ الطرق كي يحمي أخاه .. لم يكن بمقدوره أن يتخيّل فقدان التوأمين دفعة واحدة، كان

يعتقد أن كل شيء انتهى .. أن اسم يعقوب اختفى بين طيات الزمان، ليقع هذا الملف بين يديه يذكره بفعلته..

من كان يجلسه أمامه قبل قليل يبتزه بأوراق أخيه مقابل ربع مليون يبدو خائفًا مترددًا، وهو لم يكن بأفضل حال منه .. كانت صورة يعقوب تلاحقه، شقيقه المريض .. والسرطان الذي ينهشه، ابنة أخيه التي لا تعرف عنه سوى اسمه، وزوجة يعقوب ..

يوقف السيارة على جانب الطريق، يبكي من ذنب يلاحقه .. كيف يكون بهذا السوء وكل من صادفه يطلب منه أن يصلي بالجماعة إمامًا، كيف يكون منافقًا .. يبكي مناجيًا ربه، يدعوه أن يغفر له خطيئته.. أن يُخلصه من هذا العذاب.. أن يساعده في إيجاد الطريق وينتشله من ضياعه ..

يستعيد نفسه ليُعيد تشغيل سيارته .. يسلك طريقًا آخر دون وعي، طريق أبعد ما يكون عن الرياض .. إلى مكة حيث الأمان، تتعلق فيه صورة أستار الكعبة .. سيشدها إليه ويبكي، سينأى عن كل شيء إلى الكعبة، علّ طوافه حولها يُطهره من ذنبه .. يُعيد إليه وعيه..

يترك هاتفه مغلق منذ البارحة، هاربًا من الدنيا إلى مكة ..

-

ينقضي يوم، يليه يوم آخر .. يُطوى أسبوع كامل ثقيل على روح البعض، واستثنائي حالم على قلة منهم ..

تقف السيارة بعد ما قطعت طريقًا طويلًا، طويلًا كانتظاره لها سنين طويلة ثقيلة .. لكن ها هو الطريق ينقضي ليُتوجِ حبه، يخرج ثلاثتهم من السيارة .. يستقبلهم ثامر وخالها وبعض معارفهم بترحيب حار، يدخل والده وخاله للداخل أما هو يقف مستجيبًا لكف ثامر التي أمسكت به :" نجد .."

يلتفت لتواجهه ملامح ثامر الجادة، ينطق الآخر لصهر خالها الذي ينتظر دخولهما :" تفضل أبو سلمان، شوي ونلحقكم"

يتركهما خلفه لينطق ثامر هامسًا بوعيد :" صحيح إنك ولد عمي وغالي علي، بس اسمع .. تجي يمامة يوم من الأيام تشكي لي منك أو بس ألمح عيونها زعلانة والله ثم والله ..."

يسكت وهو يفكّر بعقاب يليق بمن يكسر جناح خالته، يبتسم نجد :" لو بس حسيت إنها مو راضية بجيك بنفسي وأسلم عمري لك"

يرفع حاجبه يفكر قليلًا وعيناه لا تزال تنبض بوعيد حارق لنجد، يطلق زفرة أخيرًا وهو يطبطب على صدر نجد :" لا .. - يقبض على رقبته بخفّة- بجي أتلّك من رقبتك هذي وأجرك لها تبوس رجولها "

يضحك بخفة وهو يحرر كف ثامر من رقبته :" ابشر، أنا رهن إشارتك وإشارتها"

يعود مجددًا صوته بوعيد :" وإن سمعت ولو بالخطأ إنك بتاخذ وحدة ثانية عليها صدقني بذبحك.. وإن مرت خمسين سنة"

يبتسم على تهديد ثامر، لماذا يجد هذا التهديد لذيذًا؟ ألأنه يثبت له أنها ستصبح زوجته حقًا؟ سمع وعيدًا غير مباشر من خالها قبل عدة أيام أثناء تحليل الزواج بأنه لن يسمح لأي كائن بشري أن يؤذي قلبها .. والده كذلك قبل

يومين شدد عليه أن يُحافظ حتى على خصلات شعرها من الهواء البارد، يوسف بدا سعيدًا ومتخوفًا قليلًا .. أوصاه بها كثيرًا، تثير هذه الوصايا والتهديدات شغفه بها .. الجميع يخشى أن يُفلتها بمنتصف الطريق بعد نصائح طبيبها (الحمل خطر على حياتها قبل حياة الجنين) ، لا يعلمون أنها طريقه ومنتهاه.. لا أحد إطلاقًا يدرك حجم هيامه بها حتى هو.. يهز رأسه إيجابًا لثامر :" أموت ومافي بذمتي إلا هي، تطمّن ثامر "

يهز كتفيه بلا مبالاة :" مدري، يقولون من شابه أباه فما ظلم"

يتجاهل عينا نجد المستنكرة لمقصده وهو يعدل شماغه، يفتح الباب .. يلحق به نجد ونوبة غضب تتأجج في داخله، ثامر كبِر ولا زال يحمل صفاته الأولى.. يرمي غضبه جانبًا لترتخي أعصابه والحديث عن عقدهما يُنسيه كلام ثامر..

-

في ذات الوقت، في ساعات الصباح الباكرة بتوقيت مدينته .. يجلس على طرف مقعد حجري أمام النهر منهمكًا

بهاتفه، يتابع مكالمة الفيديو المباشرة لعقد أخيه وخالته.. يبتسم بحنين وهو يرى ملامح والده المبتهجة، ابتسامة نجد وهو يُصافح الشيخ ومباركات الرجال تعلو حوله .. يقف ليُقبل جبين أبيه مطولًا، تتسع ابتسامته وهو يسمع صوت ثامر يُقرب الكاميرا لوجه أبيه ونجد المتعانقين :" امممم شوف أبوك الحين يبكي من الفرحة"

يختم كلمته بضحكة خفيفة، يشعر بثامر يقف ليقترب من نجد .. يسمع مباركته لأخيه، يرفع الهاتف ليلوّح يوسف لنجد بابتسامة :" مبروك يالعريس"

يضحك على ملامح نجد الضائعة، الفرح والتوتر يسيطران عليه .. تختل حركة الهاتف ليظهر وجه ثامر :" يوسف الحين بندخل عند يمامة، نكلمك بعدين"

ينقطع الاتصال، يطلق تنهيدة فرح طويلة وابتسامته لا تفارقه..

" خلصت؟ "

يُنزل رأسه بسرعة للجالسة على بساط قماشي أمامه تتكئ على جذع الشجرة ومجموعة كتب وأوراق حولها، تتسع ابتسامته وهو يرمي هاتفه على البساط ويسحب جهازه المحمول:" ايه عقدوا قبل شوي"

تبتسم بهدوء :" عقبى لك"

يرفع أنظاره بسرعة لها، يعلّقها مطولًا بين عينيها .. تتجاهله لتعود إلى جهازها، ترفع أنظارها مجددًا بعدما أحست بعينيه لا تُفارقها .. يُفكر بعمق، تعقد حاجبيها بابتسامة :" يا سيد! "

يتدارك نفسه ليشتت أنظاره، يُخرج سؤاله دون وعي :" وش رايك بفكرة الزواج؟ "

يُلقي بسؤاله كالطامة عليها، تختنق بحمرة وجهها .. يضيع الكلام منها، وهو بمكانه ينتظر جوابها .. وسرعان ما نطق مستدركًا وهو يلحظ احمرار جبينها ووجنتيها :" ااا أقصد فكرة الزواج عمومًا .. - يشتت أنظاره عنها كي لا يزيد إحراجها - أشوفها أسوأ فكرة ممكن يتخذها أي إنسان"

تنظر له ببلاهة للحظات معدودة، تستوعب مقصده .. كيف كانت غبية لتتصور أنه يطلبها؟ هكذا فجأة كالأفلام الدرامية وأمام نهر المدينة وشعاع الشمس يداعب وجهه؟ تشكر الله مرارًا بداخلها أنها لم تتسرع كعادتها وتجيب.. تُمسك بقلمها لتخطط بعشوائية كتابها :" امممم - ترفع رأسها بسرعة مستدركة كلامه الأخير- لحظة! تقول أسوأ فكرة؟ "

يهبط من مقعده ليجلس أمامها على طرف البساط :" ايه، هالفكرة من زمان براسي.. زواج، وأولاد.. وش اللي يخلي الإنسان واثق إنه يقدر يكوّن عائلة!"

تهز رأسها بعدم استيعاب :" غريب انت! مين ما يبي يكوّن عائلة؟ هذي فطرة.. ولا تبي البشرية تندثر؟ "

يبتسم وأصابعه تتسلل لتسحب حبات السُبحة المتناثرة وخيطها الحريري :" الله أكبر! على أساس وجود البشرية قدّم أي نفع للعالم"

تمسك بكتابها مجددًا :" أستغفر الله، الله ما وجدنا عبث"

تُلجمه بحديثها، يُغير مسار الحديث وهو يُمرر الحبات بخيطها :" للحين مو مستوعب شلون قدرتِ تقطعينه، وش هالعنف؟ "

تزفر بقوة، تترك كتابها لتتأمله وهو يُعيد ترتيب سبحتها :" لا تسألني، للحين مقهورة من نفسي ليه ضيّعت أهم قطعة"

يُعيد لمّ شمل حباتها المتبقية، سُبحته الغالية على قلبه لم يكن يتصور أن يراها بهذه الحالة يومًا ما .. يرفع رأسه باهتمام لصوتها المنحرج :" كنت عارف إن داخلها ورقة؟ "

يعقد حاجبيه باستغراب :" ورقة؟ "

تزفر بضيق وهي تتأكد أنه جاهل بأمر الورقة :" كانت فيه ورقة مدسوسة بالمأذنة، بس ما فتحتها والله"

تشتت أنظارها عن عينيه اللائمة وصوته الجاد :" ليش ما علمتيني ؟ "

تهز كتفيها :" مدري، كنت أدور سبب يبقي خيط الوصل .. -تهمس وكأنها تنكر ما تقوله- لين تخلص دراستك وترجع الرياض"

تضيع أنظارها في كتابها، كان يحدق بها بنظرة لامعة .. يحاول الاحتفاظ بصوتها داخله، وحدها من يشعره بأهمية وجوده .. لأول مرة يستشعر أن يكون طرفًا يُخشى فقدانه، تبحث عن أسباب واهية لتُبقي (خيط الوصل) بينهما كما تصف، ينطق بهدوء :" ما أظن أرجع .. "

ترفع رأسها بسرعة، تعجز عن إخفاء دهشتها السعيدة .. يُتابع بزفرة :" هنا كوّنت نفسي من جديد .. هديل، يوسف اللي قدامك مو يوسف اللي بالرياض.. حياتي القديمة، أهلي، الرياض .. كل هالأشياء أنا هارب منها .. مستحيل أرمي بنفسي من جديد لها"

ترتسم الضحكة بوجهها، تتلاشى مخاوفها بفقدانه :" يعني خلاص إذا لقيت الورقة برجعها لك، مافي سبب يخليني أحتفظ بها"

ينتهي من جمع السُبحة في خيطها، يُنهيها بعقدتين أخيرتين وابتسامة خبيثة ترتسم عليه :" كشفتك! "

تطلق ضحكة وهي تُقرب هاتفها منها لتتأمل الصورة التي التقطتها له :" بيرفكت! "

يرمي السبحة لتلتقطها بسرعة، يحمل هاتفه وحاسوبه ليقف :" ترى آخر مرة أتكرم وأسويها لك، لا تعيدينها .. إذا تبين تفرغين طاقتك تعالي لي بس السبحة اعتقيها"

تضحك وهي تقف حاملة أغراضها، يُساعدها بحمل كتبها وأوراقها الكثيرة .. يُوصلها إلى جامعتها القريبة مشيًا على الأقدام ليعود إلى محطة القطار متجهًا إلى عمله ..

مصالحتهما قبل أيام لم تزدهما إلا قربًا، يفتقدها إن مضى يوم دون سماع صوتها .. يُشاركها ذكريات الماضي ومساوئ الحاضر.. يناقشها في الأمور السياسية والأحداث التاريخية.. هي الصديق الذي كان يبحث عنه صغيرًا وكبيرًا، يتجرد أمامها من كل شيء وكأنها نفسه الذي افتقدها ..

-

ظلام دامس، برودة شديدة تنهشها.. تمتزج بنيران تحرق قلبها، مزيجين غير متجانسين يفصلان جسدها وروحها، تفتح عينيها بثقل على صوت آذان العشاء .. لا ضوء ينير لها المكان، تقف بتعب متحسسة السجادة التي تتوسدها، رداء الصلاة الذي تلتف به .. تتحرر منه، تسير بخطوات ثقيلة إلى دورة المياه في غرفتها.. تفتح الإضاءة ليداهمها الوجع، تغمض عينيها بشدة تحاول طرد الألم .. تفتحهما ليقابلها انعكاس وجهها الذابل على المرآة، ترتعش شفتيها ببكاء .. هذا ليس وجهها، ليست هي .. الأيام ما عادت أيامًا تعرفها، صوتها الحقيقي فقدته .. يحتل مكانه رجفاتها وصوت بكائها .. تملأ كفيها بالماء لتنثره على وجهها علّه يعود كما عهدته .. تبكي بشدة، تُكمل وضوءها وهي تبكي .. تخرج لتصلي لله وهي تئن، وحده عالم كل شيء .. وحده من يعلم براءتها وطهرها، وحده تلجأ إليه ليخلّصها من هذا العذاب، تنهي صلاتها لترتمي مجددًا على سجادتها تبكي بصمت ..

أول يوم من حلول الكارثة تملّكها الهلع، هلع شديد يمنعها عن التنفس .. لم تكن تعلم كيف يكون الهلع مخيفًا إلى هذا الحد، مخيفًا حدّ أنها لم تعد تشعر به .. لم تبك، فقط كانت تحاول إدخال الهواء إلى صدرها .. تذكر صراخ أمها وبكائها صباح ذاك اليوم، كيف انهارت غير مصدقة ..

حاولت أن تشرح لها كل شيء ونوبة الهلع تزداد وتيرتها، تأكل الكلمات لتخرج غير واضحة.. لم تكن لتصدقها إلا لأنها أمها فقط، لأن قلب الأم يعلم الحقيقة .. تضم كتفيها بوجع وهي تذكر كيف هجم خالها وابنيه على منزلهم، كيف وقفت أمها الكبيرة حاجزًا يُحيل دخول أبناء خالها حتى منعتهم.. تشعر بالوجع كلّما تذكرت كف خالها الغليظة وهي تقع على خدها بقوة أحرقتها، لم تبك .. ولم تبرر له، فقط كانت تحاول إبعاد أمها حتى لا تتأذى .. خرجوا شاتمين متوعدين..

لم يكن وقع المصيبة شديدًا إلا عندما وصلها خبر الحادث لأبيها في طريق مكة، بكت كثيرًا .. انتحبت ببكائها، تتمنى لو فقط أن تبرر له .. أن تحكي له كل شيء، لا أن يدخل بغيبوبة بعيدًا عنها دون أن يعلم طهارتها .. نُقل بعد يومين إلى مستشفى بالرياض، كادت تطير له .. لم يوقفها سوى أمها الباكية، تترجاها بألا تخرج .. أن تترك والدها

يصارع غيبوبته بعيدًا عنها، تخشى عليها من عيون الناس .. من بطش أقاربها.. من لمزات وهمزات تقتل والدها قبل أن تصلها ..

تلحّ في دعائها لله أن يُعيد لوالدها عافيته، أن تُثبت له حسن تربيته .. ألا يأخذ أمانته حتى تطمئن نفسه بأنها بريئة.

تعتدل بجلستها لتتكئ على سريرها، تدعو الله أن يقويها .. تستشعر ما حصل للسيدة عائشة، إفك مفترى رُميت به، كانت كلّما قرأت سيرة أم المؤمنين تقشعر بقهر وحزن لما أصابها .. لكن لم تدرك حجم الألم إلا عندما لُسعت به، يهتز جسدها على انفتاح الباب بقوة وصوت والدتها الباكي وهي تسرع إليها :" يمه ريم.. أبوك صحى، أبوك صحى"

تقف بسرعة مذهولة بالمفاجأة، تنطلق منها ضحكة مختلطة ببكائها وهي تحتضن أمها.. تبكي والدتها شادة عليها :" أبوك صحى يمه، بياخذ حقنا منهم .. بياخذ حقك من الشياطين، بياخذ حقك من كل لسان .. ومن يد خالك "

تهز رأسها إيجابًا بسرعة :" الله ما يضيع حقنا يمه .. بروح له"

تتوقف فجأة أمها، ليرتفع صوتها بخوف وبكاء :" لا والله ما أسمح لك تطلعين، والله ما أسمح لأحد يأذيك"

تتحرر من كفي أمها بسرعة، تلحقها الأخرى تمنعها عن لبس العباءة .. تلتفت بصوت متعب :" يمه ما علي منهم، أنا علي بأبوي بس! أبيه يشوفني .. أبي أحكي له بلساني، ما علي بالناس .. الناس نهشتني وانتهيت منهم.. أبي أبوي يمه تكفين"

لا تُصغي إليها أمها، تمنعها وهي تبكي معها .. تذكرها بحال والدها، تخشى أن يصيبه مكروه في حال رآها .. تعود مكسورها إلى سجادتها تبكي، كيف أصبحت رؤيتها وهي الابنة المدللة تثير تعب أبيها حتى تُمنع من زيارته بأشد الأوقات حاجة له ..

-

تخطو خطاه للداخل، تصافح عيناه ملاكه .. حقيقة وليست وهمًا، تغيب عنه جميع الأصوات .. لا يرى سوى وجهها المبتسم وهي تستقبل المباركات، شعرها الناعم منسدل على كتفيها .. فستان مورّد يزيدها ازدهارًا يغطيها حتى منتصف ساقها، يبتسم وهو يلمح خلخالها .. تُظهر زينة قدميها تعمدًا، يهز رأسه كيفما اتفق مبتسمًا على توصيات خالتها الكبيرة.. تختم وصيتها بدموع جاهدت أن تحبسها، يبتعد ثامر بعدما احتضن يمامة بذراعه وهو يهمس لها .. يبتعد لتظهر له بهذا القرب، فتاة طفولته .. من شغفته حبًا منذ أطلّت على هذه الدنيا، امتلك الدنيا ومافيها منذ هذه الليلة .. لا يرجو من الله شيئًا سوى أن يُبقيها معه عمرًا طويلًا، أن يشيب معها وحدها ..

كانت تنظر له دون أن تكسر نظرتها، تثبت له قوتها .. سرعان ما انهارت هذه القوة وهو يدنو منها وكفه تتوارى خلف شعرها ليقبّل جبينها مطولًا .. قبلة هيّجت دماءها ورائحة العود تتغلغل بمسامات جسدها، وكأن قبلته هذه شقّت جبينها لتزرع فيه وردًا، تتفتح أزهار روحها على همسه :" مبارك لنا يمام"

يُلبسها عقدها، سوارها وحتى أقراطها .. كانت تتوقع أن تكون أكثر قوة، التوتر الذي كانت تبحث عنه منذ البارحة وهجرها يهاجمها بقوة وملمس أصابعه يحط على جسدها، وأخيرًا يُلبسها الخاتم.. تنوي إبعاد كفها لتسحب دبلته إلا أن كفه أسرعت لترفع كفها ويُقبله، تحاول أن تُقنع نفسها أن خالها وثامر غادرا حتى لا يزيد توترها .. غير أن صوت ثامر يحادث خالتها يذكرها بوجوده لتغوص بخجلها ..
تُمسك بكفه، تُلبسه الخاتم .. ليحتضن كفها بين كفيه بسرعة قبل أن تهرب بها، تُغادر خالتها وخالها مع ثامر .. حاملين معهم توترها، يُغلق باب المجلس .. وحدها معه بباب مغلق، صمت مطبق يهبط عليهما لدقيقة ..

تستوعب إنها أصبحت (زوجته) شرعًا، أن نجد الصغير كبِر حدّ أن يربطها به بوثاق محكم .. تشعر بكفه تحرر كفها أخيرًا، ينتقل من حبس كفها إلى كتفها بصمت تام .. يقترب منها ليقضي على الفراغ بينهما، تشعر بيده التي تشد على جسدها ليُجبر رأسها على الاستناد عليه.. تُريح رأسها باستسلام على كتفه، نعم هذا نجد .. هذا الكتف الصلب الذي ظل على ثباته سنين طويلة، لن يكون إلا لنجد رفيق الطفولة..

تبتسم بنعومة وهي تستشعر أصابعه تتخلل شعرها، يقطع صمتهما صوته القريب :" قصيتِ شعرك؟ "

تعقد حاجبيها وأنظارها تضيع بسجادة المجلس، لم تقص شعرها منذ مدة طويلة .. يُتابع :" أذكره كان أطول، كنت أظفره لك ويوصل لآخر ظهرك .. تذكرين؟ "

تعود ذكريات الطفولة مجددًا لها، تتسع ابتسامتها بخفة وهي تذكره كيف كان يُعذبها بشعرها .. يستميت برجاء طالبًا منها أن تسمح له بالعبث به، لعبة (الحلاق) كانت أكثر متعة معها، لم يكن غيرها يملك شعرًا طويلًا بينهم الأربعة .. ثامر ويوسف وهي ونجد، كان شعرها كلعبة مسلية لثلاثتهم .. لا يوقفهم عن ابتكار تسريحة جديدة أو عن تلطيخ شعرها بأنواع المرطبات إلا صوت نورة موبخًا ..

ترفع رأسها عن كتفه لتقابل وجهه، قريبًا جدًا منها .. تُمسك بخصلات شعرها :" من زمان على هالطول"

يتأملها بهذا القرب، يلاحظ للتو تغيّر ملامحها .. أصبحت أكثر حدة، وأكثر فتنة .. يُبعد يديه عنها ليُخرج من جيبه علبة مخملية صغيرة :" باقي قطعة ما لبستيها"

تبتسم بإعجاب شديد وهي ترى خلخال ذهبي تتوسطه ألماسة صغيرة، يُدرك نقاط ضعفها .. لا تقاوم الخلاخل، لو

كانت تملك من الأمر شيئًا لطلبت منه تحويل كل الذهب الذي ألبسها إياه إلى مجموعة خلاخل.. يهبط من المقعد ليجلس أمامها على الأرض متكئًا على ركبة واحدة، تسري القشعريرة لكامل جسدها وهو يُلبسها الخلخال .. يُغلقه، لا تشعر بإصبعه التي تتحرك ببطء على ساقها ذهابًا ونزولًا .. لكن عيناها تُبصر حركته البطيئة، يتأمل ساقها الناعمة مطولًا .. تتفجر الدماء في جسدها وهو يرفع قدمها قليلًا ليُقبل منتصف ساقها، تهمس بتلقائية :" نجد! "

يرفع رأسه لها، يقابله احتقان وجهها بحياء .. تزيد شغفه أكثر، يقف ليدني وجهه منها بنية جنونية.. وقبل أن يحقق رغبته يُداهمه صوت انفتاح الباب واكتساح أحفاد خالها المجلس .. يعتدل بسرعة ويده تتحرك لشعرها متظاهرًا بانشغاله بشعرها، هجوم الأطفال يعني انقضاء المهلة المحددة لخلوتهما الأولى بطريقة لبقة ومزعجة بذات الوقت .. يزفر بابتسامة :" بروح الحين يمام .. - تتوزع أنظاره حول الأطفال بضيق - لو بس ترجعين الرياض، أقدر أشوفك بكرة الصبح "

يلحظ ابتسامتها الخفيفة، يُتابع :" بس يلله تنقضي الإجازة والوعد الرياض! "

ترفع أنظارها بسرعة وكأنها للتو تذكرت :" بكرة رحلتك؟ "
يهز رأسه إيجابًا :" ايه، الحين تمنيت لو أجّلتها "
يدنو ليقبّل جبينها مجددًا، وقبل أن يعتدل بوقفته تباغته وهي تُمسك بثوبه تجبره على الاقتراب أكثر.. تطبع قبلة سريعة على خده وهي تدعو له بالسلامة ..
يودعها وعطشه لها يزيد مع كل خطوة يخطوها للخارج .. يتمنّى لو يخطفها معه ويخبئها عن أعين أقاربها ..

-

أوصل نجد إلى خالته في المجلس ليخرج بعدما بارك لهما، اختناق يقبض على صدره منذ أسبوع.. نار تحرقه يُطفئ لهيبها قليلًا رؤية يمامة سعيدة، وما أن خرج من الغرفة حتى عاودته النيران.
يخرج إلى باحة المنزل الوسيعة، يُشعل سجائره الواحدة تلو الأخرى.. علّه يُشبع نيران جوفه التي ما انطفأت منذ صراعه مع خالد قبل أسبوع ..
خالد الذي تحوّل إلى مصدر يثير تعبه وقلقه .. يتمنى لو بقي في السجن، لا شيء يُعكر علاقتهما المتينة .. يزوره كل

أسبوع كصديقين مقربين، يُبقي أمانته تحت ناظريه .. يزفر بضيق شديد وهو يدرك بقرارة نفسه أن موقفه العدائي هذه المدة مع خالد سببه الشعور الكريه بأن أعظم ما يملك سُلِب منه، سرق منه رغد .. ولا يكتفي بسرقتها فقط، بل يقرر أن يُميت ذكرها عنه إلى الأبد برحيلهما..

بعد رغد أفاق فجأة ليستوعب أنه مجرد صفر على الشمال في هذه الحياة، أن الجميع قطعوا أشواطًا في حياتهم ليبقى وحيدًا في مكانه منذ ثلاثٍ وثلاثين عامًا، هل كانت تحتل حياته كلها لتشعره بقيمته؟ قيمة فارغة ملأها بهواء كالكرة دون أن يكون لها أي تأثير يذكر.

كان ملاكها الحارس- كما يعتقد خالد-، يتجاوز هذا الاعتقاد ليُصدق نفسه .. كانت شريكة له وهي تُغذي شعوره بقيمته الكبيرة بحياتها.. يخرج خالد، ليكتشف ثامر بعد كل هذا أنه كان مجرد عتبة في حياتها .. ينتهي دوره، يُساهم في إبعادها بمشاركته الجريمة مع خالد ..

ليصطدمان بغيبوبة موسى، كل ما كانا يخططان له انتهى قبل أن يبدأ، يتمنّى لو يبقيان أكثر .. ما حصل لموسى يؤخر رحيلهما، نعم لا يرغب بهذه اللحظة .. لكنه سأم من تعلّقه

في المنتصف، لا يُريحان قلبه بقرار البقاء ولا ينزعان روحه بالرحيل .. انتظار المجهول أكثر ما يُتعبه.

يسحق سيجارته تحت حذائه وإحساس قاتل ينتابه، لا بد أنها سمعت الجنون الذي تفوّه به وهو في قمة غضبه بصراعه مع خالد .. نعم دخولها المفاجئ وهما في قمة الصراع، ملامحها المندهشة والدموع تغطيها .. كل هذا يثبت له أنها سمعت حديثه، كيف يُثبت لها الآن أن ما تفوّه به لم يكن سوى بسبب الغضب الذي تملّكه، أنه لا يعني أبدًا ما نطقه ... أنه متعب بسببها وبسبب خالها حد الضياع..

" يللا تنام، يللا تنام .. لادبحلا طير الحمام .. رُح يا حمام لا تصدئ، بضحك ع جوجو تتنام .."

يتوقف فجأة وصوت الهدهدة الناعم يصله بعيدًا، تتسع أحداقه ودفء مفاجئ يغمره.. :"جوجو جوجو الحندئة.. شعرك أسود ومنئى .. واللي حبّك بيبوسك .. اللي بغضك شو بيترئى"

تتحرك خطاه دون وعي مشدودًا إلى الصوت الهامس، يتوقف فجأة ومنظر فاتن يتراءى له كلوحة فنية متحركة.. واقفة بشعرها الطويل الأسود، وفستانها الرمادي .. تهز ابنتها التي تنام على كتفها وهي تهدهد بخفة :" التشتشة

والتشتشة .. والخوخ تحت المشمشة ..وكل ما هب الهوا
لائطف لجوجو مشمشة"

تطلق زفرة صغيرة :" أخيرًا نمتِ"

تخطو للداخل دون أن تشعر بالعين التي تراقبها .. تمنّى لو أن ابنتها لم تنم، أن تطيل وتُنهي الهدهدة التي يسمعها لأول مرة بصوتٍ غير صوت فيروز، علّها تهدئ قلبه وتجعله ينام كما نامت الصغيرة على كتفها ..

يرى ظلال تخرج من بوابة مجلس الرجال، يسير بسرعة مبتعدًا عن مدخل المطبخ .. يفتح باب المنزل هاربًا ليوقفه صوت ناصر :" ثامر، انتظر "

لا تنقصه أبدًا رؤية ناصر، يقترب منه :" إذا مو محتاج سيارتك باخذها .. تعبان وابرجع للرياض"

يفتح باب المنزل دون أن ينظر إليه :" جيت بوقتك، الحين ماشي عالرياض"

يرافقه بطريقه إلى الرياض، يستشعر ثامر حالته النفسية السيئة .. لا تقل سوءًا عنه يزفر بين الفينة والأخرى، ينتهز الفرصة ليُلقي سؤاله بحذر :" ارتاحت نفسك؟ "

يعقد حاجبيه باستغراب، يُتابع ثامر موضحًا :" اللي صار لموسى .. طاح ومحد.."

يُقاطعه بغيض بسرعة :" اسكت ثامر! "

تتسع عيناه من انقلاب حاله المفاجئ، يُتابع ناصر بزفرة قوية :" لا تطري الموضوع، ولا تاكل لحم الناس .. مو وقت شماتة أبد"

يلتفت عليه وكأنه يتأكد أن من يجلس بجانبه هو ناصر الذي قضى حياته وهو يشتم موسى حتى شوّه صورته بعيونهم .. يعود إلى الطريق :" مو شماتة، الله يعافينا .. بس أعني ما تحس إن حقك رجع لك بعد ما طاح من عيون الناس؟ "

منذ أسبوع وكل ما يسمعه هو الحديث عن موسى، في الهاتف والمجالس والمقاهي وحتى الطرقات .. يهرب من كل شيء ليجد ثامر يُعيده مجددًا للحديث، يغمض عينيه بتعب :" لا .. اللي صار له ابتلاء يهد الحيل"

يهز رأسه بهدوء :" يعني باقي متمسك بحقك؟ "

تضيع أنظاره بالطريق الأسود، موسى كان عدوه وسيبقى عدوه .. يهمس :" لين أموت"

يطلق تنهيدة تُخفي ضيقه، ماذا لو عرف ناصر أن كل ما يدين موسى بجانبه تمامًا، أن من قضى حياته يبحث عنه يتوارى اسمه في الهاتف أمامه.. صحبة ناصر في الطريق لم تزده إلا غمًا على غم، يوصله إلى منزله .. ليعود وحيدًا إلى بيته.. تصافحه لوحة صغيرة معلقة أمام سريره بتوقيعها المميز (رغد)، تُشعره بذنب أكبر .. يُزيحها عن الجدار ليُلقي بها جانبًا على الأرض حتى تُفارق ناظريه وترحم جفونه علّه ينام ..

-

أرق مرهق يسلب منها النوم، مسلطة أنظارها على جدار غرفتها الفني.. تتأمل ما رسمته قديمًا، ظلال سوداء عملاقة، ظل لطفلة بلا أيدي أو أقدام .. يحملها ملاك مكسور الجناحين.

تزفر بضيق وهي تعتدل جالسة، باتت تؤرقها هذه الألوان السوداء .. غدًا سترضخ لخالها وتسمح له بأن يعيد طلاء الغرفة، تتذكر صدمته الأولى لأول مرة تقع أنظاره على

الغرفة.. حاول معها مرارًا أن يعيد تشكيل الغرفة بلمساته الخاصة، غير أنها رفضت متمسكة بكل شبر منها ..

أما الآن، انكسار مؤذي يلفها .. تقف لتمرر أصابعها على الملاك الذي يحملها، كما كانت تراه .. مكسور الجناحين، ورغم ذلك يحملها .. لتتفاجأ به قبل أسبوع يوقعها أرضًا دون أن يُبالي، تتمنى لو تمحي صوته ذاك .. حتى يبقى ثامر الذي عهدته.

توتر خالها ذلك اليوم، دخول ثامر للمنزل.. وسرعان ما علت أصواتهما واحتدت، تسمع اسم (موسى) يتردد كثيرًا على لسانيهما.. خالها يُلقي اللوم عليه بسبب شيء تجهله.. كل ما تسمعه منه ويردده (قتلنا الرجال.. انت السبب، أنا الحمار اللي طاوعك .. فكني من شرك)، تختنق بصدمة وهي لا تعي شيئًا.. تحاول جمع كلماتهما علّها تفهم سبب خصامهما.. ثامر يثور بسبب كلام خالها ليُلقي سكاكين حروفه بغضب مماثل، صوت ارتطام اللوحات يجبرها أن تركض إليهما دون وعي لتتلقى صفعة حارة تصمّ أذنها إثر حديث ثامر الغاضب بوجه خالها (أنا؟ تحط اللوم على راسي الحين؟ مو انت اللي جريتني لكل مصايبك! مو انت

اللي وقفت لي حياتي سنين عشان أداريك وأداري بنت أختك!)

تجحظ عيناها، لا ترى سوى ظهره العريض.. يوقظها صوت خالها:" رغد! "

ما أن نطق اسمها إلا وذاك الثائر يلتفت مصدومًا لتقابلها عينيه، يتوتر.. يرتبك، يُلقيها ظهره بسرعة وخالد يحث الخطى إليها ليُبعدها عن باب المجلس..

قضت ليلتها تلك تبكي كثيرًا، أكُل ما كانت تظنه من قبلته اليتيمة مجرد هراء؟ أكانت مجرد لحظة شهوة ساهمت هي بصنعها؟ أكل كلماته (أنتِ عزيزة، أنتِ غالية، مقامك كبير) مجرد أكاذيب؟

منذ تلك الليلة وخالها منزوٍ على نفسه بغرفته، خسر رفيقه وتلميذه وشريكه.. لم تجرؤ على محادثة خالها، كل ما تعلمه أن شرخ سبباه لبعضهما بحديث لحظة غضب.. أو على الأقل خالها، يأكله الندم.. يُراجع حساباته، يُفضي لها بأنه تمنّى لو لم يخرج من السجن.. لم يُمارس مهنة التزوير، ولم يُمسك بيد طفل صغير ليستميله إليه..

لا يعلم أنها أسوأ منه بالتمنى، تتمنى لو عاشت كأي فتاة.. بعيدًا عن الجنون الذي تعيشه برفقة رجلين كل منهما يجهل ما يفعله بها.. وما تفعله هي بنفسها.

*•

مَضَى شِرَاعي بِمَا لا تَشتهِي رِيحِي

وفَاتَنِي الفِجْرُ إذْ طالَتْ تَرَاوِيحِي

أَبْحَرْتُ تَهوِي إلى الأعماقِ قَافِيَتِي

ويَرْتقِي في حِبالِ الرّيحِ تَسْبِيحِي

مُزمَّلٌ فِي ثِيَابِ النُّورِ مُنْتَبِذٌ

تِلْقَاءَ مَكَّةَ أَتْلُو آيَةَ الرُّوحِ

سيد البيد

الورقة الخامسة عشرة

•

يهرب من الرياض بعد انتهاء عمله إلى مكان أدفأ، إلى حيث شعر بالأمان يلفّه .. بعيدًا عن الضوضاء المزعجة، علّه يلقى نفسه الضائعة في تلك المحافظة الصغيرة التي باتت تعني له هدهدة صغيرة تهزّه كي ينام عن جميع أوجاعه.

وسرعان ما تحطمت أشرعته ويمامة تدعوه في مطعم صغير، كان يرغب وبشدة أن يبقى في ذلك المنزل الدافئ .. علّه يسمع صوتها، أو يلاعب ابنتها الصغيرة ..

" ثامر! "

يرفع رأسه بسرعة :" معك معك"

تزفر بضيق وهي ترتشف عصيرها :" صاير لك ساعة ساكت، في شي يشغلك؟ "

يبتسم مجبرًا كي يمحي جميع الأشياء التي تشغله وتشتته عن عينيها :" ولا شي"

يصمتان قليلًا، لا شيء سوى صوت الملاعق والأطباق، تتمنّى لو يصارحها بما يُخفيه .. لحظت منذ مدة شرود ذهنه، كانت تظن بأنها ستساعده على الحديث .. لكنها نست أن من يجلس أمامها هو ثامر، ترفع رأسها بسرعة على صوته :" متى ناوي يرجع نجد؟ "

يلمح طيف حياء يمر بها، تعقد حاجبيها بابتسامة :" تو ماله إلا كم يوم عند يوسف، بس تبدأ الدراسة بيرجع"

يهز رأسه قليلًا، يعود لصمته .. هذا الهدوء يثير في نفسه رغبة الحديث، يترجم حديث نفسه إلى لسانه لينطق بشكل مفاجئ :" وش رايك تخطبين لي؟ "

تتسع عيناها بمفاجأة سرعان ما تحولت لضحكة خافتة :" ابشر! انت بس حدد لي والليلة أخطب لك"

يرفع حاجبه مترقبًا صدمة ملامحها :" امممم سمر بنت خالك"

ما كانت تتشكل به ملامحها تجاوز الصدمة إلى الاستنكار، كانت تظن أنه يداعبها فقط لا أن يذكر لها اسم ابنة خالها وأختها الروحية، تبتلع الصدمة لتشتت أنظارها عنه.. تشرب

الماء علّه ينسى ما تفوّه به، إلا أنه عاد مجددًا بجدية :" أفكر جديًا أتزوج، يمكن تستقيم لي الحياة من جديد .. "

تتمالك نفسها، تحاول طرد كل الأمور السلبية عنها :" بس .. سمر مرت بتجربة زواج فاشلة، ما أظن توافق بسهولة على أي أحد"

(أي أحد) نعم، هو أي أحد .. ليس رجلًا مثاليًا يجزم أنه لن يُرفض، لا يملك شيئًا في هذه الحياة قد يُغري امرأة للقبول به، ليس كنجد بشهاداته العُليا .. ليس كناصر بعمل مُشرف، وليس على الأقل بوسامة يوسف، تُتابع لتقتل بقية أحلامه :" بعدين .. هي عندها بنت! "

يزفر بقوة متمسكًا بأمله :" موب مشكلة، هذي أمور تنحل بوقتها .. الحين أبي أستشيرك بس، أبي أشوف هي متقبلة فكرة الزواج أو لا"

تزدرد ريقها، ماذا تقول له؟ هو ابن أختها الراحلة .. وسمر ابنة خالها وبمقام أختها الكبيرة، تزم شفتيها بحيرة، لا تود أن تعشمه.. ولا أن تُحبطه .. لكن سمر بعد تجربتها الفاشلة تستحق أكثر :" امممم .. بس انت واثق بتكون قد المسؤولية؟ "

يبتسم بسخرية، نعم يمامة أكثرهم معرفة بمقدار تحمله للمسؤولية .. يقف :" هو موضوع ببالي من زمان، وما عندي غيرك "

يُعيدها إلى منزل خالها وحالة من الفشل تتسلل إليه، لكن إصراره أقوى .. يوقف السيارة، وقبل نزوله لجلب مقعدها توقفه :" بساعدك ثامر، بس ... "

ينتظر تتمة حديثها بترقب، تتوتر وهي تعبث بخاتمها :" سمر مثل أختي، مستحيل أكذب بأي شي "

تبهت ملامحه بتعجب :" عالتدخين؟ خالي يعرف إني أدخن "

تهز رأسها نفيًا بضيق :" لا "

يعقد حاجبيه بضيق، تفجرها بوجهه دون مقدمات :" قبل كم سنة شفتك جايب بنت لبيتنا آخر الليل"

لم تكد تنهي كلمتها فإذا بالسيارة تتحرك بسرعة وتطير بعيدًا عن خالها، تتسع عيناها بصدمة وسرعته تزيد، لا يسمح لها باستيعاب صدمتها إلا وسيارته تقف مجددًا بعشوائية أمام أحد المخططات البرية، يلتفت بسرعة وبوجه مذهول :" وش شفتِ يمامة؟! "

تبتلع ريقها، تكتم أنفاسها وبداخلها تشتم نفسها .. لم تكن مضطرة لفتح ما حصل الآن، يكرر سؤاله :" يمامة علميني وش شفتِ! "

تنطق بسرعة وبربكة حروفها :" ولا شي.. بس شفتك تدخل الليل وتدخل معك بنت للمستودع.."

تبهت ملامحه، يهمس بغير استيعاب :" لا يكون علمتِ أمي؟ "

تهز رأسها نفيًا بسرعة :" لا لا، كانت نايمة .. وكنت مرعوبة"

يطلق زفرة حارة طويلة وهو يمسح وجهه، رغد .. أينما ذهب يلحقه ذنب رغد، يلحقه وجهها، يمسح وجهه بضيق شديد وبذبول صوته:" يمامة وش تظنين فيني؟ "

تلتقط أنفاسها بسرعة، ما هو الجواب الذي يرغب أن يسمعه؟ جواب بديهي لا يُمكنها إنكاره ولا يمكنها تصديقه ..تهدئ نفسها :" أدري، كان قبل عشر سنين .. كنت .. طايش .. كنـ.."

يقاطعها صوته مجددًا :" يمامة أنا أسألك وش ظنيتِ! "

تعض شفتيها وجوابها يضيع، يهز رأسه بضحكة سخرية على أقداره غير مستوعب :" يمامة اللي تظنينه مو صحيح"

تواجهه بسرعة وضيق :" هذا موقف قديم بس مو قادرة أنساه.. ثامر انت كل شي مخفيه عني، مستحيل أرضى سمر تمر بتجربة فاشلة والسبب سكوتي .. كثير أشياء توتّرني فيك"

يزم شفتيه، بهدوء :" وش كمان بقلبك؟ "

تزفر بقوة :" انت برر لي موقفك وصدقني مستحيل أذكر شي سيء فيك لسمر .. بس برر لي"

يُخرج سيجارته، تضيق أكثر وهو يشعلها أمامها .. يتملكه البرود :" اللي صار مو نفس اللي تظنين .. هذا اللي أقدر أجاوبك عليه، لا تسألين أكثر"

يزيدها حيرة، تضيق أنفاسها .. ماذا عن أمور كثيرة تثير شكوكها حوله؟ عن وجود هاتف لفتاة بحوزته؟ عن لوحات عديدة تحمل اسم (رغد) بغرفته وآخرها لوحة تحمل ملامحه؟

لم تكن تخطط إطلاقًا أن تواجهه، لكن أن يفكر بالارتباط بسمر بكل هذه الشكوك.. هذا ما لا تقدر عليه..

يُعيدها إلى منزل خالها، يغادر إلى الرياض وخطاه الأولى لتغيير نفسه باءت بالفشل، لن يستسلم .. لكن خيوط الأمل بدأت تتهاوى أمامه ..

رغد، ما الذي فعله بها حتى تواجهه وهي بعيدة؟ تقتص من حروفه تلك على لسان يمامة، تذكره أن لا مفر منها .. حتى وإن حاول قطع طريقه إليها ليلقى وجهته الجديدة سمر .. تعود مجددًا كعثرة في الطريق.

تسلك سيارته شارع مكتظ بذكرياته معها، توقفه الإشارة الحمراء .. يتخيل لو كانت تجلس بجانبه الآن بعد جولة تسوق سريعة كل شهر، تحكي له أو تجادله أو تلتزم الصمت كعادتها الأخيرة..

تتسع عيناه فجأة وهو يرى تلك المشردة تجلس على هيأتها القديمة، يشعر برغد بأقدامها الممزقة تجثو قربها بإنهاك .. ينزل من سيارته، يُخرج مالًا من جيبه بعشوائية ويمده لها، يعود سريعًا إلى سيارته والعلامة الخضراء تُفتح أمامه .. لو أنفق ماله كله على تلك العجوز لن يُوفيها أجرها ..

يوقف السيارة أمام المجمع، ينتابه تردد كبير .. لكن لا شيء يُمكنه أن يعوض وجود خالد بحياته، تعود له ذكرى قديمة جدًا .. تذكره بموقفه هذا ..

مراهق صغير لا يتجاوز عمره الأربعة عشر عامًا يقف بمنتصف ساحة تشتد حرارتها تحت قدمه، قدم واحدة تلسعها الحرارة والأخرى معلقة في الهواء .. يشد ملامح وجهه

وجسده حتى لا يرى المدير ضعفه، يظهر بطله الخارق بعيدًا برفقة المدير.. يسمع رجاءاته لمديره بألا يُبلغ عمه بالأمر، وبأنه من سيتولى المسؤولية ناطقًا برجاء (تكفى، الولد بوجهي)، بعد جولة رجاءات يقف أمامه أستاذه أخيرًا .. (أدري إنك انت اللي كسرت زجاج سيارة الأستاذ غانم، أبيك تعتذر وتحب راسه) يحاول معه مرارًا، غير أن وجه ثامر الصلب لا يتغير .. (لا تطيح وجهي قدام المدير! والله ليزعل منك ويعاقبك أسبوع كامل ويكلم عمك) تهبط قدمه الأخرى، يمشي إلى أستاذه خالد.. يعتذر منه هو بدلًا عن الأستاذ غانم، يشده الآخر ليوصله إلى الأستاذ غانم ومديرهم، يعتذر مطولًا .. وبشفاعة خالد تنتهي المشكلة، لم يكن ليعتذر لو لا طلب خالد الذي لا يرفض له طلبًا ..

يصعد الدرجات إلى الشقة محملًا باعتذارات بقدر حبه لأستاذه، يطرق الباب عدة مرات ..

لا رد، ولا صوت ..

يهتز بصدمة وخاطر مخيف يطرأ على مخيلته، ماذا لو كانا غادرا؟ رحلا دون سابق إنذار؟ .. تزيد طرقاته وهو يمحو هذا الشبح المخيف، لا يُمكن .. لن يصدق .. حتى تُفتح الشقة أمامه ويتأكد من خلوها..

" مين؟ "

تتوقف كفه عن الطرق فجأة إثر صوتها المميز، يلتقط أنفاسه مرارًا .. لحظة رعب تشبه تمامًا ما مرّ به ليلة اختفائها، يستعيد صوته :" ثامر يا رغد"

صمت طويل من جانبها يوتره، يقطعه :" أبي خالد، افتحي الباب "

يأتي صوتها أخيرًا هامسًا :" خالي مب موجود"

يتوقف مطولًا أمام الباب، يجهل ما يفعل .. قدماه تأبى المغادرة، يطلق تنهيدة طويلة تصلها :" رغد .. افتحي الباب.. هي كلمتين وبطلع"

لا حركة تصله تُنبئ عن رغبتها بفتح الباب، لا زالت صامتة .. بدأ يشك أنها غادرت بعد ما أعلمته بعدم وجود خالد، يقترب من الباب أكثر .. علّها تسمع صوته إن هي رحلت :" رغد .. - يزفر بقوة يجمع كلماته الضائعة - أظنك سمعتِ الغباء اللي قلته ذاك اليوم .. عمومًا أنا آسف، ما قصدت كلامي .. فقدنا أعصابنا أنا وخالد"

فجأة شعر باختلال توازنه والباب يُفتح، اعتدل بوقفته سريعًا ليتكئ على حاجز المدخل ويتمكّن أخيرًا من رؤيتها من خلال الفتحة الضيقة .. مُتقابلين، هو مستند على طرف

المدخل وهي خلف الباب ممسكة به.. كانت أعينها تضيع في خطوط الأرض، لا تنظر إليه .. خصلات شعرها طالت حتى حجبت عنه رؤية عينيها، خفقات قلبه تضطرب أكثر .. تُعيده لأيامهما معًا، أقرب من أن تُبنى بينهما هذه الحواجز وهذا العتب .. :" رغد، طالعيني "

لا تتحرك، جامدة بوضعيتها تلك .. يعود صوته برفق :" تعرفين عيوني، ما تكذبينها .. طالعيني وتعرفين إني ما قصدت أي كلمة قلتها"

ترفع رأسها أخيرًا ببطء، تلتقي عينيهما .. تتشبثان ببعض وكلّ منهما يبحث عن مراده في الآخر، تهز رأسها نفيًا بضيق :" ما أدري! "

يضيق بصوتها المتعب، يعتدل من استناده لتتراجع خطوة إلى الخلف .. يضيق أكثر من ابتعادها، بتنهيدة صغيرة :" ما تدرين وش؟ "

تنفجر دفعة واحدة كرغد التي عهدها، بضياع :" ما أدري عن شي ثامر! .. تعرف؟ أنا كل شي أحسه هو ما أدري! أنام وأصحى وآكل وأرسم وأجلس وأنا ما أدري! .. تعرف وش يعني ما أدري؟ يعني ما عاد أحس بشي! ما عاد يفرق عندي شي .. - تأخذ شهيقًا عاليًا، تتدارك اختناقها وهي ترى نظرته

البائسة/ الحنونة - لا تناظرني كذا ثامر! .. الموضوع مو محزن! .. أنا مو حزينة على اللاشعور هذا.. بس مو فرحانة.. نسيت وش يعني كيف أحزن ولا أستانس، ما في شي يفرق عندي وهالشي يريحني .. - تصمت قليلًا، تستدرك بسرعة وهي تهز رأسها تفيًا - لا ما يريحني .. أنا حتى الراحة نسيت شلون تكون! ، ولا شي ثامر .. ما أدري يعني خلاص مت من داخل .. ولا يهمني اللي قلت، ولا يهمني اعتذارك"

لا تثير دهشته، هذه رغد ..وهذا ما يتوقعه منها، غير أنها تثير قهره .. قهر من كل شيء ومن أي شيء، يميل بجسده على الباب الذي يُمسك به :" بس أنا يهمني، عشانك يهمني تكونين عارفة إني ما قصدت كلامي .. "

تكتسيها البرودة، هي اليوم تكتسي بالبياض .. أقرب لأن تكون شفافة، هذا ما يراه ثامر .. تتكئ على الجدار خلفها، تكتّف يديها ببعضها :" ليش ثامر؟ "

" لأنك رغد .. يهمني لأنك رغد مو أي أحد! "

يذبل وجهها، تعتدل بوقفتها .. تُمسك بعروة الباب التي يتكئ عليها :" خلاص ثامر .. صدقني مثل ما قلت لك ما يهمني اللي قلته، نسيته .. خلاص روح قبل لا يجي خالي"

تذكره بخالد فجأة، وكأنه ملسوع يبتعد بسرعة عن الباب .. يتراجع للخلف لتُغلق الباب في وجهه، يزفر بقوة .. ما يريحه أنه استطاع تقديم اعتذاره لها وإن كانت بحالة تُثير ضيقه..

ينزل الدرجات، يعود إلى سيارته .. وقبل أن يستقل سيارته يوقفه صوت :" ثامر ؟ "

يلتفت بسرعة ليجد خالد يحمل علب وجبات سريعة يقف قُرب المجمع، يغلق سيارته ليتقدم بهدوء :" زين، جيت أشوفك .. بس رغد خبرتني إنك برى"

يطبطب على ظهره يدعوه لدخول المجمع مجددًا :" زين وصلت بالوقت المناسب"

يدخلان الشقة، يحمل خالد طعام رغد ليُدخله إليها .. يعود سريعًا إلى ثامر بابتسامة :" تراني جوعان، كانك تبي نتقاسم الأكل بس ما أتنازل لك عنه"

يبتسم بحنين، هذا خالد الذي عهده .. وإن قام بجميع مصائب الدنيا لا يُلقيه ظهره :" بالعافية، تغديت عند خالتي قبل لا أجي"

يتناول خالد طعامه بشهية كبيرة، ينطق ثامر بضيق :" جيت أبيك تعذرن..."

يقاطعه بسرعة مادًا كفه :" لا تعتذر ولا شي، هو حصل شي؟ ما حصل شي .. أفعال الناس اللي تعزها إن كانت سيئة غمّض عيونك عنها"

ينزل من مقعده بسرعة ليُقبل جبين خالد الذي نطق مستهجنًا :" علامك ثامر؟ "

يجلس أمامه بضيق شديد :" ولا شي، حبة الراس هذي عن تعويضك لكل شيء سيء بعمري"

تلمع عينا خالد، يحاول مداراة دمعة .. يطلق زفرة :" انت غالي.. وتعرف ما في شي يوازي مكانتك، هالشي يا ثامر حجب عني شكثر كنت أناني وأنا أجرك معي .."

يقاطعه بسرعة :" ما جبرتني على شي، صدقني أنا اللي أسير لك بكل مرة بإرادتي "

يهز رأسه إيجابًا :" أدري .. لهالسبب أبيك تشيل يدك عن كل شي بسويه"

تتسع عيناه بصدمة، ينوي أن يتكلم غير أن خالد يتابع :" بتبقى ثامر، وبتبقى حولي .. بس ما بسمح لك تدخل معي بصفقات ما أضمنها، اتركك بعيد .. وإن احتجت، صدقني ما عندي غيرك "

يرتخي بجلسته بضيق، يُتابع خالد بابتسامة :" شوف حياتك، انشغل بشغلك .. تزوّج! "

ينفرج وجهه بابتسامة ذابلة، يفتح قلبه لخالد مجددًا .. يحكي له عن رغبته بالزواج من سمر، يعودان كما كانا قبل سنين طويلة .، يشاطره الهم..

-

تمشي بخطوات سريعة، تشعر وكأن كل العيون تراقبها .. أن الجميع يتهامس باسمها، تضطرب أنفاسها، هي قررت أن تخرج وستكون قوية كما وعدت أمها .. لن تسمح لأي شيء أن ينزع علاقتها بوالدها، لن تسمح بأن تسبقه أي ألسن واشية أو نظرات لائمة قبل أن تخبره هي ببراءتها ..

تهدئ نفسها وهي تذكرها بأنه لا أحد يعرف من تكون، عباءة سوداء ونقاب كمعظم البنات، لا شيء يميزها ..

تبطئ خطاها في الممر الطويل، تمر بمجموعة رجال .. نعم هذا سكرتير والدها، وهذا مدير أحد فروع المؤسسة،

والآخر صديق والدها .. يُفتح باب غرفته، تخرج أمها قليلًا .. تشير لها بكفها، تسرع خطاها وهي تمر بهم إلى باب الغرفة، تغلقها خلفها سريعًا خشية أعينهم.. وما أن رفعت عيناها حتى خارت قواها غير مبالية بوعدها لأمها بأن تكون قوية .. تُسرع إليه تحتضنه وتبكي، تدفن رأسها في صدره المكشوف غير شاش يُغطيه.. تبكي كثيرًا، تشعر بكف أمها التي تسحبها وهي تبكي معها .. ترفع رأسها لأبيها لتصطدم بوجهه الذابل، ما حصل له بسببها .. فقدانه للسيطرة على السيارة كان بسبب وصول خبرها له، تخرج كلماتها منفصلة :" يبه والله ظلم وبهتان .. يبه مابيك تظن بتربيتك، يبه والله حرقوا قلبي .. يبه لفوا ذراعي بأقوى شي يعورني .. بك يبه.. كنت خايفة عليك.. على سمعتك .. والله يبه بنتك تربيتك .. يبه بس ترجع البيت أوريك كل الإثباتات .. "

تنزعها أمها من بين يديه باكية :" أبوك مريض، لا تتعبينه أكثر "

تهتز برعشة بكاء، تعي للتو منظر أبيها .. الشاش يغطي معظم جسده، رقبته ملفوفة .. عينه اليمنى مغطاة، تنزل منه دمعة حارة وحيدة .. يهز رأسه إيجابًا لها، يطمئنها أنه يصدقها.. لأن لا أحد له سواها .. يعجز عن معانقتها، عن

مسح دموعها .. أو عن أخذ حقها من كل لسان لوث اسمها..

تخرج مجبرة بعدما تركت دموعها خلفها، تتظاهر بالقوة .. تمشي بخطى واثقة متجاهلة أعين من حولها، وبداخلها شرخ كبير يزيد اتساعه .. تخرج من المستشفى، تحث خطاها وقهر كبير يأكلها ..

تتجمّد خطاها فجأة وصوت رجولي يصلها قريبًا منها :" ريم؟ "

تسرع بخطاها أكثر هاربة، إلا أنها تتوقف فجأة مستذكرة صاحب الصوت.. تلتفت بسرعة لتصطدم عيناها به، يقف بانكسار خلفها .. وحده من يشهد ببراءتها، يشتت أعينه على الأرض :" آسف عاللي صار"

ترتجف شفتيها، غير أنها تتمالك صوتها :" ما قصرت"

يوقفها قبل أن ترحل صوته مجددًا :" أبي أقولك مستعد أقدم كل شي تحتاجينه بخصوص رفع القضية"

تُنزل أنظارها بضيق :" بس يطلع أبوي بالسلامة بنقدم كل شي"

يرفع رأسه بسرعة :" مو من صالحكم تتأخرون"

تقف بضياع أمامه .. هي لا تنتظر سوى خروج والدها، السمعة لا يمكن أن تعود .. لا شيء يمكن أن يعود كما كان :" وش نسوي؟ "

يزم شفتيه :" الحين روحي قدمي بلاغ، وتوكيل محاماة لي والباقي اتركيه علي "

فجأة أشعل في قلبها بصيص حياة، تهز رأسها إيجابًا .. تدخل السيارة منطلقة إلى المركز الأمني، هي بريئة ويكفيها أن تؤمن هي بنفسها ..

" مدام"

ترفع رأسها للسائق، تنتقل أنظارها إلى ملف بيده .. تأخذه منه وهو يتابع :" هذا وصل اليوم الصباح .. "

تفتح الملف، تخمن مباشرة ما يحتويه .. يصيب ظنها، ورقة طلاق .. تتأملها قليلًا لتُعيدها إلى ملفها، تحبه .. تقر بذلك، كان رجلًا يحمل جميع المواصفات التي تتمناها في زوجها المستقبلي، كان رائعًا واستثنائيًا .. انتهت قصته قبل أن تبدأ، لا تلومه، تصرف طبيعي، وإن كانت في موقفه كيف لها أن تستمر معه.. تغمض عينيها وهي تدعو بقلبها له أن يوفقه الله، وأن ينزع حبه من قلبها .. وأن يسخر لهما خيرًا ..

-

ترتجف كفاه بوهن، تضطرب أنفاسه المتعبة لتخرج ضئيلة .. دهرٌ كامل يفصله عن ذاك الصوت البعيد، يبكي فجأة كطفل صغير وهو يسمع أنفاسه الثقيلة من خلال هاتفه، لا يعي ماذا يقول .. صوته أضعف من أن يصل، من كان أبًا له في مراهقته وسندًا لا يهوي يشهد الآن انهياره .. عاجز عن إسناده كما كان عاجزًا عن إسناد توأمه من قبل، البلايا والمصائب لا تنفك على النيل منهم.. أَلِفها، حتى بات يشكّ أن المصيبة هي شقيقٌ ثالثٌ لهم، عجزوا عن حمل ثِقل من أسماهم والدهم بهم .. من جميع الأسماء تخيّر لكل منهم اسم نبي، كان أضعف من أن يتحلّى بصبر يعقوب.. هل كان والده يعلم بأن روحه ستتوه بحثًا عن يوسف؟ بأن يعقوب وهِن منتظرًا عودة يوسف؟ بأنه ما زال يبكي شوقًا كل ليلة لتربة يوسف؟

والآن يبكي عجزًا عن مؤازرته لأخيه موسى، تخرج أحرفه مضطربة :" أنا جاي .. موسى، ما فيني أصبر أكثر.. مابيك تتعذب بغلطة مالك ذنب فيها .."

يُدرك تمامًا أنه أضعف من كلامه، يبكي بضعف وخوف :" أنا ميت .. السرطان ما عاد بقّى من عمري شي.. أموت بقربك ولا أموت غريب هنا .. أنا يا موسى مابي أموت وبرقبتي دم .. مابيك تتعذب بسبب ضعفي ... بس .. بنتي يا موسى! بنتي .. وش أسوي بعمري وهديل هي بنتي؟ .. "

يبكي أكثر وحروف موسى الثقيلة تردد بضعف مماثل :" ريم"

يردد اسمها مرارًا، يضعف عن نطق أي أحرف سوى حروف اسمها الثلاثة، هديل .. وريم، ابنتيهما.. وما أعز من البنت في قلب أبيها؟ وما أعز من الأب في قلب ابنته؟ يقوى الأب دائمًا لأجل ابنته فقط .. وما أن يعجز عن حماية عينها من الدمع يتحول إلى أضعف من قشرة تمرة ..

يتمالك نفسه، يمسح دمعه، كان دائمًا ضعيفًا وموسى يقوّيه.. يستحق أن يسحق آلامه جانبًا كي يمثل القوة المطمئنة في قلب موسى المفجوع بابنته، يقف.. يمسح

دمعه، يتمالك صوته المهتز :" موسى أنا بجيك، ريم بعيني ..
ريم بنتي، ما في أحد بيمسّها بسوء وأنا موجود .. أنا جايك"

يُغلق الخط ليطلق زفرة عالية، يشد على كفيه مرارًا حتى يتمالك رعشة يديه.. يُمسك بهاتفه، رنين متواصل ينتهي بصوته مرحبًا :" هلا عمّي .. "

يظن بأنه تمالك صوته غير أن ارتعاشه لم تخف على يوسف :" يوسف يا ولدي .. طلبتك"

ينطق بسرعة وقلق متزايد يسيطر عليه :" آمر عمي "

يطلق زفرة طويلة :" أبيك تمرني "

-

في ذات الوقت، يخرج من شقة أخيه محملًا بنشاط يكفي الولاية بأكملها .. منذ قدومه إلى هنا ونشاط كبير يدب فيه، رؤية يوسف بهذه الحالة تكفيه لأن يفجّر العالم نشاطًا.. يوسف جديد، ليس يوسف الذي يعرفه .. يبتسم كثيرًا، بل ويضحك .. ليست كابتسامته الذابلة، أو ضحكاته الباردة..

يحمد الله مرارًا على تشجيعه ليوسف بفكرة السفر، كان مفعولها أقوى مما تخيّل ..

يدخل المقهى القريب بابتسامته الواسعة، يجلس منتظرًا قهوته .. يُخرج لتتسع ابتسامته وهو يرى صورة أرسلتها، كانت عبارة عن ورقة قديمة بخط يده تحمل كلمات هيام ووعد بالزواج (لك أن تتخيل ما شفت هالرسالة إلا قريب! .. تذكرها؟)

يكبر الصورة ليقرأ ما كتبه قبل سنين مرارًا، خيبة تصيب قلبه كون كل هذه المشاعر المرهفة من قلب مراهق كانت مخبأة سنين طويلة وهو يظنها تدركها (ساعات رعب طويلة قضاها مراهق صغير وهو يختبئ خلف منزلهم ليفجّر مشاعره لطفلة فاتنة سلبت عقله، وبهذه البساطة تأتي الآن لتقول أنها لم تلفت انتباهها حتى! .. أطلب منكِ الآن يا زوجتي العزيزة المشورة لاقتراح ماذا يمكن أن يفعل هذا المراهق الصغير لتلك الطفلة؟)

يترك هاتفه جانبًا وقبل أن يحمل كوب قهوته تسقط أنظاره على فتاة محجبة تجلس وحدها شاردة الذهن، كان ينوي أن يُبعد بصره بسرعة إلا أن أنظاره تسلطت مباشرة على شيء يألفه جدًا بين أصابعها، يعقد حاجبيه بذهول ..

ماذا تفعل سُبحة خاله في كفها؟ سبحته مميزة عاشت في غرفته مطولًا قبل أن يعطيها لأخيه ليغطي ندبة جرحه..

يزم شفتيه محللًا الأمر، يبتسم وهو يعود إلى قهوته..

(بنت الصحراء) ذاك الاسم المسجل بهاتف أخيه ذا طابع خاص، هروب يوسف من مواجهته كلّما سأل عن صاحبة الاسم بخبث.. كان كل شيء يدل على أن أنثى تسيطر على حياته، تحوّله المفاجئ لن يكون إلا بسبب أنثى .. شغفه المفاجئ لقراءة الشعر، سكونه ولمعة عينيه وصوت نجد يدندن بخفة ليلة من الليالي :

" غصن بانٍ مال من حيث استوى..

بات من يهواه من فرط الجوى ..

خافق الأحشاء موهون القوى ..

كلّما فكّر في البين بكى .. ماله يبكي لما لم يقعِ

ما لعيني عشيت بالنظر..

أنكرت بعدك ضوء القمر..

وإذا ما شئت فاسمع خبري ..

عشيت عيناي من طول البكاء .. وبكى بعضي على بعضي معي"

إصراره الشديد بأن الأبيات غزلية، يحاول إقناعه نجد بأنها تصف الشراب ومجالسه .. إلا أنه ينتهي بقرار أن متخصصو الأدب (ما عندهم سالفة) لأن الأبيات لن ينظمها إلا عاشق.

استنتاج مثير بأن تكون من تجلس في زاوية المقهى تحمل سبحة خاله هي من جعلت يوسف يُناقش أبياتًا شعرية تلامسه أخيرًا، يقف ليخرج إلى مكتبة الجامعة لبحث دوريات علمية لن يجدها سوى هنا وحديث نفسه يُصر على الإطاحة بيوسف حال عودته من عمله كي يجبره على الاعتراف ..

-

يلتقط أنفاسه باضطراب، برودة شديدة تجتاحه .. دوار يفتك به، عيناه لا تعي طريقه .. يخرج من منزل عبدالعزيز وطنين حاد يصيبه بصداع، طنين بفعل صوت عبد العزيز وحديثه..

يجلس بإنهاك على مقعد حديدي بالشارع، يتمالك نفسه .. يُعيد كل حديث عبدالعزيز علّه يتذكر شيئًا فاته، يزفر

بقوة .. يُغطي وجهه يحاول ترتيب كل الفوضى التي تسبب بها ..

يعتدل بسرعة، يُخرِج هاتفه ليتصل بها سريعًا :" هديل .. تعالي بنفس مكاننا عند النهر"

لم تمض سوى نصف ساعة وها هي أمامه تقف بقلق :" انت ما رحت الدوام اليوم؟ فيه شي صاير ؟ "

يجلس على المقعد الحجري، يطبطب بجانبه يدعوها للجلوس .. تجلس باضطراب وعيناه تثير قلقها وخوفها..

تتسع عيناها بصدمة ورأسه الثقيل يهبط على كتفها، يستند عليه علّها تثبت الفوضى التي خلّفها والدها، يميل إليها علّه يجد في ميله اعتدالًا لقلبه ..

يُغمض عينيه، لا يرى عينان أخرى تنوي قطع الطريق إلى مكتبة الجامعة قرب النهر لكنها تتوقف مذهولة .. تتبدّل نية سحب الاعترافات اللذيذة إلى نية أخرى أكثر جدية.. نية بمحاولة موازنة أخيه ليكون أكثر اعتدالًا أمام المحظورات.

*•

أَلْفَيتُهَا وطَنِي

وبَهْجَةُ صَوتِهَا شَجَنِي
ومَجْدُ حُضُورِهَا الضَّافِي مُنَايَ
وريقُهَا
الصَّافِي
مُدَامِي
سيد البيد

الورقة السادسة عشرة

*•

ساعة، ساعتان، ربما ثلاث .. تسير برفقته صامتًا، حاولت كثيرًا استدراجه للحديث حتى استسلمت.. حالته تثير قلقها، لا يبدو طبيعيًا، تحمّر وجنتاها وهي تذكر كيف ألقى برأسه عليها بلحظة تعب.. أثار خوفها عليه، وأكثر من خوفها ملأها بالدفء وهو يلجأ إليها .. إيذانًا منه بأنها ملاذه.

كلمة واحدة ألقاها عليها :" تعبان، تجين نمشي مع بعض؟ "

سارت برفقته كما طلب، التزم الصمت بعدها وكأنه فقد النطق، ومن حينها وهي تجوب معه الطرقات لساعات .. كلّما رفعت أنظارها إليه تراه شاردًا، وها هو يتوقف على الرصيف منتظرًا قدوم سائق الأجرة لها .. يزفر أخيرًا بعد صمت :" عطلتك عن محاضرتك"

تزفر بقلق :" مو مهم - تلين نظرتها بعتاب - تمنيت لو أعرف وش فيك، لكن .. مو مشكلة، المهم إنك فرغت طاقتك بالمشي؟"

تتعلق عيناه بعينيها مطولًا، لا تزال تنظر له بذات القلق .. يطلق تنهيدة وهو يشتت أنظاره :" كنت أضطر أحيانًا أمشي ساعات على رجولي من الدرعية لبيتنا.. إذا انشغل أبوي، ما أذكر أحد مشى معي هالمسافة قبلك.. - يعود بأنظاره إليها، يثبتها بحيرة - ليه هديل؟ "

لماذا؟ يسألها لماذا تقطع طريقًا طويلًا مشيًا على الأقدام؟ منذ طلب منها وجدت نفسها تسير هكذا دون تعب، كيف تخبره أن هذه الساعات لم تشعر بها .. بأن أقدامها تتوق لو قطعت طريقًا أطول معه، طريق الدرعية إلى منزله في الرياض التي تجهلها وتجهل طرقها مثلًا.. أو أن تقطع الصحراء حتى تصل معه إلى قمة جبل طويق، مستعدة هي حتى أن تخوض العالم شرقًا وغربًا لكن برفقته .. تهز كتفيها وسيارة الأجرة تقف بجانبها :" لأني معك"

تُنهي كلمتها بابتسامة ناعمة وتلقيه ظهرها، تركب السيارة وقبل أن تسير تفتح النافذة :" مع السلامة جوزيف"

تتحرك السيارة لترحل بعيدًا عنه، تتركه مشدوهًا في مكانه .. يتحسس رائحتها وكلماتها الأخيرة (لأني معك)، هي لا تدرك كيف أن حركاتها الصغيرة تُنبت فيه، أن قطعها لمشوار معه بصمت يعني له الكثير .. أكثر حتى من احتضان يواسيه أو كلمة تداويه، مكتئب مثله نشأ وحيدًا منعزلًا يُفاجأ بكل هذه الحياة التي تزرعها بين ضلوعه بابتسامة صغيرة صادقة أو بالسير بجانبه أو بكلمة (لأني معك).

يُحرك خطاه أخيرًا ليقطع طريقًا جديدًا دونها، ساعة أخرى على قدميه .. يجد نفسه أمام الباب، يطرقه بخفة .. يتراجع للخلف قليلًا، يرفع رأسه للنافذة العليا .. لا إضاءة، إذن نامت..

يُنزل أنظاره بسرعة على صوت انفتاح الباب، يزم شفتيه وعبدالعزيز يطل من خلفه ببجامة ثقيلة .. يشتت أنظاره :" آسف عم إذا جيت بوقت خطا"

يفتح الباب أكثر وسعال خفيف ينتابه، يدعوه للدخول إلى ذات المكتبة الصغيرة .. غرفة صغيرة ألفها يوسف كثيرًا، تصافحه آية "إنما أشكو بثي وحزني إلى الله" تبعث في نفسه الطمأنينة .. يجلس عبدالعزيز مقابلًا له، ترق نظرة يوسف وهو للمرة الأولى يدرك سبب لمعة الحزن في عيني

عبدالعزيز، يعتدل في جلسته :" يا عم أنا طالب القرب منكم "

تتشبث عيناه بعيني عبدالعزيز التي امتلأت دموعًا، يقترب يوسف بسرعة ليشد على كفه :" عمي، أنا فعلًا أبيها .. كلامك ما كان السبب، بس كان دافع .. جيتك الحين بوقت متأخر عشان ما يضيع الوقت علينا، بس تسمع لرأيها ونحدد موعد بالسفارة ويمدينا نعقد قبل لا تسافر "

يهز رأسه بقلة حيلة، يمسح عينيه .. يقف ليتوجه إلى مكتبه، يستخرج منه ورقة يكتب فيها قليلًا ويوقعها وبصوت جاهد أن يكون متوازنًا :" إذا تم القصاص، بيوصلكم خبر .. روح لصناديق الأمانات بالبنك وخذ الملف اللي فيه - يرفع رأسه ليسلمه الورقة - الملف فيه أوراق باسم كل شخص وعنوان له، سلمها لهم .. - يذبل صوته مجبرًا - فيه وصية لهديل، لا تفتح الملفات إلا بعد ما يجيك الخبر - يثبّت عينيه بتشديد - بعد ما تتأكد إن القصاص تم يا يوسف، قبلها لا! "

تهتز عينيه بحزن على حال عبدالعزيز، غير أنه يهز رأسه :" تطمن"

يُتابع عبدالعزيز :" بكرة بحاول أخلص أموري .. ما عندي وقت"

رجفة يديه التي يحاول أن يتمالكها لم تخف عن يوسف، رجفة لازمته منذ التقى به صباحًا وألقى بطامته عليه، حزن شديد على حال عبدالعزيز .. رجل كبير السرطان يفتك به دون سند يقويه غير ابنته وزوجته في الغربة، ينتظره حكم بالقصاص منذ عشرات السنين.. يقرر الذهاب طوعًا لتنفيذ الحكم حتى يطمئن أن روحه لن تُقبض ودم في رقبته ينتظره، هذا الحزن لم يكن أشد منه إلا حزنه على هديل، تلك الفتاة التي جمعته بها الطرق من شرق الأرض إلى مغربها .. تلك الفتاة التي أذهلته علاقتها بأبيها، أذهلته ابتسامتها وتسامحها مع الدنيا .. كيف سيكون حالها وهي التي تجهل مصير والدها؟ لا تعرف أنه مسيّرٌ إلى سيف السيّاف .. حديثه مع والدها صباحًا أثار صدمته وحزنه، استصغر همومه التافهة وعبدالعزيز يرتجف بين يديه ويهمس بخوفه عليها من هذه الحياة .. وبثقته الكبيرة به، لم يكن غبيًا حتى لا يفهم مقصده.

هديل بنت الصحراء الناعمة، نافذته الأولى للحياة .. قطع معها طريقًا طويلًا حتى يتأكد من صحة قراره، الساعات

التي قضاها برفقتها صامتًا كانت تضج بأحاديث قلبه، هو لا يعلم كيف يكون الحب.. لكنه يعلم أن هديل وحدها مرآة روحه البراقة..

يقف والورقة بيده، يصافحه .. ويغادر ..

-

يُقدم خطوة ويؤخر أخرى، تجرّه نفسه بقوة حتى وقف قرب الباب، لم يصب بخيبة عندما اعتذر منه سكرتير الشيخ عن استقباله للزيارات، من يكون هو حتى يقبل زيارته؟ ليس إلا متقاعد يقضي وقته بمكتبته مدونًا حروفًا أدبية ليستريح من همه .. من يعرفه؟ لا أحد .. سوى أبناء الحي، وأساتذته الكبار ..

ينوي العودة أدراجه بخيبة إلا أن صوت ذاك الشاب مجددًا يعود :" يا عم .. تفضّل"

يلتفت بسرعة غير مصدق والآخر يتابع مبتسمًا:" اعذرني يا عم، ما كنت أعرف مين انت "

يبتسم ابتسامة خفيفة هازًا رأسه مطمئنًا الشاب، موسى يرحب بزيارته من بين جميع الناس .. ما زال يحفظ الود في قلبه، ما زال ذاك الأخ الكبير الذي يهابه يعقوب كثيرًا ويهوى يوسف إغضابه ..

يدخل الغرفة الواسعة، تذبل عيناه إثر رؤيته لحالة موسى.. العجز يغطيه ويتملكه، لم يعد ذاك الشيخ المهيب بابتسامته الواسعة، يزم شفتيه لئلا تظهر عليه علامات الحزن والرثاء لحاله .. يقترب ليدنو ويقبّل رأسه :" طهور إن شاء الله يا شيخ، ما تشوف شر "

يرفع رأسه قليلًا لتحط عيناه على عيني موسى، جزع فجأة .. هذه النظرة الذابلة لم يرها إلا مرتين فقط، مرةً عند المقبرة .. في يوم دفن الجسدين المتوازيين، ومرةً بعد أسبوع من الدفن، بعد إيضاح القضية وسماع الشهود .. في مجلس والد نجد، عندما حضر موسى برفقة وجهاء من أهله يطلب التنازل عن القصاص مقابل الدية الواجبة، كانت أيامًا سوداء على قلبه .. كانت كالبخار الحار، كان يجلس ياسر بجانب والد نجد .. والد رفيقه، لم يكن أحب إلى قلب الرجل الكهل من ياسر الذي يعده ابنًا له، وناصر الصغير يجلس بضياع ممزوجًا بقهر متشبثًا بذراعه وكأنه يبحث فيه عن

قوة شقيقه الكبير المغدور فيه.. كانت عينا ياسر تبحث بلهفة عن وجه يعقوب بين الرجال .. لكنه أضاع وجهه في دماء نجد ويوسف، لحق بموسى قبل أن يستقل سيارته ليترجّاه بأن يطلعه على مكان يعقوب، يذكّره بصداقتهم .. غير أن موسى ولّى بعد أن ألقى كلمته (ما ندري، يعقوب اختفى!) يذكر تفاصيل ذاك اليوم، ثامر الصغير أصيب ليلتها برأسه إثر سقوطه من درج المسجد بعد صلاة التراويح.. عاد إلى المنزل ونورة وأمه يولولان خوفًا عليه، رمضان تلك السنة كان أسودًا وحارًا .. لم يهنأ بليلة من لياليه.

لم يشعر بالدمعة التي سقطت لتستقر على لحية موسى البيضاء، يتراجع للخلف .. يجلس على المقعد بجانبه، يشتت أنظاره للأسفل عاجزًا عن رؤية موسى بهذه الحالة، يرفع رأسه مسرعًا على صوت همهمة موسى.. يجاهد جهدًا حتى تخرج حروفه بصعوبة :" يـ..يـ.."

يقترب بحزن ليهمس :" موسى لا تجهد نفسك، ارتاح .. "

غير أن الآخر يُصر وهو يشد على يده، يكرر مرارًا :" يو..سـ.. يع .. قوب .."

تتسع أحداقه وهو يفكك الحروف التي يرددها كثيرًا حتى اتضحت له، يوسف .. يعقوب، يعض شفته مانعًا دموعه :" الله يرحمه .. موسى لا تحمّل نفسك فوق طاقتها"

يشعر بسبابة موسى ترصّ على صدره، تخرج حروفه مفككة دفعة واحدة :" انت...ريحهم"

ويبتسم، يبتسم لقوته التي أسعفته لنطق كلمات معدودة .. ولريح ياسر، ياسر وحده من يحمل في عينيه صورة أخويه يوسف ويعقوب..

يبتلع حزنه ليقف مسرعًا ويُقبل جبينه مجددًا، يتمتم بكلام ضعيف ليرحل بسرعة :" سامحني موسى.. سامحني"

يخرج من الغرفة هاربًا، يسير بسرعة جاهلًا طريقه .. رغبة قاتلة تدعوه للبكاء، رغبة ثقيلة تُنهكه .. تُثقل أنفاسه، حتى تجاعيد وجهه يشعر بها تكاد تسقط من ثقلها .. يعود إلى غرفته، يتوحّد فيها .. يُخرج من حقيبة حديدية قديمة قطعة قماش سوداء، طرحة خفيفة ما زالت تحفظ رائحتها .. يجمعها بين كفيه ليشمّها بعمق ويبكي، رحلت وتركته وحيدًا بهمّه ووجعه .. لم يكن قويًا بما فيه الكفاية كما كانت تظن، حبيبته الفاتنة الجوزاء .. جميلة حدّ أنها لا تحتمل بشاعة هذا العالم..

صوت رنين هاتفه أجفل دموعه، يبتسم بحنين واسمه يضيء الشاشة.. حتى في بُعده يقفز ليمسح لحظات بكاء أبيه، يتمالك صوته ليرد :" هلا بأبوي .."

يأتيه صوت نجد العذب باسمًا :" فقدت هالصوت والله"

ثرثرة نجد وحدها كانت بردًا وسلامًا عليه، تغتال حزنه لتنتشر ضحكاته دون أن يشعر.. يسأله بعد ثرثرة مطولة :" شلونه يوسف؟ "

يصمت قليلًا قبل أن يُجيب :" بخير .. وأكثر من بخير، تطمّن يبه"

نبرة نجد يعرف تمامًا ما تُخفي، وكيف يقول (بخير) وهو يعني ضدها تمامًا .. يجفل صوته :" وش فيه يوسف؟ "

يبتسم، يشعر بذلك من صوته :" صدقني يبه بخير .. يوسف لو رجع ما بتعرفه، صاير شخص جديد .. تطمّن"

يزفر خوفه ليطمئن كما طلب منه نجد وهو يخرج من غرفته وينزل الدرجات.. سرعان ما اتسعت عيناه وهو يرى يمامة من مدخل الباب تجلس في الباحة الخارجية كاشفة عن شعرها وعيناها ترتفع له بابتسامة خجولة.. يُداري صدمة عينه ليرسم ابتسامة صادقة :" توقع مين عندي الحين؟ "

تصله ضحكة نجد الخفيفة :" يمام.. أنا وصيتها عليك والمسكينة صار لها ساعة جالسة تحت وانت بغرفتك، اتصلت اتطمن عليك يوم خبرتني إنك تأخرت"

نعم هذا نجد منذ سنين طويلة، منذ أول عهده بارتفاع ضغط الدم .. وإن جاهد على إخفاء خوفه، طيلة أيام سفره وهو لا ينفك يوصي خاله وثامر بأبيه .. والآن يضم يمامة لهذا القلق، يُودع نجد وهو يخرج إليها ..تسحب كفه وتقبلها .. يُغلق الخط بابتسامة وهو يساعدها على تخطي عتبات المنزل :"نورتِ بيتك يا زينة البنات"

تحمّر وجنتاها، غير أنها تتقدم بمقعدها قليلًا وبابتسامة :" هذي طرحة اللي بيدك؟ "

يستوعب للتو أنها ما زالت بيده، يبتسم ليمدها لها، تتلقاها منه وصوته يروي فضولها :" هذي طرحة الجوز "

ترفع رأسها مباشرة له، يبتر بقية حروف اسمها تمامًا كما يفعل نجد معها.. تلمح الحنين يطفح من عينيه .. تشتت أنظارها في القماش :" الله يرحمها "

يُتابع بابتسامة :" إلا متى رجعتِ الرياض؟ "

"اليوم الفجر، آسفة عمي دخلت البيت بدون علمك .. بس نجد أصر أشوفك وأخذت المفتاح من ثامر"

تجول في أرجاء المنزل برفقته، لا تذكر متى آخر مرة وطأت قدماها أرض المنزل .. كانت صغيرة جدًا، نست معظم تفاصيله، والآن تجول فيه بكل حرية .. وبدون أي قيود، تتوق لأن ترى غرفته .. ومكتبه، غير أن قدميها تمنعها عن تحقيق رغبتها، تتبع ياسر وهو يذكّرها بأرجاء المنزل، يشير إلى مدخل مغلق في الدور الأرضي ليخبرها بأن نجد ينوي أن يحوّله إلى جناح خاص بهما عوضًا عن غرفته بالدور العلوي، وعن خططه لتحويل المداخل بما يتناسب مع وضعها، تصل إلى مكتبة ياسر الخاصة.. تدخلها أخيرًا، منذ كانت صغيرة تسمع عنها من نجد .. تحقق رغبتها أخيرًا في رؤيتها، تنسى نفسها بين رفوف المكتبة لساعات.. ما أن تمسك بكتاب حتى تجد بجانبه كتابًا آخر يشدها ..

لا يُعيدها إلى واقعها إلا صوت مألوف خارج المكتبة :" يابو يوسف، وينك؟"

تسحب حجاب الجوزاء من المقعد لتلتف به بسرعة على وقع الخطوات القريبة، وقبل أن يفتح الباب تسمع صوت ياسر ينبه ناصر لوجودها .. يبتعد لتخرج بعدما أذِن لها ياسر.

-

تخرج محملة بحقائب ممتلئة بمساعدة خادمتين حتى باحة المنزل، تعود للداخل لتنفرد بغرفتها .. تسحب الستار قليلًا لترى السائق وهو يجر الحقائب إلى السيارة، فستانها الأبيض الذي أجهدت نفسها وهي تتخيّر له تفصيلًا مميزًا يليق بها .. جميع تجهيزاتها لزفافها الذي انتظرته طويلًا، كان من المفترض أن تخرج هذه الحقائب من منزل والدها إلى منزل حياتها الجديدة .. برفقة زوجها، لكن ها هي تُجر إلى جمعية خيرية ..

تزفر بضيق لترتمي على سريرها، جميعهم أداروا ظهورهم لها .. صديقات وحتى قريبات، لم تعد تحفل بتجمعات كبيرة تُنسيها همومها .. لا أحد أبدًا سوى أمها وعاملات المنزل، أمها التي تقضي نصف يومها برفقة والدها المتعب في المستشفى.. والنصف الآخر وهي تبكي ليلًا..

بعد غد تبدأ الدراسة من جديد، ستقدم اعتذارًا عن هذا الفصل .. حتى وإن ادعت القوة فهي أضعف من أن تواجه نظرات الجميع على الأقل في الوقت القريب، تعتدل بجلستها لتأخذ هاتفها الجديد برقم جديد .. خالٍ من

الأرقام عدا رقم أمها وأبيها والسائق والعاملات ومحاميها الخاص.

تجهل كيف تشكره، حمّلها شكرًا ثقيلًا لا طاقة بها بتحمّل ثقله .. أقام دعوى قضائية، أوقف المبتز في انتظار محاكمته، فُتحت قضايا أخرى على إثر القضية التي تجاوزت الابتزاز لتنال من شخصيات عديدة .. لم يكن الهدف ابتزازها بقدر ما كان تشويهًا لأبيها .. تقع ضحية لأعداء والدها، يدركون تمامًا أن لا وجع قد يُصيبه بهزيمة غير وجعها، ينسحب بهدوء بعد ما أوفى بمهمته للنيل من المبتز ليأخذ محامي والدها بقية الأمور..

تكتب رسالة أخيرة (أشكرك أستاذ ناصر، أجهل كيف أرد جميلك .. كلي رجاء أن أعيش طويلًا حتى أجد طريقة توفيك حقك، جميلك لن أنساه ما حييت .. لا أنا ولا أبي وأمي، كنت نموذجًا وقدوة لي ولمعظم الطالبات، وأثبت كيف كنّا صائبات باختيار القدوة ..)

رسالة أخيرة تُنهي حبل الوصال إلى الأبد، ترمي هاتفها بعيدًا .. تحاول جاهدة أن تنام نومًا طويلًا، منذ مدة نست طعم النوم الحقيقي .. غير أنه يُجافيها، وإن أُخذ حقها من المبتز .. كيف لها أن تُعيد صورتها القديمة في أذهان كل من

تعرفهم؟ كيف تعود ريم القديمة؟ كيف لها أن تعيد سمعتها وكرامتها؟ السمعة التي تأكل كل شيء أمامها إن هي مُست .. ابتلعتها منذ مدة لتتركها بضياعها..

تُشرق الشمس وعيناها ما زالتا تبحث عن نومٍ هانئ، لا شيء يشدها للحركة غير صوت وصول رسالة جديدة..

تعتدل بسرعة لتلتهم ما تبقّى منها الصدمة وهي تقرأ حروفه (لا شكر على واجب منكِ ريم، أما بالنسبة لأبوك ما أرتجي منه لا جزاء ولا شكور.. بس أبيه يذكر حُرمات الناس وحقوقهم المسلوبة، المسامحة بدم الأخ صعب وكثير على قلب يتيم!)

تُعيد قراءتها مرارًا، تتسع عيناها في كل مرة .. لا تفقه شيئًا، حرمات الناس؟ حقوق مسلوبة؟ دم أخ؟ تقف بسرعة وطارئ قديم يلوح في الأفق .. تركض إلى أمها، تجدها في غرفتها ترتب بعض الملابس لأبيها .. تهاجمها دون وعي :" يمه! وش اسم اللي تورّط عمي بقتله زمان؟ "

تقف والدتها بهلع، تتسع عيناها .. (عمها) ذكرٌ محظور منذ ثمان وعشرين عامًا .. حرّم ذكر اسمه قبل أن تلد هي بسنين، طويت الصفحة دون أن تشهدها .. ما بالها تذكره الآن؟

يتغير وجهها، تُمسك الثياب لتضعها في الحقيبة بسرعة :" وش الطاري ريم؟ ليش تذكرين الموضوع الحين؟"

تجلس على سريرها :" يمه تكفين! في شي أبي أتأكد منه!"

تهز رأسها بسرعة، تغلق الحقيبة لتأخذ عباءتها :" وش جاك ريم؟ الموضوع صار له سنين قبل لا تنولدين حتى.. خلاص لا عاد تسألين! "

تلبس عباءتها سريعًا لتغادر قبل أن تُكثر الأسئلة، تترك ريم خلفها تحاول السيطرة على أفكارها .. تنزل الدرجات إلى مكتب والدها، تبحث في كل مكان .. تحمل صندوقًا يحمل أوراقًا قديمة، تمضي وقتًا وهي تقرأ الأوراق .. معظمها إثباتات وعقود تخص مؤسسته، تُخرج ملفًا مدونًا عليه (عائلة محمد العبدالله) عائلتها .. ملف شامل لكل ما يخص العائلة، محمد العبدالله .. لم يبقَ منهم سوى موسى، تتصفح الأوراق .. شهادات ميلاد وإثباتات وشهادات دراسة، تقف فجأة وهي تجد ضالتها .. ورقة قضائية، (قضية مقتل المواطن يوسف محمد العبدالله الـ**** على يد المواطن نجد متعب البدر الـ*** بتاريخ ٣٠ شعبان من عام ١٤٠٨ هجري)

تغمض عينيها بشدة، تعتصر الورقة بين يديها .. نجد متعب البدر، من أصاب عمها يوسف خطأً ليقتله عمها الآخر يعقوب، ناصر البدر .. إن كانت تجهله بسبب أنها لم تعايش الأحداث التي ولّت والقضية التي قضى عليها الزمان وعفا فهو لا يجهلها قطعًا .. وقف بجانبها، ساندها رغم كل شيء ..

تزفر بضيق لتعيد الورقة إلى مكانها بعد ما قرأتها مرارًا، عائلة نجد قدّموا الدية الواجبة .. غير أنهم رفضوا استقبال دية مقابل التنازل عن دم عمها، بعد كل هذه السنين يأتي الآن ولي الدم ليؤكد لها تمسكه بحقه!

تخرج من المكتبة وصداع شديد يداهمها، ماذا لو علم والدها بأنه هو من ترافع عنها وأقام الدعوى ولم يستسلم حتى ألقي القبض على المبتز؟ كيف سيسامحها؟ هل تعمّد ناصر ما قام به نكاية بوالدها؟ تدرك توًا سبب انسحابه من إتمام القضية التي تفرّعت لأشخاص يسيؤون لوالدها..

تتشرنق داخل لحافها، عندما يتحسن والدها ويخرج سالمًا سيكون هناك حديث آخر ..

-

يحمل حقيبته، يتأكد من وجود جميع حاجياته .. يرفع رأسه على دخول يوسف :" تبيني أروح معك المطار؟ "

يهز رأسه نفيًا :" لا، الحق على دوامك .. "

يزفر بضيق وهو يتقدم ويرتدي ملابسه، الأيام التي قضاها نجد برفقته سريعة .. انتهت بتوتر من جانبهما، يتوقف نجد ليودّعه، يحتضنه بخفة وابتسامة صغيرة :" انتبه لنفسك يوسف، لا تتسرع بقراراتك "

يزفر بضيق كبير، حرص نجد الشديد وتوصياته تعيدان إلى نفسه ذكريات سوداء .. :" أنا واثق باللي أسويه"

يهز رأسه إيجابًا :" ولا تنسى مكانة أبوي! "

يعض شفته بضيق، يهز رأسه :" لا تشيل هم .. قبل لا أعقد بكلّمه "

يطلق تنهيدة حارة :" يوسف لو تاخذ رأيه بس! .. هذا زواج مو لعب، حسسه شوي بمقامه وخذ رأيه من باب الاحترام حتى لو إنك واثق باللي تسويه .. وش زينك وانت تكلمه وتقوله يبه أنا رايح أعقد على بنت سعودية هنا! من متى واحنا هذي طريقتنا؟ "

يتحرك من أمامه بسرعة ليمشي مسرعًا بضيق وهو يحمل حاجياته :" نجد قلت لك الموضوع صار بسرعة، أنا استعجلت وخطبت لأن أبوها تعبان ووضعه صعب .. روح ولا وصلت مهّد لأبوي الموضوع وأنا بكلمه بعدين"

يبتعد ليسير إلى الباب :" زين .. أشوفك بزواجي"

يغادر نجد تاركًا يوسف خلفه .. قضى ساعاته في الطائرة بهم كبير، يذكر حديثه مع يوسف قبل يومين بعد رجوعه متأخرًا .. كان ينتظره وحديث طويل يدور في باله عن صورته الأخيرة برفقة الفتاة .. ليتفاجأ ببرود يوسف وهو يخبره (خطيبتي!)، اكتشف خلال هذه الرحلة القصيرة أن يوسف لم يتحسّن فقط .. بل وتغيّر تغيرًا جذريًا .. تغير يخيفه ويطمئنه في ذات الوقت.

تهبط الطائرة عائدة إلى أرض الوطن، إلى الرياض التي يحبها .. يستقبله ثامر بابتسامة مشرقة، يوصِله إلى أبيه .. يحتضنه بشدة، لا شيء أبدًا يُعادل رائحة العود التي تفوح من أبيه .. مع أبيه يتقلّب بين طفل صغير وأب كبير .. يحتضنه كما يحتضن الرضيع أمه، ويتفقّده شعرة شعرة كما يتفقد الأب ابنه، وها هو ياسر يضع رأسه في حجرِه بعد ساعات من حديث نجد الذي لا يملّه .. وبابتسامة مشرقة

يُشير بعينيه إلى ثامر :" الظاهر ثامر ما يبيك تستفرد بالعرس وقرر يشاركك"

تنعقد حاجباه بعدم استيعاب، يرفعها لثامر لتقابله ابتسامته وهو يرتشف الشاي:" ايه مثل ما سمعت، كفاية الدنيا تضحك لك وحدك"

يستوعب، تتسع عيناه :" ناوي تتزوج؟ "

يهز رأسه إيجابًا :" بنت خال أمي، سمر - يطلق تنهيدة - عاد إن شاء الله يوافقون، البنت جامعية ومعلمة وعندها بنت! "

تبدو جميع الآمال واهية، جامعية مقابل طائش لا يحمل حتى الشهادة الثانوية .. معلمة مقابل موظف صغير بالواسطة.. وأدهى من ذلك تربطها طفلة بزوجها السابق!، يهز رأسه بابتسامة :" كل شي بيتيسر لا تشيل هم"

يبدأ النقاش حول خطبة ثامر المقررة، نصائح ياسر وتشجيعه لا يوقفهما إلا صوت نجد منتهزًا الفرصة :" ويوسف الظاهر قرر يتزوج ويسبقنا! "

صدمة كبيرة أخرستهما عن النطق، يحاولان استيعاب ما يقوله نجد .. ينطق أخيرًا ثامر :" لا تكون أمريكية؟ "

تجحظ عينا ياسر لينطق نجد بسرعة :" لا الله يهديك، سعودية هي وأهلها هناك .. ناس والنعم فيهم"

يسيطر يوسف على النقاش، ما بين صدمة وفرحة .. تغلب الأولى الأخرى، لا يتوقف ياسر عن السؤال .. من تكون؟ وكيف عرفها؟ إلى ماذا ترجع؟ وأين نشأت؟ أسئلة طويلة يجهل نجد معظم إجاباتها، كل ما يعرفه أنها متطوعة في المركز الذي كان يراجعه يوسف ..

-

يجلس على بُعد مسافة قصيرة منها، مقابلًا لأبيها .. يتوسطهما كاتب العقد، منذ أخبرها والدها بخطبته وهي تحلّق عاليًا غير مصدقة .. أسقطها من سمائها خبر سفر والديها المفاجئ، سفر قد يطول .. لذلك استعجل والدها بإتمام العقد، تُدخل أصابعها تحت قطعة الشماغ الملفوفة على معصمها .. تتحسس حبّات السُبحة، كيف قادته الأيام

ليكون واقعًا جميلًا أمامها الآن؟ ذاك الشاب الذي يصلي بزاوية المركز .. اسمه الذي كتبه وسبب لها ربكة، ليس لشيء إلا لأنه عربي، سعودي .. تذكر عينيه في أول مرة تلتقي بعينيها .. تشبثتا طويلًا ببعض، وكأن كل منهما يحاول ربط الآخر به .. دخل إلى قلبها البتول سريعًا، تسلل إليه ونام ..

" هديل! "

ترفع رأسها سريعًا على صوت أمها الهامس، تتفاجأ بالعيون المحدقة بها تنتظر جوابًا .. يعود صوت أمها :" يسألك موافقة أو لا ؟ "

ترفع عينيها له، يبتسم بهدوء .. تشتتها سريعًا لتهز رأسها :" موافقة"

لا تعلم ما حصل بعدها، تبريكات أمها الباكية .. والدها ويوسف وشاهدان من موظفي السفارة مع كاتب العقد، وها هم متحلقين أربعتهم قرب السيارة .. فرح يغلبه حزن، ساعات قليلة تفصلهم عن وداع أبدي تجهله هديل .. كانت تتمنى لو تُقيم حفلًا صغيرًا بين عائلتها بهذه المناسبة غير أن سفر والديها أتى ليسلب كل شيء.

تركب أمها السيارة، ترفع عينيها ببطء له وكما توقعت تغيّر لون وجهه .. أدخل كفيه في معطفه حتى يخفي توترهما عن عيني والديها، تنطق بسرعة قبل أن يركب والدها السيارة :" يوه! نسيت شي! .. روحوا انتو بالسيارة وأنا ويوسف بنلحقكم بالقطار"

يعقد عبدالعزيز حاجبيه وصوت أمها المستنكر يصلها :" وش نسيتِ؟ إذا مو ضروري اتركيه بعدين "

تنوي الإصرار غير أن صوت يوسف يقاطعها وهو يفتح باب السيارة لها :" ما في وقت هديل"

ترفع عينيها له بتردد، غير أنه يهز رأسه بهدوء لها إيماءً منه بألا تفكر فيه .. تركب خلف والدتها، يدخل السيارة خلفها .. تقود أمها السيارة أخيرًا، تضيع أنظارها بين والديها ووجهه .. تحاول ألا تفوّت نصائح أمها وتوصيات أبيها وفي ذات الوقت تحاول جاهدة أن تسيطر على خوفه.

أما هو اضطراب حاد يعبث به، يحاول أن ينظّم عملية تنفسّه حتى يطرد خوفه .. خوف لا يملك فيه أمرًا، دماء حارة تغلي في قلبه .. يزم شفتيه مرارًا، يكره أن يراه أحد بهذه الحالة.. لكن معها يختلف الأمر، يحاول أن يوازن بين خوفه وصوت عبدالعزيز .. وصايا عبدالعزيز الأخيرة، هي قد

تصغي إليها كأي وصية لأب يلقيها لزوج ابنته، أما هو يدرك تمامًا أنها وصايا وداعية .. يشعر فجأة بكف دافئة تتسلل إلى حضنه وتُمسك بكفه الباردة المتوترة .. يرفع أنظاره لها سريعًا لتقابله ابتسامتها الناعمة، يشتت أنظاره ليطلق زفرة صغيرة .. كلّما اقتربت سيارة أخرى من سيارتهم أو انعطفت يمينًا يشد على كفها بتلقائية، يعتصرها بين أصابعه إلى أن تزول رهبته، تتوقف السيارة أخيرًا .. يلتقط أنفاسه، يخرج ليحمل الحقيبة .. يتأخر عنهم عمدًا ليترك لثلاثتهم وقتًا أخيرًا بخصوصية ..

عندما عاد كان عبدالعزيز يحتضنها بقوة، من مكانه البعيد أدرك أنه يبكي .. لا يعلم بالمشاعر التي تختلجه، رثاء لحال عبدالعزيز؟ كيف يقضي المرء أيامه الأخيرة استعدادًا للموت؟ أهي ميزة لا يملكها إلا شخص محظوظ؟ لديه الوقت كي يودع أحبابه، كي يكتب وصيته، يطمئن لمستقبل أبنائه، يصلي كثيرًا، يستغفر عن ذنوبه، ويترحم على نفسه قبل أن يسبقه الناس في عزائه.. أو أن هذه المشاعر أسى وإعجاب لحال أمها، المرأة القوية التي تقف بجوار زوجها وتسير معه حتى توصله إلى الموت .. أو أن هذا كله ليس سوى شعور بالضعف وقلة الحيلة اتجاه هديل، تلك التي

تضج الحياة منها لتنعش روحه .. من غيّرت جميع مفاهيمه للحياة لتصيّره رجلًا مختلفًا، زوجته .. يشعر بعجزه عن حمل مسؤولية ألقاها عبدالعزيز على عاتقه، هل هو أهل ليكون زوجًا وحاميًا لها؟ وهو الضعيف حتى عن مسؤولية نفسه ..

وقف بجانبهم وعيناه لا تنفك عن عبدالعزيز الذي يدفن وجهه في رأس ابنته وهي تبكيه، انتقلت عيناه لأمها .. كانت دموعها شحيحة وهي تجاهد على حبسها، تمسح دمعة قبل أن تسقط لتقترب منه .. صوتها كان قويًا بما فيه الكفاية ليسمعه :" حافظ على هديل بعيونك .. عبدالعزيز عمره ما عطى الثقة لغيرك"

يومئ بعينيه لها، يكسر حاجزًا وهو ينحني ليقبّل رأسها :" لا تشيلين هم خالتي"

تنفصل هديل عن والدها أخيرًا ليظهر وجهها المبلل بالدمع، عينا عبدالعزيز لم تفارقها وهي تنتقل منه إلى أمها .. يفصل نظرته عنها جسد يوسف وهو يقترب ليحتضنه، يغمض عينيه على صوت عبدالعزيز المهتز وهو يشد عليه :" هديل ... هي روحي وهي كل اللي أملكه.. ما كنت برضى تروح من عيني لو كان رجال غيرك.. لا تسمح لأحد يأذيها، حتى

نفسك .. - يبتعد قليلًا لتتعلق عيناه بعيني يوسف- أشوف فيك عزيز قديم ما كان وافي .. بس انت، الله عوضني بك .. أشوفك بعيوني الحين وانت تسند هديل طول عمرك - يطلق زفرة حارة مطبطبًا على كتفي يوسف- ما بقول لا تخيب ظني، لأني متأكد إنك ما بتخيبه .. مريت بخيبات كثير بحياتي كسرتني، بس انت.. وحدك عطيته الثقة بعد كل هالكسر اللي صابني"

يهز رأسه إيجابًا وهو يحاول الاحتفاظ بصورة عبدالعزيز الأخيرة، الرجل الوحيد الذي أعطاه الثقة .. ألفة حميمة جمعته به رغم معرفته القصيرة، لماذا يشعر بأنه يألفه من سنين طويلة؟ وكأن صوته رافقه منذ كان طفلًا .. عيناه ليست كأي عينين، عينان يحفظهما جيدًا غير أنه يجهل سرها .. هل هذه ما تكون عليه عيون (مبعوث السماء) أسطورة عبدالعزيز الخاصة؟ للحظة شعر أنه يرى نفسه بعيني عبدالعزيز .. بأنه هو لكن بعالم آخر، تمنّى لو عرفه مسبقًا .. لو تشاطر معه خيبات الاكتئاب،

يرسم ابتسامة عذبة على شفتيه وهو يُخرج من جيب معطفه علبة مخملية صغيرة :" قرّبي هديل.. هذي هدية صغيرة لك يا عيني"

يُلبسها عقدًا ذهبيًا ناعمًا، تُتابع أمها بابتسامة :" ليت لو أسعفنا الوقت واحتفلنا فيك مع صاحباتك، بس يلله يوسف بيعوضك"

تتأمل العقد بإعجاب شديد، وبضحكة بين دموعها :" بس ترجعون نسوي أكبر حفلة!"

لا تعلم كم أثارت ضحكتها جنبات الندم في قلب أبيها، لو لا موعد الرحلة الذي باغتهم لاستجاب لضحكتها وفرّ بعيدًا هاربًا عن قدره الذي ينتظره، احتضان أخير ضمّها بين أضلعه .. وزّع قبلاته على وجهها ورأسها، انحلّ رباط كفيهما ليرحل بعيدًا ..

تقف في مكانها ذاته علّ والدها يعود ليمحو آثار وداعه، صمت طويل تقطعه إصبعه وهي تنغرس بجانبها لتقفز بتلقائية شاهقة، يبتسم بهدوء :" مشينا؟ "

تكفكف دمعها، تقترب منه :" لا عاد تعيدها، ما أحب أحد ينغزني"

يقطعان طريقًا طويلًا صامتًا إلا عن دموعها التي لا تسيطر عليها، يُخرج هاتفه ليضعه أمامها فجأة وهي تسير بجانبه .. تُبعده بسرعة من أمامها ووجهها الباكي يتحول

أمامها لوجه ساخر أمام كاميرا (سناب شات) .. وجه بعينين كبيرة وفم أكبر:" سخيف! ابعده عني "

يضحك وهو يعيد تقريب الهاتف لوجهيهما ليعود المنظر الساخر، تحاول سحب هاتفه منه غير أنه يرفعه عاليًا عنها وضحكته تنتشر :" خالتي تبي تشوفك، برسل لها هالفيديو"

تقفز قليلًا لتسحب يده الطويلة :" والله ما أسامحك تحتفظ فيه أو ترسله"

يُنزل هاتفه بضحكة ليُريها المقطع، سرعان ما ضحكت مُجبرة وهي تمسح دموعها .. يحتفظ بالفيديو دون أن يرسله :" فيديو ذكرى أول يوم خطبة"

تستند على الجدار خلفها وهي تطلق زفرة عالية :" آسفة .. بس قلبي معورني وأهلي مسافرين"

يُعيد هاتفه لجيبه، يقف أمامها لينظر لها بجدية .. تُتابع باختناق :" يوم ودّعت أبوي، حسّيت إني .. - تعض شفتيها تمنع انفجار بكائها مجددًا - آخر مرة بشوفه! "

تغطي عينيها بكفيها لتبكي وذات الشعور الخانق يعود لها مجددًا، دفء مفاجئ يغمرها .. يسحبها إليه ليحتضنها بهدوء، يمسح على ظهرها بحنان .. تدفن نفسها أكثر داخله، يُزيح بكاءها بكلماته :" بتشوفينه، صدقيني بتشوفينه .. ما

أعلم الغيب، بس أدري إنك بتشوفينه .. لو بضطر آخذك له"

يطمئنها بكلماته، ينشر شعور الدفء في قلبها باحتضانه.. تطرد البكاء لتعود ضاحكة كما عهدها، تجري في الشوارع، يرفع يده الممسكة بيدها عاليًا لتدور حول نفسها راقصة على أنغام الموسيقى المنتشرة بالساحة.. يحلقان عاليًا في ألعاب الملاهي، تنسى حزنها لتتلذذ بأول يوم مع حبيبها، لا حدود تفصلها عنه.. لا شعور بالذنب يقتلها، جاهد طيلة اليوم حتى يُعيد ضحكتها، متناسيًا كل ما ينتظرهم ..

هدأت الشوارع، حلّ الليل .. يضطر لمفارقتها أمام باب منزلها، تفتح الباب بابتسامة واسعة :" من زمان ما ضحكت هالكثر! "

يقترب ليقف على عتبة الباب، تتكئ على الباب مقابله:" اليوم عرفت أشياء كثير "

يُجاريها بابتسامة :" وش عرفتِ؟ "

تفتح أصابعها لتحسب :" أولًا، إنك ظريف شوي وتعرف تلعب .. ثانيًا، المشي ممتع أكثر من السيارة.. ثالثًا، إن أبوي يحبك كثير .. "

يتكتف متكئًا على الطرف الآخر :" شلون عرفتِ إنه يحبني ؟"

تمد كفها لتسحب كفه اليمنى .. تُمسك بإصبعه الصغير لتُحرك خاتمًا فضيًا يتوسطه حجر كريم :" هالخاتم لعمي اللي مات الله يرحمه، توأم أبوي .. مستحيل يعطيه لأحد - تبتسم وهو يتأمل الخاتم ويُحركه - اسمه يوسف، نفسك! "

يرفع رأسه بسرعة لها، ينقل بصره بينها وبين الخاتم .. يطلق زفرة صغيرة :" الظاهر اسم يوسف كارثي ويلحقني وين ما رحت.. -يعتدل بوقفته - أحكي لك أسطورة؟ "

تعقد حاجبيها غير مستوعبة، يُتابع :" كان فيه قبرين جنب بعض، واحد باسمي والثاني باسم أخوي .. -يبتسم وهو يذكر حديث ثامر المرعب - كان أخوي الكبير يقول هالقبرين هي قبوركم وأنتم مدفونين فيها لكن في المستقبل، كانت ترعبني المقبرة لهالسبب واحنا الأغبياء مصدقين كلامه "

تنطلق ضحكتها بحبور ليبتسم كذلك ويُتابع :" بعد ما كبرت تصالحت مع الموضوع وصرت أحس بانتماء للقبر وصاحبه - يتأمل خاتمه مجددًا، مستشعرًا أنه كان لشخص

راحل يحمل اسمه - والحين يجي هالخاتم .. أسطورة ثامر الظاهر صحيحة! "

تقاطعه بضحكة :" وتطلع انت عمي، واو! "

يدفعها للأمام قليلًا ليدخل ويتخطى العتبة :" بالمناسبة .. أبي أشوف شعرك، اشتقت له"

تحمّر وجنتيها قليلًا، تعض شفتها وهي تُزيح الحجاب .. يقترب أكثر ويده ترتفع لتلامس خصلات شعرها المجعدة :" أول مرة ألمس شعر خشن بهالشكل"

تشهق لتُبعد كفه عنها :" مو خشن، يعجبني بهالشكل.. لا تتكلم عليه! "

يطلق ضحكة صغيرة وهو يُعيد أصابعه ليخللها بين شعراتها المتشابكة :" ما قلت شين! .. بس مستغرب، كل الإناث اللي عرفتهم بحياتي كانت شعورهم ناعمة "

تُبعده مجددًا لتلم شعرها :" كل الإناث اللي هم عبارة عن خالتك وأمك وزوجة أبوك الله يرحمهم"

يهز رأسه مؤكدًا بضحكة، تدفعه للخلف :" خلاص روح، مع السلامة "

يُسايرها وهي تدفعه حتى يصل لعتبة الباب :" زين .. لو احتجتِ شي كلميني"

يخطو للخارج، وقبل أن يبتعد أكثر يصله صوتها :" رابع شي عرفته إن الدبلة مو ضرورية يا بخيل .. -تسرع في حديثها أكثر قبل أن تغلق الباب - خامس شي إنك وسيم مرة! "

يرتج الباب خلفها بسرعة قبل أن يستوعب حديثها، تتسع ابتسامته ليسير مبتعدًا .. لا تعرف أنها وحدها من استطاعت نفض الغبار عن مواطن الجمال فيه، قبل أن يعرفها كان يسبح بسواد يحجب جماله .. كان كتلة من سواد أو جثة هامدة تسيّر في هذه الحياة دون تخيير، معها أدرك كيف يكون إنسانًا .. يزفر بشدة وقلق ينتابه من القادم، كل ما يعرفه أنه لن يتخلّى عنها لو اضطر للتخلي عن كل شيء عداها ..

يصل لشقته متأخرًا، يرتمي على سريره ليُخرج هاتفه .. يُلغي وضع الطيران لتنهال عليه المكالمات، تعمّد أن يتجاهل الجميع عداها اليوم.. كما توقع، مكالمتان من نجد ومكالمة من أبيه واثنتان من يمامة.. ما أثر دهشته المكالمات الكثيرة من ثامر، لا يعتقد أنه حريص جدًا لمباركته .. لمَ كل هذه المكالمات؟

يرمي هاتفه مقررًا مكالمتهم حالما يستيقظ إلا أن صوت رنينه أعاده مجددًا له وهو يزفر بقوة .. ثامر مجددًا، يُجيب بضيق :" هلا "

يصله صوت ثامر :" وينك انت؟ ليش ما ترد؟ "

" انشغلت"

يفجّرها دون مقدمات :" يوسف .. لا تعقد على بنت عبدالعزيز"

يرتفع حاجباه باستغراب :" خلاص عقدنا الصبح"

يقاطعه صراخ ثامر بخيبة :" لاااا .. اوكي دبّر نفسك، افسخ .. طلقها سوي أي شي"

يُبعد الهاتف عنه قليلًا ليحاول استيعاب ما يقوله أخوه، يطلقها؟ ما بال ثامر؟ .. يُعيده إليه وبهدوء :" ثامر، وش فيك؟ "

يهدأ الآخر أخيرًا، يحاول تمالك نفسه .. يجمّع الكلمات ليطلق زفرة :" طلقها يوسف وتخلّص من كل شي، صدقني .. ما أقول هالكلام إلا عشانك"

يزيده قلقًا .. تضطرب أنفاسه :" ثامر خلصني قول وش عندك؟ "

يصمت مطولًا قبل أن يجيب باضطراب :" مدري.. عرفت إنك بتخطب عند واحد ما نعرفه رحت أسأل عنه وعرفت ...."

يقاطعه :" عرفت إنه متورط بقتل واحد قبل مدري كم سنة، شكرًا .. أعرف هالمعلومة ولا أحتاج نصيحتك"

يغلق الخط ليرمي هاتفه بعيدًا، لا حاجة له بحديث لثامر يثير شكوكه.. يعلم تمامًا أن خبرًا كهذا لن يسر والده، لكنه لن يتراجع .. ولن يتخلّى عن عبدالعزيز ..

-

يرمي هاتفه بغيض :" الله يلعنك يوسف "

يهز رأسه بضيق شديد :" أستغفر الله "

ينثر بقية غضبه في وجه خالد :" لا ملعون .. مايدري تورط مع مين .. - يمسح وجهه ونار تتأجج داخله - حيوان، بيجي اليوم اللي يتمنى لو سمع كلامي"

يصمت قليلًا ليعود مجددًا فاقدًا أعصابه :" خالد، اسمح لي .. ما بسكت أكثر من كذا"

يطبطب على فخذه علّه يهدأ :" لا بتسكت .. وعدنا موسى، ولليوم أحمل نفسي مسؤولية اللي صار لموسى.. مافينا نتحمّل ذنب أخوه كمان واحنا وعدناه"

يقف بغضب يدور حول الغرفة، يعود مجددًا بقلة حيلة :" خالد، هذا أخوي .. والحيوان الثاني اللي اسمه يعقوب متقصد يخطب له بنته! ما أعرف وش الهدف لكن صدقني متقصد .. يعرف عمي، يعني قاصد يوسف .. - يرتمي جالسًا بجانب خالد بضيق أكبر - من وين طلع لنا هذا؟ "

يقف خالد ليواجه ثامر :" لا تتكلم .. ما تدري يمكن أخوك يبي البنت، وعمك للحين يعز الرجال، خل الكل يعيش بسلام .. لو صار شي تكلّم .. بس يا ثامر هذا قصاص .. أخوين اثنين نتحمل رقابهم؟ "

يطلق ضحكة ساخرة بغضب :" الشيخ كثر الله خير بنته، هي اللي وصلت أبوها لهالمرحلة "

يزم شفتيه بضيق :" اسكت لا عاد تحكي بأعراض الناس "

يُخرج سيجارته ليدخّن بغيض :" بسكت الحين .. لكن بس أعرف إنه متقصد يلوي ذراع أخوي ما برضى لين أشوف راسه بساحة القصاص"

يهز رأسه مؤيدًا :" صدقني ما بمنعك لو تعرّض لكم .. بس انتظر الحين انت ولا تحكي شي"

يهدأ قليلًا، ينفث سيجارته وعيناه تضيع في الفراغ .. بعد صمت طويل ينطق بهدوء :" والحين وش قررت؟ "

يزفر بضيق :" التقيت بواحد كان معي بالسجن، نهاية السنة بينتهي شغلي معه وبيأمن لي مبلغ نقدر نعيش فيه "

يزفر دخانه لينطق بعد صمت :" شلونها؟ باقي تعبانة؟ "

يقف بضيق :" اليوم أفضل من اليومين اللي راحت"

يطفئ سيجارته داخل كوب ورقي، يعيد رأسه للمقعد مغمضًا عينيه .. صمت طويل يُخيم عليهما، اشمئزاز ثقيل يخنقه من الحياة .. يتمسّك بحبل (سمر) علّها تُصلح ما أفسده الدهر، أما رغد .. ستبقى في قلبه كغصة حادة، لن يتخطاها .. ثلاثة عشر عامًا مليئًا بها، لكنه يوقن تمامًا أن طرقهما افترقت منذ مدة ولن تتقاطع مجددًا، أول طفلة سيرزق بها حتمًا سيسميها رغد .. وأول طفل لن يكون سوى خالد، وهي .. لا يثق أبدًا أنها ستكون بخير، رغد ذبلت تمامًا حتى جفّت .. هذا ما تيّقن منه في آخر لقاء جمعها به.

-

تهبط الطائرة على أرض الرياض، يزدرد ريقه مرارًا .. وهن بارد يتلبّسه، وأشد منه خوف من أن يتمكّن منه سرطانه قبل أن يتمّ مهمته .. قبل أن يُنهي كل شيء، كان في كل مرة يعود إلى الرياض بعد غربة طويلة يستقبله يوسف بشوق جارف وعبارته الدائمة (الله ياخذ بلاد الكفار مثل ما أخذتك مني) كان يضحك في كل مرة يردد يوسف كلمته.. يزم شفتيه متذكرًا المرة الأخيرة .. بعدما عاد محملًا بالشهادة، يُغير عبارته وهو يحتضنه بفرح كبير (أخيرًا انتصرت على بلاد الكفار ورجعت، الحين بقابل وجهك أربع وعشرين ساعة بدل الخواجات والشقر المفاصيخ) لم يفِ يوسف بكلمته، كان القدر أسرع من أن يفي بها .. يشعر بأصابع تشد عليه .. يلتفت ليجد زوجته لا تقلّ عنه سوءًا، يبتسم ليشد على كفها :" منى .. تذكرين وأنا أقولك بيجي يوم باخذك للرياض تشوفينها؟ شوفيها هذي هي الرياض! "

تشتت دموعها لتضحك بخفة :" قبل ثلاثة وثلاثين سنة! .. للحين أذكر "

يطبطب على كفها بيده الأخرى :" ايه بس! كنا تونا شباب مراهقين "

يخرجان من الطائرة، تصافحهما نسمات الرياض .. يستنشقه بعمق :" كنت أتمنى أجيبك للرياض بس مو بهالظرف، لكن يالله .. - يغمز بضحكة - بعوضّك عن كل شي وبنعيش شبابنا من جديد"

تتشبث بذراعه، تسير برفقته .. كما كانا طالبين في الجامعة، ذاك الشاب الذي أحبته لم يعد كما كان .. غير أن حبه نما بقلبها حتى تمكّن منه، تعود الذكريات القديمة لتنساب أمامها وكأنها لم تكن سوى البارحة .. شاب صغير يدخل قاعة المحاضرة، مليء بالخيلاء .. لا يكاد يرى سوى نفسه، عاشت أيامًا طويلة تصارع إعجابها به، ليطير قلبها فرحًا وهو يُبادلها ذات النظرات .. توطّدت علاقتهما، يُبقي حبها سرًا .. شاب نجدي لن ترضى عائلته بارتباطه بفتاة تعيش في أمريكا ذاك الوقت، تكتفي بالحجاب وتدرس الجامعات الأمريكية .. كارثة كبرى في عُرف عائلته كما أخبرها، ذاك الشاب الصغير بعد تخرجه ووداعه لها عاد مجددًا لكن بجسد هزيل وقلب مفجوع .. لم تتخلّ عنه بعد

المصائب التي جاء بها، حاربت حتى تبقى معه.. جاهدت سنين طويلة حتى وقف مجددًا يدوس آلامه ..

يوصلها الفندق ليخرج مسرعًا إلى شقيقه، يتأمل الطرقات .. الرياض التي يعرفها لم يبق منها شيء، سوى أنها ازدادت فتنة.. لا تزال تحمل ذات رائحتها، أصوات الرجال وأشكالهم تثير شجونه .. وخوفه، يشعر بأن الجميع يراقبه .. يترقب كل حركة منه، ما زالت الرياض تحمل رائحة يوسف .. لا يزال ينتظر عزاءه، وكأن الرياض تتوقف عن الحياة كلما غادرها لتعود بعودته تنتظر عزاءً منذ ثمان وعشرين عامًا، يلاحقه طيف يوسف .. ينتظر أن يستقبله مجددًا، يضحك كعادته .. ما زال يؤمّل نفسه أن كل ما حصل لم يكن سوى كابوس، يوسف ما زال حيًا .. ما زال شابًا في منتصف العشرين، ينتظر زواجه من حبيبة طفولته ..كيف لمدينة أن تتوقف عن الحياة حتى يعود غائبها؟ الرياض ما زالت تنتظر عودته .. تمامًا كما ينتظر هو، الرياض دون يوسف ليست رياضًا، هي أشبه بصورة فوتوغرافية قديمة نُسيت داخل إطار مهمل مائل تنتظر من صاحبها أن يقوّمها، ترفض أن تكون على جدار منسي .. ما زالت تنتظر يوسف كما ينتظره هو..

يتمالك نفسه ليطرد ثقل وجعه، يتوقف قائد السيارة أمام المستشفى، يترجل منها بوجل .. يرفع كمامته ليغطي وجهه، يخطو للداخل ومع كل خطوة يزداد شعوره بالخوف .. يسأل بضعف عن غرفة موسى، تتهرّب منه الموظفة وهي تنشغل مع رجل آخر.. يزفر بضيق، يتوجه لممرض قربه :" لو سمحت أخوي تعرف غرفة موسى محمد؟ الشيخ موسى"

يرفع أنظاره ليتأمل ملامحه قليلًا :" تقرب له؟ "

يهز كتفيه :" لا بس من معارفه"

يحمل سجلًا ليبتعد وهو يقول :" اسأل الموظفين اللي فوق"

يزم شفتيه بضيق، يبدو الجميع متحفظًا للحديث عن أخيه، ربما لشهرته أو لسبب آخر يجهله .. يصعد للأعلى، يلحظ التوتر في الممر .. يتجاهل كل شيء ليقترب من إحدى الموظفات :" لو سمحتِ كم رقم غرفة الشيخ موسى؟ "

ما أن نطق اسمه حتى وقفت تتظاهر بانشغالها :" تفضل اجلس هنا، دقيقة وأخدمك "

يجلس بقلة حيلة، يتأمل المارين .. يعلو تنبيه هاتفه ليتذكّر موعد دوائه، يقف قاصدًا ركن قهوة متوسطًا

الفناء .. يصله صوت من خلفه لشاب يجلس على المقعد :" أنا ما بوصلهم الخبر يا عم .. لا حول ولا قوة إلا بالله ... والله مافيني أنا أكلمهم .. يا عم كلم صهره هو اللي بيروح يخبر زوجته وبنته ... - يذبل صوته مانعًا بكاءه - الله يرحمه، لازم بنته تجي توقع "

يأخذ علبة الماء، يجلس قُرب الشاب ليتناول حبة الدواء .. يعود صوت هاتف الشاب مجددًا ليرد مسرعًا :" السلام عليكم عم .. اي والله قبل نص ساعة بس توفى، عظم الله أجرك في الشيخ .. أنا برتب أمور العزاء والدفن بس بلغوا أهله "

سعال مفاجئ يداهمه، تنقبض رئته بوجع ليسعل أكثر .. يفقد السيطرة على سعاله الشديد، ترتجف يديه والعرق يتصبب منه .. يحاول فتح علبة الماء إلا أنها تسقط من يديه، يحاول أخذ شهيق كبير إلا أنه يغص مجددًا بسعاله .. يفتح عينيه ليرى طفلًا صغيرًا لا يتجاوز العاشرة أمامه يسحب قارورة الماء ليفتحها له :" يا عم اشرب المويا"

يسحبها من بين يديه بكف تهتز .. يشربها دفعة واحدة ليهدأ سعاله قليلًا، يركض مبتعدًا الصغير بعدما رسم ابتسامة واسعة .. يرتخي على المقعد يستعيد أنفاسه بعد

نوبة السعال، يتذكر شقيقه .. شوقه أكبر من أن يسمح لنوبة من نوباته أن تمنعه عنه، يتحامل ليعود مجددًا إلى الأعلى .. وقبل أن يطرح سؤاله يصله صوت إحدى الموظفات هامسًا لزميلتها التي وصلت توًا :" سمعتِ؟ الشيخ موسى توفى قبل شوي"

تجحظ عيناه، يجف حلقه .. يحاول أن ينطق لكن وكأن حباله الصوتية تقطّعت، يتمسّك بالمقعد بجانبه ليسنده .. رؤية ضبابية تغشاه، يخرج منها فجأة ذات الشاب الذي كان يتحدث بهاتفه بالأسفل يُمسك بذراعه :" يا عم بخير؟ "

تخرج حروفه ضائعة مستنجدًا بالشاب :" موسى .. وين موسى؟ "

تذبل عينا الشاب، يُنزل رأسه للأسفل :" الله يرحمه "

تتجعد ملامحه، عيناه الجاحظة تصغر شيئًا فشيئًا ليغطيها الدمع، ترتعش شفتاه .. يغتسل وجهه بماء عينيه فجأة ليهتز صوته :" لا.. لا يا الله .. "

يدفع الشاب عنه ليعتدل بوقفته ويسير بدون اهتداء إلى الغرف القريبة .. تُسرع خطواته، يتلفت كطفل أضاعوه .. موسى لم يمت، هو لم يتأخر .. لن يفقد موسى كما فقد يوسف، ما زال قلبه محملًا بحديث طويل لأخيه الكبير،

سيحتضنه ويقبّله ويستسمح منه، سيسير معه حتى يوصله إلى ناصر ليقتص منه، لا أحد سيغسله ويكفّنه غير موسى، لن يُحمل إلى قبره وحيدًا .. سيسير معه موسى، ليس هذا ما خطط له ..

لا يشعر بالأيدي التي تتلقفه لتمنعه من الدخول، يسقط أرضًا .. ينتحب ببكاء كما لم يبك أخاه يوسف، تنقطع أنفاسه من شدة بكائه .. ليدخل في دوامة سوداء، يؤمّل نفسه أن روحه الضعيفة فاضت، لم يعد بوسعها تحمل المزيد.. يسمع أصواتًا يحبها، تناديه .. وتطبطب عليه، هذا يوسف يقف فوقه متعممًا شماغه يُناديه بضحكته المعهودة .. ويختفي مجددًا.

-

ينحني جسده حتى لامس كتفه كتفها، يدس ذراعه أسفل فخذها والأخرى خلف ظهرها ليستوي واقفًا وهو يحملها

بين ذراعيه، تتشبث برقبته وهي تعض شفتها بخجل :" بسرعة نجد لا يجي أبوك"

يصعد الدرجات بحذر وقلبه يتمنّى لو يطول السلم حتى يصل إلى السماء بدلًا عن غرفته :" ما سويت شي! "

تشتت عينيها عن جسده وعينيه القريبة، لتسقط أنظاره على الصالة العلوية لأول مرة.. تُشير بعينيها للمقعد :" حطني هنا وانزل جيب الكرسي"

يهز رأسه نفيًا بابتسامة مستمتعة، يتجه لغرفته ليزداد حرجها وهو يسير بها ببطء يشير لكل شيء :" هذا سريري ... هنا الدولاب... هذا المكتب ... هنا جدارية صور .. - يلتفت للمرآة لينطق بسرعة - وهنا فاتنة نجد .. وأميرة الجزيرة العربية، الشيخة يمام "

تطلق ضحكة تلقائية وهي تدفن وجهها بخجل برقبته، تُثير خلايا دمائه بأنفاسها وضحكتها .. يرفعها أكثر له، يقتل المسافة الضئيلة بين شفتيهما .. يزرع قبلته الأولى بشغف جارف، تتضاءل بين يديه .. يحررها من قبلته سريعًا بعدما كاد يفقد توازنه، تهبط أنظارها بسرعة وحمرة فاتنة تغطيها.. يُطلق ضحكة صغيرة ليعيد توازنه وهو يثبتها بين يديه..

يخرج من غرفته ينوي إكمال مسيرة تعريفها ببقية المنزل، إلا أن صوت والده بالأسفل ينادي يقطع رغبته لينزل بها الدرجات.. تغوص مجددًا بخجلها لوجود ياسر، يطلق ابتسامة ليبتعد ويبدد خجلها على صوت نجد المرحب بأبيه ..

*

" يا أيُّها الشجرُ البدائيُّ ابْتكِرْ للطيرِ أغصاناً
وللأطفالِ فاكهةً
أَقِمْ فِي الرملِ ناقوساً طموحاً
واشْتَعِلْ للريح
يا أيُّها الشجرُ الذي طالَ احتقان جذورهِ
بالقيظِ واحترقتْ بلابلهُ على الأسلاكِ
فانقطع الغناءْ
يا ضارباً في الليلِ
يا مُستغرقاً في لجَّة الصحراء
هل غرقت ظلالك فِي المساء؟
- سيد البيد

الورقة السابعة عشرة

أشرقت شمس الرياض على خبر انقضاء أجل الشيخ موسى .. يستيقظ صباحًا على فاجعة الخبر، هو نشأ بين عائلة تُفضل عدم ذكر الشيخ موسى، لا زال يذكر أحاديث ناصر السيئة عنه.. أحاديثه القديمة شكّلت داخله صورة مهزوزة لرجل يجهله ولا يعلم عنه سوى أنه (رجل فاسد بلباس التقوى) كما يردد ناصر، نجد كذلك يكتم كرهه لذاك الشيخ .. لا زال يذكر عندما كان نجد طالبًا في المرحلة المتوسطة اُستدعي عمه ياسر من قِبل وكيل المدرسة بسبب إساءته للشيخ موسى معبرًا عن كرهه، لم تخفَ صدمة عمه.. ولأول مرة يرى فيها ثامر توبيخ ياسر الشديد لنجد حتى أنه كاد يبكي .. توبيخ انتقل من نجد إلى ناصر، غير أن ناصر لم يتب عن حديثه أمام نجد ليذكّره بدم خاله .. احتفظ بعدها نجد بكرهه لموسى عن أبيه حتى لا يُثير غضبه، عمه ياسر الذي لا يستطيع كبح مشاعر الحنين والأسى لموسى.. يعلم ثامر تمامًا أن مشاعر المعزة لا زالت تسيطر على عمه اتجاه موسى، أما يوسف .. كعادته،

صامت وبارد حتى عن إظهار مشاعره اتجاه أي شخص ولو كان شيخًا .. وكأن الأمر لا يعنيه.

يبدأ عمله والحديث عن موسى لا يتوقف، الجميع يتداول خبر وفاته .. معرّضين عن أن ابنته سبب موته بعد ما أسموه بالفضيحة، يداهمه صداع شديد.. يحسب الدقائق حتى ينقضي عمله ويهرب من أحاديثهم، لماذا يداهمه شعور بالذنب الآن؟ إحساس بأنه أحد المتسببين بموت رجلٍ ما .. لم يلتقِ بموسى سوى ذاك اليوم، يفصلهما جدار الغرفة .. إلا أن صورته وهو يخرج من الغرفة الطينية مكسورًا ومفجوعًا تتراءى له الآن وكأنها حدثت توًا، ماذا عن خالد؟ هل علِم بوفاته؟ لا بد أنه مضرج بدموعه الآن .. ينتحب ندمًا وحسرة بسبب شيخه، ويحمّل نفسه مسؤولية ما حصل ..

تصله رسالة من نجد، يزفر بضيق وهو يقرأ محتواها (أبوي بيحضر دفن الشيخ والصلاة وبينا نحضر معه، ننتظرك ولا بتروح وحدك؟)

الجميع يلاحقه بذكر الشيخ، لا مفر منه .. يعود إلى المنزل، يصادف نجد قرب بوابة المنزل بعدما أعاد اليمامة من جامعتها :" ودي أنام والله، بس عشان أبوي بحضر "

يعقد حاجبيه بسبب صداع رأسه :" وأنا والله مالي خلق .. لو سأل عمي قل له ثامر تعبان ويبي ينام"

يودّعه ليلوذ بغرفته، يستلقي ناشدًا الراحة .. يقطع محاولاته للنوم رنين هاتفه، يسحب هاتفه بتثاقل .. يستعدّ لسماع شكوى خالد :" هلا .."

كما توقع، يصله صوته مضطربًا ضعيفًا :" ما ودك تجي؟ "

ترتفع شفتيه بابتسامة ساخرة :" عشان أسمعك تتحلطم وتلومنا؟ "

يزفر بشدة وبقلة حيلة :" ايه .. تعال، ولا بطلع للجامع اللي بيصلون فيه وأشكي نفسي لكل الناس"

خالد ضعيف جدًا، حقيقة يكتشفها كل مرة لتؤكد له ضعفه .. لو لم يكن ضعيفًا لما اتخذ مسارًا خاطئًا منذ البداية.. قلبه مرهف حتى وإن تظاهر بعكس ذلك، يُزيح لحافه عنه :" الشكوى لله، جايك "

يوقفه صوت خالد :" مو بالشقة، أنا بالمستشفى تعال هناك"

يعقد حاجبيه :" المستشفى؟"

يطلق تنهيدة :" ايه رغد تعبانة شوي"

يفز جالسًا بقلق :" شفيها رغد؟ "

يزفر بضيق :" تعبت علي، تعال انت وخلصني"

تضطرب روحه، يطير مسرعًا إلى مستشفى صغير خاص.. يجد خالد بحالة سيئة، يحمّل نفسه مسؤولية ما حصل لموسى.. تزيد حاله سوءًا رغد بمرضها، سوء تغذية حاد .. حرارة مرتفعة لم تفارقها منذ يومين، تستفرغ حتى الماء .. يجلس بجواره ليطبطب على فخذه :" خالد .. قوم احضر الدفن والصلاة، أدري فيك ما بترتاح إذا ما حضرتهم .. رغد بالمستشفى مو بمكان غريب، وأنا بنتظر هنا إذا احتاجت شي"

تصارعه روحه بين البقاء معها أو حضور آخر ساعات الشيخ موسى في هذه الحياة، تكريمه بالصلاة عليه ومواراته خلف لحده.. علّه يوصل إليه بعض الاعتذار نابعًا من قلبه، يرحل قبل بدء الصلاة بمدة وجيزة .. يترك ثامر خلفه وحيدًا، يجلس بقلة حيلة قريبًا منها .. يفصلها عنه جدار واحد، يقف ليتجاوز الجدار .. لا أحد سواها في الغرفة الواسعة، يتحايل على الممرضة حتى سمحت له بدخولها سريعًا .. يصدر حنحة صغيرة حتى تنتبه لوجوده، يزيح الستار .. ترقّ نظرته لمنظرها، مستسلمة لإبرة المغذي.. جفونها مسدلة بإرهاق، يقترب .. يقف قُرب رأسها.

تضطرب جفونها، تفتحهما بسرعة لتصطدم بعينيه .. تتعلق بها، ذاك الوجه الأسمر الشاحب .. ذاته لم يتغير، تنعقد حاجباه بابتسامة صغيرة :" سلامتك رغد"

تشتت عينيها عنه :" وين خالي؟ "

يتكتف مميلًا جسده على الجدار :" راح يحضر عزاء وبيرجع"

لا زالت لا تنظر إليه، تتابع بعينيها مرور السائل من المصل إلى الإبرة حتى كفها :" ما ينقصني شي بحياتي إلا وجود شخص يعني لي نفس ما أنت تعني لخالي .. أعطيه الثقة بلا حدود"

يصمت بعد أن أطلق تنهيدة، وكأنها بحديثها تملك كل الحياة .. تتجاهل كل النقص الذي يلفها ولا تتطلع سوى لشخص تودع فيه ثقتها باطمئنان، يجلس بجانبها يحاول تصنع المرح:" اوك .. تجاهلتيني، أمشّيها .. بس خالد موجود"

تُعيد أنظارها إليه بسرعة :" خالي أحبه، بس ما أقدر أعطي ثقتي لواحد مثله، خذلني قبل .. أما انت، انت كنت هالشخص "

يرفع حاجبه بضيق :" كنت؟ وش اللي تغير رغد؟ "

ترفع حاجبها بابتسامة خبيثة مفاجئة :" ما أقدر أثق بشخص بعز حاجتي له فجأة تدق زوجته تقول له لا تنسى بامبرز ولدك! "

تتسع عيناه بصدمة، لا ليس هذا الحديث بالذات المناسب مع رغد.. تتحول ابتسامتها لضحكة خفيفة وهي تشتت عينيها عنه، لا يعلق .. تُبادر مجددًا بعد صمت :" صحيح بتتزوج؟ خالي يقوله"

يعبث بهاتفه متجاهلًا نظرتها :" يقولون .. - يعيد نظرته إليها بابتسامة - تتوقعين في مجنونة بتوافق على مقرود مثلي؟!"

تهز رأسها بجدية :" اي والله صح"

يضحك بخفة لتبتسم بهدوء لضحكته التي افتقدتها كثيرًا، ضحكته هذه أعادتها لرغد قديمة تفتقدها .. ترفع أنظارها له بعد صمت قطعه بسؤاله جادًا :" رغد .. قولي لي وش اللي تغير؟ ليه صرتِ بهالضعف؟ .. خالد يشكي تعبك، ما كنتِ بهالشكل! لو في شي كلميني .. أنا موجود، أنا بقدر أفهّم خالد لو في شي مضايقك "

تهز كتفيها ببرود كساها فجأة :" ولا شي"

يعود بإصرار :" بعد خروج خالد وأنتِ مو طبيعية .. وينها رغد اللي تحسب الأيام يوم يوم وتنتظر خروجه؟ "

تزفر بتعب (بعد خروج خالد) أي بعد قبلته التي سلبت كل قوتها .. كيف بإمكانه أن يجلس بجوارها ويضحك وكأن شيئًا لم يحدث؟ لا يعلم حجم الصدمة التي ابتلعتها وخالد يذكر بشكل عابر نية ثامر بخطبة فتاة ما.. بعد خروج خالد أي بعد انقطاع الوصل معه، يقول (أنتِ مو طبيعية) لا تعلم كيف له أن يريدها طبيعية بعد فقدها للشخص الوحيد الذي كان يملأ حياتها .. بعد فقدها له، تمرر أصابعها لتلامس كفها المقيدة بالمغذي :" ما تغير شي .. بس كنت عايشة على انتظاري لخالي، طلع .. وخلاص، انتهى الشعور اللي كان يحمسني للحياة"

يزم شفتيه بضيق :" كل هالوقت بيمر .. تنتظرنا الحياة، صدقيني "

تصلهما أصوات خارجية، يقف :" إذا احتجتِ شي أنا برى .. - يبتعد وقبل أن يتخطى الجدار يلتفت بابتسامة - وبعز حاجتك لي بترك الدنيا وأجيك، سواء كان بامبرز ولدي ولا حليبه"

تبتسم ابتسامة صغيرة، يمد سبابته وإبهامه بامتداد شفتيه :" أكبر بعد .."

تتسع ابتسامتها أكثر بضحكة خفيفة، يهز رأسه إيجابًا قبل أن يغادر :" ايوه كذا "

-

في جامع كبير .. جامع حفظ أحاديثه وخطبه، جامع جدرانه تشهد على صوته العذب يقرأ القرآن .. وسجادته بكفيه المنبسطة بسجود طويل، تودّعه الوداع الأخير وهي تسمع الصلاة عليه قبل مواراته في ثراه ..

يسلّم وهو يصارع بكاءه، يلمح جسده بعيدًا عنه لا يقوى على الاقتراب منه، يجلس على السجاد رافعًا يديه ليدعو بقلب محب مودع :" يارب وحدك أعلم بحاله الآن، يارب ارحمه بقدر ما رحمني ورحم ضعفي .. ارحمه بقدر ما أخطأ بسببي، يارب اجمعنا أخوة كما كنا في الدنيا .. الهمني الصبر يالله، الهمني الصبر .. يارب اغفر له بقدر شوقي له، واعني

حتى أكون أبًا لابنته مثلما كان أبًا لي .. اللهمّ عامله بما أنت أهله، ولا تعامله بما هو أهله، آمين "

يُعيد كمامه ليغطي نصف وجهه، يقف مع المصلين استعدادًا لمواراته قبره.. يخرج من الجامع ليهوله منظر الجموع الغفيرة أتت للصلاة على أخيه، يطمئن قلبه .. يدعو الله أن يُبقي ذكره طيبًا بين الناس، وجوه كثيرة يألفها .. كان يظن نفسه نساها، هذا صهر موسى.. وهناك أقاربهم، بعيدًا عنه أمير ينقل التعازي.. وهناك وزيرًا بين المعزين، شيوخ كثر يعرفهم ويجهلهم .. شباب وكبار وأطفال من جميع المستويات، المعروف والمجهول، الغني والفقير.

وهو يسير وحيدًا كغريب في عزاء أخيه، لا أحد يعزيه .. ولا أحد يُصبره، لا يهمه ما دام يسير في جنازة أخيه .. لم يُبعد عنها مجبرًا كجنازة توأمه يوسف، يصل إلى المقبرة .. مكتظة بالناس كما في الجامع، يُتابع بعينيه نقل جسد أخيه المحمول على أكتاف الرجال، يغيب وهو يغطى بالتراب ..

يتمنى لو يقترب أكثر حتى يراه، لكن ضعفه أقل من أن يسمح له بتخطي الجموع .. يختلّ توازنه فجأة إثر الزحام المتعاكس بطريقه، كاد يسقط أرضًا لو لا أن كفًا أسرعت إليه لتُمسكه قبل هبوطه، يصل صوت الشاب الذي أمسك

بكفه مخاطبًا من كان سببًا بسقوطه :" يا خوي الله يسامحك، انتبه .. قدامك رجال كبير"

وكأن الآخر للتو أدرك وجود عبدالعزيز ينحني ليُمسك به :" آسف آسف ياعم بس والله مستعجل"

يُسندانه ليقف مجددًا، يرحل الآخر سريعًا في عجلة .. بينما الأول ما زال واقفًا بجانبه، يرفع عينيه لتلتقي بوجه الشاب.. يضطرب قلبه، تتوقف الضوضاء إلا عن الضوضاء التي تصدرها ابتسامة الشاب، لا شيء يفصلهما ..

يختنق الهواء في رئتيه، وكأن عينا الشاب الباسمة سلبت كل الهواء .. يُنزل كمامه عن وجهه، يعود صوت الشاب باسمًا وهو يُلقيه قارورة ماء :" تفضل عمي "

يًمدها إليه ليأخذها دون أن يُبعد عينيه عن عيني الشاب، مقيد بها .. يبتعد الشاب، تلحقه عيني عبدالعزيز.. تتزايد المسافات بينهما، يراه من مسافة بعيدة يقف بين مجموعة رجال .. يسلم عليهم قبل أن يُمسك بكف أحدهم ويصحبه معه بعيدًا .. يصحب معه ما تبقّى من روح عبدالعزيز ..تضيق عيناه فجأة، هذا ليس (أحدهم) .. هذا ياسر .. نعم يستطيع تمييزه حتى بعد سنين البعد وما فعله

الشيب وتجاعيد الزمن بهما.. ياسر ليس (أحدهم) لم يكن يومًا بصيغة المجهول ولن يكون ..

هذا ياسر .. رفيقه، وذاك الشاب البعيد الذي شد على كفه قبل دقيقة لينتشله والآن يشد على كف ياسر .. نجد.

-

تمرر عينها على كل زاوية، شقة صغيرة خالية عدا عن غرفته والمطبخ .. شعور حميم يلفها وهي تجول داخل شقته، تتوقف أمام زاوية أمام النافذة .. طاولة أرضية صغيرة مبعثرة بكتبه وجهاز اللاب توب، يشدها كتاب شاذ عن بقية كتبه الإنجليزية.. تجلس في مكانه، تسحبه لترفع حاجبيها باستغراب وهي تقرأ عنوانه (ديوان محمد الثبيتي - الأعمال الكاملة) تمرر الصفحات بعشوائية .. تتوقف يدها عند صفحة أثارت فضولها، صفحة من قصيدة مرسوم عليها بإتقان وجهه .. خطوط ملامح وجهه تتداخل مع حروف القصيدة .. (أَيَا مُورِقاً بالصبايا

ويا مُترَعاً بلهيبِ المواويلِ

أَشعلْتَ أغنيةَ العيسِ فَاتَّسعَ الحُلْم

فِي رِئَتَيكْ

سَلامٌ عَليكَ

سلامٌ عَليكْ

مُطِرْنَا بِوجْهِكَ فَلْيَكُنِ الصُّبح مَوعدنَا للغناء

ولْتكُنْ سِدرة القلبِ فواحةً بالدماء

سلامٌ عليكَ

سَلامٌ عَلَيكْ)

ترفع رأسها على صوته :" الغداء جاهز - يعقد حاجبيه - وش تسوين؟ "

تلوّح بالكتاب :" ما كنت أعرف إنك تحب الشعر"

يهز كتفيه بلا مبالاة متقدمًا إليها :" لا فعلًا ما أقرأ شعر، هذا أخوي لازم يحشرني بدواوينه غصب"

يمد كفه لها، تتمسّك به ليوقفها .. تفتح الصفحة :" فنان أخوك! "

يعقد حاجبيه وهو يرى وجهه مرسوم بالرصاص، يبتسم ابتسامة صغيرة وهو يسحب الكتاب منها يتأمل ما رسمه ثامر لأول مرة، يُغلق الكتاب ليرميه على المكتب ويشدها معه :" اتركيه عنك، الغداء بيبرد"

ينتهيان من غدائهما، يجلسان متجاورين على كرسي متأرجح أمام الغروب .. تثرثر دون توقف، وها هي تقرأ عليه الشعر، يشعر بها تُميل على كتفه .. تستند عليه وتقرأ، لا يسمع ما تقول.. دفء غامر يلفه، لم يشعر به منذ وفاة أمه.. يرفع ذراعه، يلفه خلفها .. تبتسم وتتابع القراءة متأرجحة معه، يتأمل انعكاس الغروب في عينيها .. تقف فجأة بشهقة عالية :" يا ويلي تأخرت! .. وراي بكرة مشروع "

خيبة كبيرة أصابته، حبس رغبته ببقائها أطول ليقف معها .. تدخل لتأخذ حقيبتها، وقبل أن تفتح الباب يصلها صوته :" هديل .. انتظري"

تلتفت له، تتسع عيناها بابتسامة وهي ترى علبة صغيرة بيده .. يفتحها ليُخرج خاتمًا :" اللللله! - تضحك بمرح - زين تذكرت الدبلة ولا كان نشبت لك "

يُمسك بكفها، يُلبسها الخاتم وهو يقول بابتسامة :" دفعت دم عمري عليه، أنا بناشبك عليه"

تضحك بمرح، ترفع كفها لتتأمل الخاتم بإعجاب شديد .. تسحب هاتفها بسرعة لتلتقط صورة له :" بصوره لأمي وأبوي"

وقبل أن تخرج تسحب الديوان :" شكرًا على الهدية "

يرفع حاجبه باستنكار دون تعليق .. تقطع نظرته وهي تقترب لتطبع قبلة سريعة على خده، تتحول نظرته للدهشة .. يتلون وجهه، تقفز سريعًا وتخرج لتتركه وحيدًا واقفًا يسترجع قبلتها ..

-

يتوافد المعزين، لم يكن يتصور نفسه يومًا يتواجد لتقديم واجب العزاء ولمن؟ لعدوه .. دهشة باردة أصابته إثر تلقيه الخبر من ياسر، رسالة نصية تنقل الخبر محملة بحثّ على المسامحة .. هل يُسامح على احتياله بعد كل تلك السنين؟ وهل سيجني شيئًا من عدم المسامحة؟

وجد نفسه فجأة يسير بسيارته إلى مجلس العزاء، دوافع مفاجئة حملته على الحضور .. إن كان خبر وفاته سبّب له حزنًا فلن يكون إلا بسبب (ريم)، مصيبة تتلوها مصيبة تقع عليها .. إن تظاهرت بالقوة بعد نسف سمعتها فلن تقوى على التظاهر أكثر برحيل والدها، كانت تؤمل نفسها بعودة والدها سليمًا حتى تقف من جديد مستندة عليه .. لتتفاجأ

برحيله الأبدي، يتركها وأمها وحدهما يصارعان الجميع لعودة حقهما ..

ودافع داخلي ينبئه بأن من بين وجوه المعزين سيكون هناك الخصم الحقيقي، يعقوب .. إن لم يزل حيًا ففاجعة أخيه ستدفعه للحضور مجبرًا، هل سيتخلى عن ابنة أخيه ليتركها وحدها؟ هل صدّق ما قيل عنها؟

تنقّب عيناه بتلقائية عن وجه يجهله، كل وجه في العزاء حفظه علّه يلقى وجه يعقوب .. يستفيق فجأة من تنقيبه على كف حطت على كتفه، يلتفت ليجد نجد خلفه مبتسمًا :" خالي؟ ما توقعت تجي! "

يزفر بضيق ليعدل شماغه :" والله مدري لقيت نفسي فجأة هنا بدون ما أحس "

يهز رأسه باطمئنان :" أبوي بيفرح بجيتك "

يقف بضيق تملّكه فجأة :" بمشي الحين، جايين معي؟ "

يلتفت نجد للخلف باحثًا عن والده :" ايه يالله الحين، بس أنتظر أبوي يجي "

يقترب ياسر، تطمئن ملامحه وهو يرى ناصر .. يومئ له بشكر عميق نبع من عينيه، يخرجون ثلاثتهم عائدين إلى

منازلهم بعد يوم حزين لياسر، ومتناقض لناصر .. ويوم لا يفرق لنجد بشيء.

يُقبل نجد رأس والده قبل أن يلوذ إلى فراشه .. يسمع تمتمة والده القديمة :" الله لا يوجعني فيك ولا منك"

يهبط ياسر الدرجات، يلوذ إلى مكتبته .. ملاذ وحدته، يجلس على كرسيه.. يُخرج دفترًا بنيًا ليبدأ بالكتابة:

(سلامٌ محمّل بالرجاء .. محمّل بشوق الأخ الوفي، الأخ الذي لم ولن يخذلك ..

لا أظنك تدرك كم كان مؤلمًا وأنا أبحث في كل العيون عن عينيك، ولم أجدك.. كنت أؤمل نفسي بحضورك، وكنت أخشاه.

لا شيء يُرعبني سوى حضورك الذي أفتقده، لا شيء يفوق هذا الألم سوى ألم أنك كنت حاضرًا ولكنني نسيت ملامحك، وهل تُنسى ملامحك؟ إن نساك العالمين لن أنسى أنا تلك الملامح .. ووحدك من يدرك سبب هذا.

بحثت عنك في كل الوجوه، متيقن بأنك لن تترك جنازة موسى ترحل دون وداع أخير.. ليس كمثل جنازة أخوينا يوسف ونجد، خيّبت يقيني .. لم تحضر، هل ترك الجنازات دون وداع هو ديدنك؟ هل يُريحك هذا؟

أسألك الآن بعد كل هذا الموت، هل تفويت الجنائز يبعث في النفس طمأنينة وإن كانت مؤقتة؟ هل يجعلك هذا تعيش على وهم حياتهم؟ أو هل سأجدك بعد سنين طويلة تجثو على قبورهم تبكيهم لأول مرة؟ كما كنت سابقًا ..

هل ما زال الهروب هو عادتك؟ كما أصبح عادتي؟ تُصيبني بعدواك حتى في بُعدك.

ماذا عن جنازتي؟ هل ستُعطيها من الهروب نصيبها؟ أثق بأنك لن تفعلها.. ستُحارب لتحضرها، وكلانا يدرك السبب وحدنا.

لن تترك جنازتي وحيدة، حضوري لجنازة موسى لم يكن بسبب ما أكنّه له من معزة فقط .. كنت أحاول أن أسد فراغك كي لا يسير موسى وحيدًا، تمثّلت بك .. فلا تتركني وحيدًا.

هل شِبت بعد كل هذا؟ هل تعيش كِبر سنك وحيدًا؟ تعلم تمامًا أنني لم أُرِد لك ذلك.

ماذا لو لم يحدث كل هذا؟ لو لم تُعد من غربتك تلك إلا بعد سنين؟ أظنني سأكون أكثر وحدة الآن ..

ماذا لو أني أكتب لك الآن وأنت موارى في قبرك منذ سنين؟ وحيدًا في غربة أجهلها، يجزعني التفكير بهذا .. ويجزعني أكثر أن تكون قريبًا.

أعيش على أمل حياتك، وأمل بعدك .. ضائعٌ أنا كما تعرف.

عيناك تُلاحقني بنومي وصحوي، بفرحي وحزني .. لستُ سيئًا كما تظن، ما زلتَ أخًا لم تنجبه أمي .. خالص عزائي لك برحيل شقيقك، أملي أن يصل هذا العزاء ليقويك في غربتك وعزلتك.

أخوك: حادي العيس)

-

تهبط الدرجات درجةً درجة .. تشعر بثقلها يتزايد مع كل خطوة، تتأمل المنزل .. خالٍ بعد ما كان يضجّ بالنساء، خالية هي كما هو حال المنزل .. الدهشة البيضاء الباردة لا زالت تغطيها منذ تلقّت الخبر، دخول خالها المفاجئ ذاك اليوم .. وجهه الحزين كما لم يكن من قبل، تنبأت أمها بما يُخفيه وجهه .. انهارت باكية، أما هي .. لم تستوعب، احتضنها خالها مواريًا دموعه.. عندها فقط استوعبت ما يحمله من أخبار، لم تبكِ.. لم تنطق، وكأن ضياعًا أسودًا ابتلعها .. توافدت النساء حتى امتلأ منزلهم عن بكرة أبيه، عندما أخذها خالها برفقة أمها لوداع أبيها الأخير اختنقت وهي ترى جسده خالٍ منه، ذاك لم يكن أباها .. كان مجرد جسد، قبّلت وجهه البارد .. بلّلت دموعها وجهه، عادت وأمها إلى المنزل دون أبيها .. شعرت فجأة أنها كبُرت عشرين عامًا .. ماذا سيحصل بعد ذلك؟ كيف ستعيش دونه؟ كيف سيكون منزلهم خالٍ من سيده؟ هل ستكون جميع أيام الحياة طويلة وثقيلة كأول ليلة في قبره؟ هل ستكون قادرة على العيش؟ تقوّي أمها وتتقوى بها؟

لجأت لغرفتها تصلي كثيرًا وتمسح دموعها، أمها أصابها الضعف .. تنام معظم الوقت وتستيقظ فجأة وهي تبكي لتدخل بنوبة نوم مجددًا ..

تزفر بشدة علّ ثقل صدرها يخفّ، تغمض عينيها وهي ترفع كفها لتحجب الشمس عنها.. منذ خروجها لوداع أبيها قبل أسبوع لم تر الشمس.. تخطّت العتبة الداخلية إلى حديقة المنزل، جلسة خارجية كان يحبها أبوها كثيرًا.. تجلس على كرسي متأرجح، تتدلى أقدامها الحافية منه .. تطرد هاجس (ماذا بعد كل هذا) لتلوذ بدفء الشمس ورائحة النعناع، تغمض عينيها .. بللٌ مالح يبلل رموشها ونظرات الحاضرات تقتلها، وإن لم ينطقن بألسنتهن كانت النظرات كفيلة بأن تنطق بالازدراء واللوم، همسة عابرة من لسان إحداهن وصلتها جعلتها تعتكف بغرفتها يومًا كاملًا تبكي .. تلومها بموت أبيها بسبب تلك الصورة القبيحة، لا تشعر بأنها تلقّت عزاءً .. بل طعنات أصابتها بالرَّوع، لا أحد إطلاقًا أعطاها حقها بالعزاء كيتيمة، بل كمذنبة .. فقط امرأة واحدة انتشلتها لتحتضنها وتهمس بدعوات معزية صادقة، لوهلة ظنّت أن تلك المرأة التي تجهلها قد تكون غافلة عن تلك الفضيحة .. لذلك صَدَقت بتعزيتها، امرأة واحدة غريبة

شدّت عليها بحزن ورأفة، تفتح عينيها فجأة وطارئ مفاجئ يطرأ عليها إثر ذكرى هذه الغريبة .. دسّت في كفها ظرفًا مغلق قبل أن تتركها وترحل ..

تُغمض عينيها مجددًا، لم تفتح الظرف .. ألقت به بين كومة كتبها علّها تفتحه بعد انتهاء العزاء، قد تكون طلبًا للحاجة، سداد دين، مساهمة في إعتاق رقبة .. ستفتحه وتقف على حالها بنفسها حينما تجمع قوتها مجددًا.

تلّم معطفها حولها لتزيد من ميلانها وتضطجع على الكرسي، لا تبالي بالشمس .. لا تبالي بالوقت، كل ما تتمناه أن تستيقظ من هذا الكابوس .. يسرقها النوم ساعة دون أن تشعر، وجه أبيها يرافقها في كل قيلولة ونومة، تفتح عينيها بسرعة على صوت رنة وصول رسالة لها .. تعقدها بضيق وهي ترى الشفق الأحمر فوقها، كيف لم تشعر بمضي الوقت ونامت كل هذا؟

تعتدل بجلستها لتسحب هاتفها من جيبها، تزم شفتيها باهتمام وهي ترى اسم المُرسل (أستاذ ناصر) .. تقرأ رسالته (عظّم الله أجركم، خالص عزائي لكِ وللوالدة الكريمة) يُعزي؟ بعد انقضاء العزاء بأيام تذكّر تعزيتها؟ لا تنكر أنها صباح اليوم عندما أعادت تشغيل هاتفها بعد انقطاع لأيام

العزاء كانت تؤمل نفسها بأن تجد رسالة منه، منه تحديدًا حتى يطمئن قلبها .. وتطمئن روح أبيها.

وجدت نفسها فجأة ترفع هاتفها لأذنها بعدما اتصلت به، تقوّي نفسها أكثر مع انقضاء الثواني .. تذبل عيناها ولا رد منه، كادت تغلق الخط بإحباط إلا أن صوته وصلها أخيرًا :" هلا.."

تشد من قبضتها، تحاول استرجاع صوتها الذي فقدته ليخرج ضئيلًا :" السلام عليكم "

يرد بثبات عكس وهنها :" وعليكم السلام ورحمة الله .. عظم الله أجرك ريم "

تخرج زفرتها بتلقائية، لا تنطق .. يعود صوته مقويًا :" أنتِ قوية ريم مثل ما عرفتك، هي فترة وتتجاوزينها.."

تقاطعه بسرعة :" تجاوزت وفاة أخوك؟؟ "

يُخرس لسانه، تتسع عيناه بدهشة .. تعود مجددًا لتسأل بانفعال حاولت ألا يظهر على صوتها :" أستاذ ناصر، تجاوزت وفاتـ.."

يقاطعها بدوره بهدوء :" تقصدين مقتله"

تُفلت أعصابها، وكأنها تفجر فيه كل حزنها وقهرها :" مو مهم، في النهاية الموضوع واحد .. موت"

يطلق ضحكة سخرية قصيرة :" واحد؟ أثاريك ما كنتِ منتبهة لكل المحاضرات والدروس اللي أخذتيها قبل .. ريم! أنتِ مستقبل محامية، قانونية .. مو متوقع منك تخلطين بين أمرين الفرق بينهم بيّن! "

تصمت .. يتضاءل انفعالها حتى يصل للذبول، تبتلع غصة داهمتها وبرجاء هامس :" سامح أبوي.. تكفى أستاذ ناصر حلّله .. - تتابع بصوت مرتجف عندما لم تتلقَ منه إجابة - أصلًا مدري ليه أطلب منك تسامحه، ليه من المفترض أعتقد إن أبوي غلطان وشارك بذنب ماله دخل فيه .. أبوي بنفسه ما يعرف وش صار على أخوه، إذا بتلوم أحد لوم القاتل .. لا تدوّر شخص تفرغ فيه حزنك"

ينطق أخيرًا بعد صمت :" صدقيني يعرف، وصدقيني هو شريك باللي صار "

تمسح دموعها :" مستحيل"

يطلق تنهيدة طويلة :" أنا محللة ومبيحة إن ما كان له ذنب، وأحلله وأبيحه من كل قلبي إذا قام العدل حتى إن كان متورط .. بس أبي الحق يقوم، وأسامحه على كل شي"

تهز رأسها بضيق :" تطلب المستحيل، وانت تعرف هالشي .. اسم يعقوب مات من قبل لا أولد، هو مات .. هو مختفي،

ما في أحد يعرف عن أراضيه غير الله.. - تزفر بضيق قبل أن تُكمل وكأنها ترفض ما تقوله - وإن كان أبوي يعرف مثل ما تدّعي، فسره اندفن معه .. سامحه لأن ما في طريق غير هالطريق"

ينطق بهدوء :" أبوي مات مقهور بسبب غدرهم، استهانوا فيه وبالطفل الصغير اللي معه .. أتمنى أسامح، بس استغفالهم يحرق! لكن عمومًا .. أنا مسامح ومحلل أبوك، بس .. الدور عليك، ما أحمّلك ذنب مالك دخل فيه، بس أنتِ الوحيدة الباقية له .. إن جاء لبابك لا تغلطين غلطة أبوك، لو بعد خمسين سنة"

تغمض عينيها وشعور بالراحة والخوف يتولدان فيها، نقيضان يجتمعان فيها .. راحة كون والدها سينام في قبره مرتاحًا، وخوف كونه حمّلها مسؤولية تجهلها وتجهل الوصول إليها.. تفتح عينيها على صوته :" في أمان الله"

-

تسيّر عربتها بجواره، تسمع بلا مبالاة تذمّره :" زين الحين نبدأ بالغرفة صح؟ "

تهز رأسها نفيًا بابتسامة :" لا باقي ما خلصنا من الحديقة! "

يضحك بتعب :" يا إلهي! .. الحين سؤال يمام، احنا بنعيش بالحديقة؟ "

تضحك بخفة :" باقي البيت أمره سهل، الحديقة يبي لها شغل .. حوش بيتكم كله بحوّله لغابة"

يطلق تنهيدة باستسلام :" يا حظه أبوي بس! "

يقطعان جولة التسوق ليستريحا بأحد المقاهي، ما إن أزالت نقابها داهمها بقبلته الطويلة.. خجل قاتل يصيبها بلمساته، وأكثر منه يفجّر أحاسيس جميلة لم تعرفها من قبل.. وأشد منهما شعور بالتوتر بسبب شغفه الذي أصبح لا يكبحه، وكأنه يعاقبها بسبب تمنّعها السابق.. شغف تخشى عواقبه، تتمنّى لو تُزف إليه حتى تتخلّص من قلقها هذا ..

يُبعد وجهه عنها قليلًا، لا زالت أصابعه تعبث بملامحها .. تسحب كفه لتُبقيها بحضنها حتى لا يُعيد توترها مجددًا،

وبجدية اكتست صوتها :" صحيح نجد، في شي .. أبي أستشيرك فيه - تزفر بضيق- مدري هو استشارة ولا فضفضة ولا وش بالضبط "

يعقد حاجبيه باهتمام :" قولي "

" ثامر "

يتحول وجهه للخيبة :" ثامر؟ ما لقيتِ موضوع غير ثامر؟ .. - يثبت كفه الحرة أسفل خده ليتكئ بها على الطاولة - خمسين بالمية من لحظاتي المثيرة يقطعها ثامر.. هادم الملذات ذا، وش مسوي بعد؟ "

تضحك بخفة على ملامح وجهه :" لأنك صاحبي الوفي من كنت طفلة، ما عندي غيرك أفضفض له"

يبتسم بهدوء :" وأنا دايمًا أسمعك، فضفضي "

تزفر بقوة :" أمس كلمتني سمر بنت خالي، تسألني عنه .. ما عرفت وش أقول لها"

يعقد حاجبيه بجدية :" شفتِ عليه شي؟ "

تزفر بقوة :" يالله نسيت! قلت لك زمان .. عن البنت اللي جابها لبيتنا! "

تتسع ملامحه بدهشة :" ما نسيتِ؟ "

تزم شفتيها بضيق :" هذا اللي شفته، ما أعرف وش مسوي كمان .. تعرف مشاكل ثامر ما تخلص"

يهز رأسه نفيًا بسرعة :" يمام! .. كان مراهق، تلومينه على أخطاء وهو جاهل؟ - يطلق تنهيدة صغيرة - سبحان الله أنتو يالحريم ما تنسون سواد الوجه! "

تضيق أكثر بسبب حديثه اللا مبالي :" هذي سمر، مثل أختي! "

ينطق بسرعة :" والنعم والله! وثامر يستحق! .. لين متى والحياة ملقيته قفاها؟ ثامر على كل عيوبه بس أعطيه كل ثقتي .. يستحق يبدأ حياة جديدة ويكوّن عائلة"

تعلق عينيها بعينيه، يُريحها بحديثه .. كانت تبحث عمن يثبت لها أنها لم تخطئ بحق سمر، يتابع بابتسامة :" يمام، انسي ذيك الليلة .. امحيها من عقلك، كل المراهقين والشباب معرّضين للخطأ .. لا تسمحين لوساوس الشيطان تلعب على عقلك وتفسد حياة تنتظر ثامر، ما تدرين .. يمكن الله مسخّرهم لبعض يكمّلون نقصهم"

تهز رأسها إيجابًا :" الحمدالله ريحتني، ثامر ما عنده أمل توافق عليه .. لكن من كلامها أمس حسيت بقلبها شوي إعجاب له، عاد يارب ما يخيّب أملي ويكون قد المسؤولية"

يشد على كفها :" تطمني .. - يطلق زفرة بابتسامة - الحين مسموح نغيّر الموضوع من ثامر لحياتنا؟ "

تبتسم باطمئنان، دائمًا ما كان أقرب أصدقائها لها .. يبثّ فيها الطمأنينة وينفث شكوكها.

-

تُلقي فرشتها بإهمال لترفع هاتفها، تشهق بضيق وألوان الفرشاة تعبث بقدمها .. يأتي صوته :" شبلاك؟ "

تتأفف بضيق :" ولا شي، بس انكبت الألوان علي"

تشعر بابتسامته من صوته :" حصل خير .. انتبهي مرة ثانية"

تتكئ على كرسيها وهو يُتابع :" وش ترسمين؟ "

تتأمل لوحتها بحيرة، تبتسم وهي تهز كتفيها :" مدري! .. شكلها مدينة خيالية! "

يطلق ضحكة خفيفة :" لا شكلك بخير اليوم .. صوتك رايق"

تتنهد باسترخاء :" أحس باستسلام لكل شي عبد الله، شعور مريح"

يخفت صوته :" لا .. مو أنتِ اللي تستسلمين، الاستسلام شعور يريّحك فترة.. بس يحطمك لو سلمتِ نفسك له بدون ما تحسين"

تقف لتسير حول الشقة الصغيرة :" نو! لا تحاول .. إذا أنا مستسلمة صدقني كلامك هذا أحسه مجرد سوالف"

يزفر بضيق :" رغود الفترة اللي راحت ما كنتِ واعية على نفسك، كنت تاكلين روحك بدون ما تحسين .. والحين فجأة تقولين إنك بخير، هذا هدوء ما قبل العاصفة "

ترتمي على المقعد :" ايوه، ووش المطلوب مني؟ "

" دامك قوية الحين هذي فرصتك للتغيير .. يا تقومين وتحاربين كل شي والنتيجة تنتصرين لنفسك، أو تستسلمين وتبقين طول عمرك على هالحال لين تنتهين "

تُدرك هذا جيدًا، لا حاجة لها بأن يخبرها بحالتها .. متيقنة تمامًا أن هدوءها الظاهري يُخفي حطامًا يتكاثر بداخلها حتى باتت لا ترى شيئًا :" عبدالله، تطمّن .. صدقني لو شفت في نفسي القوة ما بلجأ لغيرك"

يرقّ صوته :" وأنا دايمًا قريب .. عمومًا اتصلت أبيك تفتحين الباب"

تتسع عيناها بصدمة، تشهق بخوف ليأتي صوته ضاحكًا :" يا ساتر وش كل هذا؟ لا تخافين ما بتلقين شي يخوفّك برى .. هو غرض صغير تركته عند الباب وطلعت"

تضرب جبهتها بذات الصدمة :" مجنون؟؟ تخيل لو خالي موجود .. تخيل لو شافك؟ "

يبتسم :" لا تأكدت إنه طلع وراح، بس الحين خذي الغرض قبل لا يجي "

تزفر زفرة طويلة ملؤها الخوف :" لا عاد تكررها يا مجنون يا متهور "

" ابشري سيدتي، ما رح أكررها "

تخطو بخوف لتتوقف عند الباب، تُلصق أذنها تسترق السمع :" متأكد إنك مو موجود ورا الباب؟ "

يضحك مجددًا :" والله مو موجود، أنا بطريقي للكلية الحين .. هه اسمعي - يفتح نافذة سيارته ليصلها صوت ضوضاء السيارات، يغلقها مجددًا - تأكدتِ؟ "

تتنهد براحة، تفتح الباب ببطء شديد.. تُطل من خلفه وعيناها تترقب ما حولها بقلق، تسقط عيناها على كيس ورقي أمام الباب، تسحبه لتغلق الباب بسرعة :" أووووف"

تعود ضحكته :" بشّري؟ شفتِ جني؟ "

ترفع الكيس بعقدة حاجبيها .. وسرعان ما تهلل وجهها بفرح :" سوشي؟ "

يهز رأسه إيجابًا :" مريت من المطعم وذكرتك "

تبتسم بامتنان كبير :" شكرًا عبود، جد شكرًا من كل قلبي "

" ما سويت شي، بس عيونك تشوف كل شي صغير كبير! "

تضحك بخفة دون تعليق، يعود صوته مستعجلًا :" وصلت .. بكلمك بعدين، كلمة أخيرة .. أحبك"

ويغلق الخط سريعًا، يتركها خلفه تُعيد صدى صوته .. لم تكن مرته الأولى بمصارحته بحبها، تشعر بأنه كثير وكثير جدًا عليها .. ليس ذنبه بأن يتعلق بحب فتاة ذابلة وخالية تمامًا، تعلق؟ تبتسم بسخرية وهي تتناول السوشي .. حتى فكرة ثامر (التعلق) تلحقها، يؤلمها أنها لا تستطيع إيفاء عبدالله حقه.. وهو الذي يجازف لأجلها، يحاول إسعادها بشتى الطرق، ويؤلمها أكثر كونها تُهدر مشاعرها لرجلٍ لا

يراها سوى طفلة .. حقّق رغبة كامنة داخله مرة ليبتعد، لم يُقبلها بسببها هي .. بل لأجل نفسه، حديثه الأخير معها داخل المستشفى أنعشها .. رأت فيه ثامر القديم، ثامر الذي تحبه .. لا تشعر بالقوة والأمان إلا معه، ولا بالإخلاص والصدق إلا مع عبدالله .. تعجز عن جمع مشاعرها لتصبها في شخص واحد، ولا ترغب بأن يكون هذا الشخص ثامر .. ولا عبدالله، كل منهما يملك طريقًا أبعد عنها.

-

تمضي الأيام تباعًا، يُغلق هاتفه بعد انقضاء مكالمته مع عبدالعزيز، تحوّل مفاجئ في خططه .. ينوي العودة مجددًا، لا يُعطيه التفاصيل، يقلقه هذا .. ويطمئنه، تقلقه أسرار عبدالعزيز الغامضة.. يقلقه تكتمه عن أمور كثيرة، ويطمئنه حديثه بنيته للعودة قريبًا، لا يعلم ماذا استجدّ حتى يغيّر خططه ..

شعور بالضيق ينتابه بسبب كل هذا، عندما يعود لن يتركه حتى يُفصح عن كل شي .. يرفع كفه ليتأمل خاتم عبدالعزيز، أو يوسف كما أخبرته هديل .. أقسم في قلبه أنه لن يتخلى عنها وعائلتها، سيفي بقسمه .. لكن ألم يصبح فردًا من العائلة؟ أليس من حقه معرفة كل الغموض الذي يلف عبدالعزيز؟ أليس هو (ابنه) كما يدّعي؟

يزفر بضيق، يعود لعمله وتساؤلات كثيرة تنمو وتكبر داخله .. أجوبتها كلها تقبع في لسان عبدالعزيز.

-

تتوقف في مكانها وهي تُعيد قراءة الورقة، تضطرب أنفاسها .. ترتجف أصابعها، كيف تركت المظروف لأيام عديدة دون أن تفتحه؟ أكانت تهرب منه دون أن تشعر؟ تبتلع ريقها مرارًا ..

تقفز بخوف وصوت خطوات تقترب، تُغلق باب غرفتها وكأنها تخشى أن تتسلل حروف الورقة لأحد غيرها، تجلس على السرير تستعيد وعيها وأنفاسها لتقرأ مجددًا، يصلها صوت أمها بعيدًا :" ريم، يمه تعالي"

تفز مجددًا بتوتر لتحمل الورقة وتطويها داخل الظرف، تدسها أسفل وسادتها.. تحاول تمالك ملامحها قبل أن تخرج لأمها، تعود مجددًا لتسحب الظرف .. تفكر بتوتر أين يمكن أن تدسه بمكان أأمن؟

لا تجد غير أسفل سريرها، تُثبته جيدًا بين جنبات السرير السفلية لتخرج متظاهرة باللامبالاة، تمحو ازرقاق وجهها .. لتقابل أمها بوجه مختلف :" هلا يمه "

تعقد حاجبيها بقلق وهي ترى ملامح أمها المترددة، تدعوها للجلوس .. لوهلة ظنّت أن أمها علمت بالطامة في ذاك الظرف، غير أنها تراجعت عن ظنونها وأمها تنطق :" خالك"

عقدت حاجبيها بضيق :" وش فيه خالي؟ "

تصمت مطولًا، تحاول جمع كلماتها .. لتنطق :" يبينا ننقل ونعيش عنده"

أطلقت شهقة بتلقائية :" وبيتنا يمه؟ ليه ما عندنا بيت؟ "

تُمسك رأسها بألم وبقلة حيلة :" يقول عشان تبقون تحت عيوني، صعب عليه يداري بيتين بينهم كل هالمسافات"

لا تتمالك نفسها، تقف بغضب :" احنا قادرين نقوم بنفسنا يمه، مو محتاجين لأحد .. وبابنا مفتوح له"

يذبل صوتها، تختنق بعبرتها .. ما زالت تحت وطأة رحيل رفيق عمرها ليفاجأها أخوها بطلبه، كانت تترقب حدوث مثل هذا الطلب .. لكن ليس وهي لم تُنه عدتها بعد ولم تجف دموعها :" يقول .. بس تنتهي العدة.. يبيك لولده"

وكأن ماءًا باردًا صُب على وجهها، تتسع عيناها بصدمة .. تضيع الكلمات منها، لا تجد غير ضحكة في غير موضعها، تبكي أمها بقهر :" يقول بعد موت أبوك زاد الحكي، كل واحد ياكلنا بلسانه .. الله لا يحللهم ولا يبيحهم .. يقولون بقت وحدها .. ومثلها ما تأتمن وحدها .. يبي يسكت الكل ويزوجك ولده.."

تغلي بقهر وما كانت تخشاه تكشّف :" ولده؟ ولده البزر اللي باقي ما خلّص الثانوي؟ "

تهز رأسها نفيًا وهي تمسح وجهها، لتتسع عيناها بصدمة :" لا تقولين محمد؟ يمه محمد تو ماله شهر من تزوج! "

تفجر اسمه بوجهها :" حمد "

تطلق ضحكة ملؤها الصدمة غير مستوعبة :" حمد اللي عياله طولي؟ يمه تكفين لا تقولين أقنعك بكلامه! "

تهز رأسها نفيًا بتعب لتسحب ابنتها وتضمها إليها :" تعبت يمه ريم .. تعبت .. أبوك راح وتركنا بمصيبتنا، ما بي أسلمك لأحد .. أدري إنك بريئة بس وش يقنع الناس؟ "

تمسح دمعها لتبكي بصمت، تطبطب على ظهر أمها .. تستعيد صوتها وقوتها :" يمه مابي أتعبك، بس أنا شريفة .. هذي مو الحياة اللي أبيها"

تبعدها عنها وقبل أن تخطو لخارج غرفة أمها :" ما بسمح لأحد يتحكم بحياتي ويشوفني مجرد عار، بس تنتهي العدة ما بسمح لأحد يبكيك مرة ثانية "

تخرج بخطى سريعة غاضبة مقهورة، كيف انقلبت حياتها رأسًا على عقب فجأة؟ ألم تكن فتاة العائلة التي تُزاح المجالس لتجلس وسطها كسيدة لها شأن؟ يحترمها الصغير والكبير، يقدّرها البعيد والقريب .. أما الآن باتت عارًا يجب أن يُوارى قبل حتى أن تنتهي عدة أمها الباكية والضعيفة ..

تدخل غرفتها، تُغلق الباب خلفها مجددًا .. نيران متأججة تحرقها، تسحب الظرف من أسفل سريرها.. تُخرجه لتتربّع جالسة وهي تُخرج هاتفها .. تكتب الرقم على شاشة هاتفها، إن بدأت حياتها وأحلامها تُهدد إذن فهي مستعدة للحرب .. ولن يوقفها شيء، كانت ابنة أبيها التي لا تُمس، وستبقى

تُحافظ على هذا الشرف وتثبت للجميع أنها ابنة موسى فقط.

•*

كُونِي طفلةً، كُونِي تراتيلاً لهذا الصمتِ
فرّي عن جذوعِ النخلِ واعْتَنِقي دَماً حُرّاً
صباحاً خافقاً بالمنِّ والسَّلْوى
وبالأطفالِ والحَلْوى
- سيد البيد لابنته هوازن ❤️

الورقة الثامنة عشرة

لا يسمع سوى صوت ضربات قلبه، واقفًا يستند بكفيه على الكرسي .. كاد يفقد الأمل باستجابتها، لو لا اتصالها ليلة الأمس لرمى كل شيء خلفه وظهر من الأبواب كرجلٍ حقيقي .. تعب من التواري كمذنب، خَسر كل شيء جرّاء هروبه هذا .. ولن يسمح بأن تُضم ريم إلى خساراته الكبرى، وها هو مجددًا يقرر الهرب .. موت موسى المفاجئ حطّم كل شيء، إن أمِن على هديل بين يدي يوسف فكيف يأمن على ريم؟ وهو الذي أفجعه مصابها قبل مصاب أبيها، ريم التي لا تعرفه .. لكنها في قلبه كابنته هديل تمامًا، منذ أرسل رسالة قصيرة بيد زوجته إلى يد ريم واضطراب حاد يفتته، لوهلة ظنّ أنها لن تستجيب له .. ثلاثة أسابيع من الانتظار الطويل..

"عبدالعزيز .."

صوت يبعث في نفسه الطمأنينة دائمًا يشد عليه، تطبطب على كتفه بابتسامة متوترة :" ارتاح، صدقني بحاول أقنعها تكلمك"

يطلق تنهيدة تعب طويلة وهو يسحبها له بذراعه، يحتضنها بخفة ويُقبل رأسها :" أنا مدري وش كنت بسوي بلاك "

تشد عليه بذات الابتسامة، يحررها لتواجه عينيه المتعبة وهي تُغلق عباءتها :" لا تنزل .. مهما طال الوقت لا تنزل، هي اشترطت أكون معها تحت وحدنا .. ما نبيها تفقد الثقة قبل لا تكلمها"

يهز رأسه إيجابًا بسرعة :" ايه ايه .. لا تخافين، بس تكفين لا تغرب شمس اليوم وأنا ما كلمتها"

تتسع ابتسامتها، تنسّل كفها من كفه .. تبتعد لتخرج، تنزل الأسفل بخطوات مرتبكة .. لا تعلم كيف تكون ريم، هل ستُشرّع أبوابها لعمها المجهول؟ أو تغلقها في وجهه .. الدقائق القصيرة التي جمعتها بها في عزاء أبيها كانت تشي بأن وراء تلك الفتاة قوةً وشموخًا كما كان يعقوب قبل أن يغيّبه اسم عبدالعزيز، تلك الدقائق القصيرة جاهدت فيها

لتُفتش عن شيء يُشركها بعبدالعزيز وهديل .. لكنها لم تكن أبدًا تشبه هديل، ابنة عمها.

تجلس على طاولة المقهى المكشوفة، تراقب بعينيها كل سواد يقترب.. هنا من الصعب ترقّب امرأة ومعرفتها، خاصة إن كانت ترتدي النقاب .. ويزداد الأمر تعقيدًا إن كانت عباءتها سوداء خالية من الألوان كما هي ريم، يُقلقها اختلافها الكبير هذا .. إن نجح عبدالعزيز بإقناعها، فهل ستتقبل كل هذا الاختلاف؟ مختلفة تمامًا عن هديل .. كما هما والديهما.

يزداد توترها وهي ترى فتاة تقترب وعيناها تتفحّص وجهها جيدًا، ترسم ابتسامة على وجهها لتزيح التوتر وهي تُلوح بكفها، تقترب الأخرى بتردد .. :" منى؟ "

تهز رأسها إيجابًا لتقف وتصافحها، تنوي الاقتراب أكثر لتسلم على وجهها غير أن ريم أسرعت بتحرير كفها لتجلس مقابلها .. لا يُمكن لمنى أن تُخمن ما إذا كانت الجالسة أمامها تعيش ذات توترها أم لا .. عيناها تبدو أكثر ثقة، تبدد إحراجها وهي تطلب القهوة .. تبتسم بود :" شلونك ريم؟ "

تقابل توددها برسمية كبيرة :" الحمدالله .. - تصمت قليلًا قبل أن تتابع - وقتي ضيّق، ما جيت أشرب قهوة .. أبي أفهم كل الطلاسم وأمشي"

تأخذ زفيرًا يُعيد تجديد الهواء بداخلها، من تجلس أمامها تصغر هديل بعامين إلا أنها تُشعرها بالربكة وكأنها تكبرها هي بعشرين عامًا .. تنوي أن تنطق غير أنها تصمت وريم تُخرج ورقة من حقيبتها وتمدّها أمامها :" أنا ما أعرفك .. بس حضرتك اقتحمتِ عزاء أبوي وتركتِ هالورقة بيدي ورحتِ بدون توضيح .. - تُشير إلى الكلمة الأخيرة (عمك يعقوب) - تدّعين إن هالورقة من عمي - تُرجع ظهرها للخلف، تهز كتفيها بهدوء - بس أنا ما عندي عم! "

تزم شفتيها، تستعيد هدوءها .. تُخرج هاتفها لتُظهر الخلفية، تمده أمام ريم بابتسامة :" عندك عم .. وعندك بنت عم، كلهم ينتظرونك "

ترفّ عينيها باهتمام جاهدت لتُخفيه وهي ترى خلفية هاتف منى، صورة (سيلفي) لفتاة باسمة بشعر مموج تُلصق خدها بخد رجلٍ وسيم يبدو في الأربعين من عمره .. تشتت عينيها بسرعة :" أنا مو جاية أشوف صور! .. توصلين رسالة من عمي المطلوب والمختفي من ثمانية وعشرين سنة يطلب

يشوفني! .. - تبتسم بسخرية - ويظن إني ممكن أستقبله وأنا ما أعرفه! حتى اسمه اختفى وما عمري سمعته! .. هذا إن كان فعلًا اللي أرسلك هو عمي"

تغمض عينيها تستجمع صبرها، تعيدها إلى ريم بضيق كبير :" عمك من ثمانية وعشرين سنة يعرف أبوك عنه، ويتواصل معه .. ويزوره..."

تغمض عينيها تحاول إخفاء صورة المرأة التي تجلس أمامها وتدّعي أنها قريبتها، تقاطعها بسرعة:" بس! .. - تحاول تمالك بكائها، تشد على كفيها بقوة - لا تحكين أكثر، أبوي عمره ما كان ظالم! .. أنتِ تكذبين، أبوي مو شريك بالجريمة "

لم تكن تعلم بأنها تبكي إلا من خلال منى التي وقفت مذهولة لتجلس بسرعة بجانبها، احتوتها بذراعيها لتنهار باكية أكثر وهي تحاول التخلص منها :" أنتِ جاية تلعبين علي .. أنا ما جيت هنا إلا عشان أتأكد إن كان .. عمي فعلًا أو لا .. عشان أعطيه نصيبه من الورث، وأبيه يتركني .. "

تشدها أكثر تحاول تهدئتها :" بس يا حبيبتي .. بس، خلاص ما بيصير إلا اللي تبينه "

تُتابع :" إن كان جاي عشان ورثه القديم.. قولي له محفوظ، أبوي حفظه له .. وقسمه من نصيب أبوي بحفظه له أنا .. بس يروح، مافيني أتعذب بذنبه! "

" عمك ما يبي دنيا، عمك يبيك أنتِ.. يبي يحفظك أنتِ، وصية أخوه يا ريم .. أبوك وصاه فيك"

ترفع رأسها بسرعة لتتصل عيناهما الباكيتان، تتابع منى بحسرة :" كلنا ندري وش صار لك، عمك ما يرضيه يتعرض لك كل لسان وهو بعيد .. أنتِ بنته يا ريم! جاي عشانك "

تنساب دموعها دون توقف، تبتعد عن منى قليلًا .. تمسح عينيها :" أبي أشوفه "

يتهلل وجهها، تقف بسرعة .. لم تكن تتوقع أن يسير الأمر بهذه السرعة، وقبل أن تبتعد تُمسك بكفها بتردد :" لا لحظة .. أبي إثبات"

تبتسم، تُخرج هاتفًا من حقيبتها .. تعبث به قليلًا قبل أن تمده لريم التي ذبل وجهها فجأة وهي ترى أباها برفقة ذات الرجل الأربعيني متجاورين، صورة أخرى .. يجلسان وخلفهما الشاطئ بإحدى الجزر الأوروبية، تتلوها صور أكثر .. كلها تجمع أباها ومن يدّعي أنه عمها، صور قديمة وجديدة .. في مختلف الأماكن، تتأمل ملامحه .. ينطق الدم بأخوتهما،

وإن كانا لا يشبهان بعضهما كثيرًا إلا أن ملامح الأخوة تطفح منهما، تفتح لها منى الرسائل .. تقرأ أحاديثًا روتينية وودية تجمع صاحب الهاتف برقم أبيها، يسأل أبوها مرة عن أحوال فتاة تُدعى هديل .. ليجيب الآخر بسؤال مماثل (وكيفها ريم؟) تُعيد الهاتف إلى منى وصداع شديد يداهمها، وبصوت مثقل :" قولي له ينزل بشوفه، لو تأكدت بطلع "

تتركها منى سريعًا، تُصارع بكاءها .. لماذا كذب أبوها؟ لماذا حمّل نفسه عناء ذنب أخيه؟ شريك في الجرم كما يدّعي ناصر، تغمض عينيها بتعب وآخر شخص تتمنى أن يزور مخيلتها الآن هو ناصر .. أشركها والدها بالذنب الآن دون أن يعلم.

ترفع رأسها وشعور غريب يراودها، يقف بعيدًا وزوجته منى بجانبه تُشير بكفها لها.. تقف باضطراب، تراه يومئ لها يُشجعها على الاقتراب .. تقترب، تزيد ضربات قلبها .. قبل ليلة كانت وحيدة، عاش والدها وحيدًا دون أخ يُسنده، كانت دائمًا تشعر بالغيرة وهي صغيرة عندما تسمع قصص بنات خالاتها عن أعمامهن .. تمنّت لو تتلقى عيدية صباح العيد من (عم) يقف بجوار والدها .. جميع أمنياتها تراها تتجسد في ذاك الجسد الضئيل الواقف يرقبها.

تقف أمامه، تضيع كلماتها وهي تراه يبدو أشد ضعفًا من أبيها .. على أن الآخر يكبره بسنين، كمام يُغطي نصف وجهه، خالٍ من الشعر .. لا يشبه تلك الصور، ترفع رأسها باضطراب على صوته :" قرّبي يا ريم .. سلّمي على عمك"

كادت تبكي وصوت أبيها يعود مجددًا للحياة، صوته وحده يشبه صوت أبيها .. لو لاه لظننت أن منى تخدعها بتلك الصور وأن الواقف أمامها شخص آخر، شتت أنظارها للأسفل .. رفعت رأسها بسرعة على وقع كفه الدافئة تسحب كفها لتقربها أكثر ويقبل رأسها.

تُبعد نفسها سريعًا وتتحرر من كفه، تشعر بكف منى على ظهرها تدعوها للصعود .. يعود يعقوب ليُمسك بكفها، تدخل معهما المصعد ونفسها تسيّرها .. لا تعي ماذا تفعل، دقائق تمر على قلبها كالحلم .. لا يعتق كفها إلا بعدما أجلسها على مقعد الغرفة .. تطلب منهما ترك الباب دون إغلاقه، تبتعد عنه بسرعة لتجلس على الطرف الآخر، يرتجف صوتها :" وين .. كنت؟ "

تبدأ حديثها بسؤال ضئيل يصف ضياعها، تهتز عيناه بدمع جاهد حبسه وهو يرى ابنة أخيه أخيرًا .. لكنها تخشاه، أين كنت؟ سؤال كبير أكبر من أن يجد له جوابًا .. ينطق

قلبه (كنت ضايع) تاهت نفسي بحثًا عن يوسف، أضعت كل كواكبي وأنا أرقب الرؤيا .. يُزيح كمامه عن وجهه، يمسح وجهه ليطرد دمعه، يتمالك نفسه :" كنت بعيد .. هارب، وجيت أصحح خطأي .. ولقيتك وحدك، ووحدتك والله ما تطاوع قلبي .. - يُنزل رأسه ليسمح لدموعه بالتحرر، تداهمه نوبة سُعال .. يشعر بكفيّ منى التي تشد على كتفه، تُلقيه الماء .. يُتابع - أنتِ يا ريم جزء مني، أنتِ مثل هديل بنتي .. اللي يوجعك يوجعني أضعاف، وبدمي أفديك ولا يمسّك أذى "

تبكي معه، لصوته .. صوت أبيها، تتمنّى ألا يتوقف عن الحديث .. أن يُغيثها أكثر بصوت أبيها، يُشعرها بوجوده .. يعود مجددًا :" أنا يا ريم ما بتركك، أدري باللي تعرضتِ له .. وأدري بنوايا الناس، باخذك معي "

ترفع رأسها بسرعة، تستفيق من سكرة صوته .. تهمس بلا استيعاب :" مستحيل"

يقف ليقترب منها، يكسر الخطوات بينهما ليجلس بجوارها .. لا تُمانع، يشد على ذراعها :" شلون آمن عليك؟ "

تقاطعه بسرعة :" شلون تاخذني؟ والناس؟ وأمي؟ وخالي؟ "

ينوي إكمال حديثه، غير أنها تعود لمقاطعته بانفعال :" الكل يدوّر زلتي، شلون تاخذني معك؟ ومافي أحد يعرف عنك؟ .. لو عرفوا القضاء ينتظرك! لو اقتصوا منك بتروح وتتركني .. ولو ماحد يعرف عنك ما أقدر أروح، خالي ينتظر تنتهي عدة أمي ويزوجني ولده .. الحين الكل يحتريني ليه تأخرت! الكل يترقب أي زلة مني .. - تأخذ نفسًا طويلًا لتتمكّن من إكمال حديثها - طلعاتي محسوبة! ما يشوفوني غير بنت .. - تبتلع غصتها لتُخرجها ثقيلة على لسانها وملامحها تذبل - شارع! "

تُثبت عينيها الباكية بعينيه الدامعة، تهز رأسها بقلة حيلة لتنهار باكية :" ايه بنت شارع، يا .. مدري حتى وش أسميك، عمي "

تُلقي كلمتها الأخيرة لتلوذ إلى صدره .. تنكّب عليه تبكي، يمسح على ظهرها بألم .. تبكي منى لبكائها، تقتله اهتزازات جسدها .. ماذا لو كان بجوارها كيعقوب؟ هل سيتجرأ عليها أحد؟ اسم عبدالعزيز الذي أنقذه لسنين طويلة يحرقه الآن، يكتوي بناره .. ذنب نجد هذا، سيتفرّغ للتخلص منه، لكن ليس الآن .. علّ الله يمهله حتى يحفظ ابنتيه (هديل وريم) وبعدها يُقسم أنه لن يتلصص من العدل، سيواجه

ذنوبه ليتطهّر منها .. يردد بداخله وهو يشدها إليه (يارب امهلني، امهلني أكثر .. اعطني القوة لأقويها ثم اسلبها مني)

••

بعد مرور أربعة أشهر

••

تتزيّن الأسواق بالأهلّة، فوانيس تتعلق بالأسقف .. أرفف تمتلئ بأصناف لا تُرى إلا قُبيل الشهر الكريم وازدحام ليس له مثيل، أصوات الباعة تعلو .. تتميز بهم الأسواق الشعبية.

يبتسم مشيرًا لامرأة كبيرة تأخذ مكانًا واسعًا ببضاعتها وتجمهر كبير حولها :" تشوفين هناك؟ "

تعقد حاجبيها باستغراب :" وش فيه؟ "

يبتسم وهو يتعداها لتلحق به بعجلاتها :" هذي أم عبدالرحمن، صاحبة المعمول الأصفر! "

تنطلق منها ضحكة مُجبرة وهي تتقدم لها :" يالله! أكثر شي فقدته بالرياض! "

يرفع حاجبه مستنكرًا بسرعة :" كنت أرسل لك مع ثامر ولا يوسف كل سنة قبل رمضان، لا يكونون يلهطونه وأنا مدري! "

تضحك بحبور لكلمته، تهز رأسها نفيًا :" لا تطمّن كان يوصلني .. وكانوا يسمّونك بالاسم، بس فقدت أجواء السوق وأنا أروح معكم العصرية وناخذه "

يبتسم للذكريات القديمة، قُبيل رمضان بأيام يصحبهم جميعًا والده لذات المكان .. يتهافتون حول أم عبدالرحمن صاحبة المعمول، كلٌّ منهم يأخذ نصيبه .. يقتربان أكثر، تنتعش رئتها برائحة المعمول الطازج، يشتري قَدرًا كبيرًا يكفي حاجتهم خلال أيام رمضان، يطلب أكثر :" نصيب يوسف .. لا ننساه - يعود متذكرًا - ونصيب خالي بعد"

يخرجان من الازدحام الذي يُحيط بأم عبدالرحمن، يتلفت يمينًا ويسارًا :" وينه أبوي؟ "

تُشير لركن قهوة عربية صغير على جانب الطريق :" هناك.. معه واحد"

تزيد عُقدة حاجبه كلما اقترب محاولًا تذكّر وجه الرجل الذي يقف بجوار أبيه، كل من يعرف أباه لا بد أنه يعرفه، كيف لا وهو الذي يرافق والده في كل مجالسه منذ كان

صغيرًا .. رجلٌ مألوف يتحدث بودية لأبيه وبجواره فتاة مراهقة تكشف وجهها.

توقف يمامة عربتها بمسافة قصيرة عنهم، تنتابها ضحكة وهي ترى ابنة الرجل لا تتزحزح من مكانها بجوار أبيها .. لا بد أنها تجهل أمرًا بديهيًا بأن تبتعد قليلًا عن الرجال.

يقترب نجد وسرعان ما انفكّت عقدة حاجبيه لتحلّ محلها الدهشة والابتسامة الواسعة وهو يقترب أكثر :" أستاذ خالد؟؟؟"

يلتفت خالد ليرى نجد، يضحك بدهشة وهو يتلقّى نجد ويسلّمان على بعضهما .. :" انت شلون كبرت فجأة! "

يبتعد عنه قليلًا ليضحك ياسر وهو يضرب كتف نجد بخفة :" اي والله كبر فجأة! وزواجه بعد العيد "

يرفع حاجبه بإعجاب شديد :" ايه علّمني ثامر! "

تنعقد حاجبا ياسر باهتمام :" تتواصل مع ثامر للحين؟ "

يلتفت خالد ليومئ بعينيه لرغد الواقفة بجانبه تستمع بإنصات لحديثهم، يطلب منها الابتعاد قليلًا عن الرجال .. وكأنها للتو استوعبت، تبتعد بسرعة .. نسيت نفسها وهي تسمع حديث ياسر، متلهفة هي لكل ما يخص ثامر .. وكأنها تُثبت وجودها في حياته.

يعود مجددًا بابتسامة صادقة ذات معنى لياسر :" قلت لك من زمان .. ثامر ولدي أنا! "

تلمع عينا ياسر، الود الذي يجمع ابن أخيه بأستاذه وظنّه انقطع منذ سنين طويلة ما زال قائمًا يشدهما ببعضهما .. لا ينكر أنه قديمًا كان يغبط خالد لتمتّعه بعلاقة متينة مع طفل عنيد ومراهق طائش، تعِب وهو يحاول فهمه .. ليأتي خالد بكل بساطة وينتشله من بين يديه، يقطع اتصال عينيهما ضحكة نجد المرحة :" أوه هذا زمان! الحين ثامر أطول مني ومنك"

يضحك باندماج :" اي والله، أنا قايل له من زمان طوله ذا على نصيب قصر عقله "

يعود صوت ياسر بضيق :" الله يسامحه، ما علّمني بخروجك بالسلامة! ما ظنّيت إن الوصل بينكم قايم للحين"

يبتسم :" وصلنا ما يقطعه سجن، سنين عمري اللي قضيتها بالسجن كلها كان ثامر وحده يجيني كل أسبوع .. - يطبطب على كتف ياسر - تربيتك يابو يوسف"

على بعد خطوات منهم، تركت خالها مع ياسر ونجد لتنجذب نحو تلك الفتاة الجالسة على مقعدها قُرب مقاعد

حجرية، تقترب لتجلس على المقعد .. ترسم ابتسامة مُشرقة :" يمامة صح؟ "

تتسع عيناها بدهشة، كيف لهذه الغريبة أن تعرفها؟ .. ما أدركته من صوت نجد أن من يقف بجوار ياسر هو (أستاذ خالد) الأستاذ الذي تردد اسمه كثيرًا في منزلهم على لسان ثامر، وأحيانًا على لسان نجد ويوسف .. اسم أصبح لصيقًا بذاكرتها ويرتبط ارتباطًا وثيقًا بثامر، ما أن يُذكر (أستاذ خالد) تتراءى لها صورة رجل طويل مع ثامر مباشرة ...! ولكن، من هذه الصغيرة التي تعرف اسمها؟ تعقد حاجبيها :" عفوًا أعرفك؟ "

للحظة استوعبت الكارثة التي تفوّهت بها، كيف لها أن تُبرر معرفتها بها؟ لا تعلم تلك المسكينة أنها تُدرك أدق الأشياء وأخصها بعائلتهم .. لا تعلم بأنها قد تسلّلت لمرتين منزلهم، مرة برفقة ثامر في ليلة مظلمة .. ومرة اندّست في غرفة ثامر لتنام على سريره، شتّت عينيها بسرعة تحاول البحث عن مخرج، لتنطق بسرعة :" لا! .. بس أذكرك من سوالف ثامر"

تُتابع بهدوء بعدما رأت ازدياد دهشة يمامة حتى كادت تُخرج عينيها من محجرهما :" أستاذ خالد خالي، كان ثامر

يجي بيتنا وأنا صغيرة .. ويحكي لي عنك - تزيد ابتسامتها لتبدد شكوك يمامة - طبعًا هذا زمان، قبل سنين طويلة"

لا تستبعد أن تكون صادقة، طفلة صغيرة تسمع قصصًا عن فتاة (مُقعدة) لا بد أن صورتها ستبقى معلقة بذاكرتها .. تستطيع تمييزها من بين مئات النساء، تبتسم بهدوء :" كان ثامر ما يسولف إلا عن خالك .. - تمد كفها لتصافحها - كم عمرك بالمناسبة؟ "

كادت تخرج منها (أصغر منك بعام) إلا أنها استدركت نفسها :" أربعة وعشرين"

أخذتها الدهشة أكثر، لا بد أن المراهقة الصغيرة تتلاعب بها .. تبدو طالبة في المرحلة الثانوية أو أصغر، تتدارك نفسها .. لتبتسم :" ما شاء الله ما يبيّن عليك، أكيد إنك متخرجة الحين .. بأي تخصص؟ "

لا تُخفي ضيقها، تزفر بشدة وهي تشتت أنظارها :" وقفت دراسة "

شتمت نفسها بداخلها لطرحها سؤالًا كهذا، تحاول إصلاح ما أفسدته بابتسامة ظهرت من عينيها :" مو مشكلة، عندك وقت .. أنا ما درست إلا هالسنة - تُشير لقدميها باستسلام - والسبب معروف، أهم شي ما تستلمين"

تُعلق أنظارها بعيني يمامة، تود الاعتذار لها عن صورة نمطيّة رسمتها بمخيلتها ليمامة .. فتاة مدللة، تمتلك كل شيء.. لم تكن هذه الصورة إلا بسبب حديث ثامر عنها، لا يتوانى عن إظهار حبه لها .. وصفها بالفتاة الجميلة، الذكية، من إن تطلب شيئًا يهمّ الجميع لأجلها ..

تعلق عينيها بعيني رغد ولّد بداخلها شعورًا غريبًا، لحظة .. هذا وجه مألوف، ملامح وجهها .. زفرتها، مألوفة جدًا .. تكاد تجزم أنها تعرفها، تعقد حاجبيها متمعنة في ملامحها :" لحظة .. أنا شفتك قبل؟ أحس وجهك مألوف"

تتوتر، تلحظ يمامة توترها .. تبتسم بارتباك ملحوظ وهي تعبث بعباءتها لتعيد فتحها وإغلاقها مجددًا :" لا! .. يمكن مشبهة علي"

تتأكد شكوكها، هذه ليست فتاة عابرة .. أين رأتها؟ يقطع حبل شكوكها صوتٌ رجولي على بُعد مسافة منهما :" رغد .. يلله مشينا"

تقف بسرعة تحمل حقيبتها، وقبل أن تولّي هاربة تلتفت مبتسمة بارتباك :" مع السلامة يمامة "

تتركها خلفها وصدى اسمها يتردد في ذاكرتها (رغد)، ملامحٌ مألوفة .. ورغد، لا مجال للشك .. ترفع رأسها على صوت

ضحكات ياسر ونجد المبتهجين برؤية خالد، لا تعي ما يقولانه .. تحاول تحليل تلك الملامح وذاك الصوت المميز، تقطع السيارة طريقها إلى المنزل واسم رغد يرنّ بداخلها حتى انفردت وحيدة في منزلهم، تشهق فجأة ولوحة بعيدة معلّقة على جدار غرفة ثامر تتراءى لها .. تسيّر كرسيها دون شعور إلى غرفة ثامر، تفتحها ببطء .. ترتفع عيناها إلى الجدار تبحث عن مرادها، ترفّ عينها بحسرة واللوحة تقابلها .. توقيعٌ صغير أسفل دقن ثامر يحمل اسم (رغد) بتاريخ لا يتجاوز الأشهر ..

تقترب أكثر، يرتفع رأسها أكثر مع اقترابها .. نعم، تلك المتوترة اسمها رغد .. رغد ذاتها التي كانت تجلس قبل عدة أشهر بجانب ثامر لمدة أسبوع كامل في المعرض، كان يدّعي عدم معرفته بها .. رسامة صغيرة تحجز ركنًا بجواره، تحمل له القهوة تارةً ويحمل لها وجبة طعام تارة أخرى .. لم تُعر اهتمامًا لها ذاك الوقت، رغد التي تعيش مع خالها .. أستاذه المقرب، لوحة مُفضلة يُعلقها أمام سريره .. تحمل اسم رغد.

تدور عيناها حول الجدار بجانبها، يحمل عشرات اللوحات والأوراق المرسومة بشتى الأدوات.. تقترب أكثر،

معظمها لوحات وأوراق لثامر.. والكثير من لوحات (خالد)، ورسوم صغيرة بقلم الرصاص تحمل اسم (رغد) مجددًا بتواريخ مختلفة، قبل سنتين .. قبل سبعة، عشرة سنين .. رغد، في كل مكان .. مليئة غرفته باسم رغد، كما هي حياته ..

تغمض عينيها بألم يُفتت رأسها، كانت شكوكها صحيحة .. لم يكذب حدسها قبلًا، تجر كرسيها بهمٍ كبير يُثقل على صدرها خارج الغرفة، تلوذ بغرفتها .. إن كانت تعني له شيئًا، ويؤكد هذا الشرط كل (رغد) في غرفته فلماذا اختار سمر؟ لماذا جعلها تكذب وهي لا تعلم .. أمضت ثلاثة أشهر وهي تُقنع سمر بثامر، تصف عيوبه .. لكنها تُمطره مدحًا بعد ذلك، وبعد كل هذا العناء تصل موافقتها أخيرًا .. وبعد كل هذا الفرح يجمعها سوق شعبي باسم (رغد)، لا زالت ترى فرحته الغامرة عندما علِم بموافقة سمر.. هل كان يكذب؟ هل رغد تمثّل له شيئًا؟ أم أنها مجرد صديقة؟ ومنذ متى والصداقات مُعترف بها؟

تتحرر من مقعدها لتلوذ إلى سريرها، تُغلق أُذنيها بقوة علّ رغد تعتقها .. بعد يومين سيُكتب عقدهما، أول يومٍ في

الشهر الكريم .. لا مجال لتحطيم كل شيء، آمال سمر .. وفرحة ثامر.

-

يطلق صوته بحسرة :" نوو! "

تضحك بمرح وهي تدفعه من ظهره :" يالله عاد! بس لفة صغيرة ونوصل "

يُحاول تثبيت قدميه حتى لا تتمكّن من دفعه :" بموت فيها وأنتِ تقولين صغيرة! "

تُبعد يديها التي كانت تسند ظهره ليختلّ توازنه، تضحك وهي تتقدمه .. يتلقف ذراعها بسرعة وتلقائية كي لا يسقط لتصطدم به، يأسر عضديها بكفيه بقوة يمنعها من الإمساك به :" قلتِ لفة صغيرة يعني مشي خطوتين ما يأثر"

تحاول التحرر منه لكنه يزيد من تمسّكه وهو يسحبها معه لداخل سور منزلهم الصغير، تضحك بخفة وهو يمرر أنفه على وجهها ببطء :" لا تحسبني بعتقك بحركاتك ذي، خلاص ما عاد صارت تمشي علي"

تتسع ابتسامته، خطته للتملص من جولاتها بالسيارة من خلال توزيع قبلاته لم تعد تُجدي نفعًا .. يُقبّل خدها الناعم ليرتفع بقبلته لأسفل عينها، يشعر بكفها تحاول دفعه قليلًا عنها .. لا يتزحزح، يرفع حاجبيه متظاهرًا بالجدية :" هذا مرسول سماءك يقول ما يصير تبعدين يوسف! .. اسمعي كلامه! "

تُمثل الدهشة على ملامحها لتنطق :" قول له ما يصير! أبوها وأمها بيشوفونهم .. "

يماثلها بالملامح :" يا نصّابة! أبوك وأمك طلعوا قبل ساعة! "

تلّقيه خدها الآخر وابتسامتها تتسع :" يالله عشان المرسول بس! "

لا تُنهي حروفها إلا وشفتيه تطبع قبلة صغيرة على خدها، تواجهه بسرعة :" مرسول سماءك يقول بسرعة اطلع معها السيارة! يالله اسمع كلامه"

يصمت قليلًا بملامح جامدة، يرفع حاجبه مستنكرًا :" مرسول سماء؟ وش هالسوالف الغبية اللي تصدقينها؟ "

تنطلق ضحكتها بقوة لخبثه، يضحك معها وهو يحررها أخيرًا .. تشد على كفه لتسحبه مجددًا للسيارة :" يالله عاد، كل مرة تهرب بعدين تركب ويمشي الوضع طبيعي! "

لا يقاومها، يمشي مسيرًا معها ليركبا السيارة .. يلبس حزام الأمان بجانبها وتذمره لا يتوقف، ما أن تسير خطوة يصرخ عليها :" انتبهي انتبهي "

تلتفت عليه تنوي الحديث غير أن صوته يخترقها :" لا تبعدين عينك عن الطريق "

تعيد أنظارها بسرعة على الطريق وابتسامتها تتسع :" بس تخيل إن اللي جنبك أبوك ويهون كل شي"

يخفت صوته :" بس أنتِ هديل مو أبوي"

تتوقف السيارة أمام مجمع صغير، تُصفق بحرارة :" وااااو اليوم إنجاز جديد! "

يتحرر من الحزام ليفتح الباب بسرعة، يخرج مستنشقًا الهواء بحرية :" يالله اطلعي "

تخرج معه، تُشبك كفها بكفه :" متحمسة لرمضان هالسنة، بشوف شلون رمضان وأنت معي"

يُنزل أنظاره لها، يتأمّل ملامحها المتحمسة .. ملامح أعادت تشكيله، ملأت حياته بحياة جديدة.. وحدها من شدّت

عليه لتواجه خوفه معه، يخاف ركوب السيارات .. وإن كانت معه، غير أن شعورًا يُحلق به بعيدًا يطغى على الخوف، يهوى جولاتها هذه التي ابتدأتها منذ ثلاثة أشهر .. وإن كان يخافها، يطلق تنهيدة صغيرة :" ما أحس رمضان له جو هنا "

ترقّ ملامحها :" تفتقد أهلك أكيد "

يُعيد أنظاره لها، يبتسم .. :" بس أنتِ أهلي"

•*

يا وارد الماء علَّ المطايا
وصبّ لنا وطنًا في عيون الصبايا
فما زال في الغيب منتجع للشقاء
وفي الريح من تعب الراحلين بقايا
يا أرضُ كفِّي دماً مُشرَباً بالثآليلِ
يا نَخلُ أَدْرِكْ بنا أول الليلِ
ها نحن في كبدِ التيهِ نَقْضِي النوافلَ
ها نحن نكتبُ تحتَ الثرى
مطراً وقوافلَ

- سيد البيد

*•

الورقة التاسعة عشرة

يراقب بكثب ساعة هاتفه، تمر الثواني بطيئة .. يمسك بكف قارورة ماء باردة، وبالكف الأخرى عصير برتقال طازج، ما أن أطلق هاتفه صوت الآذان يبتلع الماء دفعة واحدة .. يُبعد القارورة على صوت ضحكة خافتة تقترب منه:" شوي شوي، قدامك خمس ساعات تشرب فيها"

تتسع ابتسامته وهو يسحب قارورة أخرى ويُلقيها عبدالعزيز:" إن شاء الله لا تعودت مثلك على صيام هالساعات كلها أسمع نصيحتك عمي "

يُلقي عبدالعزيز عصير البرتقال ليقطّب حاجبيه بضيق، يتابع يوسف :" وصايا عمتي! "

يأخذ العصير مضطرًا، يتخذان غرفة صغيرة بزاوية المستشفى مصلى لهما ليصليا المغرب..يسيران إلى المقاعد الخارجية للمستشفى ليرتشف عبدالعزيز عصيره .. يُخرج

من حقيبته حافظة طعام صغيرة ليفتحها، يستخرج قطعة جزر ليُلقيها ليوسف :" تعوّد على كل شي صحي من الحين، لا تقول لا كبرت بضطر له"

يرتشف قهوته وابتسامته تتسع، يعقد حاجبيه عبدالعزيز :" لا تضحك، اسمع نصيحتي "

يقاطعه بذات الابتسامة :" ضحكت لأنك ذكرتني بأبوي "

تتجمّد يده الممسكة بالملعقة في منتصف طريقها إلى فمه للحظة، تلمع عيناه لمعة يجهلها يوسف .. يتمالك صوته متظاهرًا بأن كلمته لم تمسّ وجدانه بشيء :" أنا مو من هالنوع من الآباء اللي يعيد ويكرر بموال الصحة، كنت طول عمري مهمل صحتي .. مدمن دخان، بس - يشير لكمامه المعلق على رقبته- شوفة عينك، عرفت قيمة الصحة الحين "

يهز رأسه بضحكة خفيفة :" وهذا اللي ذكّرني بأبوي!"

يعقد حاجبيه باهتمام :" ليه؟ أبوك وش علته؟ "

" مرض هالزمان، ضغط أساسي .. صابه قبل سنين طويلة وتحوّل لداء مزمن"

ذكريات قديمة تجتاحه وهو يرهف السمع لحديث يوسف متذكرًا بضحكة تعصّب والده لفريقه المفضل،

وكيف تخلّى بصعوبة عن متابعة كرة القدم كي يتجنّب ضغوطًا تؤثر على ارتفاع ضغط دمه:" كان متعصب نصراوي، وبعد مرضه حاول يتجنب الكورة ويجنبنا معه.. وانت عمي، كنت تشجع أي فريق؟ "

تعود ملامحه لطبيعتها بعدما هيّجها يوسف بحديثه، يبتسم :" أنا بجهة والرياضة بجهة .. يوم كنت صغير كنت أحس إني ناقص وماعندي شغف لفريق معين - يضحك بخفة وهو يعيد ملعقته ليتجنب الأكل- كان أخوي الله يرحمه ما يفوّت مباراة للهلال، ليلة الديربي بين النصر والهلال تحصل كوارث تستمر لشهر بالمدرسة والحارة .. عاد وقتها أضطر أسوي روحي هلالي عشان أخوي ما يبقى بخط الدفاع وحده ضد اثنين من أعز أخويانا نصراويين"

يهز رأسه باسمًا :" للحين نفس الوضع، المقاهي تقلب مجزرة ليلتها"

يأخذ نفسًا عميقًا ليطلقه بتنهيدة أطول، يتكتف وعيناه لا تنفك عن يوسف :" تعرف يا ولدي ؟ كل ليلة أشكر الله اللي سخّرك بطريقي.. عوضني الله بك، أحتاج أسولف مع أحد بأيام قديمة .. هديل وأمها ما عاشوا هناك، ما يستوعبون نص حياتي القديمة"

تلين ملامحه بابتسامته المزهوة :" كلنا نكمل بعض عمي، انت .. وهديل .. وعمتي، خلقتو مني شخص جديد - يرتشف قهوته بذات الابتسامة رافعًا أحد حاجبيه- ممكن لهالشي أنسى وأتقاضى عن أمور كثيرة"

تنعقد حاجباه باستغراب، يترك قهوته ليفرغ مافي نفسه بجدية :" عمي .. أنا أجهل حياتك، أجهل كل الأمور اللي اضطرتك تكون بهالحال .. اخترت هديل لأني أبيها فعلًا، اخترت أكون معك لأني فعلًا أبي أكون واقف جنبك .. على إني أعرف مشكلة كبيرة تسببت فيها لنفسك، مشكلة تسببت بهجرك لبلدك وتظن بنتك إن سبب هالانفصال عن كل ماضيك مشاكل عائلية وصلت للقطيعة، وفجأة ترجع من السفر وتقول بنت عمك بتجيك! أعرف إن أهلي مو مقتنعين بزواج يجهلونه، حطيتهم قدام الأمر الواقع لأني أدري إنسان مثلي عانى من حالات نفسية واكتئاب طويل أهله ما بيحيلون بينه واختياراته.. يا عمي أنا ما يهمني ماضيك، ولا مشاكلك.. كل اللي أبيه أحافظ على وجودكم حولي .. - تلين ملامحه برجاء كبير - بس ساعدني على هالشي، ساعدني أحافظ على سبيي الوحيد للحياة! "

يستمع لتعريض يوسف بوجع يقبض صدره، ليس مستعدًا للتخلي عن يوسف، يدرك تمامًا ما يرمي إليه .. يطلب منه توضيحًا شاملًا، لكن ما يطلبه أقوى منهما .. موقنٌ بأنانيته، أن يزجّ يوسف في حياة لا ذنب له فيها .. لكن كيف له أن يقنع يوسف بحاجته له؟ يرى في وجهه انعكاسًا له، يكفيه أن يحمل اسم (يوسف)، يشعر بأن الله أرسله ليعوّض عن أمنية مستحيلة بأن يكون له ابن يحمل اسم يوسف كي لا يغيب هذا الاسم الفاتن عن حياته، هل كان يعي ياسر هذا عندما سمّاه بيوسف؟ أبعد كل شيء رقّ قلبه وآثر أن يُبقي شيئًا يُداوي وجعه؟ منذ اللحظة الأولى أدرك أن يوسف لا يشبه والده في شيء .. إطلاقًا، يوسف الصامت، المكتئب، المنزوي على نفسه .. ليس إلا انعكاسًا له هو وليس لياسر.

يُغمض عينيه ليهز رأسه بهدوء :" بتعرف كل شي، كل شي يا يوسف .. بس بوقته"

يومئ إليه بضيق يغلبه الثقة :" أنا معاك يا عمي، بأي شي أنا معك .. وش ما كان اللي ينتظرك"

تضيع عيناه حولهما، وكلمة يوسف الأخيرة ترنّ فيه.. يؤكد له علمه بأن هناك ما يخشاه يعقوب، حقيقة لا

يمكنه إنكارها .. ويُلقيه في جحيم الغيب، هل سيكون معه كما يعد؟ في كل شيء ينتظره؟

-

يتهادى صوتُ الآذان ليروي ظمأ الصائمين ناشرًا السكينة والطمأنينة إلا عن قلبها الذي جزع لصوته، يُذكرها باقتراب الموعد .. موعد مواجهتها الأولى لطوفان الحياة الذي ابتلعها ولم يبق منها شيئًا، مواجهة لا تحتمل إلا وجهين، خسارة أو فوز .. ما إن أعلن المؤذن دخول وقت المغرب تتجمّد في مكانها .. يتصبب العرق منها، تزدرد ريقها مرارًا .. لا هي ليست قوية، ماذا لو لم ينجح كل هذا؟ ماذا لو فشلت كل مخططاتهما لأشهر؟

-" رغد وينك؟ تعالي افطري واتركي اللي بيدك"

تشهق بتلقائية على صوته المنادي قاطعًا حبل أفكارها المشدود، يُذكرها به .. كربتها الكُبرى، ومصيبتها الأعظم، تترك ما بيدها سريعًا لتغسل وجهها المحمّر والمتصبب عرقًا

.. تأخذ نفسًا عميقًا، تخرج من المطبخ لتتجه إلى الصالة حيث يجلس، يتناول التمرة والأخرى ..

تزم شفتيها على منظره، تقترب لتجلس مقابله .. تشتت أنظارها عنه لحبات التمر، تتناول فطورها بهدوء شديد وعقل يضج بالصراخ، يأتي صوته باسمًا :" وش هالحماس عندك؟ أول مرة أشوفك تجلسين بالمطبخ هالكثر"

تبتسم بتوتر دون أن ترفع أنظارها إليه :" قلت أبيك تجرب هالمرة طبخي "

تسمع ضحكته الخفيفة :" لا تتعبين نفسك، تعودت على هالأكل - يُقرب الشوربة إليها - كُلي، جسمك يحتاج يقوى"

ترفّ رموشها بسرعة لتمنع حشرجة دموعها المفاجئة، ترتشف الشوربة ببطء دون أن تنطق .. ترفع رأسها إليه على وقوفه وهو يقول :" عندي شغلة أخلصها بعد الصلاة .. لا تنتظريني، يمكن ما أجي إلا بعد السحور، بتسحر مع ثامر"

يتركها في مكانها غير قادرة على ابتلاع اللقمة.. تحاول لملمة شتاتها، تقف فجأة بسرعة وهي تسمع صوت انفتاح الباب :" خالي انتظر! "

تهرول مسرعة إلى المطبخ لتأخذ علبة الطعام وتعود إليه :" خذ هالبيتزا والسمبوسة معك، افطر عليها بعد ما تصلي المغرب"

تشرق ابتسامته وهو يحمل الطبق ويتفقده بإعجاب شديد :" الله الله! من متى تعرفين تسوين كل ذا؟ "

يمتلئ وجهها بضحكة تعصر عينيها، يُتابع :" متأكد ما بذوق شي بلذته دامه من يدك"

يعود مجددًا إلى الباب المفتوح، وقبل أن يبتعد لا تتمالك نفسها .. تقترب لتطبع على كتفه قبلة سريعة :" مع السلامة .. خالي"

بذات ابتسامته يرحل، يُغلق الباب خلفه .. مخلّفًا خلفه جحيم قاتل يقبض على صدرها، تجلس على الأرض حيث كان يقف قبل قليل، تتكئ على الباب.. تضمّ ركبتيها لها لتدفن وجهها بها، رحل .. حمل معه رغد التي يعرفها على كتفيه بقبلتها تلك، رغد لم تعد موجودة .. منذ زمن ماتت، ولا أحد يعي هذا غير ثامر، تزيد من احتوائها لنفسها ونَفَسها يثقل.. تحاول البكاء غير أنه يكتمها، ستولّد رغدًا جديدة، رغد لا يعرفها أحد سواها .. ستخذله؟ لا يهم .. فقد خذلها كثيرًا، سيبكيها كثيرًا؟ .. لا بأس فقد بكته حتى

جفّت، ستُحطم حياته؟ وهو الذي يحبها وتحبه.. لم تعرف معنى الأبوة، لكنه حاول أن يرسم لها نفسه كأب مضحٍ .. لكنه فشل، يدرك هو هذا قبل أن تدركه هي، لا بأس .. قد اعتاد على البؤس، يستطيع تدبر أمره .. سيبكي كثيرًا، قد يُجن .. لكنه سيتفهّم، سيعذرها لبحثها عن الحياة .. إن كان يحبها حقًا سيعذرها..

تقف بتثاقل، لا مزيد من الوقت .. صوت عبدالله يعود مجددًا لأذنها (لا تستسلمين لحقك بالحياة.. بتاخذين نصيبك منها .. يكفي عمرك اللي انهضم، لا تسمحي لأحد ينهش الباقي .. قدامك الحياة، قدامك مستقبل، كل شي جاهز .. كل شي مرتب.. بس لا تستلمين .. ما ترتكبين خطأ)

إن نجحت ستكون مَدينة له بكل عُمرها، وإن فشلت .. لا يهم، فقد اعتادت على الفشل، يكفيها شرف المحاولة لتقويم حياتها المعوجة، يصلها صوت رنين هاتفها .. برودة قارصة تجتاحها، تشعر بأن الدنيا تضيع من يدها .. تمسح وجهها لترفع هاتفها، يأتيها صوته القوي :" راح بعيد، مستعدة؟ "

تزم شفتيها لتطلق كلمتها :" مستعدة "

يغيب عنها توتر صوته :" خمس دقايق وانزلي"

تغلق الهاتف لتأخذ أنفاسًا متلاحقة، ليس وقت الوهن .. تهمّ إلى غرفتها برجفة يديها وعجلة قدميها، ترتدي عباءتها .. تحمل حقيبتها المركونة على مكتبها الصغير، تدور عيناها لتتصفّح مأواها للمرة الأخيرة .. غرفةٌ باردة، تشبهها كثيرًا .. تحاول استرجاع ذكريات تُحبب إليها هذه الغرفة كي تودعها بشكل يليق بها لكن لا تجد سوى السواد الحالك.

تستعيد نفسها لتخطو بسرعة هاربة من المكان الموحش، تتوقف أقدامها فجأة وعلبةٌ زجاجية صغيرة تناديها .. تذبل ملامحها بحنين، علبة مليئة بالصدف البحري .. في رحلتها الوحيدة إلى البحر برفقة ثامر جمعتها، يوم صافحتها السعادة للمرة الأولى والأخيرة، تفتحها لتستخرج صدفة يميزها قلبها قبل عينها، تمتلئ عيناها بالدمع وهي ترى وجهها المرسوم بألوان ثامر .. قَبِل تحديها بأن يتمكّن من رسم أي شيء عليها ليُفاجئها بوجهها.

تُعيد العلبة إلى مكانها بعدما اختلست الصدفة ودسّتها في جيب عباءتها، تُغلق باب غرفتها لتُخرج دفتر رسمها وتفتح الصفحة الأخيرة .. أحرف لا تتجاوز الثلاثة أسطر، تضعه على الطاولة بجانب التلفاز .. لا تملك اعتذارًا سوى ما خطّته يداها.

يرن هاتفها لتُسرع وترتدي حذاءها، ترد بعجلة وتوتر :" الحين بنزل"

" أنتظرك"

تهرب من الشقة بسرعة خشية أن يداهمها الخوف والندم قبل أن تخطو أولى خطاها، تُغلق الباب لتنزل الدرجات ولا صوت تسمعه سوى صوت أنفاسها اللاهثة ودقات قلبها المتسارعة، تُغطي وجهها بطرف حجابها قبل أن تتوقف في الشارع وتلمح سيارته تقف بعيدًا في آخر الشارع.. تحاول تمالك نفسها وهي تسير بتعثر إليه، الشوارع مكتظة بعد الإفطار .. تشعر بأن جميع الأنظار مسلطة نحوها، تلتفت يمينًا ويسارًا كلما سمعت صوتًا .. تتوهم صوته يناديها، تتخيّل سيارته أو سيارة ثامر تمر منها .. لتهرول مسرعة حتى نهاية الطريق.

تفتح الباب بسرعة لتدس نفسها داخل المقعد الخلفي وبصوت لاهث :" بسرعة بسرعة امشي"

يُحرّك السيارة، لا تسمع ماذا يقول .. تنحني لتُسند رأسها على مقعده تحاول جمع أنفاسها وتهدئة قلبها، تسترجع كل شيء.. ما زالت في أول الطريق، الخطوة الأولى لم تطأ بر الأمان.. وما بعدها أشد صعوبة.

لا تعلم كم مضى من الوقت وهي على حالها، تلتفّ أصابعها حول رقبتها المنحنية وكأنها تحاول إدخال الهواء عنوة لرئتيها، تفزّ بسرعة على صوت المرتبك الآخر وهو يقود السيارة :" رغد! تسمعيني؟ "

تزدرد ريقها، تتذكر وجوده .. ما زالت أنفاسها متسارعة، والعرق يتصبب من جبينها، تهز رأسها بسرعة إيجابًا، ليُتابع :" قفلتِ جوالك؟"

وكأن ناقوس الخطر دقّ في رأسها تتسع أحداقها متذكرة هاتفها، تسحبه من جيب عباءتها لتُغلقه .. تطلق زفرة عالية وبهمس :" قفلته"

يزفر الآخر مثلها، ترفع رأسها لترى انعكاس وجهه على المرآة الأمامية .. جبينه يتصبب عرقًا، يأكل شفتيه بتوتر كبير، ويداه الممسكتان بالمقود ترتفع وتهبط باضطراب.. يحاول تمالك صوته :" زين .. - يرفع أنظاره لها لتلتقي عيناهما، كل منهما أشد خوفًا من الآخر، يلين صوته بصدق - رغد .. والله بحميك، لا تخافين .. كل شي بيمشي نفس ما خططنا له، كل شي أسويه عشانك بالأول والأخير"

يبحّ صوتها بعبرة تتحشرج داخلها :" بس .. مابي يصيبه شي، أبيه يخرج منها بأقل ضرر"

يهز رأسه إيجابًا مطمئنًا :" إن شاء الله، لا تخافين .. إذا سار الموضوع نفس ما خططنا له بتتنازلين عن حقك الخاص ويبقى العام وبتخف العقوبة"

ترمي ظهرها على المقعد لتلتقط أنفاسها، تُغمض عينيها علّها تهدأ قليلًا .. تشعر بالسيارة تسير بها في طريق طويل، تغيب عنها أصوات الشوارع .. لا شيء سوى صوت قلبها المضطرب، يتسلل صوتٌ آخر قادم من ركام سنينَ طويلة .. ممتزجًا بصوت السيارات (قصّري بُعد المسافة لا تطول، وارحمي قلبٍ يعذّبه الحنين .. تعرف عيوني عيونك وش تقول، أصدق الأقوال مصدره العيون)

تفتح عينيها بسرعة مأخوذة بالصوت، طلال مدّاح .. نديم خالها وثامر، يسلبها صوته لتتمسّك بنافذة السيارة الزجاجية وعيناها تنقّب عن مصدر الصوت الذي يطحن قلبها قبل أذنها، أضواء الشوارع تنعكس على عينيها الممتلئة بالدمع ولا مجال لمعرفة مصدر الصوت في زحام السيارات الكثيف، هل هو خالد؟ أو ربما ثامر!، تنجرف السيارة بزحام السيارات العابرة لتُجبر على الوقوف والتحرك ببطء .. والصوت يزداد قربًا، وقلبها يزداد وجعًا، ووجهها يذبل .. ينساب الصوت وصورة قديمة لخالد تعود إليها يُجلس

طفلة صغيرة لم تتجاوز الستة أعوام على فخذه ليست إلا هي مدندنًا باندماج وهو يُشير لها تارة ولعينيه تارة أخرى (إيه يا نجمة سما وضّحت دربي الغريب، إيه يا شفّة ضما برّدت لفح اللهيب .. اسمعي صوتي وردّي، لا تضيعنا السنين.. وما تبينه، من عيوني .. بس قولي وش تبين .. كل غالي تطلبينه، في موازيني يهون ..)

يهتز جسدها ببكاء خانق، هل يستحق كل هذا؟ وإن استحقه؛ كيف سيُشفى قلبها من وجع جُرحه؟ تُدرك أن لا أحد في هذه الدنيا بأسرها يُحبها كما أحبّها خالها خالد .. وإن أخطأ وأساء لهذا الحب، لا أحد أبدًا أعطاها من عمره كما حاول هو.. حتى أمها وأبيها.

تمرّ السيارة التي تعلو بصوت أغنية طلال مداح ليظهر داخلها رجلٌ منطرب، وتجتازها .. ويغيب صوته، ليحضر بكاؤها الموجوع .. تشهق بدموعها محاولةً أن يصل صوتها له :" رجّعني عبدالله .. ما أقدر"

لم يتفاجأ، أمر متوقع نتيجة الخوف :" رغد أنتِ بس متوترة الحين، صدقيني خلاص ما بقى لنا شي.. بس نتجاوز الليلة وبتتقبلين الموضوع"

تهز رأسها نفيًا بسرعة :" مافيني حيل! تكفى خلاص وقف السيارة"

يزم شفتيه بضيق وحزن لصوتها الباكي، يتنهد عاليًا :" عشان حياتك .. ومستقبلك وأحلامك"

تختنق بعبرتها، كانت ضائعة .. ولا زالت تائهة، ما بين قلبها وعقلها .. تدعو بقلبها أن تموت، زاهدة في الحياة .. تتمنى لو تعتقها علّها تتنفس في موتها باطمئنان

-

تمضي الساعات، يبتدئ ثاني أيام رمضان وهاهي شمسه تغيب ليصدح آذان المغرب، تمتد الأيادي لتتلقف حبات التمر .. على نقيض يوم الأمس تضجّ السفرة بالأصوات والأحاديث، تسحب تمرتين في كفها لتنهض مسرعة وبعجلة :" يالله بصلي، وراي شغل طويل! "

يأتي صوت أمها ناهرًا :" افطري زين لاحقة يا بنتي، قدامك وقت لصلاة التراويح"

لا تسمع، تذهب بعجلة وهي تشرب الماء دفعة واحدة، تبتسم الأخرى بفرحٍ يشوبه قلق .. تتناول تمرة أخرى قبل أن

تُحرك عجلات كرسيها :" وهي صادقة يا خالة، ما عندنا وقت "

تبتعد وأصوات بنات خالها المتزوجات تعلو وكل منهن تستعجل الأخرى، تتبع سمر إلى غرفتها .. تجدها تصلي كما قالت، تنتقل عيناها إلى جمانة الصغيرة تنام بهدوء على سريرها .. تقترب منها لتمسح شعرها بهدوء، تدعو الله بداخلها ألا تكون ظالمة بحق سمر .. أن يكون ثامر أهلًا لها، حاولت طيلة الأيام الماضية نزع اسم رغد من عقلها .. يقابلها ثامر بفرح حقيقي، يؤكد لها رغبته القوية بسمر.. لم تجرؤ على فتح موضوع (قريبة أستاذه)، رحلت قبل ليلة رمضان إلى بيت خالها لتكون برفقتهم ومؤازرة سمر، لم تره سوى قبل ساعات لدقائق معدودة لحظة وصوله إلى بيت خالها ..

تنقل أنظارها بسرعة على صوت زفرة عالية، تجد سمر برداء الصلاة تجلس ضامة ركبتيها إليها وبصوت مثقل :" اتركيها، مابيها تصحى الليلة"

تعقد حاجبيها بضيق :" ليه؟ خليها تفرح مع الناس"

تقف لتخلع رداءها :" تعرفين .. متعلقة بأبوها "

" يووه سمر! توها صغيرة ما تفهم "

تهز كتفيها بتوتر :" مدري والله بس ما ودي تصحى .. - تقترب من ابنتها تعدل طريقة نومها وبهمس - ما توقعت أبوها يوافق تعيش عندي"

تبتسم بهدوء :" الله يجزاه خير"

تبتعد لتتابع حديثها :" هو مو لاقي لها وقت عشان كذا ما عارض الفكرة، بس يا خوفي بعد سنين يتغير كل شي"

تطلق زفرة عالية :" سمر .. لا تشيلين هم السنين، ما تدرين وين الخيرة فيه"

تبتسم أخيرًا :" زين خلاص فارقي، ولا أقول روحي شوفي وين وصل خطيبك وأبوه "

تتركها خلفها لتخرج من الغرفة باسمة، تساعد خالتها .. تخرج للباحة الخلفية قُرب شتلات زراعية، تنوي قطف أوراق النعناع .. تتوقف يدها فجأة وهي تسمع وقع خطوات قريبة، تلتفت لتلمح ثامر يقف بعيدًا وحده شارد الذهن.. تسيّر كرسيها إليه لتلمح بين أصابعه سيجارة وقدّاحة، تقترب وبصوت مستنكر :" تدخن؟؟؟"

يلتفت متفاجئًا ليُعيد القداحة إلى جيبه قبل أن يشعلها، يبتسم ويبعد السيجارة عن فمه :" كنت ناوي، بس داهمتيني"

تقطب حاجبيها بضيق :" حتى برمضان؟ "

يستند على المقعد خلفه مطلقًا زفرة :" أحلى سيجارة اللي تجي بعد الفطور"

تهز رأسها بقرف :" أستغفر الله، مفروض يكون رمضان فرصتك وتتركه .. بعدين ما تستحي تدخن في بيت خالي وبعد اليوم بتعقد على بنته؟! "

يُنزل أنظاره للسيجارة التي بيده :" تعودت عليها بهالوقت، وشوي متوتر"

ترفع حاجبًا مستنكرًا :" وتبعد التوتر عنك؟ "

ينطق قبل أن يُعيدها إلى أخواتها :" تقدرين تقولين كذبة وصدقناها - يرفع رأسه بابتسامة - رضيتِ الحين؟ "

تتنهد بقوة :" لازم تتركه، سمر عندها ربو وبنتها صغيرة! "

يشتت أنظاره لمنظر الشفق الأحمر الخلّاب :" إن شاء الله، عزمت أغيّر كل شي ومن بينها هالعادة السيئة "

تبتسم بحنو :" ثامر أثق فيك والله .. تكفى لا تحطّم هالثقة"

تتعلّق عيناه بعينيها، للحظة ظنّها عيني أمه .. وكأنها تلبّست روحها، يهز رأسه بهدوء مبتسمًا :" تطمني .. "

يصلهما صوت سيارة تقف خارجًا وترحيب خالها الحار ممزوجًا بصوت ياسر ونجد .. يتركها خلفه ليلحق بهم في مجلس الرجال وعيناه تراقب بتوتر هاتفه، خالد لا يرد.. عزم على ألا يعقد قرانه دون وجود خالد بجانبه، ينضم بجسده للمسجد ليصلي المغرب، وروحه وعقله منشغلان برفيقه وأستاذه .. ما أن يُسلم الإمام يُخرج هاتفه مسرعًا ليعاود الاتصال، يصله صوت نجد هامسًا بجانبه :" أقلقتني معك، وش فيك؟ "

يزم شفتيه بضيق :" خالد من الظهر ما يرد"

يعقد حاجبيه باستغراب :" تلقاه كان نايم وانشغل، هدّي اللعب شوي"

يطلق زفرة طويلة وهو يُعيد هاتفه :" لا، كلمته الظهر وعلى أساس يكون هنا قبل ساعة "

يطبطب على ركبته نجد قبل أن يقف :" صلي السنة واستهدي بالله، بس نخلص الصلاة بنشوف له"

يقف ليسحب نجد بعيدًا عن الصفوف التي بدأت بالتفرق قليلًا :" اسمع .. أنا بروح أدور عليه، أخاف صار له شي بالطريق"

تتسع عينا نجد مستنكرًا :"اصبر لين تكتب العقد وبعدها بروح معك أنا"

يهز رأسه نفيًا بسرعة :" ما بطول، وقت التراويح وأكون هنا "

يبتعد عن نجد ليخرج من المسجد، يقف الآخر في مكانه يفكّر وسرعان ما لحقه بسرعة :" انتظر بروح معك"

يرتدي حذاءه بعجلة :" لا خلك هنا عند أبوك، لو صار شي بكلمك "

ما أن اعتدل واقفًا سقطت أنظاره على القادم مشمرًا ذراعيه المبللة، قابل ابتسامة ناصر بوجه مقطّب والسؤال الذي يخشى جوابه يراوده بقوة :" مريت بحادث وانت جاي بالطريق؟ "

يعقد حاجبيه مستغربًا السؤال :" لا، بسم الله صاير شي؟ "

يمسح نجد عينيه بضيق :" لا إن شاء الله كل خير- يعلو صوته وهو يرى ثامر يبتعد بعجلة - ساعتين يا ثامر، ساعتين بس! "

يلوّح له من بعيد إيجابًا ليستقل سيارته مسرعًا، تتشبث عيناه بكل سيارة يمرّ بها .. علّ خالد يستقلّها ويداه لا تنفكّ تعاود الاتصال بخالد.

تتلألأ إضاءات الرياض من بعيد لتستقبله، يدرك للتو أنه قطع معظم الطريق .. يتوقف على جانب الطريق قبل أن يدخل الرياض، تضارب حاد بين عقله وقلبه، عقله لا يرى بدًا من الاتصال بها لا أحد غيرها قد يحمل إجابة تطمئنه، وقلبه ينهاه عن سماع صوتها والتفكير بها ..يتأمل اسمها مرارًا .. مترددًا بالاتصال عليها أو الاكتفاء برسالة .. هذه الليلة فقط، بتعثر يفتح محادثة باسمها .. يقرأ رسالتها الأخيرة، رسالة طويلة هاله طولها.. استقبلها ليلة رمضان، جزع لطولها، خشي مما دسّته بها .. أغلق المحادثة ليلتها سريعًا قبل أن يقرأها، وكأنه يهرب من حديثها الطويل، التقط أول سطرين منها ليبتر قراءة الباقي لوقت لاحق، وها هو الآن يقرأها مجبرًا :

(مبارك عليك الشهر الكريم ثامر، سمعت إن بعد بكرة بتكتب كتابك.. مبارك، ما بكون منافقة وأقول سعيدة لك.. لأني مو سعيدة، وبنفس الوقت مو حزينة.. راضية، بس تعرف؟ هالخبر ولّد فيني الأمل .. كنت دايمًا شريكي، شريكي

بالمصايب وشريكي بالحظ السيء .. أذكر زمان بعد وفاة أمك بأيام وبعد سجن خالي جيت عندي وكنت حزينة لسبب أجهله .. جلست على جوالك ببرود ولا حاولت تسألني، هالشي ضايقني أكثر وانفجرت بوجهك .. وانت كل ما علا صوتي زاد برودك .. هالشي بكّاني، بكيت كثير وقتها وأنا أترجاك تسألني وش فيني.. كنت صغيرة وجاهلة وأبي اهتمام وفاقدة كل مقومات الحياة.. لين استسلمت وجلست أبكي وحدي وأندب حظي وانت تسمعني ولا كأنك تسمعني .. أذكر يومها نمت جالسة من كثر البكا على الكنبة .. قدامك، يوم صحيت كنت تطبخ شاي .. وتسولف وتضحك معي، وكانت نفسي هادية .. وقتها بعد ما نسيت سبب بكائي وصرت أضحك معك جيت انت تسألني (ارتحتِ؟ فرغتِ اللي بقلبك؟) ما أذكر إني قلت شي، بس أذكر كلامك تمامًا .. أذكر إنك قلت لي البكا ما يفيد شي .. هذي حياتنا، مكتوب علي وعليك الشقا.. راضعين البؤس .. أنا وأنتِ يا رغد مجرد عالة على هالأرض، أنا وأنتِ مجرد أصفار عالشمال .. احنا اللي مكتوب عليهم يبقون منبوذين وتعيسين والحظ ما يعرف لهم طريق .. هذي حياتنا وهذا واقعنا .. تبكين ما تبكين ما يتغير شي.. ارضي بالواقع

وبتعيشين مرتاحة.. أنا وأنتِ هذا مصيرنا وبنمشي بهالدرب للنهاية، تعرف وش سويت؟ مشيت معك بهالدرب .. آمنت بسوئي .. لما عرفت إنك حاولت تصحح حياتك وتبدأ تجارب هالطريق كنت أراهن إنك بتخسر ومتأكدة إنك تتفق مع رهاني .. لكن تفاجأت بنجاحك، أثبت قدرتك وتخليك عن الدرب اللي سيّرتني فيه .. هالشي عطاني دافع وأمل إني مثلك .. وإني أقوى من هالدرب .. الحظ مثل ما قرب منك بيقرب مني، كنت دايمًا صديقي ورفيقي بحظنا العاثر، كان يجمعنا هالحظ العاثر .. ولأنه انتهى، ولأنك قررت تجاربه افترقت طرقنا .. اللي كان يجمعنا سوء الحياة، وانت .. وأنا قررنا نواجه سوءها .. انت بطريقك وأنا بطريقي.. أتمنى تكون هالرسالة آخر ما بيننا، لا تحاول ترد عليها لأني ببلكك الحين، ولا تحاول تتصل .. وإذا بيوم شفت اتصال مني اعرف إني بمصيبة كبيرة .. لأني ما بلجأ لك بطريقي الجديد، اتصالي عليك بيوم يعني اكتشافي إن الجانب الثاني من الحياة بائس أكثر من الجانب اللي عشت فيه .. حظ موفق بطريقك الجديد)

يُغلق عينيه، يدرك للتو أنه فقد رغد إلى الأبد .. هي كما قالت، شريكته في سوء الحياة.. رفيقته التي تقاسمت معه

رغيف الضياع، كان يؤجّل قراءة الرسالة لإدراكه ما تحتويه .. وكما توقع، رغد التي لا تحمل من اسمها أي نصيب .. قررت أن تجازف مثله، لم يخبرها بخوفه من الفشل بطريقه الجديد.. يشعر أنه ضعيف جدًا لأن يكون إنسانًا ناجحًا، أنه ألِف حياته البائسة حدّ اعتقاده أنه سيفقدها لو تخلّت عنه، أنه متمسك بالحظ السيء حتى هذه اللحظة، يتذكر تمامًا كلامه ذاك قبل سنين طويلة .. كان في أشد أيامه حزنًا، فقد أمه، فقد خالد، يمامة رحلت من الرياض، ويوسف منزوٍ على نفسه بعد الحادثة ولا يتوانى عن رمي نظرات اللوم والكراهية له حتى بات يكره النظر في عينيه، وجد نفسه فجأة متورطًا معها وسرعان ما أحبّ هذا التورط..، يفتح عينيه مسرعًا على صوت رنين هاتفه ..
يسحب الهاتف مجددًا ليطلق زفرة عالية واسم نجد يضيء شاشته :" هلا.."

يأتي صوت ابن عمه مستعجلًا قلقًا :" قلت وقت التراويح وانت هنا! والحين بنصليها والرجال يسألون عنك وانت مو مبين!"

يرفع رأسه ليتأمل إنارات الرياض البعيدة، بصوت مثقل :" أنا قريب من الرياض"

يقاطعه بسرعة وغضب :" مجنون؟؟ ثامر ارجع .. خالد ما بيطير! الله أكبر لو انه أبوك! "

جملته الأخيرة أثارت نيرانًا خامدة، لا يدرك نجد ما يعنيه خالد له .. لا يدرك أنه تجاوز كون أن يكون أبًا له، أقرب من أن يكون رفيقًا وأخًا، عينه الأخرى ويده التي يتوكأ عليها.

لا يرد، يكتفي بإغلاق الخط، يرمي حديث قلبه جانبًا ليمتثل لأوامر عقله.. يلجأ لرقمها، ليُجيبه المجيب الآلي، الرقم مغلق .. يرمي هاتفه ولا يجد بدًا من الفرار إلى الرياض، قلبه المتعلق بهما يُنبئه بكارثة حلّت .. هاتفاهما المغلقان يدقان نواقيس الجزع، كان قلبه يحدثه بأن كارثة ستحيل بينه وأمله الجديد .. وها هو يُصدق قلبه.

يوقف سيارته أسفل المجمع الكبير، يحث خطاه مسرعًا إلى الأعلى .. تتسع عيناه وهو يرى باب الشقة مفتوحًا، يهرول مسرعًا ليدخل ويُغلقه خلفه .. يخطو لداخل المجلس الذي تحوّل إلى غرفة لخالد وهو يدعو الله بقلبه ألا تتجاوز خيالاته حاجزها، كل شيء بمكانه .. لا أثر له، يتجاوز الغرفة لينادي بصوتٍ عالٍ :" خـالد "

يكرر نداءه مرارًا، لا يجد ردًا .. يقترب بخطاه أكثر إلى الداخل بهدوء :" رغـد؟ "

لا شيء يشي بوجود أحد غيره في الشقة، يبحث في الصالة والمطبخ وغرفتها علّها تخرج إليه فجأة وتطمئن قلبه، ولا أثر ..

يشعر بالدنيا تدور به، حرارة شديدة تجتاحه فجأة .. ماذا لو رحلا دون سابق إنذار؟ هل تعمّد خالد أن يختار وقت رحيله هذا ليُفسد ليلته؟ ، يجرّ أقدامه إلى فِراش خالد .. يرتمي عليه ليرتد جسده قبل أن يستكين فوقه، عيناه تضيع في سقف الجدار، الإضاءة الصفراء تخترق عيناه غير أنه لا يشعر بها .. كيف استطاع خالد فعلها؟ ماذا كانت تقصد برسالتها تلك؟ حربها مع الحياة كما تقول، أكانت تعلم بهذا الرحيل؟ أهي كانت السبب به؟ اختارا يومه الأول لمصالحته مع الحياة .. ليلة خطبته، ليدمّراها بتعلقه الشديد بهما.

يُغمض عينيه وحرارته ترتفع حتى خالَها نيران تحرقه وهو يتذكر الكارثة التي تركها خلفه .. كل شيء فشل، كان جبانًا .. وسيبقى كذلك، هل بإمكانه العودة؟ يدخل باب مجلس والد سمر بكل ثقة ليقول (والله معليش رحت أركض أدور على صاحبي وما لقيته، نادوا الشيخ من جديد)؟ كيف سيُواجه الجميع؟ .. لا يهمه، فلا شيء سيبرر فشله وهروبه

قبل عقد قرانه بساعات .. كل شيء تهدم هناك، كما تهدّم هنا .. ماضيه ومستقبله.

يعقد حاجبيه وصوت خشخشة ورق تخترق أذنه، يفتح عينيه وكلّما حرّك رأسه ازداد الصوت، يعتدل جالسًا بسرعة .. يُزيح الوسادة بسرعة لتتسع عيناه وورقتان فوق بعضهما تتربعان أمامه.

تضطرب أنفاسه وهو يحمل الورقة الأولى، يُقربها إلى عينيه .. يسيل عرق جبينه والخطوط بقلم الرصاص تُشكّل حديثًا طويلًا لا يفهمه أحد سواه، رسمة أولية سريعة مؤرخة بتاريخ اليوم لحشدٍ من النمل يحمل فوقه غصن خزامى..

تضيق أنفاسه، تهطل عليه الصدمات دون تواني، يتصبب عرقًا ليسحب الورقة الأخرى بسرعة .. تذبل عيناه وهو يتعرف خطها الصغير، يُعاد كل شيء إلى باله ليستوعب الأمر .. رسالتها له، غيابهما المفاجئ، رسمة خالد، وأخيرًا رسالتها الصغيرة هذه .. (خالي، ما أعرف وش أقول .. أدري خذلتك، بس اعذر بحثي عن حياة حقيقية، ما أقصد أأذيك .. لكن مضطرة أقدم موضوعي للأمن، أحتاج أعيش نفس أي إنسان بهوية .. كتبت لك هالورقة لأني أبيك تهرب

أي مكان ولا ترجع للسجن من جديد.. تأكد إني بخير، بس باقي أتطمن إنك بخير)

يختنق، يُسند رأسه على كفه وعيناه تضيع بين الورقتين .. يود لو يصرخ بأعلى صوته (ليه يا رغد؟)

-

يفر من مجلس خالها إلى الشارع، لم يعد يحتمل نظرات وتساؤلات الرجال، يشعر بنيران تأكله .. للمرة الثانية يتمنى لو أن ثامر لم يكن موجودًا، لا يُبعد هاتفه عن أذنه، ما أن يُقطع الخط حتى يعاود الاتصال مجددًا .. لا ينفك عن ترديد شتائمه وهو يسير يمينًا وشمالًا كجرس الساعة، يردد (الله يلعنك يا ثامر، الله يلعنك) لم يكن يومًا لعّانًا .. لكنه الآن خارج قواه العقلية.

يضرب زجاج السيارة بقوة متخيلًا أن يكون هذا وجه ثامر :" الله ياخذك، الله يسود وجهك "

يجلس على حجر ملقى قرب السيارة، عاجزًا عن الرجوع إلى المجلس .. وهاتفه بين كفيه يتمنّى لو يكسره ويفتته إلى

أجزاء، تضيء شاشته .. يرفض الرد مباشرة وهو يرى اسمها (يمام)، للمرة العشرين خلال ساعتين يرفض اتصالاتها ..

-" نجد؟"

يعض شفتيه بضيق على صوت خاله، يتمنّى لو يهرب بعيدًا عن تساؤلات الجميع .. أن يدفن نفسه بهذه الليلة ويستريح من ذكر اسم ثامر، يقترب ناصر .. يحث خطاه إلى نجد المتواري خلف السيارة، يجلس أمامه على أطراف قدمه ممسكًا بركبتيه وبصوت قلق هامس:" لا يكون صاير له شي وما تبي أبوك يدري! تكفى نجد علمني الصـ.."

يُقاطعه بسرعة : ليته والله! "

تتغير ملامح ناصر بسرعة ليستغفر مندهشًا، يُتابع نجد بنفاد صبر :" يكون صاير له شي أهون ولا يحطنا بهالموقف قدام الرجال .. الله ياخذه"

يُلجم ناصر عن الكلام، ما فعله ثامر باختفائه المفاجئ لا يُغفر له، لكن هل يستحق كل هذه الدعوات ممن يُفترض أن يكون أخاه؟ .. يفكر قليلًا قبل أن ينطق :" يمكن صار شي لخويه، عندك رقمه؟ "

يطلق زفرة ثقيلة : لا، ولا نعرف له طريق .. لو بس رحت معه ولا سمعت كلامه! "

يزم شفتيه بضيق قبل أن يقف :" دواء أبوك بالسيارة؟ "
تتسع أحداقه ليهب واقفًا بسرعة :" لا يكون تعب؟ "
يفتح السيارة بسرعة قبل أن يسمع جواب ناصر، يُخرج علبة الدواء مستعجلًا وبتوتر على صوت خاله :" شوي .. ادخل طمّنه وبنطلع أنا وياك ندوره"
يحمل الدواء ليعود للداخل برفقة ناصر، تتسلط الأنظار حوله .. يُنزل عينيه للأرض بضيق وإحراج كبيرين، يخبئ عينيه عنهم، يتمنى لو تصمّ أذناه عن سماع أسئلتهم .. يجاوب باقتضاب واضح، يجلس بجوار أبيه ليُلقيه الدواء .. تذبل عيناه على صوت ياسر الخائف :" تكفى يُبه، ثامر صار له شي؟ "
يزم شفتيه بضيق هازًا رأسه نفيًا :" ما أدري عنه شي، مقفّل جواله .. بنروح أنا وخالي ندور له"
يقف مع خاله وهمسات أبيه المتعبة تصله مرددًا بصوت مثقل:" الله لا يوجعني فيه ولا منه.. "
يرفع رأسه لصوت ناصر الضائق :" أقول اجلس عند أبوك، وأنا بدوره"
ينوي أن يعترض، يقاطعه ناصر مجددًا :" اجلس عنده لا يتعب وانت بعيد! "

وجه أبيه المُتعب يُجبره على الامتثال لأمر خاله، يسير مبتعدًا معه خارج المنزل وما أن انفردا ينطق ناصر :" أول شي بشوف للمرور بعدها بمر المستشفى اللي عالطريق وإن شاء الله يكون بخير "

يطلق ضحكة سخرية ممزوجة بزفرة :" قبل التراويح رد علي يقول إنه بالرياض! "

تتسع عينا ناصر بدهشة :" ليش ما تكلمت من أول؟"

بقهر هامس لا يسيطر عليه :" تبيني أقول قدام الرجال إن حضرته بخير ورايح بسيارته للرياض؟ هه خلهم عالأقل يظنون إن مصيبة صابته ويكون لنا عذر قدام العالم"

يزم شفتيه مطرقًا قبل أن يطلق زفرة وهو يطبطب على كتف نجد :" خلاص معليه أنا بروح وأدري روحتي ما منها فايدة .. بس عشان أبوك والرجال - يدخل سيارته متابعًا - لا جد جديد كلمني"

يعود نجد أدراجه للداخل، يجلس قرب أبيه وثقلٌ كبير يجثم على صدريهما .. يطأطئ رأسه وكاتب العقد يقف معتذرًا لانشغاله بعقد آخر، يتوالى رحيل أقارب سمر ليبقيا وحدهما في المجلس مع والدها .. يتظاهر الجميع بالانتظار وكلٌّ منهم يعلم في قرارة نفسه عدم جدوى هذا الانتظار.

ياسر يذبل بوجع قلب الأب، خوفًا على ابن أخيه ثامر، نجد يأكل نفسه بغضب ودعوات قلبه لا تتوقف .. يتناولان لقمة من السحور احترامًا لوالد سمر الذي أقسم ألا يغادرا حتى يتناولا السحور معه.

يقف والد سمر محاولًا مواراة وجع خيبة ابنته :" يا بو يوسف تعرف معزتك ومقدارك بقلبي .. أدري انك رجال والنعم فيه ولا ما كان عطيتكم بنتي اليمامة، ولا تزر وازرة وزر أخرى .. بس أبيك تعذرني، ولد أخوك عافته النفس وزين إن العقد ما تم "

يختنق ياسر بضيق، يطلب منه والدها السماح وهو من يُفترض به أن يعتذر .. ما سبب تعس الحظ الذي يُلاحق ثامر؟ ما أن استبشر باعتداله يأتي اختفاؤه ناسفًا كل شيء، أهذا هو نصيبه الذي كُتب له منذ ولادته؟ يتذكر ليلة ولادته .. والده كان مستعجلًا لحضور هذه اللحظة ليقطع الإشارة ويتسبب بحادث لنفسه حُبس على إثرها ليلة كاملة ونصف يوم لتفوته أولى ساعات ابنه على هذه الحياة، هل سيبقى لصيقًا به هذا الحظ إلى الأبد؟

يخرج نجد بسرعة كبيرة وهذا البيت الذي كان يتعشّقه منذ سنين طويلة بات يخنقه، يتوقف فجأة لنداء من خلفه :" نجـد! "

يزمّ شفتيه، يلتفت ليقابله وجهها الممتعض.. ترتدي فستانًا أنيقًا كان من المفترض أن يكون فستان فرح قبل أن يُفسد ثامر كل شيء، يطلق تنهيدة صغيرة ليقترب منها .. تُتابع بصوت مختنق :" ليه ما ترد علي؟ مو كافي أكون بين نار ثامر ونار خوالي؟ "

يعقد حاجبيه بسرعة ليقترب وينحني متكئًا على مقعدها :" يمام أنتِ مالك علاقة بطيش ثامر! لا تحملين نفسك الذنب"

تطلق زفرة حارة، تشتت أنظارها عن عينيه القريبة :" كنت أعرف إنه مو قدها، بس غلبني قلبي وحبي له وأقنعتها فيه .. - تعود بأنظارها له - الحين أحس ذنبها ينهشني"

يخترق أذان الفجر ساحة المنزل .. يعتدل واقفًا بزفرة :" احنا للحين ما ندري عنه شي، لا توجعين روحك لشي نجهله .. - يغتصب ابتسامة ذابلة ليمسح على خدها بإبهامه - الحين روحي صلّي وخليك حولهم .. لا تفكرين كثير وهو إن شاء الله يكون بخير"

تقاطعه بسرعة :" لا أبي أروح معكم، مخنوقة هنا .. "

يتفهّم هروبها من مواجهتهم، وهي التي عاشت بكنفهم كواحدة منهم .. لكن ثامر يبقى ابن أختها، شعور الخذلان يتجاوز شعوره هو بالغضب أو شعور والده بالخيبة .. يهز رأسه إيجابًا :" زين، بنصلي ونمرك"

يبتعد ليتركها بوحدتها، تعود للداخل .. هدوء قاتل يخيم على المكان بعد فرح مزعوم، تمرّ بمجلس النساء .. تصافحها الزينة والحلويات التي أجهدت نفسها سمر وهي تتخيّرها، وها هي الغرفة فارغة لم تُمسّ بشيء .. تُحرك مقعدها بسرعة هربًا من المكان، لماذا فعل ثامر كل هذا؟ أي جزاء تستحقه سمر بسبب ما فعله، الجميع يُقدم تخمينات تعذره مداراة لسمر ليس من بينها أن يكون هاربًا .. تقترب من غرفتها الملاصقة لغرفة سمر، يزداد وجعها أكثر .. منذ بدأت التساؤلات والقلق يطغيان على المكان هربت إلى غرفتها لتُغلقها، ترفض دخول الجميع .. سوى أمها التي سمحت لها بالدخول قبل ساعة، انفراجة الباب تلك قبل ساعة للحظات سمحت لصوتها الباكي أن يتسلل ليمامة، لم تسمح لها بالدخول .. أغلقت الباب في وجهها خشية أن

تراها بهذا المنظر الباكي، ولّدت في قلبها مشاعر حقد كبير لثامر .. ولوم أكبر لنفسها.

تدخل غرفتها لتُجهز حقيبتها الصغيرة، تخرج بهدوء ودون وداع من خالها أو خالتها كما اعتادت .. تشعر بأن ثامر زحزح مكانها الأثير في منزل خالها، تنتظر قرب الباب حتى بدأ نور الفجر يشق الأرض.. لوهلة ظنّت أن نجد تعمّد تركها، غير أن صوت سيارته شقّ سكون الحي ليطرد هذا الظن.

تقطع السيارة طريقها إلى الرياض، يتوقف نجد مرارًا لاستياء حالة والده .. يجبره على ترك صيامه بعد محاولات يائسة لإقناعه، يأخذان يمامة لمنزلهما .. لا يحلّ ظهر اليوم إلا وناصر ينضم إليهم، تتحوّل دعوات نجد وأمنياته من (الله يعلنك ثامر، الله ياخذك) إلى (يالله لا تفجعني فيه، يارب لا تسمع كل دعواي عليه) وقهر اليمامة إلى خوفٍ وقلق يُمزقان قلبها، أما قلب ياسر يكبر وجعه كلّما مرت دقيقة .. يقرر ناصر تحويل موقفه من مجرد كف تطبطب على وجعهم ومدّعٍ للبحث إلى موقف جدّي بتبليغ مراكز الشرطة.

يأتي صوت ياسر واهنًا بعدما التقطت أذناه حديث نجد وناصر :" لا تبلغون، يا خوفي يكون مورّط نفسه بشي ونزيدها عليه لا بلّغنا"

يضيق نجد لسماع والده ولإدراكه أن أفكاره وخاله انتقلت لأبيه المتعب، ترق ملامح ناصر لخوف ياسر .. لا يلومه، قلب الأب الذي يعمى عن كل شيء في سبيل حماية ابنه، لا يُدرك ياسر أنه يؤذيه بحمايته تلك .. يقترب وبهدوء :" إن شاء الله إنه بخير ولا نتفاول عليه، بس احنا ما نحميه بهالطريقة .. يابو يوسف كل ما أسرعنا ساعدناه أكثر، مو نسكت ونندب يومنا بعدين! "

لا يجد بدًّا من كلام ناصر، يركن وجع قلبه جانبًا ليضطر لموافقتهما بالتبليغ.

-

تُحرك ملعقتها بعشوائية وهدوء، وبيدها الأخرى تعبث بالسبحة المعلقة على رقبتها.. ترفعها بشرود لتُثبتها بين شفتيها وعيناها تضيع في الفراغ.

يهز رأسه نفيًا بهدوء وهو يتناول قطع الكباب :" هديل، فطورك"

لا يبدو أنها سمعته، غارقة في تفكير عميق .. يترك ملعقته ليرفع يده ويسحب السبحة من بين شفتيها :" هذي مو للأكل! - يشير لصحنها الذي لم تمسسه - هنا أكلك! "

وكأنها للتو استوعبت تقطّب حاجبيها بتقرف :" وععع! نسيت إنها عظام جمل"

تتسع ابتسامته بضحكة لملامحها، يُشير بعينيه لطعامها :" زين الحين ابلعي صحنك اللي هو عبارة عن لحم بقر واتركي عنك السبحة"

تسكن عن الحركة للحظة وهي تنظر إليه بضيق، يعقد حاجبيه بابتسامته :" وات؟ "

تطلق زفرة عالية :" يعني مُصر تقرفني؟ "

يسحب ملعقتها ليثبت بها قطعة لحم صغيرة ويُقربها من شفتيها :" خلاص صدق كُلي بلاش دراما"

تتناول اللقمة من يده ليُتابع بجدية :" ما ينفع الهروب هديل، نهايتك بتقابلينهم تبين ولا ما تبين"

تزفر بضيق :" ما أهرب"

" ما تهربين؟ طيب وش يعني تهربك من استقبالهم وبعذر إن عندك كويز مهم؟ "

تترك ملعقتها بانفعال :" أقولك ما أهرب!، بس أحتاج وقت أتقبّل وجودها عندنا .. تخيّل انت فجأة يقولون لك ترى أقاربك قرروا فجأة يعيدون الوصل معكم! وانت اللي عشت طول عمرك مستغني عنهم"

لا يلومها إطلاقًا، منذ ثلاثة أشهر تحاول استيعاب الأمر غير أنها ترفض.. يصمت قليلًا قبل أن ينطق :" معك حق، بس لا تنسين .. هي يتيمة الحين، ومالها إلا أمها وأهلك "

تنفخ شفتيها بضيق وتُتابع طعامها بصمت .. ينهيان طعامهما، لا تجد بُدًا من المواجهة، يوصلها إلى منزلها وهو لا يفتأ يشجعها، يقفان أمام الباب .. تشدّ على كفه بقوة وهي تأخذ نفسًا طويلًا يُجبره على ضحكة خفيفة وهو يمسح بيده الحرة خدها :" داخلة حرب؟ "

تنظر إليه بطرف عينها :" اسكت، متوترة حدي! "

يسحبها بذراعه إليه محتضنًا جسدها وببطء:" ريلاكس هديل، صدقيني كلها يومين وبتنسيني بسببها"

تطلق ضحكة خفيفة تدفن توترها بها، يبتعد عنها قليلًا :" يلله شجعي نفسك وادخلي واستمتعي - يُقبل شفتيها بهدوء قبل أن يبتعد - أشوفك بكرة"

يُزهر وجهها بابتسامة صادقة، يلوّح لها وهو يسير :" تصبحين على خير"

يبتعد أكثر، تعود لتُقابل باب المنزل .. تأخذ نفسًا طويلًا لتفتح الباب، تدخل بهدوء وصوت أنثوي جديد غير مألوف مختلطًا بصوت أبيها .. تتقدم أكثر، تسحب حجابها لتقف أمام مرآة المدخل .. تقطب حاجبيها بضيق لشعرها المجعد، لا يجدي نفعًا تهذيبه بأصابعها..

-" هديل؟ "

تتجمّد في مكانها للحظة للصوت الغريب قبل أن تصطنع ابتسامة وتلتفت .. تقابلها فتاة يضجّ النضج من شخصيتها قبل ملامحها، تبدو بطولها .. تحمل ذات لون بشرتها وأبيها، شعرها مسترسل بنعومة على عكسها تمامًا، تقترب منها لتسلّم عليها وهي تحاول تحليل كل جزء منها .. تخرج حروفها أخيرًا بابتسامة :" الحمدلله على سلامتكم"

تتسع ابتسامة الأخرى :" الله يسلمك"

يخرج والدها في هذه الأثناء من الغرفة المجاورة، حيث كان يجلس برفقة ريم .. تتسع ابتسامته بترحيب :" وأخيرًا جيتِ هديل! - يلتفت لريم مازحًا - ايه الحين جات أم لسان، الله يعينك"

تقطب حاجبيها بضيق وضحكة ريم الصغيرة تصلها، يُتابع والدها بابتسامة :" ادخلي الحين وسلمي على عمتك"

قبل أن تتمكّن من الرد تشعر بريم تُمسك بعضدها لتسير معها وكأنها تعرفها من سنين طويلة .. توصلها للداخل حيث تجلس أمها وأم ريم، تبدو متقدمة بالعمر كثيرًا عن أمها .. ولمحة حزن تطغى على ملامحها مهما ضحكت، تمر ساعة وهي بينهم تحاول مجاراتهم في الحديث، يطغى التعب على ريم إثر رحلتهما الطويلة .. تأخذها هديل إلى غرفة جانبية مجهّزة بالأثاث وسرعان ما تركتها تلوذ بوحدتها.

تُخرج حبوبًا من حقيبتها لتبتلعها، دواء رافقها الفترة الأخيرة حتى تحارب الأرق الذي بدأ يسلب منها كل شيء، ترتمي على السرير .. الأرض هنا تُشعرها بالبرد، برد روحي مصدره الغربة التي لجأت لها مُجبرة .. رمضان هنا ليس كرمضان الرياض، ورمضان دون أبيها لا يشبه أبدًا ليالي رمضان التي تحبها .. تخلّصت من خالها، ومن زواجها

من ابنه الزائف .. ظهرت ورقة قضائية لتنقذها فجأة في ظل حزنها، قبل وفاة أبيها بأيام .. أعطاها الولاية الكاملة لنفسها ليُعتقها من تجبّر خالها، كان يعلم بما ستلاقيه بعد ما حصل .. يعلم أن لا أحد سيسمعها ويصدّقها غير عمها يعقوب الذي تخلّى عن اسمه، وأصبح محالًا أن يحميها قانونيًا .. حاول خالها إبطال الورقة بحكم إن والدها كان على فراش الموت، غير أنها استعانت بمعارف أبيها في الدوائر القضائية لتبقى ورقتها الرابحة الأخيرة.

غير أن هناك ما هو أشد وجعًا لقلبها، خيانتها للأمانة .. صوته يرّن في أذنها كل ليلة ليحرمها النوم (إن جاء لبابك لا تغلطين غلطة أبوك، لو بعد خمسين سنة) هل تقفو إثر أبيها؟ كيف له أن يُحمّلها هذا الوجع؟ لا يُمكنها أبدًا أن تجازف بتسليمه .. عمها الذي قويت علاقتها به طوال أيام عدّة أمها، لا يشبه والدها في شيء إلا أن روح الأبوّة اتجاهه تولّدت داخلها، يعقوب أو كما غيّر اسمه (عبدالعزيز) .. كيف لها أن تطعن ظهره وهو يحتضنها، يُسيّرانها على حبلٍ بهلواني، لا بد من سقوطها .. سواءً شمالًا حيث عمها الوحيد وعائلته، أو يمينًا حيث الأمانة وناصر.

-

يجلس في شقته وحيدًا بعدما تركها عند بابهم، يتأمل الرسالة التي لم تُستلم حتى هذه اللحظة (عالبركة الخطبة، الله يجمع بينكم ويرزقكم الذرية الصالحة) أرسلها قبل يومين ولا زالت تنتظر من صاحبها أن يقرأها.

لم يأخذ أمر اختفائه بجدية عندما علِم من يمامة صباح الأمس، ثامر دائمًا ما يُخيّبهم .. لا يحمل له في قلبه أي كُره، لكن قلبه ممتلئ حتى هذه اللحظة بخيبة شديدة بسبب اختفائه ليلة الحادث الذي أودى بأمهم، لا يزال يرى ثامر شخص غير جدير بالثقة .. منذ سنين لم يتجاوز لحظة محاولة اتصاله بثامر وأمه أمامه تنزف ليقابل هذه المحاولات بإغلاق الهاتف، حادثة وجعها في قلب ثامر كوجع يوسف إلا أنها ولّدت بينهما فجوة تكبر كل يوم.

بدأ يستوعب جدية الأمر عندما تلقّى رسالة من نجد قبل ساعة تُخبره بلجوئهم إلى الشرطة ليلة الأمس كحلٍّ أخير .. هل اختفى ثامر حقًا؟ أوقع بمصيبة كبيرة؟ أهو بخير؟ هل سيكتشفون وجوده بأحد المستشفيات؟ هل مات؟

يتوقف عن التفكير عند هذه النقطة، يرفع هاتفه ليُكرر الاتصال للمرة العاشرة خلال ساعة .. وكما كل مرة، مغلق

.. ما زال متعلقًا بأمل أن يصله صوت ثامر مبررًا (لا أنا بخير بس تعرف ياخوي يوسف أنا حمار مثل دايمًا وأهرب تارك كل شي وراي - ايه ياخوي ثامر أنا أدرى واحد بعوايدك بس رد، ارجع)

محادثة سخيفة تدور بعقله غير أنه متمسكًا بها، لا يرجو منه غير أن يرد .. أن يُسمعه صوته، أن يتأكد بأنه بخير .. وأن لا أذى مسّه.

*•

صاحبي ..
لا تملّ الغناء
فما دمت تنهل صفو الينابيع
شقّ بنعليك ماء البرك

- سيد البيد

*•

الورقة العشرون

*•

قبل أربعة أيام..

يرتفع باب الكراج لتفيق من شرودها على صوته .. تزيح الحجاب الرقيق الذي التصق بوجهها لدموعها، تعقد حاجبيها وهي تتأمل المكان وسرعان ما اعتدلت بجلستها وصوتها المتحشرج يخرج خائفًا :" عبدالله مو هنا طريقنا! "

يدخل بالسيارة ليغلق الباب، تتجمد في مكانها بهلع، يجفّ ريقها بجفول .. ترتجف أصابعها التي تُمسك بالباب وصوتها يتهدّج :" عبدالله .. وين موديني؟ "

يمسح وجهه ليتمالك نفسه دون أن ينظر إليها :" رغد، لا تخافين .. هنا بيتك"

تنفجر بانهيار غير واعية وهي تهز كتفه بقوة :" يا نذل يا حقير! .. رجعني! "

تختنق فجأة وهي تراه يخرج من مقعده متجهًا إليها، تشعر بأن الدنيا تسوّد في عينيها .. ترتعش شفتيها والدمع يغشاها دون إدراك وصوتها لا يتجاوزها:" مو انت عبدالله .. تكفى مو انت"

وما أن فتح باب السيارة استجمعت كامل طاقتها بقدميها لتركله بكل ما أوتيت من قوة، لا تعلم أين أصابته غير أنها استطاعت أن تُفلت من بين باب السيارة وجسده الملتوي بألم .. لا تعرف ماذا تفعل، أو أين تلجأ .. لكن كل ما تدركه أنه يجب عليها أن تتجاوز باب المنزل إلى الشارع.

يحاول السيطرة على ألمه الذي أصابه بالشلل للحظات بعدما أصابت وسطه حتى يتمكّن من اللحاق بها، تخرج حروفه مجبرة موجوعة :" رغد وقّفي "

تشعر بأن الأرض تركض تحتها وبوابة المنزل كلّما اقتربت منها شبرًا ابتعدت عنها ذراعًا، تمدّ يدها .. تحاول الإمساك بالباب، غير أن ذراعًا طويلة التفت حول جسدها تعيق حركتها وكف أخرى تطبق على فمها .. تهاوت جميع الأشياء حولها، عيناها تقلّصت بوجع والبوابة تبتعد عنها .. قدماها الواهيتان تحاولان ضرب جسده بضعف، وهو يُبعدها أكثر عن البوابة .. يحاول موازنة جسديهما بسبب مقاومتها وكفه

التي تكمم شفتيها امتلأت بدموعها، يخرج صوته مضطربًا وهي لا تسمعه :" رغد حلفت ما آذيك.. والله ماحد يمسك بسوء .. هنا مافي أحد يوجعك.. هنا الكل يبيك .. رغد هنا بيتك .. هنا أهلك .. "

لا تسمعه، تحاول المقاومة.. يسحبها مجبرة إلى داخل المنزل، يوجه جسدها حول الجدران وما زال مطبقًا على شفتيها :" ما تذكرين ؟ .. مسح كل عقلك وكل ذكرياتك؟؟ زرع الكره بداخلك لنا؟؟ الله لا يحلله! "

من بين رؤيتها المتضبضبة وجسدها المتهالك تلتقط عيناها جدران المنزل، لا تعرفها .. لا شيء إطلاقًا يشبهها هنا، يُثبتها أمام زجاج يحمل خلفه صورتين .. صورة لرجل كبير في السن، وأخرى لرجل متوسط العمر .. يُتابع :" نسيتِ يا رغد؟؟ غسل دماغك؟ نسيتِ عمك؟ "

تتجمّد في مكانها للحظة، تتسع أحداقها .. تخترق عيناها ذاك الرجل، تنتفض فجأة وصور ضبابية قديمة تخرج من ركام سنين طفولتها القاسية .. تنتفض كفرس هائج بين يديه، لا تفكر بشيء سوى بالهروب إلى أي مكان، المهم أن تباعد بينها وهذه الصورة .. إلى غرفتها الباردة، إلى لوحاتها المهملة، إلى خالها خالد .. إلى ثامر، تخور قواها فجأة بعد

معركة حامية بين يديه وصورتهما تتراءى لها .. بعيدين كبعد النجوم، تفقد الرغبة بالوقوف .. يُخفف من ضغطه عليها لترتمي جالسة على الأرض .. تنحني لتُلصق جبينها بالأرض وهي تجهش بكل صوتها بالبكاء، بكاء كاد يُبكيه .. يرق صوته المتحشرج :" مافي أحد بيأذيك هنا رغد! حنا أهلك .. شفتِ أهل يأذون عيالهم؟ "

لو لا ضعفها الذي يسلب كل ما فيها لتفجّر صوتها بنعم .. رأيت أبًا يؤذي بناته، رأيت أمًا ترضى ببيع طفلتها لأشباه رجال لمجرد أن بضع قطرات دم أعلنت بلوغهما، أن يرضيا بفخر تزويج طفلتهما بقتلة يجوبون في الأرض فسادًا .. رأيت أبًا يؤذي ابنته بفكره القاتل، رأيت كل هذا وأؤمن به ..

لا تعلم كم مضى من الوقت وهي تجهش بالبكاء على الأرض، تشعر به يرفع جسدها الخفيف ويحملها بين ذراعيه .. لا تتحرك، تفقد طاقة تحريك إصبعها ومقاومته .. تفقد شعور المقاومة، تفقد شعور الحياة .. لا تسمع ماذا يقول .. لا تسمع سوى صوت ثامر البعيد (احنا اللي مكتوب عليهم يبقون منبوذين وتعيسين، راضعين البؤس .. ارضي) ترضى، للتو استوعبت حديثه وطريقه الذي نهجه لهما .. تدرك كم كان صائبًا، ترفع راية بيضاء تعلن استسلامها ..

يفتح بابًا بعدما صعد بها الدرج، يضعها على مقعد طويل.. لا تتحرك .. ولا ترف برمشها، فليفعل بها كل ما يريد .. لن تقاوم أبدًا، يبتعد عنها .. تسمع صوت انغلاق الباب، تنكمش على نفسها تحتضنها.. لا يُغريها شيئًا للاستكشاف أو الهرب، تعجز عن تحريك نفسها من مكانها .. يصلها صوته من خلف الباب هادئًا :" رغد، سامحيني .. أدري تظنين إني غدرت بك، بس ما غدرت والله .. أنا عند وعدي، بتاخذين حقك .. أوعدك يا رغد، بتاخذينه لأنك بين أهلك .. "

تفتح عينيها فجأة وكأنها للتو تستوعب، تقفز من مكانها إلى الباب .. تحاول فتحه غير أنه مغلق، يعود صوته على حركتها :" لا تخافين .. ما أقصد أحبسك، بس أبيك تهدين .. وراك .. تحت المكيف فيه ثلاجة، فيها أكل كثير "

تلتفت بتلقائية إلى حيث يقصد، لتخرج منها شهقة مرتفعه وهي تلتصق بالباب .. صدرها يهبط ويرتفع بخوف وهي ترى جسد ضعيف يجلس على سرير أبيض، عينان ذابلة تحدّقان بها .. عجوز امتصها الدهر ولم يبق منها شيئًا غير عظام متضخمة يغطيها جلد ذابل، لا تفعل شيء سوى النظر إلى عيني رغد ببرود شديد، يعود صوته :" ما عرفتيها؟

.. - يطلق ضحكة ساخرة خفيفة - هذي جدتي .. جدتنا يا رغد"

تختنق بضياع :" عبدالله .. انت مين؟ "

:" أنا عبدالله .. ولد عمك يا رغد، ما تعرفيني؟ ما ألومك .. كانت آخر مرة نشوف بعض وأعمارنا ما تتجاوز الخمس سنوات .. "

برد شديد يهبط عليها من رأسها حتى أخمص قدميها، كل ما يحدث كثير وثقيل على عقلها .. لم تعد تستوعب شيئًا، يُتابع :" تظنين كل شي صدفة؟ لا يا رغد .. مافي شي اسمه صدفة، كنت أنتظر هاللحظة من أول مرة شفت حسابك بتويتر .. اختفيتِ يا رغد فجأة مع أهلك، كنا صغار ما نفهم شي .. ما استوعبت إلا وأنا وكبير وبعد ما طلع أبوي من السجن ودخل خالك السجن .. كنت مراهق صحيح، بس ما غابت الصورة عن بالي .. وين راحت بنت عمي؟ وين اختفت فجأة وكأن الأرض بلعتها .. لا عندها أهل وخالها الوحيد مرمي بالسجن، لما كبرت .. عرفت شلون أتصرف، بحثت بكل مكان عن أي شي يدلني عليك .. قريب واحد من أخوياي يشتغل بالسجن، تعرفت عليه .. قضيت فترة طويلة أحاول أوثّق علاقتي فيه، ما تعرفين وش اضطريت له عشان أقنعه

يعرف اسم أي شخص يزور خالك .. ما كان فيه غير شخص واحد .. ثامر، بحثت عنه بكل مكان .. قدرت بطريقة أعرف الأرقام المربوطة باسمه، ومن بينها رقمك .. ومن هالرقم وصلت لك بتويتر .. - يضيق صوته بقهر يقبض على صدره - ما تعرفين شكثر كنت أحترق كل ليلة بسببك، كل لحظة وأنا أتخيل شخص غريب يدخل ويطلع عليك .. بس والله ما أسامحه، بحرق الأرض تحت رجوله .. بسحّبه بالسجون لين يعوف نفسه "

كانت حروفه تصلها وهي مستلقية على الأرض أسفل الباب، جفّت عيناها من الدمع .. تضيع أنظارها على تلك العجوز التي تنظر إليها، وفجأة تسحب لحافها لتندس داخل سريرها وتنام خلال لحظة، وكأنها لا تعي كل ما يدور حولها .. يُتابع :" ما كنت أبي آخذك غصب وأخطفك نفس طريقة خالك، كنت أبي كل شي برضاك .. أبوي من شهور يدور لخالك، عرف بكل شي سويته .. كانوا يبون يجون ياخذونك من الشقة بكرة، بس لحقت عليك وأخذتك أنا .. - يطلق زفرة عميقة متعبة - أبوي ما بيأذيك يا رغد، انتِ بنت أخوه.. بس محتاج لخالك وبيضطر ما يأذيه لحاجته له"

تشعر به يقف من خلف الباب، تنكمش بسرعة لتعتدل جالسة .. تزحف حتى تصل إلى المقعد الذي كانت تضطجع عليه، يعود صوته :" أختي بتجيك بعد ساعة، لا تخافين منها .. بتجي تساعدك، بتجيب لك ملابس وأي شي تحتاجينه، أبوي ما بسمح له يدخل إلا إذا أنتِ بنفسك وافقتِ.. - يرق صوته بحنو - بس تكفين كُلي لك شي، وإذا ما عجبك اللي بالثلاجة إذا جات ندى علّميها وش تبين وأنا بجيبه لك"

ويبتعد ..

تُغمض عينيها تحاول استيعاب هذه الدوامة التي ألقت بنفسها فيها، تفكر بطريقة الخروج منها .. وكأنها تذكرت شيئًا، تهبّ جالسة بسرعة لتدسّ كفها بجيب العباءة .. تقف كالمجنونة تبحث بكلي جيبيها، لا أثر لهاتفها .. تستلم في مكانها، قد يكون سقط في حربها معه .. أو أنه أخذه منها دون أن تشعر، تعود مجددًا لترتمي على المقعد .. يعتصر قلبها وهي تتخيّل حال خالها إذا عاد إلى المنزل، لو اكتشف هروبها .. لو علِم أنها بين يديهم، كم ستكون خيبته كبيرة .. وانكساره أقوى عندما يواجه عمها.

-

يحاول ابتلاع ريقه كي يخفّف من حدة عطشه، رغم غروب الشمس.. وتأخر الليل واقتراب الفجر لم يرتشف رشفة واحدة، لو استمرّ هكذا بضع ساعات سيفقد وعيه لا محال.. تدور عيناه على غرفته الطينية التي طالما ضمته وحده وثامر .. تُنتهك الآن بزوجين من الأقدام دخيلين، يجلس أحدهما عند عتبة الباب.. والآخر يجلس في المكان الذي اعتاد أن يجلس عليه هو، رأسه يشتدّ بوجع كلّما تراءى له طيفها .. يشعر بأن عروقه تتفجّر وتشكّل أنهارًا على وجهه، يمرر لسانه على شفتيه الجافة ليزداد وجعه .. يقطع السكون الطويل انفراج الباب ودخول الرجل الثالث منبهًا زميليه:" وصل وصل .."

يعتدلان واقفين على دخول الرجل الطويل المخيف في عيني خالد وحده، يُغمض عينيه.. لا طاقة له بالنظر فيهما، يتمنّى لو يستطيع سد أذنيه حتى لا يخترق صوته المزعج طبلة أذنه، ضحكته الشامتة ترنّ فيه .. :" أهلًا أهلًا! شوفوا بس مين مشرفنا الليلة! "

يقترب من وجهه بعقدة حاجبين :" شبلاك؟ - يعتدل واقفًا - انتو ما سقيتوه؟ العرب تعامل ضيوفها بهالطريقة؟"

يغمض عينيه بشدة ورغبته بالتقيؤ تزيد مع كل كلمة ينطقها وهو يقرّع الشابين الواقفين أمامه بسخرية لاذعة، يأمر أحدهما بجلب الماء ووجبة سريعة من سيارته، لو كان أقوى لبصق كل الماء على وجهه .. لكن قوته أوهن من أن يرفضه، يبتلعه دفعة واحدة والآخر يجلس أمامه متأملًا ضاحكًا، يسحب قارورة أخرى ليبلل بها وجهه المتعب.. يعود صوت الشامت وهو يأمر الاثنين الآخرين بمغادرة المكان، تنتظِم أنفاسه أخيرًا بعد ارتوائه .. يخرج صوته هزيلًا :" رغد، وين؟ "

تعود ضحكته المقيتة مجددًا :" آهاااا، الحين دامك صحصحت اتركنا من رغد وخلينا بالمهـ."

يقاطعه بهدوء :" مالي كلام معك لين أعرف وين رغد"

يصمت، يثّبت أنظاره على عيني خالد .. يصرخ فجأة :"وين رغد؟؟؟ أنا أسألك وينها رغد؟؟ جاوبني"

ينفتح الباب على صراخه ليظهر من خلفه الرجلان، يبتسم وجهه بعد جموده للحظات ليشير للرجلين بالخروج .. يقف، يدور حوله دورة كاملة قبل أن ينحني مستندًا على

مقعد خالد، ويهمس ووجهه لا يفصله عن وجه خالد سوى شبر واحد :" رغد، بنت أخوي أنا! رغد، بنتنا .. انت الدخيل بينا! .. تبي تربيها بنفسك؟ - يتابع بشماتة مبتسمًا - جات عندي وأثاري يبي لها تربية من جديد!، تربية المزوّر المحترف أجل؟ .. تعرف إنها كانت تبي تبلّغ عليك؟ تعرف وش يعني؟ يعني عافتك وعافت العيشة معك! - يقف معتدلًا وهو يبدأ طوفانه حول خالد- أكيد مو انت اللي سرقتها من أبوها؟ شلون تبيها تحبك وتغليك؟ .. انت حتى ما تعرف وش المصايب اللي تسويها، غافل عنها وهي تتسكع بجوالها آخر الليل.. ولدي، ما عرف يوصل لها إلا بهالطريقة! لأنها صارت رخيصه***"

يقطع كلمته بجمود وبصقة غير متوقعة من خالد تستقر على وجهه وصوته الهزيل يقاطعه :" أشرف منك، ومن أبوها .. لا تطريها على لسانك، شغلك معي .. مو معها"

يسحب منديلًا من جيبه ليمسح وجهه بابتسامته البغيضة :" وش ترتجي من بنت عايشة نص عمرها وحدها وانت مرمي بالسجن؟ .. بس لا تخاف، هي في النهاية بنت أخوي، بربيها من جديد مثل بنتي"

يسحب مقعدًا ليثبّته أمام خالد، يجلس وصوته يتحوّل جادًا أكثر :" اسمع، هذي صفقة بيني وبينك .. تنفّذ المطلوب وأرجّع لك رغد"

يرفع أنظاره ليثبّتها باهتمام :" مستعد أسوي أي شي ورغد ترجع لي"

يأخذ نفسًا طويلًا وهو يعبث بأظافره :" تزوير ..."

يقاطعه بسرعة :" ايه طيب أي أوراق؟ "

يعتدل بجلسته لينحني بظهره ويقترب أكثر منه :" شغلة بسيطة، كنا نقدر نستخدم أي أحد نعرفه .. بس سعرهم مرتفع والتمويل صار ضئيل وصعب بهالوقت .. لكن انت، أعرف إنك متواضع .. وما بترضى بسعر غير رغد! وهالشي سهل ونقدر نحافظ على تمويلنا بأشياء أهم "

ترف جفونه باضطراب، يُتابع الآخر وهو يلحظ اضطرابه :" لا تخاف، كلها كم خطاب وبيان .. ما أظنه صعب عليك - تدور عيناه حول المكان بتقزز- بس هالخرابة ما تصلح لنا، باخذك لمكان آمن ومريح وموفّر فيه كل الأجهزة اللي تحتاجها .. انت بس تكّي واشتغل والباقي علينا"

يهتز صوته بقلق وضعف :" خطابات باسم مين؟ "

يقترب من أذنيه ليهمس :" شخصيات أمنية ورموز كبيرة - يغمز بعدما ما ابتعد قليلًا - بس تبدا الشغل تعرف الأسماء"

يمسح وجهه بتوتر :" مستحيل"

-" مافي شي مستحيل خالد، كلها كم ورقة .. تنتشر، يتناقلها الناس بتويتر.. تصير شوشرة، يجي كم مختص يبيّن إنها مزوّرة، وينتهي دورك! "

يضعف صوته بضيق :" انت تقولها، سهل يبيّنون كذبها، وش تستفيد غير إنك تأذيني؟ "

تتسع ابتسامته لعلامات الضعف بوجهه :" كذا ينتهي دورك، بس يجي دور الإعلام الصديق .. ياخذها بشكل غير مباشر، يزيدون الحكي .. وهنا ينزرع الشك بين الناس، ويبدؤون يلتفتون لكل شي"

يهز رأسه نفيًا بسرعة :" مستحيل، مستحيل أشارك بضرر لنفسي ولرغد ولبلدي.. مجنون انت؟؟"

يعقد حاجبيه باستياء :" بلدك؟ انت شايف حالتك وتقول بلدك؟ انت مجرد مجرم .. شاركنا الشرف عشان تقول بعدين بالمستقبل هذي بلدي حرفيًا! شارك فيه عشان رغد ومستقبلها! - يقف مجددًا لينطق بعد صمت

وأصابعه عادت لتعبث بأظافره- صحيح نسيت ما أقولك باقي اتفاقنا، النقطة الأولى بعد ما تخلص شغلك وقبل لا ننشر شي بناخذك برى السعودية، النقطة الثانية.. ما دام شغلك ما انتهى، رغد بتكون تحت رحمتي، قلت لك من قبل .. تربيتها مو عاجبتني، ما بسوي لها شي غير إني أرجع أعيد تربيتها، النقطة الثالثة .. مافيه مجال للرفض .. انت صرت شريك معنا الحيـ.."

قبل انتهاء كلمته، يُفتح الباب بقوة ليدخل أحد الثلاثة مضطربًا :" ابو عبدالله .. فيه سيارة جاية"

يلتفت لخالد الذي تزداد ملامحه ضعفًا وحزنًا :" انت معلّم أحد عن المكان؟ "

لا يسمع منه صوتًا، يعود ليلتفت إلى رجله :" ابعدوا السيارات عن الطريق وتعالوا هنا واتركوا صاحب السيارة يجي بنفسه"

يمتثل لأمره، يُبعدون السيارتين عن طريق الغرفة المتهالكة تحت سعف النخيل الميت، تختنق الغرفة المتهالكة بخمسة رجال .. يلتزمون جميعهم الصمت، لا شيء يخلخل الهدوء غير اضطراب أنفاس خالد .. يُغمض عينيه بشدة كي

يمنع دمعه وهو يسمع صوت وقع خطوات تقترب ونداء قريب إلى قلبه يعلو :" خالد! .. انت هنا؟ "

-

الآن..

إضاءة خافتة تخترق عينيها المغمضة، ويد دافئة تطبطب على خدها بخفّة .. تعقد حاجبيها بضيق ليصلها صوته الخافت يناديها مرارًا .. تستفيق من شرودها ليقابلها وجهه المنهك، يعقد حاجبيه بابتسامة صغيرة مُتعبة :" ليه نايمة هنا؟ بتتعبين"

تعتدل بجلستها :" ما نمت .. في أخبار جديدة؟ "

يجلس بجوارها على المقعد الطويل، يزفر زفرة طويلة هازًا رأسه نفيًا :" لا"

تتأمل ملامح وجهه المتعبة، شعره المتناثر بشكل عشوائي .. هالات سوداء تغطيه، لا تكاد تراه سوى دقائق معدوة منذ اختفاء ثامر قبل ثلاثة أيام، يركض صباحًا لمتابعة بلاغه .. لا يعود إلا متأخرًا ليهرع إلى أبيه المتعب ويقضي معه الوقت

يُطعمه بيديه بعد محاولات لرفضه ترك الصيام، يعود ليتشاور مع خاله ناصر حول اختفاء ثامر .. ولا ينام سوى ساعات قليلة متقطعة، إن كان اختفاء ثامر خلّف خلفه مواجع كُبرى .. فحسنته الوحيدة هي أنها كشفت لها نجد عن قُرب أكثر، رغم سوء نفسيته إلا أنه فور دخوله يهبّ مسرعًا إلى والده .. يحاول كتم خوفه ليُظهر له الطمأنينة، يعامله كما يعامل الأب ابنه، وما إن ينتهي منه .. يتصنّع ابتسامة لها تطمئنها، يرحل إلى خاله مسرعًا ليلوذ بقهره وخوفه الذي يكتمه عنهما ..

تضع مصحفها على الطاولة بجانبها، تمد يدها تنوي تقريب كرسيها غير أن صوته يمنعها :" وين؟ "

تُشير للساعة المعلقة :" باقي نص ساعة عالفطور.."

يسحب كفها القابضة على مقعدها ليُبعدها عنه :" جبت فطور جاهز معي .. استريحي وكملي وردك"

تأخذ مصحفها مجددًا، تعود لقراءة ما توقفت عنده .. تضطرب قليلًا وهي تشعر به يضع رأسه على فخذيها مضطجعًا بسكينة، يسمع تلاوتها المطمئنة .. تنتظم أنفاسه والنوم يغلبه، يسرق لحظة السكينة هذه حتى يفرّ من متاعبه وينام لدقائق قبل أن يرّن هاتفه قاطعًا سكونه ..

يعتدل بسرعة واضطراب، يسحب هاتفه ليهب مبتعدًا عنها وهو يتعرّف على المتصل .. يغيب لدقيقة عند خاله في المجلس الخارجي ليعود لها مجددًا بعجلة :" يمام، يمكن أتأخر .. تكفين لا تنسين تتفقدين أبوي"

تنطق بسرعة وقلق :" نجد صار شي؟ "

يهز رأسه نفيًا بسرعة وهو يبتعد :" لو صار شي ما بخبي عليك "

يخرج برفقة ناصر على صوت الأذان، ما سمعه من صوت رجل الأمن سلب عقله .. يوقف سيارته أمام مجمع كبير، حيث دلّه .. يدخل الشقة برفقة ناصر ورجلي أمن وعقله يكاد ينفجر، شقة صغيرة في مجمع سكني كبير مؤجرة باسم ثامر؟ ومنذ سنين طويلة؟ ماذا يُخفي ثامر أكثر .. ماهي المصائب التي يخبأها منذ زمن طويل؟

يجنّ جنونه وهو يسير في الشقة، غرفتان فقط .. غرفة صغيرة تشي أن ساكنها ليس إلا (فتاة) لوحات مبعثرة في كل مكان لثامر ولخالد واسم ثالث دخيل (رغد)، والغرفة الأخرى أشبه بغرفة نوم لرجل .. حالتها سيئة، الملابس في كل مكان، الفِراش مهمل ..

يمضي وقتًا فيها وهو يحاول فكفكة ألغاز ثامر، يخرج بعد وقت طويل إلى المركز الأمني ليدلي بكل ما يظنه .. من خلال اللوحات المبعثرة يعتقد أن ساكن الغرفة (الأستاذ خالد) رفيق ثامر ومعلمه .. أما الغرفة الأخرى، اللمسات الأنثوية .. لن تكون سوى لتلك الفتاة التي كانت تقف بجوار خالد في السوق الشعبي.

-

تطرق الباب لتنبه ابنة عمها ليأتي صوتها مرتفعًا ممزوجًا بصوت مجفف الشعر :" ادخلي رييم"

تخطو للداخل بحرية، تتأمل غرفة هديل التي لا تشبهها .. الأسبوع الذي أمضته معها كشف لها فوضوية هديل، وقلبها الأبيض .. تباعد تفكيرهما لم يزدها إلا تعلقًا بها، هي نسخة عن أبيها وهديل كربون مشابه لعمها .. تقف أمام المرآة، تشدّها ورقة ملعقة .. ورقة منزوعة من كتاب مليئة بقصيدة عذبة ورسم فاتن بقلم الرصاص لوجه شاب جميل، تتأمل ملامحه للحظات تحاول ربط وجهه بحروف القصيدة

(أَيَا مُورِقاً بالصبايا

ويا مُترَعاً بلهيبِ المواويلِ

أَشعلْتَ أغنيةَ العيسِ فَاتَّسعَ الحُلْم

فِي رِئَتَيكْ

سَلامٌ عَليكَ

سلامٌ عَليكْ

مُطِرْنَا بِوجْهِكَ فَلْيَكُنِ الصُّبح مَوعدنَا للغناء

ولْتكُنْ سِدرة القلبِ فواحةً بالدماء

سلامٌ عليكَ

سَلامٌ عَلَيكْ)

- " تتمقلين بمين يا ست الحسن؟ "

تلتفت بسرعة وخجل لتنطلق ضحكتها على ملامح هديل العابثة، تشير للورقة :" مين هذا؟ "

تتقدم لتتجاوزها، تجلس على الكرسي :" سر! "

تتسع ابتسامتها :" لا أمانة جد، خطيبك؟ "

تبتسم وهي تنثر شعرها الأجعد :" ايه هذا هو يوسف "

يصلهما في هذه اللحظة صوت من النافذة يُلقي السلام ويبادله صوت والدها .. تقفز بسرعة إلى النافذة وهي تقول :" تعالي تعالي، شوفيه .. هذا هو"

تتسع ابتسامتها أكثر وهي تراها تلوّح له بحماس شديد، تتكئ على المكتب :" لا خليه لك، ما عندي فضول "

تشهق فجأة لتتراجع بعيدًا عن النافذة :" يا ويلييي! ليش ما علمتيني إن شعري مثل الشجرة! "

تضحك بخفة وهديل تطير إلى المرآة لتتأمل شكلها وتشتم نفسها، تقترب منها لتمسح على شعرها :" والله حليو، مو مرة منكوش"

تحاول جاهدة ترتيبه وصوتها المغتاظ يزداد :" يأشر على شعري والشجرة! يحسبني ما بفهم! "

تبدأ بتسريحه ريم وابتسامتها تزيد وهديل لا توقف تذمرها حتى انتهت منه، تودّعها بقبلة لتنطلق إلى خطيبها وأبيها.

تترك ريم خلفها، تضيع بدوامتها مجددًا.. تسرق الديوان الشعري من غرفة هديل لتلوذ إلى غرفتها علّها تقطع التفكير به، تقرأ بعض الصفحات .. لكن وسواسها يعود مجددًا، لا تعي بنفسها إلا وهي تحمل هاتفها .. تفتح تطبيق تويتر، تبحث عن اسمه .. بسهولة تجده (ناصر الفيصل) بصورته المتألقة، تنسى الوقت وهي تقضيه بين تغريداته .. معظمها قانوينة، يتخللها أذكار أو بعض الأبيات الشعرية .. يشدّها

فجأة اسم يُعيد تغريداته كثيرًا (نجد ياسر)، (نجد) هو اسم شقيقه الذي راح ضحيةً في تلك الليلة .. وورود هذا الحساب كثيرًا بين تغريداته غير عبثي، تفتح صفحته .. يضع صورة قديمة لطفل في الحادية عشرة من عمره يجلس بجوار رجلٌ ثلاثيني.

تستعيد عقلها فجأة لتُغلق البرنامج وهي تزفر بقوة، بات يلاحقها في كل مكان من شدة شعورها بالخيانة.

-

في ذات المدينة، تنفصل عنهما لتتابع طريقها إلى الجامعة .. تُخرج بضع دولارات لتُعطيها أحد المشردين، تتابع طريقها وهي تهمس :" يارب طمّن قلبه ورجّع أخوه سالم"

وهما يتخذان الطريق المعاكس، إلى المستشفى .. يمشي بجوار عبدالعزيز والضيق يأكله، يبادره بالسؤال :" ما في أخبار جديدة عن أخوك؟ "

يزم شفتيه بضيق نافثًا زفيرًا حارًا :" لا! .. تعرف عمي؟ .. أحس العجز ياكلني وأنا بعيد، أحس بشلل وأنا مو قادر أسوي شي"

يطبطب على كتفه :" إن شاء الله تسمعون أخبار مطمنة قريب، بس قوّي ثقتك بالله"

يطلق زفيرًا :" ونعم بالله"

يُتابعان سيرهما وكلّ منهما يغرق بهمه، لا يعلم يوسف حجم الألم الذي سببه خبر اختفاء ثامر.. ثامر ذاك الطفل الصغير، لم تجمعهما سوى أيام معدودة .. لكنه بقي عالقًا بذاكرته، تعود ذاكرته إلى يومٍ بعيد .. بعد عودته من الغربة، كانت المياه الراكدة لسنين بدأت بالجريان بين عائلتهم وعائلة نجد إثر خلاف قديم بين أراضٍ ورجال قد عفا الزمان على قبورهم.. وحبال الشوق الوثيقه بين الرفاق الأربعة تماسكت مجددًا ليتنازل كل منهم ويعيد أيامهم الخالية كما كانت، هو وتوأمه يوسف بصف .. ونجد ورفيقه المقرب ياسر بصف آخر، بدعوة من ياسر الذي كان خارج النزاع العائلي ليلمّ الشمل مجددًا ..

يتوسط هو وأخوه يوسف مجلس ياسر، ونجد عن يمينهما يصبّ القهوة مرحبًا وكأنه صاحب المنزل .. يدخل ياسر ممسكًا بكف الطفل الصغير، يشير إلى يعقوب الجالس :" والله ثامر يبي يسلّم على صاحبنا الأمريكي"

يضحك ليرحّب به، كانت ملامح ثامر تشي بأنها تحمل خلفها طفل مشاغب لعوب، تمامًا كتوأمه يوسف .. كان يجهل كيف يعامل الأطفال، سرعان ما أصاب ثامر الصغير الملل لينتقل إلى يوسف ويبدأ بملاعبته بمرح.. يتحدّاه الآخر بأن يستنتج الفروق العشرة بينه وتوأمه .. يصيبه الضيق وهو يعجز ويستسلم بسرعة، يطبع يوسف على كفه عضة ترسم ملامح أسنانه .. ليضحك الصغير بقوة متظاهرًا بأنه أقوى من أن يبكي، ليكافئه يوسف برسمة مضحكة لساعة وهمية حول علامات أسنانه .. وقبل أن يغادران، يختلس ثامر خاتم يوسف المفضل ليفرّ هاربًا كنوع من الانتقام، يذكر وقتها أن ياسر أمضى أيامًا وهو يبحث عنه وثامر اللعوب يصرّ على ألا يخبره بمكانه .. حتى أعاده بنفسه بزيارتهم التالية، لا يدرك يوسف أن الخاتم الذي يقبع في خنصره هو ذات الخاتم الذي أُعجب به أخوه ثامر ودفنه بالتراب لأيام معدودة.

يفترقان ليبدأ يوسف عمله أما يعقوب ينتظر دوره لطبيبه خلال دقائق يدعو الله فيها أن يُقرّ عيني ياسر برؤية ثامر مجددًا بكل خير، لم تغب صورتهما عن ذكراه إلا على حديث طبيبه الذي يُلقي عليه خبره دفعة واحدة، فكرة

الاستئصال تلك .. تتحوّل إلى واقع، إما أن يتنازل عن رئته المصابة ويتخلّص تدريجيًا من سرطانه .. أو أن يُحافظ عليها لتأكل ما تبقّى منه.

-

يفتح عينيه بتثاقل ليتراءى له منظر دمه مختلطًا بالتربة .. يشعر بأن الكرة الأرضية بأكملها تقبع على رأسه لتخلّ توازنه بثقلها، عيناه تكاد تخرج من محجريهما .. الشمس غربت، هذا يعني أن وقت دخول سجّانه حانت، وكما توقّع .. يسمع صرير الباب، ينفتح ليدخل بثوبه الأبيض.. يُغلق الباب خلفه، يضع قارورة الماء أمامه .. وكالعادة يضع (ماصًا) بلاستيكيًا حتى يتسنّى له الشرب ويديه مكبلتين، يرتشف الماء دفعة واحدة ليختلط طعم دمائه بالماء..

يرى أقدام سجّانه وهي تبتعد ليجلس مقابله متكئًا على الشجرة :" مفروض تشكرني يا سيد صايع، لو أخويا أبوي هم اللي مستلمينك كان ما ذقت حتى التفلة!"

يغمض عينيه ليتكئ على الجدار، قوته تنهار يومًا بعد يوم.. لا يملك من أمره شيئًا، يقف فجأة سجّانه ليقترب منه ويشد على شعره القصير بأصابعه حتى يُجبره على رؤيته، يتأمّله مطولًا .. يُثبت عينيه المتورمتين بعينيه ليُغلقها مجبرًا يمنع بصقته من أن تخترقهما، يشدّ شعره أكثر ليهمس بنيران تأكله :" باقي ما شبعت، باقي ما أخذت بحقي وحقها .. والله يا ثامر، والله لأخليك تتمنّى الموت كل ليلة مية مرة.. عن كل مرة تخطيت حدودك فيها وتجاوزت عرضنا، والله لأخليك تبلع دمك من ظماك.. "

يرمي برأسه بقوة ليصطدم بالجدار، يقف ليخرج قليلًا ويعود بسرعة .. يلتفت ليجلس خلف ظهر ثامر، يسحب كفه المقيدة، يزيد اضطراب أنفاس ثامر وصوت القداحة يصله .. يغمض عينيه بشدة ينوي تثبيت نفسه، غير أن صرخته تخرج مجبرة والنيران الحارقة تحرق إصبعه .. يهتز بضعف وفحيح الآخر يصله :" والله لأحرق كل أصابعك، عن كل ليلة تجاوزت فيها عرض بنات الناس .. لو بضطر أحرقك كلك"

يقف ليركله ركلة أخيرة، يقترب من الباب .. وقبل أن يبتعد يلتفت :" قبل لا تفطس أوعدك أجيبها عشان تشوف جيفتك وترميك للكلاب، يا كلب "

ويخرج ..

خلف الجدار الملاصق، يُغمض عينيه بشدة ليفتحها وكفه يرتعش :" يكفي! .. وش تبون منه؟ شلون تبوني أشتغل وأنا أسمع صراخه كل ليلة! "

يعتدل بجلسته أحد الرجال ليُشير للشخص الجالس بجواره :" ياخي وهو صادق.. هالمراهق عبدالله أذانا، روح طلّعه لا يذبح الولد!"

يقف الآخر :" لازم نكلّم أبوه يوقفه عند حده ولا يقرر ياخذ كلبه معه بعيد عن شغلنا"

يهز رأسه الآخر :" اي والله لا يعطّل شغلنا زيادة "

*•

اخلع هُنا نعليك

ثم انهض على قدم الثبات

واصعد إلى العتبات

وارفع يديك إلى السماءِ

قبّل نوافذه

ومرّ على صراط البينات البينات

- سيد البيد

الورقة الحادية والعشرون

تستند بذراعيها على النافذة، تتأمّل إضاءة المسجد .. تراقب دخول الأطفال محمّلين بأطباق متنوعة وخروجهم مباشرة، توافد رجال معظمهم من الوافدين للعمل .. دقائق حتى يرتفع صوت الأذان، تستكين الشوارع لدقائق قبل أن تكتظ مجددًا ، منظر اعتادت عليه منذ أن حلّت شريكة لتلك العجوز التي يدّعي عبدالله أنها جدتها قبل أسبوعين، منذ استيقاظها تتشبث بالنافذة لوقتٍ طويل علّها تجد أسفلها ذاك الشارع الطويل يصطف عليه محلّ الألعاب وبجواره مشغل نسائي ومطعم شعبي صغير وتتأكد أن ما تعيشه مجرد كابوس وهذه الإطلالة ليست إلا إطلالة غرفتها البعيدة، لكنها تستفيق كل مرة لتجد المنظر ذاته .. المسجد الصغير نفسه، الأطفال نفسهم، العمال ذاتهم ..

تعتق النافذة متجهة إلى الثلاجة الصغيرة، تكتفي بارتشاف الماء وبعض قطع التفاح .. تزم شفتيها وهي تسمع ذات الكلام رأس كل ساعة :" انتِ من بنتن له؟ "

تطلق زفرة وهي تترك التفاحة :" ماني بنتن لأحد، أنا بنت نفسي"

موّال تكرره تلك العجوز كل ساعة، لتعود لها ذات الإجابة .. ما عرفته خلال هذه الأيام أن العجوز تعاني من علة الخرف، تتناوب امرأة وابنتها الحامل على الحضور ثلاث مرات كل يوم .. دقائق معدودة لإعطائها دوائها وتفقّد الثلاجة وسرعان ما يرحلان، جاهدت حتى تسمع صوتًا منهما.. لكن وكأنها وتلك العجوز غير مرئيتين، لا سلام .. لا تبادل حديث، مجرد نظرة شفقة ترميانها لرغد قبل أن يُغلقا الباب.

ما أن تنتهي من صلاتها يصلها صوته خلف الباب :" رغد؟ "

تسرع لتقف مستندة على الباب .. يعود صوته :" شلونك؟ "

الدقائق المعدودة التي يقف فيها خلف الباب تمثّل لها النافذة إلى العالم الخارجي، وحده من تسمع صوته ويجيبها، تزفر بضيق:" ماني بخير، عبدالله كم مرة لازم أقولها عشان تعرف وش يعني مو بخير؟ "

" خلاص هانت، قريب ينتهي كل شي .."

تهز رأسها نفيًا بعدم تصديق، منذ كانت طفلة وهذا (القريب) يبتعد أكثر .. لطالما سمعتها من خالد، من ثامر، والآن منه .. هل قاموسها اللغوي منقلب على عقبيه؟ تعبت وهي تردد (أنا مو بخير) ليبتسم في وجهها الجميع متظاهرين بأن كل شيء سيكون بخير، كل ما تعيه يعاكسه الجميع حتى باتت تشك في كل كلمة تقولها، ينخفض صوته متابعًا :" رغد .. وعدتك يكون خالك بخير، حاولت والله .. قبل لا ياخذه أبوي كلمته ونبّهته، ما كان يعرف مين أنا .. لكن الظاهر الوقت كان متأخر، وأصحاب أبوي كانوا أسرع من هروبه .. - يضيق صوته أكثر- ما تمنيت يصيبه شي، كان كل هدفي هو إنك ترجعين لنا ونعدّل وضعك"

تزدرد ريقها وصورته تتراءى لها :" شلونه؟ "

تشعر به يقف خلف الباب وهو يقول :" بخير، ياكل وينام ومرتاح .. بس ينتهي من شغله مع أبوي بيكون بخير وبمكان آمن"

تقاطعه بنفاد صبر :" ووش شغل أبوك؟ إلى متى وينتهي كل هذا؟ "

يصمت قليلًا قبل أن يجيبها :" مدري .. لا تسأليني عن شغله، كل اللي أعرفه إنه مخالف عشان كذا مضطر لخالك .. مع السلامة رغد"

تشعر بخطاه تبتعد، تزفر بهم كبير .. تعود لتجلس على سجادتها، أمام جدتها التي تعبث بلحافها كطفلة صغيرة .. تضم ذراعيها حول ركبتيها والحيرة التي رافقتها منذ دخولها هذه الغرفة تأكلها، أين ثامر؟ أيعقل جهله بكل ما يحصل وهو الذي يلازم خالها كظله؟ هل هو منشغل مع خطيبته إلى هذا الحد؟ أم فرّ هاربًا من جحيم بؤسها وخالها؟

تضطجع على السجادة لتتدثر برداء الصلاة، لن يتخلّى عن خالها .. لو اضطر للتخلي عن كل شيء، تثق بوعده .. وتعيش على هذه الثقة، على صوته (وبعز حاجتك لي بترك الدنيا وأجيك)، تثق أنه سيدخل يومًا هذا الباب لينتشلها .. وإن طالت بها الأيام.

وعلى الجهة المقابلة، يهرب من صوتها الحزين .. لم يكن يتمنّى أن تؤول الأمور إلى هذه المأساة، لو لم يتدخّل والده .. لكان كل شيء بخير، يدرك تمامًا كم تحب خالها وإن حاولت الفرار منه .. عندما علِم بتحرك أبيه ورجاله لم يكن بيده سوى أن يتصل برقمه، كلمات قليلة تأخرت عن موعدها

(السلام عليكم، خالد انت ما تعرفني.. لكن ابعطيك خبر إن أبو عبدالله ورجاله جايين لشقتك بالطريق، حاول تطلع قبل لا يوصلون .. ورغد بخير وبأمان ببيت جدها) لم يسمع صوته، اكتفى بتنبيهه ليقطع الخط وكله رجاء أن يتمكّن من الفرار، أن تنتهي قصة رغد عند هذه النقطة .. لا أن يقتحمها والده وتتحوّل إلى كارثة أمنية.

يجلس على السلم وهو يتأمل كفيه، إلى أي درجة تحول إلى وحش؟ هو من أجبره أن يكون بهذه الوحشية، سار إليهم بقدميه .. يعلم أن رجال أبيه لن يكونوا أرحم منه، شخص طفيلي أدرك مؤامرتهم لا بد أن يلقَ حتفه حتى لا يشيَ بهم وينتهي عملهم قبل أن يبدأ، كان يتمنّى لحظة وقوع ثامر بين يديه، وفي ذات الوقت يتمنّى لو يختفي اسمه إلى الأبد حتى لا يضطر لحرقه واقتلاع عينيه التي انتهكت ابنة عمه، لا زال يذكر نظراته لرغد في المعرض .. يجلس بجوارها وكأنه حاميها أو حارسها الشخصي، عيناه تغوص فيها بحرية ودون قيود .. يظن نفسه الأحق بها، لا شيء سيشفي غليله غير نيران تحرق أصابعه .. يعلم تمامًا كيف لوجع النيران أن يبق لصيقًا إلى الأبد وهو الذي ذاقه، الندوب التي توشم نفسها

ستذكره حتى يشيب بما فعل.. تمامًا مثله، كلّما رفع كفه تصافحه تلك الندبة التي رافقته منذ طفولته ..

يُمرر إبهامه اليسرى على سبابته اليمنى حيث تقبع ندبته، تُذكره بما فعل صغيرًا .. كان كل ما فعله هو إلقاء التحية العسكرية أثناء تدربه على دور لمسرحية مدرسية تحكي عن الأبطال الذين خاضوا معارك الوطن ضد هجمات الإرهاب، كان ما زال طفلًا متحمسًا .. يتمنّى لو يصطف بكل مباهاة في مسرح المدرسة ليُؤدي دوره التمثيلي، لا زال يذكر كيف انفعل والده بغضب .. حذّره مرارًا من أن يقوم بهذا الدور (البائس) في نظره، لم يهتم .. تشجيع معلميه وأصدقائه أنساه تهديدات والده، لم يكن يتصور أثناء آداء المسرحية أن يكون والده متواجدًا بين الحضور، كاد يغصّ من شدة خوفه .. إلا أنه أدّى دوره كما هو مطلوب، استقبله والده عند بوابة المدرسة.. أخذه بالسيارة بصمت كبير، كان يهيء نفسه لمعركة كلامية غير أن والده فاجأه بصمته حتى اختلى به بمجلسهم أمام مشبّ النار، لا زال يذكر لسعة الحطب .. ثبّتها على سبابته لثانية واحدة غير أن ألمها صاحبه حتى الآن، جذبه إلى حضنه بسرعة بعدها وهو يهمس (أنا أغليك يا ولدي، بس هاللسعة أبيك تذكرها طول عمرك .. عشان

تسمع كلامي ثاني مرة، كفك ذي ما ترتفع وتحيي هالطغاة، هم يجرونك معهم بهالمسرحيات ويزرعون بقلبك الإيمان فيهم لأنك طفل! وأنا أبيك تكبر وتكون بطل .. مثل عمك، أبي هالأرض تكبر على يدك اللي لسعتها لأنها حيّتهم وأبيها تاخذ بحقها وتلسعهم!)

ما زال يذكر حديث والده هذا، ندبته التي خلّفها في فؤاده قبل يده.. وآثارها التي جلعته دائم الشك في كل ما يحيط به، يتنهد بثقل على سماع صوت انفتاح الباب.. يرفع رأسه لتقابله أخته ندى ببطنها المنتفخ، يرسم ابتسامة مرهقة :" شلونها الحلوة؟ لا يكون متعبتك؟ "

تطلق زفرة ثقيلة صاعدة السلم، لتقف بجواره :" بخير "

لحظات صمت طويلة تمر وكل منهما يصارع داخله قبل أن تقطعه وهي تستند على حاجز السلم :" سعد ينتظرك، لا تتأخر عليه"

يرفع رأسه لها أخيرًا .. يلين صوته برجاء :" تكفين ندى، حاولي تسولفين معها .. حسسيها بالراحة"

تضيق عيناها بقلة صبر :" ما أقدر! ، حاولت والله يا عبدالله .. بس ما قدرت، مابي أشارك بظلمها.. - تجلس بجواره لتُتابع- عبدالله أنا خايفة عليك! ورطت نفسك

بموضوع أكبر منك .. بكل يوم أصحى وأنا مجهزة نفسي أسمع خبر عن أبوي أو سعد، بس انت! .. مابي يصيبك شي، مابيك تنجر معهم وتجلس أمي تلطم كل ليلة بسببك!"

يغمض عينيه بضيق، فات أوان حديثها .. يقف ليرسم ابتسامة صغيرة :" لا تخافين علي "

ينزل الدرجات بسرعة ليركب سيارة زوجها، ينطلق به متوجهين إلى وكرهم .. حيث يتخلّى عن إنسانيته ويرمي قلبه بعيدًا مرتديًا ثوبًا لا يشبهه.

-

يسيران معًا متشبثة بعضده، تشد على معطفها الطويل حتى لا تكشفها نسمات الربيع الباردة.. إضاءات الشارع الخافتة بعد غروب الشمس وصوت مياه النهر الهادئة تجتمع لتشكّل فرصة نادرة لتكشّف الأوراق والتخلص من عبء الماضي، ترفع رأسها على صوته الهادئ مكملًا حديثه :" مضطر أسوي العملية، بس تدرين؟ - يقطب حاجبيه بضيق - متخوف كثير!، أحاول أطمّن عمتك وهديل وأنا اللي محتاج من يطمّني"

تشد عليه أكثر، تحاول أن تقوم بالدور الذي يحتاجه ..
يأتي صوتها واثقًا :" توكّل على الله عمي، ما تدري يمكن تكون العملية بوابتك للحياة من جديد"

يبتسم بحنو ممزوجًا بمزاح :" وهو باقي عمر؟ أظن خلاص وصلت للخمسين واكتفت الحياة مني"

تعقد حاجبيها بضيق :" العمر بيد الله - ترسم ابتسامة واسعة - بعدين توّك شاب! عمتي مفروض تخاف عليك من البنات"

يضحك بخفة وهو يطبطب على كفها التي تشد عضده :" يابوك مو كذا ترقعين لي "

يصمت لبرهة قبل أن يُتابع بعد زفرة :"الله ياخذ ويعطي، أخذ مني نص روحي بس عطاني يوسف، وأخذ أبوك بس حطك بطريقي .. تشبهين أبوك كثير"

تبتسم لتمنع غصة تكوّنت على ذكر أبيها :" مو كثر شبهك له"

تتورّد خداها بخجل وهي تشعر بكفه تسحب كفها ليُقبّلها بإحساس الأبوّة، يُتابع وعيناه تضيع على نهاية الطريق حيث ودّعت الشمس الأرض :" ثقل كبير يقتلني كل ليلة بسبب خوفي إن الله ياخذ أمانته وباقي برقبتي دم صاحبي"

تتجمّد للحظات وذكر الحادثة يجفّف ريقها، لا تعرف (صاحبه) ولا حتى عمها الراحل يوسف، كل ما يتراءى لها عند ذكر (دم نجد) هو صورة أستاذها ناصر، تمشي برفقته وهي تحاول أن تدوس على صورته المتشبثة بالشارع أمامها علّه يختفي عن ناظريها .. لكن أوليست هذه فرصتها لتحاول ترميم كل شيء؟ .. ترفع رأسها بهدوء بعدما ابتلعت ريقها الجاف :" عمي"

يصلها صوته شاردًا مهمومًا :" هممم؟ "

تستجمع كل قوتها لتنطق أخيرًا :" صدق تعمّدتها؟ "

يطلق زفرة عالية طويلة وهو يقول :" كنت أعمى، قلبي انعمى وأنا أشوف دم يوسف، ما تعرفين يوسف يا ريم! ما تعرفين شلون كان شايل الدنيا كلها بعيوني ... تعمّدت؟ ايه، تعمّدتها بس بدون عقل، صاوبته وسواد الدنيا كله حولي.. كنت أشوفه عزرائيل اللي أخذ روحي معه"

تزم شفتيها ودمعتها اليتيمة تمسح خدها :" ما حاولت تصحح خطأك؟ "

يبتسم بسخرية :" وقت ما اكتشفت السرطان قررت أتخلص من ذنبي، قبل لا يموت أبوك جيت للرياض على أساس كل شي ينتهي .. بس اكتشفت إني جبان، أخذتك

وتعللت بخوفي عليك وهربت من جديد .. فكرة المشي للموت مخيفة مهما تظاهرت بقوتي"

تغمض عينيها للحظة تلملم حديث قلبها قبل أن تخرجه :" في مجال للعفو بس انت ما حاولت، تحملت خسارة عمي يوسف .. السنين اللي قضيتها بعذابك ممكن تشفع لك عند صاحب الدم"

لا يرد، يلوذ بصمته .. لتُتابع بضيق :" صاحب الحق إنسان يخاف الله، لو حاولت صدقني ما يردك"

تشعر بخطاه تتوقف فجأة، تُجبر على الوقوف معه .. تزم شفتيها لتُنزل رأسها وهي تتحرر من ذراعه على صوته المذهول :" تعرفينه؟ "

تهز رأسها المطأطأ :" كان أستاذي بالجامعة، ووقف معي بقضية المبتزين .. - ترفع رأسها وصوتها يختنق أكثر - صدقني عمي، أستاذ ناصر صاحب مبدأ .. ساعدني وهو يعرف أنا بنت مين، بس يحتاج وقوفك قدام العداله ويتنازل عن كل شي"

يهز رأسه بتشتت وضياع :" ما تعرفين شي يا ريم، في أمور أكبر من كل هذا .. - يمسح وجهه وهو يبتلع ريقه - بس خلاص أنا قررت ينتهي كل شي قبل لا أسوي العملية، باخذ

هديل تشوف عيد الرياض مثل ما وعدتها، بنسوي العمرة عسى الله يطمن قلبي ويثبتني .. وبعدها أمشي لقدري راضي وأصحح كل اللي تركته وراي"

تذبل ملامحها بحزن، تذكر فرحة هديل وتجهيزها لعمرتها الأولى .. شوقها للرياض التي لا تعرفها إلا من خلال قصص والدها وخطيبها، حماسها الشديد لمقابلة أهل خطيبها أخيرًا .. دعاؤها المبتهل بأن يعود أخو يوسف بكل سلامة حتى يُقام حفل زفاف أخيه الآخر خلال أيام العيد وتتمكّن من حضوره قبل عودتها، كيف لأخطاء ماضية قبل سنين طويلة تقتل أماني صغيرة كهذه، لو لم يحدث كل هذا.. لو انتهى الأمر عند النقطة التي يجب أن ينتهي عندها، لكانت هديل غير موجودة .. لن يقف بجانبها عمها الذي يكبر حبه كل ليلة في قلبها، يشد على يدها وتشد على عضده .. يفرّغ وجعه ومخاوفه أمامها، تسير معه وكل آمالها متعلقة بذاك البعيد، أن يرقّ قلبه ويعتق عمها ليعود كل شيء كما كان ..

-

يذرع الغرفة ذهابًا وعودة، يخنقه المكان .. يُطبق على صدره، هل أصبح شريكًا في جَرح وطنه؟ الأم التي رعته ومهما عقّها تمسح على رأسه، أرضعته حليب الحب حتى امتلأ به .. هل يُجزيها بهذه الخيانة؟

فقد روحه كل هذه الأيام، عزاؤه أنها أيام فضيلة .. كرّس دعاءه وكله رجاء بالفرج، موقن بالإجابة وإن طال الانتظار ..

يتوقف فجأة على صوت انفتاح الباب وملامحه تتهلل، سرعان ما انقلبت إلى هلع وذاك الجسد يقف أمامه .. هذا ليس ثامر، هذا شبحه .. شعره الأشعث متناثرًا، وجهه من شدة ذبوله يُصعب عليه فتح عينيه، شفتاه المتشققة تحولت إلى لون الليل .. رجفة يديه يفقد السيطرة عليها حتى ظنّه لا يشعر بها.

تعتصر ملامحه بقهر لا يسيطر عليه وابتسامة ثامر تستقبله، يفتح ذراعيه ليسحبه إلى حضنه .. يضمّه بحسرة وهو يشد عليه أكثر على صوت ثامر الضعيف :" انت.. بخير؟ "

يغمض عينيه بحزن، ثامر الذي يقضي كل يومه في الحظيرة الصغيرة، يسمع صوت صراخه كل ليلة .. يسأله هو الذي يقضي يومه في هذه الغرفة المكيّفة، بسرير وثير، ووجبة متكاملة إذا كان بخير؟

تفصلهما كف وهي تسحب كتف ثامر عنه :" خلاص بلاش دراما يا ماما .. طلبت تشوفه وجبناه لك، اخلصوا علينا وملي بطنه وفكوني من هال****"

يشد على أسنانه بغيظ من حديث الواقف بجانبهم، يبتلع غضبه وكل همّه ندبات ثامر الموزعة على ملامحه، يُجلسه على المقعد أمام طاولة مليئة بالطعام ويتخذ مقعده أمامه، والرجل الدخيل يبتعد جالسًا بزاوية الغرفة يعبث بهاتفه ..

رجفة ثامر لم تخفَ عنه، عقدة حاجبيه المتألمة .. يكتّف ذراعيه ببعضهما وصوته يخرج ضئيلًا وعيناه تدور على المكان :" المكان بارد، شلون جالس هنا؟ "

يهبّ واقفًا بسرعة ليزيد درجة المكيف، يعود إليه مجددًا متفحصًا ملامحه .. تضيع الكلمات منه ولا يجد غير كلمة واحدة تسعفه وهو يمسح وجهه بكفيه :" آسف "

يُقرب الماء والعصير من ثامر، ينشغل بإزالة الأغطية عن الطعام .. يُقرب الملعقة منه لتتسع عيناه وهو يراه ما زال

يحاول فتح الماء بكفٍ واحدة، ينزع القارورة منه ليسحب كفّه اليسرى بقوة رغم رفض ثامر .. يتأمّلها بوجع، تخذله عيناه غير قادرٍ على النظر في عينيه، ماذا لو اقتصرت علاقته معه بحدود جدران المدرسة؟ لو أبقى حاجز المعلم والطالب قائمًا حتى لا يتسبب في ضياعه؟ كان يظنّ بأنه استطاع انتشاله من ضياع فقده لوالده، يذكر ذاك المراهق بالمرحلة الثانوية كيف كان قد يتسبب لنفسه بدخول دوامة المخدرات .. مجموعة الطائشين في الحي المجاور ذوو الصيت العالي في إحداث الفوضى بالتفحيط يُماشيهم ثامر بإعجاب كبير حتى يُبقي سمعته وهو القائد الكبير لمراهقي حيّهم، حاولوا جرّه معهم وبضياع طائش، لم يكن مجرد (تفحيط)، توزيع الحشيش وسرقة السيارات وأمور أفضع لا يتخيّل خالد أن يقوم ثامر بها .. حديثه المطوّل معه محاولًا إقناعه بفضاعتهم، لا مبالاة ثامر وهو يقول (عادي بس بجرّب! لو حسيت نفسي بصير مثلهم بتراجع وبتركهم!) أمضى أيامًا محاولًا إبعاده عنهم حتى نجح أخيرًا، مراهقته المتعبة بدافع التحدي لعمّه، استطاع انتشاله منها ليوقعه بدوامة جديدة .. لم يكن يتصوّر انتهاء

الأمر بهذا الشكل، أصابع يُسراه المحروقة .. عاجز حتى عن فتح غطاء الماء.

يفتحها ويُلقيها له .. يتبعه بالعصير، يتأمل نهم ثامر وهو يشرب الماء دفعة واحدة .. وما أن انتهى منه تجددت ملامحه بحيوية، ينقل أنظاره للجالس خلفهما يعبث بهاتفه ويُلقي نظره لهما بين الفينة والأخرى ..

يشعر بخالد يُقرب له الطعام، يأخذه من يده .. يتناولانه بصمت وعيناهما تنقل أحاديث قلبيهما، كلّ منهما يحاول طمأنة الآخر بأمل واهم .. المهم أن تمضي هذه الأيام.

يعقد خالد حاجبيه باستغراب وهو يرى ثامر يتعمّد سكب العصير بهدوء على الطاولة .. سرعان ما زالت عقدته وهو يقرأ ما تخطّه أصابعه على سائل العصير (رغد؟)

يكتفي بزفرة صغيرة وهو يومئ بعينيه، يُقاطع الصمت صوت انفتاح الباب .. يدخل منه أكثر الوجوه سوءًا بعيني خالد وهو يصفق بيديه هازئًا :" خلاص يكفي اتركوا لبطونكم مجال للسحور - يُشير للجالس بطرف الغرفة - يلله يا سعد رجّع الجرو لحظيرته، خلّصت حفلة الفطور "

ينهض الآخر ضاحكًا ليأخذ ثامر خارج الغرفة مجددًا، يُغلق خلفه الباب لينفرد بخالد .. يجلس أمامه وبجدية كبيرة :" اسمع، الحين بيبدا شغلك الحقيقي .."

يُلقي عليه ملفًا مليئًا بالبطاقات والصور وبعض الأوراق، يتلقاها خالد ليتفحّصها .. وسرعان ما هز رأسه نافيًا بصدمة :" مستحيل"

-

في الجانب الآخر ..

يقوده سعد إلى مكانه، حظيرة صغيرة للحمام خلف الفيلا الصغيرة التي تتوسّط المزرعة، يُربط يديه مجددًا برباط بلاستيكي .. ويغلق الباب خلفه.

يستند على الجدار الخشن وصورة رغد لا تفارقه .. الدقائق التي قضاها مع خالد أعادت جزءًا منه، يُحارب وجعه حتى يتمكّن من تحريك عقله، كيف يتخلّص ويُخلّص خالد من هذا العذاب؟ بدخوله للفيلا أدرك أن لا مجال لهروب خالد .. في كل غرفة اثنان أو ثلاثة، ولا ينفرد وحده .. ورغد؟ لا يعلم حتى أين تلاقي عذابها هي الأخرى، كل ما يعرفه أنها مع عبدالله .. ابن عمها.

تخذله عيناه بعد حربها الطويل مع النعاس، يغفو وهو جالس بمكانه .. تراوده الكوابيس ككل ليلة قضاها هنا، شتات متعب يُسيطر على حلمه، خالد الأستاذ، عمه ياسر، عبدالله الغاضب، وأخيه يوسف .. أمه نورة، جميعهم متحلقين في هذه الحظيرة، يجلسون على بيض الحمام وضحكاتهم ممزوجة بصوت الحمام بعيد وكأنه يصرخ، أشعة شمس حارقة تتخلل الأبواب .. ولا شيء يفقهه، يدرك أن كل هذا حلم .. لكنه لا يستطيع التخلص منه، يشعر فجأة بسكين طعام ينخر يده .. يُحركها لتهتز يمينًا ويسارًا والسكين يحاول فصل كفه عن بقية ذراعه وصوت هامس يخترق أذنه (ثامر، ثامر).

يزيد تنفسه، هذا صوت رغد .. رغد الصغيرة، تكرر اسمه وهي تشد على كفه (ثامر .. يا ثامر) يشعر بألم يده وكأنه واقعًا وليس حلمًا .. يشتد اهتزاز كفه، يشعر بانفصالها عن جسده واضطراب أنفاسه يزيد بتوجّع، يُغمض عينيه بشدة وبصوت لا يعلم إن كان حلمًا أو واقعًا (لا يا رغد.. لا، اتركيني.. تكفين اتركيني)

يشعر فجأة بكف تضرب وجهه ليستفيق شاهقًا من كابوسه، تضيع عيناه في المكان .. ما زال في الحظيرة، لا أحد

منهم حوله، الظلام يُثبت أن الليل لم ينقضِ بعد .. لكن كفه تهتز ووثاقها يتحرك بقوة، جفّ ريقه وهو يشعر بالشخص الجالس خلفه .. هل يفصل كفه عن يده حقًا؟ هل هذا واقع وليس كابوس؟

" ثامر اصحى، صحصح بسرعة"

يستوعب للتو وجود عبدالله، مضطرب كالعادة .. يفكّ وثاق يديه بسرعة وقوة، يلتفت دون وعي وصوت عبدالله الهامس يصله :" بسرعة تحرك، ما عندنا وقت "

يوقفه مجبرًا وعرقه يتصبب بقلق، يسحبه من ذراعه وهو يرمي عليه شماغًا كان بين يديه :" تلثّم به بسرعة .. بسرعة ثامر"

لا يستوعب شيء لكنه يفعل كما يطلب منه، يُخرجه من الحظيرة ليقابله سواد الليل .. لا يقطع هذا السواد سوى إضاءة الفيلا خلفهم، يجرّه من يده بقوة، يُشير يسارًا ويهمس وتلعثم :" امش لين نهاية السور على يسارك واقفز، تعدى استراحتين عاليسار وتوزّى لك بأي مكان .. وبقابلك هناك سيارتي برادو بيضاء"

لا يعي ماذا يقول أو ماذا يحدث، هل يُعينه على الهروب أم يُوقعه بورطة أخرى؟ يفز على صوت عبدالله هامسًا

بغضب :" ثامر استعجل، ما عندنا وقت .. لو تأخرنا رغد بتروح"

على وقع اسمها يستفيق، لا يشعر بنفسه إلا وهو يسير يسارًا .. يتّبع السور حتى نهايته، زاويته متآكل نصفها، يسهل عليه تسلقها لو لا أوجاع يديه وقدميه .. يتحامل على وجعه متناسيًا كل ألمه ليقفز خارج السور، يسير محاولًا تجاهل كل ما خلفه .. سينجح، لن يلحقه أحد .. لا شيء يفصله عن حريته والنجاه سوى عشرات الأمتار، يتعدّى الاستراحة الأولى .. يحاول تمالك وجع ظهره المتزايد، يتجاوز الأخرى .. تقابله أرضٌ صافية، بها بعض مخلّفات البناء، يلجأ لمقاعد سيارة قديمة ممزقة.. يجلس أرضًا متوسطًا المقاعد، يلتقط أنفاسه أخيرًا .. عيناه تراقب بقلق إضاءات السيارات القليلة قاطعة الطريق العام، لم يكن ليثق بعبدالله .. عقله يحدثه بألا ينتظر وأن يفرّ بنفسه إلى أقرب مركز شرطة حتى ينجو خالد، لكن قلبه يميل إلى كلمة عبدالله (لو تأخرنا رغد بتروح) اضطراب عبدالله يُخيفه .. يخشى أن يستمع لحديث عقله ويفقد رغد، أو أن يستمع لقلبه ويفقدهما معًا .. يجهل مكان رغد، يلوي ذراعه عبدالله بذكر اسمها ..

تمضي أبطأ نصف ساعة على قلبه، مترقبًا سيارة البرادو ويضيع بصراع عقله وقلبه .. إن مضت دقيقة أخرى دون ظهور عبدالله سيُكمل طريقه، يحسب بعقله ...
(٤،٣،٢،١ ...) يُبطئ العد وهو يصل للثانية (٣٢،٣١،٣٠ ..) حتى بدأ يحسب الثانية بمقدار عشر ثوانٍ
(٥٥....٥٦....٥٧...)

إضاءة سيارة ظخمة تقترب، يقف بسرعة وهو يتأكد أنها برادو بيضاء، يسحب سيخًا حديديًا لا يتجاوز نصف ذراعه ليدسه داخل كمّ ثوبه .. نعم هذا عبدالله، من كل هذه المسافة يكاد يرى توتره .. ينتبه له، يُشير له بعينيه أن يُواصل طريقه مشيًا بهدوء، يُتابع سيره كما يرغب .. حتى قطعا مسافة طويلة، تتوقف سيارة عبدالله ليُشير لثامر بالركوب، بمجرد ركوبه تنطلق السيارة مسرعة .. وصوت عبدالله اللاهث يصله :" اسمع، ما عندنا وقت .. خلال ساعة ولا ساعتين بيكتشفون كل شي، لو ما استعجلنا كل شي بيروح من يدنا .. رغد .. وخالد وأنا وانت .. - يزفر بخوف وضيق - ما توقعت يوصل كل شي لهنـ..."

يبتلع بقية حديثه وهو يشعر بالسيخ الحديدي أمام رقبته وكفي ثامر تقبض عليه، تضطرب أنفاسه أكثر على صوت ثامر الهامس :" وين رغد؟ "

يبتلع ريقه ليرسم ابتسامة ساخرة مضطربة :" مو من صالحك ثامر! ابعد الحـ.."

يقاطعه مجددًا وهو يُقرب السيخ أكثر :" جرّب تتكلم بكلام بعيد عن سؤالي، والله لأقطع أنفاسك به .. وين رغد؟ "

يزم شفتيه قبل أن ينطق :" نزّل الحديد لا ينتبهون لك الناس - تتسع عيناه وثامر يشد كفيه على السيخ ليلتصق برقبته لينطق بسرعة- رغد ببيت جدي"

يُبعد السيخ قليلًا، يتابع عبدالله بعدما التقط نفسًا عاليًا :" ثامر الموضوع جدي، أبوها قريب من الرياض وبأي لحظة بياخذها معه بإثباتات مزورة .. خالد يستعلمونه بأمور تزوير كبيرة، يعني نهايته قربت .. بس تنتهي حاجتهم منه بيرمونه"

تصله ضحكة ساخرة من خلفه :" أبوها؟ أبوها من عشرين سنة مختفي "

يرفع أنظاره ليقابل أنظار ثامر بانعكاس المرآة :" دخل تهريب، ومحتاجين خالد بأمور التزوير .. - ينخفض صوته بضيق - ما أكذب، دخّلت رغد وخالها بمتاهة كبيرة وكل هدفي كان أحمي رغد، ما عرفت بتوصل الأمور لهالحد وكل اللي أبيه ينتهي كل هالكابوس"

يشتت أنظاره ثامر، يُعيد حديث عبدالله مرارًا بعقله .. والدها؟ هل حقًا والدها ما زال حي؟ كيف ستتلقى النبأ؟ يعقد حاجبيه فجأة وعيناه تلتقط شيئًا صغيرًا مألوفًا أسفل قدميه .. ينحني ليلتقطه، تتسع أحداقه وهو يرى الصدفة الملونة برسم تعبيري لوجهها .. تذبل عينيه فجأة، يزفر بضيق وهو يدسها في جيبه، هل كانت هنا؟ أخذتها معها لتسقط منها؟ ألهذه الدرجة عنت لها تلك الصدفة؟

يفيق من شروده على صوت عبدالله الراجي :" تكفى سوي شي، ما أقدر أكمّل الطريق معك .. لازم أرجع عشان أمنعهم يدخلون الحظيرة وأأخرهم لا يعرفون إنك مو موجود، كل ما أخّرتهم ملكنا الوقت .. كل دقيقة تفيدنا، تكفى ثامر"

يثبّت عينيه بعيني عبدالله من خلال المرآة :" أبي الطريق لرغد"

يُخرج ورقة من جيبه ليُلقيها ثامر :" كتبته لك هنا "

يأخذها منه ليتأكد منها، يعود صوت عبدالله :" خذها أولًا قبل لا يسبقونك، الأبواب مفتوحة .. روح بلّغ"

يهز رأسه بسرعة :" زين وقّف هنا وبكمل طريقي "

يوقف السيارة، وقبل أن يخرج ثامر ينطق بهمس ورجاء :" أنا متورط معهم، بس لا تنسى إني ساعدتك.. مافيني أجلس بالسجن سنين، علّمهم إني مستعد أساعد بأي شي بس تخفّ عقوبتي"

ينظر إليه مطولًا، من يتحدث معه ليس عبدالله سجّانه .. من تغلي عيناه بشرر، هذا يبدو أضعف من أن يؤذي نملة .. يهز رأسه إيجابًا :" وخالد، مابي يصيبه شي"

يهز عبدالله رأسه بموافقة بسرعة ليُتابع ثامر بتحذير :" لو صار له شي، صدقني ما برحمك .. - يمد كفّه اليسرى ليُريه ندبات النيران - شفت هالحروق اللي بيدي؟ برسم على وجهك مثلها وأشد .. بس يصير لخالد شي"

يهز رأسه موافقًا بسرعة :" زين بس لا تتأخر، حاول ينتهي كل شي اليوم قبل المغرب"

يخرج من السيارة ليغلقها، ترحل مبتعدة عنه عائدة إلى المزرعة .. يعلم تمامًا أن عبدالله لا يملك من أمر خالد شيئًا، لكن إن أصاب خالد مكروه .. لن يرضى بأقل من يُرموا

جميعهم داخل تنور من النار، لا شيء قد يُساعد خالد سوى الوقت .. كل ما يملكه ثامر، كل دقيقة محسوبة عليه وعلى عُمرَي خالد ورغد.

-

ساعات طويلة يجهل طولها وهو يقود سيارته في الطريق الطويل، تلتقط عيناه كل شاردة وواردة.. منذ أسبوع يقضي وقته في طرق السفر الطويلة علّ ثامر يعتقه ويظهر له فجأة .. لا أثر لسيارته، ولا أثر لخالد .. تحوّل البحث عن شخص واحد إلى البحث عن ثلاثة مفقودين، ثامر وخالد وتلك الفتاة المجهولة صاحبة الغرفة في الشقة .. رغد ابنة شقيقته كما أدلت اليمامة.

يزفر بضيق وهو يعود بطريقه إلى الرياض، يدعو الله أن ينتهي كل شيء، بات يشكّ في سلامة ثامر .. هيأ نفسه لتلقي أسوأ الأخبار، لكن المهم أن يسمع خبرًا .. لا أن يبقى هكذا معلقًا بين وساوس وآمال تقتله.

يعود إلى المنزل مثقلًا بالخيبة، أشرقت الشمس قبل ساعة .. والهدوء يعمّ المكان، يقصد غرفة سفلية أفرغها

لوالده حتى يبقى قريبًا من يمامة .. يفتحها لتتسع عيناه وسريره الخالي يستقبله.

كاد يجنّ .. مُصابٌ بداء الخوف من الفقد هذه الأيام، يتوهّم كل شيء من لا شيء، لا أثر له في دورة المياه، كاد يقصد الجناح الصغير الذي سيضمه باليمامة بعد أسابيع .. حيث تنام هي الآن، غير أن صوتًا خافتًا لعبدالباسط عبد الصمد يصدر من ممر جانبي أوقفه، غيّر مسار طريقه إلى مكتبة والده .. ملاذه المفضل.

التقط أنفاسه براحة بعدما فتح الباب ليقابله والده جالسًا خلف مكتبه مثبتًا نظارته على أنفه ولا شيء يقطع سكون المكان غير صوت القارئ، يقترب بعتاب :" خوّفتني عليك يبه الله يسامحك"

يرفع رأسه أخيرًا عن قلمه ومذكرته عاقدًا حاجبيه، يزيح النظارة ويده تمتد لتوقف المسجل القديمة وينقطع صوت عبدالباسط .. يجلس على المقعد قُرب النافذة بعدما قبّل جبين والده، وسؤال والده المعتاد يزيد همه :" مافي أخبار جديدة؟ "

يهز رأسه نفيًا بضيق ملتزمًا الصمت، يعود ياسر مجددًا إلى مذكرته ونظارته :" اطلع غرفتك ونام يا ولدي"

يعتدل بجلسته سريعًا ليطرد النوم الذي تسلل له :" لا بجلس معك، هاجرني النوم .. - يبتسم بهدوء ليبدد الأجواء السوداوية - بيجي يوم وأسرق منك دفاترك وأنشرها"

ترتسم على شفتيه ابتسامة أخيرًا وهو ما زال يكتب :" ما تسويها"

يرفع حاجبًا ضاحكًا بخفة :" يبي لي دهر عشان أقنعك، ووقتها أنا علي التدقيق اللغوي .. ما باخذ منك مبلغ كبير يبه تطمن"

يرفع رأسه له، وبهزل مماثل :" برضاي ايه، لكن ما تسوي فيني مثل ما صار لحمزة شحاته ولا غسان كنفاني"

يضحك بخفة وهو يمدد ذراعيه بنعاس :" تطمّن يا أديبي الكبير! "

يكتفي بابتسامة وهو يعود إلى دفتره، يفرّغ خوفه على ثامر بالكتابة .. يتمنّى أن يعود فقط ليعتذر له عن كل مرة قسا عليه وإن كانت قسوته نابعة من خوفه وحبه، لا يشعر بالوقت وهو منكب على كتابته .. يتذكر فجأة وجود نجد الصامت معه، يرفع رأسه ليجده ينام بهدوء على المقعد وأشعة الشمس تلقي بنفسها على ثوبه دون أن يشعر، يقف

.. يطبطب على كتفه بهدوء :" نجد، قم يبه وروح نام بغرفتك"

يفزّ سريعًا على صوت والده متظاهرًا بعدم النعاس :" معك معك يبه، مصحصح مافيني نوم"

يزم شفتيه بقلة صبر، يعلم تمامًا أن نجد لا يرغب بتركه وحده بعد أزماته الصحية المتتابعة الأيام الماضية .. يعود إلى مكتبه :" روح نام يا نجد، أنا بخير .. نام عشان تصحى لصلاة الظهر"

رغبته بالبقاء مع والده قوية، لكن قوة سلطان نومه أقوى .. يقف بتثاقل ليغادر المكتبة، لا يكاد يرى طريقه من شدة نعاسه .. تنحرف أقدامه عن مسار غرفته إلى مسار جناحه المستقبلي، يفتح الغرفة لتخدره برودة المكيف والظلام الذي لا يتخلله شيء، يُسيَّر مجذوبًا إلى الدفء المبعوث منها .. يدس نفسه بجانبها ويغرق في نوم عميق.

-

يتوقف ملتقطًا أنفاسه بعد ممارسة رياضة المشي التي يقوم بها بعد كل صلاة فجر .. الشمس أشرقت ولا شيء قد يروي عطش الصيام سوى النوم، خاصة وأن جولاته ونجد

لقسم الشرطة تبدأ بعد صلاة العصر .. يدخل المنزل، يتوجه مباشرة لنافورة صغيرة تتوسّط باحة المنزل ليبلل وجهه .. يمشي بتثاقل ليفتح باب المدخل الرئيسي، يمدد ذراعيه بتعب متثائبًا ..

يتجمّد في مكانه وذراعاه ممددتان وعيناه تسقط على الجسدين الجالسين بجانب بعضهما البعض متشابكي الأيدي ينظران له بترقب ..

•*

أعرف أن الطريق إليك
مرافئ للحزن
وأرصفةً للسراب
وأنّ مسافاتك الدائرية
تتعب فيها جياد السفر
وأعلم أنك هاجرت في ذاكرة الرمل
أزمنةً وعصورًا
تَعُبّ لهاث الهجير
ولم تتعود شرب الهزيمة
- سيد البيد

الورقة الثانية والعشرون

مضطجعًا على المقعد بخمول بعد آدائه صلاة الفجر معها، يستمع لثرثرتها التي لم تتوقف منذ ساعتين.. تجلس على الأرض مكبّة على ورقة وقلم تكتب كل شيء، يجيبها باقتضاب عن جميع أسئلتها (العمرة مرة متعبة؟ لو بدينا الفجر متى نخلصها؟ أبوي يقول المدينة هادية وكأن مافيها غيرك، صدق هادية؟ كم ساعة بين المدينة والرياض؟ جوهم مرة حار الحين؟ عادي ألبس هالعباية؟ خالتك كيف أتعامل معها؟ أبوك شلون أسلم عليه؟ ماهي المحظورات اللي أبعد عنها؟ اكتب لي قائمة بأماكن أزورها بالرياض)

عند كلمتها الأخيرة يمد يده للأسفل، يسحب الورقة والقلم منها ليثبّتها على الوسادة بحضنه، تقترب من رأسه لتراقب ما يكتبه .. يرسم مربعين صغيرين أعلاهما مثلثين وأمامهما دائرة :" هذا بيت أبوي وهذا بيت أمي وهذا المسجد - يعود مجددًا ليرسم خطًا طويلًا إلى الأعلى منتهيًا بمستطيل طويل ومقابله مربع أصغر - وهذي الجامعة والمستشفى الجامعي - يخرج منهما خطًا آخر طويل يتوقف عند

مجموعة مربعات - وهنا العيادة النفسية اللي كنت أراجعها .. - ينتهي برسم مثلث كبير أعلى الصفحة- وهنا المطار - يضع القلم على الورقة ليرفع رأسه لها - هذا كل اللي أعرفه بالرياض"

تصمت للحظة وهي تتأمله، تقف لتأخذ مكانًا بجانبه على المقعد .. ترفع رأسه على فخذيها، تعبث بشعره :" يوسف .. أعرفك شايل هم أخوك، كلمني .. شاركني خوفك"

يطلق زفرة وهو يعبث بالسبحة المتدلية من عنقها :" تكفين لا تطرين طاريه، أحاول أشيل كل الأفكار السوداوية عنه .. شايل همه؟ ايه شايل همه لدرجة النوم بدا يجافيني، ادعي له كثير بعمرتك "

تهز رأسها بهدوء :" أكيد .. إن شاء الله ما يجي العيد إلا وهو حولكم"

يعتدل بجلسته ماسحًا وجهه بكفيه :" خلاص أبي أنسى شوي ... - يتابع بعد صمت متأملًا ملامحها - بفقدك كثير - يرفع حاجبًا بابتسامة - للمعلومية أول مرة أقولها، حزتِ على هذا الشرف"

ترسم ابتسامة صغيرة تمسح ضيقها :" يا ويلك ينتهي يوم العيد وانت مو بالرياض"

يسحب خصلة من شعرها ليعبث بها مبتسمًا :" أبشري، ما صدقت آخذ إجازة أسبوع .. بس أبيك تكونين بالصورة، لا تتوقعين تشوفين يوسف اللي تعرفينه بالرياض "

تعقد حاجبيها بعدم فهم ليُتابع محررًا شعرها بزفرة :" الرياض عامل محفز لاكتئابي، تخنقني .. هربت منها بعد ما انتهت جلساتي، أخاف تشوفين يوسف ما تعرفينه يا هديل .. تعرفين؟ دايمًا أهوجس لو رجعت لي نوبات اكتئاب طويلة بتتحمليني؟ "

تلمع عيناها بابتسامة صغيرة :" لا تسأل هالسؤال لبنت عاشت طفولتها مع أب مكتئب"

تنطلق ضحكة متهكمة صغيرة :" الأب غير عن الزوج! "

لا تتضاءل ابتسامتها وثقتها :" أمي عاشت اكتئاب أبوي، كنت صغيرة بس أذكر تعبها .. كانت كل مرة تقول لي شكثر تحبه أكثر"

يطلق زفرة طويلة :" حبّيني حُب أمك لأبوك"

يهجم عليها خانقًا رقبتها بكفيه على حين غرّة منها لتطلق شهقة ضاحكة:" ولا ابذبحك، وقتها بكون مكتئب يعني ما تفرق معي"

تضحك لتبدد سواده، يبتسم متأملًا ضحكتها المليئة بالحياة كما هي حياته الممتلئة بها .. يقطع ضحكتها رنين هاتفها لتعض لسانها متذكرة :" يا ويليي هذي أمي، محذرتني ما أجلس بعد الفجر"

تجيب هاتفها لتستقبل توبيخ أمها تحت نظراته الضاحكة، يتركها خلفه متجهًا إلى غرفته الصغيرة .. يأخذ حمامًا سريعًا ويرتدي ثياب عمله، يركب معها ليودّعها ويودّع أبيها وأمها قبل انطلاقه لعمله.

-

تجلس على المقعد مقابلة لوجه جدتها المتجعّد .. نائمة بارتياح وكأنها ملكت الدنيا كلها، تغبطها على السلام الذي تعيشه، لا تدرك كل ما حولها .. تصلّي أحيانًا وأحيانًا أخرى تنسى الصلاة وما معنى الصلاة، لتعود مجددًا وتنام أو تلعب بكفيها وتهمس بكلام غير مفهوم مع نفسها، ترفع رجليها على المقعد بعدما سحبت نشرة تعليمات الدواء، السلام الذي يغطي وجه العجوز مثير لرسمه .. تبدأ برسمها بهدوء، تجاعيدها الطويلة تحكي زمنًا صارعته حتى غلبها،

صوت شخيرها اعتادت عليه حتى أصبحت تألفه .. يذكّرها بالحياة التي تجهل ما تخبئه لها.

تتوقف عن الرسم على سماع صوت الباب، ليس وقت حضورهم .. هل هو عبدالله؟ أتى ليناجيها ويسرد اعتذاراته كعادته بعدما فعله قبل ساعات؟ دخوله المفاجئ عليها بوجه لا يشبهه .. بائسٍ أسود، لا ينظر لعينيها مكتفيًا بأمره الصارم لها بلباس الحجاب الأسود والتقاطه عدة صور شخصية لها .. وخروجه سريعًا دون تبرير، أم أن هذه ندى تذكرت المفتاح المنسي في ثقب الباب بالجهة الخارجية؟

ينفتح الباب بقوة، تتسع أحداقها بصدمة وعيناها ترتفع له.. هل تتوهمه؟ هل هذا ثامر؟ أم أن عقلها بدأ يُخرجه من مخيلتها لتعيش على وهمه ووهم حضوره؟ هل هذا وجهه؟ مشوهًا بالكدمات لا يُشبهه إطلاقًا ..

لا يترك لها مجالًا للاستيعاب، يقفز إليها لتتوالى عليها الصدمات وهو يجذبها بقوة إليه، يضمها متناسيًا كل شيء سوى أنها رغد، رغد ولا أحد سواها .. بعدما فقد أمل رؤيتها هي أمامه الآن وبخير، يبتعد قليلًا عنها رافعًا كفيه لوجهها يتأمل ملامح صدمتها ودهشتها .. يهمس بصوت لاهث معاتب خائف :" انتِ وينك؟؟"

لا يجد ردًا منها، ما زالت جامدة في مكانها .. عيناها لا ترمش، يُغمض عينيه مطلقًا زفرة متعبة .. يستعيد روحه، نعم هذه رغد .. لم يكذب عبدالله، يفوق من غيبوبته وخيال عبدالله يذكّره بخالد.. يسحب كفها بسرعة ليسيّرها معه :" بسرعة رغد، ما عندنا وقت"

يلتفت بقلة صبر لعدم استجابتها، ليتفاجأ بذراعين تلتفان حول خصرها تمنعها عن الحركة، وكأنه للتو استوعب وجود جسدٍ ثالث غيرهما .. يهمس بدهشة :" مين هذي؟ "

تهبط أنظارها إلى ذراعي جدتها .. جسدها مقيد بها، ومعصمها مقيّد بكف ثامر القوية.. يهتز صوتها وهي تنقل أنظارها لعيني جدتها لتقابلها بعيني طفلة باكية :" جدتي .."

يطلق تنهيدة طويلة وعينا العجوز تنظر إليه كما تنظر طفلة إلى طفلٍ صغير يحاول سرقة أمها منها، يحرر معصم رغد .. تنتقل كفاه إلى ذراعي الجدة القابضة على رغد، يحرّرها بلطف ويهمس :" البسي عبايتك بسرعة"

تُفلت رغد منها لتهرول إلى عباءتها، تلبسها بعجلة وعيناها لا تنفك عن جدتها التي بدأت تبكي كالأطفال وثامر يقترب منها ممسكًا بكفيها .. يجلس على السرير ليُعيدها إلى

مضجعها بهدوء:" بترجع لك، بس باخذها بمشوار صغير وبترجع .. لا تخافين"

مثلما بكت بسرعة تهدأ بسرعة وكأنها لم تكن تبكي، يدثّرها بلحافها .. تقترب رغد، تقبّل خدها .. تُلقي عليها نظرة أخيرة تودّعها قبل وقوف ثامر ممسكًا بكفها يسحبها معه إلى خارج الغرفة.

توقفه قبل أن يصلا إلى الباب الداخلي وهي تشد نفسها لمنتصف الصالة :" شنطتي! "

لا تترك له مجالًا وهي تتحرر من كفه لتهرول إلى حقيبتها الموضوعة على الطاولة، يعقد حاجبيه بضيق ممسكًا بالباب :" رغد مو وقته"

تضيق عيناه وهو يراها تُمسك بورقة صغيرة تقرأها بعدم استيعاب، يحثّ خطاه إليها لتلقيه الورقة ويقرأ الكلمات المعدودة عليها (جيب أسود عند مواقف المسجد لوحة ط م هـ) .. يرفع رأسه على صوتها وبكفها مفتاح سيارة:" كان مع الورقة تحت الشنطة"

تضيق أنفاسه، رأسه يكاد ينفجر .. يعجز عن التفكير، هل هي مجرد خطة من عبدالله ليزيد الأمور تعقيدًا؟ أو أنه يفعل ما بوسعه ليساعدها ولينتهي كل هذا؟ .. يأخذ المفتاح

منها، ليعود ويُمسك بكفها ويخرج معها من المنزل .. لا يعلم ماذا يفعل، سيسير وفق ما يمليه القدر .. المهم أن ينتهي كل هذا الكابوس.

يعلو صوت القارئ أكثر كلما اقتربا من المسجد، مزدحمة المواقف بسيارات كثيرة لإقامة صلاة التهجّد، يحثّ خطاه بسرعة وهو يسمع تسليمة الإمام الأخيرة ليجد هدفه أخيرًا بين السيارات، يقترب وعيناه تراقب كل ما حول السيارة، يُدخل المفتاح ليطلق زفرة ارتياح عالية وهي تُفتح، يركبان ليحرك السيارة أخيرًا ..

تتشبث بالزجاج لتسرق نظرة أخيرة لتلك النافذة العلوية، تختنق بعبرتها وهي ترى جدتها تقف عند النافذة وكأنها تبحث عن شيء أضاعته في الزحام.. وسرعان ما انضم جسد آخر خلف النافذة، ندى برداء الصلاة تُعلّق عينيها بالسيارة الراحلة .. تلوّح لها بهدوء قبل أن تغلق النافذة.

تلتقط أنفاسها معتدلة بمقعدها، تنقل أنظارها للجالس بجوارها يقود .. ملامحه المتعبة، عيناه الذابلة، شفتيه المتشققة .. يمرر لسانه عليها كل لحظة :" خالي وين؟ "

يطلق زفرة طويلة وكأنها بسؤالها زادت وجعه، يتمتم بضيق :" بتعرفين كل شي بس اصبري نوصل"

تضيق أكثر :" وين نوصل؟ .. ثامر وين تاخذني؟ .. - يتهدّج صوتها وأنفاسها تتثاقل أكثر ولا رد منه - وصّلني أقرب مركز شرطة لأني تعبت .. مو كفاية اللي صار؟"

يلتفت لها أخيرًا لتزدرد ريقها على انفجار صوته :" مو كفاية اللي صار؟ أنا اللي مفروض أسأل مو كفاية اللي صار؟ .. رغد مو وحدك تعبانة! كلنا تعبانين .. خالك بأي لحظة ممكن يموت وأنا أحاول أتناسى مين السبب! "

تبهت ملامحها على جملته الأخيرة :" تقصد أنا السبب في كل شي؟ .. ذنبي إني حاولت أصحح حياتي؟ - تشعر باختناقها يزيد، لا ينقصها أن يزيد على جراحها ثامر، حجابها يثقل عليها .. يخنقها أكثر، تدخل أصابعها بين حجابها ورقبتها علّها تخفف من اختناقها وهي تتمتم - كلكم نفس بعض، انت وخالي وعبدالله وأبوي وعمي .. كلكم .. - تتمالك نفسها لتتابع - كل اللي طلبته مركز شرطة، كثير عليك؟ "

يركز أنظاره على الطريق ببرود ظاهري :" ما أجبرتك تجين معي، طلعي جوالك واتصلي على الشرطة "

يُفقدها أعصابها، أليس هو من حررها من قيد جدتها؟ أيتظاهر بجهله بكل شيء وحاجتها للفرار من ذلك المنزل؟ .. تسحب حقيبتها وأملها بأن تجد هاتفها المفقود داخلها، وكما تأمّلت تجده وسط الحقيبة .. تتفقده لتذبل عيناها وهي ترى المكالمات الفائتة باسم خالها ومكالمة يتيمة باسم ثامر، تعيد بصرها إليه على صوته :" بتروحين للشرطة وبينتهي كل هذا، بس أحتاج ثقتك للمرة الأخيرة عشان خالد .. - بصوت راجٍ يكمل - للمرة الأخيرة ثقي فيني، ممكن يا رغد؟"

تتعلق عيناها به، متعب مثلها تمامًا .. ترمي ثقلها على المقعد لتغوص فيه علامة الاستسلام، يهدأ صوته .. يسرد لها تفاصيل ما حصل منذ دخوله شقة خالد إلى وصوله إليها، متجاوزًا الفنون العذابية التي مورست عليه، لم تكن بحاجة لأن تسمعها منه .. يكفيها أن تنظر لوجهه ويديه حتى تعرف حجم الأذى الذي لحق به.

تغطي وجهها بكفيها وكل كلمة منه تصيبها بالذهول، القلق، الحزن على خالها .. الهلع لذكر أبيها، يوقف السيارة، يسحب كفها ليشدها إليه :" ساعتين بالكثير

وينتهي كل شي، بتكونين بمركز الشرطة .. بيساعدك ناصر، وخالد .. بيكون بخير إن شاء الله"

تتعلق بوهم أمله لحاجتها لذلك، تخرج معه من السيارة .. يتلفّت في الشارع الصغير ليتأكد من خلوّه، الجميع إما منشغل بسحوره أو لآداء الصلاة .. يسحب الشماغ من كتفه ليلفّه حول كفه اليسرى المتأثرة بجروح النار، يُمسك بمقبض الباب :" لو في أحد جاي نبهيني"

تهز رأسها إيجابًا، عين تراقبه وهو يتسلّق الباب والأخرى تراقب الشارع .. يقفز للداخل، تنتظر لحظات قبل أن يفتح لها الباب.

يُغلق الباب ليطلق زفرة طويلة، يفتح عينيه لتقابله بوجه شاحب خائف .. يزم شفتيه بضيق وقلة حيلة :" رغد، سامحيني .. لولا الحاجة ما جبتك هنا وبهالطريقة"

يتقدمها متجاوزًا النافورة الصغيرة وهو يمد كفه لها يطلب منها اللحاق به :" لا تخافين مافي أحد موجود .. تعالي "

تقبض على كفه بقوة وعيناها تراقب كل زاوية ، تسير معه حتى الداخل .. يتصرف بحرية في المنزل وكأنه منزله، يصب لها العصير، يشرب ثلاث قوارير من الماء دون ارتواء ..

تلحقه كظله حتى صعوده إلى غرفة ناصر، تنتظره خارجًا لدقائق أثقل من الساعات ليخرج بثوب نظيف وشعره ووجهه مبللان، يذرع الصالة ذهابًا وعودة وزفراته لا تتوقف .. انقضت صلاة الفجر وناصر لا أثر له، يرتمي على المقعد أمامها وقواه بدأت تخونه، يتذكّر للتو آلام جسده ..
يسترخي على المقعد مغمضًا عينيه، ليعتدل مسرعًا على صوتها الخائف :" ثامر لا تنام! "

لم يكن لينام في ظل خوف وترقب كهذا، هي لحظة استرخاء كان بحاجتها لاستعادة كل شيء لتأتي وتسرقها منه، يثبّت عينيه بعينيها .. لمحة الخوف والقلق بعينيها تتجلّى أمامه الآن وكأنه يشهدها للمرة الأولى، وكأن الطفلة بلوحة الأم الميتة خرجت وتسللت من إطارها لتتجسّد بعيني رغد، هاله منظرها .. كيف غابت عن عينه هذه النظرة طوال الوقت؟ يقف مسرعًا ليجلس بجوارها على المقعد .. يتذكّر حديثه الحاد معها، كان بحاجة لتفريغ خوفه كما كانت هي .. ألقى كل منهما لومه على الآخر ليتخلّص من هلعه، لم يدرك أنه تخلّص منه لتتلقاه هي وتتشرّبه .. هل أخطأ بإخبارها بكل ما حصل؟ عودة والدها الذي ينتظرها؟ لم يكن بوعيه .. أدرك الآن حجم خطئه وحجم الهلع الذي

يتملّكها، بتشتت ينطق :" رغد .. ما عنيت أي كلمة واحنا بالسيارة، ما ارتبكتِ خطأ .. - يشتت أنظاره والكلمات تضيع منه .. لا يجد غير كلمات لا تصفه - ما تستاهلين كل اللي يصير لك .. تعرفين وش مشكلتك؟ مشكلتك كل اللي يحبونك يأذونك بدافع حبهم لك، كل واحد منهم يظن إنه يساعدك .. ما استوعبنا حجم الغلط إلا بعد ما راح كل شي"

تغطّي وجهها بكفيها بعد زفرة مختنقة دون إجابة، يُرخي جسده على المقعد بجوارها .. تذكّره هذه الليلة بليلة رحيل أمه، هروبهما معًا .. انتظار لشيء يجهلانه، تضارب بوجدانه .. كل شيء يشبهها سوى فقده لخالد الآن، تمر دقائق صمت طويلة لا يقطعها سوى صوت عقارب الساعة المميت .. يعقد حاجبيه بضيق باحثًا عنها، لا يحتمل صوت انقضاء الثواني .. ينوي الوقوف متجهًا إليها ليوقفها إلا أن صوتها جمّده للحظات :" كيف كانت مِلكتك؟ "

ملكة؟ يقطّب حاجبيه محاولًا استيعاب الكلمة، ماذا تعني :" ملكتي؟ "

تهز رأسها إيجابًا :" ايه، مو على أساس تملّك؟ "

تتسع عيناه بدهشة، خطبته التي فرّ منها هائمًا على وجهه بسببها .. تذكّره بمصيبة أخرى تنتظره، مصيبة تثير ضحكته .. يهز كتفيه :" ما صار شي .. "

" شلون؟ "

يبتسم موجهًا نظره لها :" انتهى كل شي قبل يبدأ - يرفع حاجبًا بلوم مازح- كله بسببك، متفقين ننسف كل شي لبعض .. حالفين ما يهنا واحد منّا بعيشته دون الثاني"

تشقّ الابتسامة طريقها أخيرًا، ابتسامة في غير موضعها .. وحديث في غير محلّه، في مخاض مخاوفهم يضحكان هاربَين من وجعهما .. يتذكّر تلك الليلة التي قضتها معه في مستودع منزلهم، كان يظنها أشد أوقاته خوفًا وترقبًا .. تفاجئه بإلقاء نكتة مستهلكة فجأة، تضحك رغم عدم إعارته اهتمامًا لظرافتها .. في خضم خوفها تفاجئه بتحليقها، وكأنها تهرب من واقعها لتنسى خوفها، يُسايرها هذه المرة ولا يعلم السبب .. أهي حاجته للهروب من كل شيء مثلها أم هي رغبته لإزالة نظرة الهلع المخيفة بعينيها.. أو ليقطع هذا الانتظار الطويل لقدوم ناصر.

يُدخل كفه في جيب الثوب المسروق من خزانة ناصر ينوي إخراج الصدفة الصغيرة إلا أن صوت انفتاح الباب

يجمّد حركته قبل أن تسحب كفه وتتشبّث بها بقوة وأنفاسها المتسارعة تصله ..

لحظات حتى ظهر ناصر من خلف الباب ممددًا ذراعيه متثائبًا، يتجمّد في مكانه وذراعاه ممددتان وعيناه تسقط على الجسدين الجالسين بجوار بعضهما متشابكي الأيدي ينظران له بترقب، تخرج حروفه من بين صدمته :" ثامر ؟؟؟؟"

يقف بسرعة، يحرر كفّه من كفها القابضة عليه .. ليتقدم مسرعًا إلى ناصر وأنفاسه بدأت تضطرب :" بوضح لك كل شي، بس ..."

يُقاطعه وما زال غير مصدق لما يراه :" انت وينك؟ "

يلتفت للجالسة على المقعد بتوتر وعيناه تحكي صدمة أخرى، ليقاطع نظراته ثامر وهو يمسح على وجهه :" بس اسمعني"

تقف رغد واضطرابها يزداد على رؤية ناصر فاقدًا أعصابه لا يستوعب كل ما يجري منهالًا على ثامر :" انت مجنون؟ وين مختفي كل هالوقت؟ قلبنا الدنيا واحنا ندورك .. "

وثامر لا ينفك يردد : "اسمعني .. بوضح كل شي .. أحتاجك"

يبتر كلامه وعيناه تتسع وهو يرى ناصر يُخرج هاتفه ليسحبه منه بسرعة :" ناصر أنا ما جيت لك إلا لحاجتي لك، تكفى بس اسمعني دقيقة وسوي اللي تبي بعدها"

" بسمعك بس بعد ما أبلغ الشرطة وعمك ونجـ."

يقاطعه بسرعة :" عمي ونجد؟ أنا ما جيتك انت بالذات إلا لحاجتي لك .. كنت أقدر أروح لهم بس أعرف ما بلقى عندهم شي"

متجاهلًا كل حديثه ينقل نظره للخائفة الواقفة على بعد مسافة منهما :" مين هذي؟ "

يُمسك بمعصمه برجاء :" تكفى بس عطني ربع ساعة أشرح لك مين هذي وأشرح لك كل شي .. وبعدها روح بلّغ، ما جيتك إلا أبيك تبلّغ"

يمسح وجهه بضياع، يرفع معصمه ويلقي نظرة على ساعته :" بس ربع ساعة، وبعدها ينتهي كلامي معك "

تتحول الخمسة عشر إلى خمس وأربعين دقيقة، يسرد فيها كل شيء موجزًا حينًا ومُطنبًا أحيانًا .. يأخذهما الوقت وهما جالسين على عتبة المدخل، يتسع ذهول ناصر مع كل دقيقة .. وضع باحتمالاته هو ونجد أن يكون ثامر متورطًا في كل شيء دون استثناء سوى أن تكون ورطته مع مجموعة

إرهابية، ينقل نظره لرغد باستياء وشفقة كلّما ذكر اسمها ثامر ومصيبتها، ينهي حديثه ثامر بزفرة واقفًا ليتبعه ناصر بتلقائية .. يشدّه من يده ليخرج إلى الباحة مبتعدًا عن رغد :" والحين جيتك أبيك تبلّغ قبل لا يروح خالد من يدينا، خذها معك وتكفى وقّف معها لين ينتهي كل شي وتاخذ كل حقوقها وتعيش طبيعية .. البنت لاقت كثير، ساعدها بكل شي تحتاجه، ما عندي غيرك .. ثقتي فيك كبيرة"

يهز رأسه إيجابًا :" الموضوع معقد بس ببذل جهدي تطمّن، ما عندنا وقت لازم الحين نكون بالمركز "

يعود للداخل حيث ترك رغد واقفة قرب الباب ممسكة بحقيبتها بترقب :" رغد أحتاج جوالك "

تلقيه هاتفها بسرعة وهو يُتابع :" الحين بتروحين مع ناصر .. كل شي بينتهي، لا تخبين عليهم شي .. اسردي كل تفاصيل حياتك من يوم ولادتك لليوم، لا تخافين أو تتجاهلين شي بحجة خوفك على خالك، كل شي تقولينه بيساعدك أولًا .. خالد يبي راحتك تذكري هالشي ..ناصر مثل أخوي بيكون معك خطوة بخطوة .. - يشتت أنظاره قبل عودتها إليها مطلقًا تنهيدة ثقيلة، يرقّ صوته الهامس -

ما أدري وش بيصير بعدين، يمكن تكون آخر مرة أوقف معك فيها .. بس أوعدك كل شي بيكون بخير من هاللحظة"

يُغمض عينه محاولًا الهرب ممّا يفعله، يقترب من رأسها ليقبّله من فوق الحجاب بغمضة عين قبل أن يهرب منها مسرعًا إلى ناصر الذي يراقبه بأسى .. متجاوزًا ما يفعله ثامر من تجاوز وفي وضح نهار رمضان، هو في هذه اللحظة مثلهما .. سلبه ثامر عقله حتى نسى كل شيء سوى المصيبة التي فجّرها ثامر، يأتي صوته مستعجلًا متجهًا إلى الباب :" الحين ناصر، كل دقيقة محسوبة علينا "

يتبعه ناصر وخطى رغد تلحقه إلى خارج المنزل، يعقد حاجبيه بدهشة وهو يرى ثامر يتجاوزهما إلى سيارة جيب قربهم :" وين رايح؟ تعال معنا يسمعون منك"

يلتفت لناصر بتعب وهو ما زال يسير إلى السيارة :" انت خذها، أنا مافيني أتعايش مع كل هذا أكثر "

تتسع عيناه بصدمة ليترك سيارته مهرولًا إلى ثامر :" تحسبني بتركك تسوي اللي تبيه؟ "

يركب السيارة مسرعًا قبل أن يصله ناصر، يطير بها بسرعة جنونية ليختفي أمام ناظري ناصر المذهول .. يعود مسرعًا إلى سيارته حيث تجلس رغد الخائفة ودمعها لا

يتوقف دون بكاء، يتجه مسرعًا إلى المركز الأمني .. لا مجال للحاق به والعبث أكثر، يُسلم كل أموره إلى الشرطة مسرعًا قبل حلول الكارثة.

-

تسير وأنفاسها تتسارع، لم تكن تتوقع أن يكون شعور الخشية بهذا التأثير .. شمس الحرم وسمائه لم تكن كأي سماء عرفتها، وكأن السماء ترقّ حبًا وطمأنينة فوق الكعبة، لم تطق صبرًا للخروج إلى الحرم .. والداها وأم ريم فضلوا تأجيل العمرة بعد تعب ساعات طويلة على متن الطائرة أما هي جفتها الراحة والحرم لا يبعد عنها سوى بضع خطوات لتجد نفسها فجأة تسير إليه برفقة ريم..تحوّلت إلى طفلة صغيرة وهي بالطائرة وأراضي وطنها تلوح لها لأول مرة في حياتها، لا يفوق شدة هذا الشعور سوى رؤيتها الأولى لمآذن الحرم عن بعد..

تلتفت لكف ريم القابضة عليها بقوة لتقابلها ابتسامتها الواسعة وبصوتٍ جاهدت أن تسمعه وسط زحام الناس :" كيف الشعور هديل؟ "

لا تتمالك دموعها ضاحكة :" أحس شي ينبت في صدري - تسحب كف هديل لتضعها على قلبها - شوفي .. والله أحس في شي! "

تتسع ابتسامتها على ضربات قلبها المتزايدة، تطوف معها رغم المشقّة والزحام الشديدين إلا أنها لا تشعر بسوى ازدهار قلبها مع كل شوط حول الكعبة، تكرّس دعاءها لأبيها بنجاح عمليته .. أن يعود صحيحًا دون وجع يُشقيه، لأمها وليوسف ولريم وكل من تعرف .. تُنهي عمرتها الأولى بروحٍ جديدة، ترتوي كثيرًا من ماء زمزم وقلبها ولسانها يدعو بابتهال :" يارب يا من رددت يوسف لأبيه ردّ ثامر لأهله، يارب سلّمه .. يارب ما تشرق شمس بكرة بدون خبر عنه وطمّن قلب حبيبي يوسف "

-

يُغمض عينيه وصداع رأسه يفتك به، منذ ألقى عليه عمها طامته ليلة البارحة وهو يفقد روحه بانقضاء الثواني .. يفتحهما لتقابله نظرتها بأسى، يكاد يشعر بخوفها من خلف شاشة الكمبيوتر .. صورة رسمية بحجابها انتزعها منها عبدالله حتى يتمكّن من تحرير جواز سفر لا يحمل من اسمها شيء.

يتأمل الجواز المنشود مع بطاقة هوية أخرى تحمل اسم فتاة مقيمة، كيف له أن يطلب منه هو الذي جازف بحياته لأجلها أن يزوّر لها هوية حتى تهرب مع والدها المطلوب؟ كبّله من عنقه .. يُهدده بروح ثامر، وبروحه وبسلامة رغد ..

" يا أستاذ"

يلف وجهه يمينًا ليتذكر وجود الوجه البغيض، ابتسامته الواسعة الكريهة .. يُتابع :" احم، بس أبي أذكرك بالوقت .. مو من صالحنا، تعرف يعني .. أبو عبدالله دقيق"

يُرخي جسده على المقعد :" مستحيل أسويها"

تتسع عينا الآخر بدهشة وسرعان ما عادت ابتسامته رافعًا كتفيه :" اوكي .. أنا مالي شغل، هذي مهمتهم إقناعك، كل اللي علي أراجع اللي تسويه وأتأكد منه - يقف موجهًا

حديثه للجالس قُرب الباب - وقتي مو ملكي، كلّم أبو عبدالله يشوف حل .. وراي دوام مو متفرغ لصفقة ما تمت"

يتجاهل خالد نقاشهما العقيم وفكره منشغل برغد، وسرعان ما عقد حاجبيه إثر ضوضاء خارجية .. يقف بتلقائية وصوت مألوف بعيد يصله، تضطرب أنفاسه .. ثامر!

تتجمّد حركته على صوت شد المسدس قريبًا من أذنه :" لا تتحرك"

يتبلل بالعرق والآخر يفتح النافذة بسرعة ليراقب ما يحصل، أما صاحب الابتسامة البغيضة يهتز صوته بخوف وتلخبط :" يا شباب هدوا اللعب، وش صاير؟ ما اتفقت مع أبو عبدالله يكون في دم.. - يطرق الباب المغلق بقوة موجهًا خطابه للواقف قرب النافذة - افتح هالباب الملعون وطلعوني من لعبتكم! "

يعلو صراخه واستنجاده طارقًا الباب بقوة والواقف خلف خالد مثبتًا سلاحه قُرب رأسه ناطقًا بحيرة لزميله الواقف عند النافذة :" وش صاير؟! "

يُخرج سلاحه الآخر ليثبّته من النافذة :" هالمجنوون! يحسب نفسه قدها ما يدري جالس يلـ.."

يقطع حديثه اقتحام الغرفة من قِبل ثلاثة رجال يتوسّطهم والد عبدالله ثائرًا هائجًا متجهًا إلى خالد، يجرّه بشدة خارج الغرفة :" علّم كلبك هو جالس يتعامل مع مين.. يظن نفسه بلعبة هو البطل فيها! فهّمه بأي جحيم يغطس فيه بجهله وغباءه!"

يزيد اضطرابه مع جره له وكله رجاء بأن ظنونه لن تصيب، تبهت ملامحه بهلع وأبو عبدالله يوقفه عند عتبة الباب .. لا ثامر ليس بوعيه، لا يدرك ما يفعل .. يحاول الصراخ عليه لكن صوته يخذله.

يشد ثامر على رقبة عبدالله بذراعه موجهًا سلاحًا إلى رأسه محتميًا به خلف باب سيارة البرادو :" بايع ولدك؟ صدقني ما عندي شي أخسره .. خالد مقابل عبدالله وانتهينا"

يبتلع ريقه وضربات قلب عبدالله تكاد تخترقه، يصله صوت خالد صارخًا بغضب :" مجنون؟؟ ثامر اترك الولد .. لا توهق عمرك بروحه .. اتركه يا ثامر صدقني ما عندك علم انت تتعامل مع مين"

يضحك والد عبدالله بسخرية محاولًا استفزازه وهو يُجلس خالد على العتبة :" اوكي أنا أنتظرك تنتهي من لعبك وترمي المسدس .. ما عندي مشكلة أعطيك من وقتي لين

تفوق من غباءك .. تظن نفسك مين وانت عارف كم عددنا ؟- يشير بعينيه لأعلى - تعرف إن الرجال موزعين بكل مكان .. ينتظرون إشارة مني وتنتهي .. بس يلله وش وراي؟ ما عندي مشكلة ألعّبك شوي .. شاطر كمّل وش عندك"

يصله همس عبدالله المرتجف :" وينهم؟ ما قلت جايين؟"

يرد له الهمس وأنفاسه اللاهثة تكاد تنقطع :" جايين بس اصبر، صدقني ما بيصيبك شي - يرفع صوته عاليًا - اترك خالد وولدك ما بيصيبه شي، بيرجع لك سالم"

ترتفع أنفاس عبدالله ليصل صوته المتقطع لأبيه راجيًا :" تكفى يبه.. لا تخليني له"

يزم شفتيه محاولًا تمالك أعصابه أمام ثامر :"منت قدها، انت حتى ما تعرّف إذا سلاحك مأمن أو لا"

يرفع كفه ليُطلق دون تردد رصاصة على النخلة، رصاصة اهتز لها جسد عبدالله وخالد الذي صرخ :" ثامر يكفي!"

انتفض لصوت الرصاصة المتزامن مع صوت صرخة ابنه ليسحب خالد من ياقة ثوبه :" تحسب وقتي فاضي للعب العيال؟ صدقني ما تقدر تهدر قطرة من دم ولدي الرصاصة اللي بتطلع من مسدسك بتقتلك قبل لا تمسه"

يضحك بسخرية :" ما عندي مشكلة أنا بايع عمري، بس انت بايع ولـ..."

تجفل ملامحه،تتسع عيناه، تبيّض شفتيه .. ويجف ريقه وهو يرى خالد يجثو أرضًا مطلقًا صرخة عالية ودوي صوت الرصاصة يخترق قلبه قبل أذنه، تهتز يده الممسكة بالمسدس وصوت ضحكة والد عبدالله تعلو صوت صرخة خالد :" شايف؟؟ هي كلها رصاصة بساقه وتجمدت مثل الطير الغرقان خايف وتهدد بولدي تهديد منت بقده! "

يفقد صوابه، يتملّكه الشيطان دون وعي ليشد الزناد محررًا الرصاصة إلى ساق عبدالله ليسقط أرضًا هو الآخر وصرخته تقترن بصوت مكبّر الصوت :" ارمي سلاحك وارفع يدك .. المكان مطوّق .. أكرر الأسلحة على الأرض .. مافي مجال للمقاومة .. المكان مطوق"

يهبط أرضًا بسرعة ليشد على عبدالله الذي يتأوه ويئن بألم جاثيًا على الأرض :" عبدالله وصلوا .. خلاص انتهى كل شي تحمل "

يتلوث ثوبه الأبيض بدماء عبدالله، قلبه يكاد يخرج من مكانه .. باضطراب أنفاسه ينطق وهو يرى انسحاب عمها

ورجاله إلى الداخل مخلّفين خالد ونزيف دمه ملقىً على الدرجات:" لا تتحرك .. مهما صار لا تتحرك .. بجيك الحين"

يقف ليتعدّى السيارة راكضًا إلى خالد ونداءات رجال الأمن لا تتوقف، يصل إليه ليرفعه على ظهره .. يجرّه ولا يعلم أي قوة تملّكته وهو يسحبه قاطعًا الطريق إلى السيارة حيث يثوي عبدالله وصوته يعلو صارخًا :" في مصابين هنا .. الإسعاف بسرعة"

يرمي خالد بقرب عبدالله محتميًا بالسيارة وأنفاس خالد تخترقه .. يقف ليرمي سلاحه أرضًا رافعًا ذراعيه مستسلمًا :" الرهينة هنا مصابة .. عجلوا تكفى.."

يقطع حديثه انتشار دوي الطلقات حوله متزامنًا مع صراخ خالد وعبدالله ليقفز بتلقائية زاحفًا إليهما خلف السيارة وزجاجها يتناثر أسفلها" الله يلعنهم بايعين عمرهم ..- يرفع جسده حتى تتاح له الرؤية ليعود إليهما مجددًا - بنتحرك بس يخف هجومهم .. كلها نص ساعة وتنتهي ذخيرتهم اصبروا"

يغمض عينيه بوجع على صوت بكاء عبدالله وتأوهات خالد وتراشق النيران خلفهم متزامنًا مع نداءات رجل الأمن

كلها تجتمع لتهزّ بدنه، وحروف عبدالله تصلهما متقطعة :" ما كنت .. أدري بيوصل كل شي لهنا .. والله ما دريت "

يلتفت ليشد على كتف عبدالله الباكي وبأسى مماثل :" كلنا خسرنا .. بس الحين بينتهي كل شي وبنصحح كل شي، اصبر وقوّي نفسك .. لا تستلم لوجعك، دقايق وتكون بسيارة الإسعاف "

يشعر بثقل عبدالله يتضاءل، رأسه يميل على كتفه مواصلًا بكاءه يهذي.. يلتفت للآخر المتأوه ملاصقًا له :" رغد بخير.. هي اللي بلّغت، بخير بس تنتظر ينتهي كل هذا"

يفتح عيناه بوجع لينطق بثقل :" ليت طرقنا ما تصادفت .. ليت عمك جرّك مني من اليوم الأول"

يتجاهل حديثه رافعًا جسده لينطق بسرعة :" جايين لنا - يلتفت لعبدالله ليهز جسده - خلاص الحين بنطلع من هالمكان .. تحامل على وجعك"

تزيد حدة الطلقات على السيارة مع اقتراب رجال قوات الطوارئ، يُسند ذراع خالد حول رقبته ليتهيأ للوقوف على صوت رجل الأمن :" بسرعة البنزين يتسرب "

تشتد أنفاسه مع اقتراب نجاتهم، يحمل الجندي عبدالله وآخر يسحب منه خالد يحيط بهم رجال قوات الطوارئ لتغطيتهم صادين الرصاص بالرصاص ..

ترتفع قدمه لتخطو أول خطواته، يسبق هبوطها أرضًا بسلام دوي انفجار هزّ المزرعة بأكملها .. بدل أن تهبط قدمه يطير ليسقط أرضًا، رنين حاد يفتق أذنه، تغيب عنه جميع الأصوات .. لا يرى شيئًا، انتهى كل شيء .. كان آخر حديثه معها وعده لها بأن كل شيء سيصبح بخير منذ تلك اللحظة، وكما وعد .. كل شيء سيكون بخير.. لا يشعر بشيء سوى بالسائل الحار يُغرقه، ضوء ساطع يخترق عينه يمنعه عن الرؤية .. صوتٌ قديم نساه تمامًا ينساب في أذنه شامتًا (هذا ابني؟ هذا ثامر؟ شوفيه يا نورة .. شلون كبر؟ أنتِ كبرتيه بدون علمي؟ أفاااا يا نورة أفا! متى تسوين شي بدون ما تخبريني؟ ولا هذا ياسر؟ سرق حتى فرحتي بتكبيره مثل ما سرقك مني؟) نعم هذا صوت والده .. فجأة يذكر صوته ليتأكد أنه هو، يجاهد حتى يُزيح الضوء الساطع ليتمكن من رؤية وجهه .. غير أن هذا البياض يشتد أكثر، صوت أمه الذي لم ولن ينساه يأتي بعيدًا جدًا يتبادل الحديث مع أبيه لكن دون أن يستوعبه.. يتبادلان العتاب فوق رأسه دون أن

يحاولا مساعدته، يختنق ببكائه .. يتكاثر اختناقه وهو يرجو منهما أن يعيا الوجع الذي بدأ يفتك به، يزداد السائل الحار ليغطي وجهه .. هذه دماء، دماؤه؟ دماء خالد؟ دماء عبدالله؟ أم دماء الجندي؟ أم جميعها اختلطت ببعضها وامتزجت لتعجن روحه ..

•*

أفِل كما تفعل الأقمار

هوى كما تفعل النجوم

ذوى كما تفعل الرياحين

- سيد البيد في وصف رحيل طلال مداح ١١ أغسطس ٢٠٠٠ م.

•*

الورقة الثالثة والعشرون

*•

بياض ناصع يشق رأسه، طنين الانفجار يتجاوز أذنيه إلى عينيه .. يشعر بها تكاد تنفجر من شدة الألم، جسده البارد تعتليه الحرارة فجأة .. تنضخ الدماء من أخمص قدميه حتى تصل إلى رأسه، غرقٌ فائر يغطيه، يعجز عن التنفس .. هذا الغرق الذي يمنعه من التنفس ليس إلا دماء حارة، يختنق .. شيء ما يلتف حول عنقه، يُحكم وثاقه عليه .. بعد جهاد طويل يصل الهواء إلى رئتيه شاهقًا ليُبدد الضوء الساطع من عينيه ويحلّ محلها غبش مشوّش ..

" ثامر .. ثامر، بسم الله أرقيك من كل شرٍ يؤذيك .. بسم الله عليك"

صوتٌ مألوف يُكرر البسملة قُرب أذنه، فتور حاد يُغطيه، يشعر بالسقف يتحرك فوق رأسه .. يستسلم له دون

حراك، وذات الصوت يُكرر الدعاء .. :" اشفِ أنت الشافي لا شافي إلا أنت .."

يبزاح الفتور ليهجم الوجع ويفتك به، يعقد حاجبيه بوجع متأوّهًا .. وجع أعاد له الإحساس بجسده، كف عريضة تمسح على رأسه بحنان كبير :" بسم الله عليك يابوي، فيني ولا فيك .. "

يفتح عينيه بثقل، ليقابله الوجه المتوجع لوجعه .. عمه ياسر، عينيه اللامعة وشفتيه الهامسة بدعوات يجهلها .. كفه الممتدة إلى رأسه تُعيده إلى بر الأمان .. تخفف وجعه، تذكّره بما حصل .. ليجحظ بعينيه ويفزّ جسده متناسيًا وجعه وصورة خالد الأخيرة مُلقى بجواره والدم يتصبب منه دون حراك :" خالد! عمي وين خالد؟ .. كان معي .. وينه؟"

يقف محاولًا تهدئته، تشتد حرارة جسده .. يبتلّ وجهه بعرقه لا يعي ما يقوله عمه، يواصل استنجاده باسم خالد :" عمي لا تكذب علي! خالد وينه ..تكفى عمي"

يقترب جسد آخر، وياسر لا ينفك يطبطب عليه بقلق :" اهدأ يابوي، بسم الله عليك .."

تغرس الممرضة الدواء في أنبوبة المحلول تحت هذيانه دون أن يعي ما تقوله لعمه، تتبلل عيناه بالدمع وصوته

يزداد اهتزازًا وضعفًا برجاء :" عمي أنا بخير.. بس قول وش صار لخالد؟ .. قل الحقيقة لا تخبي علي ..

- يرفع جسده عن السرير ليداهمه دوران حاد، يشعر بيدي عمه والممرضة تكبلانه محاولين إعادته مستلقيًا، يقاومهما بضعف :" عمي لازم أقوم .. تكفى ابعد عني.. - يفقد قدرته على المقاومة، يرتمي على السرير دون أن يشعر .. تزداد ضبابية عينيه، لا يسمع تمتمات عمه ليهمس بوجع قبل أن تغفو عيناه - عمي لا تمنعني أشيل جنازته .. تعرف ماله أحد .. مابيه يحس بالوحدة، عمي مابيه يمشي لها وحده .. تكفى كلم نجد ويوسف يروحون له، أدري يا عمي .. لا تكذب علي.. "

يتضاءل صوته وعيناه تنسدل، ورجاءاته لا تتوقف .. وكف ياسر تمسح جبينه المبلل مرددًا آيات السكينة :" هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانًا مع إيمانهم ولله جنود السماوات والأرض وكان الله عليمًا حكيما"

يسكن بين يديه أخيرًا، تهبط كفه من رأسه إلى يده .. يُمررها بأسى والشاش يغطيها ويغطي نصف جسده، عيناه المتوجعة تذكّره بوالده .. تعود له الصور القديمة، عُمر ..

شقيقه الكبير، لو كان برفقته الآن .. ماذا سيفعل؟ لو كان برفقته الآن .. لما كان هناك (يوسف) ولا حتى (نجد)، عيناه التي يعيش لأجلهما ..

تعود له ذكرى ذلك اليوم الحزين، يومه الأخير مع شقيقه.. كان عائدًا من منزل رفيقه نجد بعد ما نعم بقيلولة تحت ظلال بيت فاتنته، منذ أن حطت قدماه على عتبة الباب تهادى لسمعه صوت دندنة العود تنتشر، يصاحبها صوت سعال متقطع، تبع مصدر الصوت ليجد أخاه يجلس أمام نخلة وحيدة وسط الدار محتضنًا عوده، وبجانبه شيشة تفوح رائحتها :" السلام عليكم"

تقدم بهدوء ليتأكد أن أخاه لم يسمعه وروحه منغمسة في أوتار العود ودخان الشيشة.. حينما ثبتت قدماه أمام العازف رفع رأسه وكأنه للتو يدرك وجوده : "الناس تسلم يا مسلم !"

ابتسم لينطق وهو يجلس بجواره : "سلمنا، لكن سمعنا الرد من العود ! "

يعود الآخر لعوده مندمجًا دون أن يُلقي له بالًا، ليزفر بضيق :" عمر .. اترك هالبلا من يدك أبي أكلمك شوي"

يقاطعه نافثًا دخانه :" هذا تأثير المطوع؟ .. ما أدري وش اسمه أخو أصحابك التوأم؟"

يقطب حاجبيه بضيق :" موسى .. اسمه موسى، وإيه هذا تأثيره كثر الله خيره.. - يمتعض وجهه أكثر مخفضًا صوته - والله ما عاد أدري مين الكبير! .. اترك هالبلاوي وشوف عمرك، عندك ولد ومرة مسؤول عنهم .. ودين أبوي اللي ما أدري من وين طلع لنا فجأة! ما تشوف شلون وضعنا؟ "

يترك العود على البساط ليعتدل بجلسته مبتسمًا :" وليه معقدها ياخوي؟ قلت لك نبيع البيت الثاني بس ما تسمع، عطيتك حلول ورفضت"

يشتت أنظاره بضيق :" أبو مازن صار له عشر سنين بهالبيت، تبينا ببساطة نطرده ونقول له والله فكرنا نبيعه بدل الإيجار اللي ما يوكل عيش! بعدين أمي رافضة .. لا تنسى عشرتها معهم"

يصمت قليلًا مفكرًا قبل أن ينطق :" صاحبك نجد .. أذكرهم مرتاحين، مو هذا وقت يسند الخوي خويه؟ "

يهز رأسه بيأس :" تعرف إني أنتظر تنتهي هالمشكلة وأتقدم لبنتهم، شلون تبيني أتسلف منهم؟ "

يطلق ضحكة ساخرة :" تتقدم لبنتهم؟ يعني مُصر؟ لو افترضنا ووافقوا على حافي ومنتف مثلك، شلون بتقدر تعيشها نفس عيشة أهلها؟ - يطبطب على فخذه ليكمل ضحكته - ياخوي ما تعرف الحريم! اسألني أنا"

يخلل أصابعه بشعره بقلة صبر، لا يمكنه أن يشرح لشقيقه حبه للجوزاء وحبها له :" تعرف؟ الكلام معك منتهي"

يقف منهيًا النقاش قاصدًا الداخل، يتوقف قبل صعوده الدرج وابتسامته تتسع :" هلااااا بأبوي - يمد ذراعيه ليحمل طفلًا صغيرًا لا يتجاوز الأربع سنوات ويلاعبه - شف وش جايب لك من عند ناصر"

يُخرج من جيبه مغلف بسكويت ليسرقها ثامر من بين يديه مسرعًا، يجلس على عتبات الدرج وثامر الصغير فوق فخذيه .. ينشغل بفتح البسكويت ليعود صوت الجالس أمامهما :" أشوف علاقتك رجعت بالتوأم"

يهز رأسه بهدوء دون أن ينظر إليه وسرعان ما عادت أنظاره لشقيقه مستنكرًا حديثه :" جرّب وتسلف منهم، دين أبوي ما يساوي شي قدام فلوسهم"

يُبعد ثامر عن حضنه ليقف بضيق :" ثامر شف لي طريق، بطلع غرفتي"

يلوذ بغرفته ورسائلها بأسى، يرى آماله تتهاوى أمامه .. كان يرسم غرفة أحلامه معها، تجلس قربه وأطفالهما حولهما .. كل ما جمعه لأجلها اضطر لصرفه لتسديد جزء يسير من دَين والدهم الراحل ليعود مجددًا إلى نقطة الصفر، ساعات قليلة قضاها وحده يحاول حلّ عقدته لتنتهي بالصراخ والعويل، أسفل تلك النخلة توفي شقيقه إثر سكتة قلبية وطفله الوحيد يلعب بجواره، تُوفي شقيقه ليودع كل أحلامه .. وليحمل حيوات كاملة على عاتقه وحده، سنة حافلة بالوجع والفقد، أبت أن تنقضي أيامها دون رحيل ثانٍ وثالث ورابع .. غير أن هذا الرحيل عقبه ولادة نجوم زيّنت سماه، نجد ويوسف وثامر الذي احتل جزءًا كبيرًا من قلبه وها هو يرقد أمامه منذ أيام على سريرٍ أبيض ..

يخرج من الغرفة، يمر بممرات المستشفى المكتظة برجال الأمن وبعض الصحفيين .. يُوقفه أحد رجال الأمن الذين ألفوا وجهه ليُسلم عليه بحبور كبير :" كل عام وانت بخير يا عم، أبشرك بكرة العيد تو أعلنوا"

تتسع ابتسامته ليتبادل التبريكات مع من حوله، وإن كان عيدًا ثقيلًا المهم هو أن ثامر قُربه .. يتجاوز الازدحام خارجًا من بوابة المستشفى، يركب السيارة ليصله صوت نجد :" شلونه اليوم؟ "

يطلق زفرة طويلة :" للحين مو واعي، يصحى دقيقة يهلوس بخالد ويرجع ينام .. - يصمت لبرهة قبل أن يتابع - سعود توفى اليوم الفجر"

تذبل عيناه بحزن على سماع النبأ، سعود الجندي الذي أنقذ ثامر من دمار انفجار السيارة .. ارتمى فوقه ليحميه من الانفجار، ليتلقى إصابات خطيرة بدلًا عن إصابات ثامر المتوسطة، يزم شفتيه :" الله يرحمه ويتقبله من الشهداء، بكرة بعد صلاة العيد بنحضر جنازته - يصمت بأسى ليتابع - وخالد شلونه؟"

يمسح وجهه بضيق :" عايش على الأجهزة، مافي أمل بحياته إلا إذا الله قدّر معجزة"

يُحرك السيارة أخيرًا :" الحمدلله على كل حال "

تشق السيارة الطريق بصمت مطبق طويل يقطعه ياسر :" قبل رمضان بأسبوع تحلمت إني أدور على مهاد طفل بالبيت ولا ألقاه، كنت أدور عليه بكل طاقتي وكأني خايف

أفقده .. طلعت أدوره بالحوش وشفت الباب مفتوح وبالصدفة لمحت المهاد مرمي بالشارع .. كنت أحاول آخذه بس في شي يمنعني بس مدري وشهو، يوم صحيت نسيت وش اللي مانعني "

يطلق زفرة وهو يمسح وجهه ليصله صوت نجد الهادئ :" أضغاث أحلام يبه، يمكن كنت تعبان وقتها وما نمت كويس"

يهز رأسه تأكيدًا ليتابع :" ايه بس تعرف نجد؟ بعد ما صحيت كنت خايف عليك انت، رحت أدورك بالبيت مثل المجنون وما ارتحت لين سمعت صوتك وتأكدت إنك بالجامعة .. ما أعرف ليه كان بالي مشغول عليك انت مو يوسف أو ثامر "

يُدرك تمامًا كم يعني هو لأبيه ومكانته الكبرى بين يوسف وثامر، يلتفت لأبيه وابتسامته تتسع :" يمكن هذا لأن يمام بتخطفني منك"

تنتشر ضحكتهما معًا قبل أن يأخذ نفسًا باسمًا :" حلال عليها اليمامة .. يوم اختفى ثامر عرفت إنه هو المقصود"

يقاطعه نجد :" يبه ثامر الحين موجود، ووضعه أفضل بكثير من غيره .. لا عاد توسوس وتشيل هم - يُشير للطريق

مغيرًا دفة الحديث - إلا ما سألتني وين موديك، ما لاحظت الطريق؟ "

يعقد حاجبيه وللتو يلحظ، يتابع نجد مبتسمًا رافعًا حاجبه :" مثل ليالي العيد القديمة"

تتسع عيناه مستنكرًا ضاحكًا ليُتابع نجد بمرح :" تكفى يبه لا تطالعني بهالنظرة، راعي الطفل اللي بداخلي .. بنروح ناخذ الحلويات للبزران نفس ما تعودنا، وبعدين نمر للحلاق وعلى طريقنا نسحب عشرات كاش لعيديات العيال بصلاة العيد - يطلق تنهيدة - الصدق بعد كل اللي مرينا فيه هالشهر محتاج شي يحسسني إن كل شي طبيعي، ثامر بخير .. وبكرة العيد، كل اللي مرينا فيه انتهى"

ترتسم ابتسامة واسعة على محياه، انتهى كل شيء.. قلق الأيام الماضية بما فيها ذلك الكابوس الذي أرّق مضجعه، انتهى ضياع ثامر، نجد حوله يتجهز لزفافه المختصر بعد أيام، ويوسف وإن كان بعيدًا فهو بخير ..

يخرجان من السيارة ليسيرا جنبًا إلى جنب في ممرات السوق الشعبي، أصوات الألعاب النارية بدأت في الأرجاء منذ رؤية هلال العيد .. ازدحام شديد يميز ليلة العيد،

ألوان بهيجة تزيّن طاولات الباعة بأنواع الحلويات والمكسرات ..

يتوقف نجد منتظرًا دوره للمحاسبة في ركن المكسرات ووالده بعيدًا عنه، يُخرج هاتفه ليشتت أنظاره عن الفتاة المتلهفة لكل شيء :" امممم لحظة لحظة لا تجمع الحساب، ضيف كمان كيلو من ذا .. - تلتفت يسارًا ليغريها نوع آخر من المكسرات - لحظة اصبر أشوف "

تبتعد قليلًا ليرفع نجد رأسه أخيرًا بابتسامة ذات مغزى للبائع وبصوت هامس: "عيدك مبارك بس لا تفسد كل صيامك برمضان وانت تغشها لأنها جاهلة! "

يضطرب البائع ليتعلل بفساد الميزان ويُعيد تجربته مجددًا بمكيال صحيح، يُحاسب نجد ليحمل أكياسه ويتوقف بمنتصف المحل متظاهرًا بانشغاله بالهاتف حتى اطمأن لحسابها الصحيح .. يرفع رأسه على صوت رجل تغطي كمامة نصف وجهه يُلقي السلام ليردّه نجد وهو يغادر، يزفر الرجل موجهًا حديثه للفتاة :" أنتِ هنا؟ ضيعتك"

تتسع ابتسامتها ونجد يغادر المكان لتقترب من أبيها ضاحكة :" أنا اللي مضيعتك وانت لابس الشماغ .. ما هذا كلكم نفس الشكل مليون نسخة منك"

يحمل الأكياس عنها ممسكًا بيدها ليخرجان من المحل :" أفااااا هذا وأنا أبوك تقولين مني مليون نسخة؟ "

تكتم ضحكتها وهي تتابع :" انت وحدك شمس وكلهم ليل، أرضيت غرورك الحين؟ "

يرفع حاجبًا تعجبًا :" الله الله! "

تدور عيناها على ممرات السوق المزدحمة لتتابع ثرثرتها باستمتاع :" أثاري يوسف صادق، كل العالم ليلة العيد هنا! .. قال لو تبين تعيشين عيد الرياض تعالي هنا، يوم كان صغير كل ليلة عيد ياخذهم أبوهم لهنا"

تتضاءل ابتسامته، هل مرّ بياسر؟ هل كان نجد أحد العابرين به؟ أم أن ياسر لم يعد يملك أطفالًا أكثر ليعيد ليالي العيد القديمة؟ أو أن إصابة ثامر سلبت منه كل بهجة العيد؟

يعودان إلى السيارة تحت وقع ضحكاتها وتعليقاتها، ترفرف حوله كطفلة صغيرة تجعله يتحسر لكل ليلة عيد قضتها معه في الغربة.

ازدحام الشوارع ككل ليلة عيد يجبره على سلوك طريق فرعي عبر إحدى الحارات، تتسع ابتسامته وهو يشير إلى مجموعة أطفال يُشعلون ألعابًا نارية ليعلو صوتها في زقاق الحارة مبتهجين لينطلق صوتها مسرعًا وهي تخرج هاتفها:" يبه تكفى تكفى وقف "

يوقف السيارة جانبًا عاقدًا حاجبيه لتتابع وهي تلتقط صورًا :" توثيق ذكريات العيد الأول الحقيقي "

تلتفت بسرعة على صوت انفتاح الباب وخروج أبيها من السيارة :" على وين؟ "

يكتفي بابتسامة من خلف كمامه لتراقبه وهو يقترب من مجموعة الأولاد، يدور بينهم حديث تجهله .. وها هو يعود مجددًا برفقتهم، تعقد حاجبيها بعدم فهم ووالدها يفتح بابها :" يلله انزلي"

سرعان ما علتها الدهشة وابتسامتها تتسع، تخرج من السيارة ليُلقيها أحد الأولاد قطعة من ألعابه النارية :" أعلمك شلون تشغلينها؟"

تسحبها منه ضاحكة :" أعرف تحسبني غبية؟ - تلتفت لوالدها بتردد - بس يبه ريحتها بتأذيك!"

تتسع ابتسامته ليقترب منها :" حبة ما تضر"

تُثبت القطعة أرضًا يُساعدها بإشعالها تحت إرشادات الطفل قبل أن تنطلق ضحكتهما ببهجة وصوتها يعلو في المكان، تعود للسيارة لتوثق ضحكات والدها مع بقية الأولاد وهو يوزع العيديات، تحفظ ملامحه الجديدة .. وكأن روحًا أخرى تلبسته، تراقب طول طريق عودتهما إلى الفندق صوت ضحكته .. ابتسامته، عيناه الناعسة..

تقبل خديه بحب على صوته المعتاد وهو يدعو لها كعادته بعدما تسقيه الماء :" الله يسقيك من ماء الكوثر"

تغلق الباب بعدما أطفأت الإضاءة لتلوذ إلى غرفتها، ترفع هاتفها بلهفة .. تنتظر ثوانٍ طويلة قبل أن يصلها صوته لاهثًا :" هلا هديل"

تعقد حاجبيها :" وش فيك؟ "

يأخذ زفيرًا طويلًا لتنتظم أنفاسه :" كنت أركض، خفت تفوتني الرحلة وأثاريها بعد نص ساعة "

تتسع ابتسامتها :" اشتقت "

يصمت قليلًا قبل أن ينطق :" وأنا هِمت "

تعقد حاجبيها ليتابع :" أذكر مرة نجد يتفلسف علي بمعجمه اللغوي، يقول الهيام اللي نظنه شدة الحب مأخوذ

من الهيام اللي هو شدة العطش للماء.. ويظن هو إن هذا أصل المعنى"

تعود ابتسامتها :" يعني كل هالسالفة عشان تقول إنك عطشان لشوفتي؟ "

يربط خيط حذائه رافعًا حاجبه :" من يقوله؟ "

" انت! مو توك تقوله؟ "

يبتسم باستمتاع :" لا أبدًا، أقول هِمت .. يعني ضميان، محتاج مويا .. راعي فارق الوقت، للحين صايم!"

تسحب سبحتها لتعبث بها :" آهاا! يعني ما تستاهل تعرف وش لقيت"

بتهكّم :" وش لقيتِ؟ آكلي بشر كثير بالرياض؟ "

تصمت لبرهة لتستوعب تهكمه، تزمّ شفتيها على صوت ضحكته :" طيب، إذا خلصت من ضحكك علمني عشان أعلمك إني لقيت طرف السبحة الضايع وباخذ الورقة اللي فيها وتحلم أعلمك وش طلعت ومت بغيظك"

يبتلع بقية ضحكته ليعقد حاجبيه :" منجدك؟ لقيتيه بالرياض؟ "

تبتسم وهي تُخرج القطعة الطويلة من جيبها لتتأملها :" اي والله، أمس بعد ما وصلنا كنت أرتب شنطة أبوي ولقيته

بالصدفة مدسوس فيها .. الظاهر كان ضايع بغرفتهم ومع حوسة ترتيب الشنطة دخل"

يرفع حاجبًا بسخرية :" صح! نسيت عنده رجول يقدر يقفز بها للشنطة! "

ترتمي على سريرها مجددًا وبنبرة مماثلة :" ما تدري يمكن هذا مرسول السماء هو اللي دسّها! "

يهز رأسه بتفاعل :" صحيح، افتحي الورقة اللي داخل يمكن تطلع رسالة منه .. يقول دوّر لك زوجة ثانية يا يوسف! "

تصمت قليلًا على صوت ضحكته قبل أن تتابع :" تعرف؟ ما في شي يوصف فرحتي برجعة روحك السامجة بس تعال الرياض.. صدقني ما برحمك"

يبتسم بحبور :" افتحيها قبل لا تطق روحك من اللقافة"

تُفلت ضحكتها لانكشافها أمامه :" اي والله صدق مرة ودي أعرف وش فيها، أحيانًا أقول يمكن كتبت لي فيها شي بما إنك عطيتني السبحة قبل ما تخطبني بس مسوي نفسك بريء"

" مثلًا marry me ؟ لا يا عيني ماكنت لمّ هالسوالف "

يعود صوتها ضاحكًا :" أدري، أصلًا واضح الورقة قديمة مرة "

يحمل حقيبة ظهره ليقف :" جد إذا ودك افتحيها وصوري لي وش لقيتِ، الحين بركب الطيار.."

تقاطعه بسرعة متذكرة الغاية من اتصالها :" لحظة لحظة .. أمانة اوعدني ما ينتهي يوم العيد بدون ما أشوفك، صح مشتاق لأهلك وبتشوف ثامر بس تكفى مابي ينتهي هالعيد من دونك لو خمس دقايق"

ترتسم على شفتيه ابتسامة عذبة :" أبشري"

-

يتملّص من بين جموع المعايدين ليخرج إلى سيارته، يستوقفه صوت المنادي خلفه :" خالي، اصبر "

يستند على السيارة منتظرًا نجد الواقف بين جموع الشباب، يُخرج هاتفه ليتصفّح الرسائل التي غابت عنه منذ أيام، معظمها تبريكات العيد .. من زملائه وأقاربه وطلابه،

يعقد حاجبيه باستغراب شديد وهو يلمح اسمها بين المحادثات الكثيرة (ريم موسى)! غابت ذكراها عنه منذ عزائه لأبيها .. لم يخطر بباله ولو لمرة أن تحشد رسالة مباركة بالعيد، يفتحها ليزداد استغرابه والمحادثة تحمل أيقونة (مقطع صوتي)!

يُشغل التسجيل الصوتي لتنحل عقدة حاجبيه باندهاش وهو يسمع صوته (من المهم ...) يُزيح سماعته مع اقتراب نجد :" وين رايح؟ "

يزفر زفرة مصحوبة بابتسامة :" والله ما عندي وقت، شغل لين راسي .. بروح أشوف ثامر وبعدها بشوف وش صار على القضية، زين قدرت ألحق على صلاة العيد وأعايد الموجودين"

يهز رأسه بتفهم :" زين لا شفت ثامر وكان واعي علّمه بنجيه بعد الظهر مع يمام "

يومئ برأسه إيجابًا لينطلق بسيارته إلى المستشفى، يُعيد تشغيل المقطع ليعود صوته (من المهم نعرف إن العدل لا يتنافى مع العفو يا بنات، أنتِ كشخص بيكون مسؤول عن قضيةٍ ما مستقبلًا أهم شي تزرعينه بنفسك رفع الظلم

وإقامة العدل لكن حطي ببالك يا ريم العفو أبدًا أبدًا لا يتناقض مع العدل)

يعقد حاجبيه وهو يسمع المقطع المجتزأ من إحدى محاضراته، لا يذكر مناسبة حديثه ذاك .. لكن يثق إنه ضمن نقاش مفتوح معها داخل المحاضرة، إلى ماذا ترمي؟ تُشغل تفكيره برسالتها تلك، هل هي إشارة ليعقوب؟ هل عاد عمها؟ أم أن هم الأمانة أثقل كاهلها؟

يحاول تجاهلها وإخراج رسالتها من عقله قبل دخوله عند ثامر، يُسلم على رجل الأمن الواقف بين غرفة ثامر وغرفة أحد الجرحى ليفتح باب الغرفة، ترتسم على شفتيه ابتسامة واسعة على رؤية ثامر مستيقظًا :" صحصحت وأخيرًا! "

يطلق تنهيدة متعبة وعيناه تبتعد عن ناصر إلى النافذة، يقترب ليُسلم عليه بحبور :" من العايدين، تعرف إن اليوم عيد؟ "

يومئ بعينيه إيجابًا وعيناه تنتقل إلى باقات الورد المتنوعة دون حديث، ينقل ناصر أنظاره حيث الورود .. تتسع ابتسامته وهو يقرأ البطاقات، مراكز وجمعيات ومجموعات

تطوعية عديدة تُرسل له أمنياتها بالشفاء ومباركات بحلول العيد .. يعود بأنظاره على صوت ثامر المتعب :" وينه؟ "

يزم شفتيه صامتًا قبل أن يُجيب بهدوء :" بعده ما صحى، بس ادعي له، محتاج دعواتنا"

تنطلق منه زفرة :" أقدر أشوفه؟ "

يهز رأسه نفيًا باستياء :" لا، بس أوعدك أول ما يسمح الوضع باخذك تشوفه"

يغمض عينيه بهدوء تام لدقيقة قبل أن يفتحها على صوت ناصر مبتسمًا :" عمك ونجد وخالتك بيزورونك بعد الظهر.."

يقاطعه صوت ثامر :" وش صار؟ أنا واعي الحين .. علمني بكل شي"

يعود ليجلس مقتربًا منه، يتنهد بقوة ليرسم ابتسامة :" الحمدلله، كل شي تقريبًا انتهى انت الحين تعبان بس تصحى أوضح لك كل الأمور"

يلف رأسه بضيق ليعود مجددًا إلى ناصر :" أبي أعرف كل الشي اللي انتهى، ممكن؟ "

لا يجد بدًا من الهروب من عيني ثامر المُصرة يهز رأسه بهدوء :" استشهد اثنين من قوات الطوارئ، ومات ثلاثة من الإرهابيين .. الباقيين مسكوهم، بنفـ."

يعود صوته مقاطعًا بترقب وقلق :" مين مات؟ "

بلا مبالاة ينطق :" واحد اسمه حسن والثاني رائد والثالث سعد .. زوج بنت الراس الكبير"

يغمض عينيه بطمأنينة للحظات :" الله لا يرحمهم .. - يفتحها مجددًا - وعبدالله؟ اللي كان معي؟"

" مُصاب، وضعه أسوأ منك .. "

يقطب حاجبيه بحسرة، يتمالك نفسه ليخرج صوته هامسًا والسؤال الذي يراوده منذ إفاقته يتفجر منه :" رغد .. وينها؟ "

يهز رأسه بضيق ليقف بانفعال يحاول كبته :" حكت لي كل شي يا ثامر! كل شي"

يشتت أنظاره سريعًا بانكسار، ماذا يعني بكل شيء؟ ماذا قالت رغد؟ تجاوزاتهما معًا؟ للحظة تمر صورة وجهها الملتصق به بقبلة محرمة .. يتفجّر قلبه بحاجة ملحة لوجودها الآن وحالًا، لقبلتها تلك .. ما زال يذكر تأثيرها عليه، كيف شعر بتوقف الزمن ...،كل حاجته الآن أن تقف

فوق رأسه الآن وتزرع قبلة مماثلة وترحل ليتوقف الزمن إلى الأبد، يُتابع ناصر :" حكت من يوم أخذها خالها وهي طفلة لين دخلتو بيتي بنص الليل .. - يمسح وجهه بضيق ليتابع - يوم بلغنا أنا ونجد عن اختفاءك، ربطوا اختفاءك بخالد، وخالد اللي له سجل بقضية التزوير ربطوه مباشرة بقضية اختفاء قريبه الإرهابي قبل سنين وأهله، كانوا عارفين بكل شي بس يشتغلون بسرية .. ما عرفت أنا إلا يوم أخذت رغد وبلغنا، كانوا ينتظرون الوقت المناسب للمداهمة.. مأخرهم وجود رهاين، انت وخالد .. وكانوا يجهلون المكان، صحيح ساعدتهم كثير بهروبك وجيتك عندي ووصفك للمكان بس ارتكبت غلطة كبيرة برجوعك بدون علم أمني، كنت تظن نفسك سوبرمان؟ انت سويت عمل مو عملك، عجّلت بالعملية الأمنية بهروبك .. ليتني قدرت أمنعك! غلطك هذا مفروض يكلفك كثير .. - يتدارك نفسه ليهدأ ويطمئنه - بس بيتعاونون معك وبيساعدونك وبتخف عقوبتك كثير وأتوقع يصدر بحكمك عفو.. بنفس وقت المداهمة كانت في مداهمة ثانية بالطايف، كانوا ماخذين مصنع ومتحصنين فيه .. أبو رغد كان هناك - يراقب اتساع عيني ثامر ليتابع - بس مات وقت المداهمة"

يطلق زفرة طويلة من أعماقه ليتابع ناصر :" وباقي الخلية ممسوكين، أسماء كثير منهم بيصدر فيهم حكم قصاص .. وعمها من ضمنهم .. البنت قضيتها معقدة يا ثامر، بس بتاخذ كامل حقوقها .. حولوها لأخصائية نفسية، نفسيتها منهارة واللي شافته طول حياتها مو هين"

يعقد حاجبيه بوجع، لا شيء يهوّن هذا الوجع سوى ثقته بأنها ستنال كافة حقوقها .. رغد السر الكبير الذي لازمه لسنين طويلة لم يعد سرًا ..يعيد أنظاره لناصر :" ثامر.. كل اللي راح انتهى، اسم رغد انتهى من حياتك.. ما تربطك بها أي علاقة، ماعاد هي شخص ضعيف يستغله أي شخص لأنها مجهولة! .. بس تنتهي القضية ابدأ حياتك من جديد، ابدأها بطريقة صحيحة .. الكل بيفتح لك أبوابه، هذي فرصتك"

يهز رأسه بعدم تصديق وحروق جسده تُلقي بثقلها عليه، بتشتت وضياع :" انتهى من حياتي؟ خالد انت ما تعرف شي! .. انت تعرف رغد هي كل شي؟ كيف تقول تنتهي ببساطة؟ أنا ... - يعتصر وجهه بألم، يحاول مقاومة الحمى لتخرج حروفه ضئيلة - أنا أعني لها .. كل شي، ما أقدر"

يقاطعه بضيق وضياع رغد وشتاتها يعودان مجددًا لذاكرته :" أعرف، وأعرف إنك مستعد تضحي بكل شي لراحتها .. نفس ما كنت بتضحي بحياتك لخالد! .. البنت بتكون بخير وما عاد بتحتاج أحد، وانت .. قادر تتجاوزها، انساها لوجه الله وبيعوضك ربي خير، أي شي تتركه بنية خالصة لله بيبدله لك بأفضل يا ثامر، وأنا .. وعمك واخوانك كلنا معك! "

يتضاءل بوجع، كان يعلم تمامًا أن قصة الفتاة الصغيرة التي ابتدأت بضربة موجعة على رأسه ستنتهي عند هذا الحد، لكن قلبه يأبى التصديق .. يشعر بكف ناصر تطبطب على كتفه الملفوف بشاش يغطي حروقه :" اللي صار اختبار كبير لك، بس انت قادر تتجاوزه .. - يبتعد قليلًا وبهدوء - أهلك بيزورونك بعد الظهر، وأنا بجيك بكرة إن شاء الله .. تامر على شي؟ "

ما زالت عيناه تائهة بالفراغ دون جواب، يُعدل ناصر شماغه ينوي الرحيل.. يستوقفه صوت ثامر من خلفه :" يعقوب .."

تتجمّد أطرافه وعيناه تتسع، هل رسالة ريم تلك أدخلته في دوامة توهمات، يلتفت بعقدة حاجب بشك لتواجهه عينا ثامر المتعبة وصوته الثقيل :" أعرف مكانه "

تضطرب ملامحه ليقترب مجددًا من ثامر :" تعرف مكان مين؟ "

بذات الهدوء :" يعقوب، خصمك .."

تتزايد أنفاسه، اضطرابه يشتد ليتابع ثامر بضيق :" عرفت من زمان، بس .. وعدت خالد يبقى الموضوع .."

يقاطعه بسرعة وعدم فهم :" خالد؟ وش علاقة خالد؟ "

يهز رأسه بهدوء :" أخوه هو المزور اللي لجأ له الشيخ موسى .. الأوراق كانت باقي معه"

يمسك برأسه بعدم استيعاب ليتابع ثامر وصوته يضعف :"وعدته يبقى الموضوع بيننا، بس .. ما عاد أقدر أهرب منك، وقفتك مع رغد ما أوفيك حقها "

يذرع الغرفة ذهابًا وعودة يحاول استيعاب حديث ثامر، ليعود مجددًا بصدمة :" ليه سكت يا ثامر؟ ليه؟ كل هالوقت عارف وساكت؟!! "

يشتت أنظاره عن عيني ناصر اللائمة :" لأن حياة شخص يهمني بتنهد، وأنا مابيه يعيش بضياع من جديد"

يفقد أعصابه بتشتت :" مين؟ مين هاللي يهمك أمره وله علاقة بيعقوب؟! "

يعيد أنظاره نافثًا وجعه بوجه ناصر :" مو تقول أي شي تتركه لله يعوضك خير منه؟ اعتق يعقوب .. اعتقه مو عشانه، عشان الناس اللي بيدفعون الثمن .. عشان بنته، عشان يوسف! .. لا تحطم الشي الوحيد اللي متمسك به يوسف تكفى"

تبهت ملامحه بدهشة، تتزاحم الكلمات بداخله ولا يخرج منها سوى همس :" يوسف؟ "

يهز رأسه بأسى وعينين راجية :" ايه يوسف .. عبدالعزيز اللي خطب عنده يوسف بدون ما ياخذ بشور أحد هو خصمك، بنته هي زوجة أخوي.. تنازل عن حقك لوجه الله، ولا تحطم حياة يوسف.. لو - تختنق أنفاسه بوجع، يحارب حتى تخرج حروفه بوجه ناصر - .. لولا يوسف، كان سحبت يدي ونمت .. مين هذا يعقوب حتى يهمني إن قصّوه أو انفضح بهويته؟ بس .. هذا يوسف، أخوي يا ناصر .. لا تلومني بأخوي! "

ترتجف شفتا ناصر وعيناه تضيع في ملامح ثامر، يحاول استيعاب الأمر .. يوسف؟ يعقوب؟ يهز رأسه نفيًا بعدم

تصديق، ثامر مريض .. الحمى تشلّ تفكيره، قد يكون الانفجار أدى لفقدانه عقله .. كل شيء محتمل إلا ما يقوله، يمسح وجهه وبصوت ضائع قبل أن يفر من الغرفة والمستشفى :" منت بصاحي يا ثامر، نام"

يترك ثامر خلفه وحيدًا، يلوذ بأوجاعه .. هل تهور؟ هل سيهدم كل شيء؟ لم يعد بمقدوره حمل الأمر على عاتقه وكتمانه عن ناصر، لينتهي كل شيء .. كل الماضي، كل شيء يبدأ من الماضي لا يتوقف ..

-

يترك والده في مجلس العيد ليعود إلى المنزل ناشدًا الراحة، لا يرجو شيئًا سوى أن تغفو عيناه ساعة قبل زيارتهم لثامر.. ينوي الصعود إلى غرفته وهو يخلع شماغه وسرعان ما تجمّدت حركته عاقدًا حاجبيه على صوت شهقة خلفه :" نجد؟ "

تزول عقدة حاجبيه على صوتها ليلتفت ويجدها خلفه بعباءتها دون حجابها، تحلّ الابتسامة على وجهه :" يمام؟ شتسوين؟ "

تمسح جبينها بطرف إصبعها وعينها تنتقل لمغلف صغير على الطاولة أمامها :" كنت بحط لك هدية - ترفع أنظارها له بابتسامة عذبة - على أساس مفاجأة بس .. خربتها الله يصلحك"

يترك الدرجات لينطق وهو يقترب منها بذات الابتسامة :" خربتها؟ يعني كنتِ ناوية تتركين الهدية وتروحين؟ - ينحني لها ليقبّل خدها - زين قفطتك وشفتك، كل عام وأنتِ بخير يا عيني"

يجلس على المقعد مقابلها وهو يسحب كرسيها ليُقربها أكثر إليه، تتسع ابتسامتها بخجل :" الصدق حتى أنا كنت أقول يارب أصادفك"

تنطلق ضحكته وهو ينحني ليصل إلى الهدية ويخطفها من خلفها :" اييه بس، الله يسامح خالتك .. حرمتني منك"

تراقبه وهو يفتح الهدية بابتسامة :" تقول لا تشوفينه لين تنزفين، على أساس رمضان كله ما قضيته هنا"

تتسع ابتسامته وهو يُخرج الشماغ من العلبة وبمزاح:" طيب كان فاجأتيني قبل صلاة العيد، ولا تبيني ألبسه بزواجنا؟ "

تهز رأسها نفيًا :" كان عندي حظر تجول، ما صدقت خالتي تسبقني وتروح وأتسلل لبيتكم"

يميل إليها مقتربًا ليزرع قبلة طويلة على شفتيها، لو علمت خالتها بأن يومها الأخير معه قبل وصول خبر ثامر كان ينام بجوارها مأسورًا بدفئها الذي كان بحاجة له، وإن لم يتجاوزا حدود النوم المسترخي .. لأصرّت أن تزف إليه في تلك الليلة، ما حصل لثامر أجبرها على المبيت بمنزلهم لأيام طويلة.. مما جعل خيار إقامة زفاف مختصر عائلي دون تأجيل هو الخيار الأنسب، يُحررها من قبلته أخيرًا دون أن يبتعد عنها .. يتأمل ملامحها المبتسمة تقاوم حياءها، يهب واقفًا فجأة أمامها :" عادي أشيلك؟ "

تذهله وهي تحرر كتفيها من عباءتها، الأيام التي قضتها معه تحت سقف واحد وإن كانت عصيبة وضيّقة إلا أنها حطّمت حاجز الخجل بداخلها، ترفع ذراعيها لتحيط رقبته بابتسامة عريضة:" ايه عادي"

يشدها إليه حاملًا جسدها لتنزاح العباءة منها على الكرسي كاشفة فستانها الأصفر وساقها المزينة بخلخاله، تكره أن يحملها سواه.. تكره حتى مبادرة من حولها بجرّ كرسيها، لكن معه بدأت تستلذ حمله لها.. لا يحملها بدافع المساعدة أو الشفقة، يحملها لتعطشه لحملها، يُشعرها بذلك .. كما أنها باتت تعشق موطن جسدها الملاصق له.. قلبها يلتصق بقلبه، تشعر بنبضيهما يتجاوبان، عيناها قريبة من عينيه .. لا يلزمه سوى إمالة رأسه قليلًا حتى تتعانق أهدابهما .. تعمّدت التأخر وهي تضع الهدية أملًا برؤيته، تعمّدت أن تبدو بكامل زينة العيد حتى يراها .. بحاجة لأن تشعر بأنوثتها معه، تكفيها نظرة إعجاب لا يمكنه كبحها، يتجاوز سقف أمنيتها بنظرة ليمطرها بنظرات تلتها قبلات خدّرتها ..

كان متلهفًا لها كما كانت، لم تقاومه .. يخلعان عقليهما جانبًا ليتملكهما الجنون، كان عائدًا إلى منزله ناشدًا النوم لتسلبه منه .. يجهلان كيف طاوعتهما نفسيهما لفعل كل هذا الجنون، كل ما يعلمانه أن ساعة تلتها نصف ساعة انقضت حصل فيها ما حصل ليعود عقلها أدراجه إلى رأسها وينثر فيها التوتر والخوف، ينحني إليها ليضمها إليه ماسحًا

على شعرها وهو يشعر بتغلب ملامح التوتر والخوف على ملامحها الخجولة والمُحلّقة :" يمام، يا حبيبتي .. أنتِ زوجتي وأنا زوجك، اليوم أو بعد خمس أيام ما يفرق، ما ارتكبنا حرام "

تُغمض عينيها بتوتر، تعلم تمامًا أن لا حرام فيما حصل .. لكن ليس كل ما هو حلال صحيحًا :" بس..."

تضيع الكلمات منها، يُبعد وجهه عن شعرها ليقابل وجهها بلطف :" لا تفكرين كثير ولا تشيلين هم، زواجنا بعد خمسة أيام .. كل اللي أبيه منك ما يتسلل الندم لقلبك .. مابيك تندمين على أي لحظة حلوة بيننا، لا تفسدين الذكرى الأولى بسبب ندم ما يستاهل - تتسع ابتسامته ليلطّف توترها - ذكرى استثنائية غير تقليدية! "

تزم شفتيها بتوتر وهي تشتت أنظارها :" أثاري خالتي .. ما شددت علي عبث"

يتنهد بهدوء :" اللي صار ما يخص أحد غيرنا يا يمام - يقبل خدها ويقف ينوي حملها مجددًا إلا أن صوت هاتفه شتته، يطلق صفيرًا مندهشًا والساعة تتضح له ليدرك للتو سرعة الوقت .. - هذا أبوي، تأخرنا"

تراقبه وهو يجيب على والده بتوتر :" هلا يبه .. لا صحيت ما نمت كثير .. - ينقل أنظاره لها بابتسامة صغيرة - ابشر باخذ يمام من بيتهم وبمر لك.. نص ساعة بالكثير ونجيك.. مع السلامة"

ينتقل إليها بعجلة ليحملها خارجَين من غرفتهما المستقبلية، يُعيدها إلى المنزل ليعود أدراجه ويعيدا ترتيب فوضاهما ..

بعد ساعة كانوا ثلاثتهم متحلقين حول ثامر، لا يقوى على مجاراة ابتساماتهم .. غير أنه يطمئن بأن حديثه لناصر لم يتجاوز هذه الغرفة، يتظاهر بالتعب سريعًا حتى يعود إلى خلوته ..

تفرغِ الغرفة منهم، ينام لوقت يجهله وصورة يوسف لا تفارقه، لا يرجو شيئًا سوى ألا يتسبب بشتاته مجددًا .. يستفيق على صوت ربكة قُرب الباب، صوت مألوف يصعب عليه معرفته وحديث غير واضح يصل إليه.

خلف الباب، يقف بضيق شديد أمام رجل الأمن :" ياخي تكفى، بس بشوفه .. أنا أخوه "

يهز رأسه نفيًا بصرامة :" روح الله يستر عليك، إذا أنت أخوه فعلًا فأنت تعرف إن الموضوع أمني ومافي زيارات بدون تصريح .. أهله كانوا هنا قبل ساعتين وينك؟"

ينفث بقلة صبر:" قلت لك كنت مسافر وتوني واصل .. من الطيارة للمستشفى عشان أشوفه بس! - لا يجد أي بادرة تجاوب، يُخرج هويته ليبرز اسمه - شوف، صحيح الاسم يوحي إني ولد عمه بس احنا إخوان من أم.. ياخي مب خسران شي لو دخلتني عليه بس دقيقة أسلم!"

تنطلق ضحكة ساخرة منه :" وإن كنت أخوه؟ يا حبيبي انت تحسب نفسك وين؟ هذي إجراءات أمنية .. روح بس قبل لا أضطر استدعي.."

يقاطعه بسرعة واستسلام :" خلاص الله يسامحك بروح، بس صدقني ما كذبت عليك"

يسير للخلف بتردد وخيبة، كان يأمل بأن يفاجئ ثامر بعودته .. دَفعة معنوية صغيرة ليُشعره بدعمه له بعد كل ما خاضه، يتوقف في منتصف الممر ورغبة قوية بالمحاولة مجددًا تدفعه للعودة، تتسع ابتسامته على زفرة رجل الأمن المطولة :" تكفى، بس افتح الباب وبشوفه وأوعدك ما تشوف وجهي مرة ثانية"

بعد عدة محاولات صادقة يلين أخيرًا، يفتح الباب ليظهر جسد ثامر مغطى بالأبيض .. ترق ملامح يوسف ورؤية ثامر القوي بهذا الضعف تؤلمه، تُذكره بحادثه ذاك قبل عشر سنين.. الحادث الذي غيّر جميع موازين حياته وأعاد تشكيله، لا يتمنى لثامر أبدًا أن يذوق ما ذاقه ..

يتحرك جسد ثامر بانزعاج وها هي عيناه تستفيق، يرفعها للباب لتتسع متفاجئًا لرؤية يوسف .. لا يشبه يوسف القديم في شيء، كان آخر لقاء بينهما قبل أقل من عام بقليل .. فاصل زمني قصير لا يتسع للتغير الكبير على ملامح يوسف ، جسده الرياضي .. امتلاء وجهه، وعينيه المشرقة.

يومئ له بابتسامة عذبة صغيرة رافعًا كفه، ليطلق زفرة ضيقة مصحوبة بابتسامته ورجل الأمن يعيد إغلاق الباب ليغيب عنه وجه ثامر ..

-

يستيقظ على صوت المنبه بعد نوم دام لساعتين لم يهنأ به منذ مدة طويلة، أعاده نجد إلى المنزل ليأخذ قسطًا من الراحة قبل سهرة العيد الليلية وعاد هو ليأخذ مكان والده مصطحبًا اليمامة معه..

يتوضأ ليخرج من دورة المياه ويلبس ثيابه، رؤية ثامر بحالٍ أفضل وتجاوبه معهم جدّد نشاطه.. يخرج من المنزل وصوت أذان المغرب يرتفع، يردد خلفه بسكينة حاثًا خطاه إلى المسجد القريب.. تتسع ابتسامته للأطفال المارين به ملقين السلام يلحقونه بفوضى (يا عم هذا ولد عمي .. عمي هذا تركي تذكره؟ .. عمي وين نجد؟ .. يا عم عيدك مبارك) يعلم تمامًا سبب تحلّقهم .. تتسع ابتسامته وهو يُخرج محفظته ليوزّع عليهم العيدية، يعلو صوتهم وكل منهم يحاول إثبات تفوقه على أقرانه بما جمعه منذ ليلة العيد، يتبعونه إلى المسجد ليخفت صوتهم متهامسين وما زالت العيدية محور حديثهم ..

يتركهم خلفه ليتقدم إلى الصف الأول، يسلم ويعايد من لم يعايده صباحًا .. وكعادة الأيام الماضية يتمحور الحديث حول ثامر، يقترب منه أحد شباب الحي متحمسًا :" بتويتر

يقولون الخلية كانوا ناويين ينشرون وثائق مزورة باسم ضباط بالحرس الوطني وأمراء! "

يتدخل رجل كبير آخر :" شياطين الله فكنا منهم"

يعود الشاب مجددًا :" صحيح.. انتهى زمن اللي يفجر نفسه بعد ما يغلسون مخه، الحين زمن الحرب بولاء وإيمان الناس بوطنها، شكوك يزرعونها بعقول الشباب"

يهز رأسه إيجابًا ياسر :" الحمدلله اللي فكنا منهم وحمانا من شرهم"

يعتدل الإمام واقفًا ليتهيأ الجميع خلفه بعد الإقامة، يقف الشاب يمين ياسر .. يبقى يساره خاليًا، يتلفت للخلف وقبل أن يدعو أحد الأطفال ليسد فراغ يساره يلمح رجلًا بكمامة تغطي نصف وجهه يقترب .. يُشير له ياسر بيده ليقف بجواره، يصطف بجانبه بثبات، يتوجّهان بجسدهما إلى القبلة .. يُقبلان على الله متجاوِرَين، يسجدان خلف الإمام .. أحدهما يهمس بدعائه المعتاد (اللهم احفظهم لي، ولا تريني فيهم بأس ولا مكروه، ولا توجع قلبي عليهم ولا منهم) والآخر بجانبه يرجو الله بخشوع (يا قوي ارزقني القوة ولا تولّي الشيطان علي، يا رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي وتجاوز عني)

يفرغ من آداء فرضه ونافلته، شيء يشده للرجل الغريب بجواره .. شيء يجهل ما يكون، يقرر السلام عليه بعدما ينتهي الغريب من صلاته النافلة، يُخرج هاتفه ريثما يُنهي صلاته .. رسالة من نجد (بعد الصلاة بمرّك يا سيدي القائد) ومكالمة فائتة من (ناصر) .. ينتقل إلى رقم يوسف، يزفر بضيق والهاتف مغلق .. أخبره بمكالمته الأخيرة ليلة أمس بأن هاتفه يشكو خرابًا وقد لا يتمكّن من إصلاحه إلا بعد انتهاء دوامه الذي قد يطول، أول عيد ينقضي دونه .. ولا حتى صوته.

يُعيد هاتفه إلى جيبه واقفًا، ينسى الغريب .. ينتعل حذاءه، وقبل أن ينزل الدرجات يستوقفه صوتٌ يطفح حنين، قلق، متناقض بين قوة وضعف :" أبو يوسف! "

يقوى بالكلمة الأولى ليتهاوى بضعف وحنين لا يظهران إلا على الكلمة الثانية (يوسف)، في كل مرة ينطقها داخل الرياض تخرج شجية وكأنها لا تخص سوى يوسف واحد، كأن الرياض كلها تلتفت إليه ترقب حزنه ليواريه بضعف قبل أن يظهر ..

يعقد ياسر حاجبيه، من ظنه غريبًا ليس غريب؟ يعرف كنيته؟ صوت مألوف.. ملامح غير مألوفة، يغطي نصف

وجهه الكمام .. يرسم ابتسامة صغيرة وهو يمد يده ليسحب الغريب ويسلم عليه بترحاب، يُبادله المعايدة وصوته القريب يشده بقوة، يحاول جاهدًا أن يذكر صاحبه لكن ذاكرته أضعف .. بعقدة حاجبيه وابتسامته الواسعة ممسكًا بكفه:" اعذرني ياخوي ما عرفتك، ذكرني بك "

يلمح ابتسامة من عيني الرجل اللامعة :" ما عليك ملام "

يُزيح الكمام عن وجهه بابتسامة تحمل الكثير، وجع .. شوق.. رهبة.. استعداد للمواجهة.. حنين .. رغبة بأن ينتهي كل شيء، أمنية بأن يعود كل شيء إلى موضعه الصحيح حتى لا يقف أمام رفيق طفولته وصباه وشبابه بهذه المواجهة التي لا يقدر عليها.

يتأمل عيني ياسر .. يلمح الصراع القائم في ذاكرته، يحاول تذكر هذا الشخص .. لتنطلق ضحكة خفيفة موجعة وهو يطبطب على كتف ياسر :" يعقوب يا ياسر! ما عرفتني! "

ترتجف شفتيه، تتسع أحداقه حتى كادت تخرج مقلتيه .. قلبه يضخ دماءه بقوة كبيرة أربكت جسده، يختل استيعابه .. يضطرب بين نقيضين، بأن يضمه إليه ويأخذه إلى حضنه ويبكي فرحًا للقائه أم يطلق رجليه ليهرب منه إلى لا مكان .. أن يحمل كل حياته ليدفنها داخل قلبه ويواريها عن رفيقه،

ما كان يخافه يجثم الآن أمامه .. لماذا الآن يا يعقوب؟ كان لسنين طويلة يتعايش مع اختلال مشاعره، شوقه له .. خشيته منه .. لم يكن يتوقع أن يكون النقيضين بهذا الوجع الذي يودي برأسه الآن .. يتشنّج رأسه بألم، وكأن يعقوب يحمل منشارًا ليفصل جمجمته إلى جزأين..

وكأن يعقوب يرى انفصال جمجمته يُسرع ليسحبه ويضمه إليه، يلملم شتاته .. يُغمض عينيه ياسر وهم يشم رائحته، نعم هذا يعقوب .. بعد لقائهما الأخير الحاد قبل ثلاثة عشر عامًا يعود، حاملًا معه الماضي على كتفيه.

يبتعد عنه قليلًا ليأخذ نفسًا ثقيلًا، لحظة تمر ليتأمل كل منهما الآخر .. يعقوب بمرضه الذي سرق كل ملامحه، ياسر .. ذاته ياسر، للتو يلحظ يعقوب شبهه الحاد بيوسف .. غير أن الأخير يحمل جمالًا فاتنًا يتصف به كل من سُمي بيوسف ..

يزم شفتيه مشتتًا أنظاره عن كابوسه، يُعيدها ليطلق زفرة حارة ضائعة :" ليه .. رجعت؟ "

*•

أَدِرْ مُهْجَةَ الصُّبْحِ

صُبَّ لنَا وطناً فِي الكُؤُوسْ

يُدِيرُ الرُّؤُوسْ

وزِدْنَا مِنَ الشَّاذِلِيَّةِ حتَّى تَفِيءَ السَّحَابَةْ أَدِرْ مُهْجَةَ الصُّبْحِ

واسْفَحْ علَى قِلَلِ القَومِ قَهْوتَكَ المُرَّةَ

المُسْتَطَابَةْ

أَدِرْ مُهْجَةَ الصُّبْحِ مَمْزُوجَةً بِاللَّظَى

وقَلِّبْ مواجعنَا فوقَ جَمْرِ الغَضَا

ثُمَّ هَاتِ الرَّبَابَةَ

هاتِ الرَّبَابةْ ....

- سيد البيد

الورقة الرابعة والعشرون

*•

خرج من المستشفى تائهًا دون بصيرة إلى غرفته .. يحاول تمالك صدمته، ما ألقاه ثامر عليه سلب عقله .. هل ما يقوله حقيقة؟ عبدالعزيز؟ لا يُمكنه تصديق هرائه، كيف يُمكن أن يكون قُربهم كل هذه الأيام دون أن يُكشف؟ لماذا اختار يوسف؟ لماذا اختار أن يبدأ حربًا أطرافها يجهلونها؟ يوسف .. وابنته، هل كان كل هذا بتخطيطٍ منه؟ حتى يضمن نجاته؟ هل يعلم ياسر؟ دائمًا ما كان يحاول حماية صديقه وتبرير فعلته أمام ناصر، هل هما متفقان؟ وكيف وصل إليه يوسف؟ كل ولايات أمريكا ومدنها لم يُوفق يوسف إلا فقط بجانب يعقوب؟ لم يكن يومًا من المؤمنين بالصدف .. لكن مع خصومه بات يتوقع كل شيء، قد تكون

أفكاره وهاجسه تستمع إليه لتخرج وتتشكل على هيئة صُدف؟ ألم تكن ريم إحدى طالباته بمحض الصدفة؟

ريم! .. عند ذكر اسمها يفوق من تيهه، لا أحد أبدًا قد يؤكد له هراء ثامر إلا ريم .. يرفع هاتفه بجنون يتملكه ولا شيء يراه سوى وجه التوأمين اللذين لا يفرق بينهما، كان طفلًا عندما عادت المياه إلى مجاريها بين شقيقه نجد وياسر والتوأمين .. زيارات مكثفة، اصطحاب نجد له لمرات معدودة إلى مجلس التوأم حتى يعلمه (علوم المرجلة) كما يقول، وبالأيام التي كثُر لقاؤه بيعقوب بعد زفاف أخته الجوزاء إليه، كان يألف ياسر كثيرًا منذ ولادته .. لا تنقضي ليلتان دون أن يراه، نجد وياسر كانا كتوأمين متلازمين منذ طفولتهما مرورًا بشبابهما حتى خفُت ضوء ياسر بين المجموعة بعد صدمته برحيل عمر، تخلّف كثيرًا عن جلساته الشبابية مع رفاقه، استبدل رفاقه الثلاثة برفيقين جديدين، ثامر وناصر .. طفلان يهرب بهما من هم الدنيا، يحاول أن يُنسي ثامر وجع فقد والده وألم ترمّل أمه بأخذه إلى الحديقة مصطحبًا ناصر الصغير علّه يؤنِس ثامر.. كان ثامر صغيرًا بما فيه الكفاية ليتململ ناصر من اللعب معه، مع هذا كانت أفضل أيامه تلك التي قضاها بين ثامر وياسر

الذي تحوّل إلى أخٍ كبير ومرشد بصير لحياته .. يُلقي عليه المعلّقات في طريق عودتهم إلى المنزل حتى حفظ نصفها بين يدي ياسر، يشرح له أسرار ألفاظ القرآن الكريم حتى بات يقرأ القرآن بعينٍ جديدة مختلفة .. لا يزال يذكر حزن شقيقه نجد على ما آل إليه ياسر، فقدانه لليالي السمر معه ورفاقه.. جاهدوا ثلاثتهم كثيرًا حتى يُخرجوه من قوقعته، لكن وكأنه شاخ فجأة ولم تعد تشده كل أيامه مع رفاقه.

يذكر عصر اليوم الذي وقف به ياسر وثامر الصغير أمام منزلهم ينتظرانه ليصحبانه معهم إلى الحديقة، كان يلبس حذاءه على عتبة الباب متحمسًا وهو يُبشّر ياسر بحفظه لقصيدة جديدة، قصيدة يحبها ياسر كثيرًا تروي حبه لجبل طويق، يُساعده ياسر بارتداء حذائه وناصر يردد أبيات قصيدة عبدالله بن خميس (يا جاثمًا بالكبرياء تسربلا .. هلّا ابتغيت مدى الزمان تحولا؟ شاب الغراب وأنت جلدٌ يافع .. ما ضعضعت منك الحوادث كاهلا) يتوقف عن ترديدها لينطق بحماسة (الجوزا حفّظتني القصيدة!) ترتسم على شفتيه ابتسامة حنين وأسى ليشد ناصر ويستوي واقفًا، لم يكن بحاجة لأن يخبره بهذا .. هو من حثّ الجوزاء على حفظ

القصيدة بمراسلات خفيّة بعدما ترك الديوان متعمدًا في مكتبة والدها، مرةً يترك رسالته لها في أصيص الخزامى على حين غرة من نجد، ومرة يستقبل رسالتها داخل كيس الوسادة في الليالي التي ينام فيها بملحق منزلهم .. كانت أشد لحظاتهما خوفًا وترقبًا ولذة، إن سقطت الورقة سهوًا بين يدي نجد أو والده لا يتصور مدى الكارثة التي ستحلّ على رأسيهما.. يقطع سيل القصيدة على لسان ناصر وثناء ياسر صوت نجد خلفهم مُرحّبًا بعتاب (هالورع أخذك منّا؟) كان يجلس بجوار يوسف بسيارته خلفهما يعقوب.. يُعقّب أحد التوأمين (اركب بنوصلكم) يغلبه حنينه ليركب، منذ تلك اللحظة انضم شقيقه والتوأمان إليهم لترويح نفس ياسر .. لم يعد يظفر بياسر وحيدًا يُلقي عليه القصائد، انشغل برفاقه عنه .. أصبح لا يجد بدًا من محاولة خلق المرح مع ثامر الصغير في الحديقة الواسعة، ينضم إليهما معظم الأحيان أحد التوأمين ونجد في مباراة صغيرة .. يُشكل ناصر فريقًا مع يوسف ضد نجد وثامر، أما ياسر والتوأم الآخر يجلسان على مقربة منهم .. لم يكن باستطاعته التفرقة بين التوأمين بداية الأمر، إلى أن اعتاد ونجد يشير إلى يعقوب كل يوم (هذا الأمريكي، يعقوب .. وهالداج يوسف) الأمريكي

كما يقول أخوه كان يفرِق عن توأمه بنظرة كبرياء وعلو تلازمانه وهدوء وتململ عكس أخيه المرح، يوسف كان ظريفًا ما أن تطأ قدمه أي مجلس يشعله بحماس .. يعرفه الصغير والكبير، مقربًا من الجميع .. يُشابه شقيقه نجد بتعصبهما لفريقين متضادين، تعصب مماثل لأجداد كل منهما .. لم يكد ياسر يروّح عن نفسه قليلًا باجتماع أصحابه حوله مجددًا حتى اختفى بغياب أكثر سوءًا قبل خطبة يعقوب بالجوزاء بمدة وجيزة، غاب حتى عن ناصر الذي اعتاد عليه كثيرًا.. يتعذّر مرةً بمرض ثامر ومرةً بمراجعات أمه، بدأ بعمل إضافي حتى لا يترك مجالًا أكبر لاجتماعاتهم ..

تخلّف عن زفاف يعقوب بحجة سفر عمل مفاجئ إلى جدة، وكأنه جزم على قطع علاقته بكل ما يربطه بهم .. حتى عاد بعد تجاوزه لصدماته على مهل بينهم.

ومنذ ليلة رمضان تلك تعلّقت صورة التوأم بداخل ناصر، كبر وشبّ وصورة يعقوب تلازمه كظله.. يعلم تمامًا أن قلب ياسر يغلبه، يخشى من فقدان آخر رفاقه .. حتى صباح اليوم كانت بذرة العفو بداخله لا تموت قد يسامح، لكن بعد أن يمثل خصمه أمام القضاء ..

انتشل ثامر بكلامه كل بذور العفو، لن يسامحه أبدًا على تنكّره وإقحام يوسف وابنته بقضية لا تمتّ لهما بصلة حتى يُجبره على العفو.. لن يقبل بهذا أبدًا.

أقل من نصف دقيقة مضت ولا شيء يراه سوى جنونه، تقطعها بصوتها الذابل تحاول أن تقويه :" احم السلام عليكم"

تضيع الكلمات منه، بماذا يبدأ؟ وهل تعلم أساسًا بوجود عمها المتستر تحت اسم جديد؟ .. تخرج أفكاره بعشوائية وهو يدور بين جدران غرفته، لا يجد غير سؤال مبعثر يختصر كل شيء :" تعرفين .. صح؟ "

تصمت، تؤكد له بصمتها معرفتها بما يقصد .. لم تتفاجأ ولم تتلعثم، تعلم تمامًا لماذا عاد عمها، شدّت على يده لتوصله إلى حبل المشنقة بنفسها .. طمأنته بما يحمل (أستاذها) من كريم الأخلاق حتى سار مطمئنًا للعفو الذي سيستقبله به ناصر، هل وصل إليه عمها؟ هل العاصفة على وشك الهبوب؟ هل سيسلم عمها منها؟ .. كل ما وصل إلى سمعها صوت زفرة حارة طويلة تخرج من أعماق جوفه، تلاها صوته ثقيلًا :" ليه ما تكلمتِ ريم؟ وين وعدك؟ مثل أبوك؟"

تقاطعه باندفاع يغلبه وجع :" ليتني مثل أبوي.. عمي يستحق فرصة، ولو بيدي بعطيه من عمري .. سمعت كلامك، حاولت أخلص عمي من الذنب وشديت عليه لين يوصلك .. لو أخوك مكان عمي بتجازف فيه مثل ما جازفت بعمي؟ "

يصل صوته واثقًا سريعًا :" هذي مو اسمها مجازفة، هذا عدل! هذا حق! .. عشان أخفف ذنوبه بسلمه لقضاء الدنيا! "

يذبل صوتها بقلة صبر :" سهل الحكي أستاذ ناصر! كنت بكل صبح قبل ما أدخل الجامعة أجدد الوعد بالعدالة، كنت انت بنفسك تجدد نيتي بدون ما تعرف .. بس، أنا إنسان ضعيف بالنهاية .. مع هذا أحاول أتخلص من ضعفي"

تخرج زفرة حسرة ممزوجة بأسى :" كنت أعرف إن العفو هو اللي بيتوثق بالنهاية، بس يكون مستغفلني بهالشكل! يستغل شخص تربطني به علاقة ويزوجه بنته .. يحاول يلوي ذراعـ.."

تقاطعه بعدم استيعاب :" عفوًا .. بس وش علاقة زوج بنته! "

تخرج منه ضحكة ساخرة حارة :" يعني ما تعرفين؟ "
يشتد شتاتها، لماذا يُقحم يوسف خطيب هديل بحديثهم هذا؟ .. يعود صوته :" يوسف ابن ياسر العمر، أبوه زوج أختي .. زوج طليقة عمك .. أخوه، ولد أختي! "
تتسع أحداقها مع كل حرف منه، لا يُعقل .. يوسف؟ أخبرتها هديل بقصة لقائهما في المركز.. لا يُمكن أن يكون عمها تعمّد تزويجه بها حتى يضمن نجاته، لا يُمكن! لكن كيف مرّ اسم يوسف عليه ورضي بتزويجه من ابنته وهو يعلم من يكون.. كل شيء يُثبت صحة ما يقوله أستاذها، تعتصر ملامحها بوجع .. لماذا يفعل عمها كل هذا؟ لماذا يُصر أن يهدم كل شيء؟ وهي من ظنّت أنها ستتخلص من كل شيء وتُخلص عمها، سيعود يعقوب الذي يستطيع حمايتها بدلًا عن عبدالعزيز الذي لا تربطه بها رابطة.
تضيع الكلمات منها، لم يترك لها عمها مجالًا آخر للدفاع عنه .. يصل صوته من جديد قبل أن يُغلق الخط:" أنا آسف .. بس ما عاد في طريق ثاني"

-

يزم شفتيه مشتتًا أنظاره عن كابوسه، يُعيدها ليطلق زفرة حارة ضائعة :" ليه .. رجعت؟ "

تخرج ضحكة صغيرة أشبه بزفرة وهو يضع كفيه في جيب ثوبه :" نكمّل نقاشنا الأخير! "

حرارة شديدة تقتحم عروق رأسه لم يشعر بها مسبقًا إلا مرة واحدة، أثناء النقاش الأخير ذاك .. كيف انقلب كل شيء، كيف دعا الله مبتهلًا بداخله تلك الليلة بأن يلحق يعقوب بأخيه، للمرة الأولى يتمنى الموت لشخص يعني له الكثير .. إن مات سيستأنس بتوأمه، سيتخلص من ذنبه.. المهم أن يرحل بعيدًا ..

يشعر بكف يعقوب تطبطب على ظهره وهو يسير يحثه على المضي قدمًا معه، يسيران جنبًا إلى جنب.. في المرة الأخيرة كان يعقوب أكثر هلعًا وياسر أكثر اطمئنانًا، تنقلب الآية بسيرهما متجاورين .. يتشابهان بذات الوجع، يفترقان بسكينة غريبة تلف يعقوب وانكسار حاد يغطي ياسر ..

أثناء سيرهما معًا بزقاق الحارة يُخرج ياسر هاتفه، بيد ترتجف يكتب رسالة قصيرة لنجد (لا تمرني، عندي ضيف) يُعيد الهاتف سريعًا إلى جيبه .. يصلان إلى بوابة المنزل،

يفتحها ياسر ويعقوب خلفه .. تعود ذكرى ذلك النقاش الأخير إليه، لم ينسَ ذلك اليوم .. وكيف ينساه وفيه سُلبت عافيته وروحه؟

••

2004

تجمّدت أطراف ياسر، انقطع نفسه وضربات قلبه تزيد.. ليرفع رأسه يعقوب بقلة حيلة: "كنت أدري إنها بتنضام عندي... - يصمت للحظة ويتابع - تعرف أخبارها؟ "

تضطرب نظراته، يشتت عينيه بكل اتجاه .. يحاول لملمة نفسه وهو يمسح وجهه بكفيه مطلقًا زفرة حارة :" عطتك عمرها "

تتسع أحداقه بصدمة، يحاول استيعاب (موتها) .. الجوزاء ماتت؟ زوجته القديمة .. يذكر ملامحها جيدًا، وديعة وكأن سكون الدنيا كله يسكنها، ما زالت صورتها تلك بملامحها المفجوعة وهي تتوسط زوجة موسى وخطيبة يوسف وهي تراه يدخل صالة منزلهم الواسع بثيابه البيضاء التي تحولت إلى حمراء إثر الدم الذي يغطيه وحالته المنتكسة والهلع

يغطيه وعبارة وحيدة خرجت من فمه (الجوزا انتِ طالق .. روحي عند أبوك بسرعة) تسيطر عليه وتقضّ مضجعه، لا يعلم ما حصل لها بعد ذلك .. وها هو ياسر يُلقي عليه طامة موتها، يتمالك نفسه .. يُحرك خاتم يوسف بتوتر جلي ليخرج كلامه مبعثرًا :" الله يرحمها .. متى؟ "

تلمع عيناه بدمع لا يسيطر عليه، يتنهد بثقل :" قبل ست سنين"

يتجاهل كل شيء .. ينصبّ كل اهتمامه على لمحة الشوق والأسى بعيني ياسر الذي اضطر لرفع كفه مكفكفًا دمعة ما زالت عالقة، ينسى كل شيء .. لا يعي بنفسه وحديث قلبه يخرج، منذ أن حطت قدماه على عتبة ياسر وعقله مغيّب مسلّمًا أموره لقلبه المتعب .. تخرج حروفه حارة مؤكدة :" كنت .. تبيها؟ "

يُنزل أنظاره دون جواب، لا يُلقي بالًا لانفعال الحزن والحسرة بصوت يعقوب :" كنت تبيها صح؟ ليه ما تكلمت يا ياسر؟ ليه ما منعتني؟ .. أنا جيتك بنفسي .. تذكر؟ جيتك قبل الكل آخذ إذنك! - يهز رأسه بعشوائية وهذيان - ليه ما تكلمت؟ علمني؟ .. لو تكلمت .. ما كان صار شي! ما كان وصلت لهالحال! عايش ومانيب عايش! .. أموت كل ليلة

بالذنب اللي خلّفته وراي! ليتك تكلمت ياسر! .. ما قطعت كل هالمسافات بعد كل هالسنين إلا عشان أدور لها، يمكن تشفيني شوي! "

تخرج أنفاسه حارة، نعم يذكر ذلك المساء الذي أتى به يعقوب مضطربًا متوترًا أثناء عمله في المكتبة .. كان ياسر منشغلًا بأرفف الكتب الطويلة، يرتّب الكتب المبعثرة حسب رقمها التسلسلي، فاجأه وجه يعقوب متسللًا بين الكتب، كان جليًا عليه الضيق والتردد .. مع هذا استقبله ياسر المتعب بابتسامة مترقبة، وقف يعقوب بجانبه يحمل بعض الكتب يُساعده بترتيبها متجاهلًا اعتراض ياسر الذي نطق ضاحكًا (اتركها عنك، مابي آخذ ريال حرام) يتبادلان أحاديث باردة، إلى أن فاجأه يعقوب بخبر عودته إلى أمريكا مجددًا نهاية العام، كم يغبط يعقوب على تحقيقه لكل أحلامه، منذ كان صغيرًا يحلم كثيرًا متجاهلًا سخرية الجميع، وها هو حلمه يسعى معه .. سيفتقد يعقوب كثيرًا، منذ عاد عادت أيامهم الخالية، أربعة لا يفرقهم شيء مع تباين أفكارهم واهتماماتهم .. يُكمل حديثه يعقوب بضيق شاكيًا لياسر إصرار موسى وأعمامه على تزويجه قبل سفره، يُشجعه ياسر .. لا ينقص يعقوب المال والجاه حتى

يؤجل إكمال نصف دينه، إلى أن هدم يعقوب كل شيء وهو يقلّب صفحات أحد الكتب بعشوائية (بنت متعب .. تبيها؟)

تجمّدت أطرافه، نبضات قلبه تصاعدت حتى كادت تخرج من محجريه.. ابنة متعب؟ لا يعرف ابنة لمتعب سوى واحدة سرقت كل قلبه وعمره، واحدة تتضاعف المسافات بينهما يومًا بعد يوم، كان ملقيًا ظهره ليعقوب وهو منشغل بمجموعة كتب.. إلا أن رجاء يعقوب وصله وكأنه يراه أمامه (تكفى ياسر، اعتبرني أخوك .. إذا هي بخاطرك علمني)

يتهاوى كل ما في ياسر، يشعر بجسده يتساقط مع كل حرف يخرج من يعقوب، تتداعى أطرافه .. لماذا هي؟ منذ وفاة أخيه تساقط على أبوابها الرجال، وكأنهم أدركوا ضياعها من يده .. عداه هو الذي يرفض تصديق أن (نورة) أرملة أخيه ستصبح زوجة له بعد تجاوزهم رحيل عُمر..

قبل شهر ونصف أسرّ إليه نجد بشاب تقدم لخطبتها، يستشيره بأمره .. وسرعان ما اطمأن لرفضهم، إلا أن نجد عاد ليخنقه مجددًا بعد مضي ثلاثة أسابيع ليخبره عن خطيب جديد .. كاد يُجن، يتمنى لو يصرخ بوجوه جميع الرجال (توقفوا .. لحظة، يوم، عام، عشرة أعوام .. حتى أجمع شتات نفسي وأخوض هذه المنافسة معكم .. عندها،

سأضمنها) والآن ماذا؟ يعقوب؟ صديقه؟ أتى راكضًا من غرب الأرض إلى مشرقها كي يدخل ضمن هذا السباق؟ كل هذا ثقيل على قلبه .. كل هذه الحرب داخله يكبتها لتشتعل أكثر وتأكل ما تبقّى منه ويبقى وجهه البارد، يدس كتابًا بيد تهتز .. يعقد حاجبيه حتى يتمالك ملامحه دون أن يواجه يعقوب (ليه تسألني؟)

لا يعلم بأي طريقة خرج صوته، لكن ما هو متأكد منه أن هذا الصوت لا يشبهه .. يعود صوت يعقوب ضائقًا منحرجًا لتذكره تلك الرسالة القديمة لمراهق صغير (مدري! .. يعني .. امممم زمان، أذكر كنت .. تبيها؟)

تتفجّر الدماء في وجهه، (كنت؟) لم تكن الجوزاء يومًا فعلًا ماضيًا ولن تكون .. دائمًا هي مضارعه ومستقبله، لكن كيف يواجه بؤسه الذي يحتّم عليهما الفرقى؟ للمرة الأولى يتمنى لو يأخذ مكان يعقوب .. يأخذ اسمه ونسبه، ورثه، ماله، حظه الباسم.. لماذا تتكالب عليه هو المصائب دون الجميع؟ دَين والده، ضيق الحال، رحيل أخيه، ترمّل نورة، تيتّم ثامر!

لحظة عابرة فصلت بين صوت يعقوب وضحكة ياسر المرتفعة كانت كالدهر على قلبه، ضحكة أطلقها ليُخفي

خيبته .. وزيفٌ موجع يخرج من فمه وهو يواجه يعقوب (مدري والله يا يعقوب وش اللي ببالك، بس إذا تذكر شي أنا ناسيه فترى كنا أطفال.. جاهلين.. - يُتابع وابتسامته تتسع وهو يلحظ عدم اقتناع يعقوب - مثل ذيك! أخت محسن .. تبيها؟)

يعقد حاجبيه بعدم فهم، ليُكمل ياسر وهو يعيد ترتيب الرفوف (شفت! نسيت .. أخت محسن اللي كنا نعايرك بها! .. لأننا كنا أطفال، كبرنا يا يعقوب)

لا يذكر إطلاقًا من هي تلك الصغيرة التي كانوا يعيّرونه بها، يندم للحظة لطرحه الموضوع التافه على ياسر.. كيف يُذكره بحادثة غبية لمراهقته؟ لكن ما أن زاد الخناق عليه وأخيه يوسف لإقناع أحدهما بخطبة ابنة متعب لتوثيق العلاقات بين شقيهما بعد أمد طويل من الحرب والمشاكل تكللت جهود الكبار بإقامة الصلح حتى قفزت تلك الذكرى إلى عقله، لا يرغب بفتاة غير (منى) المغتربة بعيدًا .. إلا أن ضغط يوسف عليه جعله يستسلم أخيرًا، مع هذا عاد مجددًا ليسأل (أكيد يا ياسر؟)

يؤكد عليه الآخر بثقة (توكل على الله، والله انك رجال نسبك ينشرى)

بدأت تستريح نظراته، بدأ ينزاح الشك منها .. يودّعان بعضهما وياسر يعتصر قلبه وهو يعيد تأكيده وكأنه يحاول إقناع قلبه بفشله، الجوزاء ليست له .. ليته أعار انتباهًا لكلام أمه وأخيه وهما يحاولان إقناعه بأنها لا تصلح له، يبوح ليعقوب قبل مغادرتهما معًا المكتبة بأن (أم ثامر) هي مصيره، وهي ما تحتم عليه العادات حتى يبقى ثامر تحت ظله.. ليمضي يعقوب خاطفًا روحه.

وها هو يجلس أمامه الآن بعدما رحلت جوزاؤه مكتشفًا بريق العشق في عيني ياسر الذي حمحم بصوته :" ماتت وهي على ذمتي، هانت علي الحياة بعدها .. لو لا عيالي كان لحقتها"

يرفع عينيه لتقابله صدمة يعقوب، هل كان نبأ زواجه بطليقته ثقيلًا عليه إلى هذا الحد؟ أيستشعر يعقوب الآن ذرة ممّا ذاقه ياسر؟ كيف يُثبت له عدم أحقيته برمي نظرة مثل هذه؟ الجوزاء أبدًا له .. خُلقا ليُكملا بعضهما، إلا أن انفراج شفتي يعقوب بابتسامة متعبة غير مصدقة وهو يطلق زفرة طويلة أذهلته وهو يردد:" الحمدلله، الحمدلله ..

- يمسح وجهه بكفيه، يبعدهما لتنكشف ملامح لمسافر

أضناه التعب - كنت خايف يا ياسر .. خايف أرجع بدون فايدة مثل ما جيت"

تبهت ملامح ياسر، لم يعد يسمع شيئًا سوى ضربات قلبه ترتفع أكثر فأكثر، يزدرد ريقه ليرتد صوت ريقه داخل أذنه.. نفسٌ ثقيل يحاول الخروج بصعوبة، يخترقه صوت بكاء موجع ليعقوب .. بكاء يخترق أذنه إلى أعصاب رأسه، يُغمض عينيه بشدة علّ هذا البكاء يختفي ويقطع وجع رأسه .. يفتحهما بسرعة على صوت حشرجة يعقوب بهمس وهو يمسح عينيه :" وينه؟ "

ترتجف يديه، يتصبب وجهه عرقًا .. فتيل يُشعل أعصابه، يشبّك يديه ببعضهما ليتمالك رعشته أمام يعقوب وصوت باهت يخرج بترقب:" مين؟؟"

كلمة واحدة حملها جوابه، كلمة فجّرت جميع عروقه .. سلب منه يعقوب لون وجهه وشفتيه وهو يُجيب بتهدج :" ولدي! "

هواء حار يحرقه مصدره نيران اشتعلت داخل رأسه، يفكّ زر ثوبه ليمرر كفه على رقبته المبللة .. يتلفت يمينًا ويسارًا باحثًا عن مخرج، يطول صمته دون جواب .. يعود

صوت يعقوب القاتل مجددًا هامسًا باضطراب :" صح هو؟ اللي كان معـ.."

يقاطعه بسرعة وهلع :" لا! .. هذا ولدي .. مني أنا!"

تتسع أحداق يعقوب بملامح يجهلها ياسر .. تضيع الكلمات منه، لا يعي ماذا يقول .. لتتبعثر كلماته بعشوائية: "هذا ولد نورة .. الجوزا ما عندها عيال"

لا يعلم كيف خرجت من شفتيه، عقله مغيّب .. يُملي عليه هذيانًا بعشوائية، يُعيد أنظاره إلى يعقوب ليستشفي أثر كلامه عليه .. يصطدم بوجه جديد ليعقوب، وجهًا أسود يتملّكه الجنون .. لحظة واحدة حتى قفز إليه يشد ياقة ثوبه وهو يهذي بتكذيب وصدمة :" لا تقول ولد نورة! .. هذا ولد الجوزا .. ياسر! هذا نجد الصغير اللي نعرفه! .. خويك! .. نسيت ملامح خويك؟! .. هذا هو ماخذ كل ملامحه! .. - يخنقه دون وعي منه وصوته يذبل أكثر- أنا من شفته بالمقبرة عرفت انه ولد الجوزا! .. لا تكذب علي.."

تتهاوى قوته بضعف، يحرر رقبة ياسر ليُلقي برأسه على كتفه وبنشيج :" لا تكذبني بولدي يا ياسر، الأب ما يكذب بابنه.. "

يختنق أكثر، دموع يعقوب على كتفيه تتحول إلى نيران تحرقه .. يشعر بجسد يعقوب كسلاسل تقيّده وتلفّ جسده، يحاول الفكاك منه ويهمس مضطرب :" روح يعقوب، مالك شي هنا .."

تبهت ملامحه وكأنه تلقى صفعة، يُتابع ياسر بشتات محاولًا إقناعه :" انتهت عدتها بعد خمسة وأربعين يوم، وتزوجتها من ليلـ.."

يقطع كلامه إثر صفعة حارة أحرقت وجهه، لا يترك له مجالًا لاستيعابها وهو يهجم على رقبته مجددًا:" خمسة وأربعين يوم! يا ظالم! - يشد عليه أكثر ليرتطم جسده بالجدار دون أن يقوى على الحراك- خمسة وأربعين يوم! بأي شرع هذا؟ كيف طاوعك قلبك! "

فمه امتلأ دمًا، ويعقوب يشد عنقه .. يحاول الفكاك منه بقوة ليخرج صوته ضعيفًا مجاهدًا :" روح اسأل .. أي شيخ .. موسى.. اسأله، عدة صحيـ.."

يقاطعه وهو يسحبه ليرميه مجددًا على الجدار :" صحيحة؟!! عدة حامل بالشهر الثاني خمسة وأربعين يوم!! .. - يهز رأسه بعدم تصديق مؤكدًا قبل أن يذبل صوته- لا تقولي سقطت الجنين .. لأني شفته اليوم يا ياسر، شفته

بالمقبرة .. شفته بمدرسته.. سمعته وهو يناديك يبه.. لا تقول مو ولدي.. لو ما جيت وشفته كان قدرت تكذب علي وتقول مات! عشت السنين الماضية وأنا أخمن كل يوم .. هو ولد؟ بنت؟ هو حي؟ ميت؟ يشبهني؟ بس شفته يا ياسر، شفت كفه اليسرى.. وراثة ماخذها مني ومن أبوي، كان قلبي يقول هذا ولدك .. بس ما صدقت، خفت أتعلق بوهم، بس شفت أصابعه عرفت إنه ضالتي! لا تكذبني يا ياسر .. عرفته لأني أبوه، بس أبيك تقول ايه هو ولدك! .. شفته اليوم بالمدرسة .. مع ولدك .. يوسف! سميته يوسف؟ ليه يا ياسر ما سميتو ولدي يوسف؟ تبون تحرقون قلبي؟ .. تبون ولدي ياخذ اسم الشخص اللي سلب عافيتي؟"

كان يتحدث بتخبط مستندًا على الجدار بعدما أعتق ياسر الذي لم يزده حديث يعقوب إلا اختناقًا، يقول بأنه رأى نجد؟ نجد الذي ترجح كفته على جميع الخلق؟ لا أحد تجاوز حبه للجوزاء سواه .. وكيف لا وهو وحده من يحمل جزءًا منها؟ كبر داخل رحمها ليتضخم حبه بقلب ياسر .. خرج منها ليُزرع بفؤاد ياسر ويكبر يومًا بعد يوم، يقول الآن يعقوب وبعد خمسة عشر عامًا بأنه يعرفه؟ وبأنه ابنه؟ وهو الذي لم يشهد سوى بضعة أسابيع من تكونه؟ ماذا

عن الذي حمله لأول مرة؟ من كان يحمله في حضنه يكاد يبكي معه في يومه السابع يوم طهره؟ يشد على يديه والإبرة تنغرس داخل شريانه، من نطق اسمه لأول مرة (اسل) يقصد بها (ياسر) قبل أن يُعلمه نطق أجمل كلمة سمعها في الكون كله (يبه)، من علّمه سورة الفاتحة؟ كتابة اسمه؟ اصطحبه ليومه الدراسي الأول؟ من سهر أيامًا يبتكر قصصًا خيالية لا تليق لأحد سوى نجد؟ من أعطاه نصف قلبه ليترك الباقي لجميع الخلق بما فيهم أقرب الناس إليه؟ يأتي يعقوب الآن ليحاول إثبات معرفته الكبرى به؟ (كفه اليسرى؟)؟ هل يقصد التصاق خنصره ببنصره؟ علامة لازمت نجد حتى ألفها الجميع ولم يعد يلحظها أحد يأتي الآن ليقول بأنها أُخذت منه؟

يهز رأسه بعدم تصديق.. يفقد قوته ليتهالك جالسًا بجوار يعقوب، ارتعاشه يزيد .. هل حان اليوم الذي يخافه؟ بأن يخرج صوت يؤكد له معرفته بجرمه الذي تشاركه معها ومع والدها؟ بأن نجد لا يحمل منه شيئًا سوى حبه .. كذبة صدّقها وعاش عليها، إن مرّت على الجميع فلن تمر على من أودع تلك النطفة في رحم الجوزاء .. يسمع هذيان يعقوب بجواره، وكأنه دخل في حالة هستيريا مرددًا :" وين خوفكم

من الله؟ زواجكم باطل، شلون تزوجتها وهي حامل؟ شلون رضت؟ أبوها؟ .. إذا انت وهي .."

يقاطعه باستسلام جامدًا :" ما تزوجتها إلا بعد ما انتهت عدتها .. ونجد توه متمم الشهر"

ينقطع بكاء يعقوب لتعلو أنفاسه المضطربة، يُسلط أنظاره نحو ياسر باستجداء لأن يكمل .. يُتابع وجموده يزيد:" بعد رمضان أخذها أبوها لهجرة منعزلة بطرف الرياض، عشان ما يعرف بحملها أحد .. ما كان يعرف أحد بحملها غيرها وأبوها حتى ناصر ما عرف، لين مضت خمسة وأربعين ليلة وعلمني .. طلب مني بس تنتهي عدتها وتحط حملها أتزوجها-يضيع صوته بضياع - كانت تقول ماحد يعرف بحملها، حتى أنت! "

يهز رأسه نفيًا بتعب :" كذبت، كنا تونا عارفين بالحمل .. قبل أسبوع من اللي صار، كانت معي وتعرف إني أعرف"

يأخذ شهيقًا طويلًا وصداعه يزيد، لماذا كذبت؟ لماذا جعلته يطمئن لجهل الجميع بما في بطنها؟ غير أن صوته يخرج مدافعًا يبحث عن حجة تدينها :" يمكن .. يمكن كانت خايفة يربطها شي بكم، تاخذون ولدها"

يهز رأسه إيجابًا بحسرة، تمامًا كما كان هو .. لم يخبر أحدًا بما خلّفه داخل الجوزاء سوى زوجته منى، هاربًا من تلك النطفة التي تربطه بمن يطلبون دمه .. لم يكن يفكر سوى بنجاته، يتابع ياسر وهو يمسح وجهه :" انقطعوا عن العالم سنة ونص، ببيت صغير ما يمره أحد إلا كم راعي .. تركوا ناصر مع قريب لهم شهور حملها بحجة دراسته كان الكل يظنها جنّت، وناصر كان صغير وجاهل .. علمناه بعد شهر ونص من اللي صار بكذبة زواجي بها، علمنا الكل عشان لا ولد بعد ست شهور تكون حجتنا بإنه ولدي، أمي ونورة كانوا يعرفون .. كانت أمي رافضة، رافضة كذبة العقد الوهمي، رافضة الجوز، رافضة نجد - يعض شفته بوجع ليُكمل - كانوا كلهم رافضينه .. جده، عمره ما عطاه نظرة أبوة.. كان دايمًا يقول هذا من دمهم، هذا ذنب أسود بيلحق الكل.. ما عاش إلا سنتين بحياة نجد وسنته الأخيرة كان مو واعي، فقد عقله .. أمي بعد، ماتت وهي رافضة وجوده ورافضة الجوزا.. نورة وحدها اللي حملت كل شي على كتوفها، نورة .. كانت أعظم بركة بحياتنا، مسكت بيدي ووافقتني على كل شي سويته .. كتمت سرنا، كانت دايمًا ساكتة .. للحين أجهل ليه وقفت معي كل هالوقفات وأنا اللي

ما عطيتها شي صالح بهالحياة؟ تزوجتها وهي تعرف بحبي للجوزا .. تركتها معظم أيام حملها بولدي وأنا أركض ورا الجوزا، فوّت ولادة ولدي وأنا بعيد كل عقلي مع الجوزا وأبوها ونجد.. ومع هذا عمرها ما لامتني، ما رفضت طلبي نسجل نجد باسمها مع يوسف، حتى يوم رفض نجد حليب أمه هي بنفسها كلمتني وطلبت تروح للجوزا وترضع نجد .. كانت تعرف إني أبي هالشي، أبي شي حقيقي يربطني بنجد .. بس رفض، وكأن الله يعاقبني برفضه.. عشت مع الجوزا ونجد وناصر هنا ونورة وعيالها بالبيت الثاني .. حاولت أوازن بس عجزت، نورة بنفسها إذا جيتها تقول روح الجوزا تحتاجك .. لين طلبت مني أطلقها، سجلت البيت باسمها .. كانت تبي تعتقني من حملها .. تبيني أموت وما بذمتي غير الجوزا - يصمت بحسرة ليتابع بضيق - بس الجوزا سبقتني وسبقتها"

ينتهي صوته، لا شيء أكثر من ذلك يمكنه إخباره ليعقوب .. كل شيء انتهى، اعترافات كان يهرب منها .. سره الكبير كُشف، لم يفِ بوعده للجوزاء ولا والدها، تركاه وحيدًا يواجه ذنبًا أشركاه به .. أمام أكثر شخص لا يجب عليه أن

يعرف، أنفاسه المتلاحقة تنقطع وهو يرفع رأسه لصوت يعقوب :" أبي أشوفه"

تتسع عيناه بهلع، يُجن باضطراب مرددًا :" لا مستحيل، هو كبير وواعي .. هو ولدي، ما يعرف أب غيري .. بتدمره يا يعقوب! ابعد عنه .."

يختلط جنونه بجنون يعقوب الذي يقف بدون إدراك ليقفز إليه ياسر يشتبك معه محاولًا إيقافه :" هذا ولدي ياسر! تعرف وش يعني؟ "

-" مو بعد كل هالسنين! وينك من أول؟ ما أسمح لك تقرب منه .. مافي أحد بهالدنيا بيحميه غيري، ما بتقدر تعطيه اللي عطيته، بتعطيه عمرك وكل حياتك؟ "

يتجدد بكاؤه بضعف :" عنده أخت! أبيه يعرف عنها .. يحميها وترعاه"

تسقط الصدمة عليه ثقيلة، أخته؟ لدى نجد أخت؟ وهو الذي كان دائمًا ما يرجو أمه وأباه كلما انتهى لعبه مع يوسف وثامر ويمامة بشجار صغير بأن يجلبوا له أختًا لأن ثامر دائمًا ما يقصيه بعيدًا عن استمالة اليمامة وهو يردد (هذي خالتنا احنا، انت مالك دخل)، له أخت؟ هل تشبهه؟ .. يخرج صوته ثقيلًا محاولًا إثبات قوته :" روح لها، لبنتك ..

لا تفقدهم الاثنين، تبيه يشوف أبوه ينقص؟ .. تفقدك بنتك؟ تبيهم يعرفون إن أبوهم قاتل؟"

يقفز بهلع والكلمة تصيبه بالذعر وتُخرس فمه، يُتابع ياسر :" ارجع يا يعقوب للمكان اللي جيت منه، مافي أحد يعرف عنك.. روح لبنتك، عيش معها وكبّرها وربّيها .. لا تخليها تفقد أبوها .. نجد ما بيلقى أحد يحبه كثري، إذا فكرت تسرقه مني صدقني مافي شي بيردني أبلغ عليك .. بتفقدك بنتك، نجد بتدمره لا عرف"

يرتعش ببكاء مذعور، تلوح له صورة طفلته هديل الباسمة .. وعده لها بأن يعود سريعًا، يخرج صوته ضعيفًا باكيًا :" تهددني ياسر؟ أنا ما طلبت غير حقي"

أي حق يسأل عنه بعد كل تلك السنين؟ لماذا لم يأتِ ليلة ولادته؟ ليس بعد أن تمكّنت منه الكذبة وعاش عليها .. :" ايه أهددك لأن نجد ما بيلقى أحد يحميه كثري، بحميه من كل شي يعقوب! حتى انت .. إذا تبيه يعيش بسلام ابعد عنه، ما بتقدر تحميه يا يعقوب صدقني .. لا عرف ما بتعيش معه إلا كم دقيقة وبتروح للسجن وبتنقص، تبي تهدم حياته مقابل كم دقيقة؟ صدقني أنا له أكثر من أب .. باخذ من

عمري وبعطيه .. روح يا يعقوب بأمان الله وتأكد إن نجد معي بمقام يوسف عند يعقوب"

•••

ما زال ذاك الحوار يدور في رأسه كل ليلة، يذكر خروج يعقوب باضطراب من منزله .. وقوفه وحيدًا مستندًا على الجدار ورجفة مزلزلة تصيبه وكأنه للتو شعر بأوجاع جسده لا يعلم كم مضى من الوقت حتى شرّع نجد الباب وصوته القلِق يصدح داخله (يُبه!) دارت الدنيا في رأسه، استشعرها وكأنه يسمعها للمرة الأخيرة .. كيف لكلمة واحدة عذبة تصنع به كل هذا؟ اختلطت دموعه بدماء أنفه، تفجّر قلبه بحب عظيم لنجد .. نسف كل حبه القديم ليولد حب أشد وجعًا، عاش أيامًا مرعبة خشية معرفة نجد بكل ما حصل .. لكنه أثبت له يومًا بعد يوم جهله بكل شيء.

يُقرب القهوة والتمر إلى يعقوب، يسأل كل منهما عن حال صاحبه بحوار بارد لا يعكس النيران المتأججة داخل ياسر، يتأمل يعقوب .. كيف تحول تحولًا كبيرًا، لم يكن يتصور بأن يراه بهذه الحال .. يأخذ العُمر ملامحه الجميلة، نضج

كما لم يكن يومًا ما .. يُعيد أنظاره لعيني يعقوب على ضحكته الصغيرة :" تشوف شكثر كبرت؟ "

يشتت أنظاره بزفرة :" كلنا كبرنا "

تتجمّد أنظاره فجأة على الجدار خلف يعقوب، يتصبب عرقًا مستوعبًا الصور .. لوحة كبيرة لفرس عربي ممزوجة بأبيات شعرية رسمها ثامر قبل سبعة أعوام بجوارها صورة صغيرة تجمعه بنجد ويوسف وثامر، هل رآها؟ .. يزم شفتيه مرجعًا أنظاره ليعقوب الذي نطق متنهدًا :" أهلكني السرطان، أخذ كل قوتي .."

تتسع عيناه بصدمة سرعان ما تحولت إلى أسى، يستمع لسرده وهو يشكي له عن مرضه وكيف تلقى صدمة إصابته به وحاول تجاوزه .. عن دعم زوجته وابنته، وما استجد مؤخرًا به .. يحاول مواساته، تصبيره .. غير أنه لا يصبر عن طرح ما يدور داخله بريبة :" ما كان هذا اتفاقنا يعقوب، ليه رجعت؟ "

ترتسم على شفتيه ابتسامة هادئة معتدلًا بجلسته :" لأني هزمت كل مخاوفي، ما عاد في شي أخافه يا ياسر.. ناصر؟ أنا خلاص اكتفيت من حمل هالهم على قلبي.. مرضي ياخذني أكثر وما عاد بقى من العمر إلا آخره، جيت أسلم نفسي ..

بيسامح أو بياخذ حقه ما عاد تفرق عندي، أنا رايح رايح لربي"

تبهت ملامحه، هزم مخاوفه؟ هل يعني أنه هزمه؟ هل يعني أن ... يقطع تفكيره صوت يعقوب وملامحه تذبل :" لا تخاف ياسر.. ما جيت آخذ منك شي - يُنزل رأسه بأسى وضيق ليزفر زفرة طويلة - مافيني قوة أهدم حياته بعد ما بناها، أدري هالشي ما بيزيد غير أوجاعي أنا .. وبيحطمه، مابيه يذوق وجع أنا أعرف تبعاته"

لم يزده حديث يعقوب سوى همًا، أن يُسلم نفسه يعني أن ينتهي هو من همه ومخاوفه .. لكن ماذا عن نجد؟ نجد ذاته ابن قلبه.. سيشد على يد خاله ويوافقه بالقصاص من (يعقوب) أبيه دون أن يدرك! لماذا لم يتابع يعقوب طريقه واختفاءه حتى يُريحه؟ لماذا عاد؟ يعلم تمامًا أن لا شيء سيبقى على حاله بعودته وإن لم يُكشف سره .. يمسح جبينه بضيق وكلمة وحيدة قفزت إلى لسانه فجأة متذكرًا :" وبنتك؟ "

يبتسم متنهدًا وهو يعتدل بجلسته :" بنتي هي السبب اللي أرغمني أجيك اليوم"

يعقد حاجبيه بعدم استيعاب، ابنته؟ هل ينوي إيداعها أمانة عند أخيها؟ كيف؟ ولماذا؟ يقطع حبل تساؤلاته يعقوب مجيبًا عنها :" جيتك اليوم لأننا مضطرين بكرة نتقابل، مابيك تنصدم بوجودي وينتهي كل شي"

غدًا؟ هل ينوي تسليم نفسه لناصر غدًا؟ يضيق صدره .. غدًا موعد محدد لدعوة عائلة خطيبة يوسف لمنزلهم، وبعد خمسة أيام موعد زفاف نجد! كيف يزف نجد في الأيام التي سيودع يعقوب السجن انتظارًا لقصاصه؟ .. يُتابع يعقوب ليُلقي عليه الطامة الكبرى :" بنتي .. هديل، زوجة ولدك يوسف"

يشل لسانه عن الحركة، يحاول إخراج كلمة وحيدة لكن يعجز .. هديل؟ كان قريبًا منه كل هذه الفترة دون أن يشعر؟ لماذا فعل ذلك؟ وكيف .. يُغطي عينيه بكفيه محاولًا تدارك صدمته ليتابع يعقوب :" ما استقصدته والله، عرف بنتي بمركز علاجي .. ما كنت أدري عن شي، لين صادفته مرة بالمستشفى ولا عرفته .. زوجتي خبرتني إن بنتي تعرف الممرض السعودي واللي اسمه يوسف - يقطع حديثه بابتسامة متعبة ثقيلة- وانت بالذات ما يحتاج أشرح لك تأثير الاسم علي.. بعدها بكم يوم عرفت إنه ولدك من

اسمه، ما تعرف شكثر أوجعني الحال .. أشوفه وأجلس معه وأحيانًا وأنا معه يجيه اتصال من مين؟ من نجد .. يحكي لي عن أخوه، عن إنجازاته، تظني بفرط فيه؟ ما قدرت .. كنت أشوف فيه ولدي، أبيه كل يوم حولي يمكن يصادف وقت أسمع فيه ابني بمكالمة ولا فيديو .. كنت أدري إن بنتي تبيه، بوقت عجزي قررت أرجع لموسى وينتهي كل شي .. لمحت له حاجتي له يبقى يسند هديل، كنت أبي أربطه فينا.. ومثل ما تمنيت ربطتهم ببعض، كنت خايف إني ظالمه وظالم بنتي .. بس كل يوم كان يثبت لي إنها اختياره، بنهاية المطاف بيعرف إني يعقوب، ممكن ما يسامحني .. بس أثق إنه ما بيتخلى عن هديل.. أغليه كثر ما أغلي بنتي يا ياسر .. أوجعني قلبي وهو يحكي لي عن كل اللي مر فيه، موت أمه، مرضه .. عرفت إنك كنت شايل ولدي بعيونك بس على حساب من؟ على حساب يوسف"

ماء حار أحرق عينه، لا يعلم هل يبكي لحقيقة إقصائه ليوسف؟ أو لأن يعقوب يجلس أمامه يدّعي بأنه يعرف يوسف أكثر منه؟ يوسف الصامت والمنطوي على نفسه! أو لأنه يُلصق كلمة (ولدي) بنجد؟ لماذا لا يكتفي بنطق اسمه مجردًا؟ يشق صدره ليعصر قلبه كل مرة يقولها .. يكاد

يصرخ (هذا نجد! لا تعي ما معنى نجد حتى تقتلني به) غير أن صوته يخرج بزفرة محاولًا كبت ما بداخله :" لا تحاول تثبت لي إنك تعرف ولدي أكثر مني، كلهم عيالي "

أشبه بضحكة صغيرة تخرج منه :" ما جيت عشان نتناقش مين يعرف ولد الثاني أكثر، تعرف .. كفتك بترجح طبعًا .. جيت لأني مابيك تنصدم بكرة، أبي كل شي يمر بسلام .. أبيك تعرف إن هديل أخته قبل لا أموت"

يعض شفته بهم، يفكر مطولًا لينطق بضياع :" مو مضطرين لبكرة، تقدر تعتذر .. أدري صعب عليك يعقوب"

يهز رأسه نفيًا بثقة :" لا، أقدر! .. بيمضي كل شي نفس ما خططنا، و ... - يخفت صوته بوجع- شفته من قبل، بدفن موسى .. فقدت توازني وكنت بطيح بس يده سبقتني، تخيل من بين الناس كلهم جت كفه وأسندتني وسلمني قارورة مويا - يضحك بوجع - ما عرفته لين شفته يترك يدي ويروح لك .. عالجت كفه؟"

يهز رأسه إيجابًا دون جواب، ليتابع بزفرة طويلة :" للحين محتفظ بقارورة المويا .. - يمسح وجهه المتوجع ليعود بالوجه الواثق- بس لا تخاف .. صدقني عندي قدرة أتجاوز بكـ."

يُعيد أنظاره ياسر ليعقوب عاقدًا حاجبيه بعدما قطع كلمته ودخل بصمت مريب ليُفاجأ بانقلاب وجهه .. لونه المخطوف، شفتيه الزرقاء، تصبب عرقه وعينيه الشاخصة لخلف ياسر .. بتلقائية يلتفت حيث ينظر يعقوب، يتجمّد .. رجفة مفاجئة تتملّكه على رؤية نجد يصعد العتبات راسمًا ابتسامة صغيرة، يتصبب عرقه .. طنين حاد يفرم رأسه يشبه ما حصل معه قبل سنوات .. يزيده صوت نجد الباسم وهو يدخل المجلس مقتربًا من يعقوب :" السلام عليكم ورحمة الله .. "

يُراقب ياسر ملامح يعقوب ونجد يُدنو منه ينوي السلام عليه، أين القدرة والثقة اللذين يحكي عنهما قبل قليل؟ تحول فجأة إلى شخص آخر .. أشد ضعفًا من ذاك الذي على قبر يوسف يبكي، رجفته لا يمكن أن تغيب عن نجد .. يرفع كمامه باضطراب ليغطي نصف وجهه، عيناه تتشتت في كل مكان إلا عيني نجد .. يرد بهمس أشبه بصمت على سؤال نجد عن أحواله وترحيبه.

يعتقه نجد أخيرًا ليقترب من والده بابتسامة مجاملة وعقدة حاجبين، يتعمّد أن يُدني جسده ليقبّل كتفه وبهمس خاطف :" يبه بخير؟ "

تتعلق عيناه بعيني نجد، لا يعلم ماذا يحصل .. إن كان هناك شيء واحد متأكد منه هو أنه ليس بخير، أبعد ما يكون عن الخير .. شيء ما يشق جسده، موجوع ولا أحد سبب بوجعه غير نجد، هل أتى الوقت الذي لا تُقبل فيه استعاذته من وجع نجد؟

عينا نجد المضطربة تحكي قلقه وخوفه لانتكاس حال والده، يزداد جزعه وهو يرى دماء قليلة تبدأ بالانسياب من أنف والده غير أنه يعتدل سريعًا على صوت الرجل خلفه :" عن أذنك .. ياسر"

ينطق بتلقائية :" وين يا عمي؟ باقي ما ضيفناك "

تزداد ضربات نبض شريان رأسه، يقاوم وجعه وأصواتهما تبتعد أكثر .. إصرار نجد مرددًا (عشاك عندنا) بالمقابل تعذّر يعقوب دون أن ينظر لعيني نجد هاربًا، يصحب صوت يعقوب الثقيل سعال مفاجئ متقطع ليضطر نجد لاعتاقه وحالة والده تشتته.

يُغمض عينيه محاولًا إراحة نفسه على صوت انغلاق الباب، إن كانت مجرد لحظات صغيرة بهذه الصعوبة فكيف سيواجهان الغد؟ كيف لم يفكّر يعقوب بهذا؟ تزويج

ابنته بيوسف يعني أن لقاءات مهلكة كهذه ستتكرر كثيرًا ..
هل كان يظن نفسه قويًا؟

يفتح عينيه على وقع خطوات نجد السريعة وصوته المتسائل :" ضغطك مرتف"

يقاطعه فجأة :" ليه جيت؟ أرسلت لك قلت لك عندي ضيف لا تمرني"

يسحب منديلًا ليقربه من أنف والده قبل أن يسحبه ياسر ويثبته على أنفه مغمضًا عينيه، بضيق يجيب نجد وهو يخرج علبة الدواء من جيبه :" استوعبت إنك ناسي دواك بسيارتي وأنا راجع من صلاة المغرب"

//

يسحب الدواء وللتو يُدرك فوات أوانه، ظهور يعقوب سلب عقله .. ينوي فتح علبة الدواء إلا أن نجد يوقفه :" يبه لا تشرب دواك لو نروح المستشفى أفضل، أنفك ينزف"

يرفض ياسر بإصرار الذهاب للمستشفى حتى بعد قياس ضغطه المرتفع، يردد (أنا بخير، الحين بتحسن) لا يجد نجد بدًا من الاتصال بالإسعاف .. عينا والده المحمرة، نفسيته المنقلبة، نزيف أنفه، رجفة يديه كلها تذكّره بليلة قديمة.. ليلة قلبت حال والده ما زال يذكر هلعه وقتها، للحظة تمر في باله صورة ذلك الضيف الملثم .. يمر معه الغيظ الشديد الذي لازمه لذاك الضيف الذي تسبب بانتكاس حال والده، تعود له صورة الرجل المتوسط مجلسهم قبل أقل من ساعة، يزيد غيظه .. شعور شديد يُخبره بأن حالة والده الآن ليست إلا بسبب ضيفه، ذات الضيف القديم .. ممَّ يخاف والده؟ إن كان هناك ما يفقده صوابه أكثر من هوية الضيف هو هذا السؤال.

يترك والده مضطجعًا على سريره بعد فحصه وخروج المسعفين متذكرًا وقوف سيارته بشكل خاطئ، يركب سيارته وقبل تشغيلها يلمح من خلال مرآته ذات الضيف الثقيل يجلس بسيارته مضطربًا .. بدون تفكير يجد نفسه خارجًا من سيارته وها هو يقف بجانب سيارة الضيف يطرق نافذتها بحنق يحاول تمالكه.

يغيب عنه حال يعقوب المستند بإرهاق على مقعد السيارة مغمضًا عينيه وما أن وصله صوت النقرات فز جسده بتلقائية، وهن حاد يتملّكه على رؤية وجه نجد.. ينسى كل شيء، حتى قلقه على ياسر بسبب حضور سيارة الإسعاف، يحاول النظر في عينيه غير أن عجزه يمنعه.. يشتتها بضياع، يعاود نجد طرقاته، يشعر يعقوب بكفين تلف رقبته وتحجب عنه الهواء .. يُقاوم اختناقه، ليس وقت خذلان رئته له ..

يفتح نجد الباب سريعًا بعدما ألغى يعقوب تأمينه، يجلس بجواره واضطراب الرجل الغريب يزيد من جنونه، ماذا بينهما؟ ما الذي يجعلهما بهذه الحالة؟ يفقد عقله وهو ينطق دون تفكير :" أنا ما أدري انت مين ولا أدري بعلاقتك بأبوي بس أبي منك خدمة وحدة .. ابعد عنه - يصمت لبرهة يتمالك أعصابه، يعيد حساباته ليتابع بشتات - مدري وش بينك وبينه ويقلب حاله .. بس أبيك تعرف أبوي كبير وما فيه قوة يتحمل، وأنا ما بسمح يصيبه أي شي .. إذا بينكم أي حسابات أجهلها كلمني أنا .. أنا ولده، أوعدك أنصفك وتاخذ كل حقك، بس أبوي لا تقربه .. ما بسامحك لو تتسبب بأي ضرر له!"

يُخرج قلمه، يسحب علبة منديل بينهما ليدوّن عليها رقمه :" هذا رقمي .. أي حق لك على أبوي أنا متكفل فيه"

يخرج من السيارة بعد أن ألقى نظرة مطولة للرجل الصامت، جامدًا لا يتحرك من مكانه دون أدنى تعبير .. يزفر بضيق عائدًا إلى سيارته، يُعيدها إلى موقفها الصحيح ليترجل عائدًا إلى المنزل وحديث متضارب بداخله يُثقل عليه، هل أخطأ؟ هل ذاك ضيف خاص لوالده أساء معاملته قبل قليل؟ يعرف جميع أصدقاء والده .. هذا ليس من ضمنهم، وجه غريب ومألوف حد الغرابة، انفعل دون تفكير لأنه ما زال يعضّ أصابعه ندمًا على عدم معرفته بذاك الضيف القديم .. خطأ لن يكرره أبدًا بعدما أصبح رجلًا.

يدخل غرفة والده بعدما رسم ابتسامة صغيرة وهو يخلع شماغه : شلونك الحين؟"

يهز رأسه إيجابًا بتعب مغمضًا عينيه، يشعر بنجد يجلس على سريره .. وها هي يده تمتد إلى قدمه، يخلع جوارب والده .. يُدلك قدميه بهدوء :" تعرف يبه؟ قبل يومين كنت أتناقش مع يمام .. تقول إني أبالغ بخوفي عليك، وهالشي يضايقك .. تقول هالخوف يحسسك بإنك كبير وانت باقي بعز شبابك -

يضحك ضحكة صغيرة ليتابع بابتسامة واسعة - لا عرفت إني قلت لك كذا بتجلدني أكثر! "

دون أن يفتح عينيه يبتسم ابتسامة متعبة :" ما غلط قلبك باختيارها"

تتسع عيناه باتساع ابتسامته المذهولة :" يعني توافقها؟ - يترك قدم والده ليعتدل بجلسته باندفاع مازحًا - لا يبه لا تخليها تلعب بعقلك، انت بالذات تعرف إن خوفي عليك شي يجري بدمي من صغري"

يُبعد ذراعه عن عينه، يسأم هروبه من عيني نجد .. يبتسم :" كنت إذا تأخرت بالليل أرجع وألقاك نايم بالحوش .. وإذا جيت أشيلك غرفتك تصحى وتسوي نفسك صاحي من زمان تنتظرني وتهاوش بعد ليه أتأخر، حتى أمك وأمي الله يرحمهم ما كانوا يشرهون كثرك"

يضحك متذكرًا معاملته لأبيه منذ كان صغيرًا، ينشرح صدره بتبسّم أبيه بعد وجومه .. يتناسى الضيف وما فعله بأبيه وحديثه الحاد معه مكرسًا تركيزه على والده، يقطع حبل ذكريات الماضي صوت قرع الجرس .. يترك والده على سريره متجهًا إلى الباب، يتجمّد للحظات مندهشًا بالجسد

الواقف أمامه .. وسرعان ما علت أصواتهما وهما يتعانقان بشوق كبير.

تصل أصوات ضحكاتهما لياسر، يترك سريره منقادًا إليهما بذهول.. هل يتوهم صوت يوسف؟ لا يترك له نجد مجالًا للتفكير وهو يتقدم مسرعًا يجر كف يوسف :" يبه طالع مين هنا! "

يضحك يوسف بحنين كبير وهو يسحب والده المندهش إليه، يعانقه مطولًا .. يُقبل رأسه وكتفيه وكفيه بشوق :" شرايك بالمفاجأة يابو يوسف؟ "

يُعيده إلى كتفه :" والله هذا هو عيدي"

يحمل نجد حقيبته عنه، يلتف ثلاثتهم حول بعضهم في غرفة ياسر .. يتأمل إشراق يوسف، ابتسامته المختلفة .. كيف غدا شخصًا آخر، يتوجّع لما أوقع ابنه فيه .. هل سيُسلب من ابنه إشراقه هذا مثل ما تُسلب الآن فرحته باجتماعهم هذا؟

" كنت أتوقع أجي وما ألقى أحد بالبيت وأدخل وبس ترجعون تتفاجؤون، بس استوعبت إن ما عندي مفتاح وباكل تبن وأنا أنتظركم وكرهت المفاجأة أكثر وأنا واقف بالمستشفى ويمنعوني أشوف ثامر"

يُقاطعه نجد :" رحت تشوفه؟"

يهز رأسه إيجابًا :" ما توقعت مشددين بالزيارة، بس ترجيتهم وطليت عليه ثانية وحدة بس"

يطمئنه والده بهدوء :" بكرة إن شاء الله تشوفه معنا"

يحوّل نجد دفة الحديث وهو يسحب كف أخيه :" خاتم جديد؟ - ينتزع الخاتم من خنصره بإعجاب شديد - أهنيك على ذوقك"

تتسع ابتسامته :" من عمي عبدالعزيز"

عند هذه النقطة تغيب أصواتهما عنه، يضيق صدره .. يستوعب أن (عبدالعزيز) واقع وليس وهمًا، أصبح جزءًا من عائلته، يزداد ضيقه مع حديثهما عن عبدالعزيز وعائلته ولقاء الغد المرتقب .. لساعة ثم ساعتين يحتل نقاش زفاف نجد ويمامة وأهل خطيبة يوسف كل حديثهما، لا يعلمان ما يسببانه لوالدهما .. يُبالغ يوسف بمديحه لأهل هديل بحب كبير لا إرادي، كيف أصبحوا عائلته حتى قبل خطبته.. حديثه عن مرض والدها ومستجداته.

يُعاود ياسر وجع رأسه إلى أن يُعتقه يوسف أخيرًا وهو يستأذن للاغتسال، يلوذ إلى فراشه .. يتظاهر بالنوم حتى

يُكفّ اسم يعقوب أو عبدالعزيز عن التردد إلى أذنه وحتى ينفرد بنفسه علّه يهدّئها.

يغلق نجد الباب خلفه بعدما أطفأ الإضاءة، يلتفت على صوت يوسف خلفه ملتفًا بالمنشفة وشعره المبلل بحالة فوضى:" أبوي نايم؟"

يهز رأسه إيجابًا :" ايه توه نايم "

يزم شفتيه بضيق ليُعود مجددًا إلى غرفة نجد ويهمس :" زين تعال لا نزعجه"

يتبعه إلى الغرفة، يجلس على السرير مقابلًا ليوسف الذي يجفف شعره :" ليه ما علمتني إن أبوي تعبان؟ "

يبتسم مطمئنًا :" لا هو بخير، بس اليوم مدري شفيه .. نوبة مفاجئة"

يعقد حاجبيه بضيق :"أكيد؟ مو من زمان؟ "

يهز رأسه نفيًا :" لا لا تشيل هم، بس بداية رمضان تعب يوم اختفى ثامر لكن بعدها رجع طبيعي "

يزفر بقوة :" ايه هذا هو، كان كل خوفي تأثر عليه أزمة ثامر"

يقف حاملًا هاتفه :" لا تشغل بالك أبوي بخير .. إذا تبي تنام نام هنا، غرفتك.."

يقاطعه وهو يفتح خزانته :" لا مابي غرفتك أبي ثوبك وشماغك"

يعقد حاجبيه باستغراب :" رايح مكان؟ "

يبتسم وهو يفتّش ثياب نجد :" أول موعد مع هديل وأهلها بالرياض، لازم أكشخ"

تتسع عيناه بضحكة :" ياخي اصبر لا تصير مشفوح توك واصل وبكرة تلاقيهم"

تتسع ابتسامته وهو يسحب أحد الثياب :" عطيتها وعد"

يستسلم له، يُساعده بتجهيزه .. يُطيبه، يعدّل شماغه، وها هو أمامه بكامل زينته .. ينطق يوسف وهو يرى نجد يرتدي حذاءه باستغراب :" وين رايح؟ بتترك أبوي؟ "

يعقد حاجبيه :" لا بوصلك! "

يزم شفتيه :" لا طلبت أوبر، خليك عند أبوي .. - يطلق ضحكة خفيفة على ملامح نجد المتفاجئة - ايه عادي، صح للحين أحارب .. بس بتغلب على هالخوف في النهاية"

لا يُخفي نجد دهشته وتردده، يردد (إذا صار شي دق علي، إذا غيرت رأيك كلمني، إذا تحس ما ودك عادي باخذك) لا يكفّ قلقه عند هذا الحد .. يستمر بإرسال رسائل ليوسف وهو بالطريق (كل شي بخير؟ تبيني أجيك؟ باقي مطول؟) لم

يكن الطريق سهلًا أبدًا، للحظة كاد يأمر السائق بالتوقف ويكمل طريقه الطويل على قدميه .. زاد الأمر صعوبة مروره بالشارع الأكثر رعبًا بحياته، عند ذاك العمود كانت أمه مستلقية بدمائها .. يشد على يديه، يعبث بهاتفه محاولًا نسيان وجوده داخل السيارة .. يتخيّل أنه على سريره، في المستشفى حيث يتدرب، في أي مكان عدا مقعد السيارة ..

يلتقط شهيقًا قويًا ليزفره بأقوى ما يمكن على توقف السيارة أخيرًا، يخرج منها وهو يمسح جبينه .. يُعدّل شماغه أمام باب الجناح وقبل أن يطرقه يُفتح، لا تدع له مجالًا لأن يستوعب وهي تُلقي بثقلها عليه .. تحتضنه بشدة، يُبادلها الاحتضان ضاحكًا .. لا شيء يصف شوقه لها، يدفعها للداخل مستوعبًا أنها بلا حجابها .. يُغلق الباب بقدمه :" كل ذا شوق يعني؟ "

تخرج ضحكتها أخيرًا وهي تُبعد رأسها عنه حتى تتسنى لها رؤيته :" مدري والله"

يُقبل جبينها :" يعلم الله إني أكثر"

تتأمل هيأته الجديدة، تعبث بشماغه :" شكثر طالع حلو! ما عرفتك"

يرفع حاجبه بعدم تصديق :" ما عرفتيني وأنتِ هجمتِ علي قبل حتى لا أطق الباب - يُبعد يدها العابثة بشماغه - بعدين اتركي عنك اللعب، ترى نسيت شلون أنسفه هذا نجد الله يخليه ضبطه لي"

تنوي العبث أكثر غير أن صوت والدتها يوقفها وهي ترحب بيوسف، يُبعدها عنه حاثًا خطاه إلى أمها .. يُسلم عليها بشوق كبير، يتلفّت في الجناح :" وينه عمي؟ "

يأتي صوت هديل من خلفه :"طلع قبل المغرب يشوف أصحابه ومعارفه وللحين ما رجع"

تصب له القهوة أمها بابتسامة وهي ترى هديل تتعلّق بكتفه:" تدري إنها من الساعة تسعة حالفة ما تطلع مكان ولا تتحرك من عند الباب تنتظرك؟"

تحرّك حاجبيها بسرعة :" بس مين فاز بالرهان في النهاية؟ أنا "

يأخذ القهوة من أمها قبل أن ينقل أنظاره بينهما :" بعد في رهان؟ "

تضحك أمها بينما تسحبه هي لتُجلسه على المقعد وتجلس بجواره :" كانت تقول مستحيل تجي أكيد منشغل مع أهلك وبكرة بنشوفكم، بس أنا كنت واثقة بجيتك"

يُخرج هاتفه، يفتح الشاشة ليثبتها أمام وجهها :" الساعة ١١ و٥٤ .. أنا دايمًا عند وعدي"

تستلم لهما أمها وهي تقف لتتركهما جالسين بخصوصية، للحظة حلّ الصمت بينهما غير أشواق تحكيها عيناهما، شكله الجديد بالثوب والشماغ يدغدغان عواطفها .. تقطع هذا الصمت بابتسامة وهي تشتت أنظارها عنه:" الرياض حلوة"

" أتفق"

تُعيد أنظارها سريعًا باستنكار :" وين اللي كان يقول كريهة؟ لدرجة خوفني منها؟"

يضحك بخفة وهو يقربها منه:" لا فعلًا اليوم شفتها حلوة، مدري ليه! "

تُشبك أصابعها بأصابعه :" لأني موجودة، لا تنكر"

يهز رأسه إيجابًا :" أتفق"

يُفاجئها برده لتخرج منها ضحكة بتلقائية، يُتابع :" جد اليوم من طلعت من الطيارة وأنا أشوف الرياض بعين جديدة، ما عمري حبيت الرياض بعد موت أمي إلا اليوم "

تغرق بضحكة مستمتعة لإطرائه، يُتابع بهدوء مبتسمًا :" هديل، اليوم جيتك بأوبر"

تتسع عيناها بصدمة سرعان ما تحولت لابتسامة فخر وهو يُكمل :" ومن الطيارة للمستشفى بباص، ومن المستشفى لبيتنا بتاكسي .. شرايك بطالبك؟ "

تسحبه لتحتضنه بفرح حقيقي :" يااا عُمر عمري طالبي المكافح - تبتعد عنه قليلًا بهدوء - بس لا تضغط على نفسك، خذ وقتك"

يهز رأسه نفيًا :" لا معليك مستعد.. بس لاحظي إني أغرقك مدح وأخبار حلوة عشان أمهد لك إني مضطر أطلع الحين"

تقطع ضحكتها بذهول سرعان ما تحوّل لحزن شديد :" تمزح؟ توك داخل! "

يزم شفتيه :" أبوي شوي تعبان .."

تقطع حبل تبريراته سريعًا بتفهم وابتسامة :" أجل لا تتأخر عليه، بكرة قدامنا "

لا يطفئ شوفها بحضوره لدقائق معدودة مع هذا اضطرت لتفهمه، من حقه أن يحظى بوقت مع عائلته بعد انقطاع طويل .. لن تنسى وفاءه بحضوره لدقائق من أجلها ..

يقف، تلحقه حتى باب .. وقبل فتحه يلتفت سريعًا متذكرًا :" صحيح، وش صار على السبحة؟ "

تشهق شهقة صغيرة متذكرة أمر السبحة :" كنت بنسى زين ذكرتني "

تُخرج القطعة الطويلة من جيبها، تسلمها له .. يلمح جزء من الورقة الملفوفة خارجًا من المنارة، تنطق بابتسامة بريئة :" والله ما فتحتها، كنت ناوية بس قلت أنتظرك "

يسحب الورقة ليحررها من مخبأها، ورقة قديمة محمية بلاصق شفاف يحفظها .. ينطق وهو يفتحها بلا مبالاة :" صدقيني بتطلع ورقة غبية بالنهاية.."

تقاطعه وهي تسحب الورقة بذهول لتظهر أمامها ورقة مقتصة من مجلة قديمة تحمل أربعة وجوه شابة، يعقد حاجبيه ليقترب منها متأملًا الوجوه .. تُقربها أكثر لها وعيناها تتسع :" مستحيل، أكيد هذي مو نفس الورقة .. أكيد في أحد بدلها"

يُمسك بالورقة متمعنًا، ينطق أخيرًا بثقة :" لا هي نفس الورقة، لنجد الله يرحمه"

تسحبها منه وصدمتها ما زالت تسيطر عليها :" مستحيل! أنا متأكدة"

تُقرب الورقة منه وهي تُشير على وجهين متطابقين :" لأن هذا أبوي! "

ينقل أنظاره لها بعدم تصديق، يسحب الورقة مركزًا على الوجهين الآخرين وسرعان ما هزّ رأسه نفيًا بابتسامة :" صدقيني غلطانة"

بثقة مطلقة :" مستحيل أغلط بأبوي وتوأمه، شف توأم اللي هنا"

يسحب الورقة بثقة تقابل ثقتها :" وأنا مستحيل أغلط بأبوي، لو غلطت بنجد خال أخوي يمكن لأني ما أعرفه إلا صور بس .. لكن هذا أبوي، أعرف صوره بهالعمر"

تنطق بسرعة وهو يثني الورقة :" لحظة لحظة اصبر .. في كلام مكتوب ورا"

يُعيد فتح الورقة من الجهة الخلفية، يقرأ معها المكتوب بخط قديم (افتح باب الوصل ولا ترده) .. تتسع عيناها بينما هو يُشير لكلمة متكررة بخط متقطع (نجد) :" هنا الدليل القاطع بصدقي وتوهمك"

تهز رأسها نفيًا بضياع وهي تشير على كلمة وحيدة بزاوية الورقة :" شف مكتوب يوسف .. عمي! قلت لك هو اللي بالصورة! "

عند هذه النقطة تتشتت الدنيا بعينيه، يوسف .. نجد .. أسطورة ثامر القديمة والقبرين المتجاورين، عمها يوسف الذي يرتدي خاتمه .. توأم أبيها، يعقوب ويوسف التوأمين ونجد رفاق أبيه .. خوف أبيها من قصاص ينتظره، وجه ناصر وهو يردد طلبه بأخذ قصاصه من يعقوب رفيق والده الهارب منذ حوالي ثلاثين سنة، هل يُعقل!

لا يسمعها وهي تسحب الورقة :" بسأل أمي وبتأكد لك إن هذا أبوي"

تغيب عنه للحظات، تعود بوجه واجم .. وبصوت قلق يقاوم البكاء :" أبوي تعبان، ريم كلمتنا من المستشفى .. "

-

بعد ثلاثة أيام ..

قلق متفاقم يقتله، ماذا حصل؟ هل نُسي؟ هل تخلّصوا أخيرًا من جالب المصائب؟ لماذا اختفى الجميع فجأة؟ إن

غاب عن ذكراهم الأيام الماضية فهل سيغيب عنهم موعد خروجه؟ ألن يأتي نجد لاصطحابه؟ ما زال يتوجّع بسبب آثار الحريق .. قدمه اليسرى متعبة لا يُمكنه السير عليها إلا ببطء، ماذا عن ناصر؟ من كان يزوره كل يوم لمتابعة حالته الأمنية هل أخلف وعده بوقوفه بجواره؟ هل أفسد كل شيء بإخباره عن هوية يعقوب؟ إن تخلّى عنه ناصر سيتفهّم السبب .. لكن أين عمه؟ من كان يدعو فوق رأسه ويهمس بآيات القرآن؟ يمامة أين هي؟ هل تجهيزها لزفافها بعد غد أهم من إلقاء نظرة خاطفة لحال الجريح ابن أختها؟ يوسف .. ألم يره قبل ثلاثة أيام؟ هل كان يتوهمه؟ لماذا لم يعاود زيارته؟ لا بأس لا يطلب منهم أي زيارة .. فقط يرجو من أحدهم أن يتذكر موعد خروجه اليوم ليصحبه إلى المنزل .. هل هو مهمش إلى هذا الحد؟ لماذا لا يرد أحد على اتصالاته بعد تفاقم قلقه؟ من شدة يأسه حاول الاتصال برقمها .. لكنها معهم .. مع الملتهين عنه.

يزفر بضيق ولا شيء يصف حجم خذلانه، يقف بصعوبة بمساعدة الممرضة .. إن خذله الجميع فلن يسمح بأن يشعر خالد بهذا الخذلان وإن لم يكن يعي .. زيارته مقتصرة على أهله، كيف له أن يشرح لهم بأنه كل أهل خالد؟ بأنه

عائلته .. لا يُمكن لأحد أن يستوعب ما يعنيه هو لخالد وما يعنيه له، بعد رجاءات يُسمح له أخيرًا برؤية خالد قبل مغادرته المستشفى.

يدخل الغرفة الكئيبة الممتلئة بالأجهزة، صامتة عدا عن أصوات المنبهات .. انهيارات داخلية زلزلته جرّاء رؤيته له، لا يكاد يسلم عضو في جسده من توصيله بأحد الأجهزة، ملامح وجهه ساكنة بسلام .. كاد ينحني متحاملًا على وجعه ليُقبل جبينه إلا أن الممرضة نهته، يطلق زفرة حارة باستسلام :" من العايدين .. خالد .. أدري ما تسمعني، بس أبيك تعرف إني معك وأنتظرك"

لا شيء يملكه سوى هذه الكلمات، يخرج برفقة الممرضة .. وقبل أن يتعدى بوابة القسم، تُفتح البوابة على مصراعيها، دخول عصف بقلبه .. إن كانت رؤية خالد زلزلته فحضورها ولّد براكين داخله، يُحبس صوته .. يتمنى لو يخرج مناديًا (رغد) إلا أنه خذله هو الآخر.

تمرّ منه سريعًا دون أن تنتبه له .. تقوده الممرضة للخارج مجبرًا، يحول بينهما الباب .. لتغيب عنه مجددًا ..

" ثامر"

يلتفت بسرعة على الصوت الباكي، تتسع عيناه على رؤية يمامة تبكي بكاء مرًا أفجعه .. يتلفت يمينًا ويسارًا لا يجد برفقتها أحد ليزداد ذهوله.

•*

- إني رأيت.. ألم ترَ؟!
- عيناي خانهما الكرى.
وسهيل ألقى في يمين الشمس مهجته.. وولّى.
- سيد البيد

الورقة الخامسة والعشرون

*•

(قبل ثلاثة أيام)

ساعة وينقضي يوم العيد بكل ما فيه، هل هو عيد؟ لا يشبه أبدًا أعيادها السالفة .. أعياد محمّلة برائحة عود والدها وحناء أمها، رائحة حلوى العيد بأفواه أطفال العائلة، ضجة محببة لا تتوقف داخل منزلهم .. تتوسط مجالس النساء بكل ثقة، يفسح لها محارمها من أخوالها وأقارب والديها صدر المجلس أثناء معايدتهم بدًا عن جميع البنات مرددين (هذي ريم بنت الشيخ موسى!)، أما الآن لا أحد .. لا صوت سوى صوت العاملات، تذكر عتاب والدها لها وهي في أول سنين مراهقتها لتذمرها وتململها ليلة العيد .. تذكر حديثه تمامًا (الفرح هذا تثابين عليه، افرحي .. وش

أحسن من فرح تستمتعين فيه وبكل ثانية تكسبين مقابله أجر بمجرد فرحك وضحكك؟ إحياء الفرح في العيد سنة يا بنتي، ارقصي العبي استقبلي الناس .. لا تعقدين هالحواجب الحلوة) منذ حديثه ذاك وهي تُقبل على الأعياد بروح طفلة.

أما الآن تبحث عن تلك الطفلة ولا تجدها .. قصدت جامعًا بعيدًا حيث يُصلي عمها وعائلته ليس لتستشعر جزءًا من العيد مع عائلتها الجديدة فحسب، بل لتهرب من أي وجه قد تُصادفه ويتعرف عليها .. لم يدم هروبها طويلًا وهي تقابل وجوه أخوالها الثلاثة في مجلس بيتهم بعد عودتها من الصلاة، كادت تهرب لو لا أن الهرب ليس من شيمها.. لا طاقة لها بحرب جديدة، منذ وصولها الرياض قبل يومين وهي تعد نفسها للحظة لقياهم .. تعلم كم ستكون مواجهة صعبة بعد كل ما خاضته معهم في المحاكم لتُبعد ولايتهم عنها.

لحظة صامتة مرّت تلاها وقوف خالها الأصغر، سلامٌ بارد .. معايدة تحمل نظرة عتاب ثم رحيل مباشر، لحقه خالها الآخر بذات السلام وذات الهروب، ليبقى آخرهم وكبيرهم .. من خاضت معه معظم الحروب، يُسلم عليها، يعايدها بنبرة

ثقيلة .. تشتت أنظارها عنه مُجبرة ليعود صوته (ناقصك شي؟)

تكتفي بهز رأسها نفيًا، تغيب أمها لدقائق خلف خالها لتعود بوجه مستبشر سعيد .. لا شيء أعظم في عينيها من حضورهم السريع هذا، مبادرتهم للمعايدة .. عدم خوض أي نقاش يجدد المواجع ويُسقي نار الحرب، تحاول دون ضغط بأن تستميل ريم للذهاب معها لمجلس العيد علّ عقدة عدم المواجهة تنحل لكن دون جدوى .. تعلم تمامًا أن أمها ستلاقي هجومًا عنيفًا وإن كان لا يتجاوز النظرات وبعض التلميحات، لكنها ستصبر.

يقطع خلوتها صوت هاتفها، عصف بها أستاذها بما ألقاه بمكالمته السريعة، تجلس منذ ساعات تحاول استيعاب ما قاله، ما سيحصل بسبب فعلة عمها .. هديل ويوسف، محاسبة عمها. تفقد القدرة على التركيز وإيجاد حلٍ ما، ماذا تفعل؟ تستبعد فكرة أن تهاتف هديل علّها تجد جوابًا .. موقنة بأن هديل لا تعلم بكل ما يحصل حولها، ولا حتى خطيبها .. لا أحد سوى عمها، تحاول الاتصال به غير أنه لا يجيب .. تصلها رسالة منه قبل صلاة المغرب بقليل (آسف يا عمري ما رديت عليك كنت بالمقبرة، بصلي وبزور خويي

وبكلمك بعدها، محتاجة شي ضروري؟) كادت ترد بنعم، أحتاجك وبشدة .. أحتاج لأن ينتهي كل شيء الآن، لكنها تتراجع قبل إرسالها .. غدًا مثل ما أخبرتها هديل موعدهم الأول مع عائلة يوسف .. إذن كل شيء مخطط له، وقد يكون بمباركة من والد يوسف.. ستفهم كل شيء غدًا، تكتفي برد قصير (تقبل الله، مافي شي ضروري لا تشغل بالك كنت بتطمن عليك بس) لتنتقل إلى مكتبة والدها، تغوص بين كومة صناديق قديمة تستخرج ما حفظه والدها مما تبّقى من أخويه قبل رحيلهما .. تمضي ساعات وصبرها ينفد، لا شيء إطلاقًا يُفيدها .. يزيد تعجّبها من عمها (يوسف) هل جمع الجرائد والمجلات من هواياته؟ صندوق كامل يحمل صحفًا قديمة لا تقتصر على الصحف السعودية، صحف كويتية، مصرية، لبنانية .. تتصفح العناوين الكبيرة بمشاعر غريبة (الهلال السعودي بطلًا للأندية الخليجية ١٤٠٧ - اغتيال السادات - جلالة الملك خالد بن عبدالعزيز إلى رحمة الله - الفهد: عانيت كما لو أن الطائرة المخطوفة سعودية - وداعًا كوكب الشرق - مجزرة المخيمات: ارتقاء ١٤٠٠ شهيد في مخيمي صبرا وشاتيلا) كم من ألم عايشه جيل والدها حتى ظنّوا أنها النهاية ليُفاجأوا

بتاريخ جديد أكثر ألمًا؟ هل ستكبر لتعيش اللحظات التي تقرأ فيها (بعد ثلاثين عامًا من تخطي الأزمة السورية: يروي السوريون إنجازات وُلدت من رحم المعاناة - بوابات الأقصى تكتظ بمصلين من جميع أنحاء العالم الإسلامي في عيد الفطر المبارك) أو أن الغد كفيل بأن تكره لون الصحف إلى الأبد وهي تُقدم خبر القصاص من عمها؟

تستلقي على السجادة بإنهاك والأوراق حولها متناثرة بكل مكان، لا شيء ذا فائدة لها .. تُعلن استسلامها بالدفاع عن عمها أمام أستاذها، تُغمض عينيها لتنسى كل شيء .. تنتابها أحلام متداخلة، مجازر .. ملاعب كرة قدم.. عمها..

وأستاذها، تفيق بشهقة إثر رنين الجوال الصاخب .. تعتدل مسرعة لتستوعب أنها دخلت بقيلولة دون أن تدرك،

تلتقط هاتفها لتجيب مسرعة وهي ترى اسم عمها :" هلا "

تعقد حاجبيها على صوت رجل غريب يُجيب :"بنت الأخ عبدالعزيز؟"

يخفق قلبها بخوف، تتلعثم بالإجابة :" ايه وصلت .. وش فيه؟ وينه؟ صاير شي؟ "

يقاطعها مهدئًا :" تطمني أبوك الحين بخير بس نقلناه المستشفى كان تعبان عالطريق بس معليش الحين ما فيه إلا العافية وزين كان مسجل رقمك بالطوارئ"

تتمالك نفسها وهو يدلها على المستشفى، يوصلها سائقها إليه .. ضيق تنفس حاد كاد يُدخله في حالة تشنج، نصف ساعة تفصلها عن لقائها بهديل وأمها .. تسحب هديل المتوترة لها لتطمئنها، تتجمّد عيناها على ذاك الواقف بشحوب بجانب عمتها، يوسف؟ يُذكّرها وجوده بالمصيبة .. وجهه مختلف عن المرات القليلة التي شاهدته بها، شاحب جامد.. لا يملك أدنى تعبير، يتمتم بكلمات قليلة لعمتها .. يزداد شحوبه وهم بحضرة عمها المتعب، يحمل نظرة غريبة حادة لعمها لم يلاحظها أحد سواها ..

يبتسم يعقوب بإنهاك على سريره بعد تحديد الطبيب لموعد خروجه ظهر الغد وكفه تعانق كف ابنته :" زين يعني ما بنفوت موعدنا بكرة"

تتابع بعينيها ملامحه التي تجعّدت بتفحّص وكأنها تحاول إمساك خيط يؤكد لها معرفته بحقيقة عمها، يخرج صوته ثقيلًا وكأنه مُجبر :" عمي .. ما في مشكلة ارتاح، ما بيني وياك هالمجاملات .. أبوي بيتفهم وبنأجلها بعد بكرة"

تؤيده أمها بقلق متزايد :" اي والله يا عزيز، لازم ترتاح"
يهز رأسه نفيًا بذات الابتسامة :" لا أنا بخير، ومتلهف لهاليوم أكثر من هديل .. كلها ساعتين العشاء ما بتأثر"
بعد دقائق يخرج ليترك لريم مساحة خاصة، يجلس في صالة الانتظار وثقل مُهلك يلف رأسه .. عاجز عن تصديق ما بدا واضحًا له، يُخرج اللفافة من جيبه .. يتأمل الوجوه الأربعة، يتحسس وجه أبيه.. يشبهه تمامًا مثلما يشبه نجد وجه خاله، أما التوأم .. يزفر بضيق غير مصدق، الحقيقة تسطع أمامه .. نعم طوال هذه المدة لم يكن سوى أداة لعبدالعزيز .. أو يعقوب كما تُثبت الصورة.
يرفع رأسه للضوضاء القريبة، توافد لمصابين إثر حادث.. تجمع مزدحم لشباب يغطيهم القلق والفوضى، يدسّ اللفافة في جيبه ليقف عائدًا إليهم، يتراءى له وجه يعقوب المتعب وعيناه تذبل بنوم لا يقاومه، بعد إلحاح منه ترضخ هديل للمغادرة مع أمها وريم مطمئنين لحال يعقوب المستقرة ..
يتحرر من شماغه وعقاله ليسلمها لهديل، يشعر بهما يزيدان ثقل رأسه ويعيقان حركته .. ينقل أنظاره لأمها التي

اقتربت منه وبنظرة حنونة منكسرة :" يوسف يا عمري تعبناك معنا، مو مضطر تجلس وتوك جاي لأهلك! "

يزم شفتيه بابتسامة صغيرة متعبة :" عمتي .. مو أنا ولدكم؟ تعرفين إن عمي عبدالعزيز بمقام أبوي .. بيجافيني النوم لو بعدت عنه وهو بالمستشفى"

تلمع عيناها بدمعة امتنان كبيرة لتفاجئه وهي تعانقه معانقة الأم لابنها، كهرباء برقت داخله .. هل تُدرك هي كل هذا؟ هل تملك إجابات تزيح همه؟ أتلك النظرة نظرة أسف واعتذار لاستغلاله؟ أم أنها تجهل كل شيء! هل كل هذا كابوس؟

تزيد هواجسه مع اختلائه بيعقوب وحدهما، يبحث فيه عن عبدالعزيز الذي أحبه .. أول من أودع فيه الثقة، من شعر بأنه أب روحي له .. ولدهشته يجده أمامه ينام متعبًا، يحاول تذكّر أحاديث والده عن أصدقائه الثلاثة .. علّه يجد شيئًا ينفي أن يكون عبدالعزيز هو ذاته يعقوب الذي ارتبط اسمه بثوران ناصر.. ناصر؟ للحظة شعر قلبه يكاد يخرج من مكانه، لماذا ينبض قلبه بخوف وخشية الآن؟

يُخيّل إليه جسد عمه جاثيًا وسيف السيّاف يحط على رقبته، يرتعد .. لا مُحال، هذا ليس يعقوب .. وإن كان

يعقوب، سيبقى كل شيء كما كان .. من يرقد بجواره عبدالعزيز، والد حبيبته هديل .. كل ما عدا ذلك محض هراء.

لا يعلم كم مضى من الوقت حتى صدح صوت أذان الفجر، يلوذ بالصلاة .. يبتهل في صلاته بأن يُطمئن قلبه، بأن يكون كل ما اكتشفه حلم في منامه، بأن تبقى صورة عمه لامعة ناصعة في قلبه، وألا يفرقه عن هديل أي شيء .. أن تبقى بجواره دائمًا، ألا تغيب ابتسامتها المشعة عن قلبه وناظريه..

تُشرق الشمس مع إضاءة هاتفه برسالة منها (شلونه أبوي؟)

يرفع أنظاره حيث يرقد، ما زال هادئًا مطمئنًا (بخير، لا تشغلين بالك كلها كم ساعة ويكون عندكم)

تكتب سريعًا (الحمدلله .. يوسف، ما أعرف كيف أرد جميلك .. بس أعرف إني ما بتخلى عنك، وبرد لك جميلك بحبي لك .. لو كبرت وما حولك أحد بشيلك بروحي وعيوني)

(هديل، نامي)

-"كم الساعة؟ "

يرفع رأسه سريعًا على صوت يعقوب، يضطرب فجأة .. التقاء عينيهما ولّد داخله إحساس بالخوف، يشتتهما سريعًا باضطراب إلى هاتفه :" ٦ وعشر"

تمضي الساعات التالية ثقيلة على قلبه، يبتلع ريقه يعقوب وهو يلحظ اضطرابه .. ليس يوسف الذي يعرفه، يتجاهل النظر في عينيه، أصابعه تتشابك وتنحلّ مرارًا .. كلّما حاول فتح حوار معه يتهرّب، مرة بإحضار قهوة .. ومرة بعطشه، ومرة بحاجته لدورة المياه، يكفّ عن محاولاته .. إن كان ياسر أفشى بأمره فهذا أقل ما يتوقعه من يوسف، عاجلًا سيعرف وينتهي كل شيء..

تهرّب يوسف وصدوده لم يكونا سوى كوخز الإبرة في قلبه أمام هول مفاجأته وهو يقف خارج المستشفى برفقة يوسف الذي نطق وهو يشير لسيارة سوداء :" هذا أخوي نجد جاي يوصلنا"

لا يعلم هل تعرقه الشديد المفاجئ بسبب شمس الرياض أم أنها الحرارة المنبعثة من عيني ذاك الشاب الوسيم بعدما خلع نظارته السوداء قادمًا إليهم، لا يعلم يوسف ولا أحد آخر بما قاساه ليلة البارحة إثر ركوب نجد سيارته وبقربه الموجع وحديثه القاسي .. تدهور حاله بعد خروجه، حاول

تمالك نفسه إلا أن اختناقه خذله بمنتصف الطريق لو لا أن بعض الرجال هرعوا إليه واقفين بجانبه حتى وصل إلى المستشفى.

عينا نجد الباسمة سرعان ما ضاقت وما هي إلا ثوانٍ حتى اتسعت، غير معقول! ماذا يفعل هذا بجوار يوسف؟ أين هو والد خطيبته؟ يتبلل جبينه عرقًا خجلًا وهو يستوعب أن ذاك الضيف الذي أساء معاملته البارحة لم يكن سوى (عبدالعزيز) والد هديل! لماذا لم يخبره والده بذلك؟ لو أخبره لما كان في هذا الموقف المحرج! لماذا لم يوضّح له عبدالعزيز سوء الفهم آنذاك! كيف له أن يظهر بتلك الصورة السيئة أمام أنساب أخيه؟! يزدرد ريقه وهو يقترب وصوت يوسف يعلو بابتسامة مشيرًا لنجد :" هذا أخوي نجد.. - يلتفت لنجد بذات النبرة - هذا عمي عبدالعزيز"

سرعان ما عقد يوسف حاجبيه باستغراب وهو يرى توتر نجد الجلي وابتسامته المضطربة، زاد ذهوله ونجد يُقبل كتف عبدالعزيز بابتسامته الغريبة مكررًا :" آسف آسف يا عمي، حقك علي والله .. مدري وين أودي وجهي منك، اعذرني عمي"

يتمالك نفسه زامًا شفتيه مانعًا حرقة موجعة من التأوه، يرفع كفه ببطء ليمسح على ظهر نجد برفق .. وكأنه يرجوه بألا يعتذر، بأنه هو من يتوجب عليه الاعتذار .. ولو أفنى كل عمره في الاعتذار لن يفي بحقه، يتوقف عن تقبيل كتفه ليرتفع مقبلًا رأسه :" والله يا عمي مستحي منك، ما كنت أمس بوعيي وشايل هم أبوي.. ما دريت والله إنك أبو هديل"

يخرج أخيرًا صوته ضئيلًا :" حصل خير يا ولدي"

كلمته الأخيرة كانت ثقيلة على قلبه، تمنّى لو أنها تصل إلى نجد كما خرجت منه .. كاد يقبض على نجد حتى يمنعه من الابتعاد، حتى يحظى بلحظات أبوية واجبة عليه قبل موته.. يتأمله بهذا القُرب بعدما ابتعد نجد قليلًا وبذات ابتسامته المحرجة وهو يشتت عينيه بخجل، تعرّف على ملمح جديد له .. الحنين والشوق وهو في المقبرة، الحيوية عندما كان صغيرًا في المدرسة تذكره بحيوية أخيه يوسف، الخوف والاندهاش عندما كان في باحة منزلهم قبل سنين، وجه باسم في المقبرة، الحقد ليلة الأمس .. أما الآن يجتمع فيه الخجل والصدمة والإحراج معًا، يقطع حبل تأملاته صوت يوسف مستنكرًا :" وش صاير؟ "

يعود صوت نجد المنحرج وهو يعدل شماغه :" سوء فهم، كان ضيف عندنا ولا عرفته "

يُنزل أنظاره يعقوب :" ما صار إلا كل خير، لا عاد تفكر بالموضوع"

يُكرر نجد اعتذاراته وتبريراته في طريقهم إلى السيارة، يفتح باب السيارة الخلفي حتى يركب يعقوب.. يرفع رأسه للواقف خلفهم بوجوم، يكتفي بنظرة اعتذار بالغة الأسف ليوسف .. تسلك السيارة طريق العودة تحت وجوم يوسف وصمت يعقوب، يأخذ نجد زمام الحديث علّه يخفف من إحراجه .. لا يعلم سبب توتر الأجواء، وجه يوسف مسود لا يشبه وجهه البارحة .. يعقد حاجبيه باستغراب على صوت يوسف :" وصّلنا المقبرة"

:" الحين؟ بس أبو هديل تعبان .. - ينقل أنظاره إلى يعقوب- أفضل ترتاح يا عمي وبكرة وعد أوصلكم بنفسي"

ينطق مسرعًا يوسف :" لا عمي هو اللي يبيها ومُصر، نص ساعة بالكثير ونرجع الفندق"

بداخله كاد يصرخ بالرفض، ليس لأن طريق المقبرة طويل ولا طاقة له في النظر بعيني عبدالعزيز أكثر بعدما فعله البارحة وحسب، بل هناك الكثير من الأعمال بانتظاره ..

إتمام كل ما ينقص العشاء الليلة، إتمام بعض أمور زفافه الوشيك، والاطمئنان على حال والده .. زيارة ثامر أُجلت للغد مع كل ما ينتظرهم اليوم.. مع هذا تظاهر بالابتسام والرضى حتى وصولهم أسوار المقبرة ..

يهمس نجد ليوسف بعد خروج يعقوب :" أنا بخلص شغلي وبجيكم"

يهز رأسه إيجابًا بهدوء وهو يفك رباط الحزام، ليعود صوت نجد قلقًا :" تعبان؟ "

تزيد عقدة حاجبيه من سواد وجهه :" لا، بس لأني ما نمت من أمس راسي شوي مصدع"

يترك أخاه خلفه ليلحق بيعقوب الواقف أمام بوابة المقبرة، لا يعلم كم مضى من الوقت حتى خرجت حروفه أخيرًا مصحوبة بزفرة :" أدري يا عمي تعبان ومحتاج ترتاح، بس ... "

يفرك جبينه بأصابعه وصداعه يشتد، لا يعلم كيف يقولها .. بات كل شيء واضح، لماذا يزور والده البارحة فجأة ودون أن يعرف أحد؟ منذ متى يعرفه؟ لماذا اجتمعا مسبقًا وبسرية قبل يوم من موعد اجتماع العائلتين؟ لماذا كان نجد جاهلًا بهوية الضيف؟ لماذا لم يخبره والده؟ يحتاج فقط

لأن يسمعها منه .. يرفع رأسه بسرعة لصوت يعقوب الهادئ :" يوسف يا ولدي، قول كل اللي بخاطرك.. أنا أسمعك"

يزفر مجددًا بشتات، لينطق مشيرًا إلى طريق يحفظه جيدًا :" أبيك تزور معي قبر .."

يسير برفقته، يكاد يسبق يوسف .. طريق قبرين يعرفهما ويعرف تفاصيلهما، كم من ليلة بكى مشتاقًا لزيارته .. وها هو يقف عليه بجوار يوسف الذي جلس بين القبرين منهيًا كل شيء ..

يرفع رأسه لعمه الواقف، يتصبب جبينه عرقًا .. ينطق باضطراب صوته :" أستحلفك بالعالم بكل شي تقول الحقيقة، احكي لي من البداية .. وش دوري بحياتك؟ - يُخرج الخاتم المحتضن خنصره - أستحلفك باللي قادر يجمعك بصاحب هالخاتم .. وأصحاب هالقبرين .. تصدق معي بكل شي، انت مين؟ "

-

تفتح عينيها الناعسة على وقع خطوات قربها، تعقد حاجبيها بضيق وبرودة المكيف تنقطع وها هو الضوء يتسلل لعينيها .. كادت من شدة نعاسها تغفو مجددًا لو لا صوت خالتها :" يمامة! لمتى بتنامين؟ يالله اصحي يكفي نوم! "

تتحرك أخيرًا بتثاقل :" كم الساعة؟"

تجر خالتها مقعدها لتقربه منها :" خمسة، خلاص ما بقى شي ويأذن المغرب "

تتسع عيناها بعدم تصديق لتخرج شهقة وهي تستند على مقعدها :" ليش ما صحيتيني خالتي! "

ترتسم على شفتيها ابتسامة خفيفة :" أبيك ترتاحين وتنامين كويس، أنتِ عروس أبي وجهك يشرق "

تسحب ثيابها بعجلة :" خالتي! باقي أصلي وأتروش وأضبط شعري والميك اب وأرتب بيت عمي وأشوف وش ناقص، شلون بلحق الحين! "

تسبقها خالتها إلى الباب :" لا تشيلين هم، الترتيبات كلها مخلصينها من أمس باقي أشياء بسيطة يمدينا نخلصها بنص ساعة .. صلي الحين وضبطي نفسك وساعدي باللي تقدرين عليه"

بعتاب وضيق :" خالتي ليه تتعبين عمرك؟ ما يكفي جاية تعيدين عندي وتاركة سمر تعيد وحدها؟"

لا تسمع لعتابها :" أقول يا بنتي خلصي عمرك بسرعة عشان يمديك تلحقين وتسلمين على يوسف قبل لا يجون الضيوف"

تشهق مجددًا متذكرة سبب إرهاقها، لم تعد من سهرة العيد مع خالتها وبناتها إلا فجرًا .. ليُفاجأها نجد بخبر عودة يوسف، منذ أخبرها كادت تطير فرحًا، انتظرته مطولًا حتى يعود من المستشفى .. تجاوزت الساعة الحادية عشرة وهي تقاوم نعاسها، ملأت هاتف نجد برسالاتها (وينه؟ متى بيجي؟) وذات الرد منه (مع أبو هديل، اصبري شوي، نامي ساعة ووعد أول ما يرجع يمرك) انتهت من صلاة الظهر ويوسف لا يزال مع عمه .. غفت دون إدراك منها لتُفاجأ الآن بأن غفوتها امتدت لساعات ..

تسحب هاتفها لتجد رسائل نجد (يوسف تو رجع وتعبان يبي ينام، إذا جيتِ بيتنا عالمغرب بتلقينه إن شاء الله)

تغتسل وتصلي وتُنهي تجفيف شعرها بعجلة، تسبق خالتها إلى منزل ياسر .. ما أن سارت عجلاتها داخل الممر

الداخلي تهادى إلى سمعها صوت نجد ووالده :" مافي أحد مر ثامر اليوم يتطمن عليه؟ "

يُجيب نجد وهو يجوب المكان حاملًا مبخرة تنتشر رائحتها في الأرجاء :" كنت بمره، بس انشغلت .. أرسلت لخالي أذكره لا ينسـ..- يقطع حديثه وابتسامته تتسع لرؤيتها - هلا والله بالنايمة! "

تبتسم متجاهلة حديثه لتقترب من ياسر وتسلم عليه، لم تندهش من وجهه المتعب .. مرهق وكأنه كَبُر عشر سنوات، أخبرها نجد صباح اليوم بتعب والده، ما أثار دهشتها وجه يوسف .. لا يشبه وجهه القديم الرمادي ولا الوجه المشرق الذي ظنّت أنها ستراه، أين هو (يوسف الجديد) كما يردد نجد؟ هل ما زال يُصارع مع سواده؟ وكل ما يردده نجد فقط ليُطمئنهم عليه؟ عيناه محمّرة .. قاطب الحاجبين وكأنه يتجهّز لحرب قادمة، حتى الابتسامة التي رسمها على وجهه وهو يسلّم عليها لم تمحُ حرارة عينيه، تخرج حروفها لا تُخفي دهشتها :" وش فيك؟؟ تعبان؟ "

ما زالت ابتسامته الثقيلة وإبهامه تحك حاجبه بعشوائية :" لا، بس تعب السفر وقلة نوم .. - يسير في أرجاء مجلس

النساء وكأنه يتفقده هربًا من عينيها - بعدين شمس الرياض أحسها طبخت راسي! "

تبتسم محاولة إعطاءه دفعةً إيجابية :" بس والله صدمتني! وش هالجسم؟ وش هالعضلات؟ اعترف انت مسافر تدرس ولا تلعب بالجيم؟ "

يمرر يده بتلقائية على بطنه ليتذكّر أن أحد أسباب خموله اليوم هو عدم ممارسته الرياضة منذ يومين، يقاطع حديثهم صوت نجد من خلفهم :" أنا ريكو، بحبيكو، وبسلم عليكو"

تتسع عيناها بضحكة دهشة لرؤية ثلاث مغلفات بسكويت قديمة وهي تقترب أكثر منه :" أووه نجد من أي متحف طلعته! "

يُعطيها أحد مغلفات البسكويت الثلاثة ويرمي الآخر على يوسف الذي تلقاه عاقدًا حاجبيه :" شيّكت على تاريخ الانتهاء"

يفتح نجد مغلفه ليقضم البسكويت بتلذذ :" ١٤٢٠! وش رايك يعني بيكون منتهي مثلًا؟ .. بعد ما حطيتكم بالمقبرة مريت بقالة صغيرة قريبة منها لا دخلتها ترجع بالزمن ورا مية سنة"

تفتح هي الأخرى قطعتها لتستنشق رائحة الماضي القديم وبحنين كبير :" ثامر كان يحبه مرة"

يُتابع نجد متذكرًا :" كان برمضان يوزي له مجموعة ورا الباب واللي بيفضحه مصيره ينفرش عالأرض"

تُكمل معه بضحكة :" كان ما يرضى ياخذ الأزرق لازم الأحمر"

يُخرج ورقة الملصقات بابتسامة واسعة :" هرموناته الذكورية ذابحته"

على ذكر ثامر تقفز ذكرى غابت عنه فجأة، يتذكر ذلك اليوم بعد عقد قرانه على هديل .. حديث ثامر الغريب وتحذيره من (عبدالعزيز)! هل يُعقل بأنه يعرف؟ وكيف؟

تشهق يمامة متذكرة ما بقي لها :" ما بقى وقت وأنا باقي ما ضبطت الميك اب"

يقف يوسف خارجًا من المجلس وهو يقول :" لا تتكلفين، هديل وعمتي بسيطين لا تشيلين هم وتبالغين"

كادت ترد لو لا أن صوت هاتفها علا لتتذكر خالتها التي تنتظر عند الباب الخارجي، يغادر نجد إلى والده بعدما ألصق ملصق البسكويت الطفولي على ظهر مقعدها بجوار

السوار الذي عقده لها قبل مدة ناطقًا :" علامة الجودة، لا تشيلينها"

كان ينوي الرجوع إلى أبيه إلا أن إضاءة مكتبة والده وزاوية الباب الضيقة استوقفته، ما أن أصدر الباب صريرًا توتّرت حركة الواقف خلف المكتب ليُغلق ألبوم الصور الكبير على صوت نجد :" يوسف؟ ظنيتك أبوي"

يحمل الألبوم ليُعيده إلى مكانه دون تعليق، يعود صوت نجد بعد صمت قصير بهدوء :" يوسف .. تكفى إذا في شي علمني، أمس كنت بوجه مختلف! صاير شي؟ "

يزم شفتيه لئلا تُخرج حديثًا لا يرغب به، يزفر بضيق معتدلًا بوقوفه :" ولا شي بس صحة عمي تأثر فيني .. ما كنت متعود أشيل هم أحد، بس معه يختلف الوضع .. أعزه يا نجد وكأنه أبوي"

ترق نظرته لحال يوسف، يرتاح لكون ما يُكدر صفوه ليس إلا حبّه وتعلّقه بعائلته الجديدة .. من كان يظن يوسف سيحمل كل هذا في قلبه؟ ما الذي فعلته هديل وعائلتها حتى أعادوا إحياءه؟

يربّت على كتفه بابتسامة :" لا تشيل هم، الله يمده بالعافية .. ابتلاء يؤجر عليه إن شاء الله، اترك عنك التفكير الحين تلقاهم جايين بالطريق"

يهز رأسه موافقًا، كاد يخرج نجد إلا أن صوت يوسف استوقفه مترددًا :" لو طلبتك يوم من الأيام، بتعطيني؟!"

يعقد حاجبيه باستغراب من سؤاله الغريب :" وش عندك يوسف؟ "

يثبّت عينيه بعيني أخيه :" لا تجاوبني بسؤال، عطني كلمتك"

يبتسم بتوجس لحال أخيه :" اللي تبيه اعتبره تم"

يبتسم أخيرًا مطبطبًا على ظهره بخفة قبل أن يغادر :" إذا جاء وقته علّمتك"

تمر الساعة سريعة وها هي سيارة يعقوب تقف قبالة الباب، سرعان ما تلوّن وجه نجد منحرجًا وزوجة أخيه المحجبة تخرج من السيارة متحمسة برفقة أبيها لتسلم على أبيه وأخيه في الشارع.. كاد يغص بضحكته ويوسف يتظاهر بانشغاله بتعديل شماغه، وسرعان ما انسحب من المكان حتى يمنع إحراج يعقوب أكثر، لا ينقصه المزيد من المواقف المحرجة معه ..

-

يترجّل من سيارته حاملًا بين يديه مجموعة أوراق نسخها من هاتف ثامر، ليس من عادته اللجوء لطريق انتهاك الخصوصية.. لكنه ومنذ الأمس ليس هو، يدسّها في جيبه .. يتأمل السيارة الغريبة أمام منزل ياسر، يرفع ناظريه إلى الباب .. خصمه وأخيرًا قُربه، لا يفصله عنه سوى بضع مترات .. لا يعلم كيف سيقابله، وكيف سيتصرف .. ما يهمه الآن أن هذه الساعة ستحسم تعب سنين طويلة.

يرن الجرس، تقترب الخطوات .. وها هو نجد يطل بملامحه المتفاجئة والمبتسمة معًا :" هلاااااا هلا بخالي"

يعلم تمامًا أن لا أحد توقع حضوره، أول عشاء خاص يجمعهم بعائلة خطيبة يوسف .. يبتسم مرتديًا قناعًا لا يمثّل ما بداخله :" مرحّب فيني ولا أدور لي مطعم أتعشى فيه؟ "

يسحبه للداخل ليغلق الباب خلفه وبصدق :" انت من أهل البيت لا تسوي نفسك ضيف"

يزم شفتيه وعيناه تتسلط على المجلس :" وصلوا؟ "

يضحك بخفة :" يا خالي احنا شوي ونفرش العشاء وتسأل وصلوا! "

ترتفع نبضات قلبه مع كل خطوة تقرّبه إلى المجلس، صدره يهبط ويرتفع .. شقاء ما يقارب الثلاثين عامًا يتهاوى أمامه، تلتصق بعينيه صورة أخيه نجد .. بكاء أبيه.. ما حلّ بأخته، يرمي غصة اختناقه جانبًا .. هذا ليس يوم البكاء والنحيب، هذا يوم نصره .. يوم الحق، إن سُلب حق أخيه وأبيه وأخته وهو صغير عاجز عن أخذه .. فسينتزعه اليوم بأظافره وإن سال منها الدم.

مع صعوده عتبات الدرج ترتفع أنظاره لداخل المجلس المشرّع أبوابه، ارتجافة قلبه تتضاعف .. يرفع كفه بتلقائية إلى قلبه وكأنه يهدّئه ويعيده إلى مكانه، يغيب عن ناظريه ياسر الجالس .. يتفحّص الواقف ملقّيًا ظهره للباب يصبّ القهوة، جسده يحجب عن الداخل رؤية الجالس في صدر المجلس .. لا يظهر منه إلا طرف ثوبه، يشد على يده المرتجفة .. يخرج صوته هامسًا دون أن يشعر :" السلام عليكم .."

لحظة، هذا ليس وقت ضعفه .. هو القوي اليوم، هو صاحب الحق .. لا ينبغي أن يكون بهذا الضعف، يُعيد سلامه بصوت مرتفع جهور وكأنه يُعلم من يجهل بحضوره .. :" السلام عليكم ورحمة الله وبركاته"

تلتفت جميع الأنظار إليه .. ناظرَين تعلوهما الصدمة وناظرٌ يعلوه التفحص والجهل بصاحب الصوت، يقف يوسف في مكانه حاجزًا بين عمه وناصر مدهوشًا تعلوه الصدمة .. يترك القهوة على الطاولة وما زالت ملامحه ليسير دون إدراك إلى ناصر، كاد ينطق دون وعي (وش جابك؟) إلا أن ابتسامة غريبة تعلو ناصر أعادته إلى وعيه وهو يقترب ليُسلّم على يوسف :" الحمدلله على سلامتك"

من خلف كتف يوسف يظهر له أخيرًا ذاك الوجه، وجه قاتل أخيه الفار من العدالة .. كم كان يُخمن شكله، هل كبُر؟ ماذا فعل به ذنب نجد؟ هل صيّره ذليلًا قصيرًا؟ أم أن كبرياءه ذاك ما زال ملطخًا بدماء نجد؟ ما وجده لا يشبه إلا رجل سلبته الدنيا عافيته .. هل هذا نتاج دعاء الجوزاء؟ أو نتاج حجته قبل سنين طويلة وهو يردد (يارب إن كان حي طوّل عمره بشقاء وتعب، اسلب عافيته مثل ما سلب حياة أهلي)

يحرر يوسف منه ليتقدم إلى صدر المجلس بثبات، يتمنّى لو تُقطع يده قبل أن يصافح عدوه .. لكن لا بأس، سيُصافحه .. سيُثبت له قوته، يُسلّم عليه بنيران تتأجج داخله مقابل تحيّر يعقوب الذي يجهل من يكون، وكأن كهرباء صعقته وياسر ينطق بتنهيدة ثقل واضح :" ناصر .. ناصر بن متعب، نسيبي"

لم يكن بحاجة لأن يؤكد عليه ياسر بكلمته الأخيرة، ناصر لن يكون سوى ناصر ذاك .. من سيسلبه حياته، ما الذي أتى به؟ هل تعمّد ياسر حضوره؟ هل يعلم بهويته الحقيقية؟

يجلس ناصر بهدوء لا يعكسه اضطراب عروقه، يسمع انفجار سعال يعقوب المفاجئ .. يقفز إليه يوسف بتوتر بالغ يُسقيه الماء مرددًا :" عمي بخير؟ شربت دواك؟"

يشرب الماء بهدوء ليهز رأسه إيجابًا، ينقل أنظاره إلى ياسر .. يستنجد به، ليراه لا يقلّ سوءًا عنه، قُرب ناصر سلب منه النظرات الدافئة التي يرميها لنجد بين الفينة والأخرى، سلب منه ابتسامته لضحكة من نجد .. إصغاءه لكل كلمة تصدر منه وكأنه أب يسمع الحروف الأولى من طفله، حضور ناصر كان ثقيلًا على قلبه كما لم يظن .. ازداد ثقله

وهو يرى وجه نجد الوجه الوحيد الذي يحمل ترحيبًا وسعادة لحضور ناصر .. وها هو يجلس بجواره ليُثبت ليعقوب أن لا أحد في هذه الغرفة أكثر شبهًا به من خاله، وأن لا أحد يحب ناصر أكثر منه ..

يثبّت أنظاره بين يوسف وياسر بعدما كان نجد يأخذ النصيب الأكبر، يبحث بهما عن مخرج من تعبه .. ينطق بعينيه لرفيقه بأنه ضعيف جدًا أمام كل هذا، بأنه مخطئ بشأن تحمّله .. ناصر ونجد يمتصان قوته ولا يستغرب سقوطه قريبًا .. يرد عليه رفيقه بتشتيت نظراته، وكأنه يخبره بعجزه .. وكأنه يلومه (هذا ما جنيته على نفسك).

يلحق نجد بيوسف ينوي مساعدته بتقديم الضيافة، لتتسع أحداقه لكلمة يوسف الغاضبة والهامسة :" وش جابه؟ "

يعقد حاجبيه مباشرة، هل يقصد خاله؟ ناصر ومنذ كان صغيرًا هو أحد أفراد هذا المنزل .. يعلم يوسف هذا جيدًا وكبر عليه، ما الذي يجعله يُقابل وجوده بهذه الفضاضة؟ .. يرد له الهمس :" خالي؟ "

يزم شفتيه بضيق محاولًا تمالك نفسه .. ناصر يجهل كل شي، لكن تأثير حضوره على يعقوب جليّ للأعمى .. يتمتم قبل عودته :" ولا شي، انسى .. كلمهم يجهزون العشاء"

ليعود أدراجه إلى المجلس وحنقه يشتد على ناصر، ما أن جلس تضيق عيناه وناصر يُكمل حديثه أو (استجوابه) كما يتضح :" سنين طويلة ما فكرت فيها ترجع لبلدك وتعرف بنتك على أصلها ووطنها وأرضها؟"

يسحب كوب الماء ليرتشفه علّه ينسى أن هذا ناصر، شقيق نجد .. وشقيق الجوزاء، كاد يُجيب إلا أن صوت يوسف أنقذه معلقًا بلا مبالاة :" وين ما يكون رزقك بتعيش، ولا عمي؟"

ما أن هزّ رأسه إيجابًا تتصلب حركته، تجحظ عيونه، يختنق وكلمة ناصر تقتله :" كذّاب"

يدخل نجد على كلمة خاله الأخيرة، تتجمّد حركته بدهشة .. تشلّ الصدمة ألسنة الثلاثة، يوسف ويعقوب وياسر.. هل هذا يعني أن ناصر يعرف كل شيء؟

يغمض عينيه يعقوب برجاء داخلي، يرجو ناصر أن يعتقه حتى زفاف نجد .. وبعدها يعده بأن يسير إليه

بنفسه، لن يُبرر ولن يدافع .. سيكون رهن يديه، لكن فقط بعد زفاف نجد ..

أما ناصر، يفقد نفسه .. لم يعد يعي بشيء، كل ما يراه الآن هو زيف يحرق قلبه .. يزيد من اشتعاله ياسر وهو يقطع الصمت أخيرًا :" ناصر، عبدالعزيز ضيف.."

يقطع كلمته بانفعال مضطرب، قهر .. خيبة.. رغبة بتفتيت رأس الجالس قربه :" عبدالعزيز؟! تكفى يا ياسر لا تقول عبدالعزيز.. قل يعقوب! قولها! تكفى.. لا تشاركه بجرمه، جرمه بحق صاحبك وزوجتك واللي عديته أبوك.. - يقف مشيرًا إلى يوسف فجأة - جرمه بحق ولدك! .. يوسف تعرف أي وهم عيّشوك فيه؟ تعرف إن عبدالعزيز مجرد ورقة؟ انت عارف إن هذا اللي استغلك عشان يحمي روحه قاتل وهار.."

لم يُفرّغ بعد، قاتل وهارب كلمتان لا تصفان شيئًا .. يعقوب لم يقتل أخاه وحسب، يتّمه .. سلب من والده عقله حتى بات مجنونًا، سلب الحياة من أخته .. حرمه من أسرته كاملة، حتى بات مصطلح الأسرة شيئًا غريبًا عليه، كان يرغب بسرد كل فظاعة يعقوب بحياته وإن كلّفه سرده سنين طويلة حتى يتفهّمه يوسف.. إلا أن كفّي يوسف

أخرسته وهي ترميه على الجدار وتقبض على ياقته، من كان يقف أمامه يشد على ياقة ثوبه ليس يوسف .. شيطان آخر تلبّسه وفحيحه يصل إلى مسامع الجميع :" مافي أحد استغلني .. كنت أعرف، من البداية أعرف .. وايه .. ما يهمني ماضيه! ولا يهمني حقدك! ولا أسمح لك تمسّه بلسانك الأسود .. والله ما تلمسه إلا إذا صرت أنا تحت التراب"

لا يقاومه، ولا نية له بذلك .. ما يهمه أن يُثبت للجميع أن الحق بجانبه، كفا يوسف الغليظة على صدره لم تمنعه من إخراج الأوراق المصفوفة بداخل جيبه ليرميها على نجد الواقف بلا حراك تشلّه الصدمة وعدم الاستيعاب لأي شيء :" وأم أخوك؟ زوجة أبوك! ما يهمك كل اللي عانته لين ماتت بقهرها وأخوك طفل صغير؟؟ - يعود ليوجّه حديثه لنجد الذي التقط الأوراق بتلقائية يتفحّصها بوجه سُلبت ملامحه - ايه يا نجد .. هذا يعقوب اللي سلب منا كل شي! بصدر مجلسكم تضيفونه وأمك تحت التراب أخذ منها شبابها وأهلها وأخذها منك"

عند هذه النقطة يفقد يوسف السيطرة على نفسه، يرفع قبضته عاليًا بغية تفتيت جمجمة ناصر .. إن فقد ناصر رشده فيوسف فقد عقله وبصيرته، منذ ليلة البارحة..

وعندما ظهرت تلك القصاصة الصغيرة بيد هديل وهو يفقد نفسه تباعًا، في المقبرة بجوار يعقوب أدرك ذلك .. ليتفجّر الآن حمايةً لما تبقّى منه، يرفض تصديق أن يعقوب استغلّه .. أنه وهديل ليسا سوى حلقة وصل لماضٍ هُدم، لن يسمح لأي شيء أن يسلب منه قُرب هديل (مرسول سمائه) هدية الله له بعد كل ما خاضه منذ كان صغيرًا ..

تتجمّد حركته وقبضته وعيناه تتسع لصوت صفعة حارة قُربه، لحظة هذه ليست صفعة من يده لوجه ناصر .. ما زالت قبضته معلقة تنوي الانقضاض على جمجمة ناصر، وليست كف ناصر إلى خده .. فناصر ما زال تحت قبضته الأخرى دون حراك يشتعل نارًا مستعدًا لتلقّي القبضة .. يُحرر ناصر من قبضته وهو يلتفت بتلقائية باحثًا عن صاحب الصفعة، لن يكون سوى أحد الثلاثة خلفه.. نجد أو يعقوب أو والده.

تتسع أحداقه، عمّه ومن عدّه أبًا آخر يُصفع أمامه! وممن؟ من أخيه؟! يغيب عنه كل شيء عدا وجه نجد الواجم والواقف أمام يعقوب بملامح لا تُشبه سوى ملامح حِقد ناصر .. حقدٌ دفين مترسّب داخله لذاك الذي يُدعى (يعقوب) تشرّب هذا الكره بداخله دون أن يعلم، حاول

كتمانه ومواراته عن والده حتى صدّق أن قاتل خاله ومن تسبب بكل مأساة أمه وجده وخاله ناصر لا يعني له شيئًا، ليتفجّر الآن كل هذا الحقد والكره دفعة واحدة، ولأول مرة.. ينسى وجود والده، كاد يُلقي صفعة أخرى وثالثة ورابعة إلى أن يُشفى غليله، غير أنه وجد نفسه فجأة مرتصًا على الجدار يكاد يدخل به، لم يستعد وعيه بسبب قبضة يوسف حول رقبته يكاد يسحقها .. ولا بسبب صرخة خاله بيوسف، بل بسبب عيني يوسف المشتعلة.. يكاد يجزم أن هذا ليس أخاه، هذا شخص غريب أحضره ذاك القاتل معه من المقبرة .. أين يوسف؟ ماذا يفعل؟ سيرضى بيوسف القديم .. يوسف المكتئب، الرمادي .. لكن المهم أن يعود يوسف، ردّوا إليه يوسف ..

يزيد من قبضته على عنق نجد حتى ظنه كُسر، تغيب عنه جميع الأصوات التي تصرخ باسمه.. لا يرى شيئًا سوى عيني أخيه التي بدأت تستنجد به أن يُعتقه، فجأة يُغشّي عينيه الدمع دون أن يتحرر من مقلتيه .. يخرج صوته مزيجًا بين ضعف وقوة :" عطيتني كلمتك نجد! هذا اللي أطلبه منك .. روح انت وخالك بعيد عن عمي، وينها كلمتك! كثير

عليك؟ أنا بعد كثير علي أأذيك، بس لجل عمي يهون علي كل كثير!"

يعود الجنون ليتملّك يوسف أكثر وهو يزيد من خنقه لأخيه، كلاهما لا يلقيان بالًا للأصوات حولهما .. ولا للأجساد الدخيلة.. يختنق نجد أكثر وهو يحاول أن تخرج حروفه وتوسله ليوسف غير أن اختناقه يزيد، يزرقّ وجهه .. رئته تستنجد الهواء .. يوسف المجنون يكاد يقتله .. يغيب عنه جنون يوسف الذي يبدو أنه فقد السيطرة على نفسه .. يغيب عنه خاله الذي يحاول تحريره من يوسف بوجه مذهول كمن لم يتوقع جنون يوسف، يغيب عنه وجود (اليمام) وهي تحاول دفع يوسف عنه وتحريره بمقعدها ويديها التي لا تصل لذراعي يوسف، تغيب عنه الأجساد الأنثوية الثلاثة الواقفة بصدمة عند باب المجلس.. تغيب عنه قفزة (القاتل) محاولًا دسّ جسده ليحيل بينه وبين جنون يوسف وصوته يخرج كمجنون هو الآخر، مرتعش، باكٍ :" يوسف اتركه! اترك ولدي .. بتقتل نجد! بتقتل ولدي .. ابعد عنه"

يغيب عنه كل هذا، ولا شيء يحضر داخله منذ جنون يوسف سوى وجه واحد، والده! .. عيناه لم تستوعب أي

شيء وهي تبحث عن أبيه، والده الذي أُصيب بنوبة ارتفاع ضغط دمه ليلة البارحة .. كيف سيكون حاله الآن وهو يشهد كل هذا؟ كان يلعن اللحظة التي حضر فيها خاله، لا بأس سيتنازل عن كل شيء وسيُصافح القاتل، المهم ألا يشهد والده كل هذا .. لم يكن يرى كل ما حوله، كلهم ضباب .. ووالده الجالس بسكون في مكانه وحده الحقيقة، اختنق أكثر وهو يراه مستندًا على المقعد ولحيته يغطيها الدم .. ولا يبدو بوعيه.. كان يحاول إخراج كلمة واحدة (أبوي) حتى يُعيد الوعي ليوسف أو ليُنبّه أحدهم لحال أبيه حتى يسارعوا لنجدته .. لكن وكأن الجميع نسوا وجود من يملك كل وجود عظيم.

لا شيء ردع يوسف .. ولا حتى كلمات يعقوب التي ظنّها يوسف محاولة منه لتحرير نجد ليس إلا، لم يجعل يديه تتحرر من خنق نجد سوى الصوت الذي طغى على جميع الأصوات ليفجّر :" يوسف اتركه لا تذبحه! أخو هديل يا يوسف! ابعد عنه هذا ولد عمك عبدالعزيز"

وكأن كلمات (منى) أم هديل كانت ثلجًا جمّد الجميع، لم يعلُ بعد صوتها أي صوت .. الضجة التي كانت تهزّ أرض المجلس اختفت وكأنها لم تكن، للحظة صُمّت آذانهم .. لم

يحرّكها سوى صوت نشيج من صدر يعقوب الذي انتشل جسد نجد المختنق من بين يدي يوسف ليدسّه في صدره ويبكي .. يختلط صوت بكائه باستعبار زوجته الواقفة عند الباب تبكي.

يسعل نجد بتلقائية بعد مرور الهواء إلى رئتيه على صدرٍ غريب يضمه وينشج، يتجاهل عقله كل شيء باستثناء وجه أبيه.. ليقفز متحررًا من يعقوب إلى صدر المجلس وأنفاسه تضطرب أكثر، يجلس أمامه بسرعة ليهوله منظر والده.. يصرخ به دون وعي ولا جواب منه سوى بإيماءة ثقيلة، يعجز عقله عن تذكّر كل نصائح الطبيب .. يلتفت مستنجدًا بالمتجمّدين حوله لا تصدر منهم حركة، يقفز إلى عقله أخيرًا أن يوسف ممرض ليصرخ به :" يوسف! شف أبوي! بسرعة الحقه"

لا استجابة من يوسف الواقف في مكانه متجمدًا بملامح باردة، يفقد صبره ليصرخ بخاله الواقف بذهول هو الآخر :" خالي كلم الإسعاف وشغل السيارة بسرعة"

وكأن صرخة نجد به هزّته لتعيد إليه حركته وتُذيب تجمّده، يستغرق وقتًا وهو يبحث عن هاتفه في جيبه.. يُمسكه عشرات المرات ليُعيد البحث عنه بعقل مشوش،

لتعود صرخة نجد وتهزّه مجددًا .. يُخرج الهاتف ليتوقّف متأملًا شاشته لثوانٍ لا يعلم ماذا يفعل، يُسحب منه الهاتف بقوة .. وكأن كل قوة جسده سُحبت معه ليهوي جسده جالسًا على المقعد.

لا أحد يعلم ماذا حصل بعدما أسعف المسعفون ياسر برفقة نجد، خلا المكان منهما .. وبقية الأجساد السبعة ما زالت في مكانها لا تتحرك، وكأن أحدٌ ما أوقف شريط حركتهم..

لم تشعر يمامة بموقفها ولا بوجودها الغريب داخل المجلس بمقعدها بدون حجابها والرجل الغريب يقف قُربها حيث كان يقف نجد يستند على الجدار ونشيجه لا يتوقف ويوسف في مكانه ذاته أمامها يقف برجفة تسري بكفيه، لم تشعر بموقفها الخاطئ وناصر يجلس في مكانه بلا حراك عيناه تضيع في فراغ قاتل، لم تستنكر وقوف خالتها بعباءتها خلف منى وهديل الملتفتان بحجابيهما .. لم تستوعب ما حلّ بياسر ولا حضور الإسعاف ومغادرة نجد معهم .. لم تستوعب كل هذا الخرس إلا عندما شعرت بعجلات مقعدها تُسحب وتتحرك بسرعة مخيفة لتُخرجها من المجلس، قاومت خالتها بجنون حتى تُعيدها إلى المجلس دون

جدوى.. صراخهما أذاب الثلج عن شفتي هديل لتنطق أخيرًا بعد صمت طويل برجفة واستنكار :" يمه .. وش كنتِ تقولين؟ "

" ايه نجد أخوك يا بنتي .. "

كانت تُجهز نفسها لصوت أمها، ليصلها صوت والدها بدلًا عنها .. يفجّر كلامه تباعًا، يُلقي بطامته على يوسف وناصر وهديل ويمامة التي قاومت خالتها لتعود أخيرًا .. يثبّت عينيه بناصر الذي لا يبدو بأنه يعي أي شيء ليُؤكد له بأن نجد ابنه هو .. وبأن والده وأم ياسر ونورة يعلمون بكل هذا ..

لا صوت يُقاطعه سوى صوتين باكيين مكذّبين، يمامة وهديل .. يستنجدان بيوسف علّه يؤازرهما ويكذّب كل شيء لكن لا جواب منه سوى رجفة قوية تتملّك يديه، يقف يعقوب أخيرًا متحاملًا بثقل كبير ليتّجه إلى ناصر، يجثو على ركبتيه أمامه .. يرق صوته حدّ الهمس، يصارع بكاءه وهو يضع كفيه على ركبتي ناصر :" أبيك تعرف إن مافي وجع سلبني حياتي أكثر من وجعي على أخوي يوسف إلا وجع نجد .. كنت جبان، بس الحين أسلّم لله كل أمري.. جيت الرياض لسبب واحد، عشان ينتهي كل شي وأتطهر من ذنبي

.. ما جيت أهدم فوق كل هالركام، جيت آخذ الغفران من ربي قبل أي أحد "

يقف تاركًا ناصر على جموده، لا يتحرّك حتى لارتفاع الأصوات بعد اختفاء يعقوب .. بكاء هديل وأمها التي تحتضنها وتمنعها من اللحاق بأبيها، لا يعلم كم مضى من الوقت وهو يجلس على المقعد دون حراك .. ساعة، ساعتان، لا يعلم .. يرفع رأسه عن الفراغ بثقل ليجد يوسف جالسًا قُرب باب المجلس بجمود مشابه له وابنة يعقوب تنهال على صدره بضربات قبضتها الناعمة وهي تبكي بضعف .. وكأنها تستنجده لفعل شيء ما، أو اللحاق بوالدها الذي غادر ..

فجأة يشعر بدوار حاد، يقف مسرعًا ليخرج من المجلس إلى دورة المياه .. يستفرغ كل ما في جوفه، تمنّى لو استفرغ قلبه وعقله وكل ما فيه حتى يتخفف من ثقله، ما أن خرج من دورة المياه تضيق عيناه وهو يرى هديل وأمها بعباءاتهم قُرب الباب الخارجي وفتاة أخرى بعباءتها تستقبل هديل بأحضانها لتسندها محاولةً تهدئتها، لو لا صوتها ونظرتها المطولة ذات المعنى له لما أدرك أنها ريم .. تجر هديل خارجًا ليختفي صوت النحيب مخلفًا صمم مخيف في أرجاء المنزل.

-

تنفسه يعلو ويهبط، صداع حاد يفتت رأسه .. طنين حاد يخترق أذنه، كل هذه الفوضى بداخله لا تعكس الوجوم الذي يغطيه.. يجلس منذ ساعات بمكانه دون حراك، يرفع رأسه بتلقائية للممرضة :" are you ok? "

يقف بإرهاق ليُسند ذراعيه لأقرب طاولة ماسحًا وجهه المرهق بكفيه .. كإجابة لسؤالها، لا ليس بخير أبدًا، كيف يكون بخير وهو لم يحافظ على والده؟ منذ إصابة والده بنوبات ارتفاع ضغط دم وهاجس كهذا يسيطر عليه، ماذا لو أُصيب والده بجلطة؟ لن يُسامح نفسه أبدًا .. أتت تلك اللحظة سريعًا، كاد يجنّ عندما أخبره الطبيب بتعرض والده لسكتة دماغية.. احتضنه مطولًا وهو يبكي قبل دخوله غرفة العمليات كمن يخاف فقدان هذا الحضن، قبّل جبينه قبلة طويلة وهو يردد (الله لا يوجعني فيك، الله لا يوجعني فيك، أعوذ بالله من وجعي عليك ..) ومنذ ذلك

الحين وإجراءات طويلة لا تتوقف .. أشعة، فحوصات، اجتماعات طبية .. إجراء عملية عاجلة..

حتى بعد انتهاء العملية وطمأنة الطبيب له لا يشعر بأنه بخير، لن يكون بخير حتى يجلس بجواره والده .. يحدّثه ويبتسم له.

يحاول أن يجمع تركيزه والطبيب يبدأ نصائحه :" نجد، أبوك بخير لا تخاف .. احمد الله ما صارت مضاعفات أشد، بعد التوكل على الله وبعد العملية كل شي يقوم عليكم وعلى تقبله ونفسيته .. بيرجع طبيعي ويتحسن وممكن خلال كم شهر بس كل هذا يعتمد على عزيمته ومساندتكم له .. - يصمت قليلًا متذكرًا ليتابع - أفضّل تنادي أحد من العايلة يسمع النصايح والتنبيهات معك"

يقاطعه بتركيز :" اعتمد علي - يُخرج هاتفه - بسجّل صوت وبدوّن وبرتّب كل شي"

ليعود صوت الطبيب مجددًا :" خذ راحتك سجّل، وأنا بدوّن لك كل شي خارجي وبعطيك كتيب تمشي عليه .. أهم نقطة حاليًا مساندتكم المعنوية له، لا تعرضونه للضغط وبيسهل تعافيه .. في فريق كامل بيتابع معكم طول مدة

علاجه، إخصائي نفسي، إخصائي علاج طبيعي، ومن حسن الحظ ما تعرض جانب اللغة والتخاطب عنده لضرر ..."

يُتابع كل حرف يصدر من طبيب والده، يسأل عن كل صغيرة وكبيرة .. يطلب ورقة من الدكتور ليدوّن فيها -تحسبًا- (أخاف يضيع علي التسجيل أو أنسى، بكتب لو صار شي) لا يكتفي بالتدوين والتسجيل، ما أن انتهى حديث الطبيب يُرسل المقطع الصوتي الطويل إلى واتس آب أبيه ويوسف ويمامة وثامر وناصر، لا يكتفي بالواتس آب .. يُعيد إرسال ذات المقطع إلى بريدهم جميعًا بما فيهم نفسه.

يُعيد هاتفه إلى جيبه بزفرة حارة، يُسند رأسه على المقعد مغمضًا عينيه.. تهاجم رأسه أصوات ضبابية كأنها داخل قعر بئر، صوت خاله، يوسف، يمامة، وذاك الضيف الثقيل ..

" نجد "

كان نداء اسمه باردًا خافتًا إلا أن جسده فزّ سريعًا، يعقد حاجبيه غير واعٍ لوجود يوسف أمامه .. يوسف والرياض؟ منذ متى ويوسف في الرياض؟ ليهجم على عقله كل شيء .. عودة يوسف المفاجئة، حضور الضيـ... وكأن طنين رأسه شكّل حاجزًا عند هذه النقطة وعند كل ما حصل بالأمس.

" نجد؟! "

يقف مسرعًا متجاهلًا طنين عروق رأسه لينطلق بوجه يوسف :" وين كنت؟ ليه تأخرت! تعرف إن أبوي سوى عملية؟ صابته جلطة! وينكم؟ كان تعبان! ما يتحـ.."

يقاطعه يوسف ممسكًا بكتفه ليُجبره على الجلوس وتنفسه مضطرب :" نجد انت مو بخير .. مو بخير .. كلنا مو بخير، ما في أحد بخير.. شلون نكون بخير؟ "

قُرب يوسف يُزيد طنين رأسه حتى ظنّ أن عينيه انفجرت، يُغمضها بشدة مسندًا رأسه على الجدار .. لم يعد يسمع ماذا يقول يوسف، يشعر بخطى يوسف تبتعد وصداها يدوس على رأسه ليزيد الطين بلة.

لا يعلم كم ساعة مضت وكم من صلاة فاتته نسيانًا وفي أي يوم هو حتى سُمح له أخيرًا بالدخول حيث يرقد والده .. ما أن دخل سكنت جميع عروق جسده، طنين رأسه اختفى .. ضخّ دمائه المتفجّر رَكد لتنساب بهدوء، وكأنه نسيَ الدنيا كلها عند باب الغرفة ليلوذ إلى جنته، وإن كانت رؤية والده بهذه الحالة توجع قلبه إلا أن رؤيته يتنفّس وينظر إليه تُزيح وجعه..

يأخذ نفسًا عميقًا ليكبت كل صراعاته ويرسم ابتسامة دافئة مقبلًا على والده يقبّل رأسه وكفّيه :" الحمدلله على سلامتك يبه، تبي تخوفنا عليك الله يسامحك؟ - يعتدل جالسًا بجواره يمسح على رأسه وابتسامته ذاتها - الحمدلله عداك السوء وكلها كم يوم وتصير أفضل"

يزم شفتيه لعدم استجابة والده، عيناه ذابلة وكأن لا حياة فيها .. يتابع مصطنعًا المرح حتى يبث الحيوية فيها :" زواجي بنأجله لين تصحى، عشان كذا نبيك تصحصح وتلبّسني البشت بسرعة .. تعرف ما فيني حيل أنتظر يمام أكثر"

يشعر بذراع والده السليمة ترتفع بثقل خلفه لتحط على ظهره بخفّة، يستجيب لاحتضان والده العاجز .. يُسلّم رأسه لصدر والده، يكبت بكاءً أرهقه مستشعرًا وجع والده .. والده موجوع، يقاسي ألم جسده .. وهو بكل ضعف لا يملك من أمره شيئًا سوى استجابته لعناق والده.

يحاول جاهدًا ألا يضع ثقله على والده حتى لا يتألم، لا يعلم كم دام هذا العناق الحار على خفّته .. يفتح عينيه بانتباه شديد على صوت والده الثقيل :" نجد ... برسالة الغفران .. ورقة.. خذها"

يبتعد عن والده قليلًا :" أبشر يبه، بس تستقر حالتك أجيب الكتاب لك بكرة، ولو تبي أجيب المكتبة كلها بس .."

يعقد حاجبيه بتركيز لصوت والده الضعيف يُقاطعه بإنهاك :" الحين "

كان ينوي الاعتراض، إلا أنه كبت اعتراضه .. لا بأس، ما يأمر به والده سيُنفذ، لا يرغب بتركه وإن كانت دقائق معدودة .. إلا أن رغبته بتنفيذ جميع طلبات والده الآن تسيطر عليه.

يقبّل والده مجددًا، يمسح دمعة يتيمة عانقت خد أبيه ليسير مسرعًا إلى الخارج.. يجد يوسف في مكانه وعلى حاله منذ أتى ليجلس بجواره جامدًا لا يتحرك ينطق بسرعة وعجلة :" يوسف، ادخل عند أبوي .. بس أحذرك تفتح معه أي سيرة تضيق صدره، إذا ما عندك سوالف اسكت بس لا تتركه وحده"

لا يعطي يوسف مجالًا للرد ليطير مسرعًا إلى سيارته، يحاول تذكّر أسماء كتب قد تُسلي والده أثناء مكوثه في المستشفى .. طوق الحمامة، أحد مجلدات الأغاني، تأويل مشكل القرآن، البخلاء .. جميعها كتب قد حفظها والده

صغيرًا، حفظها كذلك نجد على يديه عندما كان في المرحلة المتوسطة .. لكنها أفضل سلوة له في أزمته هذه.

يصل إلى المنزل الخالي، لا وجود لأي أحد .. يسحب الكتب التي يحفظ مكانها جيدًا، إلا كتاب رسالة الغفران .. يستغرق وقتًا يبحث عنه، غير موجود في ترتيبه المعتاد .. يبحث على مكتب والده، لا يجده .. يضطر لفتح قفل درج المكتب ليبحث فيه، يزفر براحة وهو يجد الكتاب أمامه .. يُخرجه ليظهر له ظرف أبيض وسط الكتاب، يفتح الصفحة بتلقائية ليظهر له كامل الظرف يتربّع فوق صفحة ٤٩ التي تحمل كلامًا صغيرًا:

(أملى أبو العلاء المعرّي هذه الرسالة سنة ٤٢٤ هـ، وذلك ردًا على رسالة ابن القارح، وقد أملى هذه الرسالة، وهو في السن التشاؤم والانهزام من الحياة ...)

يعقد حاجبيه بتركيز شديد وهو يقرأ ما خطّه والده على الظرف (فلذّة كبدي، وأكرم عيسي .. حبيبي نجد)، يُزيح الكتب التي جمعها جانبًا ليجلس متربعًا على الأرض يستخرج الورقة التي بداخل الظرف.

-

تقف بتردد واضح أمام موظفة الاستقبال :" امممم عندكم مريض اسمه ثامر عمر العمر ممكن أعرف إذا خرج أو باقي موجود؟ "

ترفع الموظفة رأسها أخيرًا :" أنتِ من الأهل؟ "

هزت رأسها إيجابًا بتلقائية لتستوعب خطأها وتتراجع وهي تحك جبينها :" لا! بس بسـ.."

تقاطعها الموظفة وهي تعود لانشغالها :" أجل ارتاحي، ما أقدر أفيدك بشي"

تزم شفتيها بضيق، ترجع خطوتين للخلف إلا أنها تعود مجددًا :" اوك أنا قريبة له، بس من بعيد "

كادت تركض هربًا بسبب نظرات الموظفة التي بدا أنها ضاقت ذرعًا إلا أنها نطقت بسرعة وربكة لتزيد الطين بلة :" اوك اوك طيب عبدالله؟ كان ضمن المصابين "

تقف الموظفة بقلة صبر :" يا حبيبتي إذا ما وقفتِ أسئلتك المشبوهة بتخذ طريقة ثانية .. مو معقولة ما تعرفين إن إجراءات اللي تسألين عنهم أمنية"

ابتلعت غصتها داخلها لتبتعد، لا تعلم هذه الموظفة الغبية بالمصيبة التي حلّت عليها.. تحتاج ثامر، هل كل هذا كثير؟ هل أصبح غريبًا كما يقول ناصر وكما تقول الاستشارية النفسية حتى أنها لا تستطيع معرفة حالته؟ تحتاجه بشدة .. تحتاج لشخص يعرفها تمامًا ليتشارك معها صدمتها، يقف بذهول معها غير مصدّق .. ثامر الذي عرف أتفه وأبسط تفاصيلها، كيف يفوته أمرٌ كهذا؟

تلجأ للشخص الوحيد الذي بقي لها، لن يُشاركها صدمتها .. لن يفكّر بحلول جهنمية كما يفعل دائمًا، عاجزٌ هو عن فتح عينيه وإدراك ما حوله، لكن لا بأس ستثرثر عن صدمتها أمامه علّها تخف ..

تفتح البوابة، لتسير وذهنها مشتت .. هل يعرف ثامر بحال خالد؟ ماذا حصل ذلك اليوم؟ سمعت ذلك مرارًا من الجميع لكنها لم تسمعها منه.. هل كان خائفًا؟ هل يتوجّع الآن؟

تتجمّد في منتصف طريقها إلى غرفة خالها، لحظة! .. هل خرج ثامر من مخيلتها ليسير بعيدًا عنها! هل من رأته ثامر؟

تخرج منها شهقة بابتسامة عريضة لا تُسيطر عليها، تلتفت بسرعة حتى تلحق بالطيف .. ليغيب عنها خلف

البوابة المتأرجحة، تترك كل شيء خلفها لتُسرع خطاها إليه بفرحة طفل يلتقي بأمه بعد سفر طويل..

تفتح الباب بسرعة وشفتاها تكاد تخرج أقوى صرخة (ثامر) إلا أن صرختها تموت داخلها وابتسامتها تختفي ليحلّ محلها الذهول على رؤيته يحتضن اليمامة التي تبكي بكاءً مفجعًا.

ماذا حصل؟ بكاؤها هذا ينبئ عن كارثة حلّت، هل أُصيب عمّ ثامر بمكروه؟ صادفته ثلاث مرات متفرقة في المستشفى أثناء زياراتها لخالها.. كان يبدو كل يوم بحالٍ أفضل عن سابقه، هل تدهورت حالته فجأة؟ تسمعها وهي تردد كلامًا لا تفهم منه سوى (نجد)، وهل تصدر مصيبة من (نجد)؟ على حدّ علمها نجد أكثرهم حظًا وأكثرهم بُعدًا عن المصائب (أبوه راضي عنه وداعي له) كما يقول ثامر دائمًا، أي مصيبة تلحق اسم نجد؟ هل طلّقها خطيبها؟ تدور في مخيلتها جميع الأوهام .. ويبدو ثامر مثلها تمامًا لا يعي شيء غير أن الهلع والخوف يتملّكانه راجيًا من اليمامة الهدوء حتى يفهم ما تقول.

كادت تقترب لتُشارك ثامر في تهدئة اليمامة وربما تهدئته هو، إلا أنّ امرأة أخرى اقتربت بسرعة لينطق ثامر مستنجدًا :" خالة! وش صار؟ "

تعقد حاجبيها بعدم استيعاب، خالته؟ لا تعرف خالة سوى اليمامة.. لتتفجّر إلى ذاكرتها فجأة (زوجة خال أمه) ابنتها سمر! تنفض اسم سمر من رأسها لتركز على ارتباكهم، ثامر يعود لضمّ يمامة له مهدئًا دون أن يفهم ماذا حصل مرددًا :" لا تخافين .. كل شي بخير، نجد بخير، يكفي يمامة .. لا تفكرين"

كادت تموت ضحكًا ولو لا وجود عقلها لذهبت إلى اليمامة لتخبرها أنها أعلم الناس بماذا تعني (كل شي بخير) عند ثامر، كل شي بخير هذه تعني أن لا شيء بخير وأن كوارث حصلت وستحصل .. إذن فلتربط اليمامة على قلبها، ثامر يجب أن تُصدر بحقه منع صارم لنطق هذه الكلمة، وإلا سيبتلع الكرة الأرضية ثقب أسود!

تتجمّد في مكانها وهم يبتعدون، ثامر على وجعه يُسيّر مقعد اليمامة وهو لا ينفكّ عن تهدئتها .. تعجز عن اللحاق بهم، ومن هي حتى تلحق بهم؟ تدعو الله بقلبها أن يُصيب ثامر هذه المرة ليكون كل شيء بخير .. صدق ثامر عندما

أخبرها بأنهما يجلبان المصائب، ما أن خرج من المستشفى تهجم عليه مصيبة أخرى تجهلها ..

تعود أدراجها إلى غرفة خالها على أمل أن ترى ثامر يومًا ما هنا .. بات المستشفى المكان الوحيد الذي ترجو لقياه فيه.

-

طول طريق العودة يسمع أنين اليمامة وبكاءها وخالتها لا تنفكّ تردد :" مصيبة"

كل ما فهمه بأن نجد ويوسف اختفيا منذ الأمس بعدما كانا في المستشفى بصحبة عمه المصاب بجلطة! جلطة؟ اختفاء؟ يوسف ونجد؟ كل هذا ثقيل على رأسه .. أي كارثة حصلت؟ يدخل اسم يعقوب وهديل بين المصائب، ليتضح له جزءًا يسيرًا .. ظهور يعقوب وراء جلطة عمه، لكن ماذا عن اختفاء نجد؟ وفي وضع والده الحرج!

يتوقف عن طرح الأسئلة مهدئًا اليمامة علّه يسترخي قليلًا حتى يتمكّن من الاستيعاب، يتركهم في منزله ليستقل سيارته

المركونة منذ فترة وينطلق بها إلى المستشفى الذي يرقد فيه عمه، رؤيته لعمه لم تجدِ نفعًا .. كان كالجثة الهامدة، لا يتحرك .. سوى عينيه التي تنطق حزنًا وحروفًا ثقيلة يرجو بها ثامر (نجد ويوسف يا ثامر)

كان يظن بأنه سيجد ناصر برفقة عمه .. لكن لم يكن هناك سوى خال أمه الذي فجّر عليه قنبلة استعصى عليه فهمها (يعقوب يقول نجد ولده!) تجحظ ملامحه، لا يصدق هذا الهراء .. يردد محاولًا إقناع خال اليمامة (صدقني انت مو فاهم، انت فهمت خطأ ..)

ليخرج من المستشفى بدهشة كيف لرجل كبير أن يُصدق كلامًا كهذا؟ يُرخي رأسه على المقود .. أوجاع جسده المصابة تعود، صداع رأسه يتجدد .. يتذكر أدويته التي ألقى بها في المنزل، لينفض عنه وجعه يقود السيارة إلى شخص وحيد يعلم تمامًا أنه سيجد الجواب عنده، شخص وحيد سيقف معه ويسانده .. مثلما يفعل دائمًا.

ليزداد ذهوله وهو يرى تجمّع سيارات فارهة ورجال أمام باب منزل ناصر! يوقف سيارته خلف منزل ناصر ليترجل منها .. يتجه نحو مجموعة مراهقين يراقبون المشهد عن بُعد :" وش صاير؟ "

تهجم أصواتهم كلٌّ يريد سرد الحدث كما سمعه (صار لهم أربع ساعات ينتظرونه! جايين يبون ياخذون منه عفو وتنازل، قالوا بيعطونه ثلاثين مليون! ، أبوي يقول زمان انقتل أخو المحامي وهو صغير والحين رجع القاتل، مهوب رجال وهو ببيته مقفل بابه بوجيهم، تخيل موجود معهم الشيخ عبدالرحمن! وفلان وفلان..)

يهز رأسه إيجابًا ليحاول التملص منهم، ما أن يبتعد ينتقلون لآخر ساردين له كل ما حصل كنشرة إخبارية، بدا كل شيء واضح أمامه.. ما أثار دهشته تطور الأحداث سريعًا، إذن أمر يعقوب كُشف للجميع.

ما يهمه الآن كيف يصل لناصر؟ وهل هو حقًا في المنزل؟ يقف متأملًا الباب الخلفي الصغير .. يحسب حساباته سريعًا وما هي إلا أقل من دقيقة حتى صعد فوق سيارته، يتمالك وجعه متسلقًا الباب.. ليست المرة الأولى التي يستخدم هذه الطريقة، مراهقته حافلة بتسلق جدران المدرسة .. علاوة على ذلك لم ينقضِ شهر على تسلقه منزل ناصر.

ما أن هبطت قدماه أرضًا يُطلق صرخة تألم، يجلس مستندًا على الباب ليهدّأ وجعه .. يرجو الله أن يجد ناصر

بعد كل هذا لا أن يذهب تعبه سدى، يقف ليسير إلى الداخل بعرج..

من رآه في الداخل لا يُشبه ناصر، هالات عينيه تُخفي ملامحه .. وشعره المبعثر لا يرتبط بناصر الذي يعرفه، مستلقيًا على المقعد وعلى الأرض تنتشر أكواب قهوة ورقية حوله .. والشاشة الكبيرة أمامه تعرض ما تنقله كاميرات المراقبة الموزعة على أبواب المنزل، لا يُصدر ردة فعل لوقوف ثامر .. يسحب بطانية خفيفة ليتلحف بها على صوت ثامر :" ناصر! وش صاير؟ "

يضيق ذرعًا من حالته، يتقدم متخطيًا أكوام الأكواب ليسحب لحاف ناصر بقلة صبر :" اصحى! أنا ما عندي غيرك يشرح لي اللي صار! عمي صابته جلطة ومرمي وحده بالمستشفى ونجد ويوسف ما ينعرف لهم مكان وانت هنا وأمة محمد كلها واقفة عند بابك ومنسدح لي ببرود؟! علمني وش صار؟ احكي لي يمكن أقدر أفهم شي واحد وألحق اللي باقي ما راح! "

يقف أخيرًا بتثاقل، يتجه نحو آلة القهوة ليعدّ كوبًا جديدًا وبصوتٍ مبحوح :" وش صار؟ قل وش ما صار"

يرتمي على المقعد مسترخيًا علّ أوجاع إصابته تخفّ محاولًا التركيز على كل كلمة تخرج من ناصر :" كنت أعرف إن لكل شي ضريبة .. وكنت من سنين طويلة أحسب حساب اليوم اللي بقتص فيه من يعقوب، حاسب حساب ياسر .. خويه، حاسب حساب أهله .. بس اللي ما حسبت حسابه.. "

يُغطي وجهه بكفيه كمن يُصارع ألمًا لبرهة من الوقت، تضيق عينا ثامر .. هل ارتكب خطأً جسيمًا بإخباره عن هوية يعقوب؟ هل ما حصل ويجهله يستدعي كل هذه الفوضى والحزن؟ يصله الجواب من ملامح ناصر المسودّة بعدما أزاح كفيه عن وجهه :" تعرف وش اللي يقتلني؟ إني قضيت عمري جازم إن سبب وجع الجوزا وجنون أبوي هو يعقوب .. والحين بعد كل هالعمر أكتشف إن اللي موجعهم نجد؟! .. طيب ليه كذبوا علي؟! لأني كنت وقتها صغير جاهل ما يحق لي أعرف! زين أبوي بآخر عمره ما كان بوعيه، ياسر شلون كان ينام الليل وهو يعرف إن نجد أحق الناس بهويته! ويعرف إني أقرب الناس له!"

يهز رأسه نفيًا بعدم تصديق وبذهول :" تكفى ناصر .. لا تقول إنك مصدق السوالف ذي؟!"

" سوالف؟! .. - يضحك بسخرية موجعة ليرمي ورقة قديمة بحضن ثامر، وكمن فقد السيطرة يصرخ- ليه عقد زواجهم بهالتاريخ؟! بعد ولادة نجد بشهرين؟! "

يقاطعه مجددًا :" لأنك تعرف إنهم كانوا بهجرة مهجورة ومنعزلين عن كل البشر وما وثقوا أي شي رسمي إلا بعد ما رجعوا داخل الرياض"

يسحب الأوراق من ثامر الذي لا يبدو عليه استيعاب أي شيء :" روح يا ثامر .. مو ناقصك"

يقف متجهًا إلى الخارج بقلة صبر، لا ينقصه جنون ناصر.. أي وباء حلّ على الجميع حتى يصدقوا غباءً كهذا؟ أي سحر يملكه يعقوب ليزرع في عقولهم كلامًا فارغًا حتى ينفذ بجلده؟! حتى ناصر لم يسلم من سحره..

" نجد ويوسف .. بالمزرعة"

تتوقف خطاه قُرب الباب على صوت ناصر، ليعود مجددًا إليه بعجلة ليجده مستلقيًا بلحافه على ذات المقعد، ينطق بعدم تصديق :" متأكد؟! "

يسحب كوبًا آخر ليرتشفه، يومئ رأسه إيجابًا بثقل .. وكأن ثقلًا كبيرًا انزاح عن كاهل ثامر يطلق زفرة ارتياح كبيرة :" الحمدلله .. "

وقبل رحيله يلتفت مجددًا لناصر بهدوء :" تبيني أطلعك؟ "

يسحب مفتاحًا على الطاولة الصغيرة ليرميه نحو ثامر الذي تلقّاه بتعجّب ليعود إلى استلقائه :" مفتاح الباب الثاني، روح واعتقني"

-

سوادٌ حالك كل ما يراه، لا يعلم هل هو نائم؟ أو في دوامة دوار حاد؟ أو أن هذا هو الموت؟! لا يسمع سوى صوت قديم، يعود لأحد عشر عامًا .. صرخة أمه، أنينها، صوت احتكاك السيارة .. ومشهدٌ واحد لم يزره منذ فترة طويلة ليعاود الظهور منذ الأمس.. أصابع كفه تعانق زجاجة حادة ودماء حارة تغطي رسغ يده، نجا من الموت في المرة الأولى ليسير إليه بقدميه في المرة الثانية ..

منذ الأمس يُصارع غرقه القديم، ينهزم آلاف المرات.. ومرة يفوق من غرقه، منذ نطق والده (الحق نجد) وهذا الغرق يُنهكه ويسلب طاقته ..

خوفٌ حدّ الهلع أصابه ومنذ فترة طويلة لم يزره وهو في سيارة أجرة تتبع طريق نجد من خلال تتبع موقعه عبر الهاتف، هلعٌ كاد يخنق أنفاسه.. حاربه مرحبًا بفكرة الموت، تلك الخردة الحديدية التي كبر متوجسًا منها لا بأس أن تُنهي حياته في هذه الليلة ليختفي كل شيء بما فيها هذا الخوف.

للحظة، كاد يُنهي طريقه عائدًا إلى المنزل تاركًا نجد خلفه يواجه صدمته وحيدًا .. ما أسوأ شيء قد يفعله بنفسه؟ يُنهي حياته؟ يقتل نفسه كما حاول هو مسبقًا؟ فكرة سديدة .. لا شيء في هذه الحياة يستحق العيش فيها، حياة نجد مُلكه وحده .. كيف سيعيش فيها بعد كل هذه الخدعة؟! وحده من يملك حقّ تقرير حياته وموته، لا يحق لأحدٍ أبدًا بما فيهم والده منعه من اتخاذ قراره .. والده؟!

تضيق أنفاسه عند هذه النقطة، ينبض رأسه بصداع حاد.. دوامة بدأ باستيعابها تفتك به.

" يوسف "

يفتح عينيه سريعًا على صوتٍ هادئ مرتعد يُنادي باسمه، لتقابله حشرة صغيرة حمراء تسير فوق خده .. يعقد حاجبيه لتتضح له الرؤية، شجرة سدر تُلقي بظلالها عليه .. يشتمّ رائحة الغبار، نعم .. هو في مزرعة ناصر الصغيرة،

ينام فوق بساط مهترئ تُغطيه التربة .. وسادته الرمل ولحافه الشجر، يعقد حاجبيه لرؤية الجسد الجالس قُربه على البساط متكئًا على الشجرة وبيده ورقةً يتأملها بضياع .. ثامر؟! منذ متى لم يرَ هذا الوجه؟! الوجه الباقي من أمه.

يطوي الورقة المكتوبة بخط يد عمه، الورقة التي تهدم كل شيء .. يطوي معها صدمته بما فيها، كل ما فيها كذب .. يعلم هذا تمامًا ومتأكد منه، ليعود بأنظاره إلى أخيه المستلقي ينظر إليه بعقدة حاجب :" وينه؟"

ما زال يحملق فيه دون أي ردة فعل، يفقد صوابه .. يقف فوق رأس أخيه ليطبطب على خده بسرعة علّه يستعيد وعيه :" يوسف!! وين نجد؟؟ جاوبني! "

يُغمض عينيه بقوة، نجد؟! أين هو نجد؟! لم يتحدث معه أبدًا البارحة .. لحقه إلى المزرعة ليجده ملقىً على الأرض فوق هذا البساط دون حراك والورقة بيده .. ارتمى هو الآخر بجانبه، لم يُلق بالًا للعامل الذي أتى خائفًا يُحادث نجد إلى أن ملّ من صمتهما ورحل.

يفزّ جالسًا مستعيدًا وعيه مشتتًا أنظاره عمّا حوله :" كان هنا .. وينه؟! "

يطلق ثامر زفرة حارة بإرهاق، ما إن ظن بأنه وصل إليه يكتشف اختفاءه مجددًا .. ينقذه العامل وهو يخبره بأن نجد غادر على قدميه منذ نصف ساعة، ينسى يوسف خلفه ليلحق بنجد ..

تجمّد في مكانه للحظة على رؤية نجد يقف على حافة الجبل، هل هو بوعيه؟! لا يبدو كذلك أبدًا .. يقفز إليه مسرعًا بصرخة :" نجـــد.."

وكأنه مصابٌ بالصمم لا يسمعه، يُتابع خطواته إلى الحافة .. لا يعلم ثامر كيف انبثقت منه هذه السرعة اللا شعورية، كان كل ما يراه هو جسد نجد .. كاد يُمسك به، إلا أن ذراعًا غليظة امتدت إليه لتسحبه وتُلقي به بعيدًا عن نجد ..

اتسعت أحداقه غير مستوعب لما يفعله يوسف، لماذا يمنعه عن نجدة نجد؟! ليصطدم بنظرات باهتة رمادية من يوسف وهو يقبض على كتفي ثامر مانعًا حركته :" اتركه .."

لوهلة تجمّد في مكانه، هل هذا يوسف؟ ما الذي يقوله؟ ليهتز جسده إثر صراخ يوسف :" مافي أحد له علاقة باللي يسويه نجد.. اتركوه ينهي حياته مثل ما يبي.. عطوه خياره الوحيد .. بعد كل اللي صار تبونه يعيش؟ شلون تبيه يعيش

يا ثامر؟ الموت أرحم له .. صدقني مافي أحد يعرف هالشي كثـ.."

يبتلع كلمته مجبرًا إثر لكمة قوية فجّرت الدماء من فمه، وها هو جسده يرتطم على الأرض بقوة .. عندما فتح عينيه كان ثامر قد طار كقذيفة إلى نجد ليسحبه هو الآخر بقوة مبتعدًا عن الحافة .. يعود ليُغمض عينيه، تعود له الصور الضبابية .. دماء شريانه، نجدة نجد له، بكاؤه، وجوده في المستشفى برفقة نجد، نجد وهو يُمسك بكفه يلفّ حول رسغه سبحة خاله ..

يُغطّي وجهه بكفيه، لو أن نجد فقط تأخر ذلك اليوم قبل ثلاث سنوات .. لو تركه يموت، يتحرر من وجعه.. لكان الآن بخير .. لتخلّص من سواد نفسه، نجد لم يكن يعلم أبدًا ماذا يعني أن يبتلع روحه ثقب أسود داخل جسده، أن لا فرار من هذا الثقب .. ظنّ نفسه تخلص من سواده، ليكتشف الآن أن كل ما كان فيه مجرد كذبة .. ليته لم يصدّقها.

يعقد حاجبيه بوجع، ما هذا التعب الذي يفتك بروحه وجسده؟ ماذا يقول؟ ماذا كان ينوي فعله؟ هل كان سيدعم موت نجد قبل قليل؟ ما هذه الدوامة المقزّزة؟

فجأة شعر بكفّي ثامر تسحبه وتنتشله، تهزّه بقوة :"
يوسف! انت مو بوعيك .. اصحى، أنا بحاجتك الحين ..
تكفى اصحى .. مو وقت ضياعك، صدقني اللي فيني مكفيني
.. بس ننتهي من كل هذا أوعدك أتركك براحتك، بعتقك
بس ساعدني .. لو بيدي أقسّم نفسي لأجزاء بقسّمها، بس
مو بيدي! تكفى الحين صحصح .. مالي غيرك"

يبتلع ثامر بقية رجاءاته بذهول سرعان ما تحول إلى
ضعف ويوسف يُلقي برأسه على كتفه ليبكي بكاءً موجعًا، لا
بأس في أن يبكي .. سيطبطب على كتفه ورأسه حتى يُفرغ كل
بكائه على كتفه، المهم أن يفوق من صدمته ..

يُسنده واقفًا، يُسيّره معه إلى السيارة .. حيث نجد يجلس
في مكانه تائهًا دون أي ردة فعل، لا يبكي .. لا يصرخ، لا
يتكلم، لا يسمع، لا يتحرك .. كأنه تحوّل إلى آلة يحرّكها ثامر
كيفما يشاء.

يسير بالسيارة تحت وطأة الصمت، لا صوت سوى صوت
أنفاس يوسف المضطربة خلفهم .. يتلفّت للخلف كثيرًا
يطمئن على أخيه ليجده في كل مرة ملصقًا رأسه في مقعد
نجد الأمامي، لا يعلم هل هذا بسبب فوبيا السيارات التي
يُعاني منها أم ليهرب من صدمته ..

يوقف السيارة أمام مجمع سكني افتقده كثيرًا حتى ظنّ أنه سيُفارقه إلى الأبد، يُسيّر نجد إلى باب الشقة.. يدخلها ليجدها كما كانت عليه، لوحات خالد ورغد .. يُدثّر نجد بفراش خالد، يتركه خلفه مسيّرًا بحنين متأملًا بقايا خالد ورغد .. يتلفّت كثيرًا متوهمًا صوتهما، ليعود إلى واقعه الخالي منهما .. كانت أولويته الأولى بعد خروجه من المستشفى رؤيتها والاطمئنان عليها، ليتفاجأ بفوضى كل شيء .. كم كان يتهرّب من مسؤوليته صغيرًا اتجاه أهله، ليجد أربعتهم الآن على عاتقه .. حتى ناصر ينضم إلى همومه الكبيرة، اشتاق للوقت الذي كانت رغد أكبر همومه .. همٌّ أحبه واستملحه حتى أصبح يسير إليه بنفسه، همّ يولّد فيه الحياة لا هموم تجعله يقف عاجزًا عن فعل أي شيء ..

*•

يا حادي العيس قد نفنى وقد نصلُ ..

*•

الورقة السادسة والعشرون

*•

يُرخي جسده المنهك بعد سيرٍ طويل على المقعد الخشبي في الحديقة التي لا تبعد عن شقة ثامر سوى بضع خطوات، لا يعلم منذ متى يسي وكم شارع قطعه.. منذ خروجه من السجن بعد زيارة يعقوب ظهرًا حتى الآن.

زيارة سريعة لم يبتغِ منها شيئًا سوى ترميم ما هدمه بزيارته الأولى قبل أيام عديدة، بعد انهياره ذاك في مزرعة ناصر .. كان ما زال تحت تأثير انهياره، قصد السجن ليس لزيارة يعقوب والاطمئنان على حال رجلٍ ينتظر قصاصه .. بل ليسمع الحقيقة للمرة الثانية، والثالثة والرابعة .. يذكر كيف انفجر بوجه يعقوب، كيف لامه على كل شيء .. كيف انهال عليه برصاص من لسانه وهو يردد (موتوا بذنوبكم،

مافي أحد مسامحكم، جهنم تنتظركم) نعم جميعهم .. بما فيهم نجد شقيق ناصر الذي ابتدأ معه كل شيء، وأبوه والجوزاء ويعقوب وحتى والده هو..

جميع من شارك بهذه الكارثة التي لا دخل له أو لنجد واليمامة وناصر وهديل فيها إلا لكونهم حاضرًا لماضي من رحلوا ..

كان قاسيًا ولطالما رافقته القسوة بأسوأ حالاته، محطَّمًا .. لم يهدأ حتى بعد خروجه من زيارة يعقوب، رغبة مُلحة بأن يُفجّر كل شيء بوجه الجميع .. كل بروده وهدوئه القديم فجّر داخله نارًا مشتعلة، كان ينوي شنّ هجوم مشابه على والده، أليس شريكًا في الجُرم؟ ألم يكن أكثر الناس حبًا لنجد ونجد أكثرهم حبًا له؟ أهذا هو الأب المحب؟ هذه ليست إلا أنانية مفرطة ..

إلا أن ثامر أوقفه بكل ما أوتي من قوة .. لم يوقفه فحسب، بل منعه من رؤية والده ..

(انت مجنون مو واعي! بتودي أبوك بستين داهية .. انت جالس تهدم كل شي، متى ما وعيت أخذتك بنفسي تشوفه)

حتى هديل لم تسلم من جنونه، قصد منزل عمها .. كانت بأمسّ الحاجة إليه، إلى شخص يعرفها تمامًا .. لا إلى أقرباء

تكتشف وجودهم للمرة الأولى، هرعت إليه .. ليقابلها بوجه لاهث مجنون يردد (تعالي نهرب ونتركهم، نطير لأي مكان بالعالم وحدنا .. بس نبعد عنهم) كيف يطلب منها الهرب معه وترك أبيها يُقاسي وجعه، ينتظر يومه الأخير؟ هل يعلم ماذا يعني والدها؟ كيف يطلب منها جنونًا كهذا؟ أليس من المفترض أن يقف بجوارها يشدّ على يدها حتى يعود أبوها إليها؟ طلب منها الفرار معه لتهرب منه هو وتتركه خلفها ..

لم يكن يتوقع بأن جنونه هذا صوابًا، جنون أفرغه دفعة واحدة ليستعيد نفسه الآن مدركًا ومصدقًا لكل شيء.. لو لم يفرغه، لكان ما زال يعيش في دوامة ضياعه وصدمته كنجد أو ناصر أو حتى هديل واليمامة..

يفترش العشب مغمضًا عينيه متذكرًا وجه يعقوب اليوم، زاره حتى يحاول إزالة أثر كلماته الجارحة في المرة السابقة، كان هادئًا جدًا .. وأول ما نطقه حتى يخفّف شعور الذنب على يوسف (شلونه أبوك؟)، كان مستسلمًا وكأن سلام الدنيا بأسرها حلّ عليه، ومن ناحية أخرى كان يوسف هادئًا وكأن الثائر بوجه الجميع قبل أيام رحل عنه .. دخل بهدوء وخرج بهدوء مماثل.

الشفق ينشر حمرته، والبدر يرسل نوره قبل أن تسود السماء.. يعقد حاجبيه فجأة، البدر؟ هل انتصف الشهر حقًا؟ أليس من المفترض أن يكون قد عاد ومنذ أيام إلى الغربة مجددًا؟

يُخرج هاتفه ليتفقّد بريده، يُحاول أن يُشغل نفسه بأمر دراسته هربًا من الفوضى التي يعيشها وتنتظره، يجد طلب اعتذاره قيد الدراسة .. يُخرج زفرة حارة ورسالة نجد الأخيرة تظهر له مجددًا، تسجيل صوتي لحديث الدكتور .. يعيد هاتفه إلى جيبه مجددًا بزفرة أشد حرارة ..

يلمح سيارة ثامر البعيدة تسير بهدوء حتى تتوقف في موقفها أمام المجمع، وها هو يخرج منها حاملًا معلّب بيتزا ليختفي داخل المجمع.

يُغمض عينيه .. أنّى لثامر كل هذه القوة؟ هل هو كائن خارق غير طبيعي؟ كيف واجه الطوفان بكل هذا الصمود؟ هل هذا ما ورثه من أمه؟ ماذا عنه هو؟ ماذا ورث من أمه أو أبيه؟ .. يكاد يجزم أنه لم يرث سوى ملامح أبيه وصمت أمه.

يعتدل واقفًا، يعود أدراجه إلى الشقة .. ما أن فتح باب الغرفة الصغيرة استقبله منظر اعتاد عليه، ثامر يجثو على ركبته بجانب نجد يحاول إيقاظه.. بعد جُهد طويل يفيق،

يجرّه ثامر جرًا إلى دورة المياه، يُقفل الباب خلفه دون استخدام المفتاح .. ليعود مجددًا حيث يجلس يوسف بسكون.

يأخذ جرعة من دوائه ليرتمي على المقعد بإنهاك، ما زال يوسف يتأمل صموده.. كيف أخذ على عاتقه كل شيء، مرض أبيه .. صمت نجد وجموده المخيفَين.. وقوفه بجانب اليمامة التي لا يعلم يوسف عن حالها شيئًا، زياراته المستمرة لناصر .. تحمّله لكل جنون يوسف الذي لو لا وجود ثامر لدمّر كل شيء بما فيهم نفسه.

يفيق من تأملاته وحديث نفسه على صوت ثامر الذي اعتدل جالسًا :" شفته؟ "

يهز رأسه إيجابًا بهدوء، ليزفر ثامر بشدة ممسكًا برأسه:" ناصر رافض يتنازل، كل ليلة يزيد تمسكه بالقصاص أكثر"

يمتعض وجهه بضيق، متى ستزول هذه الغمّة؟ وإن زالت بتنازل ناصر أو بقصاص يعقوب.. لن يعود أي شيء كما كان، أكثر ما بات يخيفه هو ما بعد كل هذا؟ استنزفت الكارثة كل طاقتهم وحياتهم لن يخرج منها أحد سالمًا .. يخرج صوته ضائعًا كمن يبحث عن حبل نجاة :" وإذا انتهينا من كل هذا؟ وش بيصير بعدين؟ مافي شي بيرجع نفس ما كان! "

يعقد أصابعه ببعضها لينطق بثقة مُطَمئنًا يوسف :" يوم دفنت أمي كنت أشوف الدنيا كلها قفلت بوجهي، كنت أتوقعها النهاية .. بعد كم أسبوع اكتشفت إن الحياة ماشية، وقبل شهر يوم كان الرصاص يرتمي علي من كل صوب والسيارة تنفجر وراي كنت متوقع كل شي انتهى، ومثل ما تشوف .. هذا أنا موجود، كل ما صارت مصيبة نظن الدنيا وقفت .. بس هذي الحياة يا يوسف"

يُطلق ضحكة سخرية مشتتًا أنظاره :" يوم ماتت أمي كلها كم أسبوع وتعايشت انت، غيرك ما طلع من الدوامة إلا بعد سنين! .. وبعدين يا ثامر اللي يهون الموضوع أنا عارف إن أمي توفت، مو اكتشف كل شي كذب .. "

يقف مقتربًا من مقعد يوسف بجدية:" يوسف بهالوضع تحتاج ترمي كل أفكارك ومشاعرك السلبية بعدين، المهم تتصرف .. بعد ما ينتهي كل شي نجلس ونفكر ونندب حياتنا، أدري ما كنت مثل أي أخ تتوقعه .. بس نجد كان لك هالأخ! - يقطع كلامه فجأة مستوعبًا ما يقوله، هل أصبح نجد ماضٍ؟ هل نجد (كان) ولم يعد؟ يتابع لئلا يبدأ نقاش آخر أشد سوءًا - بصرف النظر عن كل اللي يقولونه .. بس أنا أعرف شكثر نجد قريب منك، أكثر من أي أحد حتى

أبوك، نجد كان دايمًا الشخص العاقل بيننا.. فكّر لو كنت بمكانه وهو مكانك، تتوقع يجلس مصدوم ينتظرك تضيع أكثر؟! "

يُغطي وجهه بكفيه حاجبًا عن أخيه صراع قلبه، يلتقط نفسًا عميقًا ليزفره براحة كفه قبل أن يُبعدها عن وجهه :" ثامر أنا مستعد أسوي أي شي، بس علمني وش أسوي؟!"

يعود ليجلس مجددًا :" إذا تبي تساعد فعلًا خليك حول أبوك هالفترة بالمستشفى، حالته سيئة .. اجلس معه وطمّنه على نجد، بس حاول تكفى تمسك لسانك .. ما نبي.."

يقاطعه بضيق مسرعًا :" ثامر لا عاد تكرر هالموال، كنت مجنون وما أفكر بشي .. صحيح للحين قلبي مليان عالكل بس مستحيل أأذي أبوي وهو بهالحالة"

يزم شفتيه بتفكير، لا يُمكنه التنبؤ بأفعال يوسف ومع هذ لا يملك خيارًا آخر .. يهز رأسه إيجابًا: "وأنا بحط كل حيلي بناصر عسى يلين شوي"

يستلقي ثامر مجددًا بإنهاك وسط صمت يوسف، سكون لا يقطعه سوى صوت انسكاب الماء .. يغرق ثامر بنومه مسرعًا بعدما نطق متثائبًا :" لا تنسى نجد بالحمام"

يقف يوسف ليُطفئ إنارة الغرفة مغلقًا الباب خلفه..
يستند على الجدار بين باب الغرفة ودورة المياه وسط ظلام الممر، لا ضوء سوى الضوء الصادر من أسفل باب دورة المياه، يخرج صوته قلِقًا :" نجد؟ "

يزفر بضيق، ينوي الوقوف وتفقّد نجد إلا أن إضاءة هاتفه برسالة من (ريم) استوقفته .. يتنهد وهو يقرؤها (أعرف إن اللي فيك مكفيك ولا ودي أزيدها بس لهديل حق عليك، راعي إنها تعيش أسوأ أيامها بمكان ما تعرف فيه أحد غيرك)

يتمتم بداخله بأن يارب كن عونًا لنا وهب لنا قوة من عندك قبل أن تُستنزف أرواحنا.. يارب فرجًا من عندك من شدة خيره نظنه معجزة من معجزاتك، هديل بحاجته .. وبحاجة والدها، والده بحاجته، نجد بحاجته، حتى ثامر يحتاج مؤازرته .. وهو بحاجة الجميع ..

صوت شهقة يليها سُعال مفاجئ يُعيد عقله إلى المتواري خلف الجدار، يفزّ سريعًا يطرق الباب بعجلة :" نجد؟؟ تسمعني؟؟"

عندما لا يصله سوى صوت السعال المتناقص يفتح الباب سريعًا ليظهر له جسد نجد مغمورًا بالماء وسط حوض الاستحمام عدا كتفاه ورأسه.

يسحب المنشفة بسرعة ليُلقيها على نجد ليستر جسده العاري أثناء إغلاقه لانهمار المياه وسط سكون نجد .. يُفرغ الحوض من الماء زامًا شفتيه بضيق، يُعيد أنظاره أخيرًا لنجد .. كم بات يهرب من النظر إلى عينيه، لم تعد تشبه عيني نجد التي يعرفها أبدًا، عينان فارغة عاجزة تولّد الضياع داخل أخيه أكثر.

يزفر بقوة مقتربًا منه، يُثبّت المنشفة المبللة ليوقفه .. يُخرجه من الحمام إلى مقعدٍ وسط الصالة ليتوارى داخل المطبخ .. دقائق معدودة حتى عاد إلى نجد حاملًا طبق البيتزا، يزفر بقوة وهو يرى نجد متشرنقًا داخل لحاف خفيف .. يبذل جهدًا آخر محاولًا إيقاظ نجد الذي ما أن يفيق من نومه يعود له مجددًا .. تستفيق عيناه أخيرًا، لكن وعيه ما زال نائمًا كعادته .. يرجوه بأن يتناول قطعة واحدة، غير أن صمته وشروده هما ما يجيبانه..

يضيق ذرعًا به، مهما حاول أن يتحلّى بقوة ثامر يفشل .. ثامر الذي لا يترك مجالًا لرفض نجد، يغصبِه على تناول لو

لقمة واحدة .. يدسّها في فمه بإجبار حتى يضطر نجد لبلعها .. أما هو، عاجز عن إطعام أخيه..

يعود مجددًا إلى المطبخ، ما أن همّ بفتح الثلاجة يتوقف متأملًا الورقة المثبتة وسط الثلاجة .. خط عريض عشوائي يدوّن مقادير وجبةٍ ما، يسحب الورقة ليتأملها عن قُرب .. ليس خط ثامر الذي يتميّز بخطه المميز، ولا يظنه كذلك خط الأستاذ خالد .. يقلب الورقة ليعقد حاجبيه والوجه المرسوم بالرصاص لفتاة نائمة يظهر له، نعم .. نفس الفتاة ذات الشعر القصير والتي لا تبدو أنها تجاوزت العقد الثاني من عمرها، هل نسيَ ثامر إزالة هذه الورقة التي تُخفي غموضًا أكبر عن حياته؟ في أول أيامهم في الشقة كانت مليئة بلوحات وأوراق مبعثرة تحمل صورًا كثيرة لذات الفتاة .. لم تلفت نظره ولم يشعر بوجودها وعقله مشوش بالكوارث خلفه، بعد ثلاثة أيام عاد إلى الشقة ولا أثر لأي لوحة تحمل وجه الفتاة أو توقيعها الغريب، لم يشعر بوجودها إلا وهو يجلس في ذات المقعد الذي ينام عليه نجد الآن ذات ليلة ونقاشه محتدّ مع ثامر، احتدام النقاش زاد حرارة جسده مما جعله يلتقط قطعة كرتون ملقاة أسفل مقعده يستعين بها لتهوية جسده الحار.. بترُ ثامر لحديثه

فجأة وتصلّب ناظريه على قطعة الكرتون بملامح متوترة جعله يتوقف عن هز مروحته الكرتونية ليعقد حاجبيه باستغراب وسرعان ما نقل أنظاره إلى ما بين يديه لتزداد عقدة حاجبيه وهو يرى رسمة لذات الفتاة، لم يعطِه مجالًا لاستيعاب المرسوم وهو يسحب قطعة الكرتون من يديه بهدوء كبير ثم يسير نحو الغرفة المغلقة ليفتحها ويدسّ قطعة الكرتون داخلها ويغلقها مجددًا عائدًا إلى أخيه.

يُعيد الورقة إلى مكانها على باب الثلاجة وهو يطرد صورة الفتاة من مخيلته، يسحب عصيرًا ليحمله إلى نجد .. بعد مشقة طويلة يُجبره على رشف العصير، وما أن عاد لغيبوبة نومه يهبّ يوسف خارجًا ..

يقطع طريقه سيرًا إلى منزل (الشيخ موسى)، أحد الأمور التي ما زال مكذبًا إياها هو أنّ هديل خطيبته ابنة يعقوب شقيق الشيخ المعروف!

بعد سيرٍ طويل يقف أمام المنزل الضخم، لا يعلم إن كانت زيارته بوقتٍ متأخر لائقة أم لا .. كل ما يريده اليوم إصلاح ما بيده، بدءًا من نفسه ..

لم يُدرك مدى قلة حيلته حتى قابل أم هديل، المرأة التي لم يعهدها سوى قوية .. لا تكفّ زفراتها، وكأنها تحبس

بكاءها عنه وأول ما نطقته سؤالها الموجع :" وينك يا يوسف؟! "

يُشتت نظراته عنها، لا يُمكنها تفهّم معنى اكتشافه بأن أخاه ليس أخاه، بأن سنين عمره قضاها تحت كذبة من نسج والده وزوجها، يزدرد ريقه ليخرج صوته ضعيفًا هاربًا من سؤالها :" زرت عمي اليوم، كان بخير "

تهز رأسها نفيًا بسرعة، يتجعّد وجهها بحزن:" مو بخير يا يوسف أنا أعرفه، خايف .. "

يعقد حاجبيه بضيق، يسحب كفها ليشدها بين كفّيه علّه يخفّف عنها :" ناصر بيتنازل في النهاية، أنا متأكد .. بس ادعي عمتي "

تطلق زفرة موجوعة :" والله حتى بنومي ادعي، كل صبح أمسك قلبي خوف إني فقدته"

يكتفي بشد كفها، تمنّى لو بوسعه فعل ما يهدّئ روعها .. لكنه مثلها تمامًا وإن تظاهر بعكس ذلك، يُنصت لهمسها وهي تردد (يارب يارب) .. لا يعلم كم مضى من الوقت، عيناه لا تنفك تتردد على الباب .. ينتظر قدومها، وفي كل مرة يخيب .. يفقد صبره ناطقًا بهدوء :" عمتي، شلونها هديل؟ "

تطلق زفرة أشد وجعًا :" ما أخبي عليك، فاقدة أعصابها.. اليوم طلعت على خوال ريم ورفعت صوتها عليهم وتمشكلت مع بنت عم أبوها وهي حرمة كبيرة لها مكانها، ومن وقتها مقفلة على نفسها بالغرفة، حاولت فيها تطلع الحين تشوفك بس رافضة"

يمسح وجهه بكفيه بضياع، ماذا لو وقف بجانبها منذ الليلة الأولى؟ لكن الله وحده يعلم مدى ما قاساه هو الآخر منذ ليلتهم تلك حتى استعاد وعيه مجددًا.. يرفع رأسه سريعًا على صوت منى وهي تقف:" بطلع أحاول معها من جديد "

يهز رأسه إيجابًا بامتنان :"ايه عمتي يمكن تلين شوي وأقدر أشوفها بس لا تضغطين عليها وعلى نفسك"

تخرج ليبقى وحيدًا، يهيئ نفسه لحرب تشنّها عليه حالما تدخل .. تمضي نصف ساعة وعيناه لا تنفكّ عن الباب، يترقّب دخولها ليُحبط بدخول العاملة المنزلية وبكلامها ((She is sleeping، تستخدم ذريعة النوم لتتهرّب من مقابلته.

يقف خائبًا خارجًا من المجلس، سيُحاول مرارًا معها .. غدًا وبعد غد وإلى الأبد حتى تُسامحه،

وبينما كان يعبر الممر إلى البوابة الخارجية توقفت خطاه فجأة على صوت بعيد :" انتظر! وين رايح"

يلتفت مسرعًا إلى مصدر الصوت، سرعان ما تنفّس الصعداء على رؤيتها تخرج من بين أشجار الزينة بوجه قاطب بحجابها الأسود .. ما أن اقتربت هاله منظرها، هالات عينيها تدفن شروق وجهها المُعتاد.. عيناها محمّرة منتفخة، كاد يخرج صوته مُسلِّمًا إلا أنها سبقته بجمود وبدون مقدمات :" أبي موقع بيت ناصر"

يعقد حاجبيه بعدم استيعاب لتنفجر بوجهه :"لا تطالعني كذا! يوسف لا تجنني مثلهم! كل اللي أبيه منكم بس تعلموني وين بيته! صعبة؟ أنا لو أعرف وينه ما طلبت منكم، مابي منكم شي اعتقوني واعتقوا أبوي وأمي من وقوفكم الكذاب بجنبهم بس عطوني عنوان ناصر عشان تفتكون مني.."

يُذهل لانفجارها، يقترب ممسكًا كتفها بهدوء:" هدي.."

تُبعد يده الممتدة لها بقوة لترتد إليه وبذات الانفجار :" شيل يدك عني! إذا ما تبي تعطيني الموقع اطلع ماني بحاجتك"

تمرّ ثوانٍ ثقيلة صامتة، ما زال وجهها مسودًّا قاطبًا وأنفاسها مضطربة.. وهو في مكانه جامدًا لا يستوعب هجومها، تذكّره بحاله الأولى.. ثائرًا ضائعًا يبحث عن أي شيء ليُلقي عليه اللوم. يُطلق زفرة ثقيلة ليعود صوتها متهدّجًا :" مصدوم؟ ايه هذي هديل اللي ما تعرفها .. - تخرج شهقتها مُجبرة لينفجر بكاؤها دفعة واحدة، تُغطي وجهها بكفيها تمنع دموعها لتعود مجددًا باندفاع- نفس ما عرفت يوسف .. اللي ما أعرفه، وينك عنّا؟ سحبت نفسك مننا ووقفت مع أهلك.. بس اللي ما تعرفه إني أنا وأمي مو بحاجتك .. مو بحاجة أحد"

كان واقفًا بلا حراك يُتابع جنونها، صوتها الشاحب لتنفسها المضطرب .. شهقاتها المتتالية وهي تحاول كبت بكائها. يمسح وجهه بكفيه، وما أن فتح عينيه تتسع بدهشة لرؤيتها تنزع سُبحته الغالية من معصمها بقوة لتتناثر أرضًا وترمي ما تبقّى منها إليه :" خذها مابيها، كنت تعرف من زمان إنها للي قتل عمي.. واللي تسبب لنا بكل شي، كنت تقول خليها تذكرك بإنك قوية! هذي الحين ما تذكرني إلا بقصاص أبوي وتقتلني "

يتمالك دهشته وحزنه الشديد على السبحة التي باتت تعني له الكثير منذ أهداها لها، ينزل أرضًا .. يلتقط حبّات السبحة المتناثرة بينهما بصمت طويل.. لا يعلم لماذا تتردد داخله ذكرى قديمة الآن .. بساط قماشي ناعم بجانب النهر، أشعة الشمس الدافئة تداعب وجنتيها وهي تلتقط خلسة صورة له وهو يُعيد جمع حبّات السبحة وصوته الهادئ (إذا تبين تفرغين طاقتك تعالي لي بس السبحة اعتقيها)، وها هي الآن تفرّغ غضبها مجددًا في سبحته.

تلتقط نفسًا عميقًا متحشرجًا لتجلس بإنهاك على طرف الممر، تُمسك برأسها وأنفاسها المتلاحقة تهدأ .. يقف يوسف بعدما جمع سُبحته المتناثرة ليدسّها في جيبه، يقترب ليجلس إلى جوارها .. تُغمض عينيها بقوة على صوته الهادئ :" هديل، اللي تبينه مني بسويه، تبين بيت ناصر؟ أوعدك بكرة آخذك له ... "

يأتي صوتها ضعيفًا بقلة حيلة :" اللي أبيه أرجع بيتنا، أرجع مع أبوي وأمي .. أرجع للمركز، لكل شي قبل لا أعرفك "

ترقّ ملامحه، يُشاركها الأمنية .. ماذا لو عاد الزمان؟ لفرّ بجلده من ذلك المركز، ومن تلك الولاية وتلك القارة

بأكملها، ومنها ووالدها .. يطلق زفرة :" تعرفين إن سبب وجودي بالمركز والسبب اللي جمعني فيك وبأهلك هو أخوي نجد؟ سنة كاملة كان يدور فيها عن المركز وتواصل مع ناس كثير والكل كان يدلّه عليه.. ما كان يعرف إنه يرسلني لك، من بين جميع الناس كنتِ أنتِ يا هديل .. أخته"

تقطّب حاجبيها سريعًا وبنفور :" مو أخوي - تلتفت لتقابله وبضيق - يوسف مهما قالوا ولو سلموني تحليل دي ان اي يثبت إنه أخوي مستحيل أصدق، ما عندي أخ"

يطلق تنهيدة مرتفعة وأنظاره تشخص للسماء، لتتابع :" إذا كان أخوي أجل وينه عن أبوه؟"

يعود بأنظاره إليها :" تبين تعرفين وينه؟ فقد عقله! .. مات، لا تلومينه.. هديل مو وحدك تعانين، كلنا نعاني .. اوك أنا كنت فاقد نفسي وقصّرت معك، بس جيت لأني بحاجتك .. كلنا بحاجة بعض، لا تصديني .. أبوي مرمي بالمستشفى صابته جلطة دماغية، أخوي منعني منه لأني كنت فاقد نفسي وكنت بضرّه! نجد ما يعرف أرضه من سماه .. مستوعبة إنه من يومها ما نطق بكلمة! تحول لطفل أطرم نضطر نحط اللقمة بفمه لا يموت.. وأنا بين ليلة وضحاها أكتشف إن أخوي مو أخوي؟ إن أبوي مريض وبأي وقت

ممكن أفقده .. إن عمي مرمي بالسجن ينتظر حكم بالقصاص، مستوعبة شكثر كلنا بحاجة بعض؟ "

تغطّي وجهها بكفيها ليخرج صوتها متهدّجًا :" يوسف أنا طول عمري مرتكية على أبوي، فجأة الحين هو بالسجن وبمكان ما أعرف فيه أحد .. أحس إني ثقيلة عالكل، ريم وعمتي مالهم ذنب يتحملون كل شي .. وأنا والله أسوي كل هذا من وجعي على أبوي .. تعرف وش يعني يواجه حكم بالقصاص؟! يعني أنتظر كل ظهرية عشان أتطمن إنه باقي عايش مو مدفون، كل اللي طلبته منهم بس يعطوني عنوان ناصر أحس نفسي سويت شي لأبوي بدل ما أجلس هنا ألطم"

يسحب كفّها عن وجهها ليُبقيها بكفّه، ليمسح بأصابعه الحُرة خدها المبلل بالدمع :" لا تفكرين إنك ثقيلة على أحد، كلنا أهلك.. بنت عمك شايلة همك وخايفة عليك، واللي تمرين فيه تمر هي فيه .. بكرة بمرّك نروح بيت ناصر، بس أنتِ هدّي نفسك وتوكلي على الله، أمك تعبانة .. سانديها وطمّنيها"

تقاطعه وهي تقاتل عبراتها :" وأنا مين يطمّني؟"

يهز رأسه بهدوء وابتسامة خفيفة مُطمئِنة تلوح على شفتيه :" أنا أطمنّك، وأنتِ تطمنيني .. "

تُشتت أنظارها عنه وهي تحارب عبرتها وما زالت كفها بكفّه، تأخذ نفسًا عميقًا قبل أن تُعيد أنظارها له وهي تهزّ رأسها إيجابًا بهدوء ..

يهبّ واقفًا ليوقِفها معه .. يدنو منها مُقبّلًا جبينها وسط سكون أنفاسها :" الحين طمّني أمك ونامي، بكرة بمرّك .. حتى إذا ما نفع الكلام مع ناصر بنكررها مرة ومرتين ودايمًا، بنسوي كل شي نقدر عليه، أوعدك"

تومئ بإيجاب ليُحرر كفّها من كفه، يُغادر مُودِعًا فيها بصيص أملٍ خافت .. حالما تجاوز البوابة الخارجية تنفّس الصعداء عاليًا، لم يكن يُهدّئها فحسب .. بل كان يُهدّئ نفسه، يحاول لملمة شتاته معها ..

يرفع هاتفه لتُقابله رسالة من ثامر (أنام متطمن إنك مع عمي؟)

يتذكّر والده، مهمة أخرى أكثر صعوبة بانتظاره .. الساعة تتجاوز منتصف الليل، ومقدار المسافة بينه والمستشفى تتجاوز الساعتين سيرًا على الأقدام، يكتفي بإرسال كلمة واحدة (تطمن)، يركن خوفه جانبًا مضطرًا ليطلب سيارة

تقلّه إلى المستشفى .. يمضي وقت سيرها وهو يُبعثر حبات السُبحة ويحاول إعادة لملمتها حتى يُشغل نفسه عن مراقبة الطريق وأصوات أبواق السيارات، ما أن وقفت السيارة أمام المستشفى ينتهي من عقد السُبحة ليلفّها حول رسغه ..

لقاؤه بوالده كان أشد وجعًا من لقائه بهديل، يتذكّر ليلته الأخيرة معه .. يكاد يرى نجد في ممرات المستشفى مرددًا (لا تزعج أبوي، لا تقوله أي شي يضايقه) أين نجد؟ وأين والده؟

كان ياسر نائمًا عاقدًا حاجبيه كمن يُصارع وجعًا، يستسلم يوسف لنومه قُرب أبيه .. وما أن أفاق لصلاة الفجر تواجهه عينا والده الذابلة، يعتدل جالسًا بتوتر .. لا طاقة له بالنظر في عينيه، رؤية عجزه .. وكذبه، ما زال يحمل عتبًا ثقيلًا له لا يُمكنه تجاوزه .. يكتفي بتقبيل كفّه سريعًا محاولًا الفرار، إلا أن خطوته تجمّدت وهو يشعر بكمّ ثوبه يعلق بأصابع والده .. يغمض عينيه بشدّة لصوت والده الثقيل :" نجد بخير؟"

يزم شفتيه ليلتفت مقابلًا والده وملامح الأسى تكتسيه، يشتت أنظاره سريعًا وبصوت متقطّع :" امممم.. بخير، بخير يبه"

بصوت مُنهك وحروف ثقيلة:" أدري إنه مو بخير .. هذا نجد، لو صابته حمّى أحس فيه.."

يهز رأسه بضيق وانفعال، إذن لماذا سوّلت لك نفسك فعل هذا به؟ كيف طاوعك قلبك قتله بكل هذه البشاعة؟! يعجز عن البوح بلومه .. كل ما يرجوه من والده أن يحرر كفّه حتى يهرب من شنّ هجوم على والده داخل قلبه، يزيده تقييدًا وهو يشدّ يده يحثّه على الجلوس بجواره .. يجلس مضطرًا وعيناه تغوص في أي مكان عدا وجه والده، يُتابع ياسر :" بأول سنتين له كنت أجدد كل يوم فكرة إنه مو ولدي .. إن يعقوب بأي يوم بيرجع وينتهي كل شي، إن موسى بيعرف بأي لحظة .. وبكل يوم كان يجدد أبوّتي له .. أرجع خطوة بفكرة إنه مو ابني.. وأتقدم عشر خطوات بحبي له، يوم ماتت أمه كان حزني عليها بكفّة وهمّه بكفة ثانية، بلغ أعلى منزلة بقلبي، حتى أمي والجوزا ما بلغوها .. كانت أمك مُصرة ينقل عندكم عشان تداريه وتطّمنه .. بآخر ليلة بالعزا اليأس والضياع أخذوا عقلي، ما كنت أعرف وش

أسوي .. أعلّم موسى عنه وأبوس رجوله ما ياخذه مني وأنتهي أنا والجوزا من هالذنب الكبير؟ أو أموت مع هالذنب؟ مثل الجوزا؟ .. يوم صحيت الفجر لقيته نايم جنب السرير على الأرض، يوم سألته ليه ترك بيتكم بآخر الليل وجاني قال يبه لا تبعدني عنك يكفيني أمي .. من ذاك الفجر حلفت أموت وسرّه معي، وتكفير هالحلفة برقبتي اليوم .."

يتجعّد وجهه لتنساب دموعه، يتذكّر تلك الليلة جيدًا .. لم يكن لنجد سرير إضافي في غرفته المشتركة مع ثامر، كان دائمًا في ليالي الخميس التي ينام فيها بمنزلهم يفرش فراشًا ثقيلًا بين سريري ثامر ويوسف .. إلا أنه وثامر في ليالي العزاء الثلاثة تنافسا في عرض سريرهما له كلّ منهما يصرّ على أن ينام نجد فيه حتى يمامة الصغيرة حاولت جاهدة عرض خدماتها له، يُردد ثامر (انتو صغار ناموا عليهم وأنا بنام عالأرض وبكرة بتنظف أمي الغرفة اللي فوق لي) تخلّى ثامر تلك الليالي الثلاث عن سريره للمرة الأولى والوحيدة لأجل نجد، يذكر تحوّل ثامر الشرس إلى ثامر الحنون .. حديثه لنجد وهو يحكي له عن تجربته في فقد والده وكأنه يُطمئنه ويؤازره مرددًا (أنا أخوك الكبير) تحوّل لم يدم سوى أسبوع

واحد حتى عاد إلى سابق عهده، كانت المرة الأولى التي يشهدان فيها عزاءً حقيقيًا، الفقد الأول .. لم يستطع يوسف النوم لشدة تفكيره وحزنه لأجل نجد، كيف سيعيش دون أم؟! ماذا تفعل خالته الجوزاء في قبرها الآن؟ كيف سيبدو منزل أبيه دونها؟ شعر بنجد يتسلل من السرير قبل الفجر بساعة، وعندما استوقفه مستنكرًا ردّد (بروح أشوف أبوي، يمكن يداوم اليوم وما عنده أحد يجهز فطوره).

يمسح وجهه المبلل على صوت والده :" روح يا يوسف .. أنا أعتقك من هالمهمة، روح لحّق اللي تقدر عليه بعد ما هدمت عليك كل شي، أنا ما عاد فيني شي تقدر تلحقه"

يهرب من المستشفى ومن وجع وجه أبيه، يتمالك نفسه مستمعًا لنصيحة والده.. يفي بوعده لهديل علّه يتمكّن من اللحاق بما يملكه قبل ضياعه.

كما توقّع، لم يجدِ نفعًا وقوفهما أمام بوابة ناصر الذي يصرّ على رفضه لمقابلة أحد .. مرة ومرتين وثلاث .. كل صباح لشهرٍ ونصف يُعاود الوقوف معها أمام بابه، دون جدوى ..

•

تتأمّل ورقة النعناع الأخيرة والمتبقية بأصيصها الجاف، شعورٌ بالخذلان لنفسها .. نباتاتها الأثيرة ماتت تباعًا، كيف سهت عنها لتتركها بلا سُقيا؟ تزمّ شفتيها بضيق لسقوط ورقة النعناع الأخيرة بكفّها، ما أن ضمت كفها تفتت داخلها ..

تتجاهل صوت صفير قادم نحوها وهي تنفث فُتات الورقة عن كفها، يلحظ تجاهلها ليقترب جالسًا على عتبة الدرج وبابتسامة :" يقولون سهيل بيدخل بعد أسبوعين والحرارة بتخف - يرفع أنظاره كمن يتفحّص الجو متابعًا - بس والله مب لدرجة يجلس الواحد بالحوش بعد المغرب! "

يزم شفتيه لتجاهلها المستمر، يصمت مطوّلًا قبل أن يهدأ صوته :" يمامة مابيك تفهمين إني مابيك هنا أو إنك ثقيلة علي، ما أيّدت خالتك بكلامها وحاولت أصرّ عليك تروحين معها على الأقل فترة العيد إلا عشانها، أدري بتشيل همك

ولا كان ودها تروح وتتركك إلا بسبب تعبها .. وبعدين أبيك تروحين لمصلحتك .. "

تقاطعه أخيرًا بلا مبالاة :" أنا أعرف بمصلحتي"

تضيق عيناه متفحصًا ملامحها الذابلة :" والله مو واضح، ما تشوفين وجهك؟ ما تاكلين كويس، و٢٤ ساعة مقفلة غرفتك .. وأنا ما أقدر أجلس هنا كثير، أخاف يصير لك شي ومحد حولك "

وأخيرًا تلفّ وجهها لتقابل عينيه وبذات الهدوء :" عمي ياسر بيطلع بكرة؟"

يهز رأسه إيجابًا، تتابع :" أجل بروح بيته، هو بعد بيكون وحده وتعبان لا طلع من المستشفى ومنها ما تشيل همي"

تخرج منه أشبه بضحكة مستنكرة متفاجئة، هي تُدرك تمامًا بأن ياسر لم يعد أبًا لزوجها .. وأن المحرمية بينهما ليست إلا كذبة تولّدت من تلك الكذبة الشنيعة، لتتابع بإصرار:" نجد زوجي .. وعمي ياسر طول عمره كان مثل عمي.. - تصمت للحظات تترقّب رده، لا تجد بادرة للمواقفة.. لتتابع - أجل خذني لنجد"

يهز رأسه نفيًا بذات الضحكة المستنكرة :" يمامة تكفين .. أنا أهرب من هبال يوسف وناصر وأجيك لأني عارف بعقلك

وألقاك بنفس الموال! - يُغيّر دفّة الحديث علّها تنسى فكرتها متابعًا بعدم استيعاب - حكم القصاص بيتنفّذ بأي يوم قريب إن شاء الله وبننتهي من حرب ناصر ويوسف .. يا يموت أو يتنازل ناصر وننتهي من هم كبير، تعرفين يوسف المجنون كل يومين ياخذ بنت يعقوب ويوقف قدام باب ناصر! "

لا يلاحظ تعقّد حاجبيها بتوجّع، تتمالك نفسها بهدوء :" بنته، تلومها؟ "

يهز رأسه بقلة حيلة :" كان الله بعونها، بس يوسف يعرف ناصر، ويعرف إن وقوفهم ذا بدون نتيجة .. - يزفر بشدة - وناصر من جهة ثانية كل يومين مزعجني بيوسف، تعال شيل أخوك من باب بيتي.. أنا متأكد ناصر راكبه شيطان حالف ما يتنازل لو تنهد كل بيوتنا"

تُعيد أنظارها إليه للحظة بضيق عاقدة حاجبيها :" ثامر! تراه أبو نجد بعد"

ينطق بلا مبالاة :" أب ما عرف عنه إلا قبل شهرين ما يتسمى أب"

تنفعل من ردة فعله:" تعرف وش يعني أبو نجد؟ يعني جد عيـ.."

تبتر كلمتها فجأة باستيعاب، يحلّ صمت قاتل للحظات..
يُشتت ثامر أنظاره بأسى لإدراكه شغف أمومتها التي تعلم تمامًا صعوبة تحقيقها، هل ما زالت تحلم بها؟ يُخلل أصابع كفه بشعره .. يعجز عن الكلام، أي كلمة قد تواسيها؟ يعقد ذراعيه على صدره وأنظاره تضيع بين أوراق النعناع الجافة، فجأة .. تنهار بكاءً، بكاء لم يعهده من قبل .. لم تبكه سوى في ذلك اليوم قبل شهرين في المستشفى عندما صُدم بكل ما حصل، يكتم زفرته ليقف ويقترب منها، يجلس على أطراف قدمه:" لا تزعلين .. "

تُبعد كفيها عن وجهها الباكي وبذات إصرارها :" ثامر أنا زوجته، ما يحق لك تمنعني أشوفه.. تبي ترتاح من همي؟ وصلني له، أنا بداريه وبأكله وبشيله بعيوني .. "

يهز رأسه بضيق :" علّمتك مليون مرة بوضع نجد ولا خبيت عليك شي، أنا مابيك تروحين له وتشوفين شكثر وضعه سيء .. مابي هالشي ينعكس عليك، يمامة أنا متحمّل كل شي وصابر وعندي طاقة بعد أتحمل مية سنة .. بس يوصل الموضوع لك لا! ما أتحمل يصيبك شي"

كانت تعتصر بتوجّع، همّ ثقيل امتص كل طاقتها ولم تعد قادرة أكثر على حملِه وحدها .. ومن غير ثامر سيقتسمه معها؟ .. يخرج صوتها ضئيلًا متقطّعًا :" أنا حامل"

تبهتُ ملامحه، يجعلها تختنق بنظرته الباردة غير الواعية لما تقوله .. ترتجف شفتيها وندم قاتل يشنّ هجومًا عليها، هل أخطأت بإعلامه؟ لا يُمكنها كتم الأمر أكثر.. تتراجع بمقعدها هاربةً من قُربه، تشتت أنظارها عنه إلا أنها ترجع إليه لتجد ذات نظرة عدم التصديق .. تلتقط أنفاسًا متتابعة ثقيلة تحاول لململة ما تبقّى منها :" لا تناظرني كذا .. نجد زوجي"

ما زال ينظر لها بذات نظراته، هل تعي ما تقوله؟ لا بد أنها تقصد بأنها تحمل همًّا، تحمل أصيص نعناعها، تحمل وجعًا .. أي شيء عدا أن تقصد معنى أنها تحمل طفلًا في أحشائها، يهرب بنظرته عنها للحظة .. ليعود مجددًا بعقدة حاجبيه :" يمامة أدري إنك تبين تضغطين علي وتضطريني أشيلك لنجد، بس مو بالكذب.. اوك باخذك له بس لا تكذبين هالكذبة"

تُمسك برأسها وزفرة توجّع حارة تخرج منها :" يا ربيي، والله ما أكذب يا ثامر .. لهالسبب ماكنت أبي أجلس مع خالتي ولا

أبيها تجلس عندنا، مابيها تعرف.. خذني لنجد، حتى لو هو تعبان .. بجلس عنده"

يُمسك رأسه مذهولًا لقولها، نجد؟ كيف سمحت له نفسه؟ كيف حطّم ثقة أودعها الجميع فيه؟ إن أتمّا زواجهما قبل موعده وخالفا العرف فهذه مصيبة، أما حملها كارثة أشد .. ألم يقطع وعودًا بعدم حدوث ذلك؟ .. يقف وصوته يخرج ثقيلًا :" البسي عباتك "

وكأن أبواب الفرج فُتحت أمامها تتوقف دموعها مذهولة، تطير إلى عباءتها لتحلّق معه في السيارة، لم تعر لجمود ثامر أي أهمية.. كل ما كان يشغل تفكيرها رؤية نجد، وحال نجد .. يزداد توترها وشوقها وانكسارها لحاله وهي تجلس في مقعدها خلف ثامر الواقف أمام الباب الذي يفصل بينها وبينه يفتحه، أليس من المفترض أن تكون الآن بجواره؟ معًا في جناحهما الصغير بمنزل ياسر؟ أن يكون قد انقضى على زفافهما شهران؟ ماذا لو لم يحدث كل هذا؟ لكان تلقّى خبر حملها معها .. يُشاركها الصدمة والخوف والذعر وينتهي خوفهما قبل أن يُدركه أحد ..

كانت ترنو بأنظارها تنتظر وجهه، إلا أن ما استقبلها جسده المدثّر ببطانية ثقيلة لا يُرى منه شيء .. نائم كعادته

مثلما أخبرها ثامر، نوم هستيري يكاد يأخذ ما تبقّى منه ..
تشهق مسرعة وهي ترى ثامر يسحب لحافه بقسوة لينقض عليه يشده من ثيابه ليجبره على النهوض، لم يُذهلها شكله المُخيف .. لحيته الكثة، عينيه الغائرة، نحول جسده .. حتى كادت تشك في أنّ هذا هو نجدها الذي تعرفه وتحبه، ولم يذهلها جمود عينيه المعلقة بعينيها وثامر يصرخ به أمامها يشدّه إليها بعنف:" تعرف ذي؟! .. هذي اليمامة.. خالتي، اللي حلفت لك بالله إن أذيتها بشي أنحرك.. والله يا نجد لتصلح غلطك غصبن عنك ولا يهمني إذا عقلك معك أو انجنيت، ولا يهمني إذا أبوك مرمي بجلطة ثانية أو هالكلب الثاني اللي مسوي نفسه أبوك بينقص اليوم ولا بكرة .. والله لأجرك جر للمستشفى ولو اضطريت أقطع يدك أقطعها وأوقع عنك وأرميها وأربطك بسرير يمامة لين تنتهي العملية وتسقط الجنين وبعدها تحلم تشوفها"

كانت تبكي وهي تحاول الإمساك بيده علّها تُفلته من يدي ثامر، لا تعلم أهي تبكي لقسوة ثامر وحديثه الذي يمسها أم لمنظره الهزيل غير الواعي أو لتشبّث عينيه بها بضياع وكأنه يحاول التعرف عليها، هل نساها؟ هل يجهل من تكون؟ أم أن مصيبته سلبت منه لهفته؟

يُسقطه أرضًا أمامها حتى ارتطم رأسه بفخذيها، تُحيط رأسه بذراعيها تحميه من ثوران ثامر وبصوتها الضئيل الباكي تضع رأسها على رأسه علّه يسمع صوتها :" نجد! يا عمري .. أنا معك "

تشعر به يُسحب منها لتزيد من قبضته وصوت ثامر ما زال ثائرًا :" الحين، اليوم قبل بكرة نروح المستشفى .. والله ما تنام لي عين لين تنتهي ...."

يقطع صوته صوتٌ آخر صارخًا بذهول وهو يشده يُبعده عن نجد :" ثامر! يكفي يا مجنون.. وش صار لك؟"

يعود ثقله مجددًا على فخذيها لتسحبه أكثر لها وصوتها يختلط بأصواتهم جميعًا:" مو على كيفك.. هذي حياتي وحياته .. لا تتدخل"

يُحاول الفكاك من قبضة يوسف المذهول مرددًا :" ثامر لا تجنني علمني وش صاير؟! "

يكفّ عن مقاومة يوسف وبذات انفعال صوته :" تبي تعرف؟! خالتك حامل! "

تتسع عينا يوسف بصدمة غير مستوعب، يُحرر ثامر بذهول لينقل أنظاره إليهما .. نجد المنكب بحضنها لا يتحرك

ويمامة تحتضن رأسه وهي تردد :" مالكم علاقة .. اتركونا وحدنا واطلعوا "

يقترب من نجد بهدوء متداركًا صدمته وسط صوت ثامر :" في مصيبة ثانية باقي تنتظرنا؟! وش ورانا؟ فاضيين .. لو نموت كلنا الحين أبرك لنا.."

يُمسك بكتفي نجد، يحاول شدّه وحمله بعيدًا عن يمامة وسط اعتراضها وتشبثها، إلا أن عيناه اتسعت وهو يرى كفّي نجد تنتقل من حضن اليمامة إلى كفّيها .. يتشبث بها بقوة، هل يُبدي نجد ردة فعل؟! يجلس بجواره مسرعًا ليهوله منظره .. عيناه الغارقة بدمعها يعتصرها بشدة، شفتيه ترتجف وتنفسه مضطرب .. يهمس بخوف :" نجد؟! "

أهو فرحٌ واستبشار لإبداء نجد ردة فعل أو خوف لأن يصيبه شيء؟ يلتفت سريعًا لثامر ينوي تبشيره بأن نجد وأخيرًا تخلّص من جموده، إلا أن ثامر لم يكن موجودًا ..

كان ثامر يشعر باختناق حاد، وكأن مصيبة يمامة ونجد كانت الإبرة التي فجّرت كل ما فيه.. إن كان صابرًا متظاهرًا بالقوة طيلة كل تلك الأسابيع فما عاد للصبر متسع، هو حتى لا يُدرك إن كان صابرًا أم أنّ هذه سجيته عند حلول المصائب .. الاستسلام والمسايرة حتى ينتهي كل شيء، أما أن

يُصيب اليمامة سوء فهذا ما لا يقدر عليه .. يشعر بالغرفة تخنقه، منظر نجد الميّت يقتله .. قسوته المضطر لها تُميته، يغادرها مسرعًا ينوي تجديد الهواء أو الهرب بعيدًا عن كل شيء علّه يهدأ حتى يستطيع التفكير بحلٍ لهذه المصيبة .. تتوقف أقدامه فجأة أمام باب الشقة المفتوح، يعقد حاجبيه وتنفسه ما زال مضطربًا وهو يرى فتاة تحجب شعرها سافرة عن وجهها تقف أمام الباب مذهولة مضطربة، وجه جديد لا يألفه .. يتجعّد وجهه باستنكار وبذات صراخه :" مين أنتِ؟! "

تعقد كفيها باضطراب ولسانها يرطب شفتيها :" اااا .. أبي يوسف"

تلاحظ ازدياد عقدة حاجبيه لتُتابع بتوتر :" أنا هديل، خطيب.."

لا يدع لها مجالًا لإكمال حروفها وهو يضرب الباب ليرتد مغلقًا أمام وجهها بقوة، يعود بخطى ثائرة إلى الغرفة ليصطدم بيوسف في منتصف الطريق :" شيلها من قدام الباب بسرعة قبل لا أفجّر الشقة بمن فيها "

يُقطّب حاجبيه بانفعال مقتربًا من الباب ينوي فتحه لها :" أخته! إذا في أحد بهالمكان قريب منه فهي هدي.."

يُقاطعه بذات ملامحه المسودّة :" الشقة باسمي .. تبيها اطلع الله يوفقك دوّر لك مكان يضفّكم لين أنتهي من نجد"

يتجاهل حديث ثامر وهو يفتح الباب لتتسع أحداقه ولا أثر لهديل، ما أن خرج راكضًا يلحق بها يُغلق ثامر الباب بقوة ..

يعود إلى الغرفة بعدما تخلّص من يوسف، يلتقط أنفاسه علّه يهدّئ من نفسه .. ما أن فتح الباب يعتصر قلبه بتوجّع لرؤية نجد يشد على كفيها وأنفاسه تعلو وتهبط وكأنه يُصارع وحوشًا داخله، لا بأس أن يُصارع .. المهم أن رؤيتها أزاحت جموده، هل أخطأ بإبعادهما عن بعضهما؟ الله وحده يعلم أن إبعاده عنها لم يكن إلا لأجلها .. يعلم تمامًا بأن حال نجد لا تسرّ عدوًا فكيف بحال يمامة؟!

يجلس على المقعد ضامًا رأسه بين كفيه، هل يعي نجد ما حصل؟! هل أدرك جُرمه بحقها بعدما فعل فعلته؟! أنها تحمل جنينًا منه لا ينبغي أن يكون بداخلها .. أن طفله هذا ليس سوى شقاء وجحيم عليها؟!

يرفع رأسه بثقل على صوتها المستنجد :" ثامر، خذه للمستشفى تكفى .. مو واعي، أمانة الحق عليه"

ينقل أنظاره لنجد الذي وضع رأسه باستسلام بحضنها وما زال يجثو على ركبه أمامها، المستشفى؟! .. تتسع عيناه فجأة لفكرة تهادت إليه فجأة، يقف سريعًا يجر مقعدها ليترك نجد خلفه مستسلمًا لرحيلها وسط رفضها واستنكارها :" وين تاخذني؟! رجعني"

يُغلق باب الشقة لينطق بهدوء :" باخذك المستشفى أول، بطمّن عليك وبرجع آخذ نجد .."

كادت ترفض لو لا حاجتها الملحة للمستشفى، لا يُمكنها المكابرة وإنكار خوفها ورعبها الشديدين .. مع ذلك تتمسّك بحقها وهي تردد :" مابي أسقّط الجنين! أخاف أفقد نجد وما ألقى منه شي غير هالطفل .. دام الله كتب يمكن تكون فرصتي الوحيدة "

تستمر بإصرارها وسط صمت ثامر، يتلقّى تأكيد حملها بأسى وكأن كل ذرات الأمل تطايرت بعيدًا .. يسمع تأنيب الطبيبة بصمت أكبر، يختنق ليخرج من المستشفى بعدما ترك اليمامة خلفه تنتظر نتائج فحوصاتها وتحاليلها الشاملة واجتماع عاجل لكبار الاستشاريين .. لم يكن يرغب بتركها وحيدة، لكن بقي شيء واحد، كان قد أجّله مرارًا خوفًا وترددًا .. أما الآن هو في أمسّ الحاجة له ولو اضطر

لارتكاب جرم الرشوة أو استرداد بعض من مهارات خالد بالتزوير بعدما عاهد نفسه على تركها .. أي شيء لأجل الحصول على هذه الورقة.

يعود لنجد الذي تحوّل منذ حضور اليمامة من جمود حاد إلى فتيل نار يأبى الاشتعال، يصحبه معه إلى مركز طب نفسي بصمت آخر من قِبله مقابل تنهّدات نجد المختنقة وكأنه يرغب باستفراغ صراخ موجع يكتم أنفاسه .. يتجاهل قلقه من نتائج كشف نجد، سيُحجز؟! لا بأس .. المهم أن يصدر تقرير طبّي نفسي يُفيد بعدم أهليّة نجد باتخاذ قرارات تخصّ اليمامة، تقرير واحد يحتاجه وبشدّة حتى تتمّ عملية إجهاضها بأسرع وقت ممكن.

لم يُذهل لكلام الإخصائي وهو يُخبره بنتائجه الأولية، صدمة نفسية شكّلت حاجزًا بين نجد والواقع ليطوف بعالم أسود خالٍ من أي شيء حتى نفسه .. ما سبّب له ذهولًا وحزنًا معرفته بأن نجد فقد قدرته على السماع والنطق منذ دخل بدوامة صمته، بأن الصدمة عنيفة ومستعصية على دماغه حتى اضطر إلى حجب حاسّة السمع عنه وربط لسانه بخرسٍ نفسي علّه يتمكّن من تكذيب كل شيء .. ذاكرته مشوّشة تهرب من كل ما حصل ..

ينفرد بنجد داخل غرفة صغيرة بيضاء، لا يعلم كم سيمكث فيها نجد .. أسبوع؟ شهر؟ شهرين؟ أو أكثر .. يجلس بجواره على سريره الأبيض، اختناق حاد يُصيبه وهو يتأمل وجه نجد المُنهك .. هل هذا نجد؟! من كان يغبطه لاكتمال حياته .. عاجزٌ الآن حتى عن اتخاذ قرارات نفسه، يزمّ شفتيه قبل أن يخرج زفيرًا حارًا :" أدري .. ما تسمعني ولا تعرف وين الله حاطك .. - يعود لينقل أنظاره مجددًا له، يتابع - عاد ما أكذب عليك ارتحت إنك ما سمعت كل اللي قلته، لأني كنت أعنيه وقتها .. فعلًا كنت بذبحك لو صار لليمامة شي ... "

يصمت مطولًا يلملم حروفه، لا يعلم سبب رغبته بالكلام، هل لأن نجد لا يسمع مما يُتيح له فرصة البوح بكل شيء؟! أم لشعوره بأن نجد يحتاج هذا الحديث وإن لم يعيه، أو لرغبته باستعادة نجد .. ابن عمه الصغير، ذاك الطفل الذي شاغبه طويلًا حتى كبُر وتخطّاه .. مَلك الحياة دفعةً واحدة ليفقدها فجأة، لم يكن يعلم بمدى حبّه لنجد إلا الآن وفي هذه الغرفة .. مدى حاجته هو لأن يأخذ نجد وعمه ويوسف ويمامة بعيدًا عن كل شيء حتى تعود الحياة كما عهدها صغيرًا .. أكبر همومه الفِرار من سور المدرسة

وفرض سيطرته على يوسف ونجد وجميع مراهقي الحارة..
ينفخ خديه بالهواء ليزفره مجددًا :" محظوظ لأنك مو واعي
أي شي، جلطة أبوك، حمل اليمامة .. - يعود بأنظاره إليه
باحثًا عن جواب - وش كنت بتسوي لو كنت واعي؟! اخخ يا
نجد والله فعلًا مرتاح .. لو آخذ مكانك بس! .. تعرف، كنت
واعد نفسي وأنا بالمستشفى بس أطلع أنسى كل حياتي
القديمة وأبدأ إنسان جديد ... عشان أكون صادق مو كلها،
خالد ورغد مو من ضمن الأشياء اللي تتغير، كنت أتوقع
أطلع وأدخل السجن من جديد مع خالد .. ما في مشكلة لو
يكون معي، يونّسني شوي .. وبعدها لا طلعت نبدأ مع بعض
كل شي من جديد، ممكن نفكّر نفتح مشروع .. خالك
يموّله، معه راس المال اللي ما ألقاه عندنا .. بس مثل ما انت
شايف .. رغد ما أدري وينها، وخالد بغيبوبة ما ألقى وقت
أشوفه .. والحكم باقي ما طلع بحقي، ما أدري أدخل السجن
أو يطلع عفو .. كل خوفي أدخل السجن بهالوقت، وش
بتسوون؟! يمامة مين بيكون حولها؟! عمي مين يداريه؟! انت
مين بيتفقّد وضعك هنا؟! يوسف تعرفه .. بأي لحظة ممكن
يفقد أعصابه ويضيّع كل شي .. ما أعرف أتعامل معه -
يضحك بسخرية ليُتابع - أصلًا طول عمرنا ما نعرف نتعامل

مع بعض، انت كنت حلقة الوصل بينا .. يوسف لو يبي شي من أبوك انت تتوسط له، عمي لو يبي مني شي أو ينبهني لشي يرسلك لي .. أنا ويوسف عمرنا ما اتفقنا، اييه بس .. ليتك أرسلت لنا ملخص طريقتك بالتعامل مع كل واحد فينا بإيميل نفس ما سويت مع مرض عمي.. يمكن ما نكون ضايعين هالكثر الحين ... - يبتسم وكأنه يبدد كل السواد الذي يعكسه بياض الغرفة بهزل -بس تعرف وش النقطة الإيجابية بكل ذا؟! اكتشفت إن عندك أبوين! .. واو، غيرك مو لاقي واحد، حتى بمصايبك تاخذ أكثر من نصيبك"

يتنهّد بهدوء وهو يرى نجد يغرق بنوم عميق :" عمومًا، لا تخاف .. كل شي بيكون بخير .. أنا متأكد"

يقف ليدثّره .. يُلقي عليه نظرةً أخيرة ويخرج..

••

يفتح عينيه على صوت بكائها، يتجمّد للحظات فوق سريره .. سقف غرفته الأبيض، تسلل ضوء الشمس مشكّلًا خطّين متوازيين فوق رأسه .. يلتقط أنفاسه أخيرًا، كانت كابوسًا .. كعادة كوابيسه، ليست موجودة .. كل ليلة يُرافقه صوتها، كان يعلم بأن صوتها قاسٍ جدًا .. لذلك اتخذ قراره بالمبيت كل ليلة في إحدى الشقق التي يملكها بعيدًا عن منزله، هربًا من وقوفها أمام منزله برفقة يوسف .. وهربًا من لجان الصلح.

يعتدل بجلسته، يتفقّد الساعة .. ما زال أمامه وقت قبل بدء أول يوم عمل بعد إجازة طويلة من الكلية، تنتابه فكرة التغيب عنها .. لا شيء مهم، مجرد احتفالات معايدة مملة .. ولا طاقة له بتدخّل أي زميل فيما يخصّ القضية.

متى ينتهي كل شيء وينفّذ حكم القصاص حتى يتخلّص من كل ثقله النفسي؟ حتى تنتهي الطرقات على أبوابه، حتى يختفي صوت هديل من كوابيسه .. بعدها، يحدث ما يحدث .. لا شيء مهم، حتى فقدانه لعائلته الصغيرة .. نجد وياسر.

يدسّ رأسه وسط الماء حتى يغسل صورتهما عن مخيلته، لا يحقّ لياسر أبدًا لومه .. ما زال محمّلًا بغيظ كبير

اتجاهه، غيظ لا يُمكن أن يُمحى أبدًا .. أما نجد .. وآه من نجد، يفرك شعره بقوة لينساه ..

ينتهي من استحمامه، يرتدي ملابسه حاملًا هاتفه ليتفقده .. يتجمّد للحظات، عيناه لا تنفكّ عن الرسالة الأولى .. يلتقط أنفاسه تباعًا ليرتمي على المقعد، اختناق حاد يُصيبه .. ضربات قلبه لا تتوقف، يُعيد قراءة الرسالة مرارًا وتكرارًا .. هل حقًا سيُنفّذ القصاص بعد ساعات قليلة؟!

يُغمض عينيه علّه يُهدّئ ضربات قلبه، ألم يكن ينتظر هذه الساعة منذ سنوات طويلة؟! هل حقًا يعقوب سينال جزاءه؟! وأخيرًا سيُؤخذ حق أخيه وأبيه وأخته؟!

يفتح عينيه ودمع حار يُعانقها، لماذا يشعر فجأة أنه كبر مئة سنة؟ للحظة استوعب سنين عمره كلها .. كلها قضاها بانتظار هذه اللحظة، لماذا يبكي الآن؟ لا يعلم إذا كانت دموع فرح أو حزن أو رهبة .. جميعها تكوّمت عليه لتخنقه، يرده اتصال يؤكد الموعد والمكان.. يقف وكأن الدنيا كلها فوق رأسه خارجًا من شقته، خالٍ من كل التعابير والمشاعر .. يُبطئ سير السيارة وهو يقترب من منزله، لا يعلم لماذا يشعر بحاجة ملّحة للجوء إلى الصورة الوحيدة التي تجمعه

بأبيه وأمه ونجد والجوزاء.. صورة في غرفته يشعر بها تناديه الآن وحالًا..

يتفحّص بعينيه ما إذا كان يوسف وهديل واقفين قُرب المنزل.. لا أثر لهما، ولا يُمكنه تخمين ما إذا كانا بأحد السيارات بما أن يوسف لا يملك سيارة أو يقودها، يوقف سيارته على بُعد مسافة من منزله عند مواقف جامع الحي .. ما أن ترجّل منها تتوقف خطاه فجأة على صوت خلفه :" أستاذ ناصر .."

يعقد حاجبيه مغمضًا عينيه، لمَ لا يعتقه أحد؟! في هذه الساعة وحسب .. لوهلة حسبها هديل .. لكن من يُناديه خارج المعاملات الرسمية بـ(أستاذ) غير طلابه؟ يزمّ شفتيه مطلقًا زفرة حارة، يلتفت لمصدر الصوت وهو يعقد ذراعيه أمام صدره ونظارته الشمسية تغطي عينيه المضطربة .. فتاة بعباءة سوداء لا تُشبه عباءة هديل الملونة، بنقاب لا يُظهر سوى عينيها خلاف هديل التي تكشف وجهها .. وسرعان ما شتّتها بزفرة أخرى مستوعبًا من تكون .. لماذا تظهر الآن وفي هذا الوقت؟! هل تمكّنت بحكم معارف والدها ونفوذه معرفة موعد التنفيذ؟! يصله صوتها الواثق كما عهد قديمًا، الصوت الذي يُثبت نفسه في كل

المحاضرات والندوات قبل أن يختطفه الابتزاز .. :" أستاذ ناصر، أعرف إنك رافض تشوف أحد .. ومن حقك وأعتذر لك مقدمًا .. ما جيت أطلب منك عفو، بس جيت أطلب منك خدمة وأعرف إنها مخالفة .. بس .. بحاجتها كثير"

يستمرّ بصمته ينتظرها تُكمل حديثها، يكنّ لها تقديرًا كبيرًا يعجز عن تجاهله .. وإن كانت ابنة موسى، ثم كيف يمكنه إخراج صوته؟! كل ما فيه بدأ يتداعى دون أن يشعر .. تتابع بذات الثقة والهدوء :" كل اللي أتمناه إذا بلّغوك بموعد التنفيذ تعطيني خبر.. بس"

يُشتت نظراته باستنكار، لماذا تطلب هذا الطلب اليوم تحديدًا؟! ترتجف شفتيه للحظة قبل أن يتمالك نفسه :" تعرفين إن أهل المقتص منه يُمنع إبلاغهم قبل التنفيذ! كيف تطلبين طلب مثل كذا؟! "

تبتلع ريقها لتحجب غصّة تخنقها وتقوّي نفسها وصوتها أمامه :" أعرف، عشان كذا جيت أطلب منك من دون ما يعرف أحد .. أدري إن القصاص بيتنفذ خلال هالشهر .. إذا عطيتني خبر مستحيل أبلّغهم، بس عشان أتهيأ قبل لا يوصلهم الخبر وأعرف أتعامل مع هديل وعمتي.. أبي أكون

متمالكة نفسي ومستعدة نفسيًا، أبي يوسف يكون موجود وقت ما يوصلنا الخبر"

يخلع نظارته باضطراب ليمسح عينيه، يرتديها مجددًا وبصوت لا يعلم كيف خرج :" بعد صلاة الظهر .."

تبهت عينيها، لا تستوعب ما يقوله :" بعد صلاة .. الظهر؟! "

يهز رأسه بثقل قبل أن ترتفع أنظاره مسرعًا لصوت شهقتها :" اليوم؟؟؟"

يُطلق زفرة مرتفعة مشتتًا أنظاره، ماذا كان يتوقع منها؟! أن تستمر بقوتها وتشكره وتغادر ببساطة لإعلامها بأن عمها سيموت اليوم؟ بأنه ربما الآن يسير مطمئنًا جاهلًا بما ينتظره؟ أو قد تلقّى الخبر ويكتب وصيته في هذه اللحظات؟ أو أنه يبتهل إلى الله يُصلي آخر صلواته قبل الظهر؟

كانت تظنّ بأنها قوية، وستتحمل وتكتم كل ما بداخلها أمامه إلا أن أنفاسها الآن تختنق .. رجفة قوية لا تُسيطر عليها، تبتعد عنه بخطى ثقيلة لتلوذ إلى مصلى النساء .. ما أن نزعت نقابها ينفجر بكاؤها دفعة واحدة، لا تحملها قدماها .. تجلس بإنهاك وهي تردد ببكاء :" يارب .. يارب .. كن معي، يا رب قويني .. "

لا تعلم كم أمضت من الوقت وهي على حالها وحيدة تحاول تهدئة نفسها، تصلي ركعتين ل تستعيد رباطة جأشها .. تغسل وجهها بالماء البارد، ترفع هاتفها لتجد مكالمات من سائقها الذي ينتظرها .. تتجاهلها لترسل رسالة إلى يوسف (السلام عليكم، تقدر تمر وتاخذ هديل تغير جو شوي؟)

يصل رده سريعًا (صاير شي؟ جدّ جديد؟)

تكتفي بقولها (لا، بعدين أشرح لك إن شاء الله)

تعلم بأنه لن يُجادل أو يستفسر أكثر، تُعيد هاتفها لتخرج من المصلى، تسير بهدوء قبل أن تلمح سيارته ما زالت واقفة في مكانها قُرب سيارة سائقها وهو يجلس مستندًا على جدار المسجد ملثمًا بشماغه .. دون تفكير تسير بخطى ثابتة نحوه، لا يرفع رأسه لها .. عيناه تضيع في الفراغ عند أقدامها، يخرج صوتها شاحبًا إثر بكائها قبل قليل :" أستاذ ناصر .. ما أترجاك تفكر بإنسانية ورحمة وتذكر هديل بنته وزوجته، أو .. تذكر إن له بنت أخ مالها غيره تيتّمت قبل شهور .. بس إذا وقفت قدامه وهو ينتظر قصاصه أذكر شخص واحد .. نجد ابن أختك "

تركته خلفها بعدما ألقت كلماتها عليه، طوال طريق عودتها إلى المنزل كانت تحاول تمالك نفسها .. كيف ستهدّئ

هديل وعمتها حالما يصل الخبر؟ كيف ستتلقى هديل صدمتها؟ لو لم تكن عاجزة عن استيعاب الصدمة لما طلبت من يوسف اصطحاب هديل بعيدًا حتى يقف هو بجوارها ..

ما أن صعدت إلى الأعلى استقبلها منظر أم هديل تُمسك مصحفها، كتمت زفراتها لتنضم إليها .. ترتدي رداء الصلاة وتفرش سجادتها بجانبها، لا تنطق .. لا تتكلم، تُصلي لله وحسب .. مع مرور كل دقيقة تشعر بانقباض قلبها يشتد حتى ما عادت قادرة على كتم دموعها وهي تسمع ارتفاع أذان الظهر، تتخيل عمها وهو يسيّر الآن إلى ساحة القصاص بعد أداء صلاة الظهر، متى سيصل الخبر؟ خلال ساعة؟ ساعتين؟ كل دقيقة تصبح أثقل من أختها وهي بانتظار مُرّ .. انتظار طويل وكأنه امتدّ لسنوات ..

-

يدوس على ورق الشجر المتساقط بين مسجد الحي ومنزله بعد صلاة الظهر وسؤال واحد لم يفارقه حتى في سجوده،

لماذا طلبت منه ريم هذا الطلب؟ اصطحاب هديل صباحًا وتسليتها؟ اعتقد مباشرة بأن نوبات انهيار هديل عاودتها مجددًا .. لكن ما ولّد الخوف بداخله هدوء هديل، كانت مستسلمة هادئة ووجهها يزداد ذبولًا .. تستمع أكثر مما تتحدث، يكاد لا يسمع لها صوتًا.. حتى ظنّه باعتراضها لركوب سيارة ثامر معه لم يُصب، عقدت حاجبيها باعتراض فور رؤيتها لثامر إلا أنها سرعان ما ركبت دون أي كلمة .. ترد على أسئلته باقتضاب (بخير؟ بخير .. أفطرتِ؟ ايه.. أمك شلونها؟ بخير ..) وكأن طاقتها نفدت ..

لم يرغب بأخذها إلى منزلهم، لكن حال والده مع انشغال ثامر بيمامة التي تقضي جلّ أيامها في المستشفى وتزور المنزل زيارات متقطّعة لم يترك له خيارًا غير هذا الخيار ..

ظنّها كذلك ستعترض، إلا أنها وطئت عتبة المنزل دون اعتراض.. تركها خلفه مع ألبومات صور علّها تُسلي نفسها ليؤدي صلاة الظهر، وكعادة كل صلاة يُصليها في مسجد الحي لا تتوقف أسئلة رجال الحي عن حال أبيه واستفسارهم عن نجد، لماذا لم يُتم زفافه؟ لماذا لم يعد هو إلى أمريكا لإكمال دراسته؟ كيف هو حال ثامر بعد ما مرّ به؟ وكما اتفق مع ثامر .. أُلغي فقط حفل زفاف نجد لتردي

صحة والده إلا أنه أتمّ زواجه، أما أين نجد؟ فلا كذبة أفضل من أنه يُصلي الجماعة مع والده في منزلهم، وما أن يزور الزائرين والده فجواب وحيد يفي بكل شيء .. نجد مع زوجته المُتعبة في المستشفى ينتظران مولودهما الأول.

توالد الكذبات يعلم تمامًا أنه لن يدوم وإن طال الزمن، لم يُصب بذهول وإنكار شديد لحمل يمامة سوى أبيه وخالها وعائلته .. كانت ترفض زيارتهم خجلًا ونفورًا من نظرات خالها وزوجته، إلا أنها استسلمت أخيرًا .. ولحالها المتعبة كتم كل منهم لومه.

أما والده، كانا مترددين بإخباره.. عجز عن تولّي المهمة ليضطر ثامر لنقل الخبر، لا يعلم كيف تلقّاه .. كلّما سأل ثامر عن ردة فعل والده ردّد فقط كلمة واحدة (بكى)!

بعد أسبوعين سيتمكّن والده من مغادرة المنزل، وأخيرًا إلى أي مكان يُريده عوضًا عن مراجعات المستشفى وحسب، عندها سيزور اليمامة .. وسيكتشف يوسف بنفسه وقع (حمل اليمامة) على أبيه بدلًا من كلمة ثامر.

يُخرج هاتفه وقلقه المتصاعد لا يُسيطر عليه، يكتب رسالة إلى ريم (جدّ جديد؟) يخشى أن طلبها لم يكن إلا بسبب يخافه .. سبب يهرب منه، وحان وقته ..

يمرّ من منزل أمه ليجلس بتلقائية على عتبته وعيناه لا تُفارق هاتفه ينتظر ردًا منها، لم يشعر بنفسه إلا على صوت ثامر :" يوسف"

يرفع عينيه لتلتقي بوجه ثامر، يعقد حاجبيه باستغراب لوجوده .. يزداد استغرابه لملامح ثامر الباهتة وعينيه المتسعة وجموده في مكانه عند باب سيارته وهاتفه بين يديه، يُعيد يوسف هاتفه إلى جيبه ليقف ناطقًا :" مو كنت رايح لليمامة؟ "

ما زالت ملامح الدهشة تغطّيه، يستند على سيارته ليتلفت يمينًا ويسارًا وسرعان ما تبدّل جموده لضحكة مندهشة .. تزداد عقدة حاجبي يوسف :" ثامر! "

يحاول النطق ولا يجد حروفًا تُسعفه، يرفع هاتفه سريعًا لوجه يوسف .. يقترب أكثر ليسحب هاتف ثامر، يحملق به للحظات.. صفحة محادثة باسم ناصر.. لا يستوعب المكتوب، يُعيد الهاتف إلى ثامر ويهمس مضطرب :" وش.. وش يقول؟ "

يصله صوت ثامر كقنبلة فجّرته :" ما تشوف؟! تنـازل! "

يشعر بدوار حاد يُصيبه فجأة، يفتح زر ثوبه العلوي وعيناه يتضاءل حجمها :" أمانة .. ثامر.."

يُقاطعه ثامر وهو يشدّه إليه ليضمه بقوة :" ااااه يا يوسف! الحمدلله الحمدلله .. أخيرًا! "

يعتقه وسط جمود يوسف .. طنين حاد يحجب عنه صوت ثامر، لا شيء سوى صوت أنفاسه المرتفعة وضربات قلبه.. ترتجف شفتيه وأقدامه لا تحمله، يجلس على الرصيف .. يشعر ببلل يغسل وجهه، يُغطّي وجهه باكيًا وللتو أدرك ما يقوله ثامر .. يتجاهل كفّي ثامر التي تشد على كتفه، وما أن نطق (روح بشّر بنته) يطير .. يركض، يشعر بأن الأرض تطوى تحته .. وما أن فتح باب المنزل الداخلي يذعر وهو لا يجدها حيث تركها، يبحث كالمجنون في أرجاء المنزل حتى توقفت أقدامه فجأة لرؤية باب مكتبة والده مرتدًا وصوتٌ ضئيل عذب يتسلل إليه، يلتقط أنفاسه مقتربًا .. يفتح الباب بهدوء لتلتمع عيناه وهو يراها تجلس بجانب والده المدثّر على سريره وبيدها أحد كتبه وصوتها البعيد يقترب :" لي وحشةِ الغـ.."

يأتي صوت والده ثقيلًا يُقاطعها :" وحشةُ"

تستدرك سريعًا :" لي وحشةُ الغصنِ الجميلِ إذا اغتدى .. سهمًا بأحلام الرماةِ محمّلا"

-" هديل "

تلتفت ويرفع ياسر أنظاره إليه، يلهث .. لا ينتظر تصفيف كلام أو تهيئته، ينطق مباشرة :" ناصر تنازل "

ثمّ لا يعلم ما حصل، بكت بحضن والده كثيرًا .. طارت إليه ليتلقاها يحتضنها يبكي معها بفرحة يظنّها معجزة من معجزات الله .. وما أن حلّقت خارج المنزل تنوي الارتماء بحضن أمها تستقبلها ريم عند باب منزل ياسر بالأحضان ..

مشهد من فرط جماله جعل يوسف يستقبلها كل صباح لمدة شهر كامل بسؤاله (فعلًا هذا واقع ولا أنا أحلم؟!) حتى هي لم تملك إجابة غير ضحكة تُشرق بحياتها وبالرياض وبالكرة الأرضية أجمع ..

~

••••••

~

جالسًا مُسندًا ظهره على قطعة إسفنج بالية، ملتفًا بفروته يضع إبريق الشاي فوق الحطب .. يلمّ كفيه لينفخ فيهما هواءً من رئته علّها تدفأ، يتأمل تطاير نثار الحطب المشتعل .. ما أن يطير ينطفئ ويموت، تمامًا ككل ما مرّ به.

كل شيء انتهى، ذلك الكابوس المزعج الذي استمرّ لعدة أشهر .. يلتقط قطعة فحم قديمة، من مخلّفات أيامه الماضية .. يفتح دفتره ليبدأ برسم ما يراه أمام عينيه، غرفة طينية قديمة مخبأة خلف سعف نخل ميت .. خبّأت خلفها أسرارًا ماضية، ثم لم يعد لها أي أهمية سوى أنها ملجأه الدائم .. مرتع ذكرياته وتأملاته، لا تحمل سوى رائحة الهيل والنعناع..

يتذكّر سؤال يوسف الذي تجاهله دائمًا وهو يُكمل لوحته (وإذا انتهينا من كل هذا؟ وش بيصير؟)، ما يحدث الآن هو جواب سؤاله .. لا شيء، لم يعد أي شيء إلى طبيعته .. باتت الأيام تخنقه، على الأقل .. كان هناك ما يُشغلهم، ما يستفيقون كل صباح على أمل حدوثه .. وقد حدث في نهاية الأمر، ثم ماذا؟ لا شيء .. تنازل ناصر، واختفى .. لو لا رسائل قصيرة يُرسلها مرةً كل شهر إليه لظنّ أنه مات، يعلم

أن ناصر لن يعود .. بأن ناصر شقّ نفسه عنهم إلى الأبد، ويعقوب .. نجا من القصاص، ثم ماذا؟ يواجه الآن عقوبة السجن لعشر سنوات، يكاد يموت من شدة مرضه .. حتى الإفراج الصحي الذي ناله سريعًا لا يُفيده بشيء، إزالة جزء من رئته جعله مكبلًا بقيود سريره في المستشفى بدلًا من قيود السجن.. وابنته، زوجة أخيه أو خطيبته؟ لم يعد يفهم ما طبيعة العلاقة بينهما .. لو لا إصرار أبيها أو إجباره لما عادت قبل أسبوع إلى جامعتها لتُكمل فصلها الأخير وتحصل على درجة البكالوريوس أخيرًا على أمل العودة سريعًا، ولو لا إصرار عمه ياسر لما ذهب يوسف خلفها .. أو ربما كان ينتظر هذه اللحظة للفرار من الرياض كعادته .. أما عمه، وإن تحسّن جسده كثيرًا حتى صار يعتمد على نفسه في معظم الأوقات إلا أنه يشهد تحطّمه يومًا بعد يوم، أدخل نفسه في وِحدة سوداء .. يرفض مساعدة أحد، بل يحاول تنفير الجميع منه .. أرسل يوسف إلى هديل حتى يتخلّص منهما، رفض الانتقال إلى منزل أم ثامر .. مُصرًا على وحدته، ما أن يدخل ثامر يتظاهر بالنعاس حتى يتركه وحيدًا ..
يقضي جلّ يومه في غرفة نجد أو مكتبته .. يكتب ويكتب ويكتب ما الله به عليم، وخالد .. الرفيق الذي أُقصي عنه

مجبرًا .. لم يُسمح له بزيارته، اسمه غير مدونٍ مع الأسماء المسموحة لها بزيارته .. لم يكفّ عن محاولاته، وإن لم تنجح يكتفي بإلقاء السلام وبوابات كُثر تفصل بينهما .. لم يجعل قلبه يرفرف طيلة هذه الأشهر إلا حدثًا واحدًا حصل البارحة، عندما وقف كعادته يسأل بروتين ممل يعرف نهايته ما إذا كان يستطيع زيارته أم لا .. ليتفاجأ بالموظف يبتسم له (مسموح!) لم يُصدقه بداية الأمر، إلا أنه كاد يبكي فرحًا والموظف يُخبره بأنه وللمرة الأولى أخبر قريبته الوحيدة بمحاولات شخصٍ ما لزيارته وما أن استفسرت عن اسمه وأخبرها عنه كادت تقتل الموظف وهي تخبره (هذا أقرب له مني، كيف مانعينه يزوره؟) وقّعت على عدة أوراق ووجهها يتراقص فرحًا، رآه أخيرًا .. وإن كان كالميت، إلا أن زيارته أنعشت روحه كما أنعش موقفها كل حياته .. إذن ما زالت تذكره، تقدّره .. ولا يعلم مالسبب الذي يجعله يتوهّم أنها نستته أو تحاول تناسيه ..

أما اليمامة ونجد ..

يزفر بقوة عند تذكّر هذه النقطة، وآهٍ من يمامة ونجدها .. تتجمّد يده عن الحركة وهو يرى بُقعة رطبة تبلل منتصف رسمته ليتمدّد الفحم وتفسد، يرفع رأسه بتلقائية للسماء

ليشهد هطول حبات المطر، يبتسم .. تتسع ابتسامته وما زال وجهه موجّهًا إلى السماء البعيدة لتتساقط قطرات المطر على وجهه ورائحة الطين والشجر تُنعش رئته، ما أن شعر بتزايده يقف لامًا أوراقه وأكوابه وإبريقه ليُخبئها عن المطر داخل الغرفة المهترئة .. لا تتوقف ابتسامته وهو يهرول إلى سيارته محتميًا بفروته، يدخلها ليُلقي بالفروة خلفه وهو يدندن باستمتاع مع ارتفاع صوت طلال مداح:" يا طفلة تحت المطر .. تركض وأتبعها بنظر .. تركض تبي الباب البعيد، وتضحك على الثوب الجديد، ابتل .. وابتل الشعر .."

يقطع طريقه الطويل مع صوت تساقط المطر على زجاج سيارته وطلال مداح، يوقف سيارته أمام محطة جديدة دخلت إلى حياته.. محطة ألفها جدًا، تداويه قبل أن يداويها .. تُغذّي روحه وهو يسمع دعوات كبير السن وزوجته، والد (الشهيد سعود) الجندي الذي لو لا رحمة الله ثم تضحيته لما كان الآن يتمتع بصحة جيدة ..

ينتهي من زيارته السريعة ليعود مجددًا إلى سيارته، وطريقٌ واحد يسلكه .. ما حصل بالأمس وإدراكه بأنها ما زالت تذكره أعاد بصيص الأمل لديه، لا يعلم أين هي وأين

تسكن .. لكن مكانًا واحدًا يعرفه وكل مُراده ألا يخيب ظنه ..

يوقف سيارته بمسافة بعيدة عن بوابة منزل جدتها، يجلس طويلًا وعيناه لا تفارق الباب والنوافذ .. علّه يلمح طيفًا يُثبت له بأن المنزل ما زال مسكونًا ولم يهجره أصحابه، دقائق طويلة ما بين تردد بالرحيل أو البقاء .. وقبل أن يجزم يُفتح الباب، يعتدل بجلسته سريعًا واضطراب حاد يُصيبه بترقب .. وسرعان ما جحظت عيناه بصدمة لرؤية عبدالله يخرج من المنزل بعكازه وامرأة تُمسك بيده تُسنده .. فتور حاد يقضي عليه، لماذا صُدم لرؤيته؟ أليس عبدالله ابن عمها القاتل؟ أليس من المفترض أن يكون هو الغريب وليس عبدالله!

يضع رأسه على مقود السيارة علّه يستعيد أنفاسه، نعم رغد لم تعد تلك الفتاة الغريبة بلا أهل حتى يذهب إليها متى ما شاء .. يرفع رأسه سريعًا على صوت طرقات على زجاج نافذته، يتجمّد للحظات ووجه عبدالله يستقبله قاطبًا حاجبيه .. يستعيد نفسه ليُنزل الزجاج وسرعان ما وصله صوت عبدالله منفعلًا :" وش تسوي هنا؟؟ "

لا ينطق، سؤال أحمق لا يُمكنه إجابته .. يُتابع بذات الانفعال :" اعتقها من شرك! .. ما استوعبت كمية الأذى اللي سببناه لها؟؟ اعتقها واكفيها شرك .. أنا وأنا ابن عمها اعتقتها من شري، عشانها بس .. حلفت بالله ما أحسسها بوجودي .. لو لا حاجة أمي وأختي لي كان رفضت الإجازة اللي فرضوها علي عشان ما أذكرها بوجودي! .. إجازة مفترض آخذها عشان أستقبل عزا أبوي اللي انقص قبل كم يوم! مستوعب! .. وانت جاي بكل بساطة هنا؟؟"

يستوعب للحظة أن عمها المُجرم تمّ القصاص منه قبل أيام، نُشرت الأخبار بفرحة للقصاص من إرهابي مجرم مثله وبعض معاونيه .. يُغمض عينيه للحظة، ماذا يُفترض به أن يقول؟ يعزّيه؟ يخرج صوته أخيرًا :" الله يصبرك، وأمك .."

اختار هذه المواساة تحديدًا دون الترحم على ذاك الهالك دون أن يشعر، يعتدل عبدالله بوقوفه بزفرة مرتفعة :" هذا آخر كلام لي معك .. روح، بوصّي أمي وأختي مجرد ما يلمحونك مرة ثانية قريب من هنا يبلّغون عليك"

يُلقيه ظهره ليعود إلى أمه ويرحل بعيدًا عنه، يتركه وحيدًا وصدى كلماته يتردد داخله .. هو حتى لم يترك له مجالًا لأن يعرف ما إذا كانت هنا أم لا، يمسح وجهه بكفيه ليقرر

الرحيل .. ما أن أعاد تشغيل السيارة يتجمّد في مكانه وباب موقف السيارة لمنزل الجدة يرتفع .. ترتفع معه أنفاسه والسيارة البيضاء تظهر له تباعًا، خلف زجاجها تظهر بوجهها البريء كما عهده .. ابتسامتها مُشرقة، يكاد يسمع صوت ضحكتها من مكانه .. سرعان ما حلّ الذهول مكان شوقه لوجهها، ذهول لأشياء كثيرة .. أولًا، هل تُخاطب نفسها؟ لأنه لا يرى أحدًا بجوارها .. ثانيًا، منظر جديد لم تعتده عيناه بعد .. رغد خلف موقد السيارة؟!

لا يعلم كم دام ذهوله وهي تخرج من المنزل بسيارتها وتقود بعيدًا عن طرقات الحي، تخرج ضحكته فجأة مذهولة .. يمسح وجهه بكفيه ليتعقبها ضاربًا بكلام عبدالله عرض الحائط، لم يتوقف ذهوله عند هذا الحد .. شعر بأنه يحلم لغرابة الموقف وهي تقف أمام حديقة كبيرة، تنزل .. وما هي إلا لحظات حتى انتقلت إلى الباب الخلفي تفتحه وقدم صغيرة تتراءى لثامر تخطو خارج السيارة ..

نعم، بات متيقنًا بأنه يحلم.. بدءًا من عبدالله، ثم وجهها الجميل وقيادتها للسيارة حتى إمساكها بيد طفلٍ صغير لا يتجاوز الرابعة من عمره! لا بدّ أنها أحلام العصر!

يجد نفسه منقادًا خلفها مجددًا، علّه يكتشف سرّ هذا الحلم الغريب.. كانت تتأرجح بالأرجوحة بمرح كبير والطفل الصغير يتأرجح بجوارها، يتكئ على سياج خشبي خلفه بقربها ينتظر ماذا سيفعل الحلم الغريب كذلك ..

كانت تحلّق بعيدًا متأرجحة لا تأبه لأحد وفجأة .. تتسع عيناها لتشهق وتحاول إيقاف الأرجوحة بقدميها إلا أنها كادت تتعثر، تلتقط أنفاسها بسرعة وعيناها تغوص بعيني ذاك الواقف أمامها متكئًا دون حراك وكأنه يُشاهد فيلمًا .. وها هو وجهه يرتفع بضحكة لتعثرها والهواء البارد يعبث بشعره.

يثبّت عينيه بعينها وهي تتقدم إليه وما زالت ابتسامته، تُشبه المطر والسحاب المتراكم ببثّ الحياة في قلبه.. كم مضى على آخر مرة رآها فيها؟ سبعة أشهر؟ لم يبلغ فراقه عنها قبل هذه المدة سوى أسابيع بعد خروج خالد من السجن.. سبعة أشهر ظنّ فيها بأنه لن يلتقيها مجددًا، بأنها ما عادت سوى ذكرى يخزّنها للقضاء على وحدته.. يسمع صوتها أخيرًا مرتجفًا وخطواتها تقترب نحوه أكثر:" ثامر؟"

يهزّ رأسه إيجابًا بذات الابتسامة :" ثامر"

تتلفت بوجهها يمينًا ويسارًا وسرعان ما حجبته عنه بكفيها وهي تستند بذراعيها على ذات السياج بجانبه، يلتفت بجسده ليتكئ هو الآخر بذراعيه على السياج بجانبها وصوته يخرج هامسًا :" رغد.."

تُطلق تنهيدة عالية قبل أن تُزيح كفيها عن وجهها لتظهر له عيناها المبللة بالدمع تتأملّ وجهه بعدم تصديق، تمرّ الثواني صامتة .. كلّ منهما يحاول استيعاب أن الآخر حقيقة وليس وهمًا ..

تتسلل ابتسامة لوجهها لتنتقل إليه، يخرج صوتهما معًا :" شلونك؟"

تقترن ضحكتهما بخفّة قبل أن ينطق :" جاوبي أنتِ .."

تتسع ابتسامتها، تُخرج محفظتها من جيبها لتُثبّت أمام وجهه بطاقتين بزهو، يعقد حاجبيه بابتسامة ملتقطًا المحفظة وهو يتفحص بطاقتي الهوية الوطنية ورخصة السياقة، يرفع الأولى :" هذي .. مبسوط لأنها وأخيرًا معك - يرفع الأخرى - أما هذي .. مذهول جدًا إنها معك! "

تُعيدهما إلى محفظتها وبتعالٍ مازح :" معي دايمًا بتنذهل! "

يرفع حاجبه مبتسمًا :" اي والله! "

تُخرج مجموعة أوراق ملفوفة داخل جيب عباءتها :" وبعد باقي بذهلك أكثر! "

يتأمل أوراق الدفتر الممزقة ومثبّتة بدبابيس حديدية باستغراب وهو يقرأ المكتوب.. (شرح معادلات الفصل الثالث) :" وش ذي بعد؟! "

تُعيد لفّها لتتسع في جيبها :" اختبار رياضيات! "

ترتفع حواجبه بذهول أشد لتعلو ضحكتها :" علّمتك! بذهلك دايمًا! "

تخرج حروفه أخيرًا بصدمة :" تدرسين؟"

تهز رأسها إيجابًا :" وبعد بكرة أول اختباراتي! "

تخرج منه ضحكة صغيرة بلا وعي مشتتًا نظراته، يهز رأسه بعدم تصديق :" رغد! .. أنتِ ما تذهليني اليوم! أنتِ تطيّرين عقلي! "

تضحك بخفّة :" أبي أخلص الثانوي بسرعة وبمعدل عالي عشان أقدر أدخل الجامعة"

يُشبّك كفيه ببعضها وهو يتأملها بابتسامة صادقة، لا تعلم بأنها تُلقي عليه أجمل أخبار سمعها على الإطلاق منذ ولادته .. يعقد حاجبيه بذات الابتسامة مازحًا :" وتتعبين وتدرسين عشان شهادة! ما فكرتِ تستعينين بقدرات

شخص محترف يحوّل هالسنين ليوم ويطلّع لك أحلى شهادة بأحلى معدل برمشة عين؟!"

تشهق بسرعة وهي تضرب ذراعه بتلقائية :" اصصص! مجنون؟ - تُحرك شفتيها ببطء دون صوت (لا للمخالفات) "

يرتفع صوت ضحكته وهي تتابع :" أصلًا تغيّرت الدنيا، صار كل شي الكتروني .. شلون بتورينا شطارتك؟ يبي لك تحترف - تعود مجددًا لتحريك شفتيها دون صوت (الاختراق) "

يمرر أصابعه على شعره بأسى كاذب :" أووف يعني راحت علينا صنعة يدنا؟! "

تهز رأسها إيجابًا بذات ملامحه :" للأسف! زمن التقنية"

يُطلق تنهيدة استرخاء وعيناه تضيع للسحب المتراكمة وبصوت جاد :" حلفت يمين أترك كل الطريق القديم، طلع بحقي حكم بالسجن مع وقف التنفيذ .. لو ما كنت ضحية بيد الإرهابيين كان تنفّذ الحكم، بس ربّ ضارة نافعة! "

تُطلق عينيها إلى السحاب مثله وبهمس مطمئن :" الحمدلله .."

يحلّ الصمت لدقيقة وحفيف الأشجار بسبب الهواء يتخلل مسامعهما .. تشعر فجأة بظهر كفه القريب منها يُلامس ظهر كفها الباردة، قشعريرة دافئة غمرتها .. تتحوّل العفوية التي لازمتهما قبل قليل إلى توترٍ مصدره كفيهما، توتر يُحرك الدم في مجرى عروقها ليتحرك خنصرها مأخوذًا بدفء كفه ليدسّ نفسه بين خنصره وبنصره .. يضمّ أصابعه ليحبس إصبعها بكفّه، للحظة كادت تقتل نفسها وهي تستوعب فعلتها .. يبلغ قلبها أقصى دقاته وهي تحاول إبعاد عينيها عن كفيهما، وسرعان ما تجمّد للحظة على صوته الهادئ :" أما جواب سؤالك عن أحوالي .. فأنا للحين ضايع في النص، تركت طريقي القديم.. وواقف مو قادر أخطي خطوة وحدة قدام"

تزدرد ريقها قبل أن تنطق محاولة تجاهل أصابعهما المتعانقة :" ادرس! "

يلتفت نحوها بعقدة حاجبين مبتسمًا باستنكار :" أدرس ؟!"

تشتت عينيها سريعًا عنه وكل مُناها أن يعتقها وألا يعتقها، ما بين وبين .. تهز رأسها بهدوء :" ايه، هي خطوة وحدة .. بس .. صدقني بتقفزك مية خطوة! "

يرفع حاجبًا ينوي الاعتراض إلا أن ارتفاع صوت بكاء حاد خلفهما أعادها إلى الواقع لتشهق مستوعبة ما نسته خلفها وهي تسحب أصابعها منه:" محمد! "

تهرول إليه مسرعة لتُمسك به وتحتضنه وسط دهشة ثامر وهو ما زال واقفًا في مكانه، يراقبها بذهول متذكرًا أكبر سرٍ أذهله .. يسير بتردد وقلق إليهما، لينطلق الصغير مجددًا يلعب بعد سقوطه من أحد الألعاب ورغد تتبعه وتُساعده.. يتكئ على اللعبة قُربهما وبترقب :" مين هذا؟! "

تتبدّل ملامحها إلى ملامح شفقة، تجعله ينطلق إلى اللعبة لتنطق بعد ابتعاده قليلًا:" أخوي "

تُعيد أنظارها إليه لترى وقع الكلمة عليه لتجده كما توقعت مذهولًا تأكله الصدمة، تبتسم :" ايه أخوي، كانت ملامحي أسوأ منك وهم ينقلون لي الخبر! .. أمه مجهولة، دخّله أبوي الحدود معه وقت ما كان عمي محتجز خالي خالد .. والله العالم إذا عندي إخوان غيره أو لا! "

تنتقل عيناه إليه وذهوله لا يتوقف، تُتابع :" للحين بمرحلة تأهيل نفسي .. "

تخرج حروفه ثقيلة :" كل هذا .. مريتِ فيه هالفترة؟"

تبتسم :" وأكثر! .. بس مثل ما تشوف، كل شي صار بخير .. نفس ما كنت تقول لي، كل شي بينتهي .. كل شي بيتحسّن .. كل شي بخير! "

لا تغيب ملامح الصدمة عنه وعيناه تنتقل للطفل، ينقاد إليه بهدوء .. تتبعه، يجلس على أطراف قدمه أمام الطفل الذي نقل أنظاره مباشرة إلى رغد بقلق لتنطق بابتسامة :" عادي حمودي .. هذا ثامر، سلّم عليه"

يرفع كفّه يطلب مصافحة الصغير، وبعد تردد ظاهر أخيرًا يُصافحه الصغير بارتياب .. ترتسم على شفتي ثامر ابتسامة غريبة وهو يهزّ كفّ الطفل بهدوء :" السلام عليكم، أنا ثامر عمر العمر .. جاي أطلب القُرب منكم ومن كريمتكم رغد، - يُخرج من جيب ثوبه (صَدفة) قديمة ملوّنة - وهذا خاتم الخطوبة، موافقين؟؟"

وكأن نيزكًا حطّ على رأسها تشعر بجسدها يتطاير، هناك عيناها .. وهناك أنفها، ويديها تنزلق فوق اللعبة، وقدماها طارت فوق الشجرة .. وعلى الأرجوحة يتأرجح قلبها، كانت تحاول جمع نفسها وهي تردد (تراه يمزح، يلعب مع الولد .. لا تاخذين الموضوع بجدية) إلا أنها عجزت عن لملمة نفسها ..

هي حتى لا تُدرك ماذا قالت له وهو يحادثها بعد هذا، كل ما تذكره بأنه كان يضحك بخفّة وجبينه محمّر! وسرعان ما غادر متخبطًا بعدما كتب رقمه الجديد على أوراق الرياضيات التي بجيبها..

وها هي وحدها بعدما ترك جسدها أجزاء متفرقة تلتقط أنفاسها، تُخرج الأوراق لتتأمل رقم هاتفه وسرعان ما زاد اضطرابها وهي تقرأ ما كتبه بخطٍ مرتبك أسفل رقمه (موافقة؟!)

تطير مسرعة إلى أخيها لتُعيده إلى السيارة، ترغب بأن تطير .. بأن تحلّق إلى السماء لتكون سحابًا متراكمًا يهطل عليه هو تحديدًا .. تسقط عليه من السماء إلى وجنتيه، وعينيه وصدره وكتفيه .. لماذا هو جميل هكذا؟! جميلٌ بشكل لا يُصدق .. بشكل يجعل كل جسدها يرتعش الآن، جميل حدّ أن رغبة عارمة تُخالجها الآن لأن تغطيّه أسفل الكرة الأرضية حتى لا يحتفظ بشكله وجماله أحدٌ سواها ..

أما هو، تاه في شوارع الرياض.. يحاول تذكّر طريق منزله إلا أنه نسيَ، يكاد يجزم بأن قلبه سيتوقف اليوم من شدة تخبطاته .. للحظة فكّر في أن يُرسل إلى يوسف رسالة يطلب منه وصف الطريق إلى المنزل، إلا أن هذا التخبّط يشعره

بلذة عجيبة، لا يُريده أن ينتهي .. قبّل أصابعه التي عانقت إصبعها الصغير ملايين المرات، ولحسن حظه توهّم رائحتها وملمسها ..

لم يقطع هذا التخبط سوى رسالة واحدة كان يظنها منها، إلا أنها أتت من رقم نسيه منذ زمن (أنا بالمطار، تقدر تاخذني للبيت؟)

كاد يُرسل (روح للجحيم يا ناصر، أنا مو فايق لك) إلا أنه وجد نفسه في نهاية الأمر يجلس أمام ناصر على طاولة المطعم يتناولان العشاء .. الجمال الذي حظي به اليوم حجب عنه رؤية تحوّل ناصر، ينطق الأخير عاقدًا حاجبيه بهدوء :" وجهك مو طبيعي، صاير شي؟! "

يترك الملعقة وكأنه كان ينتظر سؤالًا كهذا وبذات ابتسامته الجديدة :" امممممم، بسجّل بمدرسة مسائية "

تتوقف ملعقة ناصر في منتصف طريقها إلى فمه للحظة قبل أن ينطق بصوت لا يخلو من المفاجأة :" ما شاء الله! كويس! "

يُحرك ملعقته بعشوائية وابتسامته تزيد إشراقة :" و. خطبت اليوم! "

تتسع عيناه بصدمة لا يكبحها، تزيد صدمته مع متابعة ثامر :" رغد .. إذا تذكرها"

كاد يُعبّر عن صدمته إلا أن إكمال ثامر لحديثه يجعل ضحكة سخرية تلقائية تخرج منه :" كلمت أخوها اليوم"

يضحك بخفة ثامر على ملامح ناصر الذي تحولت إلى خيبة بدل المفاجأة :" فعلًا كلمت أخوها! .. بكرة بكلّم عمي نتقدم لها بشكل رسمي"

عند هذه النقطة تنقلب ملامح ناصر، يترك الملعقة ويمسح شفتيه وبهدوء شديد :" إذا انتهيت من عشاك بتلقاني بالسيارة، وراي دوام أبي أنام بدري"

*•

"يا حادي العيسِ في ترحالك الأملُ .."

:

إذا انتهينا على الأيام حجّتنا

وإن وصلنا يغنّي الرَّحْلُ والجمَلُ

- سيد البيد.

الورقة السابعة والعشرون (الأخيرة)

إضاءات ساطعة ملوّنة تنعكس على عينيها الصغيرة المندهشة، ترتفع تارةً وتارةً أخرى تهبط .. كفاها الصغيرتان تعانقان قرن الحصان الأزرق، وكفان أخرى عريضة تُمسك بظهرها، وسط ضوضاء شديدة .. مع ذلك تنتقل عيناها سريعًا لصوته الضاحك :" نويّر عيني .. تسمعيني؟!"

تُصدر ضحكة صغيرة ولا تزال علامات الدهشة تعلوها، يضحك لضحكتها .. ضحكة جميلة تشبه ضحكة أمها تمامًا.

تتوقف لعبة الحصان الدوار، يُخرجها من اللعبة ممسكًا بكفها الصغيرة إلى لعبةٍ أخرى .. يراقب ذبول عينيها، تفوّهها

المتكرر .. يُخرجها من صالة الألعاب إلى سيارته، ما إن وضعها على مقعدها الخاص وقبل إغلاقه الباب يقف بجانبها وبعجلة يُخرج هاتفه .. يفتح بريده الخاص وسرعان ما تبدّلت ملامحه، يزفر بضيق وهو يُعيد تحديثه مرارًا .. إن قام بتعداد مرات تحديثه فقط منذ الصباح حتى الآن لتجاوزت الألف مرة .. فجأة شعر بجسدٍ ضئيل يميل عليه لتتسع عيناه وهو يُعيد تثبيتها في مقعدها :" أفا يا نورة! نمتِ! "

يثبّتها بحزام الأمان، يقبّلها قبلة دافئة قبل عودته إلى مقعده وتشغيل سيارته .. يسير إلى المنزل وكل ما يُفكر به هو تلك الرسالة التي لم تصل بعد.

تقابله شمس دافئة لم يبقَ منها سوى قوسٍ صغير قبل غروبه يحجبها بين كل لحظة وأخرى نخلٌ باسق يتخلله علمُ دولة الإمارات .. منظر اعتاد عليه منذ ثلاث سنوات في كل مرة يقطع فيها طريقه إلى منزله الصغير.

يوقف سيارته في موقفها، يحمل ابنته النائمة على ذراعيه متجهًا إلى الداخل، هدوء تام يطغى على أرجاء المنزل، يعود مجددًا إلى بريده، يدعو بقلبه قبل فتحه (يارب وصلت، يارب ألقى الرسالة .. يارب يكون بخير)

- " بابا "

يبتسم وسط قلقه وهو يهزّها :" عينه .."

تهذي بكلام وسط نومها، يُعيد هاتفه إلى جيبه بعد ما ازدادت خيبته ليمسح على شعرها :" نامي، نامي يا عيني "

يصعد الدرج إلى غرفتها، كادت يده تتسلل مجددًا إلى هاتفه إلا أنه نهرها بضيق، يضعها على سريرها، يجلس بجوارها لدقائق يمسح على شعرها حتى تأكّد من نومها .. يهمس بهدوء مقبّلًا جبينها:" الله لا يوجعني فيك، ولا منك .."

يعود إلى هاتفه مجددًا وهو ما زال جالسًا على سريرها .. يُحدّث بريده، يمتعض وجهه .. وعيناه لا تنزاح عن هاتفه ..

إصبعه تحدّث بشكل مستمر ومتتابع صفحة البريد، وكأنه عاجزٌ عن مقاومة إصبعه وكفّها عن الأمر .. لا تزال الرسالة الأخيرة تحمل كلمة (أمس)، لكن ماذا عن (اليوم)؟ أين هي رسالة اليوم؟

يعود لتأمّل ابنته عساها تُشغله عن الرسالة.. هل حقًا يستحقها؟ أن يكون (أبًا) لهذا الكائن الملائكي؟ هو حتى لم يواكِب تكوّنها داخل رحم أمها .. لم يشهد ولادتها.. ولا شهورها الأولى..

تعود له ذكرى ذلك اليوم، بعدما قضى أشهرًا في المركز النفسي، كيف كان يحارب بقسوة .. أيامه في المركز وفي غرفته البيضاء لم تعد راسخة في ذاكرته، وكأنها خيوطًا من سراب .. ما يذكره أن صوت (ثامر) كان الصوت الأول الذي يسمعه بعد غيبوبة سمعه، ولسانه لم يُقوّم إلا بحضوره .. حتى اضطر ثامر لحضور معظم جلساته بتوصية من طبيبه حتى يقطع شوطًا بعلاجه، ما زال يذكر كيف كان يُلجم مجددًا عند زيارات (يوسف)، زيارات يوسف ورؤيته

لم تزده سوى ترديًا في حالته.. حتى انقطع عن زيارته ليُكمل نجد علاجه دون عرقلة.

وما إن بدأ بالتحسن وإدراك كل ما يمرّ به وبحقيقته بدأ ثامر بمحاولة يائسة لأن يستميله ليوسف (بس يبي يشوفك، يسلم عليك .. ما بيطوّل، كلها ربع ساعة بالكثير)

إلا أن صوته يخرج في كل مرة جامدًا (مو الحين، باقي ما استعديت)

حتى يوم خروجه ..

•••

(قبل ثلاث سنوات)

حمل حاجياته بحقيبة صغيرة، مرّر ناظره على كل زوايا المركز .. ابتسامات صغيرة وهو يودّع بعض العاملين، كان يسير بهدوء وبجواره ثامر .. وما إن وصل إلى البوابة الخارجية خرج صوته وهو يمدّ كفه لثامر :" أنا بسوق"

عقدة حاجبي ثامر مع ابتسامته جعلته ينطق بخيبة :" لا تقول ما جبت السيارة! مو أمس اتفقنا تجيبها؟"

يُخرج ثامر من جيبه ميدالية يألفها نجد كثيرًا، ميدالية حديدية تتشكل على هيئة غصن خزامى .. غصن حديدي سرقه يومًا ماطرًا من اليمامة، يضع ميدالية مفاتيح نجد في كفه ناطقًا :" جايب مفتاح السيارة، بس .. السيارة لا"

يرمقه بنظرة ضائقة وقبل أن يُبدي استياءه أكثر يُتابع مُشيرًا لسيارة سوداء تقف على بعد مترات منهما :" جايب سيارتي، يوسف ينتظرنا "

تضيق عيناه أكثر وهي تنتقل إلى حيث يُشير ثامر، من مسافة بعيدة يرى يوسف بثوبه الشتوي الأسود يلوّح له وهو يقف عند باب الراكب.. وخلفه، تجلس أنثى بحجابها ونظارتها الشمسية.. ما إن خمّن هويتها يبتعد مسرعًا بضيق :" ما اتفقنا كذا يا ثامر! "

يزم شفتيه وهو يُدخل كفيه بجيوبه :" أدري.. بس وش أسوي؟ مُصرّ يبي يشوفك"

يعود إلى الخلف حتى يختفي منظر يوسف وهديل عن ناظريه :" علّمتك! متى ما حسيت نفسي مستعد أنا بنفسي بروح لهم! هذا اتفاقنا من البداية .. "

يجلس ثامر على مقعدٍ قُرب البوابة بهدوء :" يوسف بكرة مسافر مع زوجته، بس يبون يسلمون عليك"

تزيد تقطيبة حاجبيه :" مشكلته، مو مشكلتي! .. - يصمت لبرهة قبل أن يُتابع- روح اركب معهم، أنا بركب تاكسي يوصلني لسيارتي .. بس علمني وينها؟"

يقف مجددًا وهو يرفع هاتفه وسرعان ما نطق مُجيبًا على الهاتف متجاهلًا سؤال نجد :" ايوه يوسف .. أنا قايلك من قبل! .. خذوا لكم تاكسي وروحوا وبكلمك بعدين.. وعد، بس روح الحين"

يُغلق هاتفه ليعود صوت نجد مُصرًّا :" روح معهم "

يهز رأسه نفيًا :" مو تبي سيارتك؟ باخذك لها"

يمسح وجهه ليهدّئ نفسه، يرفع عينيه لثامر برجاء وهدوء :" ثامر، تكفى .. أحتاج كم ساعة أجلس فيها وحدي، ممكن؟ كم ساعة بس .. أعرف إن الدكتور منبّهك علي، بس ما تكون ظلي! كم ساعة بس أراجع فيها نفسي .. لو أنا مجنون أو مو كفو أمشي وحدي ما كان طلعت! أنا بخير..

بس اتركني شوي، الساعة ستة المغرب أوعدك تلقاني ولا أردّك .. إذا يريّحك بشاركك موقعي المباشر"

يخرج زفرة طويلة، يذكر تنبيهات الدكتور بإعطاء نجد مساحة خاصة بعدما تجاوز صدمته واضطرابه النفسي مع متابعة حالته المستمرة، ينطق بعد تردد :" زين، ارسل موقعك وأنا برسل موقعي .. الساعة ست كلنا نكون بالشقة، تركت لك مفتاحها مع مفتاح السيارة "

يتنفس بارتياح مع وقوف ثامر الذي تابع مطبطبًا على كتفه قبل مغادرته :" إذا احتجت شي كلمني - وبصوت مرتفع وهو يبتعد- الساعة ستة اتفاقنا لا تنسَ"

يرحل مبتعدًا تاركًا نجد وحده للمرة الأولى منذ فترة طويلة، يقف في مكانه بوحدة لم يشعر بها من قبل .. يتعرّف على معناها للمرة الأولى، يخطو خطاه بحرية مبتعدًا عن المركز.. برودة قارسة شديدة تستقبله وهو يمشي على قدميه في الشارع، خواء ساحق يلفّه، لا يعلم لمَ فجأة داهمته ذكرى قديمة جدًا، وهو في سنته الجامعية الثانية ..

كان يوسف ما زال في بداية خوضه لدراسته الجامعية بعدما انقطع عامًا كاملًا بسبب الحادث الذي أودى بأمّه وتسبّب بكسرٍ له، سؤاله متحمسًا لأخيه وهو يقابله في الشارع بعد انتهاء الدوام الدراسي (كيف كان أول يوم؟!)، صوتٌ باهت لا ينمّ عن الحياة استقبله من يوسف (عادي)، في نهاية اليوم .. وأثناء استعداد نجد للنوم خرج صوت يوسف مضطربًا (نجد، أحس في حاجز يفصلني عن الناس والعالم.. أحس بوحدة غريبة) يذكر أن ابتسامته خرجت واسعة وهو يتلحّف بلحافه (عادي! هذا شعور طبيعي يجيك بأول شهر بالجامعة .. بعدها صدقني بتندمج مع العالم كله) لم يلحظ الخيبة التي خلّفها بوجه يوسف الذي نطق بهدوء وهو يغطّي وجهه بلحافه (ممكن!) لم يكن يعلم بأن وحدة يوسف لم تكن محدودة بفضاء الجامعة الضيّق، بأنه قصد وحدة شاسعة تلفّه عن الجميع حتى عائلته .. خيّبه نجد وقتها، أما الآن .. وهو يسير وحيدًا ملثمًا بشماغه ليقي نفسه البرد أدرك ما يعنيه يوسف، كان دائمًا ما يتساءل .. كيف تكون الوحدة؟ كيف يشعر يوسف؟ ضباب أسود ما كوّنته نفسه عن مصطلح (الوحدة).. لكن الآن، وهو يلمس الوحدة ويشعر بها تكبر داخله أدرك أنها

شعور باهت لا يوصف، شعور مرّ بإحساس روحه المنفصلة عن جسده .. حتى (نجد) بات غريبًا عن (نجد).

السير وحيدًا على أرصفة الشوارع الباردة والجافة أنهكه، يرفع هاتفه ليرسل رسالة إلى ثامر (وين السيارة؟) .. انتظار ردّ ثامر كلّفه نصف ساعة ثقيلة وكوب قهوة دافئ من أحد المقاهي المكتظة، يعقد حاجبيه بضيق .. لماذا بات الضجيج يُتعبه؟ وهو الذي كان دائمًا مُشاركًا بالضجيج في أي مكان يدخله .. ضجيج مُبهج ينمّ عن الحياة.

ما إن وصلته رسالة ثامر أطلق زفرة منهكة (قدام باب بيتكم، إذا ودك بجيبها لك) في منزلهم؟ ألم يجد ثامر مكانًا أفضل من المنزل؟ لا قدرة له على المواجهة الآن إطلاقًا .. يكفيه نفسه التي يواجهها ويقرّر مصيرها الآن، يقف بعدما أرسل إلى ثامر (لا) ..

يستقل سيارة أجرة أوصلته إلى المنزل، أحكم لثامه ما إن دخلت السيارة شارع الحيّ .. ضربات قلبه ازدادت توترًا لرؤية جدران الحارة .. جداريات ثامر القديمة تُميّز الحارة

عن جاراتها، في الساحة الواسعة أمام المسجد كان يركل الكُرة مشكّلًا فريقًا لا يُقهر مع يوسف وثامر .. وهناك كان يجلس ليلتقي بشبّان الحي محلّلين مباراة الدوري الحاسمة أو الأحداث السياسية، مروره بمنزل (أمي نورة) كما اعتاد تسميته صغيرًا زاد ضرباته.. وكأن دهرًا انقضى على المرة الأخيرة.

ما إن ترجّل من سيارة الأجرة حاول جاهدًا أن يطأطئ أنظاره هربًا من رؤية منزلهم، تستقبله سيارته الواقفة تحت الشجرة الضخمة.. يركبها مسرعًا هربًا من ظلّ جدران المنزل، يُغمِض عينيه متنفّسًا الصعداء ما إن أغلق بابها ..

لحظة تتلوها لحظة أخرى .. دقيقة حتى عاود فتح عينيه، ترتفع عاليًا دون مقاومة .. إلى النافذتين المتجاورتين، نافذة كانت دائمًا ملاذه .. مصدر أمانه .. إطلالتها دنيا كاملة، تخبئ خلفها ملجأ لو علم الناس بسلامه لوقفوا على بابها سنينا.. وما هي الآن سوى نافذة تُثير رهبته، تدفعه للهروب بعيدًا عنها .. لا إضاءة تنبعث منها، ميّتة تمامًا .. على نقيض النافذة الأخرى، نافذة غرفته الصغيرة .. هلعٌ مفاجئ يُصيبه

وهو يرى إضاءتها الخافتة .. حركة جسد خفيفة من خلف الستار الخفيف.

يُنزل رأسه مسرعًا مشغّلًا السيارة حتى يئد نفسه من الركض نحوها، إلى ظل الشخص الواقف خلف ستارها يسأله باسم الله أن يُخبره بأنّ كل هذا مجرد كابوس سينتهي ما إن يفيق من نومه..

ينطلق بها مسرعًا وتنفّسه يضطرب أكثر، تذبل عيناه سريعًا .. يوقفها بعدما قطع طريقًا طويلًا شاقًا لقلبه .. وكأنه كان يركض بها بقدميه.

يُغطّي وجهه بكفيه ليمنع بكاءً محتقنًا داخله من الخروج، ليس بكاء شوق .. أو ألم أو خيبة، بكاء قلّة حيلة، بكاء رثاء لنفسه ولا أحد سواها ..

يأخذ شهيقًا طويلًا ليزفره، مرة ومرتين .. عدة مرات حتى أبعد كفيه عن وجهه، لا بكاء .. نجح بابتلاعه، لا وقت لمزيدٍ

من البكائيات .. يُعيد سيارته إلى طريقها، إلى شقة ثامر .. تعمّد حضوره مبكرًا حتى ينفرد بنفسه بعيدًا عن ثامر.

يجلس على جلسة أرضية أمام المدفأة وبيديه دفتر وقلم وجدها بين حاجيات خالد، يُقيم بحثًا مطوّلًا استغرقه ساعات على هاتفه .. مدوّنًا ملاحظات طويلة.

ينتهي من بحثه ليبدأ برسم عدّة دوائر تحوي أسماء عديدة مرّت بحياته .. تمتلئ الصفحة بالدوائر والأسماء، يشقها ليضعها أمامه.. يفتح صفحة جديدة، يدوّن عليها رصيده البنكي .. شهاداته وخبراته ومهاراته، يتأمل الورقتين مطولًا .. يبدأ بتصفية ورقة الأسماء معلّمًا حرف (x) على الأسماء تباعًا، يفرغ من تشطيبها .. معظمها نالت نصيبًا من حرف (x) بما فيهم اسمي (يمامة ويوسف).

يتأمل الأسماء المتبقية، بعضها لزملاء دراسة .. شركاء أبحاث من مختلف الدول، أساتذة مرّوا عليه بتحضيره لرسالة الماجستير، من المغرب .. الأردن.. مصر .. الكويت.. الهند .. بريطانيا والإمارات، يُعيد تصفيتها مجددًا مستعينًا

بمعطيات بحثه الأول.. ليُبقي على أستاذه من مصر، زميله من الكويت، وآخر من الإمارات .. يحشد كل المعلومات التي تهمه عن هؤلاء الثلاثة وبلدانهم حتى رجحت كفّة زميله الإماراتي.

يبدأ صفحة جديدة وبحث أدق عن أول أسباب ترجيحه للإمارات، المُعالج النفسي الصيني الذي نصحه به أحد متدربي المركز النفسي قبل أيام من خروجه.. ما ستُكلّفه جلسات علاجه معه، الشقق السكنية القريبة .. دار النشر التي يملكها زميله في مدينة العين .. تصوّراته عن مرتّبه الشهري.

يرسم جدولًا آخر لاسم (اليمامة و"س") يحتوي على حساب نفقة مطوّل، يترك القلم بزفرة ورأسه بدأ يؤلمه .. يضيق دون إيجاد حل لموازنة عادلة بين مخططاته ومدخراته.

يعود للورقة الثانية، حيث الأسماء.. معظمها نالت نصيبها من الحذف، جميع الأسماء التي عرفها بحياته، إلا اسم

واحد عجز عن كتابته فضلًا عن حذفه .. لم يبقَ لديه سوى ثلاثة أسماء (ثامر، يعقوب، منصور الزميل الإماراتي)

تتسلّط عيناه على الاسم الثاني بمشاعر غريبة، يُعيد إحاطته بالقلم مرارًا وعقله يدخل دوّامة ساحقة بين الأحرف الخمسة (يعقوب) ..

يفيق فجأة من دوامته على صوت منبّه هاتفه يُنبئه بتمام الساعة السادسة، لو لم يُزِح الستار ويشاهد سواد السماء لظنّ أن ساعة هاتفه معطّلة! كيف فاتته صلواته دون إدراك؟ هل تشتّته وصل إلى صلواته؟ يتوضأ مسرعًا ليُصلّي ما فاته.. وفي أثناء جلوسه الأخير يصل إليه صوت رنين الجرس، هل نسيَ ثامر مفتاحه؟ أم أنه تعمّد ذلك حتى يُبقي له مساحة خاصة؟

ينتهي من الصلاة لينهض إلى الباب، يفتحه ببرود ظنًا منه بأن ثامر من يقف خلفه .. ليتفاجأ بيوسف، ما إن التقت عيناهما ترفّ جفونه.. يكسر نظرته سريعًا يُشتتها عن عيني يوسف وابتسامته المُشرقة، يُعيدها متنهّدًا على صوت

يوسف وهو يرفع ثلاجة القهوة بيمينه وحافظة الطعام بيساره :" أدوّر أحد يتقهوى معي، ما لقيت غيرك"

يشرّع الباب أكثر ليدخل يوسف ويغلقه خلفه، ما إن دخلا الغرفة يتذكّر نجد أوراقه ومخططاته .. يلملمها سريعًا ليدسّها بعيدًا عن عيني يوسف الذي نطق بهدوء وهو يمد فنجان القهوة لنجد :" الجو اليوم أبرد من العادة"

يهز رأسه إيجابًا بهدوء ملتقطًا فنجان القهوة دون أن ينظر إليه، يُقرّب إليه حافظة القشد وبصوت ليّن :" ما كان ودي أجيك وانت رافض، بس بكرة الصبح رحلتي .. ما ودي أروح وأنا باقي ما شفتك وسلمت عليك .. أعرف يا نجد بكل اللي تمر فيه، وأعرف إن لك حق ترفض تشوف أحد لين تقرر بنفسك .. بس أخاف تتعود! أخاف تستمر بعزلتك عنّا وأفقدك"

ما زال لا ينظر إليه، عيناه لا تتجاوز فنجان قهوته.. يُتابع يوسف :" يوم كان ثامر يعلمني إنك رافض تشوفني ما أخبّي

عنك كنت أشيل بقلبي عليك، ليه تصنّفني معهم؟ ليه ما تعدّني مثل ثامر.."

يُقاطعه أخيرًا بصوت منخفض مبحوح هازًا رأسه نفيًا :" الموضوع مو كذا .. كان شي نفسي مو بيدي"

تبتهج ملامحه مجبرًا لتجاوبه أخيرًا معه، وإن كان لا ينظر إليه .. يبتسم :" أدري، ولك كل حق باللي تسويه .. بس أبيك تذكر إن يوسف أخوك، بحياتي ما وثقت بشخص كثرك .. تمنيت لو أعطيك لو جزء من اللي عطيتني، كنت دايمًا واقف معي بكل أزماتي أكثر حتى من أبوي"

عند هذه الكلمة تتبدّل ملامح نجد، تذبل بشكل موجع .. لم يكن يعلم يوسف مدى وجع كلمة (أبوي) عليه حتى هذه اللحظة، زمّ شفتيه ضائقًا متمنيًا لو بتر كلمته.. ينطق متداركًا :" نجد مهما صار اعرف إن لك حق بأي شي تسويه، تبي تعاقبهم تبي ترفع قضايا كل شي من حقك، اللي صار .. واللي سووه صعب تسامحهم عشانه، كلهم بدون استثناء.. أبوي، عمي يعقوب، جدك .."

يُقاطعه مجددًا قبل أن يسرد عليه كل الأسماء المذنبة بصوتٍ هادئ :" شلونه؟"

يشتت أنظاره سريعًا هربًا من عينيه، يبتلع القهوة دفعة واحدة ليصبّ له مجددًا .. لا يعلم بماذا يجيبه، ليس بخير .. يجلس معظم وقته وحيدًا في غرفتك يا نجد؟ أو في مكتبته يكتب أضعاف ما كان يكتبه؟ أو يُجيبه بأنه بخير حتى لا يجزع؟ بخير ونجد ها هنا ليس بخير؟

يتجاهل حرارة القهوة لينطق :" امممممم، خلاص صار يمشي طبيعي .. حركة يده شوي ثقيلة.."

يقاطعه للمرة الثالثة بسرعة واضطراب وهو يُدرك فهم يوسف الخاطئ:" ااا أقصد أبو .. هديل"

لوهلة حلّت الدهشة على ملامحه، لماذا ذهب به ظنه إلى أبيه هو وليس يعقوب؟ أليس يعقوب هو والد نجد؟ من يرقد الآن في المستشفى متأثرًا بإزالة جزء من رئته؟ .. يشتت

أنظاره :" امممم يعني .. بعد ما أخذ الإفراج الصحي استأصل جزء من رئته، معظم وقته بالمستشفى"

يرفع أنظاره بهدوء: "أي مستشفى؟"

ما إن أعلمه باسم المستشفى يذيّل كلامه باسمًا يُطمئنه: " بس تطمّن، بخير وإن شاء الله يتحسن أكثر مع مرور الوقت"

يبتسم للمرة الأولى منذ حضور يوسف، ابتسامة سخرية لا مبالية :" ليه تطمني؟ تحسبني أهتم؟ ما يهمني يا يوسف ولا أقدر أدّعي الاهتمام"

يحلّ الصمت، لا يمكنه لومه .. إن كان هو ما زال يحمل في قلبه لومًا كبيرًا لوالده ويعقوب فماذا يتصوّر إذن من نجد؟

يُكمل قهوته دون حديث، يقطع الصمت حضور ثامر محمّلًا بحقيبة ملابس وما ينقص نجد وسرعان ما ابتهج لوجود يوسف وتجاوب نجد معه.. يُمضي يوسف ساعة

أخرى برفقتهم قبل استئذانه لتجهيز نفسه قبل إقلاع الطائرة، وما إن انفرد ثامر بنجد ينطق :" بكرة الظهر بمرّك نروح لليمامة"

تتجمّد حركته للحظة قبل أن يتمدد على فراشه بهدوء :" إن شاء الله.. طفّي النور بعدما تطلع"

تتسع عيناه للحظة، كان يظن بأن جدالًا طويلًا سيمضيانه وهو يحاول إقناعه برؤية اليمامة، يبتسم .. يُطفئ الإضاءة ثم يغادر تاركًا نجد خلفه.

مع شروق الشمس جهّز حقيبته الصغيرة، دسّ أوراق بحثه المطوّل داخلها بجانب ملابسه وأغراضه الشخصية .. حملها خارجًا من الشقة، متجهًا بسيارته إلى المستشفى .. ليس حيث ترقد اليمامة، بل إلى شخص آخر .. إلى يعقوب.

انتظر حتى حلول موعد الزيارة، يعلم أن طائرة يوسف وهديل حلّقت قبل سويعات، إذن لا وجود لهما .. يتنفّس

مرارًا وهو يقف قُرب باب الغرفة، شهيق .. ثم زفير، عدّة مرات حتى طرد توتره ..

فجأة يُفتح الباب مقترنًا بصوت أنثى باسم منخفض :" زين عمّي إذا احتجت شي علمني.."

تغلق الباب خلفها أمام نجد الذي وقف يترجم كلامها بداخله، عمّي؟ فجأة تهجم عليه ذكرى قديمة .. وسمٌ على (تويتر) مُشيرًا إلى ابنة الشيخ بتهكّم، ريم! ابنة الشيخ موسى!

يزفر وهو يُبعدها عن عقله، غادرت الغرفة مباشرة دون أن تُلقي عليه نظرة .. يتقدّم خطوة ويده تمتدّ إلى الباب مرددًا داخله (حقك يا نجد، حقك .. لا تتراجع).

يفتحه مُسرعًا قبل تراجعه، يتلبّسه برودٌ يزيد رسميّته وخطاه تدخل الغرفة وصوته يعلو وهو ينقل أنظاره إلى المسجّى بضعف وجهاز التنفس موصول به :" السلام عليكم"

ترتفع أنظار يعقوب إلى الشاب الذي ينظر إليه ببرود، منذ علِم بوصول زائر يحمل اسم (نجد بن ياسر) وقلبه يهبط ويرتفع .. حاول جاهدًا ألّا يُظهر توتره لريم، لم يتوقع زيارته بهذه السرعة، بعد خروجه من المركز النفسي مباشرة! هل أتى ليتفقّده؟ ليقدّم واجب الرعاية (لأبيه)؟ أم أتى ليسمع منه ويلومه؟ .. يخرج صوته ضئيلًا متعبًا :" وعليكم .. السلام"

يجلس نجد على مقعد الضيوف بعيدًا عنه، يحلّ الصمت لدقيقة .. كلّ منهما يلملم كلامه، كيف يدعوه يعقوب للاقتراب منه؟ كسر جدار البُعد بينهما؟ كيف يبدأ بسرد اعتذاراته وندمه؟ كل ليلة قضاها يبكيه؟ هاجس (نجد) الذي لم يُفارقه للحظة .. كيف أمرضه ما فعله به، جُبنه وضعفه .. كيف يُخبره بأنه فخور به؟ وهو الذي لم يُساهم في تكوينه؟ كيف يرجوه بأن يسامحه قبل أن يأخذ الله أمانته؟

صوت عقارب الساعة تُذكّر يعقوب بأن كل لحظة تمرّ تؤخذ منه، بأنها قد تكون المرة الأخيرة له مع ابنه.. يعتدل

بجلسته راسمًا ابتسامة حنو صغيرة :" ما تحتاج أضيّفك، انت مو ضيف .. "

يرفع أنظاره نجد له بذات الرسمية، ليقطع ابتسامة الحنو عن وجه يعقوب :" ما جيت عشان تضيّفني، جيت أقول كلام أدري إنك تحتاجه أكثر مني .. تبي السماح؟ أنا مسامحك .. ويوم الدين ما بيننا شي نتحاسب عليه، أنا مسامحك من كل قلبي بس بالمقابل أبي منك شي أحتاجه .. بعد كل اللي صار، ما أقدر أستمر بحياتي القديمة.. ببدأ من جديد، بعتبر نفسي توني مولود على هالحياة .. بس رصيدي البنكي ما يسمح لي أبدأ حياة كاملة! بعد شهرين بتولد بنتي .. أبي أأمّن حياتها، بوفّر لها حياة كريمة ما تشيل همها طول عمرها .. وأمها، ما يغيب عنك حالتها.. بوفّر لها سكن وأرض باسمها - يُخرج ورقة من جيبه - كل اللي أحتاجه كتبته، أعرف إن بعد ما رجع لك اسمك رجعت لك كل حقوقك وأراضيك، وأنا لو ما صار اللي صار كان قدرت أعيشهم، ما أظن اللي أطلبه يفرق معك بشي .. ولا أظنه شي غالي مقابل السماح عن كل شي .. كل شي بداية من أمي واللي أعيشه اليوم واللي ممكن يصير لي مستقبلًا! "

تبهت ملامح يعقوب، يبتلع غصة تحجّرت بداخله.. ماذا كان يظن؟ أليس السماح هو ما ينشده؟ لكن بهذه الطريقة؟ وكأن ما يربطهما عقدٌ وظيفي ينتهي بإتمام حقوقهما؟ أليس هذا ما يستحقه بعد كل شيء؟ مرورًا بأمه كما يقول إلى أن حطّم حياته ومستقبله الآن؟

يُغمض عينيه حتى يزجر دمعه، يفتحها متنهدًا .. ينحني إلى خزانة بجواره، يُخرِج منها بطاقة صغيرة :" هذا رقم وعنوان المحامي فيصل، تواصل معه .. أعرف إن لك حق بالورث، بس باسمك هذا مافي شي يثبت .. لهالسبب سجلت لك هبة باسمك، روح عنده وكمّل الإجراءات"

بكل بساطة يقف نجد مقتربًا منه، يأخذ البطاقة ليتجه إلى الباب :" عن إذنك"

يوقفه صوته مبتلعًا غصته :" لحظة.."

يقف ليعود بأنظاره إلى يعقوب، يُتابع الآخر بصوت حاول تمالكه :" سمعت طلباتك، باقي تسمعني... مابي منك غير ثلاثة أشياء، بنتك.. لا تحرمني شوفتها، وأختك وأمها.. لا تقطعهم بعد موتي مالهم ذنب بشي، وزُر قبري وقبر أهلي"

يصمت مطولًا بجمود قبل أن ينطق بذات بروده :" بنتي ما بحرمك شوفتها بس القرار راجع لأمها، ووو.. الباقي؟ إن شاء الله! "

ويخرج، يترك خلفه يعقوب يلملم وجعه.. كل آماله وأحلامه تتهاوى، ماذا لو أبقى الأمر كما كان سابقًا .. لكان يزوره نجد الآن باسمًا ضاحكًا يُناديه (عمي عبدالعزيز)، لكان يدعو له بصدق، لا يهم إن كان يعقوب أو عبدالعزيز لكن المهم أن يضحك بوجهه، سيزوره بعد موته كما عوّده (ياسر) على زيارة قبر (يوسف) بطيب خاطر وليس كما يبدو على صوته وهو ينطق (إن شاء الله!) تمنّى لو أنّ ناصر لم يعفُ عنه .. لو مات قبل هذه الدقائق المعدودة حتى لا يرى نجد بهذه الصورة القاسية.

أما نجد، يمضي إلى سيارته، لا يعلم كيف قضى تلك الدقائق، من ذاك الذي كان يُحادثه؟ يُقال بأنه والده.. فقط (يُقال) أما ما يقوله قلبه بأن هذا ليس سوى رجلٍ هدم عمره الذي بناه، يملك مالًا يرمّم كل حياته التي هدمها.

يؤجّل لقاءه بمحامي يعقوب لاحقًا .. يسلك طريق مكة، يتجاهل عتاب ثامر لسفره المفاجئ .. ينفرد بنفسه أمام الكعبة، يشهد غروب الشمس كل يوم على مدار أسبوع كامل من أعلى جبل النور .. مشهد بديع جعله يتساءل لماذا فوّته طوال سنين عمره؟

مشهد سمح لاسم (أبوي، ياسر) أخيرًا بالمرور على لسانه وذاكرته وعقله، منذ كان في المركز النفسي وعقله يفرّ فرارًا من كلّ شيء يحمل اسم ياسر.. حتى هروبه من يوسف لم يكن إلا بسبب ياسر، في المرة الأولى لزيارة يوسف له في أول أيامه داخل المركز أصابه هلعٌ شلّ لسانه مجددًا .. كان عقله يصوّر له بأن هذا الشاب الوسيم ليس سوى (ياسر)، والده الشاب الثلاثيني .. عاد من الماضي ليزوره، لم يكن يتصوّر مسبقًا بأن يوسف حمل كل ملامح والده، كان دائمًا

في صغره ما يشعر بغيرة شديدة بسبب الشبه الكبير بينهما .. حتى أقنعه والده ذات ليلة بحيلة صدّقها وعاش عليها (يوسف يشبهني من خارج، بس انت يا نجد ماخذ جوهري .. وش الجوهر يُبه؟ .. الجوهر يا ولدي هذا) يضع كفه على قلبه مثلما وضعها ياسر ذلك الوقت، هو أعلم الناس بهذه الحقيقة .. جوهر ياسر الذي نسجه داخله لا يُمكنه نكرانه، وكيف يُنكر الإنسان جوهره؟

من أعلى الجبل يصرخ .. يُناديه (يُبه) بحاجة لأن يخرجها من جوفه، بأن يواجهها .. لا أن يهرب من هذه الكلمة تحديدًا .. يبكي ذلك الغروب كما لم يبكِ مسبقًا، حتى جعلها عادته طوال أيام مكوثه في مكة، يُناجيه ويشكوه إليه .. وكأنه ماثلٌ أمامه، إن استطاع تجاوز كل شيء وجميع من يسكن الأرض لن يقوَ على تجاوزه، حادي العيس الذي سار به طيلة سنين عمره .. لم يكن ليتبع حداءً آخر غير حدائه، لم يُطرب يوما لغيره .. كيف يتيه عنه وهو الذي لا يعرف سواه؟ كيف يعود إلى قافلته بعد ما غاب عنه حداؤه؟

لم يكن قادرًا على ترك مكّة وجبالها حتى ملأ شعابها صراخًا، حتى أفرغ كل بكائه لحاديه إلى أن استقرّت نفسه، ودّع الحجاز عائدًا إلى نجد بنفسٍ هادئة تلفّها السكينة .. لم تكن نفسه الوحيدة المستقرّة، قابل ثامر بروحٍ أخرى .. روح طفل مبتهجة تشعّ منها الابتسامة، حتى أنه لم يجادله بسبب سفره المفاجئ، بل تجاهل كل شيء بابتسامة ملؤها الحياة (نجد، قررت أتزوج)، لا ينكر بأنه تفاجأ .. إلا أنّ ما يشغله جعله يتناسى فرحة ثامر الذي راح يردد أخبارًا مبشرة (خالك رجع أمس، ودك نزوره بعد يمامة؟)

التقط نفسًا عميقًا قبل جوابه :" لا بزوره بعدين بأي وقت"

"يعني نروح لليمامة الحين؟"

يصمت مطوّلًا قبل جوابه :" ثامر، أنا مو أهل لها .. "

تتسع عينا ثامر بصدمة ليُسارع نجد بإتمام حديثه :" صدقني عشانها، أبي لها كل خير .. مابيها تتعب معي، أنا

خلاص انسلخت من نفسي القديمة .. ما عاد فيني طاقة أعطي، يكفيني نفسي ثقيلة علي .. أعرف لو استمريت معها بهالوضع بضرّها"

يمسح عينيه المتفاجئة ليزفر هواءً حارًا، ينطق أخيرًا :" نجد، انت للحين ما تجاوزت كل شي .. لهالسبب تفكر بطريقة غلط، تتركها فجأة الحين؟ وهي بين الحياة والموت! انت ما شفتها يا نجد .. ما شفت كيف حتى نومها بتوقيت محدد، ما تنام ساعتين على بعض، جسمها صاير مليان أدوية أكثر من دمها! كل حركة محسوبة عليها، إذا فاتها تمرين ينحسب من عمرها ومن صحة بنتك! لو شفتها صدقني ما بتعرف.."

يُقاطعه منفعلًا بتعب وهو يُمسك رأسه بكفيه :" خلاص تكفى اسكت .. - تذبل عيناه بوجع وضيق - أدري! وندمان لآخر عمري لأني تسببت لها بكل هذا، لو عرفت من البداية كنت برفض وبقدّم صحتها على الجنين.."

يُبادله ثامر المقاطعة بذات الانفعال:" تسقطه؟ تعرف إن مافي شي مخليها لليوم حيّة بعد إرادة الله إلا تعلقها بالبنت؟ ما تشوف شي غيرها .. أدعي الله كل ليلة تعدّي ليلة ولادتها بسلام لأنها لو سلمت بس بالمقابل فقدت البنت ما أتخيل وش ممكن يصير بعقلها! أخاف تلحقها"

يُرخي جسده المشدود على ظهر الأريكة وصداع رأسه يتفاقم :" تكفى لا تزيدها علي، كل اللي متأكد منه إني بضرها أكثر .. بتكون بخير بعيد عني، بسافر وبستقر مبدئيًا في العين، بوفّر لها كل شي تحتاجه .. خلال كم يوم بستلم بيت، بسجله باسمها ..."

تضيق عيناه :" لحظة لحظة، تقول بتستلم بيت؟ "

يهز رأسه إيجابًا بهدوء :" من يعقوب"

يصمت لبرهة مذهولًا قبل أن يقف ضائقًا :" تاخذ منه بيت؟ وتظن إني بتركها وحدها؟ عاجز أتحملها؟ بشيلها هي وبنتها بعيوني.. ولو تبي بسجل بيتنا وكل اللي بيدي باسمها..

وإذا انت مثل ما تقول حتى نفسك ثقيلة عليك فأنا بكون أب لبنتك، وانت .. لملم نفسك وروح شوف حياتك"

يزم شفتيه ليزفر أخيرًا :" أنا متأكد بتعذرني إذا حطيت نفسك بموقفي، بعد كل شي تبيني أفتح يديني وأنادي حيّ على الحياة؟ كل شي راح بالنسبة لي غصب عني وبحاول أبدأ من جديد .. ببعد عنها وعن بنتي، مابي أحطمهم، مابي أضرهم! مابيهم يعيشون اللي عشته! وأول ما أعرف إني قدها بحاول أعوضها"

يهز رأسه وبسخرية :" مثل أبوك! ما تعلمت! ترجع تعيد نفس الأخطاء، ولا جا بكرة تندب حظك وتبكي ندم وتصيح وين بنتي؟!"

يعود لمقاطعته بذات الهدوء :" ما بقطعها، بس ألملم نفسي وأحاول أكون طبيعي وبعدها بزورها .. بس ما أقدر آخذ أمانة تربيتها، كبيرة علي! "

يحمل هاتفه وقبل رحيله :" عالعموم إن كان باقي بعقلك ذرة تشتغل روح الحين ولا تطلقها إلا بعد الولادة وبعد ما تستقر حالتها، بعدها الله يوفقك .. ما عاد أدري اللوم على مين والله! "

ومنذ اليوم التالي بدأ بإجراءاته مع محامي يعقوب، لم يشعر بصدمة وهو يُدرك أن (هبة يعقوب) تجاوزت ما خطّط له، هل يُعطيه نصيبه من الورث قبل موته؟ أم أن هذا اعتذار لكل أخطائه؟ لا يهمّه التفكير بالأمر .. ما بداخله يُخبره بأنه يستحقّ ذلك بعد كل شيء فقده.

لم يتمكّن من وداع الرياض إلا بعدما زارها في المستشفى فجر رحيله، إن عجز عن وداع (حادي العيس) فلن يفوّت وداعها، لم يكن بجوارها أحد ذلك الفجر سوى ابنة خالها الكبرى، حمد الله مرارًا لكونها نائمة، لأنها لو لم تكن كذلك لأجبر نفسه على تفويت وداعها هي الأخرى.

هاله منظرها، لم تكن اليمامة التي يعرفها مطلقًا، بطنها المتضخم، وجهها الباهت، علامات الإبر بمعظم جسدها.

تعود له ذكرى يوم العيد .. جنونهما معًا الذي سمح لجسديهما بالاندماج، لو لم يحصل كل ذلك!

كيف كانت ثقتهما بصحّة ما يفعلانه، حلال.. بعد أيام زفافهما، إذن لا ضير بفعل الأمر ما دام سيحدث بعد أيام قليلة! ثم ماذا؟ فارقها إلى الأبد..

علِم في قرارة نفسه لحظة مرور كفه الباردة على بطنها المنتفخ كم يحبّها، إن تغيّر كل ما فيه فحبّها أمرٌ ثابت لا يحتمل التغيّر، حبٌّ ينهشه بوجع، تلك الطفلة التي تربّى معها .. عرف كيف تكون الفتنة الأولى معها، ولحبّها قرّر عتقها منه.. ستتعب، وتبكي، لكن ليس كما ستبكي وتتعب إن كانت معه، مع نفسه الجديدة التي لم يتعرّف عليها بعد.

ارتفعت كفّه إلى شعرها، مسح عليه بهدوء قبل أن يقبّل جبينها وعينيها وبهمس حتى لا تشعر به :" أستودعتك الله يا روحي"

أعاد تمرير كفه على بطنها، متخيلًا بأن ابنته تُبادله المصافحة الأولى، ردّد في نفسه لها الأسف، ستكبر وتعرف بأنه كان محقًا.

رحلَ إلى الإمارات، مدينة العين .. لم يلتفت إلى الرياض، أرضه الحبيبة التي حملت كل ذكرياته وحبّه وانتمائه، غادر نجد بعدما أودع (نجد) فيها .. ولسان حاله يُردّد ما نظمه الصمة القشيري:

"قِفا ودّعا نجدًا ومن حلّ بالحمى

وقلّ لنجدٍ عندنا أن يودّعا"

•••

" نجد؟ "

يرفع رأسه سريعًا لزوجته وهو يُغلق شاشة هاتفه، تنطق وهي تقترب منه:" متى رجعتو؟"

يبتسم هامسًا وعيناه تنتقل إلى ابنته :" توّنا الحين "

تقترب أكثر وملامح حنو ترتسم عليها لنورة النائمة بسلام :" يا عمري! دامها نامت يعني فرغت طاقتها باللعب"

بابتسامة مماثلة يقف هامسًا :" زين تعالي نطلع لا نصحّيها"

تقبّل خد الصغيرة قبل خروجهما، وما إن تجاوزا الغرفة نطقت :" صليت المغرب؟! "

تتسع عيناه متذكرًا :" أف! كنت بحطها بالغرفة على أساس أطلع أصلي بس نسيت! "

تبتسم وهي ترى عجلته :" على مهلك، توه قبل شوي يكبّر الإمام .. يمديك تلحق الجماعة"

يُسرع إلى الباب، وقبل مغادرته .. يقف عاقدًا حاجبيه بضيق، يعود مجددًا ليترك هاتفه على المنضدة .. يخرج للصلاة، يُصلي خلف الإمام .. يدعو بقلب خاشع (يارب لا توجعني فيه أكثر) .. ترك هاتفه متعمّدًا خشية أن هوسه هذا اليوم يجعله يفتح هاتفه بتلقائية وهو يصلّي ..

عندما عاد وجدها جالسة في حديقة المنزل الصغيرة بين نباتاتها منكبّة على حاسوبها المحمول وكتبها حولها على مقعدها المتحرّك، ترفع رأسها إليه :" كيف كان الوضع اليوم ؟! "

يسحب هاتفه ليستلقي على المقعد ورأسه على فخذها :" صحيح دوّختني الألعاب، بس المهم نورة استمتعت ونامت بدري"

تزمّ شفتيها وهي تُعيد أنظارها إلى حاسوبها :" ما كان ضروري تاخذ إجازة "

يبتسم :" انتِ ركّزي على بحثك واتركيك منّي .. اعتبريها إجازة خاصة بين أب وبنتـ...."

يقطع حديثه سريعًا وهو يفتح هاتفه معتدلًا بجلسته بتوتّر بسبب صوت نغمة رسالة البريد الجديدة مما جعلها تعقد حاجبيها باستغراب :" بسم الله، شفيك؟! "

يحدّث بريده مرارًا، أين الرسالة؟ هل توهّم صوتها؟ .. يزفر بشدة :" الصوت من جوالك أو جوالي؟"

تسحب هاتفها بعقدة حاجبين :" ايه من جوالي، ليه؟ "

خيبة شديدة تتسلل إليه، يهز رأسه نفيًا :" ولا شي، بس كنت أنتظر رسالة من عميل وتوقعتها منه ..- يُغير دفة الحديث وهو يسحب مقعدها إليه محاولًا الفرار من وساوسه- رجعتِ للقديم؟ "

تهز كتفيها :" لا، بس أستخدمه أحيانًا بالبيت .. أحبه ما يهون علي أتركه وحيد"

يُقرّبه إليه أكثر، يتأمل ظهر المقعد .. مُلصق بسكويت قديم، يُعيد أنظاره على صوتها الباسم :" علامة الجودة! "

يبتسم بهدوء لابتسامتها، يُمرر كفه على شريط قماشي محبوك يدويًا ملتفًّا حول مقبض المقعد .. يعود صوتها مجددًا :" لهالسبب أحبه! "

يصمت قليلًا بابتسامة حنين متذكرًا يوم المعرض .. عندما عقد الشريط حول مقبض مقعدها، وعندما كتبت اسمه بآلة لغة برايل.. رافقته الورقة طويلًا، أما الآن .. أين هي؟ في مكانٍ بعيد .. خارج حدود الإمارات العربية، داخل وطنه ..

وسط الرياض.. في الدور العلوي لذلك المنزل، بغرفة دافئة .. أمام مكتبٍ صغير ..

يعتدل بجلسته وأصابعه تتخلل شعره، لا يقاوم طرح السؤال أكثر من ذلك .. ينطق بتردد:" يمام ... "

تترك حاسوبها جانبًا باهتمام :" ايوه نجد؟ أسمعك "

يزفر بشدة لتُتابع :" من الصبح ملاحظة عليك ودك تقول شي، في شي موتّرك؟ "

يُقاطعها ليُخرج ما في قلبه إلى لسانه سريعًا خشية تردده أكثر :" كلمتيهم اليوم؟! "

تعقد حاجبيها بابتسامة مستغربة :" أمس الصبح كنت أسولف مع ثامر.."

يُقاطعها ونوبة توتره تتصاعد أكثر بشكل مفاجئ مُريب:" أنا أقول اليوم! مب أمس! "

تأخذ نفسًا عميقًا، تزم شفتيها .. تسحب جسدها قُربه وقبل أن تصل كفها إلى كفه يقف مبتعدًا يمنعها من الاقتراب أكثر وبذات انفعاله المضطرب :" خذلتك؟ ايه يا يمام أنا طول عمري بخذلك! .. تقبّلي الواقع! هذا نجد! ما يتغير! .. أتعبتك معي؟ أنا آسف بس هذي غلطتك! أنتِ ما سمحتِ لي أتركك تعيشين نفس ما تحلمين .. أذكّرك؟ كنت بحرّرك مني، بطلقك .. عشانك! .. عشان - يُشير إلى نافذة غرفة ابنته - نورة .. كيف سمحتِ لنفسك أصلًا تتخذين قرارها بهالبساطة؟! كيف كنتِ بهالأنانية! "

يحلّ الصمت للحظة، عيناه المتّسعة تخترق عينيها الهادئة .. يهزّ رأسه نفيًا بضيق، يحمل هاتفه ليخرج من المنزل.

يتركها وحدها بصمتٍ موحش بعد عاصفته، تزفر زفرةً طويلة .. تسحب حاسوبها، تفتح ملفًا مثبّتًا على سطح المكتب.. تعضّ شفتيها بخيبة واللون الأخضر يستقبلها، مئة وتسعة وأربعون يومًا أخضر.. متوالية لا يتخلّلها أي لون أحمر، ينتقل سهم المُحرّك إلى المربع المدوّن بتاريخ اليوم ..

يتلوّن باللون الأحمر، ملوّثًا كل الاخضرار الذي بجانبه .. كانت تُعدّ نفسها لهذه الليلة، تنتظر بشغف خلوده للنوم حتى تلوّن اليوم المئة والخمسين باللون الأخضر، رقم قياسي جديد لم يتخطّاه مسبقًا .. كانت تنوي مفاجأته غدًا باحتفال صغير خاصٍ بهما وحدهما بعد احتفالهما بعيد ميلاد (نورة) غدًا .. إلا أن لحظة توتر عابرة أفسدت كل شيء.

تعقد حاجبيها بضيق، غدًا يوم نورة الخاص.. كل ما تخشاه أن يُفسَد، أن يُلوّن بالأحمر ..

:

على بُعد مسافةٍ منها، في المقهى القريب .. يجلس ويده تحدّث بريده بشكل متواصل، قدمه تهتزّ بتوتر .. يرمي

هاتفه على الطاولة بزفرة، يُسند رأسه على كفيه بضيق .. تزداد عقدة حاجبيه أكثر، تنقضي نصف ساعة وهو على حاله .. يُضيء هاتفه برسالة واتس آب صوتية باسم (يمام)، يسحبه بثقل .. يصل إليه صوتها الهادئ (نجد طمّني، لا تشغل بالي أكثر)، يعتدل بجلسته وهو يمسح وجهه بكفّه .. يكتب لها (أنا بخير، بس أحتاج وقت لنفسي) يُضيف رسالة أخرى لموقعه المباشر .. حتى تطمئن.

بعد ساعة متواصلة لتحديثه المستمر يُقرّر اتخاذ موقف حيال الرسالة التي لم تصل بعد، الرسالة التي دمّرت يومه بعدم وصولها .. لا طاقة له أكثر على التحمل، وساوسه تقضي عليه .. وغدًا، غدًا يوم استثنائي .. لن يسمح لوساوسه بتدميره كذلك ..

يفتح بريده، ينتقل إلى علامة (رسالة جديدة) يكتب الحرف الأول (ح) بجانب خانة (إلى) ليظهر مباشرةً البريد الوحيد الذي يُراسله (حادي العيس).

- الموضوع (ماذا هنا للمُستجير من الهجير؟)

(السلام عليكم ، الساعة سبع المغرب بالرياض، ويُفترض رسالتي موعدها الساعة ١١ ونص قبل موعد نومي وبعد موعد نومك .. مثل ما جرت العادة، لكن مثلما كسرت العادة، يحق لي كسر العادة ..

وينك؟ بخير؟ وين رسالتك؟ ليه أبطت؟ تعبت أنتظرها يبه، أتمنى تذكر بأن ما يحقّ لك مثل ما يحقّ لي نخلف بموعد الرسالة ..

أحاول أتجاهل كل شي وأكتب كالعادة مجريات يومي.. وش صار اليوم؟ صلّيت الفجر .. مشيت حول الممشى، ضبطت منبّه جوالي على الساعة ٨ .. مثل العادة .. كل شي طبيعي، لكن بإخلافك لموعد الرسالة كل شي انقلب..

قبل ما أبدأ بعتابي أبيك تعرف شي واحد .. أنا مو زعلان لأنك نسيت، أنا متملّكني الهلع .. أخاف أعرف سبب إخلافك، أخاف يكون سبب يتسبّب لي بهلع دايم بدون أي رسالة إلى الأبد ..

أخذت يمام ونورة نتغدا مع بعض، أحاول أتجاهل وأنسى وأتظاهر بإن كل شي طبيعي.. لكن عجزت، بكل دقيقة أحدث البريد.. عسى ألقى الرسالة، وش تغديت؟ ما أدري .. فعلًا ما أدري، عقلي كله مع الرسالة ..

أخذت نورة الملاهي، ممكن أنسى الرسالة.. بس نسيت نورة باللعبة ولا انتبهت لين صاحت.

وبعد المغرب، فقدت نفسي مع يمام، فشلت .. حطّمتها .. خيّبتها، ويا كثر خيباتها .. يراودني سؤال، أستحقها؟ أبدًا ما أستحقها .. ما أستحق يمام، ما أستحق نورة .. والله يكسر ظهري يقيني بعدم استحقاقهم ..

يكسر ظهري أكثر إني أمشي على نهجك يُبه، أتمثّل فيك .. أتلبّس عاداتك .. أسرف في حبّها مثل ما أسرفت انت بحبي، ويا خوفي أوجعها.

كنت آمل أتخطّى حاجز المئة والخمسين يوم بيوم أخضر، بيوم سليم .. لكن تأخرك بالرسالة هدم كل شي .. عتبان عليك كثير، ولا أبي أفكّر بأسباب تخلّفك .. أفضّل أعيش على وهم تأخر الرسالة ولا أموت بوساوس تقتلني.

يحطّمني معرفتي لضعفي .. معرفة كون (رسالة) ترجّعني لنقطة الصفر أو توهمني بإني (نجد)، لكن هذي حقيقتي اللي ما تداويها أدوية أو مرشد نفسي ..

أبي أهرب، أهرب من كل شي ومن نفسي لك ..

عمومًا .. أبطيت يا حادي العيس، أبطيت .. لا تتأخر على ركبك)

يُرسل الرسالة دون قراءتها مجددًا، يتأمل صندوق الوارد .. رسالة الأمس، وقبل الأمس، وما قبلهما بكثير .. لماذا يشعر بأنها بعيدة جدًا وكأنها وصلت قبل مئة سنة؟ بأن شوقه وخوفه وحاجته يتحدّون معًا لخنقه ..

يقرأ الرسائل بشكلٍ عشوائي، علّها تهدّئ نفسه ..

جميعها تحمل عناوين لقصائد مختلفة، ما زال يجهل سبب اتفاقهما على عنونة كل رسالة باسم قصيدة أو بيت شعري بشكل عشوائي أو مقصود .. منذ الرسالة الأولى قبل ثلاثة أعوام وعلى مدار جميع أيام السنة، كل رسالة تحمل عنوانًا غريبًا .. لا يتناسب مع محتوى الرسالة، يوميّات بلغة عامية غالبًا، ما بين كتابة أو تسجيل صوتي، منذ ابتدأ جلساته مع المعالج النفسي في مدينة العين.. خطة علاجه التي تضمّنت تدوين يومياته ومشاركتها كتابيًا مع حادي العيس، لتحلّ العقدة بينهما.. كانت الخطة أن ينتقل بعدها إلى المكالمات الصوتية ثم بعدها الزيارات الشخصية، تدرّجٌ لم يُفلح به.. ما زال عالقًا عند النقطة الأولى، الرسائل الكتابية.. تتخلّلها تسجيلات صوتية، يظنّ أنه أَلِف المكاتبات حتى لم يعد راغبًا بتركها.. أصبحت ملاذًا يستلذّ به، ويخشى فقدانه.

يخرج من الرسالة متأمّلًا مسميات رسائلهما الأخيرة هذا الأسبوع (الظمأ، غاضت أنامله وهنّ بحور، قصائدي أينما

ينتابني قلقي، ما الشوق مقتنعًا منّي بذا الكمدِ، أشعلت أغنية العيس، لمّا وزنت بك الدنيا فملت بها، وتلوت غفراني، ويدي لم تعد بيدي..، يا مُعين الضنى علي أعني على الضنى، هل ما زالت الصحراء واسعة؟، وهل تُطيق وداعًا أيها الرجل؟، قِفا نبكِ)

تسرقه الرسائل لساعات دون أن يُدرك، يقرأ الرسالة تلو الرسالة .. يتوقّف مطولًا عند الرسائل القليلة التي تحمل صورًا لحادي العيس، وجهه الذي لم يتغيّر .. كبُر كثيرًا؟ نعم .. لكنه ما زال ذاك الوجه الذي يحمل في تجاعيده عمرًا كاملًا من الضياء، لم يعِ مسبقًا ما هيّة هذا الضياء .. كان دائمًا ما يراوده شعورٌ غريب اتجاه هذا الوجه، وهذا الضياء .. شعور دافئ عجيب، ماذا يحمل في طيّاته حتى يشعر بضيائه يكاد ينعكس على وجهه هو عندما يجلس بقربه؟ .. أو يسير معه قاطعَين طريق المسجد أو المدرسة؟ ضياء لم يُبصره سواه.. أما الآن، أدرك سرّ هذه الهالة العجيبة .. أدركه عندما استلم الصورة الأولى له بعد انقطاعهما، كان يوم العيد الأول، يذكر يومها كيف بكى كثيرًا .. فجأة دون

مقدّمات وهو يجلس وأمامه حاسوبه يحمل صورةً للوجه المضيء انتحب بكاءً، كيف أثّرت الصورة على أيامه ..

يفتح ردّ رسالته القديمة على رسالة (حادي العيس) التي تحمل الصورة الأولى، لم تكن تحمل سوى سطرٍ واحد يصف ذهوله (أشكّ والله بأنّك لم تُخلق من طين، خُلقت من نور .. هل أنت مَلك؟) كان أشبه بالمَلك، يحمل نورًا من شدة سطوعه يولّد الهيبة بداخله.

يغرق ببحر الصور القديمة، يبتسم بتوجّع على رؤية آخر صورة التقطها معه .. كانت داخل مصلى العيد، يبتسمان معًا ابتسامة مشرقة .. والصورة الأخرى كان خاله ناصر متوسطًا بينهما، من كان يظنّ بأنها صورتهم الأخيرة؟

صورة أخرى التقطها أحد زملائه في قاعة المناقشات أثناء مناقشته لرسالة الماجستير، يُقبّل رأس حادي العيس وهو يضمّه، صورة أخرى في ذات المكان وهو يردّ على أسئلة المناقشين بكل ثقة .. يظهر حادي العيس بزاوية الصورة ينظر إليه نظرة فخر واعتزاز، صورة تتلوها صورة .. حتى بزغ

الفجر، لم يقطعه عن متابعة الصور والرسائل سوى آدائه لصلاة الفجر، بدأ يتهاوى أكثر والساعة السادسة صباحًا تمرّ دون رسالة جديدة .. بدأ يجزم بأن هناك مكروهًا حصل، لا يمكنه السيطرة على ضربات قلبه .. قلبه يضعف أكثر، يعود إلى المنزل جازمًا على إنهاء قلقه.

-

داخل الحرم الجامعي، كعادتها في ساعات فراغها .. تجلس في مصلّى الجامعة الفسيح خلف جدار معلّق عليه لوحة صغيرة (حلقة أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- لتصحيح

التلاوة)، هدوء غامر يلفّ المكان .. لا صوت سوى صوت العاملة تقرأ القرآن أمامها، تُتابعها باهتمام .. تُصحّح أخطاء تلاوتها.

أثناء توقّف العاملة عن القراءة للمراجعة ترفع رأسها .. ترى من خلف الباب الزجاجي رفيقتها، تبتسم وهي تُشير بكفّها لها .. تُتابعها بأنظارها وهي تخلع حذاءها، تُعيد اهتمامها للعاملة التي تسألها وتستفسر منها .. تنشغل بالعاملة القارئة مجددًا، وأثناء تلاوة العاملة تشعر برأسٍ صغير يضع ثقله على فخذها ..

تمسح على شعر رفيقتها، وما أن انتهت العاملة من القراءة تتسع ابتسامتها :" مااا شاء الله جميلة! أتوقع خلال شهر بالكثير أجيك أنا تصححين تلاوتي"

تضحك العاملة بخجل :" يا حبيبتي ريم .. يعني تحسّنت؟"

تُمسك بورقة مجدولة بجانبها لتُظهرها لها :" شوفي كيف! من بداية الفصل للحين فرق شاسع! ما شاء الله تحسّنك سريع ومذهل"

تُتابع سرد ملاحظاتها مع العاملة حتى انفردت بصديقتها التي نطقت مسرعة:" اليوم تنامين عندي! "

كادت تُجيب إلا أن رفيقتها قاطعتها وهي تُردد بإصرار: "شت أب.. ولا كلمة، تنامين يعني تنامين"

ترمقها بنظرة وهي تُلملم أوراقها داخل الشنطة :" مهبولة أنتِ؟!"

تُمسك بكفها برجاء :" تكفييين تكفين يا ريم، ما عندي أحد غير جدتي وحمود! مافي مشكلة"

تقف لتسحب كف رغد توقفها معها :" مافي لا تحاولين"

يخرجان معًا من المصلى، تنطق رغد وهي تنتعل حذاءها :" أجل قولي لأمك ترسل لي جريش وبسامحك"

تضرب رأسها متذكرة :" آخ نسيت! توها الصبح مسوية مصابيب وجهزت لك قسم خاص ومذكرتني آخذها لك بس نسيييت!"

تكتم صرخة إثر قرصة مفاجئة من رغد التي نطقت بوعيد :" عشان ما تنسين ثاني مرة!"

تسير معها إلى البوابة وأحاديث رغد لا تتوقف، تستمع إليها باهتمام .. رغد الرفيقة التي دخلت حياتها فجأة، على اختلافاتهما الشاسعة إلا أن تأثيرهما المنعكس جليّ .. تذكر كيف نشأت صداقتهما بمحض الصدفة، في إحدى ليالي رمضان قبل ما يقارب الثلاثة أعوام، بليلة استقبال هديل بعد سفرٍ دام لأشهر وعودتها إلى أرض الوطن بشهادتها الجامعية.. التقت برغد بمنزل ياسر، تذكر سؤال رغد مباشرة دون مقدمات (أنتِ طالبة بالجامعة، صح؟)، لم تكن تعلم بعد من هذه وما اسمها حتى نطقت يمامة التي

تحمل صغيرتها (هذي رغد، خطيبة ثامر ولد أختي).. قضت ليلتها تلك معها تشرح لها كل ما يخصّ الحياة الجامعية.. ابتداءً من اختبارات القبول حتى طريقة تسلّم الوثيقة الجامعية، ما رأته فيها تمسّكها وحماسها الشديدين للمرحلة الجامعية مع أنها لم تنتهِ بعد من المرحلة الثانوية.. شغف يلمع بعينيها يُشبه شغفها هي بالدراسة، لم تكد تفرغ من سؤال إلا ويقابلها سؤال آخر .. حتى بحّ صوتها، كانت تلبس عباءتها ورغد تقف بجوارها وهي تُملي عليها رقم هاتفها .. ما أن عادت إلى غرفتها بدأت بمحادثتها وهي تُرسل لها (سلام رغد، أنا ريم بنت عم هديل .. برسلّك ملفات وروابط مجموعات تفيدك باختبارات القدرات والتحصيلي).

رسالة تلو رسالة، ثم موعد سريع في أحد المقاهي .. ما أن دخلت رغد نطقت ووجهها مبتهج (تخيلي وش المصادفة اللي اكتشفتها تو؟)

لم تترك لها مجالًا لتفكّر أكثر بنوع المصادفة وهي تنطق بسرعة (أستاذك هو اللي وصّلني قبل شوي!)

كادت تغصّ بقهوتها، تركض بعيدًا عن رغد .. ما هذا الأستاذ الذي يخرج لها من كل اتجاه! حاولت تجاهل كلام رغد المتحمسة (كنت أدري تخصصكم قانون بس ما خطر ببالي إنكم تعرفون بعض! .. خربت سيارتي أول ما طلعت من البيت وعلّمت ثامر .. ما دريت إلا هو يجي يوصّلني وناصر معه، دكتوركم .. أول ما ذكرتك عالسريع لثامر فاجأني ناصر وهو يقول إنك طالبة عنده، اووف لو تشوفين .. طول الطريق يمدحك لدرجة كان ودي أتنحنح وأذكّره إني خطيبة ثامر!)

أوقفت سيل حديث رغد وحماسها وهي تقول بجديّة (تعرفين بقضية عمي يعقوب؟ أبو هديل؟)

وكأن رغد للتو استوعبت كل شيء تلوّن وجهها واحمرّ، تذكّرها لكل ما حصل لعائلة ثامر .. حقيقة نجد ويعقوب وياسر، وكأنها للتو تستوعب أن من تجلس أمامها هي ابنة عم نجد زوج اليمامة .. وناصر، ليس سوى خصم لعائلة ريم تنازل عن خصومته، يخرج صوتها منحرجًا وهي ترتشف

قهوتها (كيف تدرسين معه وبين عوائلكم هالمشاكل؟ ولا خلاص تخطيتو كل شي؟)

يعود صوتها واثقًا هادئًا (بمجال دراستك أو حتى عملك مستقبلًا، افصلي كل حياتك الشخصية وارميها عند بوابة الجامعة وتعاملي مع اللي حولك بالمجال اللي يربطكم بس.. اعتبريها نصيحة)

تنطق رغد بعد تردد (بس أستاذكم إنسان كويس، وقّف معي وقفة مستحيل أنساها ..)

روت لها كل ما مرّت به، ابتداءً من ظروف ولادتها وطفولتها حتى حصولها على كافة حقوقها بمساندة من ناصر .. لم تمنع ريم دموعها وهي تستمع إليها، حتى نطقت رغد بابتسامة (ريم! بس كل هذا ماضي .. شوفيني الحين قدامك، بخير وقوية!)

شعور الألفة الذي ربطها برغد في هذه اللحظات جعلها تُفضي بمكنونها لها (رغد، وش نظرتك عني؟)

عقدتها لحاجبيها واستغرابها جعلها تتأكد بأنها تجهل بكل تشويه السمعة الذي مرّت به، أفضت بكل ما فيها .. بكل الرعب الذي مرّت به، لجوئها لأستاذها ناصر الذي حاول مساعدتها .. انكسارها وتوجّعها لموت والدها بعد ما حصل، حتى أقرب الناس لها فقدوا ثقتهم بها .. كيف اضطرت للجوء إلى عمها الذي تجهله، كيف كانت تخاف فقدانه بكل الأيام التي قضاها ينتظر قصاصه .. كيف كانت تحاول الفرار من أي اجتماعات، عودتها هذا العام إلى مقاعد الدراسة وتوحّدها دون أي رفقة بعدما كانت تُشعل الكلية حماسًا .. حتى عودة أستاذها ناصر للتدريس بعد انقطاعه فصل دراسي كامل.

ذكرت لها ضاحكة الحرب المُضحكة التي شنّتها في الفصل الدراسي الأخير ضد الأستاذ ناصر، ما أن علمت برجوعه ومشاهدة اسمه بين خانات الأساتذة في الجداول قرّرت الفرار من شعبته إلى شعبة أخرى، فرحت كثيرًا كون جدولها فارغًا من اسمه .. وما إن دخلت القاعة الدراسية بحماس تتفاجأ بظهوره على شاشة البث، مفاجأة غيّبت

عنها ذهولها بشكله المختلف! لم يكن الأستاذ ناصر.. خسر الكثير من وزنه حتى بات وجهه باهتًا، الشيب الأبيض بات واضحًا بين شعرات لحيته، أخرجت هاتفها لتتأكد من رقم القاعة.. لا بد أنها مخطئة، غير أنها كانت في مكانها الصحيح .. حاولت تقوية نفسها وهي تنطق بصوت مرتفع :" عفوًا، بس أظن في خطأ في البث .. احنا شعبة الدكتور سلطان، هذي قاعتنا"

ما إن أنهت حرفها الأخير تصلها أصواتٌ متفرقة (صح، شكلهم غلطانين بالبث، كلموا الدعم الفني) (لا شكل ما وصلكم الخبر.. حاسوا بالجداول!) لم تستوعب كل ما يقال إلى أن ظهر صوته منهيًا النقاش يُذكّرها بأنه لم ينسَ صوتها (عفوًا للأستاذات ريم وشروق .. البث صحيح متأكد منه، والشعبة ٣٦ شعبتي، افتحوا جداولكم وتأكدوا .. في حال كنتو معي حياكم الله، ولا عادي ما عندنا مشكلة نستقبل ضيوف مستمعين، القاعة تكفي للجميع)

ما إن نطق كلامه هرعت إلى جدولها تتأكد من خانة اسم المحاضر، لم تنطق بكلمة واسمه يظهر لها .. اكتفت

بالخروج من القاعة متجهةً إلى إدارة القسم، أمضت يومها بأكمله وهي تحاول سحب اسمها من شعبته إلا أن حديث أستاذتها يُخيّبها كل مرة (قفلوا الشعبة لأن مافيها طالبات كثير وحولوكم له) كادت تبكي، كيف يُفعل بها هكذا؟ وبهذا المقرر تحديدًا؟ أربع ساعات أسبوعية تعني أنها مضطرة لسماعه أربعة أيام من كل أسبوع! حتى خيار حذف المقرر توقّف إلى نهاية الفصل الدراسي .. وكأن جميع الأبواب أُغلقت بوجهها.

في اليوم التالي حضرت باكرًا، وما زالت منفعلة بغضب .. تعمّدت الحضور قبل موعد المحاضرة حتى يتسنّى لها الحديث مع زميلاتها بعيدًا عنه .. كانت تتحدث بانفعال (مو من حقهم يا بنات، طيب يسوون لنا استثناء ويفتحون لنا مجال نحذف المقرر!)

يأتي صوت إحدى زميلاتها متوترًا (ريم أنتِ أخذتِ معه قبل، يعني لهالدرجة شين؟ أول مرة آخذ معه)

تمسح جبينها بذات الانفعال (الموضوع مو موضوع شين أو زين، الموضوع إن هذا حقنا .. على أي أساس يسوون هالحركة فينا؟ مو اسمنا كلية الحقوق؟ مالهم حق يسوونها)

(احم، يبدو إن عندنا قضية حقوقية نقدر نستهلّ فيها مقررنا ونحاول نشغّل الحسّ القانوني ونحلّها، وش رايكم بناتي؟)

كتمت زفرتها المنفعلة وهي تجلس بغيظ، يعود صوته (كم بنت معترضة على دمج الشعبتين؟)

قبل أن ترفع صوتها يُتابع حديثه (غير .. ريم وشروق؟)

يأتي صوت شروق سريعًا (لا أستاذ ناصر، أنا مو معترضة.. بس كنت مستنكرة حركة تبديل الشعب بدون ما يعطونا خبر)

تنقل أنظارها بقهر إلى شروق التي ابتسمت بقلة حيلة، تهمس حتى لا يسمعها (بنات تكفون، مين بعد؟)

يُقاطعها صوته (لأ لأ يا أستاذة ريم، اتركي البنات بدون أي ضغط)

تزمّ شفتيها بغيظ، مع ذلك تستمر بنقل نظرات راجية للطالبات علّ إحداهن تقف معها .. وأخيرًا أجدت نظراتها نتيجة وصوت طالبتين يرتفع باسميهما.

يعود صوته (اوك، عندنا ثلاث طالبات .. نعتبرهم المدّعي، وأنا المدّعى عليه .. وفاطمة ونورة والعنود نعيّنهم القضاة للقضية، وشروق ولمياء وسارة ونهى محامين المدّعى عليه .. اللي هو أنا، والعشرة المتبقين محامين لريم وزميلاتها - يسمع ضحكة استنكار الطالبات ليُتابع- الموضوع جدّي، في عندنا وحدة معترضة لازم نسمع لها ونحقّق لها العدالة يا محاميات المستقبل!)

تزفر بهدوء حتى لا يصل صوت زفرتها له لتنطق (أستاذ ناصر، أعرف إن المشكلة مو بيدك .. أنا مشكلتي مع قرار التعديل المفاجئ مو معك)

يُقاطعها سريعًا (أعرف، بس خلينا نُمارس دور المحكمة شوي.. نغيّر جمود المقرر)

ثم استمرّ بخلق قضية وهمية أطرافها كما ذكر مسبقًا، هي خصمه .. وما إن انتهت محاضرته وانتقلت إلى محاضرتها الأخرى وصلتها رسالة بريد باسمه (السلام عليكم ورحمة الله، بخصوص دمج الشعب .. كنت يومًا طالبًا مثلك، وأعرف تمامًا حقك بالاعتراض .. ولا أملك من الأمر شيئًا، لذلك إذا رغبتِ التغيب عن جميع المحاضرات أتفهّم ذلك وسأتفادى تسجيل غيابك شريطة أن تحذفي المقرر حالما يسمح لك بذلك، وبالمثل مع زميلتيك المعترضات.. ونصيحة من أستاذ لطالبه، لا تخلطي ما بين أمورك الشخصية وأمور دراستك .. ودائمًا مرحّب بك في أي وقت)

بعد رسالته تلك ترددت كثيرًا، أضاء لها الضوء الأخضر إذا أرادت الفرار من محاضراته .. مع ذلك تابعت حضورها في جميع محاضراته، تُدرك تمامًا في قرارة نفسها أنه أستاذها المفضّل .. أستاذها الذي تطمح أن تكون مثله، الأستاذ الذي إن ذُكر اسمه في أي محضر ترفع صوتها عاليًا بفخر (هذا أستاذي) لو لا أنها تحاول الهرب من كل شيء يربطها به أو بحياتها الشخصية ..

أمضت أسبوعها الأول بصمت مطبق في محاضراته، يراودها الحماس أحيانًا لكنّها تكتمه .. إلى أن نطق بعد أسبوع (أستاذة ريم، سمّعينا صوتك .. ولا ودك نسوي استئناف من جديد ونحلّ القضية؟)

لا تُنكر أنها ابتسمت، مع ذلك حاولت الرد بهدوء .. هدوء تحوّل إلى حماسة شديدة مع كل محاضرة جديدة، إلى أن بدأ يطغى صوتها على صوت جميع الطالبات في نهاية الفصل الدراسي .. وما إن شارف الفصل الدراسي على الانتهاء وبدأت فترة حذف المقررات عاود ذِكر القضية

مجددًا (هاه يا أستاذتي ريم؟ انفتح لك المجال لحذف المقرر .. ثلاث من زميلاتك حذفوه بالفعل اليوم)

يأتي صوتها باسمًا (لا إن شاء الله مستمرة مع الشعبة للأخير)

وعلى نقيض ما حصل في ذاك الفصل، شعرت بخيبة كبيرة الفصل اللاحق لاكتشافها بأنه لن يُعطي مجددًا أي مقرر لقسم الطالبات لانشغاله بالحصول على درجة الدكتوراه .. مع ذلك عملت معه لإقامة ندوة خاصة داخل الكلية، جهدها ذلك الفصل وضعته كله لإقامة الندوة .. رسائل وملفات لا تتوقف بينهما لا تخرج عن إطار الدراسة والندوة.

عُيّنت بعدها رئيسة لقسم الطالبات للمجلس الطلابي بتوصية خطية منه وبعض أستاذاتها، تعلّمت منه كثيرًا .. ساعدها أكثر بإثراء نفسها وسجلّها الأكاديمي، كان دائمًا ما يُوصيها بمشاركات خارجية وداخلية .. لا يكاد يمرّ شهر دون رسالة منه (هذي مجلة قانونية، سجلي فيها بتثريك

وبتضيف لخبرتك وسيرتك الذاتية .. في محاضرة بالمعرض الفلاني احضريها.. الدكتور الفلاني بيقدّم دورة احضريها وبلّغي زميلاتك)

والآن ها هي على مشارف التخرج، فصلها القادم هو الأخير .. تشكر الله كل صباح لأنه وضعه بطريقها، أعاد ثقتها بنفسها لتتجاهل كل الأصوات حولها، أعاد اسمها مشعًا داخل أرجاء الكلية، تكاد تجزم لولا الله ثم (الأستاذ ناصر) لما وصلت إلى ما هي عليه اليوم..

تتوقّف أمام آلة الحلويات لتأخذ مجموعة ورغد بجوارها ترتدي عباءتها :" هذا لمحمد، اعتذار لأني ما شفته من أسبوعين"

تلفّ حجابها بإحكام :" ذكرتيني، يطلع اليوم بدري .. مابي أتأخر عليه"

كادت ترد إلا أن صوت رسالة واردة جعلها تبتلع كلامها، وسرعان ما تهلّل وجهها ببهجة وهي تقرأ رسالة باسمه

(أستاذي الرائع) {السلام عليكم ورحمة الله، الفصل الجاي -إن شاء الله- باخذ شعبة من شعب مشروع البحث والتدريب .. برجاء يكون اسمك أنتِ ومجموعتك ضمن الشعبة، ما ودي يروح جهدي وأنا أحاول آخذ المقرر في النهاية مع طالبات أتعب معهم قبل لا يتعبون معي.. لا تبلغين بقية الطالبات للحين ما تأكد الموضوع}

أخرجت زفرة قوية مرتفعة :" الحمممممدلله "

ترفع رغد حاجبًا :" فرحيني معك؟"

تضع هاتفها بسرعة أمام وجه رغد حتى تقرأ الرسالة :" يالله كنت شايلة هم باخذه مع مين، الحمدلله يا رب يتم ولا يخربون علينا وتنحاس الجداول"

تكتفي برمي نظرة مطولة وهي تقول :" أقول البسي عبايتك وخلصيني "

ترتدي عباءتها وابتسامتها ما زالت متسعة، لا يتوقّف اتساعها حتى عودتها إلى المنزل .. خبرٌ كهذا يصنع يومها وشهرها وسنتها بأكملها.

-

يدخل بسيارته المنزل عاقدًا حاجبيه مستغربًا وصوت ضحكات اليمامة ونورة يصلانه ممزوجةً بصوت آخر، سرعان ما زال استغرابه على رؤية ثامر يفترش العشب ونورة أمامه وألعابها منثورة بينهما .. أما اليمامة تجلس بعباءتها على مقعدها المتحرك وكوب القهوة بيدها.

يلوّح له ثامر باسمًا، وها هي نورة تترك ثامر لتركض نحو أبيها :" بابا، شوووف .. ثامل هنا"

لوهلة تداخلت جميع الأوهام بعقله، ثامر! ماذا يفعل هنا؟ هل أتى لينقل له خبرًا سيئًا؟ هل أتى بناءً على طلب اليمامة بعد سأمها منه؟

يخرج من سيارته بذات التعب ليحمل ابنته نورة محاولًا إخفاء الريبة عن وجهه، يسلّم على ثامر الذي نطق وهو يطبطب على بطن نجد ساخرًا :" هالكرشة لا يشوفها يوسف! انتبه! "

يضحك بخفّة ليتابع ثامر وهو ينتقل إلى كوب الشاي :" بطّت تسبدي منه هو ونظامه الصحي، متصور لا جيت أتغدا عنده يغديني أكله اللي ما ينوكل؟! ولا عزمته يحلف ما ياكل إلا إذا طبخت له بطريقته أو أخذته لمطاعمه! "

تستمر ضحكته الخفيفة، يعلم بهذا تمامًا .. ويعلم أكثر أنّ أحد أسباب نظامه الصحي الصارم هو صحة والده، يوجهان أنظارهما إلى اليمامة التي نطقت وهي ترتدي نقابها :" بروح أسلم البحث وأرجع بسرعة، انتبهوا لنورة"

يشتّت نظرته عنها سريعًا، لا طاقة له لرؤيتها بعدما خيّبها ليلة البارحة .. يكتفي بهزّ رأسه إيجابًا، أما ثامر انقضّ على نورة المندمجة بأوراق اللعب يطيّرها عاليًا وسط ضحكات الصغيرة.

تغادر اليمامة وسط صراخ ابنتها وضحكتها مستنجدة بوالدها الجالس بهدوء قربهما يتأمل اختلاف ثامر عن زيارته الأخيرة قبل ثلاثة أشهر، طيلة ثلاث سنوات ما إن تسنح له الفرصة يحلّق إليه.. يبث فيه طاقة وبهجة تحرّك شجونه إلى الرياض، سوى في المرة الأخيرة .. كان ضائقًا حزينًا، لجأ إليهم علّ حزنه يسلو عنه .. لو لم تخبره اليمامة مسبقًا لظنّ أن كارثة حلّت، صوته المكتئب وهو يقول (قبل أسبوع دفنت خالد.. بس تبرّع بأعضاءه السليمة.. في أم زوجها متوفي عنها كانت تحتاج كلية، تبرع لها بكليته) كان يتحدث

كثيرًا بحزنٍ بالغ، لم يتمكّن نجد من مواساته كما توقع.. إلا إنه الآن تشع البهجة والحياة منه، كما هو ثامر.. لا شيء يتغلّب عليه.

ينطق أخيرًا بتوجس وثامر ما زال يلاعب نورة :" شلونكم؟"

دون أن ينظر إليه يُتابع لعبه مع نورة :" بخير"

لا تنفكّ عقدة حاجبيه وصوته يهدأ أكثر :" وأبوي؟! "

يرفع أنظاره أخيرًا لنجد وبابتسامة هادئة :" بخير يا نجد.. تطمن، مريته قبل لا أمشي للمطار، يسلم عليك"

تذبل عيناه بأسى وحيرة، إذا كان بخير لماذا لم تصل رسالته؟ هل تسلل إليه السأم هو كذلك مثل اليمامة؟ هل نسي أمره؟ هل أصبح مجرّد شيء بعيد من الماضي؟ لا يهمّ إن اطمأنّ عليه كل مرة؟ كانت ولا زالت تلك الرسائل كعهد

مقدّس بينهما، هل نكث عهده؟! أصبح ثقيلًا عليه مثلما هو ثقيلٌ على روح اليمامة؟

يحمل ثامر نورة إلى مكتبتها الصغيرة، يُخرج لها ألوانها وكراستها يرسم لها رسومات كرتونية ليُشغلها عنهما.. يعود لنجد وبهدوء كمن يعرف الجواب :" وانت؟ شلونك؟ "

يُطلق زفرة حارة مشتتًا أنظاره وصداعه يتفاقم :" أعرف، يمام كلمتك .. أدري صبرها معي تجاوز حدوده، جاي تجلس هنا لين تناقش بحثها وبعدين تاخذها؟ ما عندي مشكلة، ما أقدر أعترض .. وعدتك ووعدتها باللحظة اللي تقرر ترجع الرياض ما أمنعها - يمسح وجهه ليُتابع بقلة حيلة - تعبت أكثر منها والله! تعبت وأنا أخيبها.. علمتك من البداية هي كثير علي، تستحق تعيش براحة بال .. مو مع شخص مريض"

كان صامتًا يستمع إليه بإنصات، يراقب حركة أصابعه المتوترة.. يشبّكها ويفرقعها، عينيه ذابلة لا تستقر بمكان واحد، يزمّ شفتيه لينطق بذات الهدوء:" ما كلمتني اليمامة،

ولا أدري وش صار بينكم .. لي يومين بدبي أخلص شغلة لمشروعنا مع ناصر، يعني ما جيت آخذها"

يُقاطعه متجاهلًا كل شيء وعيناه تتسع :" لك يومين؟! تقول لي مريته قبل لا تسافر قبل يومين! وتقول بخير! مهو أنا عارف إنه بخير قبل يومين، بس أمس؟ اليوم؟"

ينطق ببرود :"ايه بخير يا نجد، اترك توترك ووساوسك وصدقني بتستوعب إن كل خوفك أوهام بس - يُخرج هاتفه من جيبه ويمدّه لنجد وشاشته تحمل اسم (عمي ياسر) - اتصل وكلمه واقطع شكك وتوترك"

يقف مقررًا ترك المكان عند هذه النقطة، لا يُمكن لأحد استيعاب ما يمرّ به .. يتجاهل نداء ابنته وهو يستقل سيارته.

ما إن تجاوز بوابة المنزل، تتسع عيناه بذهول على رؤية يوسف يقف أمام السيارة التي تأخذ اليمامة وتُعيدها من وإلى الجامعة، ابتسامته الواسعة وهو يستقبل اليمامة

ويسلّم عليها.. كاد يجنّ، لم يُعر يوسف اهتمامًا وهو يُقبل عليه بشوق يسلّم عليه، يخرج صوته غير مصدق :" شلون تركتو أبوي وحده! شلون طاوعك قلبك؟ وش برودة القلب اللي فيكم؟ مجانين؟!"

يُشتت يوسف أنظاره بين ثامر ويمامة باستغراب شديد غير أنه ينطق مقاطعًا له بصوت منخفض :" مو وحده، هديل عنده"

بسخرية ممزوجة بغضب :" هديل؟؟؟ مين هديل أصلًا عشان تروح وتتركه وحده معها؟ لو احتاج شي تتوقع يطلب هديل؟ لو حصل له شي تتوقع تحس فيه هديل؟"

لماذا الجميع بهذا البرود؟ لماذا لا يُمكنه الاعتماد عليهم؟ لماذا كل هذا؟ يعود إلى سيارته وصبره نفد منهم، ما إن تجاوزت سيارته شارع المنزل يتجمّد في مكانه للحظة.. هل توهّم صوت بريده الالكتروني؟ يُخرج هاتفه مسرعًا.. وكأن الأرض رُويت بعد طول جفاء، وكأن الشمس عانقته بعد طول غرق، وكأن نفحات الحياة بُثّت في رئته دفعةً واحدة ..

يُخرج نفسًا عميقًا دفع معه كل قلقه وتوتره دفعةً واحدة لتستكين أعضاؤه حتى غدا شخصًا مختلفًا عمّا كانه قبل قليل، نعم هذا هاتفه .. هذه رسالة بريد تحمل عنوانًا يُعيد إليه الحياة (أعرنا مقلتيك - حادي العيس) بتاريخ اليوم، وتوقيت الدقيقة ذاتها .. لم يشعر بابتسامته التي تتسع مع كل حرفٍ يقرؤه، بعينيه تنبض حنينًا قاسيًا .. وكأنه يُصافحه وعشرات الجدران تفصل بينهما ..

(السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ابني نجد، أشرقت الشمس مرتين دون أن أتمكّن من مصافحة رسائلك .. موقنٌ بأن قلقك وخوفك أخلّا بلحظاتك، وهذا ما جعلني أتوجّع .. لصباحين متتاليين أُمنع من الكتابة إليك، لكن الآن .. وكالعادة ما إن أباشر كتابة رسالتي إليك تستكين روحي، وتهجع أوجاعي وكأنّي لم أعرفها يومًا.

أن تمنعني التقنية الحديثة منك ومن وصلك هذا ما لا أقدر عليه، ماذا سيحصل لو أنّ تقنية البريد والانترنت وأسلاكٌ شائكة توصِل رسائل ضعيفة دون روح الكتابة اليدوية لم تصلنا؟ لكنت الآن أنتظر رسالتك منذُ أسابيع،

لكنها ستصل محمّلة برائحتك وخط يدك وربّما بصمات أصابع نورة التي أفتقدها جدًا .. وبالمناسبة حتى لا أنسى، وعدتها بهدية استثنائية فلا تنسَ استلامها، تساءلت وأنا أودعها إلى شركة الشحن قبل ثلاثة أيام هل ستحبّها؟ أم أن وباء الجيل قد حلّ عليها كذلك؟ وأعيد تكرار تحذيرك من أن تُسلّمها إلى التقنية وهي ما زالت غضّة لم تتشكّل بعد.. نعم أنا متحاملٌ هذه الساعات على التقنية كما لم أتحامل عليها مسبقًا .. كيف لخردة حديدية أن تقطع حبال وصل أبٍ وابنه؟

دعني أُفضي لك بسبب غضبي على التقنية قبل أن أفرّغه بذات التقنية التي توصلني بك ثم أعيش ندمًا وتعيش أنتَ قلقًا مضاعفًا، كنت أتصفّح المجلة قبل خلودي إلى النوم، وفجأة أظنه حلف أن يستفزني .. حلّ سواد مفاجئ على الشاشة لم يعتقني حتى قبل ساعة.

كنتُ سأطلب من يوسف إصلاحه، لكن يوسف ليس بخير منذ يومين.. أو أكثر، لا أعلم.. وحدك تعلم كيف

يتبدّل يوسف بين ليلة وضحاها دون أن يشعر به الجميع، اطمأننت لسفره إليك.. علّك تعرف علته وتداويها.

لن أُطيل ثرثرتي، لا أرغب بأن تمر لحظة أخرى وقلقك يتفاقم في يوم احتفالك بنورة، وأعرف أن هذه الأمور التي لم نعرفها سابقًا أصبحت ذات أهمية لجيلكم، جيل الآباء الجدد، قبّلها مرارًا .. أبلغ يمامتك الجميلة سلامي وأشواقي وقبّلها معتذرًا منها عمّا بدر منك حتى تسامحك، وجدّد إيمانك بأن حاديك لن يتوقّف عن حدائه لك أبدًا.

تعويذة أخيرة بألّا أُوجِعك ولا أُوجَع بك)

لم يكن يعلم كيف لصفحة وحيدة قادرة أن تُعيده إلى نفسه وتحلّق به عاليًا ليستقرّ هادئًا مطمئنًا بابتسامة واسعة، نسيَ كل الفوضى التي خلّفها خلفه.. نسيَ أسبابها ودواعيها، حتى أعادته طرقات على زجاج نافذته إلى وعيه، وجه يوسف القَلِق عاقدًا حاجبيه.. تذكّر حينها كل ما فعله، مع يمامته منذ الأمس، وكيف استقبل ثامر ويوسف، نوبة القلق والتوتر المتصاعدة منذُ صباح الأمس.. للحظة

راوده سؤال (لمَ كل هذا؟) إلى متى سيسيطر عليه هاجس الخوف والقلق؟

مسح وجهه بكفيه وهو يفتح الباب ليوسف الذي واجهه بطلب سريع :" بركب معك"

لم ينتظر جوابه، صعد السيارة.. سار نجد أخيرًا وهو يردّد اعتذاراته :"معليش يوسف، كنت متوتر شوي ومضيّع.. وتعرف للحين ما تخلصت من نوبات القلق"

يُقاطعه سريعًا :" أدري أدري، نجد هو نجد .. من يومك صغير وأنا أعرف طبعك، بأي موضوع يخص أبوي ونسبة الحرص عندك تتزايد بعيدًا عن نوبات القلق"

يبتسم بخفّة، تصله رسالة استلام طلبية من شركة الشحن، يُعيد اهتمامه ليوسف متابعًا طريقه إليها:" ما قصدت أستنقص من زوجتك، بس فعلًا انت بعقلك تروح وتتركه وانت عارف إن ثامر هنا؟"

يزمّ شفتيه، كما قال.. نجد هو نجد، منذ نوبة ارتفاع ضغط دم أبيه الأولى قبل سنين طويلة ومنذ كان نجد رجلًا في الخامسة عشر من عمره.. غير أن قلقه تفاقم الآن مع نوبات حالته النفسية، يرفض تصديق بأن حال والده تحسّنت بعد السكتة، ينطق بهدوء :" هديل أكثر شخص ممكن أعتمد عليه وأروح وأنا واثق إن أبوي بخير معها"

يزفر بقوة هازًا رأسه بضيق:" للحين مو متقبّل فكرة إن أحد غيرنا احنا الأربعة ممكن أعتمد عليه بخصوص أبوي، انت وثامر ويمام .. للحين ما تقبّلت فكرة أي دخيل جديد، سامحني على كلمة دخيل بس والله هذا الواقع!"

يشتّت يوسف أنظاره بالطريق، الدخلاء كما يصفهم نجد ليسوا سوى والده وأخته، لو كان يعلم بأن أباه أصبح يقضي معظم ليالي الجمعة مع يعقوب علّه ينتشله من قوقعته.. عاد إلى استخدام سيارته المركونة في منزلهم ليصحبه إلى الصحراء يقضيان ليلة تحت النجوم يسترجعان ذكرياتهما وكأنهما يعودان بالزمن القديم حيث

الصُحبة الأربعة، وأنّ هديل حفظت دواوين على يدِ والده.. هل سيُصرّ على أنهما دخيلان؟

يرفع رأسه لسؤال نجد مغيرًا دفة الحديث :" غريبة جاي بدون خبر"

يُطلق زفرة ضائقة: "الرياض صارت تخنقني، أدوّر أي مخرج منها وما في أقرب منك"

تبهت ملامحه متذكرًا رسالة أبيه، هل عادت الرياض إلى عادتها القديمة مع يوسف؟ اعتاد قديمًا على سماع تذمّر يوسف منها (الرياض تقتلني، الرياض تخنقني، أبي أطلع منها)، لكن قديمًا.. قبل سنين.. عندما يهاجمه اكتئابه ولا يقوى على مواجهته ولا مواجهة الرياض، ليكتشف أن جميع الأرض تخنقه وليست الرياض وحدها، ينقل أنظاره إليه خشية أن يجد يوسف القديم، يوسف الذي تحيطه هالة رمادية.. لتصافحه ابتسامة ساخرة من يوسف:
"تطمّن، أنا بخير.. "

ينظر إليه بعيني الشك، ليتابع يوسف بزفرة: "صدّقني نجد، اوك صحيح هالفترة رجعت نوبات الاكتئاب.. بس صرت أعرف أتعامل معها"

يبتسم بهدوء وبنبرة ذات مقصد: "دوّر عن السبب وعالجه"

لا ينطق، يكتفي بزفرة ليعود صوت نجد: "تنازل يوسف! مافي علاقة تستمر بدون تنازلات، أي علاقة بشرية.. الإنسان محتاج يتنازل لأبوه، لأخوه، لزوجته، لعياله.. ما يعني هذا إنك تبخس نفسك، العكس انت تساعدها قبل لا تساعدهم"

يزم شفتيه ضائقًا، ليتابع نجد: "انت تسمع هالكلام من أكثر شخص ما عنده طاقة تنازل، الكل يتنازل لي بس -بزفرة حارة- والله أنا مب قادر، مب بيدي"

تخرج ضحكته الساخرة مجددًا: "انت؟ لا نجد صدقني انت قدمت تنازلات كثيييير"

يعقد حاجبيه بضيق، نعم يوسف القديم.. بتشاؤميته ورفضه، يعود إلى حديثه الأول متجاهلًا كلامه الأخير: "أنا متأكد لو لا تنازلات يمام بكون للحين ضايع، جرّب تتنازل.."

يُقاطعه يوسف بقلة صبر: "تتنازل عن مبادئ؟ صعب يا نجد.. مب صعب، إلا مستحيل"

تتسع عيناه بضحكة مذهولة: "رفضك للذرية صار مبادئ؟! "

يزم شفتيه بضيق، أمرٌ لا يمكنهم تفهّمه، ليتابع نجد بهدوء: "أعرف تفكيرك، ما تشوف نفسك قد مسؤولية الأبوّة.. أنا أحيانًا تراودني هالشكوك، التربية مسؤولية صعبة، بس في النهاية أعرف إنها وساوس من الشيطان.. عقدت على يمام وبظننا مستحيل نشوف طفل مننا بيوم من الأيام، كانت طول فترة ملكتنا تدور عن موضوع كفالة الأيتام.. وشوف إرادة الله، بوسط كل المشاكل وكل اليأس والتعب رزقنا نورة، أنا بس أدخل الغرفة آخر الليل وأشوفها

نايمة مبسوطة ما ينقصها شي أحس إن الله عطاني كل شي ولا عاد أحلم بشي أكثر من ابتسامتها"

يقاطعه بضحكة بسخرية:" شايف؟ لحظة وحدة تغرّك بإنك قادر تكون أب وتتحمل مسؤولية روح! هذي روح يا نجد! صحصح! وش يضمن لك تعيّشها عيشة كريمة؟!"

يهز رأسه نفيًا باستخفاف ؛" الحياة ما تمشي على خط واحد، طبيعي ياخي تمر أوقات تغلط فيها، مافي حياة مثالية!، احنا بالأرض مب بالجنة! "

يهز كتفيه بعدم اقتناع :" وأبني حياة إنسان كامل وأنا ما أعرف وش ممكن يصير بكرة؟، ما أعرف أنا ممكن أظلمه وأتسبب بضياع حياته؟"

يُغمض عينيه بقلة صبر، هذا هو يوسف، بذات معتقداته القديمة، ظنّها مجرد أفكار سيتخلّى عنها بعد زواجه.. سينفطر قلبه شوقًا لطفل يحمل دمه، يجزم بأن المصيبة التي حلّت عليه قبل قرابة الأربع سنوات قد جدّدت

معتقداته بفكرة عدم الإنجاب، يهدأ صوته: "يوسف، أدري.. هذي ردة فعل على كل اللي صار، أنا وأنا المتضرر الأساسي.. مع كل الل صار وكل اللي راح علي، لو أقضي عمري أستسمح من أبوي لأني عاجز أشوفه كل هالسنين قليل بحق اللي أخذ بيدي وعلمني شلون أقرأ وأكتب اسمي، الأبوة مو بس تخلّف وتصرف عليه وتعيّشه تحت سقف محترم، الأبوة يعني تأخذ بيد أمانة من أمانات الله.. شعور كبير كل مرة أشوف نورة أدعي الله يهديك وتترك فكرك عشان بس تجربه"

يأخذ زفيرًا مرتفعًا وبرجاء: "نجد، تكفى مب جاي عندك عشان نتناقش بهالموضوع خصوصًا.. فكّني منه ممكن أنسى هاليومين بس"

يصمت كما طلب أخوه، هو كذلك بحاجة إلى ساعة استرخاء مع يوسف بعيدًا عن نقاشات عقيمة، يوقف السيارة عند أحد الطرق بناءً على طلب يوسف على وعد اللقاء في المنزل بعد ساعتين، يتجه إلى مكتب الشحن وما أن تسلّم الطرد يفتحه مباشرة بفضول شديد.. يُطلق زفرة

عالية وابتسامته تتسع على رؤية ما بداخله، دفتر قديم.. غلافه يحمل رسمة متواضعة في مظهرها، عظيمة في مكانتها.. طفلٌ صغير يقف عاليًا فوق جبل مرتفع، وبخط جميل يعرفه تمامًا كُتب أعلى الصفحة (فتى نجد)، يتحسس المرسوم بحنين كبير.. لم يكن أبوه يُجيد الرسم ولا حتى شجرةً واحدة، لذلك قامت أمه الجوزاء برسم غلاف القصص رسمة بسيطة لا تحمل الكثير من الملامح، أما ياسر ألّف كل قصصه بخط يده وبنات أفكاره، كان ما زال في الرابعة من عمره عندما أصرّ أن يكون له دفتر قصص خاص يحمل اسمه غيرةً من أخيه يوسف الذي يتربّع اسمه على إحدى صفحات المصحف، لم تكن لغيرته أن تكبر لو أن ثامر لم يُشعلها بمزاحٍ ثقيل (إلا هذا اسم يوسف، شوف .. ياء، واو، سين، فاء، يوسف!) مع أن والده قضى وقتًا يشرح له ويقنعه بأساليب طفولية إلا أن إصراره جعل تلك الفكرة تكبر برأسه ليصنع له دفتر قصص خاص باسمه، عنى له الدفتر كثيرًا في صغره، أحبه أكثر مما توقّع ياسر والجوزاء، حافظ عليه سنينًا.. إلى أن مرّت السنين وكبر ونسيه، لم يكن يتوقع أن أباه سيحتفظ به كل هذه المدّة، وهل يُمكن له أن يهمل شيئًا كان للجوزاء يدٌ فيه؟

لم يكن الطرد يحمل دفتر قصصه وحسب، بل احتوى على مجموعات قصص الأطفال لكامل كيلاني، أتمّ قراءتها صغيرًا على يد أمه وأبيه.. عاوده ذات سؤال حادي العيس، هل فعلًا ستحبّ نورة الهدية؟ لا يهمّ.. سيعلّمها حبّها كل ليلة حتى تألفها.

تصفّح الدفتر أو كتاب القصص الصغير، كلّما قرأ حرفًا استرجعته ذاكرته، كيف مرّت الأيام سريعًا؟ من كان يتصوّر أن هذا الفتى (فتى نجد) أصبح أبًا، ينتظر من ابنته قراءة قصة ألّفها والده له عندما كان بعمرها؟ ورقات الدفتر أيقظت بداخله فتى نجد، نجد الصغير.. نجد الذي لا يتوقف عن سؤال حادي العيس (يبه وش ذا؟ يبه ليه كذا؟ يبه مين ذا؟) نجد الذي كبر مُبصرًا بعيني ياسر.

-

يُفلت مجموعة البالونات لتطير وتستقر أعلى السقف، تزفر براحة :" يلله ما بقى غير تصحى ويجون وننتهي من كل شي"

يأخذ مكانه بجوارها، لم يُناقشها مطلقًا بخصوص نجد.. وبدورها هي لم تنطق بشيء، انشغل معها بتجهيز الاحتفال الصغير متجاهلين ما حصل صباحًا، يرتشف القهوة وبابتسامة :" شلون إجازة نجد معك؟ ما مليتِ منه؟"

تُطلق ضحكة صغيرة :" أبدًا، ريّحني شوي من نورة.. كل ما صاحت أو طفشت أخذها معه وأنا أفضى لبحثي، وبعد مريحني من التدقيق كل ما انتهيت من جزئية راجعها معي"

يسترخي بجلسته، وبهدوء:" شلونه؟ "

تترك القهوة بزفرة مصحوبة بابتسامة :" ثامر، أعرف، اليوم ما كان طبيعي.. تصرف بطريقته القديمة، بس صدقني أنا مرتاحة معه"

يصمت قليلًا قبل حديثه :" أدري، نوبة من نوبات القلق.. من أول نظرة عرفت، تدرين؟ كان خايف.. يحسبك مليتِ من وضعه ويتوقع إني جاي عشان آخذك! "

تترك كوب القهوة بدهشة :" يالله! - تهز رأسها نفيًا بضيق- لا مر بحالة توتر يتوهم كثير ويبدأ يظن ظنون مب بمحلها أبدًا"

يهز رأسه إيجابًا يُطمئنها :" ايه ما أخذت كلامه بجدية.. بس أوقات أفكر فيك، أشيل هم تكونين فعلًا مو مرتاحة وأنا أظنها مجرد نوبة من نوباته"

تؤكد عليه بإصرار :" أبدًا ولا تفكر، مية وتسعة وأربعين يوم كان طبيعي، كان.. كان نجد القديم اللي تعرفه! بس صار شي ونكّد عليه.."

يُقاطعها هازًا رأسه تأكيدًا :" شي بخصوص عمي ياسر، ما أعرف متى بيتقدّم ويتخطّى هالنقطة"

يضيق صوتها :" اصبر عليه ثامر"

ينطق مسرعًا بضيق :" ما عندي مشكلة، بصبر.. بس أخاف يا يمامة يصير شي لا سمح الله ويندم نجد ندم يرجّعه مو لنقطة الصفر وبس، يرجعه لسالب مية، والله ما يسامح نفسه وقتها، فعلًا أنا تعبت.. اوك صحيح نجد تخطى كل شي، بس أهم نقطة مو قادر يتخطاها.. أنا خايف بعد على عمي، تعرفين إن ثلاث سنين ونص مو شي هيّن عليه.. هذا نجد، مو أي أحد"

تصمت بضيق، لا جواب تملكه.. يُتابع ثامر بعد صمته :" ودي نجد يكسر الحاجز ويرجع، مافي أحد كثره عمي يرتاح

له، كلنا نحاول نكون حوله، نساعده .. بس يا كثر الأوقات اللي يكون محتاج فيها لشي بسيط .. تهميز رجوله مثلًا! أو سيارته يحتاج له تغيير زيت ولأني أنا أو يوسف مو منتبهين ما يتكلم! أعرف تفكيره.. شايل هم يكون ثقيل علينا أو يشغلنا فيه، مهما حكينا معه ما يغيّر عادته، مهما وضحنا له إنا مستعدين نفرغ نفسنا له ما يقتنع! ولا ودي نحسسه إنك خلاص بعد السكتة صرت شخص تتعب بسرعة يا عمي مفروض نراقب أكلك وشربك، مفروض تعلمنا باللي يضايقك واللي يريحك.. بس لو كان نجد حوله أعرفه مستحيل يستحي يطلب منه أي شي، بنفس الوقت أنا ويوسف وحتى هديل بشر في النهاية ننسى أحيانًا أو ما ننتبه على أمور صغيرة ممكن تزعجه، بس نجد! أنا متأكد لو في نملة تمشي على بُعد عشرة أمتار من عمي انتبه لها... ركزي شلون وضعه منقلب، ليه؟ كله لأنه مو متأكد إذا عمي بخير هاللحظة أو لا!"

تترك فنجانها وبصوت ضائق :" هو ودّه، ويتمنى هاللحظة.. بس يخاف ينتكس ويرجع للبداية.. عارف إن المؤسسة

بيفتتحون فرع بالرياض؟ منصور له شهرين يحاول بنجد يروح ويمسك الشغل هناك، بس... رافض!"

يزفر بضيق كبير :" هو بس لو يترك خوفه، بيتخطى كل شي.. والصدق ودي ترجعون، يضيق صدري أحيانًا من شوقي لك ولنورة ولا أقدر أجيكم.. - يبتسم وسط ضيقه- مابيها تكبر بعيد عني"

تضحك أخيرًا ضحكة صغيرة :" لا تخاف مكانك محفوظ، كل ما صار شي بالحضانة أو لا طلعنا مكان على طول تزعجنا بعلّم ثامل"

لا تغيب ابتسامته، نورة التي أحبّها كثيرًا قبل ولادتها، راقب تكوّن عظامها وملامحها.. شهد ولادتها وكأنها ابنته مع غياب والدها، يذكر ذلك اليوم.. عند تحديد موعد ولادتها، كان خائفًا من خذلان نجد، وكما كان خوفه.. خذله نجد، لم يحضر ولادتها متعللًا بانشغاله الشديد بعمله في العين، وهل هناك أمر أشد أهمية من يوم ابنته الأول؟ خصوصًا

مع حال أمها، يعلم أن نجد وقتها كان مصرًا على الهروب من كل شيء، خائفًا من أن يكون أبًا.. خائفًا من فقدان اليمامة.

جزع يوم ولادتها كثيرًا، سيطر عليه هاجس فقدان اليمامة، لم تكن ولادتها أمرًا هيّنًا.. كانت رغد تقف معه، حضرت كي تؤازره ليتفاجأ بها تنهار قبله باكية ليضطر لتهدئتها بدلًا من نفسه، أمضت أيامًا تحت الملاحظة.. لم ترَ ابنتها، كان هو من يتفقّد (نورة) كل ساعة بحب كبير، أمضيا هو ورغد الأسابيع الأولى من خطبتهما في محلات مستلزمات الأطفال، يذكر ذلك اليوم عندما سأل اليمامة عن اسم ابنتها.. كانت تمرّ بخيبة كبيرة لخذلان نجد، نطقت بروح أشبه بالروح الميتة (اسأل نجد، مو بنته؟) سأل نجد حتى يتمكّن من تسجيل بياناتها، ليُفاجئه الآخر (سمّها انت) لم يفكر مسبقًا بأي اسم، خرج من المستشفى يومها ليجد نفسه أمام منزل رغد ليسألها سؤالًا واحدًا فقط (تحسين وجهها يقول وش اسمها؟) لتفاجئه بجوابٍ جعله ينفجر ضاحكًا (سميها اللي تبي إلا قصيدة، خليه لبنتنا)، (في أحد يسمّي قصيدة؟ صاحية أنتِ؟) على إصرارها بأنه من كان يقول بأن ابنته الأولى (قصيدة) إلا أنه استمر ضاحكًا

مستنكرًا (لا تقوّليني كلام ما قلته، خلاص أنا كنت مجنون مرفوع عني القلم.. بنتنا ما أسمح لك تعقّدينها باسم عجيب!)، ضحك يومها في وسط تعبه وإنهاكه من نجد وحالة يمامة النفسية كما لم يضحك منذ مدة طويلة، إلى أن نطقت رغد بمحاولة لإسكاته (سمّيها نورة، على أمك!) خرج اسمها فجأة في لحظته (نورة!) لتحتلّ مكانًا بقلبه مثلما احتلته سميّتها الأولى.

أمضت اليمامة أشهرها الأولى بعد الولادة بين المستشفى والمنزل، حتى تحسّنت حال نجد، بدأت روحه تعود إليه.. لقاؤه الأول بابنته واليمامة كان في مدينة الخُبر، زيارات متتالية بعيدًا عن الرياض هيّجت روح أبوته وحبّه، في شهر نورة الثامن ودّعت أباها الروحيّ (ثامر) لتنتقل مع أبيها (نجد) وأمها إلى مدينة العين.. تعلّق قلبه بها كثيرًا، أحبّها كما لم يعتقد.. تعلّم على يديها نغمات بكائها وما تعنيه، ما يُضايقها ويُبهجها.. يسلك طريق عمله بصحبة صوتها وهي تسرد عليه تفاصيل يومها بكلمات مبهمة، ليأتيه صوت نجد (أمانة شلون تفهمها؟) سؤال لا يملك جوابه، يفهمها كما تفهمه.. مثلما يحبها كما تحبه.

يرفع رأسه عاليًا باسمًا على رؤيتها تهبط الدرجات درجةً درجة تجرّ معها دمية الأرنب الصغير، هديته لها قبل سفرها وهي ما زالت رضيعة، يقف ليستقبلها فاتحًا ذراعيه لها بابتسامة واسعة: " مين الحلو اللي يبيني أشيله؟"

إلا أنها تخطّته مسرعة حيث يقف والدها بصمتٍ مطبق، ما إن اقتربت منه حملها راسمًا على شفتيه ابتسامة صغيرة.. تلتقي عينا ثامر بعيني يمامة التي زمّت شفتيها بضيق وقلق من أن يكون نجد قد سمع حوارهما، يجزم على ذلك.. ملامحه تشي بأنه سمع، يرجو الله بذلك، لو سمع فيعني هذا أنه قد اختصر عليه حديثًا ثقيلًا.

يتجاهل نجد كل شيء محاولًا الاستمتاع بكل لحظة، منذ مدة طويلة لم يحظَ بهذا الاجتماع الأخويّ، يوسف وثامر نعمتان لم يشعر مسبقًا بعظمتهما، كل شيء يستحق أن يتناساه في هذه الأوقات لأجلهما..

صوته المبتهج أثناء احتفالهم بنورة لم يوقفه سوى وصول (هدية يعقوب)، عقد حاجبيه مستنكرًا وسط انبهار الجميع ويوسف يقدّمها إلى نورة عند بوابة المنزل، مُهر؟ هل (المُهر) هدية مناسبة لطفلة صغيرة لا تفقهُ شيئًا؟ هل مناسبتها تستحق؟ دائمًا ما كان يُرسل لها هدايا فريدة من نوعها لكن أليس المُهر مبالغًا به؟ يعلم تمامًا أن كل هذه الهدايا وكل تدليله لها بزياراتها للرياض ليس إلا لكسب رضاه هو، ولكن لمَ لا يستوعب أنه يثير استياءه؟ مهما حاول كبت استيائه يعجز، لم يستوعب أن انزعاجه كان جليًا على وجهه حتى شعر بقرصة خفيفة بكفّه من أصابع اليمامة وهمسها يصله :" حسسها بقيمة فرحتها!"

وعقدة حاجبي يوسف باسمًا: " طيب أقل شي ابتسم عشان الساعات اللي قضاها وهو يتخيّر المهر المناسب!"

يرسم ابتسامة مُجبرة مقتربًا منها وهي على ظهر المُهر وبصوت بارد :" واو نورة! وش هذا؟ "

بعينين واسعة مندهشة وأنفاسٍ متلاحقة :" بابا شوف! حصان! بابا مو لعبة!"

يشعر بكفٍ عريضة تضرب ظهره وبهزل :" اييه بس! ياخي استانس وين تلقى مطنوخ يدلّع بنتك! مو احنا عيالنا لهم الله، أفخم هدية ممكن توصلهم اشتراك ثلاث شهور بنادي من عمهم"

يضحك يوسف بخفة لما يقصده ثامر غير أنه تجاهل الرد وهو يسلّم نجد مجموعة أوراق :" هنا كل المعلومات عنه وعن أمه والمزرعة، أوقات الزيارة .. وش المسموح والممنوع"

يحاول تجاهل ضيقه المتزايد ونورة تتناسى كل شيء منشغلة بمُهرها الصغير، لم تعتقه حتى أُعيد إلى مزرعته، وللمرة الأولى لم تودّع ثامر ببكاء متواصل، سيطر على تفكيرها مهرها حتى ألهاها عن كل شيء، حتى وضعها والدها على سريرها.. تابعت حماسها: " بابا بكرة بروح عنده"

مسح على شعرها بهدوء باسمًا :" أبشري.. من عيني هذي قبل هذي"

فجأة، أصدرت شهقة مرتفعة وكأنها للتو تذكّرت :" وين هدية أبوي؟!"

سكنت روحه بابتسامة صغيرة، إذن لم تنسَ هدية (أبوي)، اعتادت على مناداته (أبوي- يُبه) كما يفعل والدها (بابا) كما تسميه، أما (جدي) ليست من نصيب أحد سوى يعقوب الذي لقّنها الكلمة بنفسه.

لم يكن ليُهمل هدية حادي العيس.. وضعها بجانب سريرها حتى تُفاجأ بها قبل نومها، نورة التي لا تنام حتى يقرأ لها أحد والديها قصة تنتهي بترديد أذكار النوم، مولِعة بالقصص كما كان صغيرًا.. ولع ورثه من أبيه ولا أحد سواه.

يُزيحها جانبًا ليجلس بجوارها على السرير، يستخرج مجموعة القصص أمامها.. تتسع ابتسامته لفرحتها

واندهالها وهي تقلّب صفحات القصص، وسرعان ما ازداد ذهولها و(فتى نجد) يتربّع أمامها :" بابا وش هذا؟!"

- "هذا يا بنتي كتابي المفضل يوم كنت صغير بعمرك - يُشير إلى العنوان- فتى نجد، مين فتى نجد؟"

بصوت ضاحك تُشير إليه، تقلّب الصفحات بحماس دون مرور صفحة بلا سؤال (مين هذا؟ - مين رسمه؟- ليه وجهه كذا؟ - وش يعني؟) حتى سحب الكتاب من يدها خوفًا من أن تصيبه بأذى من شدة حماسها :" خلاص يا بابا، الحين نامي وكل يوم قصة وحدة بس مثل ما اتفقنا"

تهز رأسها إيجابًا قبل أن تقفز وتسحب مجموعة القصص من بين يديه لتبدأ بترتيبها بمكتبتها الصغيرة، يتأملها للحظات.. لا تتوقف أسئلتها، (سؤولة) كما لقبّها برسالته لحادي العيس قبل شهور، ومثل ما قال حادي العيس (بنت أبيها، ما الغريب؟) مثله تمامًا في صغره، حتى شقوق الأرض يسأل لماذا هي بهذا الشكل؟ ومن قام

بتشكيلها؟ وكل ما يرجوه أن يكون لها كحادي العيس، يحتويها بقلب أبٍ صابر، أبٍ رفيق مُخلص لا يتململ.

ما إن عادت إلى سريرها تنضمّ إليهما أمها بعدما كانت برفقة يوسف، تُشاركه قراءة القصة.. تردّد خلفها أذكار النوم، وما إن أغلقت عينيها يصلها همس دافئ :" الله لا يوجعني فيك، ولا منك".

يقف ليخرج مع اليمامة إلى غرفتهما، ما إن استوت على السرير بجواره قبّل خديها بهدوء: "يمام، آسـ.."

لتقاطعه بابتسامة سريعة: "على وش؟ نجد، ما صار شي، كانت نوبة قلق خفيفة وقدرت عليها خلال يوم!، إنجاز كبير مفروض تفرح"

يزم شفتيه للحظة قبل أن يطلق زفرة: "مابيك تظنيني ندمان عليك أو على نورة، لا تاخذين بكلامي وأنا بهالحالة".

لا تزال ابتسامتها عالقة، كعادته.. بعد كل نوبة قلق، يردد ذات اعتذاراته.. تقبّل شفتيه بخفة: "أنا أعرفك أكثر وحدة، لا تخاف!"

ترتسم على شفتيه ابتسامة واسعة أخيرًا، يشدّ على اللحاف حتى يغطّيها.. يمامته التي أحبها صغيرًا وكبُر على حبّها، لم يجد سواها وسط هروبه من نفسه، كان عازمًا على تطليقها.. ليجد نفسه أضعف من أن يفقدها هي الأخرى، بلقائهما الأول بعد انقطاع طويل.. دخل غرفة الفندق المطلّة على الخليج العربي بعدما تركهما ثامر وحدهما.. كان لقاؤه الأول بابنته وهي تنهل من حليب أمها، مشهد هيّج قلبه.. كانتا كلوحة فنية تعود للقرون الوسطى، كل حديثه الذي رتّبه لليمامة حتى يُبرّر لها موضوع انفصالهما وحتى يستسمح منها على كل شيء طار مع الرياح ليبتلعه الخليج، صورة بديعة أرّقته لأسابيع حتى لقائهما التالي، هدّأت اليمامة وجعه وخوفه بابتسامتها وهي تُصبّره وتُليّن قلبه (بصبر معك للأخير، مب مشكلة.. بنتظرك شهر شهرين سنة سنتين لين تتعوّد)، بعدما استقبلته نورة بشهرها الثامن وهي تخطو خطوة واحدة قبل تعثّرها جزم بعجزه على

العيش دونهما، ما زال على جزمه حتى الليلة.. حتى في زيارات اليمامة ونورة للرياض يفقد نفسه سريعًا من شدّة الشوق لهما.

- " نجد"

فتح عينيه بعدما كان غارقًا بالتفكير على صوتها الناعس وهي تتابع: "نام"

اعتدل بجسده وحديث يؤرقه لم يستطع ابتلاعه: "يمام، سمعت كلام ثامر معك عن أبوي.. أمانة مافي شي يخبّيه عني؟"

صمتها لبرهة ولّد الشك بداخله إلى أن نطقت بهدوء: "بخير بس.. فاقدك"

تضيع عيناه بالفراغ، يزفر بضيق إلى أن شعر بها تضمّه: "نام وبكرة عندك وقت للهواجس"

••

تفتح عينيها مع ارتفاع صوتٍ عذب، صوت ألفته كثيرًا حتى فقدته، فجأة عقدت حاجبيها وهي تعتدل بجلستها بعدم استيعاب.. أين هي؟

غرفة مظلمة، هادئة.. لا صوت سوى صوت المؤذن، ذات المؤذن الذي ألفت صوته كثيرًا حتى فقدته.. أعادت استرخاءها على السرير مجددًا بزفرة، نعم هي في بيته.. متدثّرة بلحافه، هذه رائحته التي لا يُمكن لذاكرتها نسيانها.

تقف بتثاقل، تُضيء الغرفة لتظهر لها كما تركتها تمامًا.. مرتبة، منظمة، لم يسعفها الوقت البارحة لتفقّدها.. ما إن دخلت تعمّدت تجاهل كل شيء ولاذت إلى السرير سريعًا دون إضاءة الغرفة حتى لا يركب قلبها مركبًا لا تريده، ومع هذا جافاها النوم لساعات طويلة وسط الظلام..

توضأت وصلّت بعدما أبدلت ملابسها، وما إن همّت بمغادرة الغرفة استوقفها منظرٌ جعل ملامحها تذبل.. عِقاله يُحيط بحبّات السبحة المحلولة، اقتربت منها بعد تردد.. عضّت شفتيها بغصّة وهي تعدّها، عشر حبّات داخل حلقة العِقال وخمس وحدها خارج الحلقة، حمل كلامها على محمل الجد؟ وهي من قصدت به تعبيرًا مجازيًا، مجاز حوّلته إلى حقيقة ولم تتوقع أن يجاريها كذلك.. تذكر ذلك اليوم قبل قرابة الثلاثة أشهر، والسبحة التي رافقتها طويلًا

تتحرر من معصمها، كان جالسًا أمامها تفصلهما طاولة القهوة الصغيرة.. حلّت عقدة السُبحة بهدوء، أخرجت نصف حبّاتها.. خمس عشرة حبّة، لتُبقي البقية بخيطها وبصوتها الواثق: "نصها معي، ونصها معك.. كل حبّة بأسبوع، إذا وصلنا للأسبوع الخمسطعش يكون كل واحد أخذ قراره بعد ما فكّر كل هالأسابيع"

وصل صوته هامسًا مستنكرًا : "أسبوع؟ - اعتدل بجلسته ليسحب الحبّات المتناثرة على الطاولة- شهر"

هزّت رأسها نفيًا بسرعة: "أسبوع، قدامنا خمسطعشر أسبوع وقت كافي.. بدون أي ضغوط، بدون أي تأثير عاطفي، والنقاش ممنوع لمدة أسبوع من اليوم، بعد ما ناخذ فترة استراحة واسترخاء -وبتشديد- ويكون نقاش بتعقّل.. بعيدًا عن العصبية، بعيدًا عن البكاء، بعيدًا عن أي كلام ممكن يهيّج الطرف الثاني.."

قاطعها صوته هامسًا هادئًا: "مرسول السماء، ضمن هالنقطة؟"

ختم حديثه بابتسامة صغيرة، لتنطق سريعًا قبل انتقال ابتسامته إليها: "وممنووووع هالنبرة، وصحيح.. مرسول السماء ممنوع، قلنا -بتشديد آخر- بتعقّل"

تخرج منه ضحكة صغيرة ليُعيد استرخاءه: "ايوه؟ عطينا بعد من قوانينك.. ممنوع أزورك ببيت أهلك إلا بوجود محرم! "

تُمسك رأسها بقلة صبر: " يوسف! تونّا نقول جدية! أرجوك أنا ما أمـ.."

يُقاطعها مستنكرًا معتدلًا بجلسته: "أنا مب عارف وين التعقل بكل كلامك! هديل وش حلونا أمس وفجأة اليوم أرجع من الدوام ألقاك مجهزة شنطتك؟"

تُقاطعه بزفرة طويلة وصوت هادئ: "مافي شي اسمه فجأة، مو انت بنفسك مقتنع صعب نكمل حياتنا وتفكير كل واحد بوادي؟!"

يزفر بضيق والسواد بدأ بغزو ملامحه: "تعرفين.. ما كنت أعنيها وشرحت لك واعتذرت"

تهز رأسها نفيًا بسرعة: "لا ما كانت تحتاج اعتذار، ما قلت شي غلط.. كل اللي قلته صحيح ومنطقي، اللي صار سمح لي أفكر وأشوف بطريقة ثانية"

يُغمض عينيه للحظة ليعود لها مجددًا بصوت ضائق منخفض وهو يعبث بحبات السبحة على الطاولة: "يعني مافي حل بنظرك غير إنك تطلعين بيت أهلك كل هالأسابيع؟ طيب اجلسي معي ويسهل علي إقناعك"

- "لا! صدقني كذا أفضل لي ولك.. لو قابلنا بعض ٢٤ ساعة يا تهزمني أو أهزمك بدون أي قناعة"

اكتفى بعبثه بحبات السبحة بصمتٍ مطبق قبل أن تقطعه بابتسامة مرحة غابت عنها لأيام: "يلله عاد بلا دراما ما بنقطع بعض، ضروري نجلس مع بعض كل كم يوم

نتناقش، وانت بعد لا تقطع أبوي وأمي.. وأي وقت تحتاجني بكون معك، هي بس فترة كل واحد يلملم أفكاره ويتخذ قرار حياته"

رفع رأسه أخيرًا :" قرار حياته؟ يعني الطلاق.. ليه ما تختصرين الموضوع وتقولينها"

بسرعة ويقين: "لأني أحبك! "

ارتفعت شفته بابتسامة ساخرة لتتابع: "أحبك وأبيك، أبي أستنفذ كل الحلول الممكنة معك لأنك مب مجرد زوج إذا ما اتفقت معه انفصل عنه وأدور حياة جديدة، أعرف مهما سويت ومهما صار ومهما مرت بي السنين مستحيل أحب غيرك – بقلة حيلة تابعت- بس انت يا يوسف ما تحاول، ما تبي تبذل أي جهد تغير فيه تفكيرك عشان تحافظ على زواجنا وحياتنا!"

هز رأسه بضيق: "هديل ما أعرف ليه صايرة مهووسة بفكرة الإنجاب والعيال!"

- " هذي ردة فعل على تفكيرك! اوك لو تقول نجلس خمس سنين بعدها نجيب عيال ما عندي مشكلة، صدقني بنسى كل شي، بس ترفض رفض قطعي! ما أقدر.. صدقني ما أقدر أجاريك بفكرك عمرنا كله، اوك أحبك بس أبي أطفال! أبي أكون أم، أمر بديهي!"

يمسح وجهه بضيق وانفعال، لا يُمكنه.. فكرٌ اعتنقه منذ سنين طويلة ومنذ نضجه لا يُمكنه الفكاك منه حتى بات يراه من المسلّمات، يزيد يقينه به يومًا بعد يوم، لمَ لا تزال مُصرّة! :" مستحيل، تعرفين هالموضوع منتهي بالنسبة لي.. أنتِ كأنك تاخذين مسلم عاقل وتحاولين تقنعينه باليهودية ولا المسيحية! لا عقل ولا منطق ولا إيمان ممكن يزحزحه! هذا فكري وهذا معتقدي!"

تأخذ شهيقًا مرتفعًا :" اوك خلاص مو وقت نقاش، قلنا ممنوع لمدة أسبوع بعدها نتناقش بجدية وهدوء"

يصمت مجددًا باستسلام، يطرق بأصابعه ذراع مقعده.. يغرق بتفكيره حتى شعر بها تنوي القيام، نطق مسرعًا: "وش بتقولين لأهلك؟"

صمتت للحظة قبل أن يُتابع: "اخترعي أي قصة ومشكلة أنا راضي، بس لا تعلمينهم بموضوع اللاإنجابية.. – بزفرة ضيق- مستحيل يفهمون، تعرفين.. جيلهم مختلف"

كادت تصرخ بأن هذه ليست معضلة أجيال، لا أحد يملك فكرك الغريب سواك أنت وفلاسفتك، لا أحد يرفض أمرًا فطريًا سوى من غطّى السواد والتشاؤم والسلبية معتقدهم.. مثلك تمامًا، إلا أنها ابتلعتها، كما نصّت القوانين.. لا جدال حتى مرور أسبوع كامل، اكتفت بهزّ رأسها إيجابًا وهي تلمّ بقيّة حبات السبحة بخيطها.. سرعان ما أعادت أنظارها إليه على صوته وهو يدنو منها وأصابعه تسل منها ما تبقّى من السبحة: "بعقدها لك أنا"

مدّت ذراعها له ليعقدها بمعصمها وبابتسامة صغيرة منه: "شايفة شلون تحولت من سبحة لسوارة بفضل قوانينك!"

اتسعت ابتسامتها: "لو باقية على عددها القديم بيزيد عندنا أسبوع، شايف شلون حظنا؟!"

ختم عقد السبحة بقبلة دافئة حيث ينبض شريانها الأزرق، رفع رأسه مع ارتفاع حاجبه بابتسامة ثقة: "لا تخافين، قبل لا نوصل لنص العدد بترجعين معي لأني بتغلّب عليك وبقنعك"

وها هي تقف أمام عقاله وحبات السبحة العشرة، تجاوزا نصفها حتى شارفت على الانتهاء ولم يتغلّب شوقهما على فكريهما المتنافرين، نفخت شفتيها بضيق وهي تقترب وتأخذ حبة من الخمسة المتبقية وتضيفها إلى العشرة داخل العِقال، لم يتبقَ أمامهما من الوقت سوى أربعة أسابيع، شهر واحد.. لا أشد وجعًا على قلبها من شوقها إليه سوى إدراكها بأنه متمسّكٌ بفكرته حتى في سبيل التخلّي عنها، تحوّل حماسه بإقناعها بأفكاره أول الأسابيع إلى ضيقٍ وجمود بارد.

انتشلها من الغوص في خيبتها صوت الباب الخارجي، خرجت من جناحهما الصغير إلى الأسفل.. اتسعت ابتسامتها على وجهه المذهول لوجودها، اقتربت تقبّل رأسه وكفّه وبصدق:"والله يا عمّي أكثر شي فقدته الجلسة معك الصبح قبل أطلع الدوام"

كانت ملامح الدهشة تغطّيه إلا أن صوته خرج فرِحًا: "وش هالفجرية الزينة؟ هديل رجعت وأنا مدري! نورتِ بيتك يا بنتي"

زمت شفتيها بتورّط لتنطق مسرعة وهي تدخل المكتبة معه: "قلت أمر أجلس معك أونّسك بما إن يوسف وثامر مسافرين"

تحوّلت ملامحه إلى خيبة شديدة، نطق بهدوء: "يا بنتي أدري يوسف موصيك فيني، ما كان في داعي تتعبين نفسك معي.."

لم يُخطئ، رسالة من يوسف يطلب منها أن تتفقّد والده مع غيابه وثامر جعلتها تحمل نفسها إليه، مع ذلك هي حقًا اشتاقت إلى الصباح معه، اشتاقت إلى جناحهما الصغير، إلى سريرهما الدافئ.. فرصة لا يُمكنها تفويتها بغيابه، قاطعته مسرعة: "يا عممي أي تعب؟ مافي شي يريّحني كثر الجلسة معك الصبح، وفرصة أروّق معك بعيد عن إزعاج يوسف وثامر.. -وقفت أمام مكتبته الكبيرة بعينين باحثة- اشتقت أجلس أسمعك تقرأ وتحكي لي قصص الأولين"

تجاهل كل شيء ليدعوها للجلوس معه برفقة كوبي شاي تفوح رائحة الحبق المديني منهما، كانت تُشاطره القراءة والحديث بمتعة أنستها حزنها من يوسف، نطقت بابتسامة حبّ واسعة وهي تُغلق الكتاب :" آخ عمي، ليه يوسف ما يشبهك!"

نطق مسرعًا :" لأن يوسف هو يوسف! وياسر هو ياسر!"

زمّت شفتيها باسمة دون تعليق، هي أكثر الناس علمًا بعدم شبههما، يوسف الذي أقصى نفسه عن الجميع منذ

سنين مراهقته.. شعوره الدائم منذ صغره بأنه ليس سوى حلقة دخيلة وسط عائلته، خيطٌ انسلّ خطأً ليضمّ حلقتين متنافرتين بصلةٍ وثيقة.. حلقة كانت لا تزال متيمة بحبٍ توارى تحت التراب، والأخرى كانت تهيمُ بحبٍ لا تملكه حتى ملكته أخيرًا لتتخلّى عن الخيط المهترئ..

تُعيد أنظارها إلى ياسر حيث تابع بهدوء :" يا بنتي أعرف، يوسف طبعه عنيد وما ينعرف له وممكن ينام بمزاج ويصحى لك بمزاج مختلف ومهما حاولتِ تعرفين أسباب زعله بتتعبين، هو هذا طبعه.. راسه يابس، مع إنه الوحيد من صلبي بس صعب علي أفهمه، ثامر من صغره عنيد ويخالفني بس أفهمه، أفهم وش يبي وش دوافعه، ونجد .. حتى ببعده أعرف وش اللي مضايقه واللي مزعله لو ما سمعت منه، بس يوسف! عجزت.. بابتسامة- تعرفين يذكرني بمين؟ يذكرني بأبوك بشبابه"

اتسعت ابتسامتها بضحكة صغيرة وهي تؤيده، ربما أحد أسباب فتنتها به هو شعورها بأنه (أبوها في صغره) حاد الطباع، عنيد، منعزل، يتملّكه البرود فجأة.. لا يُشبه من

حوله، دائمًا ما يتوه بحثًا عن ذاته.. أخبرتها أمها بذلك، حكى لها كثيرًا عن ماضيه، عن انتكاسته الكُبرى بعد هروبه.. حتى أتت ليمتلئ بها، تمامًا كحال يوسف.. أشرقت حياته منذ عرفها، امتلأ بها.. (أنتِ مضاد طبيعي للاكتئاب) كما يردّد دائمًا، لكنها تجزم على قدرته بالعيش في حياة منطفئة، فارغة منها في سبيل عدم ترك معتقداته.

أمضت ليلة أخرى برفقة ياسر، تستسقي من منزله الدافئ، علّها تجد في زوايا الجناح الصغير ركنًا ثابتًا يُعيد تمسّكها بيوسف.. إلى أن حلّ صباح السبت، جافاها النوم تلك الليلة.. أشرقت الشمس وهي ما زالت بانتظار عودته، إلى أن غلبها النوم..

:

هبطت طائرته إلى الرياض، محمّلًا برسائل ورسومات نورة إلى أبيه.. غادر الرياض قبل يومين خوفًا من تربّص الاكتئاب به، فقد مضاده الطبيعي للاكتئاب، كان يراقب العينين الجاحظتين السوداوين تحدّق به لأسبوعين متتابعين.. عينين يألفهما جدًا، لا تقدر على فراقه مدّة طويلة.. عيني الاكتئاب.

سابقًا كانت هناك عينان باسمتان قويتان ما أن تشعر بالعينين الكئيبة تقترب منه تقف لتُحارب معه حتى تطردها من عتبات المنزل، مرة يُهزم البياض ومرات عديدة ينتصر.. علّمته أن لا بأس بالهزيمة أحيانًا، المهم أن يتعلّم كيف يواجه الهزيمة حتى ينتصر.. لم يسمح للاكتئاب بالحلول عليه لأكثر من أسبوعٍ، لم يستسلم له إلا بعدما وضعته بين خيارين يخافهما جدًا.. إما أن ترحل عنه أو أن يُقرر ترك معتقده، أن يُسهم بمولود صغير يُسمّى (ابنهما) يناديه (بابا).. أن يُشارك بإنجاب مخلوقٍ لا يعرف كيف ستعصف به الحياة أمرٌ لا يقبله.

ركوبه في سيارة التوصيل أعاد إليه ذكريات خوفه منها، كيف كانت أشد لحظاته ضعفًا وهو يركب سيارةً ما.. أما الآن، لا يرى فيها ما يُخيفه، غاب عنه صوت أنين أمه.. عرف نغمة المطر الجميلة وهو يتراقص على زجاج النافذة، تعرّف على منظر الشوارع البديع ليلًا.. تخلّص من خوفه معها، وهي تشدّ على يده وبابتساماتها تُضيء له الطريق.. انتزعت تلك الذكرى السيئة من ذاكرته لتُنبت مكانها ذكرياتٍ فاتنة لهما في الشوارع والطرقات.

سفره إلى نجد علّه يُقاوم العينين الجاحظة لم يُجدِ نفعًا وإن حاول إقناع نفسه بذلك، شعور بالخذلان والفشل والخوف أكبر من تجاوزه.. يقينه بفشله بالمحافظة عليها وتحقيق حلمها ولّد بداخله خذلانًا قاسيًا، مهما أحبّها لم يكن عليه أن يُتمّم حبّه بالزواج منها وهي لا توافقه ولا يمكّنها تقبّل فكرته بعدم الإنجاب.

ما إن دخل المنزل أطلق زفرة مرتفعة على رؤية سيارتها بجوار سيارة والده، يغلب شوقه إليها رغبة بالهرب منها.. من

فشله بإقناعها، من رؤية عينيها المتلهّفة لطفل يُغذّي أمومتها.

يحمل حقيبته الصغيرة إلى داخل المنزل، مستعدًا لمواجهتها.. توقفت خطاه على الصوت الخارج من مكتبة أبيه، تلاوة عذبة لسورة يس بصوت علي جابر، أخذ نفسًا عميقًا قبل دخوله المكتبة.. أكثر اللحظات ثقلًا على قلبه بعد أي زيارة لنجد هي رؤية والده وهو يترقّب بتلهّف دخول نجد خلفه، وكالعادة منذ ثلاث سنوات سرعان ما تتحوّل ملامحه إلى خيبة شديدة.. تتكرّر الخيبة كل ليلة في رمضان، في أيام العيد، في زيارات اليمامة وابنتها.. أمازال أمله كبيرًا؟ ألم يعتد على الخيبة طيلة هذه السنوات؟

وكالعادة ينجح بتمالك خيبته، ويفشل بتمالك شوقه وهو يسأل عن كل كبيرة وصغيرة تخص نجد، يردد يوسف ما اعتاد عليه (بخير، كل مرة يتحسّن أكثر.. زاد وزنه شوي) يتعمّد إخفاء ما يُقلق والده، لم يُخبره عن نوبة القلق التي عاشها نجد لساعات.. جاهلًا بأن نجد لا يُخفي شيئًا عن والده بيومياته.

يقف وهو يُخرج ورقتين مصفوفتين من جيبه وبابتسامة:
"قبل لا أنام هذي غنايم نورة، أزعجتني وهي توصّيني عليها"

التقطها بلهفة وسرعان ما لمعت عيناه بحنين على رؤية الورقة الأولى تحمل خربشات طفولية، والأخرى تحمل طبعة ثلاثة أكفٍّ ملونة، كف نورة الصغيرة تتوسط كفّي والديها.. مرّر أصابعه على بصمات نجد، علّ الكف التي عانقها منذ كانت صغيرة تخرج إليه من الورقة وتُسلّم عليه.

يُغادر يوسف مكتبة والده، يصعد إلى الأعلى بخطى غير واثقة.. هل ستُغادر مسرعة بعد أن تسلّم عليه كمن أدّى مهمته وانتهى؟ كيف سيبرر لها هروبه منها لأسبوعين مكتفيًا برسائل مقتضبة؟ هل ستعود لفتح موضوع الإنجاب والطلاق مجددًا؟

يُنهي تساؤلاته وهو يفتح باب الجناح بهدوء، كان كل شيء هادئًا.. لا إضاءة سوى إضاءة شمس الصباح، بحذرٍ شديد فتح باب الغرفة.. وكما توقع وجدها نائمة بسلام، مشهد

افتقده منذ قرابة الثلاثة أشهر ولا طاقة له به الآن.. وما إن أعاد قفل الباب عضّ شفته بندم على رؤيتها تتحرك وسط الإضاءة الخافتة وها هي ترفع رأسها بضيق.. بصوت منخفض: "آخ صحيتك! "

جمدت في مكانها للحظة قبل أن تستوعب وتمسح عينيها بنعاس: "لا ما كنت نايمة، بس غفيت شوي"

يصمت قليلًا منشغلًا بإخراج منشفته، يحملها متجهًا إلى الحمام وبتهرّب: "خذي راحتك"

تتوقف خطاه فجأة، يُنزل أنظاره لكفها التي تُعيق حركة معصمه.. وسرعان ما وصل صوتها مستنكرًا باسمًا: "يوسف! ما سلمت علي"

لا تترك له مجالًا وهي تُديره إليها وتحتضنه بقوة مبالغة مفتعلةً المرح: "بشوف للحين عظامك قوية ولا فقدت قوتها بعدي"

تخرج منه ضحكة صغيرة ووجهه يهبط ليقبّل شعرها: "لاه أبشرك صارت أقوى، ما عندي أحد يقاطع رياضتي كل دقيقتين"

تضرب صدره بقبضة يدها بضحكة وهي تبتعد عنه لتسمح له بدخول دورة المياه وبصوت مرتفع: "ودك أجهز قهوتك على بال ما تتروش؟"

يعقد حاجبيه وسرعان ما نطق مغلقًا الباب: "لا، نعسان بنام"

استغرق وقتًا طويلًا في اغتساله علّها تملّ وتعود إلى منزل والديها، الثواني المعدودة التي قضاها معها قبل قليل أنعشت روحه بابتسامتها وضحكتها، لكن رغبة الهروب منها ما زالت تسيطر عليه.. لا رغبة له بأن تُجدد لهفته لها في أسابيع مهلتهما الأخيرة بعدما هيّأ نفسه لحياة خالية منها..

عندما خرج ملتفًا بمنشفته وجدها منشغلة بالمدفأة: "البس بسرعة، البرد بيمرضك"

شتّت أنظاره عنها بضيق، ما زالت مُصرّة على انتشاله لها.. لم تتزحزح من مكانها قُرب المدفأة وهو يرتدي ثيابه تابعت حديثها ببساطة: "شلونه نجد؟! "

باقتضاب هادئ: "بخير"

- "ونورة؟ وش كانت ردة فعلها على المُهر؟"

- "انبسطت!"

جفّف شعره سريعًا دون توقّف أسئلتها: "يمامة متى تخرجها؟"

- "ممكن بعد أسبوعين، مدري"

كانت تشعر بنفوره من الحديث معها إلا أنها تابعت وهي تقف أمامه: "وش تحب؟ محتارة أي هدية أرسل لها"

أغلق جهاز التجفيف ليرتمي على سريره متشرنقًا داخل لحافه الدافئ: "ما أعرف والله هديل، أي شي تحبونه أنتو البنات"

اختفى رأسه تحت لحافه معلنًا نهاية الحديث، أغمض عينيه بضيق لحاله.. يعلم تمامًا أن أسلوب حديثه هذا يُثير استياءها، فلمَ لا تُعتقه وتغادر؟

عوضًا عن المغادرة شعر بجسدها يُشاركه السرير، زمّ شفتيه بضيق ليُلقيها ظهره وما زال جسده كاملًا مدثرًا بلحافه ليصل صوتها قريبًا: "نام، لا تخاف وعد ما أزعجك"

لا تعلم كم أمضت من الوقت وهي مستلقية على طرف السرير بصمت مطبق دون حركة منه حتى ظنّته نائمًا إلى أن فاجأها وهو يلتف مجددًا لها دون أن يكشف غطاءه:
"هديل! لا تخلّين بالقواعد بآخر شهر! بعدين تتهميني أنا؟"

اتسعت ابتسامتها: "ما أخليت بشي!"

دون حركة: "أخليتِ! من القوانين ما نتشارك السرير.. أو أذكرك؟ -بتساؤل- سيارتك خربانة؟! بطلب من أبوي يوصلك"

استرخت على السرير أكثر: "غرفتي باردة، هنا دفا أكثر"

- "اوك ذكريني لا صحيت أشتري لك دفاية"

هزت رأسها نفيًا باستمتاع على صوته المكتوم داخل اللحاف: "وسخان حمامي بعد مدري شفيه"

- "اوك ذكريني بعد أكلم كهربائي"

- "ومشتاقة لقومة الصبح مع أبوك"

- "اوك ذكريني أقوله يمركم كل صبح"

- "وفي واحد هارب له أسبوعين ما عندي حل غير إني أروح له بنفسي وأحاصره"

عند هذه النقطة يصمت، يتحوّل صوتها جادًا بهدوء: "يوسف! ليه تهرب مني؟"

يُزيح لحافه أخيرًا لتلتقي عيناه بعينيها المتسائلة، وبثبات: "ما أهرب.. بس ابريحك من عناء الإقناع، لأننا مستحيل نتفق"

تضيع أنظارها حوله بضيق قبل أن تنوي الوقوف: "نام الحين وارتاح"

يسحب ذراعها فجأة يمنعها من الابتعاد: "مابي أنام، صحيح.. كنت أبي أهرب منك بس"

تعود للجلوس على السرير بجواره بضيق لصوته الضائق وهو يعتدل جالسًا متابعًا حديثه: "أهرب منك هالأيام لأني اكتشفت مافي فايدة.. أعرف ظلمتك بزواجي منك وأنا إنسان رافض فكرة الإنجاب، مفترض اللاإنجابي ما يفكر يرتبط إلا بإنسانة مثله.. تعرفيني أنتِ أكثر من أي شخص،

تعرفين إني كنت رافض فكرة الزواج بكبرها، بس أنتِ غيرتِ فكرتي"

تقاطعه بهدوء: "شفت؟ في أفكار ومعتقدات كثير تقدر تتخلى عنها إذا عزمت"

يهز رأسه نفيًا بضيق: "لا.. تعرفين ليه؟ لأني اكتشفت مو كل تغيير بالأفكار صحيح"

تمسح وجهها بضيق أشد وهي تُدرك مقصده، زواجهما فكرة غير صحيحة كما يدّعي؟ ليُتابع بهدوء: "هديل المشكلة مو منك، أنا هذا طبعي.. اللي مثلي مفترض ما يورط شخص معه، أنتِ غيرتيني.. ما عرفت قيمة الحياة مع شخص تحبه وتخاف عليه إلا معك، ساعدتيني بكيف أتعامل مع مشاكلي النفسية.. كيف أكون شخص مسؤول، المشكلة مب منك.. أنا اللي ما قدرت أعطيك كثر ما عطيتيني، أتمنى والله أتمنى أعطيك كل اللي بيدي وكل اللي أملكه وما أملكه.. بس أطفال؟ - يهز رأسه نفيًا بضيق- مستحيل، فكرة الإنجاب

والأبناء شي مستحيل أتقبله، لو اضطريتيني اختار بينك وبين فكرة أعيش عمري كله وحيد طبعًا بختار الثانية! "

يصمت لبرهة يتأمل وقع كلماته عليها، كما توقّع كان وجهها حزينًا وإن حاولت إخفاء الحزن عن عينيها، تبتلع ريقها.. تلمّ شعرها بزفرة مشتتة أنظارها ليعود صوته هادئًا: "هديل، مابي أفقدك.. مابي أفقد الإنسان الوحيد اللي يفهمني ويعرف يتعامل معي، بس أعترف بفشلي.. مستحيل تتفهمين وش يعني إنسان يخاف من فكرة الإنجاب ومستحيل يقبلها"

تمسح وجهها مطولًا، يترقّب ظهور ملامحها من خلف أصابعها.. لتفاجئه بزفرة مصحوبة بابتسامة: "أدري! – ترمي جسدها على السرير بإنهاك- أقنعتني، مستحيل أقنعك بموضوع الإنجاب.. أنا أستسلم، بس تعرف وش قررت الحين؟"

اكتفى بصمته منتظرًا تتمة حديثها :" نلغي كل القواعد.."

يُقاطعها مستنكرًا: "باقي شهر! "

تتابع بسرعة: "أدري، نلغي كل شي وأكون قريبة منك ويسهل عليك إقناعي، مابي ينتهي الشهر وناكل نفسنا ندم ليه ما انتهزنا كل فرصة وكل يوم.. ليه ما جربنا نحاول أكثر لآخر لحظة بالشهر.. ما تدري! يمكن تقنعني"

يتنهّد بحيرة، ما هو الشيء الذي يجعلها تتمسّك به بكل قوة؟ ما هو الشيء المميز الذي تراه فيه دون أن يراه هو أو أي أحد؟ تشدّه ليستلقي بجوارها، يخرج صوته حائرًا: "ليه هديل؟"

تُغمض عينيها مرخية جسدها أكثر: "مرسول السماء طلب مني"

-

خلف حاجز عريض يحمل عبارة (قريبًا الافتتاح) وعلى سلّم مرتفع تقف وعبوات الألوان حولها، ترسم على الجدار دون توقّف عن الحديث.. تنقل أنظارها حيث تجلس ريم مع أخيها الصغير محمد وبوعيد: "محمد! لا تناشب ريم بجوالها"

تنطق بتذمر وهي مندمجة معه بهاتفها: " نطلب غداء، لأن حضرتك قلتِ بس ساعة ونص والحين صار لنا ثلاث ساعات"

كادت تنطق إلا أنها سرعان ما كتمت حديثها وعيناها تتجمّد على الجسد الواقف خلف الزجاج يحجب وجهه بورقة عريضة، هبطت من السُلّم مسرعة إلى الباب الزجاجي متجاهلة نداء ريم.

كان لا يزال واقفًا ويديه تُثبّت الورقة على الزجاج أمام وجهه عندما خرجت إليه مسرعة ومن بين أسنانها: "ليييه جيت؟؟ ريم موجودة!"

تجمّدت بسمته وهو يُزيل الورقة عن الزجاج وسرعان ما نقل بؤبؤ عينه إلى الفتاة الجالسة لا يظهر منها شيء سوى عينيها وكفيها برفقة محمد الصغير الذي سرعان ما هرول إلى الخارج عند رؤيته، توارى بتلقائية خلف الجدار بملامح مخطوفة وهو يجذبها معه: "ليه ما علمتيني إنها معك؟؟؟"

حررت كفّها بسرعة منه: "انت ما علّمتني إنك جاي! .. يا الله الحين من وين أدبّر لي مخرج وأنا قايلة لها إني ما أشوفك إلا بالوِرش!"

بطرف إبهامه مسح جبينه وبزفرة: "يا ساتر! شكثر مسببة لي رعب هالبنت -سرعان ما ارتسمت على شفتيه ابتسامة وهو يُصافح محمد- حيّا الله أبو ثامر"

جلس على أطراف قدميه حتى يصل إلى مستواه وهو يستلم خديه وأنفه:' شلونك؟ شعلومك؟"

ابتعد الصغير بنفور: "تخسي! أنا أبو ميسي"

انطلقت ضحكتهما معًا لينطق ثامر: " ذبحك ميسي اللي ما تعرف عنه غير اسمه!"

وكالعادة يبدآن جدالًا لا يتوقف (والله أعرفه! رقمه عشرة!- متى آخر مباراة لعبها؟- لعبته بفيفا قبل أمس!)، وهي بجوارهما تقف تتأمل علاقتهما التي باتت تكبر يومًا بعد يوم.. محمد الصغير الذي لا يختلط بأحد سواها وجدتها وثامر وريم مؤخرًا، نجح ثامر بعد جهد سنتين من استئصاله من عزلته وخجله الشديدين ليبدأ اختلاطه

بالمجتمع، فجأة تذكرت الورقة التي يحملها ثامر.. انتزعتها من بين أصابعه وسرعان ما أصدرت شهقة فرح: "ثامر!"

اتسعت ابتسامته معتدلًا بوقوفه: "شهادة دبلوم بخشّها بعيون القاضي"

ضمّتها بفرح حقيقي: "يالللللله الحمدلله وأخيرًا"

استند على الجدار باسمًا: "أثبت نفسي ولا باقي؟"

بزفرة مرتفعة وهي تتأمل الورقة: "من ليلة ما ضربتك على راسك ببيتنا وانت مثبت نفسك"

يسحب الورقة من كفّها ليُعطيها إلى محمد: "روح عند بنت الشيخ وبشّرها إن ثامر أخذ الشهادة"

يهرول بها مسرعًا إلى الداخل تاركًا رغد برفقة ثامر الذي أطلق زفرة ارتياح كبيرة: "أخذت موعد بالمحكمة، يومين ونكتب العقد..."

تُقاطعه بابتسامة: "وتخش العقد بعيون ريم"

علت ضحكته لفهمها ما كان ينوي قوله، منذ ثلاث سنوات ومنذ كان طالبًا في ثانوية ليلية وهو يردّد كلمته كلّما وقفت ريم حاجزًا بينهما وهي تذكّر رغد بعدم جواز كل تجاوزاتهما معًا (بدرس وباخذ شهادة ثانوي ودبلوم وأعقد عليك وأخش العقد بعيون بنت الشيخ)، حتى أصبحت ترددها له كلّما تكاسل أو هبّت عليه فكرة تأجيل الدراسة أو حتى هبطت درجاته (والعقد؟ ما بتخشه بعيون ريم؟؟؟؟).

لو لم يملك سوابق ممنوعة لأتمّا عقدهما قبل سنين، ولو كان خالد ما زال حيًا وبيده ولاية أمرها الشرعية لأتما عقدهما قبل سنين، إقناع القاضي الذي ينوب عن ولي أمرها باشتراطها عليه لإتمام عقدهما اعتدال سلوكه وحصوله على شهادة معتمدة وثبوته بعمل شريف أصابه بصدمة شديدة، حاول جاهدًا أن يجد مخرجًا.. لم يكن يعلم بأن هذا الشرط كان بتوصية شديدة من ناصر إلى

القاضي الذي يعرفه حتى لجأ إلى ناصر (تكفى دبّر لنا واسطة تتمم العقد، أو دلني على أي قاضي ممكن يتساهل) خيبته لم تدم طويلًا بسبب وقوف ناصر مع أمر القاضي، نقاشه الطويل مع رغد بعدما أقنعتها ريم بصحّة فعل القاضي جعله يثبت ويقوّي عزيمته، إن كان فعلًا سيُحارب من أجل أن تجتمع معه تحت سقف غرفة واحدة فلا بأس.

كانت سنينًا ثقيلة على قلبه وإن كانت تحت مسمّى (فترة خطبة) بين جميع معارفهما، منذ دخول (بنت الشيخ) إلى حياتها أصبحت أكثر صرامةً معه، حرمته من رؤية شعرها القصير وهو الذي اعتاد عليه لسنين طويلة حتى أَلِفه، وما إن يحاول تشبيك كفيهما أو تمرير أصابعه على خدها الناعم تنهره مسرعة، كل ذلك بسبب أن (بنت الشيخ) قبل ثلاثة أعوام حضرت باكرًا إلى المكان الذي اعتادا إقامة ورش فنية فيه تلبية لإصرار رغد (تكفين تعالي احضري أول دورة أسويها – رغد مالي بالرسم ولا أفهمه- تكفين بس تعالي سانديني) حضورها باكرًا قبل موعد الدورة أصابها بصدمة قبل دخولها المقر وهي ترى رغد من خلف الباب الزجاجي تقف بجوار رجل ما أدركت فيما بعد بأنه خطيبها المدعو

ثامر بكل عفوية وهو يفسد عليها بمزاح ما ترسمه على اللوحة، ما إن تبدأ بتخطيطها يُفسدها مجددًا.. لم يدم ذهولها طويلًا وها هو يُصيبها بذهول أشد وهي تراه يسحب سبابة رغد بعدما لطّخها بالألوان ويُقبّلها حتى تنتقل الألوان إلى شفتيه.. كادت تجنّ ورغد تضحك بخجل دون أن تبتعد عنه، داهمتهما سريعًا ليخرج ثامر بسرعة أشد خجِلًا، أمضت أسبوعًا كاملًا وهي مستنكرة لعلاقتهما وما فتئت تذكّر رغد (رغد ما يجوز! رغد حتى لو يحبك) ورغد تكرر (أعرفه من كنت صغيرة، متعودة عليه) ليزداد جنونها (حتى لو! رغد صحصحي أنتِ عاقلة! مهما كان يحبك ومهما كان صادق ومهما كنتِ واثقة فيه بس ما يجووز استوعبي!)، يذكر كيف أثّرت سريعًا في رغد، أكثر مما توقع.. كان يخشى من أن تحرمه كذلك رؤيتها إلا أنها كانت أضعف من أن يمسّها الشوق إليه، حتى دفن خالد بأيام قليلة التقاها في ذات المقهى الذي يملكه ناصر ويُقيمان فيه ورشهما مع بعض الرسامين في دوره العلوي، كان الحزن يفتك به أشد منّها.. هلوسة حزنه لم يُفضِ بها لأحد سواها (مو قادر أتركه بالمقبرة وحده، أسمع صوته يناديني بكل وقت) كان يهذي بلا وعي، جلست بجواره بقلة حيلة، جدّد وجعها وحزنها.. لم

تمنعه وهو يُلقي برأسه على كتفها، كانت بحاجة ماسّة لأن تمسح على وجعه وصوت الحزن بداخله، استكانت أنفاسه المضطربة بعد صمتٍ طويل.. إلى أن نطق بصوت هادئ مسترخٍ باسمًا: "مثل يوم دفن أمي، ما لقيت غير كتفك ياخذ وجعي"

وكما عهدته عاد قويًا، يكسر الحزن بداخله ضلعًا لكن سرعان ما يرمّمه..

نسيت ريم وأخاها وهي تتشارك معه فرحة انقضاء الثلاث سنوات، إلى أن قفزت مسرعة بعدما أخبرها بقُرب وصول ناصر ليتفقّد اللمسات الأخيرة لمشروعه، هرولت إلى الداخل تلملم فوضاها مع ريم التي قابلتها بنظرات لوم لتبرر لها مسرعًا بضحكة (خلاص بنعقد بعد يومين وبيخش العقد بعيونك الحلوة!) وما إن وصلت سيارة ناصر كانت سيارتها قد تجاوزت المقهى.

ما إن خرج من سيارته استقبله ثامر بوثيقته: "وش تعني هالورقة؟ يعني لازم تفرغ نفسك بعد يومين وتكون شاهد عالعقد"

خلع نظارته الشمسية بابتسامة صغيرة وهو يتفحّص الورقة.. أعادها إليه بذات الابتسامة: "والله وسويتها! أهنيك"

تابع ثامر بهدوء وعينا ناصر تتأمل ما رسمته رغد: "من الحين أعلمك، مابي أسمع أعذار وتهرّب ليلة الزواج"

بلا مبالاة وعيناه تدور في المكان إلى أن سقطت على ملف به مجموعة أوراق على المقعد: "متى ناويه إن شاء الله؟"

- "بعد أربع أسابيع، فرّغ نفسك"

التقط الملف بعدما لفت شعار كلية الحقوق انتباهه، وسرعان ما ارتفع حاجباه وعيناه تلتقط الاسم (ريم بنت

موسى) وبابتسامة مدعيًا الحسرة: "أوف، عندي ارتباط بالقاهرة مع كلية.."

قاطعه بزفرة: "لا تدوّر أعذار!"

بابتسامة أوسع: "أبشر"

اتسعت عيناه سريعًا غير مصدّق لاستجابته السريعة ليُتابع ناصر بجدية: "إن شاء الله"

وكأنه لم يُصدّق ابتهج وجهه فرِحًا، إلا أن اتصالًا من رغد جعله يتعجّل وهو يحمل شهادته: "لا أشوفك متراجع عن كلمتك!"

راقبه بذات ابتسامته وهو يُسرِع إلى سيارته وبصوت مرتفع: "الوعد المحكمة، لا تنسَ"

غادر ثامر تاركًا ناصر خلفه وحيدًا، سرعان ما أطلق زفرته وهو يُعيد تصفحّه للملف الذي يحمل اسمها وحديث

ثامر لا يتوقف داخل عقله، إلى متى سيركض بعيدًا عنهم؟ ما زال مفجوعًا بسبب ياسر.. أن يتلقّى ضربة موجعة من أقرب الناس إليه أمرٌ لا يمكنه تجاوزه، لا شيء يُصلح ما هُدم.. مهما حاول جاهدًا أن يُحارب حتى تعود نظرته العظيمة لياسر يفشل، ذاق طعم الكراهية والحقد الدفين مع يعقوب ويعرف تمامًا بعدم جدواه ولا يرغب بتجربته ومع من؟ مع الرجل الذي ربّاه كما يفعل الأخ الحريص، يفرّ بعيدًا في كلّ مرة من طريق ياسر.. مضت أعوام ثلاثة دون لقاء يجمعهما حتى مع محاولات ياسر الفاشلة بإعادة الوصل معه، يذكر لقاءهما الأول والأخير في يوم دفن خالد.. حاول التملّص منه ومن نظراته، شيءٌ ما يدفعه للهرب منه حتى لا يجد في قلبه مدخلًا للحقد والضغينة اتجاه معلّمه الأول.. خسر ما تبقّى من عائلته، حتى نجد بلقاءاته المعدودة معه يقف بينهما آلاف من الحواجز والأسوار، شعور قاسٍ يذكّره بأنه تسبّب في زرع كره وبغضاء بين أب وابنه.. منذ كان صغيرًا وهو يذكّر نجد بمن تسبّب بإراقة دم أخيه دون أن يدرك بأنه هو ذاته والد نجد، لا يُمكنه التسامح مع هذا أبدًا.. وثامر لا يتوانى عن تشجيعه (لا تشيل هم، نفس يوسف ويمامة، ما تقبّل وجودهم كثير

بالبداية، بس انت كثّر زياراتك وتواصلك معه وتنفكّ العقدة بينكم) لكن ثامر لا يُدرك مدى الفجوة التي تكبر يومًا بعد يوم بسبب البُعد وكشف الزّيف.. لا يُمكن لأحد تصوّر مداها سوى نجد وياسر وحدهما.

يزفر بضيق وهو يُغلق الملف، يخرج من المكان إلى سيارته عائدًا إلى منزله الهادئ.. يتغلّب على أحاديث عقله وهو يتصفّح بحثها لأحد مقرراتها، يجد نفسه فجأة ممسكًا بقلم رصاص وبرغبة لا يُمكنه السيطرة عليها ينشر ملاحظاته وتصحيحه لأخطائها في كل صفحة حتى امتلأت بخط يده، يذكر حديث أستاذه القديم وهو يُثني عليه ويصفه بطالبه المصطفى، كان متشوقًا طيلة فترة تدريسه للطلاب باكتشاف (الطالب المصطفى له) حتى ظهرت أخيرًا..

يُخرج هاتفه ليلتقط صورة لغلاف بحثها ويُرسلها مباشرة إليها (الطالب النجيب لا ينسَ أبحاثه على طاولات المقاهي) اتسعت ابتسامته وهو يراقب ترددها في الكتابة (يكتب.. متصل الآن.. يكتب.. متصل الآن) لم تغب ابتسامته وهو

يقرأ رسالتها (أعتذر أستاذ ناصر) كتب مباشرة (مو مشكلة أستاذة ريم، باخذ الملف لثامر يوصّله لرغد)

أحد الأمور التي يشكر الله عليها أن وضع ريم في طريق رغد، رغد التي حمل في قلبه كل تعاطف وأسى وشعورٌ بالمسؤولية اتجاهها منذ داهمت بيته ذلك الفجر مع ثامر.. يعلم تمامًا حاجتها لصحبة متّزنة تُثبّتها في طريق صحيح بعد كل ما خاضته، ولا أحد خيرٌ من ريم يعرفه لهذه المهمّة.

وضع ملّفها فوق ملفاته حتى لا ينساها صباحًا وهاجس نجد وياسر يقفزان إليه مجددًا.

•

خرج من عمله وذات الشعور الغريب يراوده، منذ عقد قِران ثامر قبل أسبوع، تنمو تلك الفكرة برأسه أكثر فأكثر.. حتى باتت تسيطر عليه، الحقيقة.. منذ أكثر من ذلك بكثير، منذ زيارة يوسف وثامر.. مكالمات ثامر تزيد من رغبته وهو يردد (مافي أحد بيلبسني البشت غيرك)، وبدورها اليمامة تُطمئنه (خذ راحتك، ودي تجي معنا وتكسر الحاجز بس لا تضغط على نفسك).

وجد نفسه فجأة قاطعًا الطريق إلى مياه الخليج، يُطلق زفراته مرارًا.. لم يكن البحر يومًا ملاذه، كان دائمًا ما يُثير ضيقه، يبحث عن معنى الجمال فيه ولا يجده.. لكن منذ ثلاث سنين عقد معه صلحًا.. ربما لاضطراره له، ولحاجته لطبيعة محضة.. أو لأن نفسه الجديدة بحاجة لتُثبت نفسها بعيدًا عن (نجد) القديم.

ما يُخيفه بأن يفشل، أن يتدحرج إلى الهاوية.. أن يتسبب باتساع الفجوة بعدما قطعا شوطًا طويلًا بالمراسلات.

يُخرج هاتفه، يتأمل الاسم مرارًا.. (الوالد)، متى سيقطع هذا الطريق الطويل؟ الطريق الشاق بين صوتيهما حتى يلتقيا في المنتصف؟ ما هي إلا لمسة صغيرة من إبهامه حتى يصل بين صوتيهما، لماذا تبدو بهذه الصعوبة؟

يستند على باب السيارة متنهدًا ولا زالت شاشة هاتفه تحمل رقم ياسر، يمرر إصبعه على الشاشة.. وما إن وصل لأذنه من خلال سماعته الصغيرة صوت الرنين المتقطّع يرمي هاتفه مسرعًا داخل السيارة ليتحرك بخطوات متوترة إلى حيث لا يعلم، يجد نفسه فجأة يطوف حول سيارته وصوت الرنين لا ينقطع، ضربات قلبه تدوّي بداخله.. تبدأ حشرة القلق بالخروج من جحرها لتطفو على تحركاته، أصابعه تشتد وتتفرقع بتوتر داخل جيوب ثوبه، عيناه مضطربة تغوص بأقدامه المسرعة، يعلو صوته الداخلي (نجد يا غبي، ارمي السماعة واهرب من صوتها.. انت للحين هشّ، ضعيف، جبان، بتهدم كل شي)، يتوقّف في مكانه

فجأة.. يُغمض عينيه، يُحرر كفيه من جيوب ثوبه، يشعر بالرياح الهادئة تسلّم على وجهه، يتنفّس بعمق طويل.. نفسًا طويلًا، يرفع رأسه ولا صوت يخترق أذنه سوى صوت أمواج البحر المتلاطمة.. حتى صوت الرنين الملتصق بأذنيه غاب عنه، يختفي صوت البحر، صوت الشوارع، صوت ضربات قلبه ليعلو بداخله صوت قديم.. ذكرى قديمة قفزت إلى داخله فجأة، ذكرى نسيها منذ سنين ولا يعلم كيف ظهرت الآن فجأة..

طفلٌ صغير لا يتجاوز الخامسة، يقف مرعودًا أمام باب منزلهم دون أن يقوى على خطو خطوة واحدة خارجه..

— (يلله نجد، البيت قدامك، عشر ثواني وأنت عند يوسف!)

لا يتمالك بكاءه ملتفتًا إلى صاحب الصوت الذي يجلس على عتبات الدرج الداخلي بابتسامة يراقبه، يخرج صوته باكيًا (بس يُبه القطوة!)

يبتسم، يقف أخيرًا لتهدأ روح الصغير الباكي.. يجلس على أطراف قدميه أمام الصغير وكفه تحط على كتف ابنه (أعرف يبه، وأعرف إن خوفها منك أكبر من خوفك منها.. تعرف ليه؟ لأنها مسكينة ضعيفة صغيرة.. -يُشير بكفه- هذا كبرها، وانت.. -يمد يده إلى رأس نجد- هذا كبرك!، تطالعك لأنها تبي أحد يلعب معها)

يُقاطعه مسرعًا وتقوّس شفتيه يزداد (بس أنا مابي ألعب معها)

- (تبيني أعلمك طريقة؟ -يوقفه على عتبة الباب- وقّف هنا، أقرأ سورة الشرح، السورة اللي حفظناها أمس.. أول ما تنتهي منها انطلق وبتلقى نفسك ببيتهم!)

يقاطعه باعتراض (يبـ...)

- (نجد! جرّب! حاول.. صدقني أنا ما أكذب عليك، أول ثواني هي اللي تحدد خوفك! إذا تجاوزتها بتكتشف إن ما في شي تخاف منه! -يصمت لبرهة ليتابع وملامح الصغير نجد

تشي بخوفها وعدم اقتناعها- وأنا هنا.. قدامك، أشوفك، لا تطالعني امش ولا تلف ظهرك، وانسى القطوة.. صدقني مافي شي تخاف منه)

يقف كما قال والده، يبتلع عبراته.. يعلو صوته الخائف (بسم الله الرحمن الرحيم، ألم نشرح لك صدرك، ووضعنا عنك وزرك، الذي أنقض ظهرك، ورفعنا لك ذكرك، فإن مع العسر يسرا، إن مع العسر يسرا، فإذا فرغت فانصب، وإلى ربك فارغب)

ينطلق بخطوات مسرعة دون أن يُلقي نظرة على القطة الصغيرة.. ولا على والده، فجأة وجد نفسه أمام باب منزل نورة، متجاوزًا كل خوفه.

تتسع عيناه غير مصدق، كانت لحظات سريعة، خفيفة.. لا تستحق كل هذا الخوف. يفتح باب المنزل باتساع ابتسامته الفخورة بنفسه، وما أن همّ بإغلاق الباب رأى والده ما زال واقفًا بمكانه.. مبتسمًا له، يلوّح له ليغلق الباب أخيرًا.

مع نسمات البحر كان يردّد دون شعور وعيناه ما زالت مغمضة: "ألم نشرح لك صدرك، ووضعنا عنك وزرك، الذي أنقض ظهرك، ورفعنا لك ذكرك، فإن مع العسر يسرا، إن مع العسر يسرا، فإذا فرغت فانصب، وإلى ربك فارغب"

يفتح عينيه بهدوء، تنفسه المضطرب قبل لحظات سكن.. يديه لم تعد مشدودة، ضربات قلبه هدأت.. وذلك الصوت بداخله (انت ضعيف، بتهدم كل شي) يخفت أكثر ليعلو صوت آخر (مو مشكلة، أنا ضعيف.. بس بجرّب، بهدم كل شي؟ عادي، بس بحاول).

يزدرد ريقه، تتهاوى أنفاسه فجأة، يذبل وجهه تباعًا.. عيناه تثقل، رعشة بكاء تداهمه بغتة وصوت الأنفاس الهادئة تصله من سماعته.. منذُ متى كان يسمعه؟ لا يعلم، كل ما يدركه أن وهنًا فتك بجسده لأجل صوت أنفاس بدأت تضيق وحسب.

سرعان ما نشج ببكائه برجفة جعلته يتكوّم داخل نفسه، يلمّ أطرافه داخله.. يحاول احتضان نفسه ليجد الأرض أوسع له من نفسه بسبب تحوّل الأنفاس المضطربة خلف السماعة إلى صوتٍ شفق عليه: "نجد.."

لم يكن قادرًا على إخراج كلمة واحدة، لم يخرج منه سوى نشيج مُرّ.. لم يتوقف حتى لسماع الصوت الشجي: "نجد يبه، يعز علي أسمعك تبكي.. "

كان سمعه يحثه على رمي السماعة الصغيرة بعيدًا، داخل البحر.. هل أدرك مدى ضعفه؟ انهيارات متتابعة تلحق بجسده، يشعر بأسواره تنشطر أجزاءً متفرقة ليظهر طفل صغير من خلف ركامها متمسكًا بصوته (بس أنا أبي أسمع أبوي، رجّع لي أبوي).

يأتي صوت والده مصحوبًا بتنهيدة توجّع :" نجد، اقطع الخط.. مصيرنا نلم شملنا، -يزفر بقوة ليعود صوته ثابتًا- بس مو وقته.. باقي نفسك ما استعدت، لا توجعني قبل لا

توجع نفسك بيجي اليوم اللي نتجاوز فيه كل هذا.. لا تتعجّله، أنا أنتظرك ما بقى لي من عمر"

تتراكم حروفه خلف بكائه، يحاول إخراجها إلا أنها تتآكل بداخله.. يعود صوت ياسر هامسًا: "في أمان..."

فجأة خرجت حروفه دفعة واحدة بصرخة خوف يقاطعه : "لاااا.. "

يحاول لململة بقية حروفه، يرجوها بأن تخرج.. بأن تتغلّب على علوّ بكائه وسرعة أنفاسه قبل أن يغيب صوت والده خلف السماعة مجددًا فيضطر إلى جهادٍ أكبر، ليستمر الحرفان الوحيدان بالخروج دون سيطرة منه: "لا لا.. لا"

بحرقة موجعة يخرج صوت ياسر راجيًا: "نجد! ارجع عند اليمامة.. يا نجد يا ولدي وكل عيوني لا تخوفّني عليك، روح عند اليمامة خليها قريبة منك"

صوته الباكي أهلك حباله الصوتية، حتى بدأت تتراخى.. غصّة موجعة حادة تفصل حلقه إلى جزءين، اشتداد أطرافه لان، عظامه بدأت تتفكك.. كل قوته سُلبت، يُسند رأسه الثقيل على كفه المرتجفة، يأخذ نفسًا عميقًا ليزفره علّ صوته يعود، وهمس ياسر الدافئ يُطبطب عليه:" بسم الله الرحمن الرحيم، يس.. والقرآن الحكيم، إنك لمن المرسلين، على صراط مستقيم..."

كان يستمع لوالده وهو يتلو سورة يس بطمأنينة كبيرة، تسري بداخله الطمأنينة رويدًا رويدا.. حدّة أنفاسه بدأت تستقر مع كل آية، جلسته استرخت ببطء حتى استند على سيارته جالسًا جانبها بعدما كان ملتفًا حول نفسه، عقدة حاجبيه فُرجت، خرج صوته مسترسلًا دون إحساس يردّد مع والده: "إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون، هم وأزواجهم في ظلالٍ على الأرائك متكؤون، لهم فيها فاكهة ولهم ما يدّعون، سلامٌ قولًا من ربّ رحيم.. "

صوتهما المسترسل لم ينقطع حتى آخر السورة: "إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كُن فيكون، فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون"

عاد السكون، سكونٌ هادئ يغمر قلبه.. سكون الطفل الصغير المحموم بعد تعويذات والده متشربًا الشفاء، عاد إلى سمعه صوت الأمواج المتلاطمة، همهمة الناس حول البحر، ضحكات الشباب في المقهى، ينتظم نفسه بهدوء.. يُغمض عينيه، نعم هذا والده.. صوته المألوف، لمَ الخوف والتأتأة؟ ماذا كان يخاف فيه؟ طفولته الجميلة؟ شبابه الناجح؟ أم تلك الليلة الرهيبة المفجعة؟

تعود له تفاصيل تلك الليلة، بكل ما فيها.. ثوران يوسف، غضب خاله ناصر، انهيار يعقوب، واليمامة تبكي على مقعدها.. وهناك في آخر المكان ذاك الرجل والدم الأحمر يسيل من أنفه ملطخًا لحيته، يتذكر وجه والده في المستشفى، خوفه من فقدانه، دقائقه الأولى معه بعدما خرج من غرفة عملياته، احتضانه الأخير له..

يفتح عينيه عند هذه النقطة مدركًا بأنه تجاوز العتبة الثانية بحديثه المباشر.. كان في كل مرة يُحاول تخطّيها ترد في باله أشكالًا لحديث طويل يُجهزه، لكن الآن.. يُفلت من لسانه كل شيء ليجد نفسه يسترسل بحديثه دفعةً واحدة محاولًا تثبيت صوته حتى لا يفشل: "يُبه؟ اا.. ممم..يبه.... أنا جاي الرياض... ثامر يبيني أحضر زواجه، وو.. منصور تو أكدت له إني رايح أشوف ترتيبات الفرع الجديد.. اممم يبه تذكر البشت اللي كنت تقول بتلبسني إياه في زواجي؟ تركته مع ثيابي.. بغرفتي الجديدة.. كلم يوسف يشوف له ويجهزه لثامر.. صحيح يوسف شلونه؟ تحسنت نفسيته بعد ما رجعت هديل؟ ... صح قبل لا أنسى، نورة تبيك تكتب لها قصة باسمها"

لم يستوعب إن حديثه كان يخرج دفعةً واحدة حتى صمت، صمتٌ استمر لثوانٍ قبل أن يقطعه مجددًا وهو يقف أخيرًا: "سامحني يبه، ما تركت لك فرصة تتكلم"

تخرج زفرة من ياسر وبصوت مخنوق: "لا يبه.. الله وحده عارف شعوري وأنا أسمعك، كأني أسمعك تناديني أول مرة وانت صغير"

يُغمض عينيه لئلا يسمح لدموعه بالتحرر مجددًا، يبتسم أخيرًا ويهمس: "الحمدلله.. كنت أخاف من هاللحظة، بس.. تجاوزت الخوف وأنا اللي كنت أظن مستحيل أتخطاه!"

يتحشرج صوته بغصة: "مو مشكلة، كلنا نطيح ونستقيم واقفين في النهاية، هالخوف وهالتوتر كلها تطمني إنك بخير.. ردة فعلك هذي اتجاهي رد فعل طبيعي، لأنك إنسان في النهاية يا نجد"

يزم شفتيه بابتسامته الشاحبة، ذات حديث والده برسالته الأولى قبل ثلاثة أعوام.. يُطمئنه بألا يلوم نفسه، ألا يشعر بالذنب.. بأن يمهلها حتى يستوي قائمًا من جديد، بأن أفعاله غير السوية كانت في مكانها الصحيح؛ لأنها اتجاه فعل غير سوي، صدمة غير سوية.. ولا بأس بأن تطول، وإن

طالت السنين.. ما يهمّ أن يسمح لجسده وروحه بالإحساس بالحزن.

يطول حديثه مع والده، حتى غاب عنه إحساس الغرابة، وكأنه كان بالأمس يجلس معه ويضحك، لم يستوعب مقدار الوقت الذي أمضيانه معًا حتى ارتفع صوت أذان المغرب من المسجد القريب.. يودّعه بروحٍ مطمئنة مع وعدٍ قريب بالاتصال واللقاء.

عاد إلى المنزل بعد صلاة المغرب، قابلته ابنته وهي ترتدي قبّعة تخرج أمها وخلخالها ووجهها ملطّخ بألوان الزينة، تجرّ عربة دميتها الصغيرة، خرجت منه ضحكة صغيرة وهو يرفعها عاليًا: "مين هالعروس الحلوة؟"

لتصرخ بضيق محاولةً الفكاك منه: "بااااباااا أنا كبيرة! لا تشيليني"

يُعيدها إلى الأرض ضاحكًا: "أوووه معليش آسفين يا كبيرة"

تحمل دميتها لتهرول بعيدًا عن إزعاجه، يتركها تُكمل لعبها متجهًا إلى غرفته وإحساس بالخفّة يلفّه.. كانت اليمامة منشغلة بتصفيف ملابسها في حقيبة سفرها، لم تلحظ ملامحه الهادئة بطمأنينة كبيرة.. حتى شاركها ترتيب الحقيبة بصمت مطبق على غير العادة، تفحّصت وجهه للحظات لتتراءى لها أحاديث طويلة تضج بداخله، تجزم بأن رغبته بحثّها على تقصير مدة سفرها ونورة هي ما يجول بخاطره إلا أنه يكتمها لأجلها وثامر، اعتادت على إلحاحه قبل كل سفر إلى الرياض وأثنائه بطلبه (ضروري تطولون؟، بالله لا تتأخرين، أسبوع ما يكفي؟، ما ودك ترجعين؟) جهّزت نفسها منذ عقد قِران ثامر قبل أسبوعين لحديثه هذا لكنه فاجأها بعدم تطرّقه إطلاقًا إلى إلحاحه كعادته.

تقطع الصمت أخيرًا بهدوء: "لا تأخذ راحتك كثير، كلها أسبوعين ونرجع لك"

يرفع أنظاره بسرعة إليها لتتابع بابتسامة: "مافي داعي أجلس بعد الزواج، ثامر ورغد مسافرين مباشرة بعده.. اليوم الثاني وأنا جايتك بالطيـ.."

قطع حديثها بسرعة حتى يمنع نفسه من ابتلاع كلامه: "يمام أنا رايح معكم الرياض"

لحظة صمت صادمة غطّتها ليتابع بزفرة مصحوبة بابتسامة صغيرة: "كلمت أبوي اليوم"

لم يزدها سوى دهشة أكبر لتهمس بذهول:" صدق؟! "

هزّ رأسه إيجابًا وهو يعود إلى طي الملابس: "اي والله- ألقى ما بيده رافعًا ذراعه أمامها يطلب منها أن تشدّ عليه- أحس بخفة، شوفي.. -تُمسك بذراعه وما زالت الدهشة تغطيها- كأن نص ثقلي طار مع الهواء، ملاحظة؟! "

فجأة شعر بجسده يشتد بقوة إليها وهي تجرّه لتحيط برأسه وبضحكة: "اخخخخ نجد! وأخيرًا.. الحمدلله الحمدلله"

تُبعده عن الحقيبة لتُمسك بكفيه معًا: "علمني، كيف شعورك؟ وش تحس الحين؟"

يأخذ شهيقًا مرتفعًا: "كنت أحس كل السنين الماضية كذا- يزفر زفرة مسترخية مختتمة بابتسامة- والحين أحس بإحساس الزفير! "

ينسيان حقيبة السفر ونورة وكل شيء وهو يروي لها أثر الساعة الماضية على قلبه.. كيف تهاوت كل مخاوفه فجأة، حتى شعر بأنه نجد ابن ياسر.. كم كان محتاجًا إلى هذه القوة التي تُعيده إلى نفسه، قوة تسمح له فقط بحديث مباشر مع والده!

-

يوقِف سيارته أمام المجمّع الكبير بابتسامة واسعة، يلتفت بوجهه نحوها لتقابله ملامحها المجعّدة بضيق..
ينطق مسرعًا قبل أن يوقف تشغيل السيارة: "إذا ما ودك خلاص بنرجع"

تأخذ نفسًا عميقًا متحررة من حزام الأمان وهي تفتح الباب: "لا.. بطلع أشوفها"

يخرج من السيارة برفقتها، يغيب لدقائق ليعود حاملًا مفتاح الشقة بعدما أخذه من حارس المجمّع.. صعودهما درجات السلّم كان بصحبة صوت تصفيره بحنين، أما هي بجواره تصعد بمشاعر مختلطة، حنين يغلبه الضيق.. عقدة حاجبيها لم تنفكّ.

يفتح باب الشقة ليدخل مباشرة مأخوذًا بشوقه يطوف داخل الشقة، تلحقه بضيقها المشتدّ.. تتأمل الشقة الصغيرة التي ضمّتها سنينًا طويلة، سنين ثقيلة سوداء.. غادرتها قبل ما يقارب الأربع سنوات وهي تظنّها لن تراها مجددًا، غادرتها هاربة خائفة محطّمة بروح سوداء لا تشبهها الآن، تهمس وهي تتأمل المجلس الذي كان ملاذًا للوحات خالها حتى تحوّل في آخر سنة له إلى غرفة صغيرة: "ثامر.. ليه المكان ضيق؟ شلون عشت فيها؟"

وعيناه تدور في المكان الحميم: "كانت أوسع لي من أرض الله كلها"

أطلقت زفرة ضائقة وهي تغادر المجلس إلى الداخل، تتأمّل المكان الضيّق الذي ضمّها طويلًا، كبرت فيه.. قضت جلّ أيامها بين جدرانه، كيف كانت تراه واسعًا؟ وما هو الآن سوى مساحة صغيرة تزداد ضيقًا.. في هذه البقعة الصغيرة نما حبها له، وفيها ماتت آلاف المرات. توقفت مطولًا أمام باب غرفتها بتردد كبير، قبل أن يقطع ترددها وهو يتجاوزها إلى باب الغرفة: "اشتقتِ لها؟"

زمّت شفتيها بمشاعرها المضطربة، رغبة ملحّة تخبرها بأن تفتح الباب لترى غرفتها للمرة الأخيرة، وشعور مظلم يذكّرها بظلام الغرفة، إلا أنها تجاوزته لتفتحها وسرعان ما ابتلعت ريقها على رؤيتها.. لا تشبه غرفتها إطلاقًا، كحال بقية الشقة.. بيضاء ناصعة يعلوها الغبار، فارغة من كل شيء حتى من ذكرياتها، لا شيء بقي على حاله سوى نافذتها الصغيرة.. ما إن وقفت أمامها أدركت أن حتى هذه النافذة لم تعد كما كانت، أين الدكاكين الصغيرة التي تطل عليها؟ كل شيء تحوّل تمامًا مثلها.

تعيد أنظارها إليه على صوته وهو يغادر الغرفة: "يقول الحارس من ثلاث سنوات ما في أحد سكنها، من يوم سلّمت مفتاحها وأنهيت العقد وهي فاضية -تلحقه وهو يتابع حديثه متأملًا كل الجدران- كل كم شهر ضروري أروح أطل عليها من المواقف وأرجع، ما تجرأت أدخلها إلا الحين"

تخرج زفرتها أخيرًا: "كانت أيام سوداء"

يُعيد أنظاره إليها بسرعة، نعم كانت أيامًا سوداء.. لكن لمَ يحبها؟ مرّها حلوٌ على قلبه.. كل أيامها باستثناء الأيام التي حلّ فيها نجد، كانت أسود من أن يُعيدها إلى ذاكرته، يسحب كفها له ليسيّرها معه قُرب المدخل: "حتى هالذكرى؟! "

تخرج منها زفرة مصحوبة بابتسامة، حتى المدخل الذي ارتبط مكانه بذكرى قبلتهما الأولى لم يعد كما كان، تنطق أخيرًا: "حتى هالذكرى! مدري ثامر أحس كل ذكرياتي هنا حتى الحلو منها مخيفة.. كل شي أسود وكئيب، ما أشبهني الحين"

يبتسم: "بس أنا للحين أشوفك رغد اللي عرفتها أول مرة"

أتمّ كلمته بقبلة قصيرة على شفتيها، يُحررها منه ليُتابع مازحًا مع ابتسامتها الواسعة: "قبلة محلّلة شرعًا، عشان ما يشهد علينا المكان بحرام بس"

تجرّ يده وهي تفتح باب الشقة : "خلينا نطلع من الشقة بس، لو مشينا على نظامك محتاجين نحلل كل زاوية"

يغادران الشقة الصغيرة بوداع أخير، تودّع معها كل ما تبقى من حياتها القديمة.. وتستقبل حياتها الجديدة وهو يُوقف سيارته أمام منزل جدتها، قبل نزولها ينطق مسرعًا: "رغد.. قدامنا وقت، إذا ودك بزواج كبير.."

تُقاطعه بسرعة: "لأ! ثامر بحّ صوتي من سنتين وأنا أقولك أبي حفلة صغيرة مختصرة"

يزم شفتيه قبل أن ينطق: "ما أدري.. بخاطري تفرحين بدون ما ينقصك شي، ولا ودي تشيلين هم شي أو تضغطين على نفسك وعلى محمد، يمام جاية بعد يومين ما بتقصر أي شي ينقصك بتساعدك فيه، عندك بعد زوجة يوسف رجعت.. مو غريبة لا تستحين منها في النهاية هي بنت عم ريم"

تتسع ابتسامتها: "مافي شي ناقصني ثامر، كل شي انتهينا منه.. اللي مو قادرة ألحق عليه موصية ريم فيه"

تنوي الخروج إلا أنه أوقفها مجددًا بتردد: "وعمامك؟!"

تعقد حاجبيها بابتسامة صغيرة: "كلمت ندى، تعذرت بتعب ولدها.. بس أمها جاية بعد يومين تجلس عند جدتي هالفترة"

يهز رأسه إيجابًا بهدوء وهي تغادر السيارة، يعود بطريقه إلى المنزل.. بعد الإفراج عن عبدالله قبل عام حمل رحاله وأمه وأخته وابنها إلى مدينة جدة، هاربًا من كل ما يذكّره بالماضي، لا يرغب أبدًا بمقابلته.. لكن لأجل رغد تمنّى لو

تلتف عائلتها حولها ليلة زفافها وإن كان التفافًا شكليًا فقط، يدرك أن عائلتها أحد أسباب إصرارها على إقامة حفل زفاف صغير مقتصر على أقرب الأقربين، مع ذلك اطمأن لعودة زوجة عمها لأجل جدتها.. لو لم تحضر لاضطرا لإلغاء سفرتهما القصيرة إلى إيطاليا، شهر عسل تقلّص إلى عشرة أيام بسبب وجود أخيها الصغير محمد، لا ينكر بأنه لو لا (بنت الشيخ) التي تتمتّع بعلاقة قوية مع محمد وإصرارها على أن يبقى بجوارها خلال العشرة الأيام للجأ إلى تأجيل سفرتهما حتى مدة يجهلها.

يعود إلى المنزل حاملًا سريرًا صغيرًا لنورة ليجد عمه ياسر في استقباله أمام الباب، وما إن وضع السرير في غرفة يمامة القديمة ذاتها يصله صوت عمه: "ما ودي أتعبك أكثر، بس لو تحطه في جناح نجد القديم ببيتي"

علاه الاستنكار مستغربًا، في كل زيارات يمامة ونورة تبيت في ذات غرفتها القديمة في منزل ثامر كأمر بديهي، ليتابع ياسر بابتسامة: "وشركة التنظيف اللي تعاملت معها قبل يومين كلمهم يجون ينظفون الجناح بكرة"

تزيد عقدة حاجبيه: "بس عمي معليه حتى وإن سافرنا يمامة قريبة منكم، ما يحتاج ننقلها"

ألقى عليه ثقل المفاجأة ورحل: "لا، نجد كلمني قبل أسبوع، حجز معهم تذكرة جاي يحضر عرسك ومكانه هو وعياله عندي"

لم يُصدّق أبدًا آمال عمه، كان الجميع يلحظ ابتسامة ياسر وخفّة روحه منذ أسبوع لكن دون أن يدركوا السبب، ظنّ ثامر أن حالة عمه المنشرحة ليست إلا بسبب عودة زوجة يوسف، لم يُصدق اليمامة كذلك وهي تؤكد عليه قرار نجد.. تشارك مع يوسف تكذيب الأمر مقتنِعَين بأن هذه ليست سوى أمنية يتمنّاها نجد قبل ياسر ولن يقوى على فعلها، لم يُصدّق الأمر سوى هديل ووالديها، وحدها من كانت لا تترقّب عودته.. خوفًا على حال أبيها المنكسرة، تثق بأن نجد وإن كان بجوار والدها لن يزيده سوى ألمًا أكبر بصدوده، طيلة هذه السنوات يكتفي برسائل رسمية أو مكالمة معايدة سريعة لا تتجاوز بضع دقائق، وفي كل مرة

يعودان ثامر ويوسف محمّلان برسائل نورة الطفولية إلى ياسر تغرق بسؤال يملؤها غيظًا من نجد، أين والدها من كلّ رسائل نورة؟ أليست حفيدته؟ يكتفي كل مرة بهدية باسم نورة تعلم تمامًا بأنها ليست من نورة.. وربما لم يتخيّرها هو، مجرد طلبية مغلّفة وإن كانت باهظة الثمن لكنها أبعد ما تكون عن هدية ابن لأبيه، ألا يدرك بأن ورقة صغيرة تحمل رسمًا منها قد تنتشل أباها من اكتئابه شهورًا؟ ورقة قيمتها بعينه تتجاوز أضعاف قيمة ساعة باهضة الثمن كهديته الأخيرة في العيد؟ لا ترغب أبدًا بأن تحمل في قلبها مثقال ذرة من بغضاء اتجاه أخيها الوحيد تنفيذًا لوصية والدها الدائمة (يا بنتي اعذريه، هذا أخوك.. لو حملتِ كره لكل الناس أهون ولا تحملينه لأخوك) أيظنّ علاقتهما مثل علاقته هو بأخويه الراحلين؟ وهما لا يعرفان عن بعضهما سوى ما يعرفه الغرباء؟ قابل حماسها وشغفها لمعرفته ببرود قاتل، في زياراتها المعدودة لهم مع يوسف يعاملها كما يُعامل الرجل امرأة أجنبية عنه.. يحاول سحب يوسف بعيدًا إلى مجلس الرجال أو خارجًا ليتركها بمفردها مع اليمامة وابنته، حتى باتت تكره السفر إليه، تمنّت لو كان هو ذاته نجد الذي يحادثها برسائل نصية.. وإن كانت تغلبه

الرسمية إلا أنه يبادر بالسؤال عن أحوالها، بأوقات نادرة يكتب لها معتذرًا عن حاله راجيًا منها أن تتفهمه.. لكنها سئمت من انتظاره وهي ترى والدها يذبل كل ليلة بسبب جفائه.

هبطت الطائرة ليصدّق من كان يُكذب، ويتيقّن من كان لا يستبعد الأمر.. هبطت وهبط معها نجد ليثبت للجميع قدرته على تجاوز كل شيء في سبيل رؤية حادي العيس مجددًا.

كما طلب وأصرّ لم يستقبله أحد سوى يوسف الذي حمل نورة ويمامة إلى يعقوب، لم تعترض اليمامة، تعلم تمامًا حاجة نجد لأن يكون مع ياسر وحدهما..

وكما اتفقا، حمل نفسه إلى الصحراء.. حيث تهدأ نفسه، حتى تتجرد كل الصورة أمام عينيه ولا يبقَ منها شيء سوى والده، حتى يبكي كما يشاء، يتعرّى بشوقه وخوفه دون ضوضاء المدينة.. خائف من الفشل؟ نعم ولا ينكر ذلك، لكنه سئم من انتظار انتزاع خوفه.

تغيب المباني المرتفعة عن ناظريه، الطرقات المزدحمة خلّفها وراءه، لا شيء أمامه سوى لمعان الرمال الذهبية وزرقة السماء الصافية، يغوص أكثر داخل الصحراء متتبعًا موقع ثامر، حتى تراءى له بيت الشعر والسيارة القريبة بجواره، ازدرد ريقه بتوتر.. قلبه عاود الاضطراب، كلما اقترب أكثر شتّت أنظاره عن موقد الحطب والجسد الجالس بجواره، بدأ صوته المضطرب يخرج بهمس مرددًا سورة الشرح، مرارًا وتكرارًا.. حتى تقدّم إليه ثامر مقتربًا من السيارة، أوقفها أخيرًا، لم يستوعب إن منظره كان يدلّ على توتره إلا على صوت ثامر المذهول وهو يسلّم عليه:" الله أكبر شفيك تتصبب عرق؟ هذا واحنا بعز الشتا!"

للتو لحظ نفسه، جبينه مبلل بالعرق، وأطرافه ترتعد بتجمّد.. نقيضين جمعهما جسده علّه يتهيأ لما سيراه، خرجت ضحكته متوترة وما زال يهرب من ذاك الجسد المنشغل مع الحطب.. كان ثامر يقوده إليه مستمرًا بحديثه الذي لا يفقه نجد منه شيئًا، وهو يتمتم عليه بردٍ لا يعيه..

وذاك الكائن النوري يجذبه بهالته العجيبة، فروته البنية تغطي كل جسده، وجهه ملثمًا بغترته الثقيلة.. لا يرى منه سوى ذراعيه الممتدة إلى الإبريق دون أن يتزحزح من مكانه أمام الموقد.

وقف عن يمينه لا يفصلهما سوى نصف متر، تجاوزه ثامر إلى الموقد ليجلس أمام عمه متدفّئًا بالنار وهو يدندن: "يا موقِد النار في قلبي لها شُعل.. تأتي وتضرمها يومًا وترتحلُ، يا من ترفّ على الأهداب في خجلٍ، لو لاك لم يستفق في خدي الخجل.."

يُدندن، ليُهدّئ نيران نجد.. الذي ما زال عالقًا في مكانه لا يجرؤ على التقدم خطوة واحدة، يزمّ شفتيه ليمنع ارتجافها، حتى تجمّد في مكانه فجأة على رؤية ياسر أخيرًا ينفض يديه ليقف معتدلًا باتجاهه.. أنزل أنظاره سريعًا إلى الأرض، يقي عينيه من سطوع النور الصادر من ذاك الملَك.. مجمّدًا في مكانه، يُجبر عينيه على عدم الحراك.. أنفاسه بدأت تتعالى مع اقتراب ياسر أكثر، حتى وقف أمامه.. بدأ سمعه مجددًا يفارقه، لا يسمع سوى صوت أنفاسه.. تهزمه

ملامحه، مطأطئًا رأسه وصوت اضطراب أنفاسه يعلو يشعر بذراعين ممتدة تسحبه لتدفنه وسط النور، يتماهى داخله.. ينصهر وسط ضيائه، يُغمض عينيه.. يرى وسط ظلام عينيه وضياء جسد والده طفلٌ صغير يركض بداخله، طفلٌ صغير يضحك.. يلعب ويجري، يُنادي بارتفاع صوته (يبه)، طفلٌ صغير ألِفه كثيرًا.. يشبهه تمامًا، طفل ليس سوى نجد الصغير..

يحتويه ياسر بذراعيه، يتردد البكاء في صدره.. هذا نجد، عاد إليه.. طفله الصغير الذي ملك كل قلبه وجوارحه، ابنه الذي تشكّل من قلبه منذ اللحظة الأولى، عاد إليه.. ليقطع كل خوفه من أن يموت دون أن يعود طفله إليه.

حرّره من ذراعيه، ليجد وجهه ما زال مطأطأً يُخبئ نفسه عن النظر إلى عيني والده، حاول رفع وجهه بكفّيه ألا أن عظامه كانت مخشّبة ترفض الانقياد له والنظر إليه.. شفتاه ترتعش كارتعاش يديه، جبينه مجعّد إثر عقدة حاجبيه القاسية.. يُناديه بصوته الحنون الخائف: "نجد يبه"

إلا أنّ نجد لم يُبد تحولًا يُنبئ عن ردة فعل إلا حينما وصل صوت ثامر قريبًا هامسًا: "عمي.."

تشبّثت أنظار نجد نحوه، وسط توجّع ياسر.. ليتحرر نجد من كفيه مأخوذًا إلى ثامر بصمتٍ مطبق، يجرّه ثامر إلى الموقد، يُجلسه بهدوء ليجلس كالطفل.. يهمس ثامر: "نجد؟ تسمعني؟"

يزفر براحة كبيرة ثامر ونجد يهز رأسه إيجابًا وعيناه مسلطة على النار، يطبطب على ظهره بهدوء وياسر ما زال واقفًا في مكانه: "نجد عارف وش يصير؟"

يعود مجددًا لهز رأسه إيجابًا، ليتابع ثامر: "وش يصير الحين؟"

يبتلع ريقه الجاف، تهتز عينيه ويهمس خافت: "أنا.. عند أبوي"

يهز رأسه ثامر تأكيدًا: "ايه، لا تشيل هم.. كلمت دكتورك، طبيعي التوتر.. هذي ردة فعل طبيعية، كم ساعة وتبدأ تهدأ، حتى عمي عارف.. علمته وش ممكن يصير، لا تخاف كل شي طبيعي"

يهز رأسه بهدوء، يعود صوت ثامر: "الحين أناديه يجلس معنا؟ ولا ودك ترتاح شوي؟"

تعود الرعشة إليه، يتكتّف كمن يبحث عن الدفء: "بموت برد"

من يراه يظنه أبعد ما يكون عن البرد، على برودة المكان إلا أن ثوبه الأسود تبلل من شدة تعرقه.. وجهه وشعره مبللان وكأن كوبًا من الماء صب على رأسه، يخلع ياسر فروته ليُلقيها إلى ثامر الذي دثره بها، يلتقط أنفاسه مرارًا.. يُسقيه ثامر ماءً، حتى هدأ ..

على بعد بضع خطوات ما زال ياسر واقفًا في مكانه، يطلق حسراته بألم.. أخبره ثامر بكل ما قد يحدث، بأن يضع في

حسبانه رفض نجد، تدهور حاله لساعات.. هيّأ نفسه لذلك، لكن لمَ يشعر بقلبه يعتصر؟ بعد عمر كامل يُصبح مصدر خوف وتوتر لابنه؟ يمسح عينيه المغرورقة بالدمع.. لا بأس، كل هذا أهون على قلبه من أن يستمر بكذبة عظيمة تلحقه إلى قبره وقبر الجوزاء ووالدها، أهون من أن يكون لقاؤهما هذا في يوم عظيم ونجد يقف أمامه يقتص منه.

تصل إلى أذنيه همهمة نجد لثامر دون أن يعي ما يقوله، وسرعان ما علت الدهشة ملامح ثامر إلا أنه هزّ رأسه واقفًا :" أبشر! "

اقترب من عمه وبابتسامة استنكار:" يقول قل لأبوي يصلي فيني! "

تسترخي ملامح ياسر، يهز رأسه إيجابًا ليتجاوز ثامر ومن بعده نجد.. يتجه إلى القبلة، ليس وقت صلاة.. ما بين العصر والمغرب، لكن لا بأس، سيُصلّي به لله صلاةً مطلقة

يدعوه فيه أن يهدّئ روعه وأن يردّه إليه كما ردّ يوسف ليعقوب، ما إن ارتفعت كفيه وصوته: "الله أكبر"

شعر بنجد خلفه يمشي بخطى ثقيلة حتى استوى واقفًا عن يمينه، يُكبّر خلفه.. ما إن استوى صوته هادئًا: "ولسوف يعطيك ربك فترضى، ألم يجدك يتيمًا فآوى، ووجدك ضالًا فهدى...."

أجهش نجد بالبكاء، ليصمت ياسر متعبّرًا للحظة، يُتابع قراءته بصوت خاشع، يزيد بكاء نجد في سجوده.. يضيع صوت ياسر أكثر في ركعته الثانية، لا يقرأ بعد الفاتحة سوى آية واحدة: "هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً"

ليركع مسرعًا ونحيب نجد يصله وهو يصلي بجواره، وثامر يتقدم إليه ضائقًا محاولًا استعجاله في الصلاة.. ما إن أنهى صلاته أسرع ثامر ممسكًا بنجد، إلا أنه تحرر منه لينكبّ على أبيه، يبكي وصوته يخرج ثقيلًا: "سامحني يبه"

لا يعلم كم دام انهيار نجد وهو يشاركه انهياراته، لا يعلم كم مضى من الوقت حتى توقف بكاؤه.. كل ما يدركه أنه كان يشاطره البكاء، وكلما ارتفعت أنظاره لثامر وهو يسقيهما الماء وجده يمسح وجهه مسرعًا حتى لا يرى عمه أو نجد تأثره..

انتصف الليل، تحلّقوا ثلاثتهم حول مشب النار داخل الخيمة، نجد صامتٌ مدثرٌ بفروة أبيه.. وياسر بجواره يتأمل فرقعة القهوة، أما ثامر وحده من كان يستلم دفّة الحديث، يعلّق عمه على أحاديثه بين الفينة والأخرى.. ونجد يكتفي بابتسامات صغيرة، لا يرفع ناظريه إلا حيث ثامر وما إن يتحدث والده يشتت أنظاره سريعًا إلى الحطب المشتعل.

بدأ صوته بالخروج رويدًا في اليوم التالي بأحاديث صغيرة.. عيناه بدأت بالنظر ناحية أبيه لثوانٍ معدودة قبل أن يشتتها، حتى انفكت عقدة عينيه في اليوم الثالث، تشبت عيناه بوالده طويلًا وهو يُلقي أحد أحب القصائد على قلبه :

" أدر مهجة الصبح،

صبّ لنا وطنًا في الكؤوس

يدير الرؤوس

وزدنا من الشاذلية حتى تفيء السحابة

أدر مهجة الصبح

واسفح على قلل القوم قهوتك المرّة المستطابة

أدر مهجة الصبح، ممزوجة باللظى

وقلّب مواجعنا فوق جمر الغضا

ثم هات الربابة

هات الربابة.."

اتسعت ابتسامته مع صوت والده، راح يردد معه بقية القصيدة.. بدأت ضحكاته تنتشر، عيناه الذابلة اتسعت، روحه انتعشت.. ليطمئن ثامر أخيرًا وهو يرى عمه يتشارك مع نجد إعداد الكبسة، صوتهما عاد أخيرًا كما اعتاده صغيرًا..

خمسة أيام منعزلين في الصحراء هدّأت روعه، أدرك مدى معرفة ياسر به عندما اقترح أن يكون لقاؤهما الأول في الصحراء، حيث تكون الأرض أمًا بعيدًا عن تهجين المدينة..

كانوا يحزمون أمتعتهم منهيين رحلة تصفية النفس عندما نطق ياسر بهدوء: "نجد، مثل ما اتفقنا.. نروح الحين نزور يعقوب"

زمّ شفتيه، متذكرًا حديث والده البارحة وهو يُخبره بسوء حال يعقوب، رجاؤه له بأن يزوره معه.. حتى لا يأكله الذنب، ابتسم بهدوء: "تامر يبه"

بين أشجار المزرعة، يمشي وبيده عصاه.. ابتسامة صغيرة تلوح على شفتيه، خمسة أيام برفقة نورة كانت كفيلة لأن تنتزعه من اكتئابه، رزقه الله حبها عوضًا عن حبّ أبيها له، يُطرب لسماعها تناديه (جدي)، يستغفر الله على حديثه لزوجته منى عندما علِم بعودة نجد، كان الحزن يأكل قلبه.. أكثر ما كان يردده لها (ليتني ما رجعت، ليتني دفنت يعقوب للأبد.. كل اللي أبيه يرجع الزمن وأعيش معك ومع هديل وحدنا بعيد عن كل شيء، ولا أهدم حياة ولدي وأشوفه ينبذني).

كان اليأس يأكله، والمرض أنهك جسده، وحالة ابنته هديل تؤلمه.. ظنّها تركت منزلها الزوجي لأشهر لأجله وحاله المنتكسة، ليطمئن قليلًا لعودتها إلى زوجها.

يبتسم على رؤية يمامة من مسافة بعيدة تقطف مع زوجته زهور الخزامى، ما اكتشفه خلال هذه الأيام أن زوجة ابنه مولعة بالعناية بالنباتات، يتوقف فجأة على رؤية يوسف مستندًا على جذع الشجرة بابتسامة ترقّب.. عقد

حاجبيه وسرعان ما أشار له يوسف دون صوت نحو نورة التي تهرول بحثًا عنه، وما إن خطا خطوته الثانية ازدادت دهشته ورأسه يعلو ليجد هديل متسلقة إحدى جذوع الشجر، كاد ينطق مستنكرًا إلا أنها أشارت إليه بسرعة ليُصمت.. أطلق زفرة مستنكرة وهو يهز رأسه بقلة حيلة.

يُعيد أنظاره إلى نورة التي وصلت إليه وسرعان ما نطقت بهمس: "جددددي وين هديل وعمي يوسف؟"

يبتسم بخفّة، يُشير بإصبعه إلى الأعلى ليخرج صوت هديل مستنكرًا:" غششششش ليه يبه؟! "

يخرج يوسف من خلف الشجرة لينطق مستنكرًا: "هديل؟ بعقلك طالعة فوق؟"

باغتته نورة مسرعة ممسكة بساقه:" مسكتك! "

تنزل هديل بغيض مازح:" أنا بطّلت ألعب، لأن حضرة جدك يغش! "

تنهي حديثها على قبضة يوسف:" مسكتك! يلله نورة دور هديل"

تنقضّ على والدها: "مسكتك! دور جدو خلينا نشوف الحين مين يساعدك"

يُمسك بكف نورة:" لاАА أنا ونورة واحد، ولا يا نورة؟ "

تضم ذراعه الممتدة إليها، لتباغتها هديل بقبلة قوية:" حبيبي أنا آكلك؟"

تختبئ خلف يعقوب الذي نطق وهو يجرها إليه ضاحكًا:" الله يبلغني وأشوف عيالكم"

عند هذه النقطة تبدّلت ملامحهما، شتت أنظارها بعيدًا.. ليعود صوت يعقوب وهو يجر نورة بخفة:" يلله بسرعة نورة، خلينا نهرب من عمتك المزعجة"

ركضت الصغيرة مسرعة ممسكة بيد يعقوب، ابتعدا مخلّفين هديل ويوسف وراءهما صامتين، أطلق زفرة مرتفعة.. نقل أنظاره إليها وهي تقترب منه، أمسكت بذراعه لتسيّره معها خلف والدها ونورة.. مرّر إبهامه حيث تقبع سوار السبحة، متحسسًا ما تبقّى منها.. لم يبقَ منها سوى خرزة واحدة فقط، خرزة واحدة تعني أسبوعًا واحدًا، ستة أيام فقط.. وبعدها إما فراق أبدي أو تخلّيها عن حلم أمومتها معه، الثلاثة أسابيع الماضية كانت أروع أيامه معها، عادت هديل التي يألفها.. دون أي جدال اعتاداه مسبقًا بخصوص رغبتها بالإنجاب وإصراره على رفض الأمر، ما يقلقه كيف سيتلقّى أهلهما خبر انفصالهما؟ الجميع ظنّ أن عودتها إليه عودة نهائية.. لا أحد يعلم بأنها بداية النهاية عداهما.

توقفت خطاه على ارتفاع رنين هاتفه، تلقّى مكالمة نجد لينقل ليعقوب بابتسامة: "أبوي ونجد في الطريق"

استقبلهم يعقوب بخيبات تتوالى، ما زال يتلقّى الجمود من نجد.. وإن حاول الابتسام بين أحاديث والده، حتى

اليمامة ما إن علمت بقدوم ياسر ارتدت حجابها لتستقبله بحب كبير، ونورة الصغيرة نسيت كل شيء أمام ياسر لتنشغل معه وحده، أدرك حينها أن لا مجال له لأن ينافس ياسر بحبّ عائلته له.

لم يقطع المنظر البديع أمام عيني يمامة وهي ترى نجد أخيرًا يتوسّط ياسر سوى صوت ثامر المغتاظ بمزاح: "في وحدة قايلة أنا جاية عشان أساعدك وأفرح فيك وصار لها خمس أيام ساحبة علي! وش أسوي فيها؟ أذبحها ولا أخطفها ولا أخطف بنتها؟"

غادرت مع ثامر الذي لم يمكث سوى دقائق متعللًا بانشغاله لإتمام ما تبقّى من زواجه القريب بعد ستة أيام، لم ينتصف الليل إلا وياسر يُغادر مع يوسف.. لم يبقَ سوى نجد ونورة مع يعقوب وعائلته. كان ينوي الهروب كذلك لاحقًا بياسر ويوسف إلا أن رجاءً من ياسر جعله يتراجع على مضض.

ابنته نامت بحضن هديل ليغيب صوتهما عنه، حلّ صمت رهيب على أرجاء المكان وجميعهم هجعوا نائمين.. عداه هو الذي جافاه النوم، شعور بالغربة يلفّه، مهما حاول لا يُمكنه تخيّل أن تكون هذه عائلته.

قبل بزوع الشمس خرج مستنشقًا الهواء، سار على غير هدى مأخوذًا بانبلاج الصبح ملتفًا بفروة ياسر، انتشار النخيل حوله ذكّره بأيامه في مزرعة خاله ناصر.. صوت العصافير يُثير طمأنينته، إلى أن شعر فجأة بصوت خطوات قريبة.

توقف في مكانه للحظة، برهة حتى ظهر من خلف الأشجار جسد يعقوب، شدّ فروته عليه متنهدًا.. لا مجال للهرب أكثر، أعاد أنظاره إلى يعقوب الذي نطق مستفهمًا دون أن يتوقف: "صحيت بدري؟ ولا ما نمت؟ "

أكمل الطريق معه عائدين وبهدوء صوته: "ما نمت"

- "لو علمتني نزلت أجلس معك"

لم يُعلّق، اكتفى بصمته.. صمت طويل حتى قاربا على الوصول إلى داخل المنزل.. عندها خرج صوت نجد أخيرًا ضائقًا: "أعرف خيبت ظنك، بس والله مو بيدي"

اهتزت جفونه لصوته، رفع رأسه بتنهيدة ثقل: "لا يا نجد.. "

تابع حديثه بضيق: "بأحوال ثانية.. ممكن كنت بكون ابن أفضل"

عقد حاجبيه بضيق موجوع، شدّت أصابعه على عصاه وصوته يخرج مقهورًا:" اللي ماحد يدري به، يوم عرفت بحمل أمك.. كنت ناوي أهجرك وأترككم وراي"

يقف مع توقّف خطى نجد، يُدير وجهه إليه ليرى ملامح باردة تغطّيه.. تابع بزفرة: "بأحوال ثانية، ممكن كنت أنا بكون الأب السيء.. وبكل الأحوال انت صاحب الحق، وقوفك الحين جنبي فوق اللي أستحقه"

شتت أنظاره عنه سريعًا، ليُعيدها ويعقوب يطبطب على ظهره: "ايه يا نجد، الله كتب قدرك مع ياسر.. وكان أكبر من أب لك، عطاك اللي مستحيل تلقاه عندي، لا تلوم نفسك.. كل هذا جزاء لأن الله عارف بنيتي، ومع هذا؟ ما تعرف شكثر تعذبت بسبب أفعالي.. ومع كل هالعذاب كنت ولدي اللي حبيته وأنا ما أعرفه، حب الأبناء مو اختيار.. فطرة نولد بها"

ابتلع ريقه ليرفع عينيه الغائرة في الرمال وبصوت جاهد أن يكون طبيعيًا: "الله يسامحك"

وخطا خطاه متجاوزًا يعقوب، مسح وجهه بكفيه على رؤية هديل تجلس على البساط وهي تلوّح لهما، تقدّم إليها ليجلس معها محاولًا تجاهل تأثير يعقوب عليه بابتسامة صغيرة: "نورة نايمة؟"

اتسعت ابتسامتها وهي تُشير بعينيها خلفه وسرعان ما شعر بالجسد الضئيل يستند عليه بنعاس وهي تحيط برقبته: "بابا أبي ماما"

جذبها إليه لترتمي سريعًا بحضنه تُصارع نعاسها: "أبشري، بس نفطر نمشي لماما"

ارتفع صوت هديل وهي تُشير إلى والدها الذي تجاوزهما إلى الداخل:" يبه تعال الفطور جاهز"

بابتسامة صغيرة: "جايك، بنزّل أمك تفطر معنا "

تحلّقوا خمستهم حول الإفطار، كان يخطف نظرات سريعة إلى يعقوب.. ليجده في كل مرة يبتسم ابتسامات عذبة، ابتسامات تشي برضاه وطمأنينة روحه.. يأخذ نورة إليه لتتدلل بقربه أكثر وهو يُطعمها بيديه.

عاد نجد إلى منزل ياسر بصحبة نورة وهديل، نام في الليلة التالية كما لم ينم مسبقًا، نومًا طويلًا مستغرقًا، وإحساس

بالخفّة يلفّه أكثر.. كل شيء مضى، ثلاثة سنين وأكثر من نصف عام انتهت أخيرًا.

•

زفرات متتابعة لم تتوقف طيلة طريقه عائدًا من زفاف ثامر، لو لا المكان الذي احتله ثامر في حياته لاختلق أعذارًا أو أجبر نفسه على السفر حتى لا يضطر لحضور الزفاف.. لا ينكر شعور الراحة الذي داهمه وثامر يخبره بأن نجد قد عاد، وقد يطول مكوثه حتى يستقر عمله في الرياض إلا أن الزفاف كان ثقيلًا على قلبه وهو يرى نجد متوسطًا ياسر ويعقوب، سلامه على يعقوب كان سلامًا مقتضبًا على نقيض سلامه مع ياسر.

لم يُفلت ياسر كف ناصر حتى نطق مؤكدًا وهو يشدها: "بكرة غداك عندنا"

هزّ رأسه إيجابًا وكل ما تمناه أن يعتقه ياسر، وكما كانت أمنيته.. أعتقه لاقتراب نجد الذي كان منشغلًا بالسلام على الرجال وما إن اقترب سلّم عليه بحميمية كبيرة: "السموحة منك خالي، كنت بزورك قبل بس انشغلت مع العريس"

أذهله وجه نجد، كان مختلفًا عن وجهه بزياراته القليلة الماضية.. يشبه نجد القديم لكن دون إزعاجه، لا أحد يعلم كم كان تأثير رؤية نجد بخير على قلبه سوى الله.

غادر بمزيج من المشاعر، علته الدهشة ما أن تراءت له سيارة نجد تقف أمام باب منزله، ماذا يفعل في وقتٍ متأخر الآن؟

زاده نجد ذهولًا وهو ينطق بابتسامة صغيرة بجواره:" اشتهيت شاهي خالي وقلت أمرّه"

دخلا المنزل الهادئ بأحاديث قصيرة، ناصر يعبّر عن فرحه لثامر ونجد من جهة أخرى يتأمل زوايا المنزل الذي

افتقده، جلسة خاله الخارجية وهو يعدّ الشاي بمنتصف الليل، كأيامهما الخالية..

نطق أخيرًا بجدية: "جيتك يا خالي أبي أأكد عليك تمرنا بكرة، أعرف إن كل اللي مريت فيه صعب، بس عطي أبوي فرصة يستسمح منك، ما تعرف شكثر فاقدك"

صمت للحظة قبل أن يومئ برأسه إيجابًا: "أبشر"

ارتسمت على ملامحه الراحة، ليُتابع بزفرة رجاء: "مابي تمر الأيام وأقطع الشخص الوحيد اللي من وعيت على الدنيا وهو خالي"

يرفع أنظاره بسرعة إلى نجد، لماذا شعر بأنه يدرك للتو كونه وحده الحقيقية الثابتة في كل حياة نجد؟ إن تبدّلت مسميات الجميع فناصر ما زال خاله.

يرتشف الشاي وحديث ما لا يمكنه كتمه أكثر، يترك كوبه لينطق بهدوء: "نجد، أدري الوقت مو مناسب.. بس هالموضوع كل مل استعجلت فيه أفضل"

يشد انتباهه نجد ليتابع مكملًا حديثه: "أعرف إنك متعلق بياسر، بس الأنساب تضيع! نورة بنتك لا كبرت ولا جوها عيال وأحفاد ما يجوز يرتبط اسمكم بنسب غير صحيح"

يقاطعه سريعًا معتدلًا بجلسته: "أدري، كنت مخطط أكلمك عن الموضوع.. بس مابي أبوي يتأذى بأي طريقة"

يهز رأسه بهدوء: "لا تشيل هم، أنا بتكفّل بالموضوع وياسر بيطلع منها بأقل خساير.. أقدر أدبّر مخارج ما تظهر الموضوع بصورته الحقيقية"

يزفر بضيق: "مدري خالي، مو مستعد حاليًا.. أبي أرتب وضعي هنا أولًا، للحين ما استقريت بشكل نهائي.. يبي لي أنهي أشغالي بالعين وأثبّت الفرع هنا وبعدها بتفرغ لكل شي"

يهز رأسه إيجابًا: "مافي مشكلة، عندنا وقت.. ببحث بالموضوع هالفترة"

يُنهي كوبه ليقف: "على موعدنا بكرة؟"

يبتسم مؤكدًا له، يُغادر نجد.. وطمأنينته تسري أكثر، يعود إلى المنزل.. وإضاءاته الخافتة تنبئ بنوم أهله، وما إن حطّت أقدامه إلى الداخل ضاقت عيناه على رؤية الجسد الجالس وسط الظلام..

اقترب أكثر لتتضح له هيئة يوسف شارد الذهن: "يوسف؟"

رفع رأسه بثقل وبزفرة لا يكتمها: "هلا"

تأكد وقتها من أن يوسف يُصارع شيئًا، لم يكن اليوم على سجيته.. وسط فرح الجميع كان يخفي عقدة حاجبيه

وضيقه خلف ابتسامات زائفة، اتكأ على المقعد بذراعيه ليعود صوت يوسف بزفرة: "نجد أنا بخير، روح نام"

اعتدل بوقفته: "صاير شي؟! "

هز رأسه بقلة صبر: "لا! روح الحين نام.. لو تبي تحقق بحدد لك ساعة بكرة قبل الجمعة حقق فيها لين ترتاح، بس الحين روح نام واعتقني"

كما اعتقد، يوسف ليس بخير.. لكن لا بأس، سيتركه الآن وغدًا أمامهما متسع من الوقت..

تركه نجد وحيدًا بعدما قاطع توتره، يجلس منذ ساعة في مقعده يترقّب انفتاح الباب.. كل ما يرجوه أن يُفتح الباب وتطل عليه من خلفه قبل انبلاج الصبح، كان اليوم يومهما الأخير.. آخر أيامهما في مهلتها، غادرت إلى حفل الزفاف وكل ما يرجوه أن تعود، أن تقول له بأنها لن تتخلّى عنه أبدًا.. أو أنها غير مستعدة لحياة خالية منه، إن عادت فهذا يعني أنها

ستُكمل حياتها معه، وإن لم تعد .. طلبت منه ألّا ينتظرها بعد ذلك.

لا يعلم كم أمضى من الوقت وهو يترقّب، حتى ظن أن الباب ملّ من عينيه.. الساعات تمضي، وهو ما زال متمسكًا بأمله إلى أن تهاوى دفعة واحدة وصوت أذان الفجر يعلو..

لم يعد يرغب بسماع أي شيء، أو رؤية أي شيء.. رمى جسده على المقعد حاجبًا الرؤية عن عينيه بذراعه، تنفسه تحوّل إلى دخان من شدة خذلانه، يشعر به يكاد يحرقه، غطّى نفسه بكومة الدخان إلى أن شعر بلمسة أصابع خفيفة تضرب كفه مصحوبة بهمس خافت: "يوسف.. يوسف"

ظنّ نفسه يتوهم، ربما نام على المقعد وهذا والده يوقظه لصلاة الفجر، لكن روحه المجروحة منها أخرجت صوتها بدلًا عن صوت والده.. بتثاقل أبعد ذراعه عن عينيه، جمد على وضعيته للحظة.. هل هذه هديل حقًا؟ أم أن طيفها أتى ليوقظه؟

فجأة هبّ جالسًا بسرعة وعيناه المتسعة تحدّق فيها، خرجت ضحكتها الصغيرة لتعيده إلى وعيه: "يوسف! شفيك بسم الله؟! "

باتساع عينيه راح يضرب خدها بسبابته ضربات خفيفة: "هديل؟ "

ما زالت على جلستها أمام المقعد: "يوسف بسم الله صاير لك شي؟ ليه نايم هنا؟"

أنهت كلامها وهي تقف تجر كفه معها: "قوم توضا وصلي"

تبدلت ملامح الدهشة إلى خيبة ثقيلة وعباءتها تتضح له، زفر بضيق دون أن يستجيب لجرها له: "رجعتِ تاخذين أغراضك؟"

عقدت حاجبيها باسمة: "لا! كنت برجع بدري مع يمامة وأبوك.. بس أبوي تعب شوي ورحت معهم، وصيت يمامة

تعلمك.. -بمزاح- خفت أتأخر أكثر وتحسبني مو راجعة وأتفاجأ بورقة الطلاق قدام وجهي! يمه بقتلك"

ما زالت عيناه متسعة غير مصدقة: "يعني؟! "

جرّته أكثر حتى وقف معها : "يعني نعسااانة دايخة بطلع أصلي وبنتظرك ترجع من الصلاة وتنام معي"

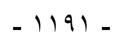
أخيرًا انشرحت أساريره، سحب معصمها الذي يطوقه خيط صغير يتوسطه حبة السبحة الأخيرة: "وهذي؟ خلاص انتهت؟"

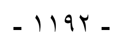
هزت رأسها نفيًا: "لأ، هذي بدل ما تكون أسبوع تمددت وصارت عشر سنين"

فلتت ضحكته الصغيرة مصدقًا عينيه أخيرًا.. لم يقاوم رغبته بتقبيلها إلا أنها سرعان ما أبعدته بكفيها مبتعدة عنه: "رووووح صل"

تأملها وهي تصعد بخطوات سريعة إلى الأعلى، لم تغب ضحكته البديعة، خرج إلى المسجد برفقة والده ونجد الذي استنكر وزاد قلقه أكثر على حاله المتقلبّة..

عادا إلى المنزل دون ياسر الذي اعتاد على الجلوس بالمسجد كل جمعة حتى شروق الشمس، صلّى صلاة الضحى بقلب يضجّ شكرًا لله على كل شيء.. ثامر، من كان تجربته الأولى بأن يكون أبًا بعد كل ذاك الضياع زُفّت إليه أحب الناس إلى قلبه وبعد ساعات رحلتهما إلى المكان الذي كانت تحلم به، يوسف.. من ما زال يتكبّد عناءً حتى يفهم تقلباته ينام الآن بجوار زوجته باسمًا، أما نجد.. فقد عاد إلى قافلته، مسيّرًا بحداء حادي العيس.





*•

مخرج:

*•

فوق كثبانٍ رملية، والرمال الباردة تتخلل أقدامهما.. يتأمل أحدهما غروب الشمس بنفسٍ مطمئنة، والآخر يجلس بجواره يعبث بسبحته الجديدة، سُبحة أهداها له الآخر ليلة البارحة وهما يتجولان معًا في الشوارع بعد صلاة العشاء.. استوقفهما بائعٌ جوّال يعرض بضاعته برجاء، ليشتريها يوسف ويُلقيها على رفيقه هازئًا (خذ، هدية تسواك)

يتأملها الآن بهدوء، ينقل أنظاره لرفيقه الذي تمدد على الرمال باسترخاء مغمضًا عينيه، يبتسم بهدوء ويده تمتد بخفّة لتسحب محفظته دون أن يشعر.. يستلّ ورقة ممزقة تحتفظ بأربعة أوجه، وجهه هو ورفاقه الثلاث، التُقطت الصورة في إحدى الأمسيات الثقافية في المكتبة العامة قبل أيام عديدة، حضروها مجبرين حتى يُشاركوا ياسر بعض ساعاته علّهم ينتزعونه من ركوده الغريب منذ وفاة شقيقه، ليتفاجأوا بصورتهم تُنشر بين صفحات المجلة.. تجادلا قبل ثلاثة أيام بسبب من يحتفظ بالصورة، حتى فاز بها يوسف وهو يدسها بمحفظته مرددًا (بحتفظ فيها وأقول لعيالي أبوكم كان شخص مشهور صوره بالمجلات والجرايد).

كان ما زال مسترخيًا دون أن يشعر بنجد الذي استلها من محفظته وسرعان ما دسّها بالفتحة الصغيرة بمأذنة سبحته، المكان الوحيد الذي لا يظنّه قد يخطر على بال يوسف.

- "نجد"

لفّ سبحته حول معصمه بذات ابتسامته الماكرة ويوسف يتابع: "ما ودك نعرس مع بعض؟"

مدّد ساقيه أمامه متأملًا السماء الصافية: "أبدًا، باقي ما فرّغت طاقتي بالحياة.. لا مليت منها بفكر بمرة وعيال"

فتح عينيه أخيرًا وضحكة صغيرة تنساب منه، يعود صوت نجد: "الشباب وصلوا -تتسع ابتسامته أكثر على رؤية شاحنة الخيول- والخيول وصلت"

يعتدل واقفًا بسرعة، يراقب فوج السيارات القادمة.. يتقدّم مع نجد مرحّبًا بالشباب القادمين، وسرعان ما تهللت ملامحه على رؤية سيارة شقيقه يعقوب، حضر أخيرًا.. جسده من كان حاضرًا دون روحه، لم يرغب بالمجيء لو لا إصرار يوسف عليه حتى يتحرر من ضيقه الذي بات يلازمه منذ أسبوعين دون أن يُطلعه على السبب، ساعة أخرى حتى انضمت إليهم سيارة ياسر.. هو الآخر كان ضائقًا وإن

حاول تشتيت ضيقه مع بقية الشباب، وقبل حلول الفجر بنصف ساعة غادر متعللًا بأن ابن أخيه اليتيم مُتعب.

دخل وقت صلاة الفجر، وسط ضوضاء الشباب.. ليوقف يعقوب عن التهام سجائره، توضّأ مع نجد ويوسف يصبّ لهما الماء ليأخذ دوره بعدهما..

خلع يوسف شماغه الذي كان يتعمم به ليفرشه أرضًا خلف إمامهم، اصطفوا معًا مصلّين خلفه.. صلاتهم الأخيرة، وما إن سلّموا جميعًا خرجت ضحكة صغيرة من نجد على رؤية يوسف ما زال جالسًا في مكانه يردّد شيئًا ما بهمس: "ما شاء الله! من متى الصلاح؟ تقرأ أذكار الصلاة ولا تدندن؟"

ابتسم ابتسامة خفيفة، متذكرًا شقيقه موسى وهو يحثّه في كل مرة بعد كل صلاة (آية الكرسي أقل الذكر) لا يعلم لمَ تذكرها في هذه المرة وهو الذي دائمًا ما يتناساها إن لم يُذكّره موسى.. أنهى ما يقرؤه لينتشل شماغه : "آية الكرسي.. عشان لا متّ تفارقني، أنا أضمن الجنة وانت تطلب الشفاعة"

اتسعت عيناه بذهول: "أعوذ بالله.. "

تمتم بهدوء قارئًا آية الكرسي على صوت ضحكة يوسف الساخرة، اعتليا خيولهما حاملين أسلحتهم، يسيران بجوار بعضهما دون توقّف مزاح أحدهما على الآخر.

يسخر يوسف منه مرددًا: "أثبت لي إن مستواك تحسّن"

يتوقف نجد في مكانه مشهرًا سلاحه بتحدٍّ: "حدد لي هدف"

يستمر يوسف بسيره على خيله حتى تجاوزه بأمتار عديدة، يرفع قارورة الماء بكفه يُشير له بأن يُصيبها.. يضحك نجد ساخرًا ليرمي طلقته الأولى ليُصيب الهدف تمامًا، يرفع بدوره قارورته من نفس البُعد ليُصيبها يوسف بثقة كبيرة، وسط ضحكات الشباب وتملل بعضهم.. إلى أن علا صوت شاب يستقل سيارته قربهم بسخرية: "يا شباب بتذبحون بعضكم، ورانا سحور ما نبي نأجله بسبب دفن"

يُزيد يوسف المسافة أكثر وبصوته المرتفع يرفع قارورة أخرى: " معليك منه يا نجد، يلله آخر وحدة"

يرفع سلاحه مجددًا، تنطلق الرصاصة منه في ذات اللحظة التي اضطرب فيها فجأة حصان يوسف.. اسودّت الدنيا في عينيه، غابت جميع الأصوات عنه.. عيناه المتسعة كادت تخرج من مكانها وهو يرى يوسف يسقط أرضًا، كل شيء أصبح ضبابًا أمام عينيه.. حتى روحه غطاها الضباب، جسده لم يقوَ على ثقل السلاح أكثر، أسقطه بجواره.. تحرر من حصانه ليهبط أرضًا وعيناه لا ترى سوى يوسف البعيد ملقىً على الأرض وحوله بدأ يتهافت الشباب.. لا يوسف يمزح كعادته، سيستوي جالسًا الآن ناشرًا ضحكاته الشامتة على ملامح الخوف بعيني نجد، نعم.. يُجزم بهذا..

وفجأة، شعر بالحرارة تسلب حركة جسده، تهاوى أرضًا.. ماذا حصل؟ لا يعلم.. غطّت عيناه في سباتٍ عميق، إلى أن أفاقت فجأة.. وجد نفسه في صحراء شاسعة، لا أحد معه سوى يوسف الضاحك، السماء غريبة.. الأرض كذلك

غريبة، جسده غريب.. وجه يوسف غريب، كاد يسأله (ماذا حصل؟) إلا أنّ أفواجًا من الناس التفوا حوله، هذا والده يبكي.. شقيقه الصغير ناصر تشلّ ملامح وجهه الصدمة الموجعة، ياسر تائه.. وكأنه يبحث عنهم، هلع من المنظر.. راح ينادي الجميع دون أن يجيبوه، ليأتي صوت يوسف باسمًا :" ما يسمعونك"

اختفى الجميع، عدا يوسف.. يجلس بجواره على رمال الصحراء، نعم بدأ يفهم الأمر، كل شيء أصبح واضحًا.. ارتسمت على شفتيه ابتسامة صغيرة، يرى المارين حوله.. هناك جده، وبالجهة الأخرى أمه.. تدفّق الناس إليه، والده الآن ينضم لركبه.. الجوزاء كذلك، رأى عمر شقيق ياسر.. ثم نورة زوجة ياسر، الجميع مثله.. عدا ياسر وثلاثة أطفال صغار لم يقطعوا وصله، فلتت ضحكته مع يوسف وهما يسمعان ياسر ينادي الطفل الأول (نجد، تعال..) والطفل الآخر (يوسف، ادعي لهم) وثامر، كبر كثيرًا .. إن أتى للزيارة يقف على قبر أمه وأبيه، ثم يتجه يسارًا إلى قبر لرجل يُدعى خالد.. وآخر (سعود).

يُعيد أنظاره سريعًا لصوت يوسف مستبشرًا (هذا يعقوب!)، انضم إليهما يعقوب جالسًا على الكثبان الرملية، انضمت صوت ضحكاته إليهما، علما منه أن روحه غادرت الحياة بعد زفاف ثامر بشهرين، أما ياسر.. استمر طويلًا بالسلام عليهم بصحبة الأطفال الثلاثة الذين كبروا كثيرًا حتى أصبح أكبرهم يدخل المقبرة ممسكًا بكفّي طفلين صغيرين يشبهانه كثيرًا (خالد، وسعود).

وذات صباح، قدم ياسر وحده.. انضم إليهم فوق الكثبان حتى عادوا أربعة كما كانوا صغارًا..

تتسع ابتسامة ياسر وسلام ودعاء نجد يصلانه، يتمتم: "الله يجمعني فيك.. وبأبوي وأمي"

يمسح وجهه بكفيه بعدما ألحّ بدعائه لكل من فارقه، وسرعان ما أزاحها على صوت ضخم: "عمي نجد، سعود يبي الحمام"

تتسع عينا الآخر: "أنا؟؟؟ يا نصاب! والله عمي هو يقول تأخرنا والمباراة بتفوتنا"

يزم شفتيه واقفًا: "يلله الحين بنمشي"

ما إن دخل السيارة يرتفع صوت رنين هاتفه، أخرجه ليعقد حاجبيه مستغربًا وهو يرى الصورة التي تظهر مصحوبةً باسمها (نويّر عيني) نعم، هي من سجّلت رقمها وهي من اختارت الاسم وكذلك وضعت صورة تعرف كم يحبّها نجد، صورتها بعباءة تخرجها من المرحلة المتوسطة وبجوارها يقف (ياسر) والشيب يغطيه باسمًا، أطلق زفرته بابتسامة وهو يجيبها: "هلا يا -وبتشديد أحرفه- نويّر عيني"

وصل صوتها هامسًا "يبه، لا تنسَ اللي وصيتك عليه"

عقد حاجبيه سريعًا وهو يفتح مكبّر الصوت ليشغل السيارة: "وش اللي موصيتني عليه؟!"

أطلقت زفرة غاضبة: "باباا! منجدك؟ طلبية الورد!"

ارتفعت حاجباه بابتسامة متذكرًا: "أيووووه يوم الأم؟"

يصل صوت مرتفع من خلفه : "لن نحضر، عندنا مباراة.. سمعتِ يا نورة؟ لن يحضر أحد"

يعود صوتها غاضبًا: "ما في أحد طلب منك تحضر سيد خالد، أصلًا أنا قايلة ممنوع دخول الذكور حفلة خاصة بالأمهات سمعت؟؟؟"

يأتي صوت الآخر:" أنتِ كل يومين عندك حفلة؟! شهالفضاوة"

- "مالك علاقة يا بزر انت وأخوك، أختكم تكفي عن وجودكم.. بابا الغي تكبير الصوت حالًا"

يُلغي مكبّر الصوت بابتسامة: "ايوه آمري وش بعد؟"

تنطق سريعًا: "وبعد العصر تعال خذ أمي، أبي أرتب المكان مع غيد ولا نبيها تعرف"

- "أبشري، في شي ثاني بعد؟"

- "ايوه صح، الحين مر بيت عمي يوسف وخذ في وفيصل.. أبيهم يكونون معي أنا وغيد قبل الحفلة"

- " أبشري، من عيوني.. في شي بعد؟"

يصل إلى مسامعه صوت قبلة قوية: "الله لا يوجعني فيك يا عين نويّر"

•

*.

يا حادي العيسِ -فلنرحل – هلمّ بنا
فالحائرون كثيرٌ قبلنا رحلوا..
- سيد البيد، محمد الثبيتي رحم الله روحه الطاهرة، وغفرله ولموتى المسلمين أجمع.

*

تمّت بحمد الله.

٢٠ كانون الثاني من العام ٢٠٢٠ ميلادي

٢٥ جمادى الأولى، ١٤٤١ هجري.

للتواصل، تويتر: @seen_na